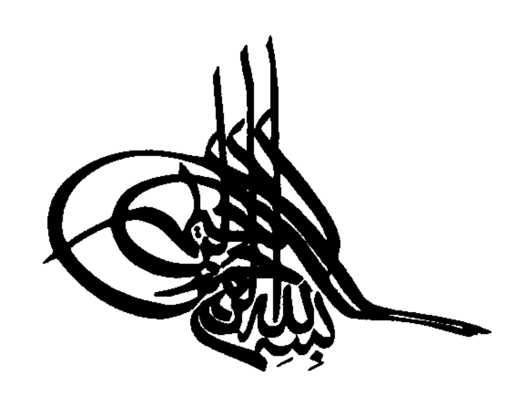
# علم اليقين

# في

# تنزيه سيّد المرسَلين ﷺ



# علم اليقين

# في

# تنزيه سيّد المرسَلين صلى الله عليه وآله وسلم

دراسة عقائدية جديدة حول

مَنْ نزلت بحقه سورة عبس وتَوَّلى


تاليف:

آية الله المحقِّق الشيخ محمّد جميل حمّود العاملي



منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م






**Published by Aalami Est.**

Beirut Airport Road

Tel: 01/450426 - Fax: 01/450427

P.O.Box.7120

**مؤسسة الأعلمي للمطبوعات**

بيروت ـ طريق المطار ـ قرب سنتر زعرور

هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ ـ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

صندوق بريد: ٧١٢٠

E-mail: alaalami@yahoo.com

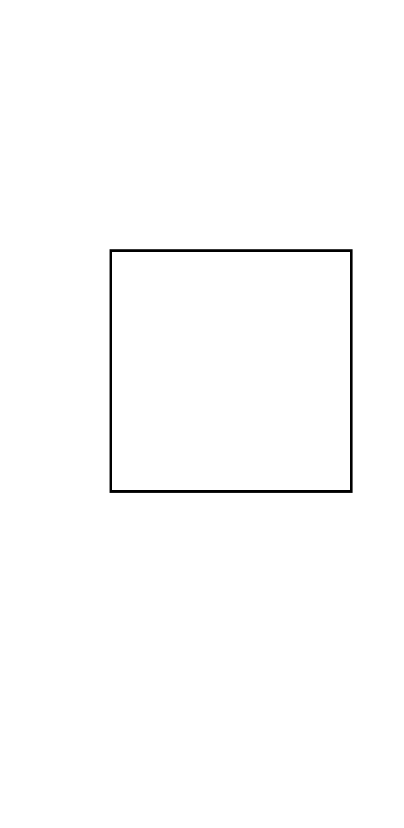
http://www.alaalami.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف/ ١٦].

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس/ ٧١ ـ ٧٢].

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب/ ٣٩].



# المقدّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق محمّد المصطفى وآله الغرّ الميامين، واللعنة الأبديّة السّرمديّة على أعدائهم ومبغضيهم ومنكري فضائلهم وظلاماتهم من الأوّلين والآخرين إلى قيام يوم الدّين.

أمّا بعد...

إنّ الكتاب الذي بين يديك ـ أخي القارئ ـ حصيلة جهدٍ وتحقيقٍ لم يسبق له نظير على المستوى الكلامي والتفسيري والفقهي والتاريخي لمسألة عقائديّة من جهة وفقهيّة من جهة أخرى، وهي دعوى أو بالأحرى تهمة عبوس رسول الله ﷺ بوجه الضّرير ابن أمّ مكتوم، فكونها عقائديّة باعتبار أنّ نفس العبوس بوجهِ مؤمنٍ جاء سائلاً عن معالم دينه، فالإعراض عنه والإقبال على المشركين ومناغمتهم يخلُّ بعصمة النبي ﷺ كرسول للأمّة وهادٍ من الضّلال والزّيغ، وكونها فقهيّة باعتبار أنّ عبوس الدّاعية إلى الله تعالى بوجه طلاب العلوم الدينيّة ومريدي الحق يعتبر فعلاً محرَّماً لا يجوز صدوره من داعية فضلاً عن سيّد الأنبياء أبي القاسم محمد ﷺ...

ومسألة العبوس التي اتُّهِمَ بها رسولُ الله ﷺ لم تكن موضع بحثٍ واهتمام من قِبَل علماء الإماميّة قبل العقد الثالث للهجرة ـ بحسب الظاهر ـ ويظهر أنّ أوّل مَن أثارها بشكل مختصر ومن زاوية واحدة هو السيد المرتضى (٣٥٥هـ ـ ٤٣٦هـ)، ثمّ الشيخ الطوسي حيث لم يزد شيئاً على كلام أستاذه المرتضى ـ أعلى الله مقامهما ـ، وهكذا كلّما مضى سابق تبعه لاحق بنفس العبارات مع زيادات طفيفة لا تثري البحث بمداليله العميقة بالشّكل الذي طرقه آية الله المحقّق الشيخ محمّد جميل حمّود العاملي حيث قام بتنقيح الموضوع برمته ومن كلّ جوانبه العلميّة والفقهيّة فلم يترك ثغرة إلاّ سدّها، ولا إشكالاً أُثير حول الموضوع إلاّ نقضه وأبرمه إبراماً، فكان كتابه هذا دراسةً جديدةً على ضوء علم الكلام وقواعد المنطق والفقه وأسس الأخلاق لم تستوفَ بحثاً معمَّقاً مِن قِبَل مَنْ سبقه من فقهاء الإماميّة ومحققيها، فالبحث جدير بأنْ يكون قبلةً للقاصدين والمحققين والفقهاء المتدرجين والكاملين، فلله درّه وعلى الله عزّ اسمه أجره، وهو حسبه وبه المستعان، والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق رسول الله محمّد وآل بيته الطاهرين الميامين..

مركز
العترة الطاهرة
للدراسات والبحوث

# التمهيد

الحديث في بدايات السّورة يتناول تقريعاً لصاحب الحَدَث حيث ارتكب أمراً فظيعاً ـ حتى ولو كان العبوس والإنقباض لا يشقان على الأعمى ـ باعتبار ما صدر منه فيكشف عن انهزامية في نفس العابس من حيثيّة إعراضه وانغلاقه عن بعض المستضعَفين من مؤمني الإسلام، وانفتاحه وإقباله على بعض المترَفين من كفّار قريش، ممّا يعني البُعد الرّوحي والنفسي والفكري عن المعاني الإنسانيّة والدينيّة السّامية؛ التي يجب أنْ يتحلّى بها الإنسانُ السَّوِيُّ، فكيف إذا كان بمستوى قائدٍ كبيرٍ ورسولٍ عظيمٍ كمحمدﷺ، فلا يمكن أنْ يكون هذا الرّسول الرّحيم المقصودَ بالخطاب التقريعي؛ لأنّ ظواهر الآيات يفيد أنّ العابسَ خرج من مراسم الأخلاق وجميل العادات، ودخل في نهج إبليس؛ فأخلد إلى الأرض متَّبِعاً هواه، ومُعرِضاً عن الفقراء والمساكين المستضعَفين من مؤمني الإسلام، ومُقْبِلاً على الطواغيت المشركين المارقين.

والإعراض والإقبال صفتا سلبٍ يتّصف بهما كلُّ جاهلٍ متمردٍ على الله عزّ وجلّ ومعرِضٍ عن طاعته، ومقبِلٍ على مؤازرته لإبليس في تمرّده على الذّات الأحديّة المقدَّسة، فكان تمرّده ـ لعنه الله تعالى ـ أوّل سلب ظهر في عالم الإمكان، ثمّ قلّده في عمله المشين جنودُه وأولياؤه وأبناؤه من عفاريت الجنّ والإنس، ومنهم ذاك العابِس حيث لا يعرف للإيمان قيمة، وللورع مَنزِلَة، ولا

للأخلاق منقبة، وليس همّه التطهّر والتزكية، لذا غطّى أنفه بثوبه تأففاً خوف أنْ تصيبه نفحات القدس التي تطايرت من العبد الفقير إبن أمّ مكتوم، فكان تأفّف العابس بوجهه وإقباله على المشركين متودِّداً إليهم يريد التقرُّب إليهم مستعطفاً دنياهم لعلّهم يرحمونه بشيءٍ من حطامها.

وعلّة عبوس ذلك المتملّق لا لكونه فقيراً يلتمس مالاً فحسب؛ بل لأنه من طينتهم، وروحه من سنخ أرواحهم، وصدق المثل العربي المشهور: «إنّ الطيور على أشكالها تقع»، فكلّ واحد يعمل بحسب طبيعته وأخلاقه التي تخلّق بها، أو طريقته وسنّته التي اعتادها، أو نيّته التي دفعته إلى الفعل وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[1].

نعم، إنّ طبيعة العابس وفظاظته وطريقته هي نصرة القوي وخذلان الضعيف، بل سجيته أنْ يُقبل على مَن سانخه في الشركِ والكفرِ، وليس من طبيعته أو لوازم ذاته أنْ يتودَّدَ أو يُقبِلَ على فقيرٍ تقيٍّ مؤمنٍ بالله ورسوله، من هنا لم يقدر ذلك العابس أنْ يتجانس مع ضدّه، بل كلّ جنسٍ يميل إلى مثله ويهرب من ضدّه، وهكذا كان الواقع بين العابس والمعبوس به، فكان نزول الآيات على نوعين؛ آيات تقرِّعُ العابسَ باشدِّ التقريع، متجاهلةً شخصه بضمير الغائب لكونه لا يستحقّ الذِّكرَ بضمير الخطاب فتذمّه ومَن أقبَلَ عليه، وآياتٌ ترفع من مقام المعبوس به، وتكشف عن ذاته عناصر الطهر والتزكية والعفاف والتقى.

هذا التنوع في الخطاب يُعطي الدّعاة بعد رسول الله ﷺ درساً بأنّ عليهم أنْ يقفوا في خطّ الإستقامة، حتى بالمستوى الذي لا يمثّل تصرّفهم فيه عملاً غير أخلاقيّ؛ لأنّ الغفلة عن التفاصيل الدقيقة في السير والسلوك إلى الله عزّ وجلّ قد تجرّ إلى الإنحراف بطريقة لا شعوريّة.

---

(١) الإسراء: ٨٤.

وما يدعو للعجب أنّ المخالِفين بعامّة مذاهبهم ألصقوا العبوس برسول الله ﷺ بحجّة توجُّه الخطاب إليه دون أنْ يمسّوا من كيان أحدٍ من الصحابة، فصارت الصُّحبة معياراً للسلوك دون أنْ يكون لرسول الله ﷺ كرامة لدى هؤلاء، فيصحّ إلصاق العبوس به دون عثمان الذي دلَّت أخبارنا على أنّه المراد بالآيات.

وعليه؛ فإنّ تنزيه الصحابة فرضٌ لازمٌ على المسلمين، أمّا الغمز واللمز بشخص النبي ﷺ والإساءة إليه صار من كيان عقائدهم، ولمحة عابرة على صحيح البخاري الكتاب المقدَّس عندهم؛ يعطيكَ صورةً واضحةً عن مدى الحيف والظلم الذي لحق برسول الله ﷺ من خلال النيل من قدسيّة ذاته وشرف مكانته، منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) النبي ﷺ يجامع زوجته أمّ سلمة وعائشة في الحيض[١].

(٢) النبي ﷺ كان شاكّاً في نبوّته[٢].

(٣) كان في قلب النبي ﷺ علقة سوداء تسبِّب له المعاصي[٣].

(٤) النبي ﷺ هجر أو غلبه الوجع لذا لا تصحّ وصيته[٤].

(٥) كان النبي ﷺ يجنب ويحتلم في ثوبه[٥].

(٦) ترك النبي ﷺ صلاة العصر عمداً إلى ما بعد المغرب[٦].

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٨٣و٨٨.
(٢) صحيح البخاري في أخبار الوحي وبدء الرسالة، ج١ص٤ باب٣ح٣.
(٣) البخاري: ج١ص١١٥ح٣٤٩ كتاب الصلاة/ باب كيف فرضت الصلاة...
(٤) صحيح البخاري: ٤/ ٣٩٩ح٣١٦٨.
(٥) صحيح البخاري: ١/ ٦٧.
(٦) صحيح البخاري: ١/ ١٥٤و١٦٤و٢٠١ + ج٢/ ٢٠٠.

(٧) كان النبي ﷺ يمسح على نعليه، ويصلّي بنعليه أيضاً[١].

(٨) كان النبي ﷺ ينسى ما يقول في الصلاة[٢].

(٩) كان النبي ﷺ ينسى كما ننسى ويطلب من المسلمين أنْ يذكّروه حال النسيان[٣].

(١٠) كانت عائشة ترجّل شعر النبي ﷺ وهو في المسجد[٤].

(١١) النبي ﷺ يغتسل وزوجته من الجنابة في إناءٍ واحدٍ[٥].

(١٢) النبي ﷺ يأكل ممّا ذُبِحَ على النصب[٦].

(١٣) النبي ﷺ يبول وهو واقفٌ[٧].

(١٤) النبي ﷺ ينتقم من أعدائه بتكحيل الأعين بمسامير محمّاة في النّار[٨].

(١٥) النبي ﷺ يسبّ ويغضب[٩].

(١٦) النبي ﷺ لا يعدل بين نسائه[١٠].

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ١٩٨وج١/ ١٠٨.
(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٢٠.
(٣) صحيح البخاري: ١/ ١١٠و١٢١.
(٤) صحيح البخاري: ٣/ ٦٧.
(٥) صحيح البخاري: ١/ ٨٨.
(٦) صحيح البخاري: ٧/ ١١٨.
(٧) صحيح البخاري: ١/ ٦٦.
(٨) صحيح البخاري: ١/ ٦٧وج٢/ ١٦٠وج٣/ ٧٥.
(٩) صحيح البخاري: ح٤ باب الدّعوات.
(١٠) صحيح البخاري: ٣/ ٢٠٤.

(١٧) كان النبي ﷺ يستمع إلى مزمار الشيطان[١].

(١٨) النبي ﷺ يهوى الأعراس والغناء والمغنيات[٢].

(١٩) مزامير الشيطان في منزل النبي ﷺ[٣].

(٢٠) كان النبي ﷺ يشاهد الحفلات الرّاقصة[٤].

(٢١) أبو بكر ينبّه النبي ﷺ لِمَا يقول[٥].

(٢٢) كان النبي ﷺ يتنخّم النّخامة أمام جالسيه[٦].

(٢٣) النبي ﷺ يصلّي على منافق، وعمر يصحّح له، والقرآن يؤيد عمر[٧].

(٢٤) الله تعالى وافق عمر في ثلاث: آية الحجاب، وآية ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾، وآية ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[٨].

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٤٧.
(٢) صحيح البخاي: ٦/ ٤٦٧ باب النسوة اللاتي يهدين المرأة.
(٣) صحيح البخاري: ٥/ كتاب فضائل صحابة النبي، مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، وج٢/ كتاب العيدين.
(٤) صحححيح البخاري: ٩/ باب العيدين، باب الحراب والورق، وج٤/ كتاب الجهاد باب الورق.
(٥) صحيح البخاري: ٦/ ٣٥٩ح٤٨٧٥.
(٦) صحيح البخاري: ٣/ ١٨٠ باب القرعة في المشكلات ـ كتاب الشروط.
(٧) صحيح البخاري: ٦/ ٨٥وج٢/ كتاب الجنائز ـ باب ما يكره من الصلاة على المنافقين.
(٨) صحيح البخاري: ١/ ١١.

(٢٥) لقد أثّر السحر في النبي ﷺ[1].

وبالجملة ثمّة هدف يبتغيه جمهور الصحابة من وراء إشاعة هذه الإفتراءات على النبي العظيم محمد ﷺ، وهذا الهدف ذو وجهين:

أحدهما: الإستيلاء على السلطة، ولا يتمّ ذلك إلاّ بنسف الأدلة الإلهيّة التي أشارت إلى عصمة هذا الرّسول الكريم ﷺ، فيتسنّى لهؤلاء الطامعين أنْ يتربّعوا على عرش الخلافة الإسلاميّة، وقد نجحوا في ذلك، وأضحت قيادة الأمّة بعد النبي ﷺ لمَن غلب، وتصافقَت كلّ وسائل الإعلام دعماً للسلطة؛ لتحويل هذه الإشاعات والإفتراءات ضدّ النبي ﷺ إلى قناعاتٍ أكيدةٍ بل ضرورة لا يمكن تجاوزها، وفي مقابل تلك القناعات، راجت قناعات أخرى أصبغت على الظالمين ألقاباً لم تُصبَغ على أحدٍ من صحابة الرسول ﷺ سوى من اغتصبوا الخلافة من أهلها الشرعيّين نظير «الصدّيق» على أبي بكر، و«الفاروق» على عمر، و«ذو النورين» على عثمان، و«سيف الله المسلول» على خالد بن الوليد، ولكنّ الحقيقة آلت على نفسها إلاّ بالظهور رغم محاربيها، فبان للناس مَن هو الصدّيق والفاروق والكرّار، وأسد الله، وذو الأنوار...

ولمّا عزّ على شيعة الخليفتين ذلك أرادوا طمر وطمس الحقائق فوقفوا بالمرصاد ليحولوا بين الناس وبين معرفة تلك الحقائق، من هنا أحرقوا أحاديث النبي ﷺ، ومحوا من الوجود كلّ مَن كتب ودوّن وحفظ من الأحاديث الدالّة على أفضليّة أهل البيت عليهم السلام على العالَمين.

وثانيهما: مساواة النبي ﷺ ببقيّة الصحابة ـ وإنْ لم يكن أدنى منهم

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٤وج٨/ ٢٢.

بالفضيلة ـ حتى تكون مبرِّراً لعصيان المغتصبين للخلافة، ولئلاّ يستنكر الشيعة على بعض صحابة النبي ﷺ بما اقترفوه من جنايات وموبقات؛ لذا ألصقوا بالنبي ﷺ النقصان في الأخلاق والآداب والسلوك مع الله تعالى ومع الناس.

وبناءً على هذين الوجهين تمّ تنزيه الصحابة عن كلّ نقصٍ، لكنْ لا مشكلة لديهم لو أُلصق برسول الله محمد ﷺ، باعتبار كونه بشراً، له ما للبشر وعليه ما عليهم، فلا مانع من أنْ يرتكب المحاذير حتى الكفر على تفصيل عند الأشاعرة بمرحلة ما قبل البعثة، بل لا مانع من الجهل والنسيان والفسق بعد التبليغ، بل وحتى في مرحلة التبليغ كما يشهد له إجماعهم على نزول سورة عبس ـ بكلّ تقريعها وتعنيفها ـ في رسول الله ﷺ، مع ادّعائهم بأنه غير جائزٍ حال التبليغ، مع أنّ النبي لمّا نزلت سورة عبس كان في حال التبليغ حيث أراد تاليف قلوب أولئك المشركين في مجلسه[1].

فدعوى عدم جواز صدور الخطأ والذنب حال التبليغ تتعارض مع تسالمهم على نزول السورة برسول الله؛ لأنّ ذلك خطأ يُفْرَض أنْ يتنزَّه عنه ﷺ حال التبليغ بحسب دعواهم، من هنا يسهل لدينا القول بأنهم لا يعتقدون بعصمة النبي ﷺ فضلاً عن الأنبياء والأولياء ﷺ؛ وإلاّ لو كانوا يعتقدون كما يدّعون بوجوب اتصاف النبي ﷺ بالعصمة حال التبليغ لَمَا نسبوا إليه صدور العيب والخطأ بحقّ مؤمنٍ جاء يسأله عن معالم دينه.

ولكي نعرف حقيقة العابس ـ ولا شكّ أنه غير النبيّ والوصيّ ﷺ ـ لا بدّ من فهم حقيقتين هامتين تناولهما القرآن الكريم بعناية كبيرة محيلاً إحداهما على

---

(١) ما يزيد تعجّبي هو أنّ السيّد محمّد حسين فضل الله قال بعصمة النبي ﷺ في التبليغ، في حين نسب إلى الرسول الأكرم نزول سورة عبس فيه وهو يريد تأليف مشركي قومه.

الأخرى بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضهما، بل ربط الأولى بالثانية دون العكس، وهما: المتشابَه والمحكَم القرآنيَّين.

فلا يمكن معرفة المتشابه دون الرّجوع إلى المحكَم القرآني والنبوي، لذا يفرض علينا البحث الموضوعي أنْ نتوغّل قليلاً بهما، وعلى ضوئه يمكن الحكم على العابس، هل هو رسول الله ﷺ ـ وحاشاه من ذلك ـ أم أنه عثمان بن عفّان؛ حسبما جاء في أخبارنا؟!!

والسّرّ في ذلك أنّ السّورة من المتشابهات التي لا يجوز بها الحكم على رسول الله ﷺ أنّه العابس دون أنْ نفهمَ حقيقة المحكَم، وماهيّة العصمة التي يجب أنْ يتصفَ بها رسول الله ﷺ كنبيٍّ من أنبياء الله ﷺ.

## المتشابه وعلاقته بالمُحْكَم:

لقد وصف الله تعالى ذاته المقدَّسة بأنه هادٍ لقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١].

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وكذا وصف رسوله بأنه هادٍ إلى صراطٍ مستقيم بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

كما وصف أهل البيت ﷺ بالهداة بقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: ٥].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

كما إنه جعل القرآن كتاب هداية لقوله:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨].

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩].

وكونه كتاب هداية لا بدّ من التدبّر بمعانيه ومفرداته:

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾[القيامة: ١٧ ـ ١٩].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩].

ولا يجوز هجران قراءته لقوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠].

فإذا حَرُمَ هجره قراءةً وعملاً، وجب حينئذٍ ضدّهما وهو القراءة والإنصات والعمل بآياته لقوله تعالى:

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فإذا ما كان القرآن كتاب هداية وبيان وموعظة؛ فكيف صار فيه المتشابه

والمجمَل وهما وصفان وجوديان يوقعان المكلَّف في الحيرة والتردّد والشّك؟!

لكنّ المتدبّر في كتاب الله المجيد يردّ الشبهة بما ورد فيه من الآيات المحكمات؛ التي تفسّر المتشابهات وتوضّح مرادها، كما أنّ الرّجوع إلى أولي الأمر المعصومين عليهم السلام لأجل بيان تأويله وما تشابه من معناه، وتوضيح المجمَل، وتخصيص العام، وتشخيص الناسخ والمنسوخ، وتبيين الحقائق، ولعلّ فائدة وجود المتشابَه في الكتاب هو الرّجوع إلى المعصومين عليهم السلام لئلاّ ينفرد العباد بأفكارهم البائرة عن عبادة الله تعالى والإستقلال عنه، من هنا أُمروا بالرّجوع إليهم والأخذ منهم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾...

فالأمر بإطاعة أولي الأمر وولايتهم واستحضار مراقبتهم وشهودهم للدلالة على الإرتباط بهم وعدم الإستقلاق عنهم، وذلك لحاجة العباد إليهم، وغنى المأمور بإطاعتهم وكمالهم وعصمتهم وعلو مقامهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

إنّ الإستغناء عن المعصوم عليه السلام في تفسير الكتاب الكريم يستلزك تفسيره بالآراء والتظني والتكذيب عليه عزّ وجلّ وهو على حدّ الشّرك بالله تعالى، فقد ورد عنهم عليهم السلام أنّ: «مَن فسَّرَ القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب»[١].

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب القضاء باب١٣ح٣٧.

مضافاً إلى أنّ القرآن حمّال ذو وجوه حسبما ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حيث قال: «ليس شيء أبعد من عقول الرّجال من تفسير القرآن: إنّ الآية يكون أوّلها في شيء، وآخرها في شيء وهو كلام متّصل متصرّفٌ على وجوه»[١]. فلا بدّ في تعيين المراد من نصب قرينة عليه من المعصوم عليه السلام لئلاّ يقع المكلّف في الحيرة، مع التأكيد على أنّ آيات الكتاب مجملة لا تفصيل فيها فيجب حينئذٍ أنْ يُرْجَعَ إلى أولي الأمر عليهم السلام لمعرفة ذلك، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، قال مولانا الإمام محمّد الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: هم الأئمّة المعصومون[٢].

ووجود المجمَل في الكتاب لا يكون موجباً لسدّ باب النظر فيه، حيث يوجد فيه صنف من الآيات يمكن للناظر فيها ـ إذا كان عارفاً بقواعد اللغة العربيّة وفنونها ـ أنْ يُفاض عليه شيءٌ من أسرارها بمعونة الرّجوع إلى المأثور عنهم عليهم السلام، لعلّه يجد ما يتمّم به ما ظهر له منها بعد الإلتفات إلى القواعد العقليّة المستقلّة وإلى ما تسالم عليه العقلاء من بني البشر.

فهذا الصنف يشترك في معرفته العالم والجاهل، وثمّة صنف آخر يحتاج استعلام المراد منه إلى عرضه على ما يستبين معه معناه، من محكَم آية أو مأثور رواية عن أهل بيت العصمة والطهارة وهم الراسخون في العلم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب القضاء باب١٣ح٤١.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب القضاء باب١٣ح٦١.

والمتشابه الذي ذكرته الآية هو الذي هلك فيه الكثير من الناس، وفيه يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «وإنما هلك الناس في المتشابه؛ لأنهم لم يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء عليهم السلام فيعرّفونهم»[١]. وفي خبرٍ آخر قال عليه السلام: نحن المُعَوَّلُ علينا في تفسيره، لا نتظنّى تأويله، بل نتّبع حقائقه[٢].

وفي خبرٍ ثالث عن مولانا الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: نحن الرّاسخون في العلم، ونحن نعلَم تأويله[٣].

وفي خبر بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام مفسّراً الرّاسخون في العلم، قال عليه السلام: «. . . فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزِّل عليه شيئاً لا يُعْلِمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه»[٤].

إنّ القرآن محفوظٌ في صدور الراسخين من أهل البيت عليهم السلام لا يفارقهم ولا يفارقونه.

فقد جاء عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ الله طهّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحجّته في أرضه، وجعلنا مع القرآن؛ والقرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا»[٥].

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب القضاء ـ باب ١٣ من أبواب صفات القاضي ح٨.
(٢) نفس المصدر: ح٤٥.
(٣) المصدر عينه: ح٥.
(٤) المصدر عينه: باب١٣ح٦ ص١٢٢.
(٥) المصدر عينه: ١٨/ ١٣٢ح٤.

وفي خبر أبي بصير قال: قرأ المولى أبو جعفر عليه السلام هذه الآية: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، ثمّ قال: أمَا والله يا أبا محمّد ما قال ما بين دفتي المصحف، قلت: مَن هم جُعِلْتُ فداك؟ قال عليه السلام: مَن عسى أنْ يكونوا غيرنا[1].

وفي أخبارٍ أُخَر قال عليه السلام: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ إنهم الأئمّة عليهم السلام[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ ورد في صحيحة سدير عن المولى أبي عبد الله عليه السلام في حديثٍ قال: عِلْمُ الكِتَاب كلّه والله عندنا، عِلْمُ الكِتَاب كلّه والله عندنا[3].

وعن مولانا الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: ما يستطيع أحدٌ أنْ يدّعي أنّ عنده جميع القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء[4].

وعنه عليه السلام قال: إنما يَعْرِفُ القرآنَ مَنْ خُوطِبَ به[5].

وقال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: إنهم ضربوا القرآن بعضه ببعض، واحتجّوا بالمنسوخ وهم يظنّون أنّه النّاسخ، واحتجّوا بالخاص وهم يظنون أنه العام، واحتجّوا بالآية وتركوا السُّنَّة في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح به

---

(١) المصدر عينه: ١٣٣ح١١.

(٢) نفس المصدر: ١٣٣ح٩ ـ ١٠ ـ ١٢.

(٣) نفس المصدر: ١٣٤ح١٤ ـ ١٥ ـ ١٦.

(٤) أصول الكافي: ١/ ٢٢٨.

(٥) وسائل الشيعة: ١٨/ باب١٣ح٢٥.

الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوا عن أهله، فضلّوا وأضلّوا[1].

بلى والله، لم ينظر بعض العلماء إلى ما فُتِحَ به الكلام وما يختمه في كثير من المباحث الفقهيّة والكلاميّة والتاريخيّة؛ لذا وقعوا في التيه والحيرة والتناقض والإضطراب في النتائج طبقاً لاضطراب مقدِّماتها التي أخذوها من المخالفين وأقيستهم الهزيلة الباطلة.

**عودٌ على بدء:**

حتى تتضح حقيقة علاقة المتشابه بالمحكم لا بدّ من البحث ـ ولو بالإجمال ـ في ثلاثة أمور:

**الأمر الأوّل:** معاني المُحْكَم والمُتَشَابَه.

**الأمر الثاني:** عاقبة إتّباع المُتَشَابهَات.

**الأمر الثالث:** لماذا صارت المُحْكَمَات أُمُّ الكتاب.

**أمّا الأمر الأوّل:** فقد بلغت الآراء في تفسير المحكم والمتشابه إلى ستة عشر قولاً، أهمّها الرّأي الأوّل، وإليك أشهرها:

**الرأي الأوّل:**

إنّ المتشابه هو ما تردّد معناه، ولا يوضحه سوى المحكم الذي لا ريب فيه.

وبعبارة أخرى: إنّ معنى المتشابه هو أنْ تكون الآية مع حفظ كونها آية دالّة على معنى مريب مردَّد لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطرق المألوفة عند أهل

---

(١) وسائل الشيعة: ١٨/ باب٣ح٦٢.

اللسان كإرجاع العام والمطلق إلى المخصَّص والمقيَّد ونحو ذلك، بل من جهة كون معناها غير ملائم لمعنى آية أخرى محكَمة لا ريب فيها تبيّن حالة الآية المتشابهة[١].

فأكثر المذاهب الفاسدة والأهواء المختلفة التي انحرف أهلها إنما زاغوا عن الحق باتباعهم التأويل في الآيات بما لا يرتضيه الله عزّ وجلّ من خلال رسوله وأهل بيته ﷺ، من هنا نجد فرقة تتمسك من القرآن بآيات للتجسيم، وأخرى للجبر، وثالثة للتفويض، ورابعة لعثرات الأنبياء، كلّ ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه.

إذن المحكم هو ضدّ المتشابه وهو لفظ لا يختلف العرفاء في فهم معناه، ولا يتردّد في المراد منه خبراء اللسان من علماء المعاني والبيان كآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾، والمتشابه هو الذي يتردّد الذهن في بيان معناه، وتختلف الأنظار في ترجيح المقصود من لفظه كما في آية ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فالعرش فيها مفسّر بمعانٍ، والإستواء مردَّد مفهومه بين أمرين: الأمر الذي قسم المسلمين إلى شطرين، شطر منَزّه لربّه عن إسم الجسم وعن لوازم معانيه، وشطر ذهب إلى التجسيم وصار في أمره.

فالآية المتشابهة: إذا تشابهت فيها المعاني والمرامي، قرّبت قراءها من تشعّب الفكر؛ فصار الذين يبتغون الفتنة وفي قلوبهم زيغ يدعون إلى أهوائهم وآرائهم ويتوسّلون بحبائل التأويل في الآية ومبانيها ومعانيها، ولا ريب في أنّ هذه عوامل التفرقة والإختلاف[٢].

---

(١) تفسير الميزان: ٣/ ٤١ بتصرف ببعض الألفاظ.

(٢) متشابه القرآن ومحكمه لإبن شهر آشوب/ المقدمة ـ الجهة الثانية.

**الرأي الثاني:**

إنّ المحكمات هو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

والمتشابهات هي الحروف المقطعة النازلة في أوائل عدّة من السّور القرآنيّة.

وفيه: إنّ حصر المحكم بالآية الشريفة، والمتشابه بأوائل السور قولٌ من غير دليل، إذ لا دليل على انحصارهما فيهما، ولازم هذا القول وجود قسم ثالث ليس محكماً ولا متشابهاً؛ مع أنّ ظاهر الآية السابعة من آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يدفع القول المذكور، حيث عَبَّرَت عن وجود بعض الآيات المتشابهة والمحكَمة، ممّا يقتضي وجود محكَم ومتشابَه غير ما ذكره هذا الرأي.

**الرأي الثالث:**

إنّ المحكمات هي الحروف المقطعة في أوائل السور، والمتشابهات غيرُها، عكس الرأي الثاني.

وفيه: من البطلان ما لا يخفى على المتأمّل، حيث مضافاً إلى أنه تقوُّل بغير عِلم؛ فإنه يقتضي أنْ تكون جميع سور القرآن متشابهات ما عدا الحروف المقطعة، فيصير العمل بها على غير بصيرة وهدى؛ لأنّ المتشابه بحاجة إلى ما يفسّره، فإذا ما كانت الفواتح بحاجة إلى تفسير أيضاً، تكون النتيجة أنّ القرآن كلّه متشابه لا يصحّ العمل به، مع أنه عزّ وجلّ أمر بالعمل بآياته ومدح أتباعه بل عدّه من أوجب الواجبات كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وغيرها من الآيات المبارَكات.

الرأي الرابع:

إنّ المتشابه هو المجمل، والمحكَم هو المبيَّن.

وفيه: إنّ أوصاف المحكم والمتشابه في الآية السّابعة من آل عمران لا تنطبق على المجمل والمبيَّن؛ وذلك لأنّ إجمال اللفظ هو كونه بحيث يختلط ويندمج بعض معناه بالبعض الآخر، فلا تنفصل جهة المراد عن غيرها، فيسبب حيرة المخاطَب أو السّامع في تشخيص المراد؛ فيلجأ إلى الإستيضاح من المخاطِب بنصب قرينة توضِّح وتبيِّن المراد، وهذا بخلاف المتشابه والمحكَم؛ حيث إنّ المتشابه معنىً مريب مردَّد لا من جهة اللفظ حتى يمكن معالجته بالطرق المألوفة عند أهل اللسان؛ كإرجاع العام والمطلَق إلى المخَصّص والمقَيّد أو المبَيّن، بل من جهة كون معناه غير ملائم لمعنى آخر لإبهامه وارتيابه.

مضافاً إلى أنّ اتّباع المتشابه يلحقه الذم ويوجب زيغ القلب، بعكس المجمل فإنه يوجب حيرة السامع في التشخيص، والفَرْق واضحٌ بينهما.

الرأي الخامس:

إنّ المتشابهات هي الآيات المنسوخة، فيُعتقد بها ولا يعمل بمضمونها، والمحكمات هي الآيات الناسخة، فيجب الإعتقاد والعمل بها.

وفيه: لا يمكن حصر المتشابه في المنسوخ، فإنّ ما ذكره القرآن من خواص اتباع المتشابه المقتضي لابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل، جارٍ في كثير من الآيات غير المنسوخة كآيات الصفات والأفعال، على أنّ لازم هذا القول وجود واسطة بين المحكم والمتشابه.

الرأي السادس:

إنّ المحكَم ما كان دليله واضحاً كدلائل الوحدانيّة والقدرة والحكمة، والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى تأمّل وتدبُّر.

وفيه: إذا كان المحكم والمتشابه هو ما ذكره الرأي المتقدّم؛ فإنّ لازمه كون مضمون الآية ذا دليل عقلي قريب من البداهة أو عدم كونه بديهيّاً بالقياس إلى المتشابه، وهذا يستلزم أنْ تكون آيات الأحكام والفرائض ونحوها من المتشابه لفقدانها الدليل العقلي اللائح الواضح، وحينئذٍ يكون اتباعها مذموماً مع أنها واجبة الإتّباع، وإنْ كان المراد به كونه ذا دليل واضحٍ لائحٍ من نفس الكتاب وعدم كونه كذلك فجميع الآيات من هذه الجهة على وتيرةٍ واحدةٍ، كيف لا؟ وهو كتابٌ متشابه مثاني، ونور، ومبين، ولازمه كون الجميع محكماً وارتفاع المتشابه المقابل له من الكتاب وهو خُلْف الفرض وخلاف النص.

الرأي السابع:

إنّ المحكم هو ما لا يحتمل من التأويل إلاّ وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهاً كثيرة.

وفيه: إنّ القول المذكور نَسَفَ المعاني المتعدِّدة في بطون الآيات؛ إذ على القول بأنّ للمحكم تأويلاً واحداً لازمه إلغاء بقيّة المعاني المرتبطة بالآية الواحدة.

مضافاً إلى أنّ هذا الرأي أخذ التأويل بمعنى التفسير الذي هو المعنى المراد باللفظ مع أنه خطأ، بل التأويل أعمّ من التفسير، ولو كان التأويل هو التفسير بعينه لم يكن لاختصاص علمه بالله تعالى، أو بالراسخين في العلم

وجه، فإنّ القرآن يفسِّر بعضه بعضاً، والمؤمن والكافر والراسخون في العلم وأهل الزيغ في ذلك سواء.

**الرأي الثامن:**

إنّ المحكَم ما أُحكِمَ وفُصِّل فيه خبر الأنبياء مع أُممهم، والمتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم بالتكرير في سورٍ متعدِّدة.

وفيه: إنه لا دليل عليهذا التخصيص أصلاً، على أنّ الذي ذكره تعالى من خواص المحكم والمتشابه ـ وهو ابتغاء الفتنة والتأويل في اتباع المتشابه دون المحكم ـ لا ينطبق عليه، فإنّ هذه الخاصيّة توجد في غير آيات القصص كما توجد فيها، وتوجد في القصّة الواحدة كقصة جعل الخلافة في الأرض كما توجد في القصص المتكرِّرة.

**الرأي التاسع:**

إنّ المتشابه ما يحتاج إلى بيان، والمحكم ما لا يحتاج إلى بيان.

يرد عليه: إنّ آيات الأحكام محتاجة إلى بيان النبيﷺ مع أنها من المحكمات، وكذا الآيات المنسوخة من المتشابه مع عدم احتياجها إلى بيانٍ لكونها نظائر لسائر آيات الأحكام.

**الرأي العاشر:**

إنّ المتشابه هو آيات الصفات خاصة وهي أعمّ من صفات الله كالعليم والقدير والحكيم، بل تشمل صفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وفيه: إنه مع التسليم بكون آيات الصفات من المتشابهات لا دليل على انحصارها فيها.

الرأي الحادي عشر:

إنّ المحكم ما للعقل إليه سبيل، والمتشابه بخلافه.

وفيه: عدا عن أنه قول بلا دليلٍ؛ فإنه منقوض بآيات الأحكام؛ فإنها محكمة ولا سبيل للعقل إليها.

الرأي الثاني عشر:

إنّ المحكم ما أجمع على تأويله، والمتشابه ما اختلف فيه.

وفيه: إنّ ذلك مستلزم لكون جميع الكتاب متشابهاً وينافيه التقسيم الذي في الآية السابعة من آل عمران، إذ ما من آية من آيات الكتاب إلاّ وفيه اختلاف ما: إمّا لفظاً أو معنىً، أو في كونها ذات ظهور أو غيرها، حتى ذهب بعضهم إلى أنّ القرآن كلّه متشابه مستدلاً بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] كما ذهب آخرون إلى أنّ ظاهر الكتاب ليس بحجّة أي أنه لا ظاهر له، وكِلاَ الرأيَيْن فيهما إشكالٌ.

الرأي الثالث عشر:

إنّ المتشابه ما أمكن تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى، ومتشابه من جهتهما حسبما أفاد الراغب الأصفهاني، فقد عمّم المتشابه لموارد الشبهات اللفظيّة والعموم والخصوص وإغلاق التركيب وغرابة اللفظ ونحوها...

وفيه: إنّ التعميم المذكور لا يساعد عليه ظاهر الآية؛ لأنها جعلت

المحكمات مرجعاً ترجع إليه المتشابهات، ومن المعلوم أنّ غرابة اللفظ وأمثالها لا تنحلّ عقدتها من جهة دلالة المحكمات، بل لها مرجع آخر ترجع إليه وتتضح به.

مضافاً إلى أنّ الآية السابعة من سورة آل عمران تصف المتشابهات بأنها من شأنها أن تتبع لابتغاء الفتنة، ومن الواضح: أنّ أتباع العام من غير رجوع إلى مخصِّصه، والمطلق من غير رجوع إلى مقيِّده، وأخذ اللفظ الغريب مع الإعراض عمّا يفسّره في اللغة مخالف لطريقة أهل اللسان فلا يكون بالطبع موجِباً لإثارة الفتنة لعدم مساعدة اللسان عليه.

هذا هو المعروف من أقوالهم في معنى المحكم والمتشابه وتمييز مواردهما، وفيها من الضعف ما قد عرفتَ إلاّ أنّ الأوّل أصحّها وأفضلها وأكملها مع إضافة شيءٍ إليه وهو: إنّ كلّ جملة وكلمة معانيها معقَّدة وتنطوي على احتمالات مختلفة توصف بأنها متشابهة، لكنّها تتضح بعرضها على الآيات المحكَمات.

وأمّا الأمر الثاني: عاقبة اتباع المتشابه:

تعرَّضْنا في الأمر الأوّل إلى التفسير الإصطلاحي للمحكَم والمتشَابَه، وبقي المعنى اللغوي لهما وهو: إنّ الإحكام بمعنى: الإتقان، فكلّ كلام ذا دلالة واضحة قويّة لا يعتورها أيّ احتمال للخلاف ولا مظنّة للريب والتشكيك، والإحكام: مأخوذٌ من «الحَكْم» بالفتح أي المنع وسدّ الخلل، ومنه «حَكَمَةُ اللجام»: ما أحاط بحنكَي الفرس، سُمِّيَت بذلك لأنها تمنعه من الإضطراب في الجري، وإحكام الكلام: إتقانه تعبيراً وأداءً، بحيث لا احتمال للشك فيه، وهذا كأكثر الآيات ذات المفاهيم الواضحة التي لا مجال للجدل والخلاف

بشأنها كآية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ و﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ و﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وآلاف الآيات المتعلقة بالعقائد والأحكام والمواعظ والآداب.

و«التشابه» إسم مصدر، منه «الشبه» وهو التماثل، أي تماثل وجوه المعاني من حقٍّ وباطلٍ والتباسٍ بعضها ببعض، ومن ثمّ كان خفاء في وجه المعنى المراد، ومنه قوله تعالى حاكياً عن نبيّ إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس علينا وجه المقصود.

هذا هو المعنى العام للمتشابه، وقد يتّحد مع «المبهم» الذي يكشفه التفسير، في حين أنّ المتشابه بحاجة إلى التأويل، كأكثر آيات الخلق والتقدير والصفات والأفعال.

وحيث إنّ المتشابه هو اللفظ المُحْتَمِل لوجوه من المعاني وكان موضع ريب وشبهة؛ فهو يصلح للتأويل إلى وجهٍ صحيحٍ، وكذا يصلح للتأويل إلى وجهٍ فاسدٍ، ولأجل هذا الإحتمال فقد طمع أهل الزيغ والفساد، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله إلى ما يتوافق مع أهدافهم الضالّة.

ويظهر وجه الفَرْق بين «المتشابه» المحتاج إلى التأويل و«المبهم» المفتقر إلى التفسير بأنّ الأخير لا تشابه فيه، ولا هو موضع ريب وشبهة، وإنما أحاطت بالآية هالة من الإبهام، فيعمد المفسّر إلى إزاحة الغبار ورفع الستار.

وأمّا المتشابه فهو ـ مضافاً لافتقاره إلى إزاحة الإبهام عن الكلام ـ محتاج إلى دفع الشبهة عنه أيضاً، لذا هو أخصّ من المبهم المفتقر إلى رفع الإبهام.

وعليه؛ فتأويل المتشابه رفعٌ ودفعٌ، رفعٌ للإبهام ودفعٌ للشبهة، لكنّ المبهم رفعٌ للإبهام فقط.

فالآية إذا كانت متشابهة قام المفسّر الضليع بالتأويل بإزاحة الإبهام عن وجه الآية، محاولاً دفع الإلتباس ودفع الشُّبهة عنها، فهو مفسِّرٌ ومؤوِّلٌ معاً. نعم إذا لم يكن هناك سوى الإبهام في وجه الآية من غير التباس، فإنه يقوم بعمليّة التفسير فقط؛ الأمر الذي يشكّل أكثريّة الآيات القرآنيّة التي هي بحاجة إلى تفسير.

وبالجملة؛ فإنّ المتشابه هو ما تشابهَتْ أجزاؤه المختلفة، لذا فإنّ كلّ جملة معانيها معقَّدة وتنطوي على احتمالات مختلفة ومريبة توصف بأنها «متشابهة».

فمن الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾.

ومن البديهي أنّ الله عزّ وجلّ لا يد له بمعنى العضو، ولا أذن بالمعنى نفسه، وليس جسماً يجلس على كرسيّ، فهذه ألفاظ متشابهة بحاجة إلى تأويلٍ بآياتٍ أخرى محكَمة، وبأدلّة عقليّة تصرف المعنى الظاهر بالتشبيه والتجسيم إلى ما يتوافق مع الحقيقة الإلهيّة والذات القدسيّة، فلو ضُمَّت الآيات المتشابهة إلى المحكَمة لَمَا وقع اللبس والخلط والفتنة والضّلال، وهذا ما يعنيه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي أنّ القرآن كلّ آياته محكَمة لو عَرَفَ القارئُ المغزى والمراد بواسطة الحجج ﷺ، فإحكام كلّ الآيات إنما هو باعتبار تماثلها وشباهتها مع بعضها، فثمّة ترابطٌ وتماسكٌ بينها، لذا عبّر في [الآية ٢٣ من سورة الزمر] بأنّه ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي أنّ كلّ آياته متماثلة من حيث الصحّة والحقيقة.

فلا بدّ للمؤمن حتى يفهم كتاب الله بمحكمه ومتشابهه أنْ يضع نصب عينيه

الآيات جنباً إلى جنب مستعيناً بالأخبار عنهم ﵈ ثمّ يستخرج منها الحقيقة كاملةً، فإذا وجد في ظواهر بعض الآيات إبهاماً وتعقيداً، فعليه مراجعة الآيات الأُخَر والأخبار المقدَّسة لرفع ذلك الإبهام والتعقيد ليصل إلى كنهها.

يتضح ممّا سبق أنّ اتّباع المتشابه والتفرّد به يفضي إلى الفساد والإفساد العقيدي والتشريعي، والغفلة والتكبّر، ثمّ الكفر والزندقة والنفاق الفردي والإجتماعي، ممّا يستلزم الإخلال بالتوازن الروحي والنفسي والجمعي، وهو خلاف الحكمة من إيجاد الخلق في الناموس الطبيعي ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالغاية هي العبادة الصحيحة والمعرفة بواسطة السؤال من أهل الذكر. فالتفرّد باتّباع المتشابه يعني التعبّد لله عزّ وجلّ بحسب الرأي والإستحسان بدون استعانةٍ بالحجج الطاهرين ﵈ المطَّلِعين على حقائق التأويل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

فالرّاسخون هم المصداق الأتمّ للمحكم الذي يجب الرّجوع إليه لمعرفة دين الله عزّ وجلّ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٧].

فمَن استغنى عنهم ﵈ وقع في ابتغاء الفتنة التي هي طلب إضلال الناس، فإنّ الفتنة تقارب الإضلال في المعنى، وكأنه عزّ وجلّ يقول: مَن أراد المتشابه فإنه أراد إضلال الناس في آيات الله عزّ وجلّ، بل ارادوا أعظم من ذلك وهو الحصول والوقوف على تأويل القرآن ومآخذ أحكام الحلال والحرام حتى يستغنوا عن اتّباع محكمات الدين؛ فينتسخ بذلك دين الله من أصله كما فعل

الخلفاء المغتصبون لخلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؛ حيث بدّلوا بأحكام الله لينسخوه من أصل وجوده.

والنتيجة: إنّ المنحرفين والشذاذ يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم وخلافاً للحقّ، لكي يثيروا الفتنة بين الناس ويُضِلُّوهم عن الطريق المستقيم، بيد أنّ الراسخين في العلم يعرفون أسرار المتشابهات والمحكمات، لذلك فإنهم يسلّمون لها قائلين إنّ كلّ هذا من عند الله عزّ وجلّ ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

من هنا ينفتح علينا سؤال مفاده:

لماذا يوجد في القرآن الكريم متشابه؟ فهلاّ كانت آياته كلّها محكَمات، فيكون ذلك أسلم من الإلتباس وأقرب إلى طريق الهداية العام؟!

وبعبارة أخرى: بما أنّ القرآن الكريم قولٌ فصلٌ يميّز بين الحقّ والباطل ثمّ نراه يتمسّك به كلّ صاحب مذهب من المذاهب المختلفة بين المسلمين لإثبات مذهبه، وليس ذلك إلاّ لوقوع التشابه في آياته، أفليس أنه لو جعله جليّاً نقيّاً عن هذه المتشابهات، كان أقرب إلى الغرض المطلوب، واقطع لمادّة الخلاف والزيغ؟[١]

وقد عولجت الشبهة عند الخاصّة والعامّة معالجةً دقيقةً، وإنْ اقتصر بعضها على إجاباتٍ غير شافية، بل في بعضها نسبة الإغراء بالقبيح إلى الذات الإلهيّة المقدَّسة. من هذه الوجوه ما ذكره الرازي وهي الآتي:

**الوجه الأوّل**: إنّه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحقّ

---

(١) لاحظ تفسير الرازي: ٧/ ١٨٣، وتفسير الميزان: ٣/ ٥٦.

أصعب وأشقّ، وزيادة المشقّة توجب مزيد الثواب[1].

وفيه: إنّ الله تعالى لم يرد تصعيب الحق عليهم بل سهّل لهم الوصول إليه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

مضافاً إلى أنّ الدعوى المذكورة تستلزم الإستغناء عن الحجج الطاهرين ﷺ، والإستغناء يقتضي صعوبة الوصول إلى الحق بل لا يمكن الوصول إليه بدونهم ﷺ، من هنا أوجبت الآيات الكون مع الصادقين فكراً والتزاماً كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فالكون معهم وإطاعتهم يستتبعان الهداية ورفع الحيرة والشك كما يحصّنان من الوقوع في الكفر والشرك والنفاق، قال تعالى: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الشعراء: ١٥١]، ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

الوجه الثاني: لو كان القرآن محكَماً بالكلّيّة لَما كان مطابقاً إلاّ لمذهبٍ واحدٍ، وكان تصريحه مبطلاً لكلّ ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر

---

(١) تفسير الرازي: ٧/ ١٨٤.

ارباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالإنتفاع به إنما حصل لما كان مشتملاً على المحكَم والمتشابه، فحينئذٍ يطمع صاحب كلّ مذهب أنْ يجد فيه ما يقوي مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذٍ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمّل فيه كلُّ صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسّرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلّص المبطل من باطله ويصل إلى الحق[١].

وفيه:

أوّلاً: إنّ صدر هذا الوجه دعوى صريحة للتمسّك بالباطل، وكأنّ الله تعالى أراد إضلال الناس وإلقائهم في التهلكة، وفساده واضح ـ بحسب مسلكنا نحن الإماميّة ـ أمّا على الأصول الأشعريّة فلا إشكال عندهم في أنْ يُضلّ الناس لأنهم صنعه وخلقه، وهو يفعل بخلقه ما يشاء، لذا قالوا بجواز الضلال على الله تعالى تمسّكاً بظواهر بعض الآيات الدالة على نسبة الضلال إليه تعالى.

ثانياً: إنّ الدّعوى المذكورة تؤدي إلى الإغراء بالقبيح، وهو قبيحٌ عقلاً لا يصدر من الله المتعال؛ لأنّ الفاعل للقبيح لا يخلو من أحد أمور ثلاثة: إمّا لأنه محتاج لفعل القبيح، وإمّا لأنّ في فعل القبيح حكمة، وإمّا لأنه جاهل، وكلّ ذلك منتفٍ عن الله تعالى؛ وذلك لأنّ الله تعالى غنيٌّ وليس بمحتاج، ولو احتاج لافتقر إلى غيره، والإفتقار من لوازم الحدوث، وهذا خلف كونه واجبَ الوجود. وأمّا داعي الحكمة الموجودة في القبيح فمحال، إذ لا حكمة في القبيح. وأمّا دعوى الجهل بالنسبة لله تعالى فباطلٌ أيضاً لاستحالة إنفكاك الذات الإلهية عن العِلم في كلّ الأزمنة والأوقات.

---

(١) تفسير الرازي: ٧/ ١٨٤.

**إشكال ودفع:**

إنْ قيل: كيف تنفون عن الذات الإلهيّة فعل القبيح، في حين قد صدر منها ذلك نظير خلق إبليس والشرور والبلايا؟

قلنا: إنّ خلقه عزّ وجلّ لإبليس لا يستلزم خلقه للشرور الصادرة منه ـ لعنه الله تعالى ـ، وإلاّ لو كان الله عزّ وجلّ هو الخالق لها، لَمَا صحّ أنْ يطرده الله من دار رحمته ويتوعّده بأليم العذاب يوم الحساب.

فعندما خلق الله عزّ وجلّ إبليس ألقى عليه الحجّة وأمره بالإنقياد إلى إرادته فرفض واستكبر؛ فصدور الشرّ من إبليس ليس بأمرٍ من الله تعالى بل العكس هو الصحيح؛ إذ إنه عزّ وجلّ نهاه عن فعل السوء وأمره بالطاعة. نعم إمهاله عزّ وجلّ لإبليس ـ بحيث يتركه يضلّ العباد ـ يعتبر إمهالاً تكوينياً، أي أنه تعالى تركه يضلّ الناس، وفي نفس الوقت حذَّر الناس منه وتوعّدهم بالعذاب لو انقادوا لإبليس.

وبعبارة أخرى: إنّ الشرور الصادرة من إبليس ليست شروراً تكوينيّة وتشريعية صادرة من الله تعالى ـ حاشاه ـ وإنما هي في الواقع شرور نسبيّة عرفيّة إضافيّة.

ثالثاً: المحاذير المتقدّمة على الوجه الأوّل جارية بعينها هنا.

الوجه الثالث: إنّ القرآن إذا كان مشتملاً على المحكَم والمتشابه إفتقر الناظر فيه إلى الإستعانة بدليل العقل، وحينئذٍ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الإستدلال والبيّنة، أمّا لو كان كلّه محكَماً لم يفتقر إلى التمسّك بالدّلائل العقليّة فحينئذٍ كان يبقى في الجهل والتقليد[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٧/ ١٨٤.

وفيه: لا ملازَمة بين التخلص من ظلمة التقليد وبين وجود المتشابه، بل يمكن حصول الجهل دون أنْ يكون للمتشابه دخالة فيه، والمحكم والمتشابه وصفان يقبلان الإضافة والإختلاف بالجهات بمعنى أنّ آيةً ما يمكن أنْ تكون محكَمة من جهة، متشابهة من جهة أخرى، فتكون محكمة بالإضافة إلى آية ومتشابهة بالإضافة إلى أخرى، وبناءً عليه لا مصداق للمتشابه على الإطلاق في القرآن بحسب هذه النظريّة[1].

مضافاً إلى أنّه لا يصحّ الركون على العقل في معرفة أحكام الله وتفاصيل عباداته، فلا بدّ من معونة خارجيّة من نبيٍّ ووليّ، من هنا أمر سبحانه بإطاعة النبي وأولي الأمر، وإلاّ لَكَان الأمر بالإطاعة عبثاً ولغواً. كما أنّ أكثر المحكَمات بحاجة إلى تفسيرٍ وتوضيحٍ فلا يمكن التفرّد بها دون الرّجوع إلى الحجج عليهم السلام.

وبالجملة؛ فإنّ العلاج الذي انتهجه الرازي بالوجوه المتقدّمة في توجيه وجود المتشابه في القرآن علاجٌ ناقصٌ لا يحلّ المشكلة من أساسها، نعم ثمّة وجوه أخرى مقبولة سالمة من الإيراد والنقوض عليها نسبيّاً، هي التالي:

**الوجه الأوّل:**

إنّ وجود المتشابه في القرآن الكريم يقتضي تمحيص الأفئدة للتصديق به، فإنه لو كان كلّ ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد لَمَا كان في الإيمان شيءٌ من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم له، لذا أكّدت الآية السابعة من آل عمران وجوب التسليم بالمحكَم والمتشابه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ

---

(1) تفسير الميزان: ٣/ ٦٤.

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

**الوجه الثاني:**

إنّ سبب وجود التشابه في القرآن ضروريٌّ يعود إلى خضوع القرآن في إلقاء معارفه العالية لألفاظ وأساليب دارجة لم تكن موضوعة إلاّ لمعانٍ محسوسةٍ أو قريبةٍ منها، ومن ثمّ لم تكن تفي بتمام المقصود، فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب إلاّ على أولئك الذين نفذت بصيرتهم في حقائق الأمور وكانوا على مستوى رفيع بفهمها، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

وهكذا؛ فإنّ القرآن تحتمله الأفهام على قدر استعداداتها، وفيه من المتشابهات ما تزول بتعميق النظر وإجادة التفكير، فيبقى القرآن كلّه محكَماً مع الأبد بسلام.

هذا الوجه تبنّاه السيّد الطباطبائي تبعاً لإبن شهر آشوب المازندراني(١)، ومحمّد عبده(٢)، قال الأخير في تفسيره:

[إنّ الأنبياء بُعِثوا إلى جميع أصناف الناس من دانٍ وشريفٍ، وعالِمٍ وجاهلٍ، وذكيٍّ وبليدٍ، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كلّ أحد، ففيها من المعاني العالية والحِكَم الدقيقة ما يفهمه الخاصّة، ولو

---

(١) متشابه القرآن ومختلفه.

(٢) تفسير المنار: ٣/ ١٧٠.

بطريق الكناية والتعريض، ويأمر العامّة بتفويض الأمر فيه إلى الله، والوقوف عند حدّ المُحْكَم، فيكون لكلٍّ نصيبه على قدر استعداده].

وبالجملة: يتلخص هذا الوجه بملاك أنّ المعارف الإلهيّة كالماء الذي أُنزل من السماء من غير تقييد بكمية ولا كيفيّة، ثمّ إنّ هذه المعارف كالسيل في الأودية تتقدّر بأقدار مختلفة من حيث السعة والضيق، وهذه الأقدار أمور ثابتة كلٌّ في محلّه كالحال في أصول المعارف والأحكام التشريعيّة ومصالح الأحكام قد يصاحبها من المعاني غير المقصودة ما هو كالزبد حيث يعلو على الماء ولا نفع فيه، لكنّ المعاني المقصودة باقية وهي التي تنفع..

فالآية المتشابهة تتضمن من المعنى حقّاً مقصوداً، ويصاحبه ويعلو عليه بالإستباق إلى الذهن معنى آخر باطل غير مقصود، لكنه يزول بحقٍّ آخر يزيل الباطل الذي كان يعلو على الحق، ليحق الحق بكلماته ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون.

فالمتشابه كالزبد يظهر ظهوراً ثمّ يشرع في الزوال تماماً كالأحكام المنسوخة التي تنسخه النواسخ من الآيات؛ فإنّ المنسوخ مقتضى ظاهر طباعه أنْ يدوم، لكنّ الحكم الناسخ يبطل دوامه ويضع مكانه حكماً آخر.

فإنّ المعارف الحقّة من حيث كونها واردة في ظرف اللفظ والدلالة ـ وبحسب ورودها أودية الدلالات اللفظيّة ـ تتقدّر بأقدارها، وتتشكل بأشكال المرادات الكلاميّة بعد إطلاقها، وهذه أقوالٌ ثابتةٌ من حيث مراد المتكلّم إلاّ أنها مع ذلك أمثال يمثل بها اصل المعنى المطلق غيرالمتقدّر، ثمّ إنّها بمرورها في الأذهان المختلفة تحمل معانٍ غير مقصودة كالزبد في السيل؛ لأنّ الأذهان من جهة ما تخزنه من المرتكزات والمألوفات تتصرف في المعاني الملقاة إليها،

وجُلّ هذا التصرف إنما هو في المعاني غير المألوفة كالمعارف الأصليّة ومصالح الأحكام وملاكاتها، وأمّا الأحكام والقوانين فلا تصرف فيها مع قطع النظر عن ملاكاتها فإنها مألوفة، ومن هنا يظهر أنّ المتشابهات إنما هي الآيات من حيث اشتمالها على الملاكات والمعارف دون متن الأحكام والقوانين الدينيّة.

الوجه الثالث:

تواترت الأخبار في أنّ القرآن الكريم يشتمل على كثير من الآيات المحتاجة إلى تفاسير أئمّة أهل البيت عليهم السلام حتى يتولى كلّ إمام تفسير الآيات التي تناسب عصره ومصره؛ لأنّ القرآن خالد لا يخلو منه زمن إلى يوم القيامة، ويقتضي هذا وجود ائمّة سفراء من قِبَل الله عزّ وجلّ يفسّرون للناس الآيات التي يحتاجونها في دنياهم وآخرتهم.

وبعبارة أخرى: إنّ القرآن بمحكماته ومتشابهاته بحاجةٍ إلى الإمام عليه السلام، إذ بدونه لا يمكن معرفة مراد الله حقيقةً، وإلاّ لَمَا أمر الله تعالى في بعض الآيات المحكمات بالرّجوع إلى الرسول ﷺ وأولي الأمر عليهم السلام ووجوب الأخذ منهم عليهم السلام وعدم جواز الإستغناء عنهم، فالأمر بوجوب الأخذ منهم يستلزم عدم كفاية الكتاب دونهم عليهم السلام.

الوجه الرابع:

لا أغالي إذا قلتُ أنّ أغلب الآيات ـ وحتى المحكمات ـ فيها شيء من التشابه من جهة ما، ولعلّ السبب في ذلك مردّه أمران:

الأوّل: البُعد عن الذوق الأدبي للغة العربيّة وجذورها وامتداداتها البلاغيّة، نتيجة احتكاك العرب بالأعاجم وتأثرهم بهم بسبب العلاقات التجاريّة

وغيرها ممّا أدّى إلى اضمحلال مفردات بلاغيّة رائعة في اللغة العربيّة، فحمل كثيرون ظواهر تلك المتشابهات على غير مقصودها الأصلي، بل جمدوا عليها دون أنْ يتعمّقوا بمداليلها البلاغيّة المنطبقة عليها.

الثاني: تشابه الآيات المتشابهة على أثر ظهور مذاهب جدليّة في بداية القرن الثاني بعدما كانت العرب أول عهدها بنزول القرآن تستذوقه بمذاويقها البدائية الساذجة، حلواً بديعاً سهلاً بليغاً، أمّا وبعدما احتبكت وشائج الجدل بين أرباب المذاهب الكلاميّة، منذ مطلع القرن الثاني، فقد راج التشبث بظواهر آياتٍ تحريفاً بمواضع الكلم، ومن ثمَّ عمّها نوعٌ من الإبهام والغموض، وأخذت كلّ طائفة تتشبث بما يروقها من آيات، لغرض تأويلها إلى ما تدعم به طريقتها في اختيار المذهب... ولا ريب أنّ القرآن حمّالٌ ذو وجوه على حدّ تعبير أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ لأنه يعتمد في أكثر تعابيره البلاغيّة على أنواعٍ من المجاز والإستعارة والتشبيه، فأكسبه ذلك خاصية قبول الإنعطاف في غالبية آياته الكريمة، ومن ثمّ نهى الإمام عليه السلام عن الإحتجاج بالقرآن تجاه أهل البدع والأهواء؛ لأنهم يعمدون إلى تأويله بلا هوادة، قال عليه السلام لإبن عبّاس لمّا بعثه للإحتجاج على الخوارج: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّالٌ ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً»[1]. ويؤيد هذا ما ورد من استعمالات العرب للألفاظ المتشابهة دون أنْ يقصدوا المعنى البذوي منها، نظير ما جاء في سورة القيامة/ ٢٢ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾؛ فإنّ العرب لم يكن يخطر ببالهم رؤية الله بالعين المجرّدة؛ لذا صنع المشركون منهم أصناماً يعبدونها ظنّاً بأنها توصلهم إلى الله

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٣٦ من الكتب والوصايا رقم ٧٠.

تعالى وتقرّبهم منه زلفى؛ لأنه عزّ وجلّ لا يمكن رؤيته، من هنا كانوا يعبرون بالنظر إليه عن عظيم فضله ورأفته، كما روي أنّ مستجديه بمكّة كانت تقول لأهل مكّة بعدما أغلقوا أبوابهم من حرّ الظهيرة: «عُيينتي نُوَيظرة إلى الله وإليكم[1]» ولم يختلج ببال أحد أنها تقصد النظر بالتحديق إلى الله سبحانه، وإنما كان قصدها الإنقطاع إليه وتوقع فضله ورحمته تعالى، وهكذا في الآية الكريمة نظراً إلى مواقع الحصر فيها، لكنّ الأشاعرة وأذنابهم من المشبِّهة والمجسِّمة جمدوا على ظاهر الآية البدائي وأصرّوا على أنّه النظر إليه تعالى بهاتين العينين اللتين في الوجه.

ونظير ما تقدّم أيضاً ما سمعته العرب من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، حيث لم تفهم منه سوى استقلاله بملكوت السماوات والأرض وتدبيره لشؤون هذا العالم، نظير قول شاعرهم:

ثمّ استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وقال آخر:

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهم صرعى لنسرٍ وكاسرِ

فالأشاعرة أخذوا بالمعنى البدائي للآية وهو الإستقرار على العرش جلوساً متربعاً فوق السماوات العلى، وقد ينْزل إلى السماء الدنيا ليطلع على شؤون خلقه فيغفر لهم، ويجيب دعاءهم، إذ لا يمكنه ذلك وهو متربِّعٌ على كرسيّه فوق السماوات[2].

---

(١) الكشاف، ذيل الآية، وأساس البلاغة مادة «نظر».

(٢) راجع الإبانة ص٣٥، ورسالة الرد على الجهميّة للدارمي: ١٣.

وقِسْ على ذلك ما ورد بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

فالعرب لم يفهموا منها اليد الإنسانيّة ذات الخمس أصابع كما ظنّه الظاهريون[١] من العامّة؛ بل المقصود باليد في الآية هو القدرة ونفي العجز من التصرف فيما يشاء عزّ وجلّ.

وبالجملة؛ فإنّ جمهور العامّة ـ وهم الظاهريون والسلفيّة[٢] ـ جمدوا على الظواهر دون أنْ يتعمقوا في حقائق الإسلام وبالتالي لم تكن لهم تلك المعرفة الدقيقة بشؤون الواجب وتفصيل صفاته الثبوتية والسلبيّة، كما أنهم لم يميزوا بين صفات الذات وصفات الفعل، وكانوا إذا ما وجدوا من نعوته تعالى المذكورة في الكتاب والسنّة الشريفة أخذوا بظواهرها مستريحين بأنفسهم إلى ما يفهمون منها حسب ما أُوتوا من أفهامٍ ساذجة بدائيّة...

تلك كانت طريقة السلف ممّن كانت تعوزهم كفاءة التجوال في ميادين البحوث النظرية العريقة؛ لذا وقعوا في التشبيه والتجسيم استناداً إلى ظواهر بعض الآيات المتشابهة دون أنْ يتكفّلوا تأويلها وإرجاعها إلى المحكمات العقليّة والنقليّة من الكتاب والسنّة القطعيّة.

**الأمر الثالث: لماذا صارت المحكَماتُ أُمَّ الكتاب؟**

عرفنا سابقاً أنّ المحكَم مأخوذٌ من «الإحكام» وهو المنع والإتقان كما في قولك: أحكمتُ الشيءَ: إذا أتقنْتُهُ، ونظير ما يُقال للمواضيع الثابتة القويّة

---

(١) الإبانة: ٣٩.

(٢) مذاهب السلفيّة كثيرة منها: الصفاتيّة، والأشعرية، والمشبِّهة، والكرامية، والحشوية، والجبرية، والقدرية، والتيميّة، والوهابية...

«محكَمة»؛ بمعنى أنها تمنع عن نفسها عوامل الزوال، كما أنّ كلّ قولٍ واضحٍ وصريحٍ لا يعتوره أيّ احتمال للخلاف يُقال له: «قول محكَم».

وعليه؛ فإنّ الآيات المُحْكَمَات هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة التي لا مجال للجدل والخلاف بشأنها كآية توحيد الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ و﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ و﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وآلاف أخرى مثلها تتعلق بالعقائد والأحكام والمواعظ والتواريخ، فهي كلّها محكَمات.

و«المتشابه» هو ما تتشابه أجزاؤه المختلفة فيُغمض، أُخذ من الشَّبَه لأنه يشتبه به المراد؛ لذلك فإنّ الجمل والكلمات المعقدة المعاني والمنطوية على احتمالات مختلفة توصف بأنها «متشابهة»، وكذا الآيات التي تبدو معانيها ـ بالنظر البَدْوي ـ معقّدة وذات احتمالات متعدِّدة، تسمَّى متشابهة، لكنّ معانيها تتضح بعرضها على الآيات المحكَمات.

وثمّة أقوالٌ ثلاثةٌ في أمومة المحكَمات وكونها مرجعاً للمتشابهات:

القول الأوّل:

إنّ كون الآيات المحكَمة أمّ الكتاب أي أنها أصلٌ في الكتاب، عليه تبتني قواعد الدين وأركانه، فيؤمن ويعمل بها، وليس الدين إلاّ مجموعاً من الإعتقاد والعمل، بخلاف الآيات المتشابهة فهي لتزلزل مرادها وتشابه مدلولها لا يُعْمَل بها بل إنما يؤمن بها إيماناً.

وفيه: إنّ لازم هذا القول هو الرّجوع إلى الرأي القائل بأنّ المتشابه صار متشابهاً لاشتماله على تأويل يتعذر الوصول إليه وفهمه، مما يقتضي عدم إمكان حصول العلم بشيءٍ من المعارف الإلهية في غير الآيات المحكمات، فيصبح

وجودها ـ أي المتشابهات ـ في القرآن عبثياً لا تترتب عليه أيّة فائدة، مع أننا قلنا فيما سبق أنّ وقوع التشابه في الآيات من جهة ضيق القابليات لدى الأفراد حيث لم تنفذ بصيرتهم إلى المعاني الرفيعة التي درج عليها القرآن الكريم والتي لا يصل إلى معرفتها كاملاً إلاّ القلائل من ذوي العقول النيّرة والأفئدة الطاهرة.

مضافاً إلى أنّ المتشابه له حقيقة مخفية لا يطلع عليها إلاّ الراسخون في العلم وذلك مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مما يعني أنّ للمتشابه تأويلاً يتناسب والأصول الإعتقاديّة الحقّة، فلا تشابه حينئذٍ عند أصحاب البصائر: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فدعوى أنّ المتشابه لا يمكن حصول العلم به غير سديدة بل غير تامّة لِمَا أسلفنا في الأمر الثاني، وعليه فإذا جاز حصول العلم بالمتشابه يمكن حينئذٍ رفع تشابهه في الجملة أو بالرجوع إلى الأدلّة العقليّة أو طريقة عقلائيّة يُستراح إليها في رفع الشبهات اللفظيّة.

القول الثاني:

إنّ معنى أمومة المحكَمات رجوع المتشابهات إليها، وقصروا الرجوع إلى المتشابه على الإيمان به والإتّباع العملي في مواردها للمحكَم كالآية المنسوخة يُؤمَن بها ويُرجَع في موردها إلى العمل بالناسخة.

هذا القول لا يغاير القول الأوّل سوى بالشكل ولكنّ المضمون واحدٌ، والجواب عليه كالجواب على القول الأوّل.

القول الثالث:

إنّ معنى أمومة المحكمات هو كون المحكمات مفسِّرة ومبيِّنة للمتشابهات

ورافعة لتشابهها؛ لأنّ معنى الأمومة الذي يدلّ عليه قوله تعالى ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يتضمّن عناية زائدة، فإنّ في هذه اللفظة ـ أي لفظة الأم ـ عناية بالرجوع الذي فيه اشتقاق وتبعُّض، فلا تخلو اللفظة من الدلالة على كون المتشابهات ذات مداليل ترجع إلى المحكَمات وتتفرّع عنها، ولازمه كون المحكَمات مبيِّنة للمتشابهات ومفسِّرة لها.

فالقرآن يفسِّر بعضه بعضاً، وللمتشابه مفسِّرٌ يوضّحه، وهو المحكَم، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ فإنها آية متشابهة، ولكنْ بإرجاعها إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يتبيّن أنّ المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسي بل هي نظرة قلبيّة نظير ما رآه رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ فأثبت للقلب رؤية تخصّه تختلف بطبيعتها عن الرؤية البصريّة والرؤية الفكريّة حسبما أفاد العلاّمة الطباطبائي في تفسيره عند تقسيمه للرؤية إلى بصريّة وقلبيّة.

وبالجملة؛ فإنّ القرآن الكريم أطلق على آياته كلمَتي: «محكَم» و«مُتَشابَه»، ففي أوّل سورة هود ذكر أنّ القرآن ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حيث أشار إلى أنّ جميع آيات القرآن محكَمات، ويقصد منه قوّة الترابط والتماسك بينها، وفي الآية الثالثة والعشرين من سورة الزمر قال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي أنّ آياته كلّها متشابهات وهي هنا بمعنى التماثل من حيث صحتها وحقيقتها.

وبهذه التفرقة يتضح للباحث عن الحقيقة أنّ له أنْ يضعَ الآيات جنباً إلى جنب ثمّ يستخرج منها الحقيقة، فإذا لاحظ في ظاهر بعض الآيات إبهاماً وتعقيداً، فعليه أنْ يرجع إلى آياتٍ أُخَر لرفع ذلك الإبهام والتعقيد ليصل إلى المراد.

«تُعتبر الآيات المحكَمات في الواقع أشبه بالشارع الرئيسي، والمتشابهات أشبه بالشوارع الفرعيّة، ولا شكّ أنّ المرء إذا تاه في شارعٍ فرعيٍّ سعى للوصول إلى الشارع الرئيسي ليتبيّن طريقه الصحيح فيسلكه. . إنّ التعبير عن المحكَمات بأمّ الكتاب يؤيِّد هذه الحقيقة أيضاً، إذ إنّ لفظة «أمّ» في اللغة تعني الأصل والأساس، وما إطلاق الكلمة على الأمّ إلاّ لأنّها أصل الأسرة والعائلة والملجأ الذي يفزع إليه أبناؤها لحلّ مشاكلهم، وعلى هذا فالمحكمات هي الأساس والجذر والأم بالنسبة للآيات الأخرى».

## سورة عبس من المتشابهات:

بعد أنْ عرّفنا القارئ حقيقة المحكَم والمتشابه، يتضح حينئذٍ أنّ سورة عبس ليست نصاً ظاهراً في رسول الله محمدﷺ، بل هي برزخ بين المجمَل والمؤوَّل وهو ليس إلاّ المتشابه.

أمّا عدم كونها نصّاً فلأجل أنّ الآيات تحتمل غير النبي؛ لأنّ النص هو أن لا يحتمل غير ما فهم منه، وسورة عبس تخالف النص.

وأمّا عدم كونها ظاهرةً في الرسولﷺ فلأجل أنّ الظاهر هو ما دلّ على معناه دلالة واضحة بحيث لا يتوقف فهم معناه على قرينة خارجيّة، ولم يكن معناه هو المقصود الأصلي من سياق الكلام، وآيات عبس ليست دالّة دلالة واضحة على أنّ المقصود رسول اللهﷺ، إذاً هي مشتركة بين المجمَل والمؤوَّل ولا يعني ذلك سوى التشابه الذي لا بدّ له من قرينة تصرفه عن إجماله وتشابهه، فيخرج من إجماله وإبهامه وتشابهه إلى جنة المحكَم والمفصَّل من الأدلة والبراهين كما سوف يأتي إنْ شاء الله تعالى، ولو أنّ الناس إذا جهلوا شيئاً أو تشابهت عليهم آية فرجعوا إلى مَن عندهم نزول الوحي واختلاف الملائكة

بالتمسّح بهم، لكانوا في غنىً عن التأويلات الشيطانيّة والوساوس الجنيّة، لكنهم رفضوا الإنصياع إلى أهل البيت عليهم السلام فضلّوا وأضلّوا، وصدق الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول: «وإنما هلك الناس في المتشابه؛ لأنهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء عليهم السلام فيعرّفونهم»[1]. وقال عليه السلام أيضاً: «نحن المُعَوَّلُ علينا في تفسيره، لا نتظنّى تأويله، بل نتبع حقائقه»[2].

آيات سورة «عبس وتولّى» كغيرها من المتشابهات التي لا يجوز التمسّك بظاهرها قبل الفحص عن المفصِّل والمفسِّر والموضِّح لمراداتها ومقاصدها، بل لا بدّ من التعامل معها ـ كبقيّة ظواهر الكتاب الكريم ـ من خلال ملاحظة القرائن المنفصلة والمتصلة النقلية والعقليّة حتى لا نقع في محذور المخالفة القطعيّة المستلزمة لنسبة التجسيم لله تعالى والظلم والذنب والمعاصي للأنبياء والمرسَلين عليهم السلام نظير عدد غير قليل من الآيات الدالة بظاهرها على ما ذكرنا ـ والتي سوف نعرض قسماً منها في الفصول القادمة إنْ شاء الله تعالى ـ فلا بدّ والحال هذه مِنْ صرفها إلى ما يتلاءم مع المضامين الأخرى للقطعيّات الشرعيّة والعقليّة، للوصول بها إلى درجةٍ من الظهور المستقر، ونعني بالظهور المستقر الظهور الذي يراعي المسلَّمات والقواعد القطعيّة العقليّة والشرعيّة، بخلاف الظهور غير المستقر وهو الظاهر البَدْوي من الآيات دون مراعاة للمسلَّمات المذكورة.

وفهم ظواهر الكتاب الكريم من خلال ملاحظة القرائن الصارفة عن المعنى

---

(١) وسائل الشيعة: كتاب القضاء ـ باب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ح٨.

(٢) نفس المصدر: ح٤٥.

البَدْوي هو الطريق المعتمَد عند علماء الإماميّة، فقد رفعوا اليد عن الظواهر البَدْوِيَّة لعددٍ غير قليلٍ من الآيات، لاستلزامها المخالَفة للأدلة القطعيّة العقليّة والنقليّة، ومن تلك الظواهر البدوية قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾... فإنه مخالف لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

وثمة طريقٌ آخر سلكه علماء العامّة وبعض الشواذ من الخاصّة، معتمدين على الظواهر البدويّة دون صرفها عن ظاهرها بما يتلاءم مع القطعيات الشرعية والعقلية، فوقعوا في محاذير تشبيه الخالق ونسبة الظلم إليه وما لا يليق به وبأنبيائه ورسله، فظهرت فيهم مقولات واهية كالتجسيم والجبر والتفويض، مستندين في ظنهم هذا إلى ما يتراءى من بعض الآيات، زاعمين أنّ ذلك هو الظاهر منها، غافلين عن أنه لا يعدو كونه ظهوراً بدوياً لها، وليس هو الظهور المستقر الذي يجب العمل على طبقه.

والآيات التي صُدّرت بها سورة «عبس» تصلح شاهداً على هذه المفارَقة، حيث اختلط الأمر على العامّة وبعض الشواذ من الخاصّة ـ لا سيّما المتمشيخين منهم فلم يراعوا القرائن القطعيّة في استلهام معناها وفهم المراد منها، ولعلّ السرّ في تغافلهم عن ضمّ القرائن القطعيّة إلى آيات سورة «عبس» يكمن في خلفياتهم العاميّة وزيغ قلوبهم، وظلمة عقولهم، وبرودة مشاعرهم، فصاروا كالجماد لا حراك فيه ولا حياة تعتريه ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولاستجلاء الحقيقة أكثر بشكلٍ أوضح وعلى ضوء استنطاق الأدلّة والقرائن القطعيّة لا بدّ من خوض غمار البحث العلمي المركّز ضمن ستة فصول مترابطة الأجزاء والعناصر لإثبات نزاهة رسول الله ﷺ وعصمته وطهارته.

إنّ نعْتَ النبي ﷺ بالعبوس في وجه الفقير هو توهينٌ لمقامه المقدَّس وتصغيرٌ لشأنه، ولا يقلّ عن دعوى سلمان رشدي والدعوات الأخرى الهدّامة التي تنزِّل من مقام رسول الرحمة وتضعه في أخسّ الأمكنة التي يتنَزَّه عنها أقلّ المؤمنين؛ ولو أننا نسبنا العبوس إلى أبي بكر أو عمر أو عثمان لقامت الدنيا علينا ولأفتوا بكفرنا، والسبب في ذلك أمران:

الأوّل: جهلهم بمقام النبي وعصمته.

الثاني: شدّة محبتهم لهؤلاء الصحابة وتقديمهم لهم على النبي الأكرم ﷺ وإلاّ لكان عليهم تنْزيهه ﷺ عن ذلك حرصاً على أخلاقه الرزينة وطهارته المصونة بنصّ الكتاب الكريم وأحاديث السنة الشريفة، ولكنّه المظلوم الذي لم تُراعَ له حرمة، ولم يُحفظ له كيان، فما قدروه حقّ قدره، ولا أنزلوه المقام الذي رتّبه الله عزّ وجلّ فيه، فسلامٌ عليك يا رسول الله ما أحلمكَ عن هذه الأمّة التي لم تراعِ لك ولآل بيتك حرمة!!

# الفصل الأول
# وفيه نقاط

**النقطة الأولى: أقوال علماء الإمامية بشأن نزول السّورة المباركة.**

**النقطة الثانية: سبب نزول آيات سورة عبس من طريق أئمّة الهدى عليهم السلام.**

**النقطة الثالثة: سبب نزول آياتها من طريق العامّة، والملاحظات الدّقيقة على مدّعاهم.**

# النقطة الأولى
# أقوال علماء الإمامية

قبل بيان النقطة الأولى لا بدّ من التدقيق في شأن نزولها وتفسير مفرداتها؛ ليكون القارئ على بيّنة من أمره في شخصيّة العابس وحقيقته.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ أي بسر وقبض وجهه، فالعبوس تقبض الوجه عن كره، والعبوس هو التقطيب. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي أعرَضَ بوجهه عنه، يُقال: تولى عنه أي أعرض عنه، وتولاّه بخلاف تولّى عنه، فإنّ تولاّه بمعنى عقد على نصرته، وتولّى عنه: أعرَضَ[1]. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ أي لأجل مجيء الأعمى، فأنْ: حرف مصدري، وجاءه الأعمى صلة «أنْ» المصدريّة لا محلّ لها من الإعراب، وأنْ المصدريّة وما بعدها بتأويل مصدر في محلّ جر بحرف الجر مقدَّر أي لأن جاءه، واللام للتعليل، والجار والمجرور في محلّ نصب بتولى أو بعبس متعلق بمفعول لأجله؛ أي لأجل مجيء الأعمى، وقيل: يجوز أنْ تكون «أنْ» بمعنى «إذ»، وفي هذا التقدير تكون جملة ﴿جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ في محلّ جرّ بالإضافة.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أيها العابس المتجهّم الوجه أيّ شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى، فـ «ما» إسم استفهام مبني على السكون في محلّ رفع مبتدأ، «يدري»:

---

(١) التبيان للطوسي: ١/ ٢٦٨.

فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره هو، والكاف ضمير متصل يعود إلى المخاطَب مبني على الفتح في محلّ نصب مفعول به، وجملة ﴿يُدْرِيكَ﴾ في محلّ رفع خبر «ما».

والخطاب في يدريك لا يقصد به النبي ﷺ، وإنما يُقصد به عثمان كما سوف يأتيك، ولو قلنا أنّ الخطاب قُصِدَ به النبي ﷺ لكن أُريد به غيره، فالمعنى هكذا: قل يا رسولي محمّد لعثمان الذي عبس بوجه الفقير أنّك عبستَ بوجهه محتقراً إيّاه لفقره وشدّة فاقته، لكنه غنيٌّ بالإيمان والتقوى وهما أفضل من المال قطعاً، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي كيف تجرأْتَ وعبستَ بوجهه لفقره في حين أنه طاهرٌ زكيٌّ، وهل يجازى التقي بالزجر والعبوس والإهانة أم أنه يُكرَم ويُحسَن إليه جزاءً لاعتقاده وإيمانه؟!

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ أي يتذكر ما أمره الله تعاليبه، ويفكّر فيما أمره بالفكر فيه، وقد حثّ الله تعالى على التذكير في غير موضع من القرآن فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي أيها العابس عثمان إنّك إذا جاءك الغني بالمال أو العظيم في قومه، فأنتَ له تصدّى أي تُعْرِض له وتقبل عليه بوجهك كتعرّض العطشان للماء، و«تصدى» أصله «الصدى» وهو العطش، ورجلٌ صديان أي عطشان.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ التزكي هو التطهّر من الذنوب، وأصله الزكاء وهو النماء، فلمّا كان الخير ينمي الإنسان بالتطهّر من الذنوب كان تزكّياً، ومعنى الآية: أيها العابس إنّكَ إذا جاءك غنيٌّ تتصدّى له وترفعه دون مبالاة أن يكون زكيّاً أو غير زكيٍّ ، المهمّ عندكَ أنْ يكون غنياً أو عظيماً في قومه، فالميزان

عندكَ هو الغنى والوجاهة دون اعتناءٍ بالعقيدة والإيمان والتقى، لذا فإنّ إبن أمّ مكتوم الطاهر عبست في وجهه وقبضتَ أنفكَ تأففاً منه، ويلٌ لكَ ثمّ الويل...

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي يعمل في الخير يعني إبن أمّ مكتوم ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يخاف الله ويتقه، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي تتغافل وتشتغل عنه بغيره، ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما فعل عثمان بل يجب احترام المؤمن ولا يُساوَى بالكافر و﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؟! كلاّ... ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي انّ آيات القرآن تذكير وموعظة للخلق ولكنّ أكثر الناس لا يعقلون، أو انّ آيات سورة عبس وتولّى تذكرة للعباد فلا يجوز الإعراض عن المستضعَفين من ذوي القلوب التقيّة الصافية والتوجه إلى المستكبِرين، أولئك الذين ملأ الغرور نفوسهم المريضة.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ أي لا إجبار ولا إكراه في تقبّل الهدى الرباني، فقد خاطب الله تعالى جميع الناس دون استثناء، وما على الإنسان إلاّ أنْ يستفيد منها.. وفي هذا دلالة على أنّ العبد قادرٌ على الفعل مخيَّرٌ فيه، لا كما يقول الأشاعرة بأنّ الإنسان أداة للكسب الإلهي فهو مجبَر على أفعاله خيرها وشرّها بزعمهم الباطل.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ أي هذه الآيات المُذكِّرة بالله في كتبٍ معَظَّمة عنده عزّ وجلّ ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ أي رفعها الله عن دنس الأنجاس ونزَّهَها عن ذلك ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي بأيدي الأئمّة عليهم السلام، وقيل: إنّ السفرة هم الملائكة. وكِلاَ التفسيرين صحيح، إلاّ أنّ الأنسب بالمراد هو الأئمّة عليهم السلام؛ لأنهم موصوفون بقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ والسَّفَرة: جمع سافر وهو الكاشف عن الشيء، ولذا يطلق على الرسول ما بين الأقوام بـ

«السفير» لما يكشف ويزيل الوحشة فيما بينهم، ويطلق على الكاتب اسم «السافر» وعلى الكتاب «سفر» لِمَا يقوم به من كشف موضوعٍ ما.

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ صفة للسفرة، وصفهم الله تعالى بأنهم كرام: جمع كريم، وهو الذي من شأنه أن يأتي بالخير من جهته من غير شائب يكدره، وهي صفة مدح، ومنه أُخِذَت الكرمة لشرف ثمرتها، والكرم يتعاظم، فالنبي ﷺ والوليّ عليه السلام أكرم ممّن ليس بنبيٍّ وولي، والمؤمن أكرم ممّن ليس بمؤمن، والبررة جمع بارّ تقول: برّ فلانٌ فلاناً يبرّه فهو بارّ: إذا أحسن إليه ونفعه.

والبرّ فعل النفع اجتلاباً للمودّة، والبارّ فاعل البِرّ، ويُطلَق على الفرد الصالح إسم «البار» لسعة خيره وشمول بركاته على الآخرين.

والبررة في الآية هم المطيعون لله تعالى، الطاهرون من التلوث بقذارات المعاصي والذنوب والخطايا وكلّ ما يبعّد عن الله تعالى.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ أي عُذِّبَ ولُعِنَ الإنسان وهو الكافر، وأبرز مصاديقه العابس ومَن تقدّمه، والتعبير بـ: «قُتل» كناية عن شدّة غضب الله عزّ وجلّ عليه؛ وذلك لشدّة كفره ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ وأبين ظلاله، وهذا وقع منه عزّ وجلّ على وجه التقريع للعابس والتوبيخ له لِمَا اعتقده وصنعه، وقيل: يُحمَل على التعجّب منه كأنّه قد قال: تعجبوا منه ومن كفره مع كثرة الشواهد على التوحيد والإيمان.

ثمّ بيَّنَ الله سبحانه من أمره ما كان يجب معه أنْ يعلم أنّ الله عزّ وجلّ خالقه ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾ لفظة استفهام ومعناه التقرير، وقيل: معناه لِمَ لا ينظر إلى أصل خلقته من أيّ شيءٍ خلقه الله ليدلّه على وحدانيّة الله تعالى.

ثم فسّر فقال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ أطواراً نطفة ثم علقةً إلى آخر خلقه ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾ أي سهَّلَ له سبيل الخير في دينه ودنياه بأنْ بيّنه وأرشده إليه

ورغَّبَهُ فيه، فهو يكفر بهذا كلّه ويجحده ويضيّع حقّ الله تعالى عليه في ذلك من الشكر وإخلاص العبادة. وقيل: يسّر خروجه من بطن أمّه وذلك أنّ رأسه كان إلى رأس أمّه، وكذاك رِجلاه إلى رِجلَيْها فقلبه الله عند الولادة ليسهِّلَ خروجه منها، وقيل: سهَّلَ له طريق الخير والشّر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝٢١﴾ الإماتة: إحداث الموت، وهو أمرٌ حتميٌّ به تطوى آخر صفحات الحياة الدنيا... ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾؛ الإقبار: جَعْلُ القبر لدفن الميّت فيه، يُقال: أقبره إقباراً، والقبر الحفرة المهيّأة للدفن فيها، ويقال: أقبرني فلان أي جعلني أُقبِرُه، فالمقبر هو الله تعالى يأمر عباده أنْ يقبروا الناس إذا ماتوا، والقابر هو الدافن...

ونُسِبَ القبر إلى الله تعالى ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ مع أنّ الدفن على ظاهره من عمل الإنسان، ويعود السر في ذلك أنّ الله سبحانه هو الذي هيّأ للإنسان ما يحتاجه للدفن، فالحقيقة بيد الله تعالى، وما يقوم به الإنسان اعتبار.

وقيل: نسب الله ذلك إليه، باعتبار تهيئة الأرض قبراً للإنسان، وقيل: تمثل الآية حكماً شرعيّاً وأمراً إلهيّاً في دفن الأموات.

وعليه؛ فالدفن من عناية ولطف وتكريم الله عزّ وجلّ للإنسان، فلولا أمره عزّ وجلّ بالدفن لَبَقِيَت أجساد البشر الميتة على الأرض لتكون عُرْضَةً للتعفن والتفسُّخ طعاماً للحيوانات الضارية، فيكون الإنسان ـ والحالةُ هذه ـ في موضع الذلة والمهانة، ولكنّ لطف الله عزّ وجلّ على الإنسان في حياته وبعد مماته أوسع مما يلتفت فيه الإنسان لنفسه أيضاً. وقد حَكَمَت الشريعة بوجوب دفن الأموات ـ بعد الغسل والتكفين والصلاة ـ ليكون طاهراً محتَرَماً في موته، فكيف به يا تُرى وهو حيٌّ؟!

والموت في الحقيقة عبارة عن أمرين:

الأوّل: مقدمة الخلاص من أتعاب وصعاب هذا العالَم، والإنتقال إلى عالَمٍ أوسعٍ، وهو رحمة للمؤمنين، ونقمة على الكافرين والمنافقين.

الثاني: فسح المجال لتعاقب الأجيال على الحياة الدنيا لمتابعة مشوار التكامل البشري بصورةٍ عامّةٍ، ولولا الموت لضاقت الأرض بأهلها، ولَمَا كان ممكناً أنْ تستمرَّ عجَلَة الحياة على الأرض.

فالدنيا ـ وبالرغم ممّا تحويه من نِعَمٍ ربّانيَّةٍ ـ لا تعدو عن كونها سجن المؤمن وجنّة الكافر، فموت المؤمن يعني إطلاق سراحٍ له من هذا السجن الكئيب.

مضافاً إلى أنّ النِّعَم إذا أصبحَتْ سبباً لوقوع المؤمن في الغفلة عن ذِكْرِ ربِّهِ، يصير الموت خير رادعٍ لإيقاظه، ولئلاّ يقع في الشرك، فهو ـ في هذه الحالة ـ نعمة جليلة.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ بعد أنْ ذكر سبحانه المرتبتين السابقتين وهما الإماتة والإقبار، عقبهما بالإنشار، والمراد منه الإحياء والبعث، وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ إشعاراً بأنّ وقته غير معلومٍ لنا، فتقديمه وتأخيره موكولٌ إلى مشيئة الله، وأمّا سائر الأحوال المذكورة قبلَ ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه، إذ الموت وإنْ لم يعلم الإنسان وقته، ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلاّ حدّاً معلوماً.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ قيل: إنّ ﴿كَلَّا﴾ بمعنى: حقّاً؛ ولكنّ سياق الآية وظاهر الكلمة لا يؤيدان ذلك، فالأصحّ أنْ تكون بمعنى «الرّدع» لوجود الكثيرين من المغرورين المدَّعين أنهم قد أدّوا وظائفهم الشرعيّة بشكلٍ تامٍّ، فجاءت الآية لتكذِّبَ دعواهم.

قال الرّازي: إنّ قوله ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عن تكبّره وترفّعه أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد وعلى إنكاره البعث والحشر والنشر.

وفي قوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ وجوه:

أحدها: قال مجاهد لا يقضي أحدٌ جميع ما كان مفروضاً عليه أبداً، وهو إشارة إلى أنّ الإنسان لا ينفكّ عن تقصير البتّة، وهذا التفسير عندي فيه نظر؛ لأنّ قوله ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ الضمير فيه عائدٌ إلى المذكور السابق وهو الإنسان في قوله ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ وليس المراد من الإنسان ههنا جميع الناس بل الإنسان الكافر.

وثانيها: أنْ يكون المعنى أنّ الإنسان المترفّع المتكبّر لم يقضِ ما أُمِرَ به من ترك التكبّر، إذ المعنى أنّ ذلك الإنسان الكافر لم يقضِ ما أمر به من التأمّل في دلائل الله تعالى، والتدبُّر في عجائب خلقه وبيّنات حكمته.

وبالجملة فإنّ سياق هذه الآيات يشير إلى أنّ هذا الإنسان الذي لم يقضِ ما أمره به الله عزّ وجلّ هو نفسه العابس عثمان بن عفّان، فيتطابق الصدر مع الذيل في بيان حقيقته مع زميليه المتقدّمَين عليه، إذ هو أدنى رتبةً منهما قطعاً حسبما ورد في الأخبار، فما ثبت للأدنى من الأحكام والآثار ثبت للأعلى منه بطريقٍ أَوْلَى، فتأمّلْ.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾؛ لمّا نبّه الله تعالى على عظيم قدرته على إحياء الخلق بعد موتهم ليجازيهم على أعمالهم، فقد أشار عزّ وجلّ بهذه الآية وما بعدها إلى الدلائل الآفاقيّة الدالة على وجود مدبّر لهذا الكون، وأنّه حكيمٌ وقادرٌ، وأنه سيحاسِب على كلّ صغيرة وكبيرة يوم يفرّ المرء من أقرب النّاس إليه لينجو بنفسه، فأمر عزّ وجلّ أن يعتبر ويتّعظ الإنسان بطعامه الذي دبّره له

المولى العظيم، هذا الغذاء الذي يمثل أحد العوامل الرئيسية في بناء الجسم، ولولاه لتقطّعَت أنفاس الإنسان، ولذلك جاء التأكيد القرآني على الغذاء وبالذات النباتي منه، ثمّ قرنه بالماء حيث لا يمكن العيش بدونه، فهو أساس حياة عامّة المخلوقات عدا الملائكة.

مضافاً إلى أنّ الإطلاق في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ يفيد وجوب النظر إلى كيفيّة حصوله؛ هل كان من حلالٍ أم من حرام؟ هل هو مشروعٌ أم غير مشروعٍ؟ هل هو طيّبٌ أم خبيث؟ أي ينظر إلى طعامه نظرة المتعظ ونظرة المتأمّل والمتدبّر والخائف...

وبعبارةٍ أخرى: لا بدّ أنْ يكون النظر من حيثيتين: حيثيّة الإتعاظ والتأمّل، وحيثيّة التشريع والتدبّر.

كما أنّ حذف المتعلق في قوله تعالى ﴿وَطَعَامُهُ﴾ يفيد العموم، من حيث شموله للعلم لكونه غذاءً للروح الإنسانيّة، فحذفه للمتعلق دالٌّ على شمول الطعام للعلم، وهذا ما أشارت إليه الأخبار من طرقنا، فقد ورد في خبر زيد الشحّام عن المولى الإمام أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ قلت: وما طعامه؟ قال عليه السلام: علمه عمّن يأخذه[1].

وعليه؛ لمّا كان المستفاد من ظاهر الآية الطعام الذي يدخل في عمليّة بناء الجسم، فلا يمنع من تعميمه ليشمل الغذاء الرّوحي أيضاً بل العِلْم أهمّ من الغذاء المادّي؛ لأنّ الإنسان في تركيبته مكوَّن من جسم وروح، فكما أنّ الجسم يحتاج إلى الغذاء المادّي فكذا الروح بحاجة إلى الغذاء المعنوي.

---

(١) تفسير البرهان: ٥/ ٥٨٤ح١١٣٨٩ وح١١٣٩٠.

وفي الوقت الذي يجب على الإنسان أنْ يكون فيه دقيقاً متابعاً لأمر غذائه وباحثاً عن مقدّمات تحصيله كالمال الحلال والكسب الحلال حسبما ورد عنهم القول: «لا تزلّ قدم عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس: . .عن ماله فيما اكتسبه ومما أنفقه. . ». وكذا يجب أنْ يكون متدبّراً لآيات الله تعالى والتي منها الماء المصبوب من السماء ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ كما عليه أيضاً أنْ يهتمّ في أمر غذائه الروحي وباحثاً عن مَنشئه، وهو غيث الوحي الإلهي النازل على قلب رسول الله محمّدﷺ وآله الأطهار عليهم السلام وخزنة العلم ومهبط الوحي ومعدن الرحمة وساسة العباد واركان البلاد. . . فهذا العلم ينبع من صفحات قلوبهم الطاهرة ليسقي القلوب الموات عسى أنْ تثمر ألوان الثمار الإيمانيّة اللذيذة، كيف لا وقد ورد عنهم عليهم السلام القول: «إنّ روح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة».

والآية الشريفة بمعونة الخبر الشريف فيها دلالة واضحة ـ لمن ألقى السمع وهو شهيد ـ على وجوب تلقي العلم من المصادر الموثوقة، عبر الحجج الطاهرين عليهم السلام ونبذ كل ما يخالفهم، ومن هذا القبيل الرأي القائل بأنّ سورة عبس نزلت في الرسول الأكرمﷺ؛ فإنه قول المخالفين، فلا بدّ أنْ يُنْظَر إلى المسألة بعين الإنصاف، وأنْ تُتْرَكَ العصبيّة وهي التحمس للصحابة أو ما يُسمّى بالسلف الصالح، فصار الصحابي معصوماً عن الزلل والخطأ، في حين نسبوا الخطأ إلى رسول الله وآله الأطهار الذين نزلت بحقهم آيات الكتاب الكريم تطهّرهم وتنَزههم عن كلّ ذلك. . .

فكما يجب شرعاً وعقلاً النظر إلى حلّ الطعام ومصدره، كذا يجب النظر إلى مصدر عقيدته وأحكامه فلا يجوز أخذهما من المجاهيل والمشكّكين وغير العارفين بعقائد وأحكام الله عبر البوابة الرئيسة وهي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

وأهل بيته الطاهرين، فكلّ ما خالفهم هو زخرف يجب طرحه؛ لأنّ في طرحه الرّشد والصواب.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾ أي نزَّلنا الغيث إنزالاً، وكأنه قال: أنظر ـ أيها الإنسان ـ كيف حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة، وكيف بقي معلَّقاً في جوّ السماء مع غاية ثقله، وتأمّل في أسبابه القريبة والبعيدة، حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته وفي تدبير هذا الخَلْق.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾ فالشق قطع الشيء طولاً، فبيّن تعالى أنه يشقّ الأرض ويخرج منها ما أنبته من أنواع النبات، فلينظر الإنسان إلى حدوث طعامه أو نبات طعامه؛ لأنه موضع الإعتبار، ثمّ إنه عزّ وجلّ ذكر ثمانية أنواع من النبات:

(أولها): الحَبّ: وهو المشار إليه بقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾ وهو كلّ ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب التي تدخر. وإنما قدّم ذلك لأنه كالأصل في الأغذية.

(وثانيها) قوله تعالى: ﴿وَعِنَبًا﴾ وخصّه وما بعده بالإسم لكثرة فوائده ومنافعه.

(وثالثها): قوله تعالى: ﴿وَقَضْبًا﴾ فيه أقولٌ ثلاث:

الأوّل: أنّه الرطبة وهي القت[1].

الثاني: أنه العلف بعينه، وأصله من أنّه يقضب أي يقطع.

---

(١) القت: نبت حبّ بريّ يأكله أهل البادية بعد دقّه وطبخه.

الثالث: أنه ثمار النباتات الزاحفة كالخيار والبطيخ أو النباتات الأرضيّة كالبصل والجزر وما شابههما . . .

(ورابعها وخامسها): قوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾، الزيتون معروف، والنخل هو شجر الرطب والتمر، ومنافعهما كثيرة جدّاً.

(وسادسها): قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ الحديقة هي البستان المحوط، وجمعه حدائق، ومنه أحدق به القوم: إذا أحاطوا به، ومنه: الحدقة لما أحاط بها من جفنها، والغلب جمع أغلب وغلباً وهي الغلاظ الأعناق من الشجر، فالشجرة الغلباء أي الغليظة، وأسد أغلب أي غليظ العنق.

(سابعها): قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ أي ثمر الأشجار التي فيها النفع والإلذاذ، يقال تفكَّهَ بكذا: إذا استعمله للإستمتاع به، والفاكهة تكون رطبة ويابسة، والأبّ هو المرعى من الحشائش وسائر النبات الذي ترعاه الأنعام والدّواب، ويقال: أبّ إلى سيفه فاستلّه كقولك هبّ إليه وبدر إليه.

ومن طريف ما نقله جمهور العامّة عن أبي بكر وعمر تعقيباً على الآية المباركة: أنّ عمر بن الخطّاب قرأ يوماً على المنبر: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَبًّا﴾ قال: كلّ هذا عرفناه، فما الأبُّ؟! ثمّ رمى عصاً كانت في يده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلُّف، فما عليكَ أنْ لا تدري ما الأبّ!! إتّبعوا ما تبيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلوه إلى ربّه[1].

وأغرب من ذلك ما ورد في الدر المنثور عن أبي بكر حينما سُئل عن ذلك

---

(١) راجع التفاسير التالية: روح المعاني ـ القرطبي ـ ظلال القرآن ـ الدرّ المنثور.

قال: أيُ سماءٍ تظلُّني وأيُّ أرضٍ تقلُّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم، أمّا الفاكهة فنعرفها، وأمّا الأبّ فالله أعلم به(١).

وقد اتخذ علماء العامّة هذين الحديثين قاعدة مطردة في عدم جواز التكلم فيما لا يُعلم، وعلى الأخص في كتاب الله تعالى...

ولكننا نوجّه لهؤلاء السؤال التالي: كيف يجوز الإعتقاد بكون خليفة الله ورسوله جاهلاً حتى بكتاب الله تعالى الذي هو دستورٌ عامٌّ للمسلمين، وفيه أحكام دينهم ومعالم عقيدتهم، لا سيّما وأنّ بعض المفردات القرآنيّة ومنها كلمة «أبّاً» ليست من معضلات اللغة؟!! فجهل الخليفة المزعوم بأبسط المعارف القرآنية وموارد اللغة العربيّة يقتضي القول بأنهم كانوا خلفاء الجهل والشيطنة والظلم، وأين هم من سيّد الموحِّدِين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أمير البلغاء والفصحاء وقاضي الأمّة وقسيم النار والجنّة، الذي قال عنه رسول الله: «أنا من عليّ وعليٌّ مني» «لا تسبّوا عليّاً فإنه ممسوسٌ بنور الله» «وإنه نفسي..».

إنّ تقمّص هؤلاء للخلافة مع جهلهم المطبق بمعرفة كتاب الله تعالى ـ في حين تشدّق وأرعد عمر معترضاً على النبيّ ﷺ (وهو على فراش الموت لمّا أمرهم بإحضار دواةٍ وكتفٍ ليكتب لهم كتاباً لن يضلّوا من بعده أبداً) بقوله: حسبنا كتاب الله إنّ الرّجل ليهجر ـ فكيف يكون كتاب الله حسيبه، وفي الوقت نفسه لا يعرف معنى كلمة «أبّاً»؟!!

نعرض هذا الإشكال على أتباعه فهو برسم الجواب، ولا أعتقد أنّ عندهم الجواب الشافي..

---

(١) الدر المنثور وتفسير البرهان نقلاً عن الإرشاد للمفيد.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ المتاع هو كل ما يستفيده الإنسان ويتمتع به، والأنعام هي الماشية بنعمة المشي من الإبل والبقر والغنم بخلاف الحافر بشدّة وطئه بحافره من الخيل والبغال والحمير.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾ أي القيامة، وقيل أنها صيحة القيامة، سُمِّيت بذلك لأنها تصخّ الآذان أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمّها. ثمّ بيّن شدّة أهوال ذلك اليوم فقال:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ الأخ والأم والأب والأبناء، كلّ ذلك معروفٌ عند كلّ النّاس، أمّا الصاحبة فهي الزوجة، فالإنسان يوم الصاخة لا يلتفت إلى واحدٍ من هؤلاء لِعِظَمِ ما هو فيه وشغله بنفسه وإنْ كان في الدنيا متعلّقاً بهم.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ يراد بـ «امرئ» الذكر من الناس، وتأنيثه امرأة، فينطبق اللفظ المذكّر على المرأة تغليباً، والمعنى: أنّ لكلّ إنسانٍ أمراً عظيماً يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم، ثمّ يقَسِّم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بأمرٍ من الله العباد ـ طبقاً لِمَا ورد بالمتضافر: عليٌّ قسيم الجَنَّة والنّار وانه من رجال الأعراف ـ إلى قسمين: أهل الجنّة وأهل النيران، وذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ أي مشرقة مضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ من سرورها وفرحها بما أعدّ لها من الثواب والنعيم المقيم.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠﴾ أي سوادٌ وكآبة للهمّ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي سواد وكسوف عند معاينة النار ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ في أديانهم ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ في أفعالهم.

**وخلاصة الكلام:**

إنّ السّورة المبارَكة أشارت إلىٰ الحقائق التالية:

١ ـ عتابٌ قاسٍ شديد التعنيف والزجر لعثمان بن عفّان الذي أساء معاملة إبن أمّ مكتوم التقيّ الصالح.

٢ ـ كفر وجحود الإنسان ـ لا سيّما العابس ـ بالنعم الإلهيّة.

٣ ـ سياق أواخر السورة مشهدٌ تامٌّ لأوصاف أهل جهنّم وهي تأكيد لصدور السورة الكاشف عن أوصاف العابس المتطابقة مع أوصاف أهل جهنّم؛ ولأنّ أهل الجنّة لا يتصفون بأخلاق أهل النار، والعبوس والقتر والغبرة أوصافٌ جهنّميّةٌ تعبّر عن حقيقة خارجيّة، فأوصاف العابس مسانخة لأوصاف الجهنّميين.

٤ ـ تذكير الإنسان بحقيقة ومصدر وجوده؛ لإقناعه بقدرة الله علىٰ البعث والحساب.

٥ ـ إنّ محور الكلام في السورة هو شخصان متقابلان في الدّعوة إلىٰ الإسلام: أحدهما: العابس، وثانيهما: السفرة البررة الكرام، من هنا جاءت تسميتها بسورة عبس وبسورة السَّفَرَة.

وبناءً عليه؛ فإنّ صدرها يختلف عن ذيلها، ففي الصدر توبيخ وزجر وتأنيب وصفاتٌ قبيحة، وفي الذيل مقابلة بين الوجوه المستبشرة بالسعادة تعلو شفاهها الإبتسامة، وبين وجوه كالحة ترهقها قترة من العبوس والإسوداد، وشتّان ما بينهما.

يتضح ممّا سبق أنّ سياق آياتها ليس فيه ما يشير ـ لا من قريب أو بعيد ـ

إلى أنّ العابس هو رسول الله ﷺ؛ لأنّ العبوس ليس صفة مدح حتى يكون هو رسول الله ﷺ؛ لأنّه ﷺ لا يتصف إلاّ بأحسن الصفات سوآء أكان قبل التبليغ أم بعد التبليغ، فكيف الحال لو كان ذلك حال التبليغ؟ فقد دلّت الأدلّة القطعيّة على تنزيهه عن العبوس لأنه من قبائح الأفعال، فلا بدّ ـ بحسب القسمة الثنائية المنطقيّة ـ أنْ يكون المقصود بالخطاب غيره قطعاً، بمعنى أنّ العابس يدور بين رجلين: إمّا النبي ﷺ وإما غيره، وبما أنّ الأدلّة نفت عن النبي ﷺ ذلك، ثبت القول بأنّ المراد غيره.

إنّ جلّ آيات عبس من المتشابهات التي لا يجوز العمل بها قبل الفحص عن المحكَم تماماً كالعام والمطلَق لا يجوز العمل بهما قبل الفحص عن المخصِّص والمقيِّد، وقد قامت القرائن المنفصلة والمتصلة في نفس السورة وخارجها على أنّ العابس هو غير النبيّ ﷺ، حيث إنّ بعض الأخبار أشارت إلى أنه عثمان بن عفّان، ولكونه أيضاً ذا سوابق من هذا النوع، فيثبت لدينا أنه المقصود بسورة عبس لا أحدَ غيره.

هذا ما أحببتُ ذكره قبل بيان النقاط الثلاث.

**النقطة الأولى: أقوال علماء الإماميّة.**

أجمع علماء الإماميّة على أنّ المراد بالعابس في الآيات رجلٌ من بني أميّة، ولم يخالف في ذلك أحد سوى بعض الشواذ باستدلالاتهم على المطالب حيث رجّحوا رجوع الضمائر إليه ﷺ، متغافلين عصمته ومكارم أخلاقه وشخصيته الكريمة، ضاربين عرض الجدار الأدلّة الدالة على تلك العصمة، والأنكى من ذلك أنهم صاروا يؤوّلون آيات سورة عبس بما يتناسب وخلفياتهم ومرتكزاتهم العقيديّة والتاريخيّة والسياسيّة، بل ادّعى بعض المتمشيخين المتلوّنين أنّ الآيات مديح لرسول الله ﷺ وليست في مقام الذم والتوبيخ...

والذي نراه أنّ هذا الرأي مضافاً إلى فساده في نفسه، ومخالفته لآيات هذه السورة وسائر الآيات الدالة على سماحة ودماثة خُلُق النبيّ الأكرم ﷺ، قبل وحال التبليغ وبعده، وكذا الآثار الصحيحة والأدلّة القطعيّة، يوجب هتك مقامه الشريف وعصمته وعظمة أخلاقه. . . وقد فنّدنا في الفصول الآتية تلك المقالة السخيفة والواهية وبيّنّا مخالفتها للكتاب الكريم والأدلّة الأخرى، ولا خير في رأي مخالف للقرآن العظيم، فما خالفه فهو زخرف يجب طرحه، وها نحن نستعرض بعض آراء أكابر الإماميّة ممّن كتبوا في تفسير سورة عبس. . وإليكَ ـ أخي القارئ ـ جملة من كلماتهم وتعليقاتنا عليها:

## كلام الشيخ الجليل المحدِّث
## عليّ بن إبراهيم القمّي المتوفى عام ٣٠٧

قال في تفسيره المشهور: [نزلت في عثمان وابن أمّ مكتوم، وكان ابن أمّ مكتوم مؤذّناً لرسول الله ﷺ وكان أعمى، فجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه، وعثمان عنده، فقدّمه رسول الله ﷺ على عثمان، فعبس عثمان وجهه وتولّى عنه فأنزل الله عبس وتولّى يعني عثمان أنْ جاءه الأعمى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③﴾ أي: يكون طاهراً أزكى ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ قال: يذكره رسول الله ﷺ ثمّ خاطب عثمان فقال: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥﴾ قال: أنتَ إذا جاءَكَ غنيٌّ تتصدّى له وترفعه ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦﴾ أي: لا تبالي زكيّاً كان أو غير زكيّ إذا كان غنيّاً ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧﴾ يعني ابن أمّ مكتوم ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾ أي: تلهو ولا تلتفت إليه[1].

---

(١) تفسير القمّي: ٢/ ٤٣١.

**ملاحظات هامّة:**

**الملاحظة الأولى**: انّ عليّ بن إبراهيم صاحب التفسير المذكور من ثقات مشايخنا المتقدّمين، وهو أحد مشايخ الشيعة في أواخر القرن الثا لث وأوائل القرن الرّابع، ويكفي في عظمته أنه من مشايخ الكليني وقد أكثر في الكافي الرّواية عنه، حتى بلغت روايته عنه سبعة آلاف وثمانية وستين مورداً[(١)].

وعرّفه النجاشي بقوله: عليّ بن إبراهيم، أبو الحسن القمّي، ثقة في الحديث، ثَبِتٌ معتَمَد، صحيح المذهَب، سَمِعَ فأكثر وصنّف كتباً[(٢)].

وقال الشيخ الطوسي في الفهرس: عليّ بن إبراهيم بن هاشم القمّي له كتب، منها كتاب التفسير، وكتاب الناسخ والمنسوخ.

إذن؛ الرَّجُل ثقة جليل، وقد روى أحاديثه في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام، وفي بعضه حَذْفٌ للسَّنَد المتصل بالمعصوم، مكتفياً بإسناده إلى نفسه بقوله: «عليّ بن إبراهيم قال: . . .» وذلك للإختصار ليس إلاّ.

**الملاحظة الثانية**: إنّ جميع الرّواة المذكورين في أسناد أحاديث كتابه ثقات عنده، وقد شهد القمي على نفسه بذلك، فقال في مقدّمة كتابه: [ونحن ذاكرون ومخبرون بما انتهى إلينا ورواه مشايخنا وثقاتنا عن الذين فرض الله طاعتهم وأوجب ولايتهم ولا يقبل عمل إلاّ بهم وهم الذين وصفهم الله تبارك وتعالى وفرض سؤالهم والأخذ منهم][(٣)]. وقال صاحب الوسائل: «قد شهد عليّ بن إبراهيم أيضاً بثبوت أحاديث تفسيره، وأنها مرويّة عن الثقات عن

---

(١) معجم رجال الحديث: ١٨/ ٥٤ في ترجمة الكليني الرقم ١٢٠٣٨.

(٢) رجال النجاشي: رقم ٦٨٠.

(٣) ديباجة تفسير القمي: ١/ ٣٠.

الأئمّة عليهم السلام»[١]. وقال صاحب معجم رجال الحديث المحقّق الخوئي رحمه الله: «إنّ عليّ بن إبراهيم يريد بما ذكره إثبات صحّة تفسيره وأنّ رواياته ثابتة وصادرة من المعصومين عليهم السلام وأنها انتهت إليه بوساطة المشايخ والثقات من الشيعة، وعلى ذلك فلا موجب لتخصيص التوثيق بمشايخه الذين يروي عنهم عليّ بن إبراهيم بلا واسطة كما زعمه بعضهم»[٢].

يتضح من خلال هاتين الملاحظتين أنّ بعض ما وقع في التفسير بلا سند متّصل بالمعصوم عليه السلام مردُّه الإختصار، لا أنه قول المفسِّر ورأيه في الآية التي يتعرّض لها، مضافاً إلى أنه نقلها من مشايخه الثقات عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام.

أحببت ذكر هاتين الملاحظتين حى لا يتوهّم أحدٌ أنّ أسْنَاد التفسير المذكور ليس متّصلاً بالأئمّة عليهم السلام؛ بل العكس هو الصحيح حسبما أفدنا.

الملاحظة الثالثة: إنّ مفاد الخبر ـ الذي أورده القمي في سبب نزول السورة ـ هو إعراض عثمان عن إبن أمّ مكتوم، وفحواه يختلف عمّا ذكره المخالِفون بأمرين:

الأوّل: إنّ السورة ـ بحسب زعمهم نزلت في رسول الله ﷺ ـ في حين أنّ هذا الخبر يفيد نزولها في عثمان.

الثاني: إنّ النبي ﷺ ـ وكما يدّعي المخالفون ـ كان عنده صناديد قريش يريد تأليفهم للإسلام، في حين أنّ الخبر الشريف ينفي ذلك، بل يدلّ على أنّ

(١) الوسائل: ٢٠/ ٦٨ الفائدة٦.

(٢) معجم رجال الحديث: ١/ ٤٩ المقدّمة الثالثة.

بعض أصحابه كانوا متواجدين عنده، ومن جملتهم عثمان بن عفّان.

وسبب انقلاب عثمان على إبن أمّ مكتوم يرجع في الواقع ـ وبحسب ما أفاد الخبر الشريف ـ إلى تنويه النبيﷺ بالضرير وتقديمه على عثمان، مما أوجب إنفة عثمان على الضرير وعبوسه في وجهه استكباراً وعلوّاً.

ولم يشر الخبر إلى ماهيّة التقديم المذكور، هل أنّ النبي قام من مجلسه احتراماً لإبن أمّ مكتوم أو أنه ذكره بخير فاستشاط عثمان غضباً؟ كِلاَ الأمرين جائز، فالمهمّ أنّ النبيﷺ لم يظهر منه سوى التقدير والإحترام للضرير، وليس كما صوّره أولئك الحمقى والمغفَّلون بحقّ نبيّ الرّحمةﷺ.

ما أفاده الخبر الشّريف هو الصحيح عند الإماميّة، وأمّا الرتوشات الأخرى التي ألصقوها به فغير موجودة في مصادرنا، بل هي في مصادر المخالِفين، عدا عن مخالفتها للكتاب الكريم، وموافقتها لعقائد العامّة التي منها عدم قولهم بعصمة الأنبياء مطلَقاً، ولا خير فيما وافقهم وخالف الكتاب الكريم.

* * *

## كلام السيد المرتضى المتوفى عام٤٣٦هـ

ذكر السيد المرتضى في كتابه «تنزيه الأنبياءﷺ»: [فإنْ قيل أليس قد عاتب الله تعالى نبيهﷺ في إعراضه عن إبن أمّ مكتوم لمّا جاءه وأقبل على غيره بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾.. وهذا أيسر ما فيه أنْ يكون صغيراً.

(الجواب): قلنا أمّا ظاهر الآية فغير دالٍّ على توجّهها إلى النبيﷺ ولا فيها ما يدلّ على أنّه خطابٌ لهﷺ، بل هي خبر محض، لم يصرِّح بالمُخبر

عنه، وفيها ما يدلّ عند التأمّل على أنّ المعنيّ بها غير النبي ﷺ لأنه وصفه بالعبوس وليس هذا من صفات النبي ﷺ في قرآنٍ ولا خبرٍ مع الأعداء المنابذين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين، ثمّ وصفه بأنه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء، وهذا مما لا يصف به نبيّنا عليه السلام مَن يعرفه، فليس هذا مشبهاً لأخلاقه ﷺ الواسعة وتحننه على قومه وتعطّفه، وكيف يقول وما عليك ألاّ يزّكّى وهو ﷺ مبعوثٌ للدعاء والتنبيه، وكيف لا يكون ذلك عليه وكان هذا القول إغراءً بترك الحرص على إيمان قومه. وقد قيل إنّ هذه السورة نزلت في رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ كان منه هذا الفعل المنعوت فيها، ونحن إنْ شككنا في عين مَن نزلت فيه فلا ينبغي أنْ نشكّ في أنها لم يُعنَ بها النبي ﷺ، وأيّ تنفير أبلغ من العبوس في وجوه المؤمنين والتلهّي عنهم والإقبال على الأغنياء الكافرين والتصدّي لهم وقد نزّه الله تعالى النبي ﷺ عمّا دون هذا من التنفير بكثير][1].

نلخّص كلام السيّد المرتضى بالأمور التالية مع زيادة وتوضيح من قبلنا:

الأمر الأوّل: إنّ ظاهر آيات سورة عبس لا يدلّ على توجّهها إلى النبي ﷺ، وليس فيها ما يدلّ على أنه خطابٌ له، بل هو من هذه الناحية مجمَل ولا يتعيّن المراد إلاّ بنصب قرينة على التعيين، بل الآيات جمل إخباريّة تكشف عن واقعِ شخصٍ صَدَرَ منه عملٌ مشينٌ وقبيحٌ، ولم يُصرَّح عنه احتقاراً له وإهمالاً لحاله.

الأمر الثاني: إنّ ظاهر الآيات التوبيخ بسبب العبوس وهي صفة قبيحة؛ وإلاّ لَمَا استوجب التوبيخ عليها، فإنّ الصفة الجميلة لا يوبّخ عليها صاحبها بل

---

(١) تنزيه الأنبياء للعلاّمة الشريف المرتضى: ١١٨ ـ ١١٩/ منشورت الشريف الرضي.

يمدحه العقلاء بسببها، ونبيّنا الكريم ليس ديدنه العبوس حتى مع الأعداء فضلاً عن الأتقياء أمثال إبن أمّ مكتوم رضي الله عنه.

الأمر الثالث: إنّ الآيات وصَفَت العابس بصفات أخرى كالتصدّي للأغنياء والتلهّي عن الفقراء، ويظهر أنّ العابس كان متّصِفاً ومتلبّساً بهذه الصفات في كلّ الأوقات، وليس في محضر النبي ﷺ فحسب، أمّا نبينا فليس من صفاته التصدّي للأغنياء والتلهّي عن الفقراء، لا قبل البعثة ولا بعدها، بل العكس صحيح حيث كان معروفاً بتحننه على الفقراء والمساكين...

الأمر الرّابع: كيف يقول له: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وقد بعثه عزّ وجلّ للدّعاء وتنبيه الآخرين من نوم الغفلة، ولو لم تكن تزكيته للآخرين من شؤونه ومختصّاته لكان قوله: «وما عليكَ ألاّ يزّكّى» إغراءً له بترك الحرص على إيمان قومه، والإغراء بذلك قبيحٌ يتنزَّه عنه الباري عزّ وجلّ.

الأمر الخامس: إنّ السورة نزلت في رجل من أصحاب رسول الله ﷺ كان منه هذ الفعل المنعوت فيها، ولم يذكر السيّد المرتضى إسم ذاك الصحابي تقيّةً وإلاّ فإنّ الصحابي هو عثمان وذلك لأمرين: الأوّل: لأنّ المخالفين ينَزِّهون عثمان عن العبوس دون غيره من صحابة النبيّ مما يقتضي القول بنُزول السورة فيه، والثاني: ورود إسمه في أخبارنا.

الأمر السّادس: في حال الشك في هويّة العابس فالأصل يقتضي عدم كونه الرسول الأكرم ﷺ، فيُحمَل العبوس على غيره؛ لأنّ الله تعالى نزّه نبيّه عن الأدنى من العبوس، فلِمَ لا ينَزّهه عن الأقبح؟!! مضافاً إلى أنّ مَن لم تصدر منه صغيرة منفِّرة طوال عمره مذ كان صغيراً إلى يوم شهادته، فكيف تصدر منه كبيرة منفِّرة؟!!

## كلام الشيخ الطوسي المشهور بشيخ الطائفة المتوفى عام ٤٦٠هـ

قال ﵀ في كتابه «التبيان في تفسير القرآن»: [واختلفوا فيمن وصفه الله تعالى بذلك، فقال كثير من المفسِّرين وأهل الحشو: إنّ المراد به النبي ﷺ، قالوا وذلك أنّ النبي ﷺ كان معه جماعة من أشراف قومه ورؤسائهم قد خلا بهم فأقبل إبن أمّ مكتوم ليسلِّمَ فأعرض النبي ﷺ عنه كراهية أنْ يكره القوم إقباله عليه فعاتبه الله على ذلك. وقيل: إنّ إبن أمّ مكتوم كان مُسَلِّماً، وإنما كان يخاطب النبي ﷺ وهو لا يعلم أنّ رسول الله مشغول بكلام قوم، فيقول يا رسول الله.

وهذا فاسد، لأنّ النبي ﷺ قد أجل الله قدره عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب، وقد وصفه بأنه ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، وكيف يُعرِض عمّن تقدّم وصفه مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ومَن عرف النبي ﷺ وحُسْن أخلاقه وما خصّه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة حتى قيل إنه لم يصافح أحداً قط فينْزع يده من يده، حتى يكون ذلك الذي ينْزع يده من يده. فمَن هذه صفته كيف يقطِّب في وجه أعمى يطلب الإسلام، على أنّ الأنبياء ﵈ منزَّهون عن مثل هذه الأخلاق وعمّا هو دونها لِمَا في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم، ولا يجوِّز مثل هذا على الأنبياء مَن عَرَفَ مقدارهم وتبيَّنَ نعتهم.

وقال قوم: إنّ هذه الآيات نزلت في رجل من بني أميّة كان واقفاً مع النبي ﷺ، فلمّا أقبل إبن أمّ مكتوم تنفّر منه، وجمع نفسه وعبس في وجهه

وأعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك وأنكره معاتبةً على ذلك][(١)].

لقد عرض الشيخ الطوسي رحمه الله رأي العامّة وأورد عليه بالنقوض، ثمّ تلاه رأي الإماميّة، وأحاله على القيل وذلك مراعاةً للتقيّة، والمُلاحَظ من كلمات المتقدِّمين عدم التعرُّض لإسم عثمان إلاّ ما يُنقَل عن عليّ بن إبراهيم في تفسيره، ولعلّ السرّ يكمن ـ والله العالِم ـ أنّ القمّي كان نزيل قم حيث لا مجال للتقيّة فيها بعد أنْ كان أهلها كلهم شيعة موالون لأهل البيت عليهم السلام بخلاف النجف يومذاك حيث كانت ترزح تحت نير سلاطين الجور من فلول بني العبّاس، لذا كان العمل بالتقية حفظاً لدمائهم أوجب من ذِكرِ إسم العابِس، أو قد يكون ذكر الإسم وعدمه متفاوتاً بتفاوت عوامل الخوف من علمائنا المتقدِّمين يومذاك ولا زالت إلى يومنا هذا، إلاّ ما ابتدعه السيد الخميني من رَفْعِ التقيّة عن أتباعه بمقالته المعروفة: «لا تقيَّةَ بعد اليوم».

## كلام الحافظ محمّد بن عليّ بن شهر آشوب السروي المتوفى عام٥٨٨هـ

قال في كتابه متشابه القرآن: [﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ الآيات ظاهرها لا يدلّ على أنها خطابٌ له صلى الله عليه وآله بل هو خبر محض لم يصرّح بالمخبَر عنه يدلّ عليه أنه وصفه بالعبوس، وليس هذا من صفات النبي في قرآن ولا خبر مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين، بل في القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، ثمّ إنّه نفيعنه العبوس ونحوه بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

---

(١) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩، دار إحياء التراث العربي.

﴿لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، ثمّ إنّه وصفه بأنه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى بالفقراء[١] وهذا مما لا يوصَف به النبي ﷺ؛ لأنه كان متعطّفاً متحنّناً، وقد أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وكيف يقول ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ وهو مبعوثٌ للدّعاء والتنبيه، وكيف يجوز ذلك عليه وكان هذا القول إغراءً بترك حرصه على إيمان قومه وإنما عبس صحابيٌّ ذكرنا شرحه في المثالب][٢].

* * *

## كلام العلاّمة حسين بن عليّ العلوي من علماء القرن الخامس

العلاّمة المذكور هو أحد كبار الإماميّة في القرن الخامس الهجري؛ أجرى حواراً مع أحد كبار علماء العامّة في محضر الملك شاه السلجوقي ووزيره نظام الملك المتوفى عام ٤٨٥هـ:

[فقال العلّوي: ثمّ إنّ السنّة ينسبون إلى رسول الله ما لا يجوز حتى على الإنسان العادي.

قال العباسي: مثل ماذا؟

قال العلوي: مثل أنهم يقولون أنّ سورة عبس وتولّى نزلت في شأن الرسول ﷺ!

قال العبّاسي: وما المانع من ذلك؟

---

(١) الصحيح: [ويتلهّى عن الفقراء].

(٢) متشابه القرآن ومختلفه: ٢/ ١٢.

قال العلوي: المانع قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهل يُعقَل أنّ الرسول ﷺ الذي يصفه الله تعالى بالخُلُق العظيم ورحمة للعالَمين أنْ يفعل بذلك الأعمى المؤمن هذا العمل اللاإنساني؟!

قال الملك: غير معقول أنْ يصدر هذا العمل من رسول الإنسانيّة ونبيّ الرّحمة، إذن: أيُها العلويّ فيمن نزلت هذه السورة؟

قال العلوي: الأحاديث الصحيحة الواردة عن أهل بيت النبي ﷺ الذين نزل القرآن في بيوتهم تقول: إنها نزلت في عثمان بن عفّان، وذلك لمّا دخل عليه إبن أمّ مكتوم فأعرض عنه عثمان وأدار ظهره إليه.

وهنا انبرى السيّد جمال الدين (وهو من علماء الشيعة وكان حاضراً في المجلس) وقال: وقد وقَعَت لي قصّة مع هذه السّورة وذلك:

أنّ أحد علماء النصارى قال لي: إنّ نبيّنا عيسى أفضل من نبيّكم محمد ﷺ.

قلت له: ولماذا؟

قال: لأنّ نبيّكم كان سيّئ الأخلاق، يعبس للعميان ويدير إليهم ظهره، بينما عيسى كان حَسَن الأخلاق يبرئ الأكمه والأبرص.

قلت: أيّها المسيحيّ، إعلم أنّنا نحن الشيعة تقول إنّ السّورة نزلت في عثمان بن عفّان، لا في رسول الله ﷺ، وإنّ نبيّنا محمد ﷺ كان حَسَن الأخلاق، جميل الصفات، حميد الخصال، وقد قال فيه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال المسيحيّ: لقد سمعتُ هذا الكلام الذي قلتَه من أحد خطباء المسجد في بغداد!!

قال العلوي: المشهور عندنا أنّ بعض رواة السّوء وبائعي الضّمائر نسبوا هذه القصّة إلى رسول الله ﷺ ليبرّئوا ساحة عثمان بن عفّان؛ فإنّهم نسبوا الكذب إلى الله والرسول ﷺ حتى ينزّهوا خلفاءهم وحكّامهم!!][1].

يتلخّص كلام العلاّمة العلوي بالأمور الآتية:

الأمر الأوّل: ثمّة مانعٌ شرعيٌّ وعقليٌّ من أنْ يكون العابس هو النبي ﷺ.

فالمانع الشرعي هو منافاة العبوس لخُلُقِهِ العظيم ولرحمته الواسعة، والمانع العقلي أو العرفي هو كون العبوس منفراً من قبول الدّعوة وبعيداً عن إنسانيته كنبيٍّ عظيمٍ فضّله الله عزّ وجلّ على عامّة خلقه بسعة رحمته ووفور حِلْمِهِ.

الأمر الثاني: إنّ الأخبار الصحيحة من طرقنا دلّتْ على أنّ العابس هو عثمان بن عفّان.

الأمر الثالث: إنّ العبوس ـ عرفاً ـ من علائم الأخلاق السيئة فلا يصدر من سيّد الرّحمة والخُلُق الرفيع.

الأمر الرّابع: إنّ العبوس لم يصدر من النبيّ عيسى ﷺ ولا أحد من أنبياء الله تعالى وهم أدنى رتبةً من الرسول الأكرم ﷺ بإجماع الأمّة، لذا لا يجوز أنْ يتّصف به سيّدهم محمّد رسول الله بطريقٍ أَوْلَى.

* * *

(١) محمّد جميل حمّود/ أبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد: ٢/ ١٧٩و١٩١.

## كلام الشيخ الطبرسي المتوفى عام ٥٤٨هـ

عرض الشيخ الطبرسي رأي العامّة في شأن نزول سورة عبس، مفنّداً إيّاه، ثم عرض رأي السيد المرتضى داعماً له، وقد استغلّ أحد المشكّكين هذا العرض لصالحه مؤيّداً القول الذي أرسله الطبرسي على نحو «القيل». وها هي عبارته كاملاً ليتضح الصبح لذي عينين، قال ﷺ: [قيل: نزلت الآيات في عبد الله ابن أمّ مكتوم وهو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطّلب وأبيّاً وأميّة ابني خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم فقال: يا رسول الله أقرئني وعلّمني مما علّمَكَ الله فجعل يناديه ويكرّر النّداء ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله لقطعه كلامه وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والعبيد فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلّمهم فنَزلت الآيات.

وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه وإذا رآه قال: «مرحباً بمَن عاتبني فيه ربّي» ويقول له: «هل لكَ من حاجة؟» واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين، وقال أنس بن مالك: فرأيته يوم القادسيّة وعليه درع ومعه راية سوداء.

قال المرتضى علم الهدى قدّس الله روحه: ليس في ظاهر الآية دلالة على توجّهها إلى النبي ﷺ، بل هو خبرٌ محض لم يصرَّح بالمخبَر عنه، وفيها ما يدلّ على أنّ المعنيّ بها غيره ﷺ؛ لأنّ العبوس ليس من صفات النبي ﷺ مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين ثمّ الوصف بأنه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ

كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالظاهر أنّ قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ المراد به غيره.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ، فجاء إبن أمّ مكتوم، فلمّا رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه، فإنْ قيل: فلو صحّ الخبر الأوّل هل يكون العبوس ذنباً أم لا؟ فالجواب أنّ العبوس والإنبساط مع الأعمى سواء، إذ لا يشقّ عليه ذلك فلا يكون ذنباً؛ فيجوز أنْ يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيّه ﷺ ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق، وينبّهه بذلك على عظيم حال المؤمن المسترشِد، ويعرِّفَه أنّ تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه.

وقال الجبائي: في هذا دلالة على أنّ الفعل يكون معصية فيما بعد لمكان النهي، فأمّا في الماضي فلا يدلّ على أنّه كان معصية قبل أنْ ينهى عنه والله سبحانه لم ينهه إلاّ في هذا الوقت. وقيل: إنّ ما فعله الأعمى نوعاً من سوء الأدب فحسن تأديبه بالإعراض عنه، إلاّ أنه كان يجوز أنْ يتوهّم أنه أعرض عنه لفقره، وأقبَلَ عليهم لرياستهم تعظيماً لهم فعاتبه الله سبحانه على ذلك. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله إبن أمّ مكتوم قال: «مرحباً مرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيكَ أبداً» وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكفّ عن النبي ﷺ مما يفعل به][1].

ملاحظة هامّة:

لقد تبنّى الشيخ الطوسي رأيَ مَن تقدّمه من علماء الإماميّة في شأن نزول

---

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٢٠٩و٢١٠.

السورة برجلٍ من بني أميّة، ثمّ فنّد الرأي المقابل لرأي الإماميّة، موجِّهاً الخبر الذي اعتمده المخالفون على فرض صدوره، فقال: «فإنْ قيل: لو صحّ الخبر الأول هل يكون العبوس ذنباً أوّلاً؟ والجواب. . .» وقد اشتبه مَن في قلبه مرَضٌ، فأوَّلَ كلام الشيخ الطبرسي على غير ظاهره ومراده فوجّهه إلى مسار المخالفين لينال بذلك الحظوة عندهم والتقرُّبَ إليهم.

والإنصاف أنّ تأويل الطبرسي للخبر زاد الطين بلّةً، وعكّر صفو المسألة، فكان الأَوْلَى الإعراض عنه؛ لأنّ الأعمى وإنْ كان لا يشقّ عليه العبوس لعدم رؤيته النبيﷺ يفعل ذلك، إلاّ أنّه يترتّب عليه مفسَدَة العَبَث في الفعل وعدم نشوء مصلحة مترتبة على العبوس، وفعل القبيح يتنزَّه عنه الحكيم، فضلاً عن سيّد الحكماء محمّد رسول اللهﷺ.

* * *

## كلام الشيخ أبي الفتوح الرّازي المتوفّى عام ٥٨٨هـ

قال رحمه الله في تفسيره روض الجنان: [إنّ المفسِّرين قالوا في سبب نزول الآيات أنّ عبد الله ابن أمّ مكتوم كان رجلاً مكفوفاً وهو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، جاء إلى النبيﷺ هو يتكلّم مع عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام وعبّاس بن عبد المطّلب وابني أميّة بن الخلف، ويدعوهم إلى الإسلام، حرصاً على إيمانهم، وهذا الرّجل كان أعمى ولا يبصر أنّ النبيّ يشتغل بهم، فقال: يا رسول الله أقرئني وعلّمني ممّا علَّمَكَ الله، قاله مرّة ومرّتين ورسول اللهﷺ يتولّى عنه، ويكره أنْ يقطع كلامه، ولم يحب أنْ يقول الكفّار: إنّ أتباعه العميان والسفلة، فلذا ظهر في وجهه

الكراهة، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾. وهذا قول عبد الله بن عبّاس وقتادة ومجاهد والضحّاك.

لكن وقع الخلاف بين المفسِّرين في المراد بالعبوس وأنّ هذه المذكورات صفاتٌ لمن؟ فجماعة قالوا: إنّ ال معنيّ بها هو رسول الله ﷺ، لكنّ المحقِّقين قالوا: لم يرد بها الرسول ﷺ، فإنّ هذه صفاتٌ مذمومة، ولو نسب إلى بعض العلماء والفقهاء لتنفر عنها، فكيف في حقّ النبي ﷺ الذي نزّهه الله تعالى عن هذه الصّفات المذمومة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ وقد وصفه بحُسْنِ الخُلُق وكرامة الطّبع بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، وفي الأخبار المتواترة أنّ سيرته مع أعدائه والكفّار كان على خلاف ذلك فكيف مع أحبائه والمؤمنين به.

وقد جاء في الرّوايات أنه صافح عبداً أسود كريه الخلْق والرائحة ولم يسوِّغ أن ينْزَع يده من يده، حتى ابتدأ هو بنَزْع يده من يد النبي ﷺ من فرط حيائه وكرامة خُلُقِهِ، على أنّ ذلك من المنفِّرات بلا شبهة، والرّسول مُنَزَّه عن المنفِّرات الأخلاقيّة، وقد رووا أنّ العابس رجلٌ من بني أميّة كان حاضراً لدى النبي ﷺ فلمّا جاءه الأعمى جمع نفسه تعزُّزاً وترفُّعاً وأعْرَضَ عنه بوجهه؛ فأنزل تلك الآيات، وهذا القول أقرب إلى الصواب من القول الأوّل لدلالة القرآن وتواتر الأخبار على خلافه]. إنتهى كلامه.

ملاحظة:

قوله رحمه الله: لكنّ المحققين قالوا: «لم يرد بها الرسول ﷺ فإنّ هذه صفاتٌ مذمومة..» واضح الدّلالة على أنّ الفضلاء من العلماء نزّهوا رسول الله ﷺ عن

العبوس، ولم ينسب العبوس إليه ﷺ إلاّ كلّ جاهلٍ مغرور كغرور عثمان ونظيرَيْه.

* * *

## كلام المحدِّث الكاشاني المتوفى عام ١٠٩١هـ

قال في تفسير الصافي: [عن القمّي قال: نزلت في عثمان وإبن أمّ مكتوم، وكان إبن أمّ مكتوم مؤذّناً لرسول الله وكان أعمى وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدّمه رسول الله على عثمان، فعبس عثمان وجهه وتولّى عنه، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ يعني عثمان ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾، وفي المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: نزلت في رجُلٍ من بني أميّة كان عند النبي ﷺ فجاء إبن أمّ مكتوم فلمّا رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ أي يكون طاهراً زكيّاً ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ قال: يذّكّره رسول الله... ثمّ قال: وأمّا ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات في النبي ﷺ دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير اللائقة بمنصبه، وكذا ما ذكر بعدها إلى آخر السّورة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، ويشبه أنْ يكون من مختلقات أهل النفاق خذلهم الله تعالى]. إنتهى كلامه.

* * *

## كلام العلاّمة الطباطبائي

قال في تفسيره: [وردت الرّوايات من طرق أهل السنّة أنّ الآيات نزلت في قصّة إبن أمّ مكتوم الأعمى، دخل على النبي ﷺ وعنده قومٌ من صناديد قريش

يناجيهم في أمر الإسلام، فعبس النبي ﷺ عنه، فعاتبه الله بهذه الآيات. وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة إلى ذلك[١].

وفي بعض روايات الشيعة أنّ العابس المتولي رجل من بني أميّة كان عند النبي ﷺ فدخل عليه إبن أمّ مكتوم فعبس الرّجل وقبض وجهه فنَزلت الآيات...

وكيف كان الأمر فغَرَض السورة عتاب مَن يقدّم الأغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة ثمّ ينحرّ الكلام إلى الإشارة إلى هوان أمر الإنسان في خلقه وتناهيه في الحاجة إلى تدبير أمره وكفره مع ذلك بنعم ربّه وتدبيره العظيم لأمره و تتخلص إلى ذكر بعثه وجزائه إنذاراً، والسورة مكية بلا كلام...][٢].

وقال في بحثه الروائي: [روى السيوطي في الدر المنثور القصة عن عائشة وأنس وابن عبّاس على اختلافٍ يسير وما أورده الطبرسي محصّل الروايات.

وليست الآيات ظاهرة الدلالة على أن المراد بها هو النبي ﷺ بل خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه بل فيها ما يدل على أن المعني بها غيره لان العبوس ليس من صفات النبي ﷺ مع الاعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين. ثم الوصف بأنه يتصدى للاغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى رحمه الله.

---

(١) يقصد ما رواه الطبرسي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى إبن أمّ مكتوم قال: مرحباً مرحباً لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً...

(٢) تفسير الميزان: ٢٠/ ١٩٩.

وقد عظم الله خُلُقه ﷺ إذ قال ـ وهو قبل نزول هذه السورة ـ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ والآية واقعة في سورة [ن] التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فكيف يعقل أن يعظم الله خُلُقه في أول بعثته ويطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية ويذمه بمثل التصدي للاغنياء وإن كفروا والتلهي عن الفقراء وإن آمنوا واسترشدوا.

وقال تعالى أيضا : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء : ٢١٥] فأمره بخفض الجناح للمؤمنين والسورة من السور المكية والآية في سياق قوله : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ النازل في أوائل الدعوة.

وكذا قوله : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر: ٨٨]، وفي سياق الآية قوله : ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤] النازل في أول الدعوة العلنية فكيف يتصور منه ﷺ العبوس والاعراض عن المؤمنين وقد أمر باحترام إيمانهم وخفض الجناح وأن لا يمد عينيه إلى دنيا أهل الدنيا.

على أن قبح ترجيح غنى الغني ـ وليس ملاكاً لشيء من الفضل ـ على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض عن الفقير والإقبال على الغني لغناه قبح عقلي منافٍ لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج في لزوم التجنب عنه إلى نهي لفظي.

وبهذا وما تقدمه يظهر الجواب عما قيل: إن الله سبحانه لم ينهه ﷺ عن هذا الفعل إلا في هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلا بعده وأما قبل النهي فلا.

وذلك أن دعوى أنه تعالى لم ينهه إلا في هذا الوقت تحكم ممنوع، ولو سلم فالعقل حاكم بقبحه ومعه ينافى صدوره كريم الخلق وقد عظم الله خلقه ﷺ قبل ذلك إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ وأطلق القول، والخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها.

وعن الإمام الصادق عليه السلام ـ على ما في المجمع ـ أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

وفي المجمع وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رآى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحباً مرحباً، والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي ﷺ مما يفعل به.

أقول: الكلام فيه كالكلام فيما تقدمه، ومعنى قوله: حتى أنه كان يكف «الخ» أنه كان يكف عن الحضور عند النبي لكثرة صنيعه به انفعالاً منه وخجلاً][(١)].

هذه نبذة من كلمات أكابر علماء الشيعة قديماً وحديثاً، وظاهر كلماتهم أنّ الشيعة الإماميّة متفقون على أنّ المعنيَّ بتلك الآيات غير النبي ﷺ، وأنّ القول بتوجيهها إليه ﷺ مردودٌ عندهم.

* * *

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٢٠٣و٢٠٤.

## النقطة الثانية
## سبب نزولها من طرق الشيعة ـ أيّدهم المولى عزّ وجلّ ـ

ثمّة ثلاث روايات من طرقنا تشير إلى أنّ العابس غير النبي ﷺ، واثنتان منها تشيران إلى أنّ عثمان هو المقصود.

**الرواية الأولى:**

عن عليّ بن إبراهيم القمّي بإسناده إلى المعصوم عليه السلام قال: نزلت في عثمان وابن أمّ مكتوم. . .إلخ، وقد تقدَّم ذِكْرُها.

**الرواية الثانية:**

عن الطوسي مرسلاً إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: إنها نزلت في رجُلٍ من بني أميّة كان عند النبي ﷺ فجاء إبن أمّ مكتوم فلمّا رآه تقذَّرَ منه وجمع نفسه وعَبَسَ وأَعْرَضَ بوجهه، فحكى الله سبحانه ذلك، وأنكَرَهُ عليهِ.

هذه الرواية تفسِّر الرواية الأولى، إذ إنّ عثمان بن عفّان من بني أميّة، فلا تَعَارُضَ بينهما.

نعم، ثمّة إشكالٌ على الرّواية الأولى من حيث كونها مرسلة أيضاً ومقتطعة السند فلا يثبت الإستدلال بها على المطلوب.

والجواب:

ـ إنّ القمّي ـ أعلى الله مقامه ـ وإنْ لم يذكر الرواية بعنوان أنها رواية إلاّ أنّ الظاهر منه أنها مضمون الرّوايات وإنْ لم يصرِّح بذلك، بل ظاهره قطعيّة ذلك من خلال طريقين:

الأوّل: ما ذكرناه سابقاً في الملاحظة الثانية على رواية القمّي قدّس سرّه من أنّه رحمه الله لا ينقل مروياته في كتابه إلاّ عن الثقات من مشايخه، مما يقتضي القول بأنّ أسانيد كتابه صحاح.

الثاني: من حيث كونه رحمه الله في مقام تفسير القرآن، ولا يجوز التفسير بالرأي ولا بروايات آحاد، فمن البعيد جدّاً أن ينسب العبوس إلى عثمان دون أنْ يكون ثمّة روايات في البَيْن، وذلك لجلالة قدره ووثاقته وأمانته؛ لأنّ اختلاق رواية على عثمان خلاف الوثاقة بل هي في الواقع كذب على الإمام الصادق عليه السلام، وشيخنا الجليل منَزَّه عن كلّ ذلك بالأصل العقلائي والدليل الشرعي.

مضافاً إلى أنّ صاحِبَي تفسير البرهان ونور الثقلين قد نقلا عن القمّي ذلك بعنوان الرواية وليس شيءٌ آخر؛ لأنّ وضع كتابيهما مبتنٍ على التفسير بالرّوايات وليس على نقل الآراء.

ـ قام الإجماع عند الإماميّة أنّ العابس هو غير النبي ﷺ، وقد أرسلوا ذلك في كتب التفسير إرسال المسَلَّمَات، كما أنّ شيخ الطائفة ـ أعلى الله مقامه الشريف ـ إستدلّ على خلاف ما ذكره عامّة مفسِّرِي العامّة بعدم نزولها في حقّ النبي ﷺ مدّعياً بذلك الإجماع الإمامي بقوله: «وقال قوم» ومقصوده بالقوم هم الشيعة في مقابل العامّة، وكذا ما في كتاب «مؤتمر علماء بغداد» حيث أشار العلويّ إلى وجود أحاديث صحيحة واردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام تدلّ على

نزول السورة بعثمان بن عفّان، فيظهر من هذا أنّ الأخبار كانت كثيرة ثم اختَفَتْ بسبب التقيّة والخوف، أو القهر الذي لحق بالشيعة الإماميّة.

**الرواية الثالثة:**

ما رواه الطبرسي مرسلاً إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى عبد الله ابن أمّ مكتوم قال: مرحباً مرحباً، والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكفّ عن النبي مما يفعل به.

والرّواية من حيث السَّنَد مرسَلَة، ولا حجّيّة في المراسيل، لا سيّما وأنها ـ بحسب النظر البَدْوي ـ تنسب إلى النبي التوبة من سابق فعله المنَفِّر من قبول الدّعوة وهو معصية يفترض تنَزُّه الأنبياء عليهم السلام عنها، فضلاً عن سيّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يجوز ـ حينئذٍ ـ الإستدلال بأمثال الأخبار المرسَلَة والآحاد بل حتى الأخبار الصحيحة على إثبات المعاصي للأنبياء عليهم السلام، فلا بدّ من طرحها بما يوجب تنزيه المرسَلين عن وصمة العار والمعاصي والمنفِّرات.

ولكنّ الإنصاف أنّ الرّواية لا تدلّ بظاهرها على الدّعوى الآنفة الذكر، بل كلّ ما فيها ـ إنْ صَحَّتْ نسبة صدورها إلى مولانا الإمام الصادق عليه السلام ـ نفي النبي صلى الله عليه وآله أنْ يكون الله تعالى قد عاتبه في إبن أمّ مكتوم، فيكون ما صدر منه صلى الله عليه وآله إنما هو لدفع التصوّر الرائج بأنّ السورة نزلت في النبي صلى الله عليه وآله، وكأنه يقول لإبن أمّ مكتوم: لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، فإني لست ممّن يعاتبني الله فيك لا في الماضي ولا في الحاضر والمستقبل، ف ـ «لا» النافية تعمل عمل ليس، وكلمة «أبداً» تفيد التأبيد الماضي والمستقبَلي.

ولو سلّمنا عدم ظهورها بما أفدنا، فحينئذٍ يقع التعارض بينها ـ على فرض تحقق شروط التعارض، لكنه غير متوفر لكونها لا تكافئ الأخبار الأخرى

المعارِضة لها ـ وبين الخبرين المتقدِّمَين، فيترجّحان عليها بلا منازع، فتسقط ساعتئذٍ عن الاستدلال بالاتفاق.

تبقى الإشكاليّة على كثرة لطفه به إلى درجة إخجاله، لكنّ الأمر سهلٌ من جهة دلالة الآيات على عناية خاصّة من الله عزّ وجلّ به من فقره وعماه وانكسار قلبه عمّن عبس في وجهه من أحد أقطاب بني أميّة، فلا بدّ حينئذٍ لرسول الله المبعوث رحمةً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ أنْ يلاطفه رحمةً به وتمييزاً له عمّن جفاه بالعبوس والتولّي.

وبالجملة؛ كان النبي ﷺ يكثر اللطف والرّحمة به لِمَا شاهده من عناية الله تعالى به، وكان يكثر لطفه إلى حدّ ينفعل الأعمى ويستحي من عَظَمَة النبي ﷺ وما يفعل به من الإحسان، فكان يطلب من النبيّ الكف عن ذلك.

وبناءً عليه؛ فإنّ الرّواية المذكورة مؤكِّدة لِمَا في الروايتين الأوليين الدالَّتَيْن على عدم نزول الآيات برسول الله ﷺ، لا أنها معارِضة لِمَا في الروايتَيْن المذكورَتَيْن كما استظهره بعضهم.

وعلى كلّ حال؛ فإنّ الإماميّة تبعاً لأئمتهم ﷺ قائلون بنُزُول الآيات في غير النبي ﷺ، ولو فرض لهذه الرّواية ظهور على خلاف ذلك، لوجب معالجتها على ضوء القواعد الرجالية والأصول الفقهيّة.

والخلاصة:

إننا لا نعتمد في تنزيه نبينا ﷺ عن المنفِّر والسَّفَه والخطأ على هذين الخبرين بل لنا أدلّة قاطعة من الكتاب والسنّة الطاهرة تنفي عنه كلّ ذلك، نعم هذان الخبران يؤكِّدان عصمته وطهارته كما أنهما يثبتان نزول السورة في عثمان بن عفّان، وهذا لوحده كافٍ في إثبات المطلوب، ومع هذا فإننا لم نكتفِ بما

النقطة الثانية سبب نزولها من طرق الشيعة ـ أيّدهم المولى عزّ وجلّ ـ ............٩١

ذُكِر، ولنا في البحوث الآتية أدلّة تثبت نزاهة النبي ﷺ عن العبوس في وجه الضرير إبن أمّ مكتوم رضي الله عنه.

* * *

## النقطة الثالثة
## سبب نزول آيات سورة عبس من طريق العامّة

روايات العامّة في هذا المضمار كثيرة جدّاً، ولعلّ كلّها أو أكثرها بين ظاهرة أو صريحة في أنّ الذي عبس هو رسول الله ﷺ، وأنّ الأعمى هو إبن أمّ مكتوم، من هنا ادّعى الرازي ـ وهو أحد أكابر علماء العامّة، بل لعلّه قطب الأقطاب في التفسير ـ الإجماع على ذلك، قال: [أجمع المفسّرون على أنّ الذي عبس وتولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وأجمعوا على أنّ الأعمى هو إبن أمّ مكتوم..][1].

وجُلُّ هذه الروايات في مصادرهم التفسيريّة لا سيّما الدرّ المنثور وأسباب النُّزول للسيوطي والواحدي، وإليكَ قسماً منها:

**الرواية الأولى:**

ما رواه السيوطي عن الترمذي والحاكم عن عائشة قالت: أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في إبن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٥٥.

يعرض عنه ويقبل على الآخر، فيقول له: أترى بما أقول بأساً، فيقول: لا، فنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ٢﴾[1]، وروى أبو يعلى مثله عن أنس. وعن إبن المنذر وإبن حيّان والحاكم وإبن مردويه عن عائشة[2].

**الرواية الثانية:**

روى الواحدي عن محمّد بن عبد الرّحمان المصاحفي بسنده المتصل إلى هشام بن عروة عن عائشة قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١﴾ في إبن أمّ مكتوم الأعمى، أتى النبيﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله رجال من عظماء المشركين، فجعل النبي يعرض عنه ويُقْبِل على الآخرين، ففي هذا أُنزِلَت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١﴾.

رواه الحاكم في صحيحه عن عليّ بن عيسى الحيري عن العتابي عن سعيد بن يحيى[3].

**الرواية الثالثة:**

وعن الواحدي قال: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ٢﴾ هو إبن أمّ مكتوم، وذلك أنه أتى النبيﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبيّاً وأميّة ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام إبن أمّ مكتوم وقال: يا رسول الله عَلِّمني ممّا عَلَّمَكَ الله، وجعل يناديه ويكرِّر النداء، ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله

---

(١) أسباب النزول للسيوطي المطبوع في هامش تفسير إبن عبّاس.

(٢) الدر المنثور: ٦/ ٥١٧.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ٣٦٥.

لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس رسول الله وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحباً بمَن عاتبَني فيه ربّي[١].

**الرواية الرابعة:**

وأخرج إبن المنذر وإبن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ في مجلس من ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل وعتبة وربيعة، فيقول لهم: أليس حسناً أنْ جئت بكذا وكذا؟ فيقولون: بلى والله، فجاء إبن أمّ مكتوم وهو مشتغلٌ بهم فسأله فأعرَض عنه، فأنزل الله ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ يعني إبن أمّ مكتوم[٢].

**الرواية الخامسة:**

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال: جاء إبن أمّ مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلّم أبيّ بن خلف، فأعرض عنه، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه[٣].

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٣٦٥، وتفسير أبي السعود العماري المطبوع في هامش تفسير الرازي.

(٢) الدرّ المنثور: ٦/ ٥١٨ ـ دار الكتب العلميّة ط. عام ١٩٩٠م.

(٣) المصدر السابق عينه.

**الرواية السادسة:**

وأخرج إبن جرير وإبن مردويه عن إبن عبّاس قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة والعبّاس بن عبد المطّلب وأبا جهل بن هشام، وكان يتصدّى لهم كثيراً، ويحرص أنْ يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أمّ مكتوم يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، قال: يا رسول الله: علِّمْني مما عَلَّمَكَ الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه، وتولّى، وكره كلامه، وأقبل على الآخرين. فلمّا قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ثمّ خفق برأسه ثمّ أنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ فلمّا نزل فيه ما نزل أكرمه نبيّ الله وكلمه يقول له: ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟[١].

**الرواية السابعة:**

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وإبن المنذر عن أبي مالك في قوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ قال: جاءه عبد الله بن أمّ مكتوم، فعبس في وجهه وتولّى، وكان يتصدّى لأميّة بن خلف، فقال الله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾[٢].

**الرواية الثامنة:**

أخرج إبن أبي حاتم عن الحكم قال: ما رؤي رسول الله ﷺ بعد هذه الآية متصدّياً ولا معرِضاً عن فقيرٍ[٣].

---

(١) الدرّ المنثور: ٦/ ٥١٨ ـ دار الكتب العلميّة ط. عام ١٩٩٠م.

(٢) المصدر السابق عينه.

(٣) المصدر السابق عينه.

**الرواية التاسعة:**

أخرج إبن سعد وإبن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ قال: هو رسول الله ﷺ لقي رجلاً من أشراف قريش فدعاه إلى الإسلام، فأتاه عبد الله بن أمّ مكتوم، فجعل يسأله عن أشياء من أمر الإسلام، فعبس في وجهه، فعاتبه الله في ذلك، فلمّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ إبن أمّ مكتوم فأكرمه واستخلفه على المدينة مرّتين(١).

**الرواية العاشرة:**

أخرج الحاكم وصحّحه وإبن مردويه في شعب الإيمان عن مسروق قال: دخلتُ على عائشة وعندها رجل مكفوف تقطع له الأترج وتطعمه إياه بالعسل، فقلت: مَن هذا يا أمّ المؤمنين؟ فقالت: هذا إبن أمّ مكتوم الذي عاتب الله فيه نبيّه ﷺ، قالت: أتى نبي الله وعنده عتبة وشيبة، فأقبل رسول الله ﷺ عليهما فنَزَلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ إبن أمّ مكتوم(٢).

**الرواية الحادية عشرة:**

أخرج عبد الحميد عن مجاهد قال: كان النبي ﷺ مستخلياً بصنديد من صناديد قريش وهو يدعوه إلى الله وهو يرجو أنْ يسلم إذ أقبل عبد الله بن أمّ مكتوم الأعمى، فلمّا رآه النبي ﷺ كره مجيئه، وقال في نفسه: يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس فنَزل الوحي ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى آخر الآية(٣).

---

(١) الدرّ المنثور: ٦/ ٥١٨ ـ دار الكتب العلميّة ط. عام ١٩٩٠م.
(٢) المصدر عينه: ٦/ ٥١٩ ـ دار الكتب العلميّة ط. عام ١٩٩٠م.
(٣) الدرّ المنثور: ٦/ ٥١٩ ـ دار الكتب العلميّة ط. عام ١٩٩٠م.

## الرواية الثانية عشرة:

قال إبن هشام: [ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله، ورسول الله يكلّمه، وقد طمع في إسلامه، فبينا هو في ذلك، إذ مرّ به إبن أمّ مكتوم الأعمى، فكلّم رسولَ الله وجعل يستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول الله حتى أضجره، وذلك أنه شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فأنزل الله تعالى فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ إلى قوله ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ أي إنما بعثتكَ بشيراً ونذيراً، لم أخصّ بكَ أحداً دون أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه، ولا تتصدّين به لمن لا يريده..]، ثمّ قال إبن هشام: [إبن أمّ مكتوم، أحد بني عامر بن لؤي واسمه عبد الله، ويُقال: عمرو][1].

## الرواية الثالثة عشرة:

عن إبن سعد بإسناده إلى إبن معاوية الضرير قال: حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال: كان النبي جالساً مع رجال من قريش فيهم عتبة بن ربيعة وناسٌ من وجوه قريش وهو يقول لهم: أليس حسناً أنْ جئتُ بكذا وكذا؟ قال: فيقولون: بلى والدّماء، قال: فجاء إبن أمّ مكتوم وهو مشتغلٌ بهم فسأله عن شيء فأعرض عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ يعني إبن أمّ مكتوم، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ يعني عتبة وأصحابه ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ يعني إبن أمّ مكتوم[2].

---

(١) سيرة إبن هشام: ١/ ٣٨٩.

(٢) طبقات إبن سعد: ٤/ ١٥٧.

**الرواية الرابعة عشرة:**

إبن سعد بإسناده إلى يزيد بن هارون قال: أخبرنا خُويبر عن الضحاك في قوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ قال: كان رسول الله تصدّى لرجلٍ من قريش يدعوه إلى الإسلام فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم الأعمى، فجعل يسأل رسول الله، ورسول الله يُعرض عنه ويعبسُ في وجهه ويُقبل على الآخر، وكلّما سأله، عبس في وجهه وأعرض عنه، فعيّر الله رسوله فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ فلمّا نزلت هذه الآية دعاه رسول الله فأكرمه واستخلفه على المدينة مرّتين[1].

**الرواية الخامسة عشرة:**

أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال: «أقبل إبن أمّ مكتوم الأعمى وهو الذي نزل فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ فقال: يا رسول الله كما ترى قد كبرت سنّي ورقّ عظمي وذهب بصري ولي قائد لا يلائمني قياده إياي فهل تجد لي من رخصة أصلّي الصلوات الخمس في بيتي؟ قال: هل تسمع المؤذن؟ قال: نعم، قال: ما أجد لكَ من رخصة»[2].

هذه حصيلة المرويات العامية في حق رسول الله محمد ﷺ غير مبالين ولا مكترثين بأثقال أوزارها، فتلقفوها دون تنقيح في أسانيدها ودلالاتها ومتونها، فأجمعوا على العمل بها من غير رعاية لشرف النبي الأكرم ﷺ ومكارم أخلاقه ومحاسن صفاته وما كان عليه من عظمة الروح وعلوّ الهمّة، وفضائله في المعاشرة المتواضعة.

---

(١) المصدر عينه: ٤/ ١٥٨.

(٢) الدرّ المنثور: ٦/ ٥١٨ ـ دار الكتب العلميّة ط. عام ١٩٩٠م.

مضافاً إلى غفلتهم أو تغافلهم عن الآثار الخبيثة للشجرة الملعونة التي تحدّث عنها القرآن الكريم بقوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

لقد خوّفهم الله عزّ وجلّ من هذه الشجرة الخبيثة ـ وهي شجرة بني أمية ـ التي أصيب منها الإسلام والنبي وعترته الطاهرة بمصائب عظيمة، سوَّدت وجه التاريخ والإنسانيّة، ولو مات منها المسلم أسفاً ما كان عند الله ملوماً، لكنّ هؤلاء سدّوا آذانهم عن سماع كلمات الحق، فقلبوا الموازين والمعايير الأخلاقيّة والنفسيّة والدينيّة والعرفيّة التي يجب أن يتحلّى بها القائد الدنيوي المحنَّك، فكيف بقائدٍ إلهيٍّ، جعله الله رحمةً للعالمين، وسراجاً منيراً وشاهداً عظيماً على الخلق أجمعين: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

فمَن كان شاهداً ومبشِّراً ونذيراً ورحمةً للناس كيف يمكن أنْ تصدر منه هِناتٌ وأعمالٌ منكَرات؟!! ولو ألصقناها ـ نحن الشيعة ـ بأحد الصحابة كأبي بكر وعمر مثلاً لقامت الدنيا ولم تقعد، بل إنّ علماء العامّة كفّروا الشيعة حينما خطّأوا بعض الصحابة، بحجّة أنّ الصحابة لا يمكن أنْ تصدر منهم أخطاء ومنكَرات، بل الصحبة ملازِمة للعصمة والكمال!!

لقد ارتضى هؤلاء تنزيه الصحابة ونسوة النبيﷺ لا سيّما عائشة عن كلّ خطأ، في حين أنهم يسوِّغون لأنفسهم أنْ ينسبوا إلى رسول اللهﷺ المنفِّرات والمنكَرات؛ لأنّ النبيﷺ كغيره من الأنبياء ـ كما يَدَّعُون ـ ليس معصوماً عن الخطأ في غير التبليغ.

وا إسلاماه!! فإذا جاز على النبي ﷺ صدور الخطأ منه ـ بحسب زعمهم ـ فلِمَ لا يجوز ذلك على نسوته وصحابته؟!! فهل أنّ نساءه وأصحابه أَوْلَى بالعصمة منه ﷺ؟!! أم أنهم رُسُل الله دونه ﷺ؟!!

يظهر من أخبار العامّة القول الثاني؛ أي أنّ الصحابة لا يجوز أنْ يُنْسَبَ إليهم ما أجازوا نسبته إلى الأنبياء والمرسَلين في التبليغ، فصار الصحابي معيار الإيمان وميزان الأعمال، مَن نَسَبَ إليه شيئاً خرج من الإسلام ودخل في حزب الشيطان كما يعتقد ذلك السلفيّون على وجه الخصوص، حيث باتوا يكفِّرون الشيعة لأنهم لم يقولوا بعصمة الصحابي مهما كان وزنه ومعياره، سوى مَنْ دلّ الدليل عليه كأمير المؤمنين علي عليه السلام والسيّدة الطاهرة فاطمة عليها السلام، فجرم الشيعة أنهم نزّهوا رسول الله ﷺ عن الأخطاء، ولو أنهم ألصقوها به دون نساء النبي ﷺ وصحابته لَكَان الشيعة ـ حينئذٍ ـ أناساً مسلمين ومؤمنين تُحْقَن دماؤهم وأعراضهم وأموالهم، ولكنهم على عكس من ذلك، لذا فدماؤهم مهدورة، وأموالهم وأعراضهم مستباحة، كما يعتقد اليوم أكثر العامّة، لاسيّما السلفيون منهم الذين لاقى الشيعة منهم التنكيل والتقتيل والتكفير والتهجير منذ نشأة المذاهب العامية على وجه العموم، وقيام الدولة الأمويّة على وجه الخصوص، فسوف يلاقوا يومهم الذي يُوعَدون، أرادوا كيداً فجعلهم الأخسرين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤].

هذا التصور الأثيم عن شخصيّة الرسول الأكرم ﷺ لا يتطابق مع الحقيقة القرآنية والبراهين الأخرى الدالة على عفّة مسلكه وسماحة أخلاقه؛ لذا فإنّ على هذا التصوّر ملاحظات متعدِّدَة:

**الملاحظة الأولى:**

إنّ تلكم الرّوايات من الآحاد والأسانيد الضعيفة التي لا يجوز شرعاً التعويل عليها، ولا توجب علماً ولا عملاً...

مضافاً إلى كونها مرسلة ومقطوعة السند، فقد رواها جماعة لا يُدْرك واحد منهم هذه القضيّة أصلاً، فإنّ أقرب الرّواة في سندها إلى زمان الواقعة المنسوبة هما إبن عباس وعائشة وهما في ذلك الزمان إما أنْ لا يكونا مولودين أو أنهما طفلان لا يميزان شيئاً، وعلى فرض تمييزهما فلِمَ هما الراويان للواقعة الملفقة دون غيرهما من البالغين يومذاك؟!!

هذا كلّه بالقياس إلى إبن عبّاس وعائشة، أمّا غيرهما كأنس بن مالك والضحاك ومجاهد وأبو مالك وهشام بن عروة... إلخ، فكانوا بعيدين زماناً ومكاناً عن النبيﷺ بسبب عدم إدراكهم عهد النبيﷺ سوى أنس حيث لم يكن بعدُ قد تعرّف على النبيﷺ وإليك التفصيل:

**أمّا عائشة:** فلم تكن يومذاك زوجةً للنبيﷺ حتى تشهد تلك الواقعة قبل الهجرة، فقد تزوّجها النبيﷺ قبل الهجرة بسنتين وهي إبنة ستّ أعوام حسبما يدّعي جمهور العامّة، ودخل بها في المدينة في السنة الأولى من الهجرة أو الثانية وهي إبنة تسع سنين[١]، ومنِ المعلوم أنّ السورة مكيّة، فكيف شهدت عائشة الواقعة مع أنها لم تكن حاضرة في منزل النبيﷺ؟!!

وعليه تصير الرواية مبتورة السند وساقطة عن درجة الإعتبار.

---

(١) التحقيق أنْ يُقال: إنّ روايات تزويجها وهي صبيّة كلّها ضعاف الأسانيد ومرسلات فلا يصحّ الإعتماد عليها، مضافاً إلى أنّ ثمّة أخباراً تدلّ على أنها كانت متزوجة من جبير بن مطعم حسبما أفاد إبن سعد في الطبقات: ٨/ ٤٧.

وأمّا إبن عبّاس: فقد وُلِدَ قبل الهجرة بثلاث سنين[1]، ولم أعثر في المصادر على تاريخ سنة نزول سورة عبس، وهل كان نزولها قبل ولادة إبن عبّاس أو بعد ولادته!! فإنْ كان قبل ولادته، فكيف يروي واقعة لم يكن شاهداً عليها، وإنْ كان بعد ولادته فلم يكن له حينئذٍ التمييز والتشخيص، فلا محالة لم يروِ ذلك إلاّ بالواسطة ولم يذكرها، فتسقط عن درجة الإعتبار.

ولو سلّمنا أنّ لإبن عبّاس نبوغاً خاصاً اقتضى أنْ يكون ذا تمييزٍ وتشخيصٍ لتفاصيل ما جرى إلاّ أنه مردود من حيث أنّ حصر النبوغ به دون غيره ـ ممن هو أفضل منه علماً وعملاً أمثال عمّار وحمزة ممن عاصروا النبي ﷺ ولم يفارقوه أبداً ـ يعتبر حصراً بلا دليل.

وأمّا أنس بن مالك: فلم يكن قبل الهجرة مع الرسول الأكرم ﷺ، إذ جاءت به أمّه وهو غلام إلى النبي ﷺ ليخدمه في المدينة أوّل الهجرة، فكانت معرفته بالنبي ﷺ أوّل الهجرة، ولم يكن شاهد الواقعة في مكّة، فروايته مقتطعة لا حجّية فيها سنداً ولا دلالةً، فتسقط عن الإعتبار.

وأمّا الضحّاك: فليس من الصحابة بل هو راوٍ ضعيف بحسب شهادات علماء الرّجال، قال عنه الذهبي: إنّ أمَّه حملت به عامين، ولم يُدرك أيضاً إبن عبّاس بل روى عنه، وعليه؛ فإنّ روايته ـ على كِلاَ الأمرين ـ ساقطة عن الإعتبار سنداً.

وأمّا مجاهد بن جبر: فهو من التابعين الذين لم يدركوا النبي ﷺ في مكّة ولا في المدينة، فروايته من المراسيل المقاطيع، وقد عدّه الذهبي في ميزان الإعتدال من الضعفاء، قال:

---

(١) أسد الغابة: ٣/ ٢٩٢.

قال أبو بكر بن عيّاش: قلت للأعمش ما بال تفسير مجاهد مخالف أو شيء نحوه؟ قال: أخذها من أهل الكتاب.

وقال النباتي: ذكر مجاهد في كتاب الضعفاء لإبن حبان البستي، وله روايات منكرة نظير ما جاء عنه في تفسير قوله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: يُجلسه معه على العرش.

وقال إبن خراش وغيره: أحاديث مجاهد عن عليّ مراسيل، لم يسمع منه شيئاً[١].

وأمّا هشام بن عروة: فهو كأبيه لم يكونا ممن شاهد النبيﷺ، فضلاً عن كونهما شاهدا الواقعة المذكورة في روايتهما، بل أبوه يروي عن عائشة، فروايته أيضاً من المراسيل لعدم ذكره الواسطة، مضافاً إلى أنّ أبا الحسن بن القطّان عدّه من المخلطين[٢].

أمّا بقيّة مَن رووا تلك الواقعة، فحالهم كحال المتقدّمين، فالرواية من حيث السند مقتطعة وضعيفة ومرسلة، لذا فهي غير صالحة للإستدلال بها والإعتماد عليها، بل لا يجوز العمل بها لا سيّما وأنها تُلصِق برسول اللهﷺ الحرام وهو منزَّه عنه لطهارته وقداسته وقُرْبِهِ من الله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٩]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٤]، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥]؛ فالرواية مرفوضة من ناحيتين:

من ناحية أنها تعكس أمراً فقهيّاً وهو حرمة العبوس والتنفر من المؤمن والإقبال على الغني الكافر.

---

(١) ميزان الإعتدال: ٣/ ٤٣٩ ترجمة رقم٧٠٧٢.

(٢) ميزان الإعتدال: ٤/ ٣٠١ ترجمة رقم٩٢٣٣.

ومن ناحية أخرى أنها تخالف الأصول الإعتقاديّة الدالة على نزاهة الأنبياء عن الحرام وعمّا ينفّر من قبول دعوتهم إلى الله تعالى.

وبالجملة؛ فالرواية ساقطة عن الإعتبار سنداً جملةً وتفصيلاً، ومعارِضَة لأخبار أئمّة أهل البيت عليهم السلام التي هي أصحّ سنداً ودلالةً وموافقة للأصول.

**الملاحظة الثانية:**

إضطراب نصوص الواقعة بحيث لم يتفق راوٍ مع الآخر بشأن الحاضرين عند النبي ﷺ، فقد روى إبن كثير والترمذي والحاكم عن عائشة أنّ مَن كان عند النبي ﷺ هو رجل من عظماء المشركين، وفي رواية أخرى عن عائشة أيضاً: أنّ الموجود كان أبا جهل وعتبة بن ربيعة، وفي ثالثة: أنه عتبة وشيبة، وفي رواية أنس: أنّ النبي كان يكلم أبيّ بن خلف... وفي رواية إبن عبّاس أنهم كانوا ثلاثة: عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام. وفي رواية أخرى عنه في تفسيره أنهم العبّاس وأميّة بن خلف وصفوان بن أميّة.

وعن مجاهد: أنه عتبةُ بن ربيعة وأميّة بن خلف.

وفي رواية أخرى عنه: أنه كان مستخلياً بصنديد من صناديد قريش.

وعن أبي مالك: أنه كان يتصدّى لأميّة بن خلف.

وعن الضحاك: أنه التقى برجلٍ من أشراف قريش فدعاه إلى الإسلام.

هذا التعارض والإضطراب في تحديد كمية وماهيّة مَن تصدّى له النبي ﷺ يلحق الرواية بالخرافة، بل لو لم تكن إلاّ روايات عائشة لَكَفى سقوطها حجّةً واعتباراً، إذ الملاحَظ في تلكم النصوص أنّ لعائشة ثلاث روايات كلٌّ منها يخالِفُ الأخرى، ففي روايات الدر المنثور جاء في روايتها الأولى أنّ

المتصدَّى له هو «رجل من عظماء المشرِكين»، وفي روايتها الثانية أنه «ناسٌ من وجوه قريش منهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة»، وفي روايتها الثالثة أنه «وعنده عتبة وشيبة».

هذا الاضطراب كافٍ في سقوط الرّواية عن الاعتبار دون النظر إلى الجهات الأخرى المضطربة أيضاً، والتي منها:

الاضطراب في الأعمى اسماً ونسباً، إذ جاء في بعضها اسمه عبد الله بن أمّ مكتوم أي عبد الله بن شريح، وفي أخرى: أنه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي، وأمّه عاتكة وهي أمّ مكتوم بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر بن مخزوم بن يقظة[١].

وجاء في أسد الغابة أنّ اسمه عبد الله بن شريح، وقيل: عمرو وهو إبن أمّ مكتوم من بني عبد غنم بن عامر بن لؤي، نسبه أبو موسى عن إبن شاهين هكذا... ثمّ قال إبن الأثير: ويرد في عمرو بن قيس ويحقق نسبه هناك...[٢].

ثمّ ذكر في ترجمة عمرو بن قيس فقال: عمرو بن قيس بن زائدة بن أصمّ - وإسم الأصم جندب - بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي العامري، وهو إبن أمّ مكتوم الأعمى المؤذن وأمّه أمّ مكتوم إسمها: عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بن عامر... وهو إبن خال خديجة بنت خويلد، فإنّ أمّ خديجة رضي الله عنها هي فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ وهي أخت قيس... وقد اختلف في اسمه، فقيل: عبد الله، وقيل: عمرو، وهو الأكثر...[٣].

---

(١) الطبقات لإبن سعد: ٤/ ١٥٠.

(٢) أسد الغابة: ٣/ ٢٧٧ ترجمة رقم٣٠٠٩.

(٣) أسد الغابة: ٤/ ٢٥١ ترجمة رقم٤٠١٠.

يظهر من كلام إبن سعد وابن الأثير أنّ الأعمى قرشي وأنه إبن خال خديجة عليها السلام، فهو شريف الأبوين ومن بيتٍ رفيعٍ، وعليه؛ فكيف تنسب الرّواية رقم١١ السَّفَالَة والرقيَّة لإبن أمّ مكتوم، وهذا بدوره تعارضٌ آخر لم يتفطّن إليه الذين اختلقوا الواقعة، ويترتب عليه نسبة الجهل المطبِق للرسول المبتَدَع في الرّواية، حيث تخفى عليه أبسط الأمور التي يجب أنْ يتحلّى بها زعيم قبيلة عدا عن أنْ يكون رسولاً نبياً لا يقول إلاّ بوحي، ولا يفعل إلاّ بوحي، وهل كانت تخفى على النبي ﷺ وشائج القربى بأُمّ المؤمنين السيّدة خديجة عليها السلام، أم أنه كان جاهلاً بالأنساب، في حين أنّ الله تعالى قادر على أنْ يعَلمَه ذلك كما علَّمَ غيره من الأنبياء والمرسَلين؟! هذه اسئلة برسم الإجابة عند علماء العامّة، فالشيعة الإماميّة أحرص الناس على تنزيه رسول الله ﷺ، وما دفاعهم المستميت لتبرئة ساحته ﷺ عن العبوس سوى لكثرة تعمقهم في التوحيد لله تعالى والتنزيه لأنبيائه عن وصمة العار والخطيئة، ومع هذا فلا نسلَم من ألسنة علماء السوء من العامّة الذين يصرّون على تكفيرنا ونعتنا بالشرك والكفر والنفاق، وما ذلك إلاّ لأننا خطّ الدفاع الأوّل عن التوحيد والنبوّة والإمامة والعدل. لذا فهم يخافون منا لِمَا نملك من حجج قويّة وبراهين ساطعة تردّ شبهاتهم الواهية وافتراءاتهم المخزية، فلا يمكنهم مجابهتنا بالحجّة والبرهان، لذا فإنهم يعمدون إلى تكفيرنا وتقتيلنا واستباحة دمائنا وأعراضنا...

**الملاحظة الثالثة:**

تعارض الروايات في مورد استخلافه على المدينة، فقد ذكر إبن سعد في الطبقات وغيره من علماء العامّة طائفتين من الأخبار: الأولى أنّ النبي ﷺ استخلفه على المدينة مرّتين، والثانية: أنّ النبي ﷺ استخلفه على المدينة في عامّة غزواته ﷺ، فمن أخبار الطائفة الأولى:

ذكر إبن سعد بإسناده إلى عمرو بن عاصم قال: حدّثنا همّام عن قتادة قال: إستخلف النبيّ إبن أمّ مكتوم مرّتين على المدينة وهو أعمى[(١)].

ومن أخبارها أيضاً ما ورد عن أبي معاوية الضرير قال: حدّثَنا هشام بن عروة عن أبيه... وقد ذكرنا الخبر سابقاً فلا نعيد.

ومن أخبار الطائفة الثانية:

(١) ما ذكره إبن سعد قال: وكان رسول الله يستخلفه على المدينة يصلّي بالناس في عامّة غزوات رسول الله... وقد ذكرناها سابقاً.

(٢) وعن إبن سعد بإسناده إلى يزيد بن هارون قال: أخبرنا محمّد بن سالم عن الشعبي قال: غزا رسول الله ﷺ ثلاث عشرة غزوة ما منها غزوة إلاّ يستخلف إبن أمّ مكتوم على المدينة، وكان يصلّي بهم وهو أعمى[(٢)].

(٣) وبإسناده إلى مجالد عن الشعبي قال: إستخلف رسول الله ﷺ إبن أمّ مكتوم حين خرج إلى بدر يصلّي بالناس وهو أعمى[(٣)].

(٤) وبإسناده إلى محمّد بن عمر قال: حَدَّثَني عبد الله بن نوح الحارثي عن أبي عفير يعني محمّد بن سهل بن أبي حثمة قال: إستخلف رسول الله على المدينة إبنَ أمّ مكتوم حين خرج في غزوة قرقرة الكُدْر إلى بني سليم وغطفان، وكان يُجمّع بهم ـ أي يصلّي الجمع ـ ويخطب إلى جانب المنبر يجعل المنبر عن يساره، واستخلفه أيضاً حين خرج في غزوة بني سليم ببحران ناحية القُرع،

---

(١) إبن سعد: الطبقات: ٤/ ١٥٥.

(٢) إبن سعد: الطبقات: ٤/ ١٥٥.

(٣) نفس المصدر.

واستخلفه حين خرج إلى غزوة أحد، وحين خرج إلى حمراء الأسد وإلى بني النضير وإلى الخندق وإلى بني قريظة وفي غزوة بني لحيان وغزوة الغابة وفي غزوة ذي قرد وفي عمرة الحديبيّة[١].

إذن ثمّة تعارض في أخبار الإستخلاف فلا يُعتمد على شيء منها أصلاً، مضافاً إلى أنّ ثمّة خبراً آخر عرضه إبن سعد نقلاً عن محمّد بن عبد الله الأسدي قال: حدّثنا سفيان عن اسماعيل وجابر عن الشعبي أنّ رسول الله استخلف إبن أمّ مكتوم في غزوة تبوك يؤمّ الناس[٢].

وهذا الخبر يتعارض مع الخبر المتواتر بين الفريقين[٣] الدال على أنّ النبي ﷺ قد استخلف أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام على المدينة يوم تبوك، فقد رواه أحمد بن حنبل بعدّة طرق، ومسلم في صحيحه بطريقين، وكذا رواه البخاري في كتاب الفضائل، وأبو داود في المسند، وإبن الأثير في أسد الغابة، والنسائي في الخصائص، والهندي في كنز العمّال، والطبري، وذخائر العقبى، ومجمع الزوائد، وقد استقصينا الإشكالات على الحديث وفنّدناها بحول الله وقوّته، فراجِعْ كتابنا تغنم[٤].

والحاصل: إنّ الإستخلاف ليس خاصاً بإمامة الصلاة بل يعمّ كلّ مرافق إدارة المجتمع المدني، اللهمّ إلاّ أنْ يكون استخلافه خاصاً بإمامة الصلاة فقط،

---

(١) نفس المصدر: ص١٥٨.

(٢) إبن سعد: الطبقات: ٤/ ١٥٥.

(٣) الخبر مشهور بحديث المنزلة لقوله ﷺ: «أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي».

(٤) أبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد: ١/ ٧٧٣.

لكنه لم يثبت بدليل معتبر، وهذه الروايات غير ناهضة ووافية لإثبات المدَّعى بسبب اضطرابها وإرسالها.

مضافاً إلى أنّ استخلاف النبيﷺ لإبن أمّ مكتوم ـ بالكيفيّة التي ذكرتها هذه الأخبار ـ ناشئٌ من تعاطفه معه، وليس مردُّه قوّة الجَنان والعِلْم والعدل في القضاء والعدالة وما شابه ذلك، وحاشا لرسول الله أنْ يحابي أحداً على حساب الدّين أو أنْ تكون محاباته تعاطفاً أو شفقةً؛ لأنّ الإستخلاف الناشئ من الإستعطاف يوجب الفشل في أمر الحكومة وإدارة شؤون الدّولة.

ولو فرضنا أنّ استخلافه على المدينة كان مطلقاً فهل بإمكان إبن أمّ مكتوم الضرير أنْ يقوم بكلّ الأعمال والمسؤوليات الملقاة على عاتقه كقائدٍ أو مسؤول على مدينة كبيرة عدد أنفاسها يتجاوز المليون على أقلّ تقدير؟! وهل خَلَت المدينة من رجل بصير ـ غير ضرير ـ حتى يتعيَّنَ على النبيﷺ استخلاف إبن أمّ مكتوم كبديلٍ اضطراريٍّ؟! وكيف يمكن لضرير الأمن من كيد المنافقين في المدينة خلال غيبة النبيّ؟ وهل يمكن له أنْ يصدّ هجماتهم على المدينة؟! لا أظنّ هنا أحداً يجيبنا على هذه الأسئلة أجوبةً مقنعةً.

**الملاحظة الرابعة:**

ثمّة وهنٌ في متون تلكم الرّوايات المفتعلة يُسقطها عن الحجّيّة أيضاً وهو على وجوه:

الوجه الأوّل: ما ورد في الرواية الحادية عشرة من أنّ النبيﷺ كره مجيء إبن أمّ مكتوم، وقال في نفسه: يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس ونزل الوحي.

**يُلاحَظ عليه:**

(أوّلاً): من أين اكتشف الرّاوي ما دار في خلد النبي ﷺ لمّا دخل عليه إبن أمّ مكتوم، ومَن هو هذا الرّاوي الذي نقل عنه مجاهد الرّواية؟ ومَن أخبره بما في نفس النبي ﷺ؟ هل هو ملاك أم شيطان يريد أنْ يشوّهَ مقام قدس النبي ﷺ وطهارته، فيلقي الوساوس في رواة هذه الحادثة المشؤومة؟!!!

(ثانياً): إنّ دعوى كون أتباع النبي ﷺ من السَّفَلَة والعميان ـ بحسب ما جاء في بعض هذه الأخبار ـ تتعارض مع أبسط قواعد حقوق الإنسان والتي منها حرمة تعيير الآخرين والشماتة بهم، وما الضير في أنْ يكون إبن أمّ مكتوم عبداً مستضعفاً وسافلاً بنظر المشركين؛ لأنه لم يعتقد بما اعتقدوا من الشرك والوثنيّة، فكلّ مَن خالفهم يُعتبر سافلاً وعبداً حتى لو كان من أشرف قبائل قريش وأرفعها منزلة، وإبن أمّ مكتوم لم يكن عبداً ـ بالمفهوم السائد للعبوديّة آنذاك ـ بل كان من قبيلة قريش، أفضل قبائل العرب، وبها يفتخرون، كما أنّ إبن أمّ مكتوم لم يكن سافلاً ومنحَطّاً كما صوَّرَتْه تلك الرواية الحاكية عمّا في نفس النبيّ بل كان عبداً مؤمناً تقيّاً حسبما وصفته الآيات، والنبي ﷺ يعرف حال الأعمى قبل نزولها، وهل العمى منقصة حتى يذمّه عليها النبي ﷺ ـ حاشا له أنْ يفعل ذلك ـ كما أنّ السفالة ـ بمعنى انعدام المال عند إبن أمّ مكتوم ـ ليست عاراً حتى يستحي منه النبي ﷺ أمام صنديدٍ من صناديد قريش، ولو كانت عاراً لَكَان من العار عليه ﷺ أنْ يجلس مع صناديد قريش؛ لأنّ الإستيحاء من العار الحال به أولى من العار الحال بإبن أمّ مكتوم.

(ثالثاً): إنّ الدّعوى المذكورة ـ وهي نسبة العار إلى أتباعه ـ تتوافق مع أخلاق المشركين والكافرين والمنافقين، وحاشا لرسول الله ﷺ أنْ يصدر منه ما

يتوافق وأخلاق هؤلاء وإلاّ فيكون النبيّ نوح عليه السلام أفضل منه عندما عيّره قومه وأتباعه أراذل الناس بقوله تعالى حاكياً عنهم ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٧ ـ ٢٩].

أنظر إلى موقف النبي نوح عليه السلام وما عابه قومه عليه وما أجاب عليه السلام عن أولئك المستضعفين من أتباعه، فهل كان نبينا صلى الله عليه وآله أقلّ رتبة في المكارم والمحامد والصفات النبوية من عامّة الأنبياء وهو أعظمهم وأفضلهم؟!!

(رابعاً): لقد أعلن النبي صلى الله عليه وآله في السنة الثالثة للبعثة دعوته، فخرجت عن طور الخفاء، فلا معنى لِمَا جاء في هذه الرّواية وأمثالها من أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يستحي من العبيد والسفلة، ألم يكن بلال يومذاك عبداً عندما قرّبه النبي صلى الله عليه وآله إليه وجعله مؤذّناً لديه قبل نزول سورة عبس، فلِمَ لم يستحِ من عبوديّة بلال بدلاً من عبوديّة وسفالة إبن أمّ مكتوم؟!! ألم يكن النبي صلى الله عليه وآله يعرف أنّ إبن أمّ مكتوم من قبيلة قريش أباً وأمّاً حتى ينعته بكونه عبداً وسافلاً؟!! وهل أنّ صناديد قريش كانوا جاهلين بإسلام إبن أمّ مكتوم حتى يحدّث النبي نفسه بتلك المقالة الموحشة؟!!

(خامساً): إنّ الدّعوى المذكورة في هذه الرّواية تتعارض مع بقيّة الرّوايات الدالة على أنّ إعراض النبي صلى الله عليه وآله عنه ـ على فرض حصوله ـ إنما كان من أجل مقاطعته له، وليس السبب ما ادّعته هذه الرّواية، وبما أنّ هذه الأخبار متكافئة

في المعارَضة فتسقط كلّها عن الحجية لعدم رجحان أحدها على الأخرى.

الوجه الثاني: ورد في جملة منها أنّ النبي ﷺ بعد ذلك كان يكرمه ويقول له: هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرّتين.

يُلاحَظ عليه:

(١) إنّ إكرام إبن أمّ مكتوم بتولّيه لمناصب حكوميّة في المدينة لا يتناسب مع قضاء حاجته التي هي في الأساس طلبه من النبي ﷺ العلم بقوله: «عَلِّمْني ممّا عَلَّمَكَ الله، ويا رسول الله أرشِدْني». فقد طلب العِلم ولم يطلب الجاه وتوليه المناصب الحكوميّة، فكان المناسب إكرامه بزيادة تعليمه لا بتوليه المناصب والإدارات، فإنّ ذلك خلاف مراده ومطلوبه.

(٢) إستخلاف النبي ﷺ لإبن أمّ مكتوم هل كان لأهليّه فيه أم كان مبنياً على الإستعطاف والرأفة؟ يظهر من هذه الروايات الملَفَّقة أنّ استخدامه له كان على جهة الإستعطاف بقرينة ما جاء فيها: «وكان يكرمه» أي أنه ﷺ كان يكرمه بتوليه المناصب استعطافاً له، وهو أمر قبيح صدوره من قادة الدول، فضلاً عن سيّد العالَم محمّد رسول الله ﷺ.

الوجه الثالث: ورد في جملة من تلكم الأخبار أنّ إبن أمّ مكتوم شهد حرب القادسيّة[1] ومعه راية سوداء وعليه درع؛ قال في الطبقات: حدثنا أبو هلال الراسي عن قتادة عن أنس بن مالك أنّ إبن أمّ مكتوم ـ وهو عبد الله بن زائدة ـ كان يقاتل يوم القادسيّة وعليه درع له حصينة سابقة[2].

---

(١) القادسيّة: بلدة قريبة من الكوفة، وقد نشبت حرب القادسيّة بين عمر بن الخطاب بقيادة سعد بن أبي وقاص وبين الفرس سنة ١٤هجري ـ في زمان عمر.

(٢) الطبقات: ٤/ ١٦٠.

وفيه:

(١) وجوده في القادسيّة يتنافى مع عدّة روايات وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

فقد جاء في رواية أبي عبد الرّحمان قال: لمّا نزلت الآية ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾.. قال إبن أمّ مكتوم: يا ربّ ابتليتني فكيف أصنع؟ فنزلت ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[1].

وكذا مثلها في رواية البراء وزيد بن ثابت قال: لمّا نزلت الآية... فقام عمر وإبن أمّ مكتوم وكان أعمى، لمّا سمع فضيلة المجاهدين، فقال: يا رسول الله فكيف بمَن لا يستطيع الجهاد؟ فما انقضى كلامه حتى غشيتْ رسول الله ﷺ السكينة فوقعت فخذه على فخذي... إلى أنْ قال: فقال: إقرأ يا زيد فقرأتُ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال: أكتب ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ قال زيد: أنزلها الله وحدَها[2].

فمَن كان غير مستطيعٍ للجهاد في زمان رسول الله ﷺ حتى استثناه الله تعالى لعذره وضرّه فكيف استطاع يوم القادسيّة في زمان عمر سنة ١٤هـ، وما وجه الجمع بينهما؟!!

(٢) وجوده في القادسيّة ينافي ما في رواية أبي أمامة قال: اقبل إبن أمّ مكتوم الأعمى وهو الذي نزل فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ فقال: يا رسول الله كما ترى

(١) إبن سعد: الطبقات: ٤/ ١٥٩.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٦٠.

كبرت سنّي ورقّ عظمي وذهب بصري ولي قائد لا يلائمني قياده إياي فهل تجد لي من رخصة أصلّي الصلوات الخمس في بيتي؟ قال: هل تسمع المؤذّن؟ قال: نعم، قال: ما أجد لكَ من رخصة[١].

وكذا رواية كعب بن عجرة قال: إنّ الأعمى الذي أنزل الله فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أتى النبيﷺ فقال: يا رسول الله إنّي أسمع النّداء، ولعلّي لا أجد قائداً، فقال: إذا سمعتَ النداء فأجب داعي الله[٢].

فمَن كان في عهد رسول الله ﷺ عاجزاً عن الحضور في المسجد للصلاة جماعةً لِكِبَرِ سنّه ورقّة عظمه وذهاب بصره وعدم قدرته على المشي من دون قائد فكيف صار بعد سنوات عديدة في حرب القادسيّة بطلاً فارساً صاحب اللواء، إنّ هذا لشيءٌ عجيبٌ...

(٣) إنّ يوم القادسيّة لم يكن إلاّ يوم المقاتلة والجهاد مع الكفّار، أفلم يكن أمر الجهاد مرفوعاً عن العجزة ومنهم الأعمى، وأنه ليس على الأعمى حرج، فكيف كان إبن أمّ مكتوم يحضر المعركة، ثمّ ماذا كان ينفع وجوده في المعركة وهو لا يقدر على المقاتلة بل لم يكن يقدر على الحضور للصلاة جماعة في المسجد من دون قائد، وكان يعتذر لذلك عند النبيﷺ، فلماذا حضر ساحة القتال؟ ثمّ كيف صار صاحب الراية؟، وصاحب الراية من قوّاد العسكر الذين يتقدَّمُون إلى البراز والحرب، والأعمى مضافاً إلى عدم قدرته لذلك فإنه يحتاج إلى القائد فيستوجب اشتغال رجل آخر من المقاتلين بقيادته وهذا يستلزم ضرراً على العسكر بتعطيل محاربٍ أخر.

---

(١) الدر المنثور: ٦/ ٥١٨.

(٢) نفس المصدر.

وبالجملة؛ لا تخلو روايات إبن أمّ مكتوم المرويّة من طرق العامّة من تهافت وتعارض وتضادّ، حتى وقع التضاد في موته: هل مات في القادسيّة كما مال إلى ذلك إبن الأثير في أسد الغابة[١]، أو أنه مات في المدينة كما مال إلى ذلك الواقدي وإبن سعد في الطبقات[٢].

ولمّا وقع التضاد والإضطراب في تلكم النصوص سنداً ودلالةً فحينئذٍ تسقط عن الإعتبار، فلا تصير حجّةً شرعيةً ولا عقليّة لنا، لصرف الآيات إلى المعنى المشتملة له، بل وجودها من دسائس الأمويين ليغرسوا الفتنة في قلوب المسلمين.

**الملاحظة الخامسة:**

إنّ تلكم الأخبار العامية تخالف الجو العام الذي تصوِّرُه لنا آيات سورة عبس، حيث تكشف لنا عن حقيقتين لا بدّ أنْ يتصف بأحدهما الإنسان وهما: الإيمان والكفر، ولكلٍّ منهما آثار مترَتِّبة عليه أو مترشِّحة منه، فآثار الإيمان: الأخلاق الحسنة والتواضع ولين العريكة والحنان والعطف وخفض الجناح... وآثار الكفر: الأخلاق الرديّة والغلظة والجفاء بالقول والفعل كالعبوس والتقطيب والنفور والحِدَّة والتسرُّع والفظاظة والتعالي والإستكبار والإبتعاد عن الفقراء والمساكين والمؤمنين... إلخ. ولا شكّ أنّ النبي محمّداً ﷺ سيّدُ المؤمنين فلا بدّ ـ إذاً ـ أنْ يتصف بصفات الإيمان كما ذكرنا آنفاً ويبتعد عن أضداده، وإلاّ احتاج إلى التقويم، فيكون كغيره من الرّعيّة تتساوى فيه الفضيلة والرذيلة فيحتاج إلى مَن يهديه إلى سواء السبيل، ودعوى أنّ الله تعالى يقوّمه عن

---

(١) أسد الغابة: ٤/ ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق عينه، والطبقات: ٤/ ١٦١.

الإعوجاج باطلة لاستلزامها الجبر بالأفعال وقد قامت الأدلة القرآنية والنبويّة والعقلية على بطلانه.

وبتعبيرٍ آخر: لو تساوى أو اشترك النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ مع غيره في صحّة صدور الخطأ منه، ووجوب تقويم الله تعالى له، لاستلزم ذلك الترجيح بلا مرجِّح، إذ يقبح عقلاً وشرعاً تقديم أحد العصاة على مثله ﷺ في التقويم ووجوب البعث إلى الخلق ما داموا كلُّهم يشتركون في جواز صدور المعصية منهم.

يتضح ممّا سبق: أنّ القرآن الكريم كشف لنا عن الجوّ الحاكم في عصر نزول الآيات وما يحكمه عنصران: أحدهما أقوى من الآخر؛ ألا وهو الإيمان والكفر، فإذ انتفى الكفر عن الرسول ﷺ ـ وهو كذلك ـ يثبت نقيضه وهو الإيمان مع آثاره المترتبة عليه، وعلى ضوء هذا يتميز الحق من الباطل ثم يميِّز بين مَن يليق بمقام السفارة والرِّسالة بحق، ومن يشتهي أنْ يجلس مجلسه بغير حقٍّ تكلُّفاً وتكبُّراً وتجبُّراً واتّباع الهوى فيضلّه عن سبيل الله ويضلّ الناس بغير علم.

بل يمكن القول: إنّ القرآن الكريم ذكّر بالقيم الإنسانيّة فوازاها بمقياس الحقّ وميزان الحقيقة بما يميّزها عن مبادئ الجاهليّة التي لا ترى إلاّ المظاهر المادية البحتة مما ليس وراءها حقيقة الإنسانيّة؛ وإنما هي الماديات وأسبابها وجلواتها المتسرعة إلى الفناء، فإنسانيّة الإنسان هي حقيقة تدور مدار قوّة العقل وتراكم المعنويات والصفات العالية والمكارم الحميدة والآداب الحسنة مما تنشأ عن ارتقاء الروح عن مستوى الحيوانات والبهائم والسباع والهوام المؤذية، فما يرفع الإنسان ويكرمه ويرقّيه ويمكّنه من السيطرة على جميع الموجودات

ويسخّر له الأسباب ويجعله ملكاً على الأرض وما فيها وما فوقها، ليس هو نعومة جلده وصباحة منظره وحسن عيونه وبياض أسنانه وثغره، وأمثال ذلك من المحاسن البدنية، إذا لم يستتبعها سلامة النفس وصفاء الرّوح، فرُبَّ صبيح الوجه سالم الأعضاء في غاية الحسن والملاحة ساقط عن القيم الإنسانيّة، لا يعرف له الناس أيّ منزلة وشرف وشخصيّة، ورُبَّ قبيح وجهاً لكنّه صالح في نفسه، ذو مكانة سامية بالعلم والفضل اللذين ارتقيا به إلى الرّفعة والشرف والسؤدد، وكذلك الثروة المالية والمكانة والجاه عند الجُهّال وكثرة الأولاد والأقارب والعشيرة والخدم والحشم والسيطرة، ليس بشاخص لِمَا في باطن الإنسان من العلم والكمال والآثار الحميدة والمَلَكَات الفاضلة الجيّدة، كما أنّ الفقر وانحطاط الجاه عند أبناء الدنيا وعدم المكنة غير كاشفٍ عن دناءة النفس وقلّة العقل واعوجاج الفكر ورذالة الصفات والفقر في المعنويات الإنسانيّة؛ فإنّ للفقر والغنى في المال والرقي والإنحطاط عند الناس عللاً وأسباباً شتّى ربّما تكون خارجة عن اختيارات الإنسان، وما باختياره ربّما استمدّ من الحيل والغدر وأنواع الظلم والهتك والتعدّي وأمثال ذلك، والقرآن ينظر إلى الإنسان بما أنه إنسان، وهو أشرف الخلائق وأكرمهم وأعزّهم عند الله سبحانه ولقد كرّمه وسخّر له ما في الأرض والسماء ليصير فوق ما في الأرض والسماء ويعرج إلى ربّ الأرض والسماء لا ليلعب بالتراب وما انتشر عنه ويغرق في هواه ويختار الخلود تحت مكائن الماديات الأرضيّة، ويعبث بنفسه وعقله وكرامته في جوِ عالَمٍ وسيعٍ سُخِّرَ له.

وجاهليّة الجهّال ـ قديماً وحديثاً ـ تتمظهر بالمظاهر المادية، فالفقر عندهم مما يوجب نقصاً ونزولاً وانحطاطاً فيتقذرون عن الفقير ويقبضون وجوههم عنه، ويضيقون عليه من غير ذنب وجريمة إلاّ الفقر كما قال الشاعر:

إذا قلّ مال المرء قلّ مُحِبُّه وضاق عليه أرضه وسمائه

وقد حاربهم القرآن على تلك الخرافات الجاهليّة فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

فالآية تصوّر لنا أنّ الجاهليّين كانوا يرون أنّ المال والأولاد وكثرتهما يصير ملاكاً كلياً في السعادة، فيوجب القرب والزلفى لديه؛ لذا كانوا يرون أنّ مؤاكَلَة الأعمى أو الأعرج من المعايب الإجتماعيّة، أو أنّه حرج يجب أنْ يتنزَّهَ عنه الغنيّ أو الوجيه، بحسب ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فقد جاء في تفسير عليّ بن إبراهيم عن مولانا أبي جعفر عليه السلام في تفسيره للآية قال عليه السلام: إنّ أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعزلون الأعمى والأعرج والمريض أنْ يأكلوا معهم، كانوا لا يأكلون معهم، وكان الأنصار فيهم تيه ـ أي تكبُّر ـ فقالوا: إنّ الأعمى لا يبصر الطعام، والأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام، والمريض لا يأكل كما يأكل الصحيح، فيعزلوا لهم طعامهم على ناحية، وكانوا يرون عليهم في مواكلتهم جناح... فلمّا قدم النبي ﷺ سألوه عن ذلك فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[1].

فالقرآن قد حارب أفكار الجاهليّة وآراءها الباطلة، واضعاً لأولئك الجفاة الغلاظ سنناً ومبادئ فاضلة بواسطة رسوله الكريم ﷺ الذي يعكس عن أخلاق الله تعالى كما ورد في الحديث المشهور: «لقد أدَّبَني ربّي فأحْسَنَ تأديبي». لقد كان رسول الله ﷺ صورة كاملة عن صفات الله سبحانه، فلم يكن يكتفي بالقول

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٦٢٤.

والدّعاية بل كان على خُلُقٍ عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فجرى بصفاته العالية ومَلَكَاتِهِ الفاضلة وأخلاقه الطاهرة، ثمّ دعاهم إلى سبيله الذي هو سبيل ربّه، وجعل نفسه الشريفة ـ التي هي منبع تلك الخصال الحميدة ـ أسوةً للناس، ثمّ أرشَدَهم الله إليه ﷺ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فمن تلك الصفات أُفيضت البركات على النفوس المنحرفة، وأُطفِئَت النيران عن أرواحهم النتنة فصار القليل منهم إخواناً على سُرُرٍ متقابِلِين.

ولم يكن رسول الله ﷺ يوماً ما ـ سواء قبل البعثة أو بعدها ـ جافاً وغليظاً، أو بعيداً عن الفقراء والمساكين؛ بل كان دأبه التواضع ومجالسة العميان والعبيد والموالي والعرج على حدّ مجالسة غيرهم، بل كان على حنوٍّ زائد، يأكل ويشرب معهم كأحدهم من غير مميزات لنفسه في حلقات جلساتهم، من هنا ورد عنه ﷺ أنه قال ما معناه: «إني أجلس جلسَةَ العبدِ، وآكل أكلَةَ العبد»، وبما ورد عنه أيضاً ﷺ: «إنّه لا فخر لآدميٍّ على آخر وإنّ كلّكم من آدم، وآدم من طين»، وقوله ﷺ: «إنّ الله أذهب نخوة العرب وتكبرها بآبائها، وكلّكم من آدم وآدم من ترابٍ، وأكرمكم عند الله أتقاكم».

لقد تجلّت الصفات الإلهيّة والآداب الطاهرة الملكوتيّة في شخصيّة النبي ﷺ، لذلك كان ﷺ من أوائل المؤمنين بمسايرته وتواضعه للمحرومين من الفقراء والعميان والموالي والعبيد أمثال بلال وإبن مسعود وعمّار ووالديه ياسر وسميّة وإبن أمّ مكتوم وأشباههم ونظائرهم. . . لم يتغيّر يوماً ما، بل كان على هذا السَّمْتِ منذ نشأته كما يشهد به تواتر الأخبار والسِّيَر من طُرُقِ الفريقَيْن.

فمَن كانت هذه سيرته وأخلاقه كيف يصدر عنه الجفاء لأعمى لا حول له ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، فمن سخافة القول وسذاجة المنطق والتكابر على الحق نسبته إلى هذه الخرافات السلوكيّة واعوجاجه عن الطريقة الإلهيّة لاصقين به إعراضه عن الأعمى لعماه أو لفقره أو لمقاطعته إياه، وهو لا يدري، ثمّ إقباله على الأغنياء لثروتهم وأموالهم وكثرة عشائرهم حتى عاتبه الله على ذلك ووبَّخه بأشدّ التوبيخ في طيّ آيات سورة عبس.

فهذه الآيات لا تتماشى وخُلُقِهِ وتربيته ودينه وطريقته ﷺ، بل لا تتماشى ودعوته إلى الأخلاق الحسنة والآداب الفاضلة، كما لا يصحّ أنْ يُخَاطَبَ بها الرسول ﷺ ورسالته؛ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

**الملاحظة السّادسة:**

ظاهر الآيات المدَّعى نزولها في النبي الأكرم ﷺ هو أنّ العابس كان من عادته وسجيته وطبعه التصدّي للأغنياء ولو كانوا كفاراً دون المؤمنين الفقراء، غير مبالٍ بواحدٍ من الفقراء، حتى ولو أراد أنْ يتزكّى، ونحن نعلَم أنّ هذا لم يكن من صفات النبي ﷺ ولا من طبعه وخُلُقِهِ، على أنّ العبوس في وجه الفقراء والإعراض عنهم لم يكن من صفاته ﷺ مع أعدائه، فكيف بالمؤمنين من أصحابه وأوِدَّائِهِ، وقد وصفه الله تعالى بأنّه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فسياق الآيات المعاتِبة لا يليق بمنصب النبوّة، لا سيّما أنّ لسان هذه الآيات هو الذمّ والتوبيخ لمن يترفّع عن الفقراء ويتواضع لاصحاب الجاه

والثراء، وهذه صفات يتنزَّهُ عنها المؤمن العادي، فكيف بنبيّ الرّحمة محمدﷺ الذي بُعِثَ رحمةً للعالَمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾، ولم يُعهَد من أخلاقه الرفيعة أنْ ينزع يده من يد مصافحه حتى ينزعها الآخر، وكان حياؤه ﷺ أشدّ من حياء المرأة، وكان من صفاته ﷺ قبل النبوّة وبعدها معاهدته ومجالسته للفقراء والمساكين، وكان ﷺ أكثر الناس تبسُّماً في وجوه بعض أصحابه المخلصين تأليفاً لهم وتودُّداً إليهم، إلى ما هنالك من صفاتٍ جميلةٍ ساءت أهل الشرف والجاه حتى طالبه الملأ من قريش بأنْ يبعد هؤلاء عنه ليتبعوه، وقد أشار عليه عمر بطردهم فأبى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ٥٢].

روى عليّ بن إبراهيم سببَ نزول هذه الآية وهو: أنه كان بالمدينة قومٌ فقراءُ مؤمنون، يُسَمَّوْنَ أصحاب الصفّة، وكان رسول اللهﷺ أمَرَهُم أنْ يكونوا في صفّة يأوون إليها، وكان رسول اللهﷺ يتعاهدهم بنفسه، وربما حمل إليهم ما يأكلون، وكانوا يختلفون إلى رسول اللهﷺ فيقرّبهم ويقعد معهم ويؤنسهم، وكان إذا جاء الأغنياء والمترَفون من أصحابه أنكروا عليه ذلك ويقولون له: أطردْهُم عنكَ، فجاء يوماً رجلٌ من الأنصار إلى رسول اللهﷺ وعنده رجلٌ من أصحاب الصفة قد لزق برسول اللهﷺ يحدّثه، فقعد الأنصاريُّ بالبُعد منهما، فقال له رسول اللهﷺ: تَقَدَّمْ، فلم يفعل، فقال له رسول اللهﷺ: لعلَّكَ خِفْتَ أنْ يلزق فقره بكَ؟ فقال الأنصاريُّ: أُطْرُد هؤلاء عنكَ، فأنزل الله الآية[1].

وعن الثعلبي بإسناده إلى إبن جرير وإبن المنذر عن عكرمة قال: مشى عتبة

---

(١) تفسير نور الثقلين: ١/ ٧٢١ح٩٤.

بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدي بن خيار بن نوفل في أشراف الكفار من عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا: لو أنّ ابن أخيكَ طرد عنّا هؤلاء الأعبد فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتّباعنا إيّاه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب للنبي ﷺ فقال عمر: لو فَعَلْتَ يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما تصيرون إليه من أمرهم؟ فأنزل الله تعالى ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥١ ـ ٥٢].

فمَن كانت هذه صفاته، فهل يتصوّر أنْ يقطّبَ ويعبس في وجه أعمى جاءه طالباً معرفة الحلال والحرام؟ وأيُّ تنفيرٍ أبلغ من العبوس في وجوه المؤمنين والتلهّي عنهم، والإقبال على جماعة مترَفين أمثال مَن ذَكَرَتْهُم الرّواية.

مضافاً إلى أنّ العبوس في وجه ضريرٍ لا يبصر ما حوله خلاف الحكمة؛ لأنّ الضرير لم يرَ عبوس العابس وتقطيبه، فلا يخلو الأمر حينئذٍ من شيئين:

إمّا أنْ يكون عبوس النبي ﷺ بوجه ذاك الضرير لحكمةٍ راجعةٍ إليه، وهي منتفية هنا لانعدام الرؤيا عند الضرير، فلا يترتب على عبوس النبي ﷺ له أي فائدة تُذكَر.

وإمّا أنْ يكون عبوسه بوجه الضرير حالة طيش وخفّة عقل، وهما أمران لا يمكن صدورهما من النبي ﷺ لتنزُّهه عن كلّ ذلك، مضافاً إلى أنه يجب على النبي ﷺ عقلاً ونقلاً أنْ يتروّى ويتحلَّمَ ويتأنّى لكونه أسوة حَسَنَة للأنام.

ونؤكّد أيضاً أنه بإمكان النبي ﷺ أنْ يستعمل أسلوباً آخر مع إبن أمّ مكتوم

لردعه أو إيقافه عن مقاطعته ﷺ، كأنْ يوحي لبعض الجالسين من أصحابه أنْ يُسْكِتوا الضرير، فحصر إسكاته بالعبوس ليس فيه ثمّة فائدة أو حكمة، مما يقتضي العبثيّة في الفعل، والعَبَث بعيد عن ساحة الأنبياء عليهم السلام.

إنْ قيل: إنّ عبوس النبيﷺ ـ على فرض ذلك ـ كان لحكمةٍ لا نعلَمُها فينتفي كونه قبيحاً.

قلنا: لو كان كذلك لَمَا صحّ في سورة عبس مطالَبَة العابس بأداء حقّ الأعمى إليه، سوآء كان هذا العابس هو النبيﷺ أم غيره.

**الملاحظة السابعة:**

إنّ الله تعالى مدح نبيّه الكريمﷺ بأفضل الصّفات بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وهذه الآية في سورة القلم وهي مكيّة نزَلَتْ قبل سورة عبس باتّفاق المفَسِّرين[١]، وحيث إنّ المتعَلّق فيها محذوف دلّ على أنّ أخلاق نبيهﷺ فاضلة لا يعتريها فظاظة وغلظة ومتعلقاتهما من العبوس والنفور، فلم تقيِّد الآية عِظَمَ أخلاقه بزمنٍ دون آخر، وبمكانٍ دون مكانٍ، وبحالة دون نظيرها، بل أخلاقه فاضلة في كلّ الأوقات والأزمان، ولا خصوصيّة لزمنٍ دون زمن أو جيل دون آخر. ونؤكّد أيضاً أنه يجب ـ وبحسب دلالة الآية ـ أنْ يكون ذا خُلُقٍ عظيمٍ خالٍ من أيّ تنفيرٍ أو انزعاجٍ في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وبالخصوص زمن التبليغ، وكلّ أيّامه تبليغ صلوات الله عليه وآله.

فمَن كان ذا خُلُقٍ عظيم في كلّ أوقاته، كيف يصدر منه عبوس في وجه

---

(١) لاحظ مجمع البيان: ١٠/ ١٦٤، والإتقان للسيوطي: ١/ ١٨و١٩و٣٢و٥٣و٥٤.

مؤمن في بعض أوقاته؟! فصدور هكذا قبيح منه يقدح بعصمته في التبليغ، كما أنه يستلزم جهل الله تعالى بحقيقة أخلاق النبي ﷺ، إذ كيف يعاتبه في سورة عبس، في حين أنّه عزّ وجلّ مدحه على خُلُقِهِ العظيم في سورة القلم المتقدِّمة زماناً على سورة عبس؟! فهل كان الله تعالى جاهلاً بذلك أو أنّ نبيّه الكريم ﷺ لم يعمل بما أمره الله عزّ وجلّ من قبل، وقد أخذ عليه الميثاق بالعلم والعمل؟!!

مضافاً إلى ذلك يظهر أنّ هكذا نبيّ لم ينزجر عمّا ارتكبه في سابق الدهر في مكّة حتى أعاد الكرّة بالجفاء في المدينة فخاطبه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩/ مدنيّة]. ولكنّنا ـ نحن الإماميّة ـ ننزّه النبي ﷺ عن مقاصد تلك الخطابات ونصرفها عن ظاهرها إلى غيره من باب «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

هذا كلّه فيما لو حملنا الآية الآنفة الذكر على القضيّة الخارجيّة؛ ولكنّها غير تامّة لمخالفتها للقواعد والأصول، أمّا لو حملناها على سبيل القضيّة الحقيقيّة المعلّقة على الشرط المستحيل تحققه في النبي ﷺ لاستلزامه التنفير، بمعنى أنه لو صدر منه ما يوجب الغلظة فإنه يستلزم انفضاض الناس عنه، وبما أنه لن يصدر منه ذلك، إذاً لن ينفضّ الناس عنه، وهي ضابطة كلية تشمل غيره ﷺ من المكَلَّفِين؛ لأنّ العبوس والتولّي عن المؤمن الفقير من أبرز مصاديق الفظاظة والغلظة، وقد تَنَزَّهَ عنهما الأنبياء والأوصياء والدعاة إلى الله تعالى؛ لأنهما من المنفِّرات الطبْعِيَّة التي تخلّ بفائدة البعثة والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، هذا مع أنه لم يُعهد من نبيٍّ قط أنْ صدر منه مثل ما صدر من النبي ﷺ بحسب زعمهم.

## إشكال وحلّ:

إنْ قيل: إنّنا لا نحرز ترتيب نزول السور عى النحو الذي ذكرتَ، إذ قد تكون سورة القلم نزلت بعد عبس وليس قبلها كما زعَمْتَ، فينتفي هذا الوجه.

وبمعنى آخر: ما يدرينا لعلّ النبيﷺ عبس بوجه الفقير ثمّ تاب من ذلك، فنَزلت سورة القلم تمدحه على عظيم أخلاقه.

قلنا:

(أوّلاً): الثابت عند المفسِّرين ـ حسبما أسلفنا سابقاً ـ أنّ سورة القلم نزلت قبل عبس، بل أكَّدَ هؤلاء أنّ سورة القلم هي من أوائل السور المكية بعد سورة إقرأ، وإليكَ ما ذكره السيوطي في «الإتقان» نقلاً عن البيهقي في «دلائل النبوة» قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو محمّد بن زياد العدل، حدّثنا محمّد بن إسحاق، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكّة: إقرأ باسم ربّك، ون ـ أي القلم ـ والمزمل، والمدثر، وتبت يدا أبي لهب، وإذا الشمس كُوِّرَت، وسَبِّح اسم ربّك الأعلى، والليل إذا يغشى، والفجر، والضحى، وألم نشرح، والعصر، والعاديات، والكوثر، وألهاكم التكاثر، وأرأيت، وقل يا أيها الكافرون، وأصحاب الفيل، والفلق، وقل أعوذ بربّ الناس، وقل هو الله أحد، والنجم، وعبس...[١]. وما نزل بالمدينة: ويل للمطففين، البقرة وآل عمران...[٢].

وذكر رواية أخرى بسند آخر عن إبن ضريس في فضائل القرآن قال: حدّثنا

---

(١) الإتقان: ١/ ١٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

محمّد بن عبد الله بن أبي جعفر الرازي، أنبأنا عمر بن هارون عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه إبن عبّاس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت بمكّة ثم يزيد الله فيها ما شاء، وكان أوّل ما أُنزل من القرآن: إقرأ باسم ربّك ثم ن، ثمّ يا أيها المزمل... ثمّ عبس...[1].

وجاء في تفسير أبي حمزة بإسناده إلى إبن عبّاس قال: أوّل ما أُنزل بمكّة: إقرأ باسم ربّك، ثمّ ن والقلم، ثمّ المزمل، ثم المدثر... ثمّ عبس...[2].

(ثانياً): إنّ العبوس بوجه ضرير يدخل في المسائل الأخلاقيّة التي تؤثر في مسلكيّة الرّسول الداعي إلى الله تعالى، فلا يجوز الإتصاف به، إذ الخُلُق السيئ بعيد عن ساحة المرسَلين، فلا بدّ لهم من الإتصاف بأضداده، ولا بدّ لهذه الأضداد أنْ تكون مَلَكات قدسيّة تنبع من ذات النبي والرّسول، وهذا ما نسمّيْهِ بالعصمة، فالخلق الصالح ملكة قدسيّة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها، ومع إحراز كون هذا العبوس قبيحاً عقلاً فلا يصحّ صدوره عن المعصوم عليه السلام فضلاً عن سيّدهم ﷺ.

فقبح الفعل مع العلم بهذا القبح وبعواقب ارتكابه يضاف إليه وجود المَلَكَة المانعة عنه ﷺ وتمنع صدور هذا الفعل ونظائره عن النبي ﷺ في بداية الدّعوة ونهايتها بل وقبل الدّعوة أيضاً.

**الملاحظة الثامنة:**

ما صدر من التوبيخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ لا يناسب عموميّة

---

(١) الإتقان: ١/ ١٩.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ١٦٤.

رسالة النبي ﷺ، وكونه مبعوثاً للتزكية والأخلاق الفاضلة، قال تعالى مادحاً نبيه ﷺ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١]، ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولو صَدَرَ منه ﷺ العبوس لَكَانَ جاهلاً بمكارم الأخلاق في حين أنّ الآيتين المبارَكَتَيْن تنصّان على أنه ﷺ يعلّمُهُم ما لم يكونوا يعلَمُون، فلو كان ﷺ جاهِلاً كيف يُعَلّمُهُم ويزكّيهم؟!!

وبعبارة أخرى: لو كان جاهِلاً ﷺ بأنّ العبوس قبيحٌ ومنفّرٌ كيف يصحّ أنْ يكون داعيةً إلى الله تعالى وإلى مكارم أخلاقه عزّ وجلّ؟!! ففاقد الشّيء لا يعطيه، والعَدَمُ لا يُوَلِّدُ وُجوداً.

لقد انحصَرَتْ مهمّة النبي ﷺ بتزكية الناس وتعليمهم مكارم الأخلاق، قال ﷺ: «إنّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخلاق»، وهل من المكارم أنْ يعبسَ ﷺ في وجه مؤمنٍ فقيرٍ جاءه مستفهِماً عن معالِم دينِهِ؟! وهل العبوس من التزكية الإلهية لنبيّه الكريم؟! ألم يخبرنا الله تعالى في كتابه أنّ نبيه ﷺ معلّمٌ ومزكّيٌ للأميين في مكّة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وهل العبوس من العِلْمِ أم من الجهل؟ فإنْ كان من العِلْم فلِمَ عاتبه ووبّخه الله تعالى في سورة عبس؟!! وإنْ كان من الجهل فكيف أصبغ عليه التزكية والتعليم؟!! إنّ هذا لشيءٌ عجيب!! وحاشا لله أنْ يصبغهما على غير المستحقّ!

**الملاحظة التاسعة:**

روايات العبوس التي ألصقوها بالنبي ﷺ كلّها أخبار آحاد لم ترو في مصادر الشيعة، ونحن الإماميّة لا نعَوِّل على الخبر الواحد في الإعتقادات؛ لأن المطلوب في الإعتقاد الجزم واليقين مع الأنبياء والأوصياء عليهم السلام عن الذنوب والخطايا والمنفِّرات، وليس شيءٌ من قبيل هذا في الخبر الواحد إلاّ على نحو النّادر وهو بحكم العدم.

مضافاً إلى أنّ هذه الأخبار تصادم حكم العقل باستحالة صدور القبيح عن الأنبياء والأولياء عليهم السلام لا سيّما في التبليغ، فصدور الخطأ من النبي ﷺ في مورد القصّة يُعَدُّ خطأً في التبليغ، وقد أجمعَت الأمّة على خلافه سوى بعض الأشاعرة، فالتمسّك بقصّةٍ لم تثبت صحّتها مع مخالفتها لِمَا ذَكَرْنا لا يكون دليلاً على المدَّعى.

ونؤَكِّدُ أيضاً أنّ تلكم الأخبار الآحادية مخالِفة للآية المباركة ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥﴾ [الشعراء: ٢١٥/ مكية] التي نَزلَت في بدء الدعوة في العام الثالث من البعثة كما هو المُجمَع عليه بين الإماميّة ووافَقَهُم جماعة من العامّة.

وعليه؛ فكيف يتصوَّر عاقِلٌ العبوسَ منه ﷺ والإعراض عن المؤمنين، ومخالَفة أوامر الله تعالى التي حثَّتْهُ على احترام المؤمنين وخفض الجناح لهم، وكذا ما ورد في الآية ٩٤ من سورة الحجر الواردة في سياق الآية٨٨ وهما قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ ... ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ فإنهما مؤكّدتان للآية٢١٥ من سورة الشعراء؛ فهل يا تُرى نسى النبي ﷺ أوامر ربّه وانه مأمورٌ

بخفض الجناح لمَن اتبعه؟ وإذا كان نسي، فما الذي يؤمِنُنا من أنْ لا يكون قد نسي غير ذلك أيضاً؟ وإذا لم يكن قد نسي، فلماذا تَعَمَّدَ أنْ يعصي هذا الأمر الصريح؟!!

**الملاحظة العاشرة:**

إنّ أيّ خَبَرٍ إذا اصطدم مع الظاهر القرآني ـ كمورد البحث ـ يُطرح في حال لم يتوافق مع ذلك الظاهر، حيث لا يمكننا تأويل الظاهر، وهنا لا يمكننا تأويل العبوس المنسوب إلى النبي ﷺ مع مخالفته لقانون الرّحمة والأسس العقيديّة التي ابتنى عليها مبدأ العصمة؛ ودعوى أنّه كان يرجو بإسلام صناديد قريش إسلام غيرهم مردودةٌ؛ لأن بفعله ذاك لم يُدخِل أحداً منهم ولا غيرهم في الإسلام نتيجة ما جناه على إبن أمّ مكتوم، هذا مع أنّ العبوس في وجه الضرير لا يترتّب عليه فائدة تُذكَر عند الضرير، فكان الحريُّ أنْ يُرحَم ويُخص بمزيد الإقبال والتعطف، لا أنْ ينقبض ويعْرِض عنه.

فالعبوس ـ إذاً ـ لا فائدة فيه؛ لأنه وقع في موردٍ لا يصحّ أنْ يقعَ فيه، وذلك لأنّ ذاك الضرير لم يرَ تقطيب حاجبَي النبي ﷺ، ولم يرَ آثار الإنزعاج على وجه النبي ﷺ، فيكون عبوسه ﷺ عَبَثاً قد تنَزَّهَ عنه الأنبياء ﷺ، فكيف بسيّدهم؛ فإنّه بطريقٍ أَوْلَى.

بل ينبغي حينئذٍ للنبي ﷺ ـ على فرض كونه العابس، وفرض المحال ليس محالاً ـ أنْ يُظهر للضرير أمراً غيرَ العبوس ليتنبّه إلى انشغال النبي ﷺ بصناديد قريش ـ حسبما يدَّعُون ـ لا أنْ يعبس بوجهه وهو لا يدري عبوسَ النبي ﷺ ليرتدع عن الإلحاح بالسؤال.

**الملاحظة الحادية عشرة:**

إنّ صدور العبوس من النبي ﷺ أيسر ما يُقال عنه أنه ذنبٌ صغيرٌ لا يجوز عقلاً للأنبياء ارتكابه، لا حال التبليغ ولا بعده، وحيث إنّ العبوس وقع حال التبليغ دلّ ذلك على وقوع ذنب صغير، أجمع الشيعة ـ حَرَسَهم المولى ـ على امتناع صدوره عن الأنبياء والأولياء عليهم السلام حال التبليغ وبعده، هذا مضافاً إلى أنّ الإعتقاد بعبوسه بوجه ذاك المؤمن يُعَدُّ خطأً في الرأي والتشخيص؛ لأنّ النبي ﷺ بحسب هذه الدعوى أراد أنْ يُؤَلِّفَ بين قلوب المشركين ليستميلهم إلى الإسلام مع أنهم لم يدخلوا، فيكون بهذا قد وقع النبي ﷺ في خطأ، والخطأ من الرِّجس، وقد نزَّهَ الله سبحانه نبيّه الكريم عنه بآية التطهير، التي كَشَفَت عن طهارته من كلِّ رِجْسٍ علمي وعملي، أخلاقيّ وأدبي في نفسه ومعاشرته مع غيره سواء أكان هذا الغير صحابيّاً أم عدوّاً، مؤمناً أم كافراً ومنافقاً، فالنبي ﷺ يُعطي بحق، ويمنع بحق، ويفعل بحق، فلم يكن فيه شائبة الإعوجاج السّلوكي، لذا فإنّ إلصاق الإعراض بوجهه عن الأعمى ثمّ الإقبال على الأثرياء، كلّ ذلك رجس أخلاقي يجب أنْ يتنزَّهَ عنه نبيُّ الرّحمة محمد ﷺ، وعلى فرض أنه لم يتنزَّه عن آفة الإقبال على الفقراء والإعراض عنهم ـ وحاشاه من ذلك ـ، فلِمَ أشارَت الآية إلى طهارته عن كلّ ذلك؟! ولِمَ لم يطهِّرْه الله تعالى عنها، على فرض أنه خالٍ من تلك الطهارة؟ أليس الإتصاف بالأخلاق الحَسَنَة سِمَة القادة الحكماء والعلماء الأتقياء؟! فلِمَ خَرَجَ عن طريقتهم وسَلَكَ طريقَ الجبّارينَ والمتكَبِّرِينَ والجُفاة والظالِمِين؟!!

**الملاحظة الثانية عشرة:**

ليس في آيات سورة عبس دلالة على أنّ العابس هو النبي ﷺ بالخصوص،

ولو احتملنا ظهور الآيات فيه، فلا بدّ من صرفها عن ظاهرها فتُحْمَل على غيره لوجود المقتضي لذلك عند غير النبيﷺ، ووجودِ مانعٍ عند النبيﷺ وهو العصمة، لكون العبوس منفّراً من قبول الدّعوة فلا يجوز التلبُّس به.

**الملاحظة الثالثة عشرة:**

لو كان العابس في مقام هداية صناديد قريش ـ كما تصف أخبار العامّة ـ لَمَا صحّ أن تشدَّدَ آياتُ سورة عبس بالنكير عليه ﷺ وإعلان العقاب لو استمرّ بفعله، إذ مَن كان في هكذا مقام لاستَحَقَّ المدحَ عند العقلاء من هذه الناحية، نعم يستحقّ الذم من ناحية عبوسه بوجه الفقير الضرير.

وبعبارةٍ أخرى: إنّ تشديد النكير وإعلان العقاب في سورة عبس لا يتلاءم مع كون الفعل المعاتَب عليه مباحاً، فضلاً عن كونه صدر عن فاعله لمصلحة دينيّة، إذ لو كان كذلك لَوَجَبَ إطراء فاعله ومدحه والثناء عليه؛ لأنه لم يُرِد سوى الخير والصلاح في الدِّين، ولا أقلّ من أنْ يتحَبَّبَ الله تعالى إلى فاعله على طريقة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

لكنّ الذي رأيناه منه تعالى في هذه السّورة هو خلاف ذلك، حيث الإنكار والتوبيخ والتقريع حتى خلّف نزول هذه الآيات في نفسه الطاهرة ـ كما يروون ـ[١] غمّاً وهَمّاً وأنه ما اغتمّ لأمرٍ كما اغتَمَّ لأمر هذه الآيات، بل جاء في بعضها أنه لمّا نَزَلَت آيات عبس تغَيَّرَ وجهُ النبيﷺ كأنّما ذرّ عليه الرّماد، ينتظر ما يحكم الله عليه[٢].

---

(١) تفسير جامع البيان: ٣٠/ ٣٣، وتفسير روح البيان: ١٠/ ٢٣١.

(٢) نفس المصدر السابق.

وفي رواية ثالثة: لو أنّ رسول الله ﷺ كَتَمَ شيئاً من الوحي لَكَتَمَ هذا عن نفسه[١]. أي كان يستحي من ذِكْرِ هذه الآيات لكثرة تعنيفها له، ولو كان جائزاً أنْ يخفي شيئاً من الوحي لَكَان أخفى عن الناس سورة عبس.

وعليه؛ فإنّ القول بأنّ النبي ﷺ عبس بوجه الفقير بدافع الحرص على هداية المشركين أو راجياً إسلامهم استناداً إلى بعض الروايات المتقدّمة، كاد أنْ يخرج مخرج التوسل إلى الواجب بأمر محرم، مع عدم إحراز كون المتوسل إليه وهو الواجب أكثر أهميّةً من المتوسّل به وهو المحرم.

**الملاحظة الرابعة عشرة:**

إنّ تلكم الأخبار التي استدلّ بها العامّة على المدَّعى، تخالف دلالة الآيات في سورة عبس؛ وذلك لأنّ مفاد تلك الأخبار أنّ علّة عبوس العابس ـ والذي هو النبي بحسب الفرض ـ إنما هو لأجل مقاطعة النبي المنشغل مع صناديد قريش راجياً إسلامهم، في حين أنّ واقع الآيات هو عكس ذلك، إذ مفادها: أنّ العابس كان من دأبه العمل على التصدّي للأغنياء، والإهتمام بهم لغناهم ولو كانوا كافرين، والتلهي عن الفقراء والتشاغل والإعراض عنهم حتى لو كانوا مؤمنين.

وهذا مما لا يصحّ أنْ يوصَف به أهل التقى والورع فضلاً عن الأنبياء والمرسَلين ﷺ لا سيّما خاتمهم نبيّنا محمد ﷺ لكونه ـ أي العبوس ـ منَفِّراً وهو ﷺ منَزَّهٌ عنه، ولعدم شباهته بأخلاقه وسعة صدره، وقد ورد عنه ﷺ: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحُسْنِ أخلاقكم[٢].

---

(١) الدرّ المنثور: ٦/ ٥١٨.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الحج/ باب١٠٧ من أبواب العشرة ح٨.

وبالجملة؛ إنّ الآيات تعطي أنّ العابس كان على صفة التصدّي للغني والتلهي عن الفقير، وهذا مخالِفٌ لسيرة النبيﷺ قبل نزول السورة، ومخالِفٌ أيضاً لدلالة الأخبار العامية الدالة على أنّ النبيﷺ لم يكن من دأبه التصدّي للأغنياء، فيقع التعارض بين الأخبار والآيات فتسقط الأخبار لمناهضتها للآيات، في حين تبقى الآيات على إجمالها في تعيين العابس.

هذه أهمّ الإيرادات والملاحَظات على الرّأي السائد بين علماء العامّة، وهي في الواقع قرائن قطعيّة تنفي أصل الواقعة المزعومة المفتَراة على رسول اللهﷺ، فيجب على علماء العامّة مراجعة آرائهم الفاسدة حول رسول اللهﷺ.

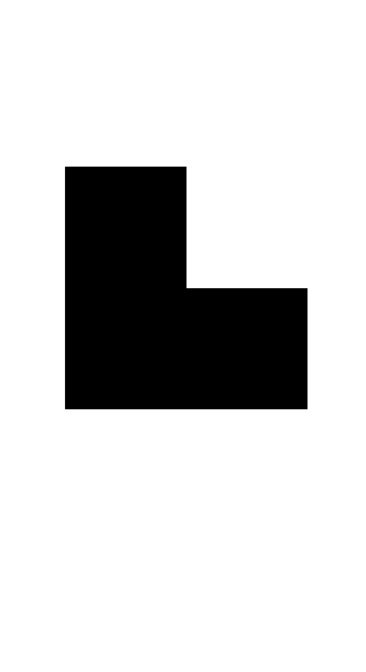
* * *

# الفصل الثاني
# شبهات واهية

ودحضها

ويتضمَّنُ هذا الفصل إثارة بعض الشبهات والنقض عليها، وهو بدوره يشكّل قرائن قطعيّة أخرى على بطلان نظرية العامّة في ماهيّة العابس.

وقد اعتمَدْنا في تفنيد شبهاتهم على التحليل العلمي والفقهي الكلامي المتكئ على الأدلّة الأربعة، وبالخصوص دليل العقل الذي لا ينفكّ في تدعيم مستنده عن الأدلّة الأخرى.



**الشبهة الأولى:**

العبوس إنّما صَدَرَ من النبيﷺ ـ بحسب زعم الشبهة ـ لأنّ كلامه كان شيّقاً مع المشرِكِين، يرجو إسلامهم، وهذا أمرٌ حَسَنٌ؛ لأنّه في طريق الدِّين وفي سبيله.

**يرد عليها:**

(١) لو سَلَّمْنا أنّ الواقعة صحيحة، إذ فَرْضُ المحال ليس محالاً، لكنّا لا نسَلِّم بانقلاب القبح العقلي إلى أمرٍ حَسَنٍ، فالعبوس نوع تنفيرٍ يتنَزَّه عنه الأنبياء عليهم السلام عقلاً، فلا مجال لانقلابه إلى حَسَنْ عقلاً لبقاء المناط على كِلاَ الحالَتَيْن.

(٢) إنّ صريح الآيات نصٌّ على أنّ الذمّ له كان لأجل تصدّيه لذاك الغني لغناه، وتلهّيه عن الفقير لفقره، ولو صَحَّ ما ذكروه من أنّ عبوسه كان لمصلحةٍ حَسَنَةٍ، كان اللازم أنْ يفيض القرآن الكريم في مدحه وإطرائه على غيرته الدينيّة، وتحمُّسِهِ لرسالته، لا أنْ يذمّه ويقرّعه كما هو ظاهر الآيات.

**الشبهة الثانية:**

إنّ الآيات في سورة عبس خطابٌ كليٌّ مفادها أنّ النبيﷺ كان إذا رأى فقيراً تأذّى منه وأعرض عنه.

**يرد عليها:**

(١) إنّ هذا مخالِفٌ لسيرته الطاهرة ﷺ، التي عاشها مع الفقراء والمساكين، مع أنّه كان فقيراً يتيماً لم تُخرجه رسالته عمّا كان عليه قبلها.

(٢) ما ذَكَرَتْهُ الشبهة يخالف القصّة التي ذكروها من كونها قضيّة في واقعة واحدة لم تتكرَّر.

(٣) إذا كان المقصود هو الإعراض عن مطلَق الفقير، فلماذا جاء التنصيص على الأعمى؟!

**الشبهة الثالثة:**

إنّ الله عزّ وجلّ لم ينهَ النبي ﷺ عن هذا الفعل إلاّ في وقت الحادثة، فلا يكون معصيةً منه بعدها، وأمّا قبل النهي فلا.

**والجواب:**

إنّ قبح ترجيح الغني على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض والإقبال على الغني لغناه قبحٌ عقليٌّ ـ حسبما أسلفنا مراراً ـ منافٍ لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج في لزوم التجنّب عنه إلى نهيٍ لفظيٍّ. والخُلق الكريم ملكة لا تتخلّف عن الفعل المناسب لها، وهذا تماماً كملكة العصمة فلا يُقال إنّه معصومٌ بعد البعثة، وغير معصومٍ قبل البعثة، فالمَلَكَة لا تتَبَعَّض ولا تتجَزَّأ.

وبهذا يتضح أنّ العابس ليس رسول الله ﷺ، وإنما هو رجلٌ من بني أميّة، ويؤَيِّدُ ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أمّ مكتوم قال: مرحباً مرحباً، والله لا يعاتبني الله فيكَ أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتى يكفّ عن النبي ﷺ ممّا كان يفعَل به.

وهذه الرّواية توضّح أنّ الله تعالى لم يعاتب نبيه ﷺ في شأن إبن أمّ مكتوم، بل هي تعريض بذلك الرجل الذي ارتكب ذاك الشطط في حقّ إبن أمّ مكتوم.

فما ادّعاه العامّة في نبيّنا محمد ﷺ ما هو إلاّ غيضٌ من فيض منكراتهم واتهاماتهم للأنبياء والأولياء عليهم السلام، وموافقة بعض المنسوبين على التشيع أولئك المخالفين في هذه المسألة لا تخرجها عن قبحها العقليّ ثمّ إدراجها في خانة المحسنات العقليّة والشرعيّة.

**الشبهة الرابعة:**

«إنّ الرواية المنسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام في أنّ الحديث عن رجل من بني أميّة لا تتناسب مع أجواء الآيات؛ لأنّ الظّاهر من مضمونها أنّ صاحب القضيّة يملك دوراً رسالياً، ويتحمّل مسؤولية تزكية الناس مما يفرض توجيه الخطاب إليه للحديث معه عن الفئة التي يتحمّل مسؤوليّة تزكيتها، باعتبارها القاعدة التي ترتكز عليها الدّعوة وتقوى بها، في مقابل الفئة الأخرى التي لم تحصل على التزكية، ولا تستحق بذل الجهد الكثير»[1].

فقد ربط صاحب الشبهة بين التزكّي وبين المسؤوليّة القياديّة، بمعنى أنّ تحمُّل مسؤوليّة التزكية منوط بالقيادة النبوية، فلا معنى ـ إذاً ـ أنْ يكون الخطاب في الآيات لعثمان أو رجلٍ آخر غير النبي ﷺ، لوضوح أنهما ليسا قائدين دينيّين، وليس من شأنهما أنْ يتزكّى الناس على أيديهما لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾.

---

(١) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦٥.

**والجواب:**

(١) ليس في الآيات ما يدلّ على أنّ التصدّي كان لأجل الدّعوة إلى الله تعالى أو لغيرها، فلعلّ التصدّي كان لأهداف أخرى دنيويّة تكسب الصداقة أو الجاه ونحو ذلك، وقوله تعالى ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ ليس فيه أنه يزكّى على يد المخاطب، بل هو أعمّ من ذلك، فيشمل التزكّي على يد غيره ممّن هم في المجلس كالنبي ﷺ أو غيره. ويشهد لهذا كون التزكية والتعليم أمراً عامّاً يشمل لزوم القيام به كلّ قادر عليه حسب طاقته ووسعه.

(٢) ولو أغمضنا عن هذا، فالإستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ على ما ذُكِر، معارَض بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ على أنّ المخاطَب بها رجلٌ ليس من شأنه أنْ يُتَزَكّى على يديه حسبما أشار إلى ذلك السيد المرتضى رحمه الله[١].

فحينئذٍ لا تتمّ الدلالة في نفس الآيات على كون النّزول في شأن النبي ﷺ، فاستَدْعَت الحاجة الرّجوع إلى الرّوايات والأدلّة العقليّة الأخرى، وحيث إنّ الرّوايات مضطربة وضعيفة كما ذكرنا سابقاً، فلا يبقى معنا إلاّ حكم العقل بقبح صدور هذا الفعل منه ﷺ، ويؤيده الخبر الوارد من مصادرنا بأنّ العابس هو رجلٌ من بني أميّة، فلا مبرّرَ لطرحه كما فعل صاحب الشبهة[٢].

(٣) ليس في الآيات شيءٌ ممّا ادّعاه صاحب الشبهة بل العكس هو الصحيح؛ إذ إنّ دلالالتها مجمَلَة لم تحَدِّد هويّة العابس، فمن أين جاءه العِلم

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١١٩.

(٢) صاحب الشبهة كعادته يطرح كلّ رواية من مصادرنا لا تتوافق مع العامّة المتحالف معهم.

بأنّ مضمونها يشير إلى أنّ صاحب القضيّة يملك دوراً رساليّاً ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ولو كان كما ذكَرَت الشبهة لَكَانَ الأنسب التخاطب معه بما لا يوجب صرفه إلى غيره حتى لا يقع المكلَّفون في الضرر. مضافاً إلى أنه لو ذُكِرَ المخاطَب في آيات عبس، قياساً على بعض الآيات التي هي بحسب الظاهر خطابٌ له، لكان على القرائن القطعيّة صرفها عن النبيﷺ لمعارضة الآيات للمحاذير الشرعية التي يجب أنْ يترفَّع ويتنزَّه عنها الأنبياء ﷺ، مثل الشرك والكفر والدناءة والعهر والزنا واللواط والكذب والإحتيال والسحر والظلم. . .إلخ، نظير الآيات المتشابهات التي يُخاطَب بها النبيﷺ ويُراد غيره كما سوف يأتي في البحوث الآتية إنْ شاء الله تعالى.

**الشبهة الخامسة:**

«إنّ مدلول الآيات يوحي بأنّ النبيﷺ كان يستهدف من حديثه مع هؤلاء الصناديد، تزكيتهم الفكرية والروحية والعملية بعيداً عن مسألة الإهتمام بغناهم من ناحية ذاتية، فيما اعتاده الناس من الإهتمام بالغني تعظيماً لغناه، ورغبةً في الحصول على ماله.

فعدم حصوله على التزكية بعد إقامة الحجّة عليه من قبلك مدّةً طويلةً لا يمثل مشكلة بالنسبة إليكَ لأنكَ لم تقَصِّر في تقديم الفرص الفكريّة بما قدّمته من أساليب الإقناع، ممّا جعل من التجربة الجديدة تجربةً غير ذات موضوع؛ لأنه يرفض الهداية من خلال ما يظهر من سلوكه، الأمر الذي يجعل من الإستغراق في ذلك مضيعةً للوقت، وتفويتاً لفرصةٍ مُهِمَّةٍ أخرى وهي تنمية معرفة هذا المؤمن الداعية الذي يمكن أنْ يتحوّل إلى عناصرَ مؤَثِّرةٍ في الدّعوة

الإسلاميّة...»[(١)].

والخلاصة: يترتّب على هذه الدّعوى أثران سيّئان على شخصيّة النبيّ محمد ﷺ:

الأوّل: إنّ خوضه الجدال مع صناديد قريش لغوٌ وعَبَثٌ لكونه غير ذي موضوع.

الثاني: إنّ الإستغراق في محادثتهم مضيعة للوقت وتفويتٌ لفرصة مهمّة أخرى، مما يستلزم جهل النبي ﷺ بمستقبل أولئك الصناديد، مضافاً إلى العبثيّة أيضاً.

والجواب:

(١) إنّ الأنبياء يتنزّهون عن الجهل والعبثيّة لكونهم معصومين، لا سيّما نبيّنا الأكرم ﷺ الذي أذهَبَ الله عنه الرِّجْسَ وطَهَّرَه تطهيراً، كما أنّ الله تعالى حكى عن نبيه بأنه كان من ربه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩ ـ ١٠]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٥]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]. فمَن كان طاهراً مطَهَّراً، وقريباً من الله بأعلى درجات القُرب، وموحىً إليه بكلّ مصاديق الوحي والإلهام والحدس، كيف يمكن أنْ يصدرَ منه عَبَثٌ أو يكون في بعض أوقاته مضيعة لا فائدة فيها؟!! لا أدري لعلّ صاحب الشبهة يدري فيمري علينا من علومه!!!

(٢) لقد دَلَّتِ البراهينُ النّقليّةُ والعقليّةُ على عصمة النبي ﷺ وأهل بيته

---

(١) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦٢ النقطة الثانية.

الطيبين ﷺ وكذا الأنبياء ﷺ عن الجهل في الموضوعات التي يترتّب عليها حكمٌ شرعيٌّ ـ كمحادَثة العبوس على فرض كون النبي ﷺ صاحبها ـ وكذا عصمتهم ﷺ في التبليغ، ولا ريب بحكم ما يعتقده صاحب الشبهة تبعاً للمخالفين أنّ النبي ﷺ كان في حالة تبليغ عندما تصدّى لصناديد قريش راجياً إسلامهم وهدايتهم، وعليه فإنّ ما صَدَرَ من النبي ﷺ حال التبليغ مخِلٌّ بعصمته في هذه الحال، وهو واضح البطلان بحكم الأدلّة.

ولو لم يكن النبي ﷺ معصوماً في التبليغ ففي أيّ شيء يكون معصوماً؟!! وهل يؤمَن عليه حينئذٍ لو تطرَّقَ الخطأُ إلى ساحته في حال التبليغ؟! ثمّ ما هي ميزته عن غيره في حال صدر الخطأ منه حال التبليغ؟! ولماذا أرسله الله تعالى في تلك الحال مع تساويه مع غيره في حصول الخطأ؟!! أليس هذا ترجيحاً بلا مُرَجِّح يَقْبُح صدورُهُ من العقلاء فضلاً عن خالقهم؟!!

(٣) إنّ الشبهة المذكورة تعارض كتاب الله الدّال على أنّ النبي ﷺ مؤتَمَنٌ على وحيه عزّ وجلّ، فلا يجوز له أنْ يقول أو يفعل إلاّ بوحيٍ منه عزّ وجلّ، قال تعالى في حقّه ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: ١٠٩].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ [ص: ٧٠].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤].

يظهر أنّ المستشكل بعصمة النبي ﷺ في التبليغ أُصيب بعدوى عمر بن الخطاب الذي نعت النبي ﷺ بالهجر وهو على فراش الموت وحال التبليغ لمّا طَلَب منهم أنْ يأتوه بدواة وكتف، فمنعهم عمر وقال: إنّ الرّجل لَيَهْجُر..[1].

والهجر هو الجنون الذي نفاه الله عن نبيه ﷺ بقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٤].

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠﴾ [المؤمنون: ٧٠].

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطور: ٢٩].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾ [التكوير: ٢٢].

(٤) إنّ كلام المذكور يعتبر تبرعياً في تبديل الحيثيات بلا دليل، فتصدّي النبي ﷺ لهداية المشرِكين بعيداً عن مسألة الإهتمام بالغني بحاجة إلى دليل يدلّ عليه.

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٤٥ح١٤٤ باب٤٠.

**الشبهة السادسة:**

«إنّ العبوس لم يكن عبوس الإحتقار بل قد يكون أقرب إلى عبوس المضايقة النفسيّة التي توجِد تقلُّصاً في الوجه عندما يقطع أحدٌ على الإنسان حديثه الذي يرقى إلى مستوى الأهمية لديه، فلا يكون في ذلك أيّ عمل غير أخلاقي، فلا يتنافى مع الآيات التي أكّدَت خُلُقَه العظيم وسِعَة صدره»[١].

**والجواب:**

(١) الإشكال إنما هو في المضايَقة وليس في الإحتقار؛ لأنّ النبيﷺ لا يحتقر إنساناً، فكيف بمؤمن تقيّ كإبن أمّ مكتوم، وعليه فإنّ العبوس والتولّي سوآء أكان بعنوان الإحتقار أم بعنوان المضايقة، عملٌ مشينٌ لا يصدر من نبيٍّ؛ لأنه خلاف الخُلُق الرّفيع عُرْفاً، والعجب من صاحب الشبهة كيف أخرج العبوس من دائرة الخُلُق السيّئ، ويظهر أنّه يقحمه في خانة الخُلُق العظيم الذي أشارت إليه الآية الرابعة من سورة القلم، والمضايقة المذكورة أمرٌ عجيب لم نسمعه من قبل بحقّ نبيّ الرّحمة محمدﷺ، حتّى من عَبَدَة الأوثان أو الكفّار!!

فإذا لم يكن العبوس منافياً لخُلُقِهِ العظيم وسعة صدره فلماذا شدَّدَت عليه آيات سورة عبس اللومَ والإنكار؟! وهل الخلق العظيم يقتضي التوبيخ واللوم منه عزّ وجلّ في سورة عبس؟! سبحانكَ اللهمّ؛ هذا بُهتانٌ عليكَ عظيمٌ!!!

وبالجملة؛ فإنّ شدّة الإنكار والتوبيخ في سورة عبس مطلَقة لا تقييد فيها بالمضايَقة دون غيرها، فلا يفرق فيه من هذه الجهة بين كونه للمضايَقة أو للإحتقار ولا فصل بينهما أصلاً لشيوع ماهيّة الإنكار من الله تعالى على العابس

---

(١) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦١، ومجلّة الموسم العددان ٢١و٢٢ص٢٩٥.

دون أنْ ينصب قرينة على أحد مصداقَيْها، مع كونه في مقام البيان حسبما قُرِّرَ في أصول الفِقه، فتأَمَّلْ.

(٢) العمومات القرآنية الناهية عن الفظاظة، والآمِرة بالرّحمة والرّأفة، تنافي كون العبوس للمضايَقة، كقوله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

(٣) لقد دلّت الأخبار من أئمتنا عليهم السلام أنّ المؤمن هَشٌّ بَشٌّ لا عبّاسٌ ولا بجّاس، فقد ورد عن أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله يبغض المعبس في وجه إخوانه(١).

وورد عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه أنه قال في حديثٍ شارحاً صفات المؤمن: هشّاشٌ بشّاشٌ لا بعبّاسٍ ولا بجبّاسٍ(٢).

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٨، باب الحج، ص٣٢١، ح٩٥٥٢.

(٢) المصدر السابق عينه، ح٩٥٥٣، والهش: التبسم، والبشاش: طلق الوجه، والعباس: كثير العبوس، والجبّاس: الجامد من كلّ شيء، الثقيل الرّوح.

وغيرهما من المطلَقات الدالة على بشاشة وجه المؤمن، وهل يمكن أنْ يأمر رسول الله ﷺ بالبشاشة وهو ضدّ ذلك؟!! لا أظنّ عاقلاً متديّناً يؤمن بذلك.

إنْ قيل: إنّ الخبر الأوّل لا يشير إلى أنّ النبي ﷺ كان دائم البشاشة، بل لعلّه صار كذلك بعد واقعة سورة عبس.

قلنا: إنّ النبي ﷺ عندما أطلق بكلامه «بأنّ الله يبغض المعبس» يشمل ما قبل الواقعة وما بعدها، ولو صدر العبوس من النبي ﷺ قبل نزول السورة لَكان مبغوضاً عند الله تعالى، في حين أنه ﷺ حبيب الله مذ كان في عالَم الأرواح، لا يصدر منه ما يؤدّي إلى بغض الله له ﷺ. وعليه؛ فإنّ دلالة الحديث عامّة تشمل كلّ الأزمنة، فلا تخصيص هنا.

(٤) قد أشرنا سابقاً أنّ سورة عبس نَزَلَت أوائل الدّعوة بعد سورة القلم، مما يشير إلى أنه تعالى كان مسبقاً قد أخبر معلناً عن أخلاق نبيّه العظيمة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾، وهذا النحو من الإخبار العلني الغيبيّ من قِبَل الله تعالى عن أخلاق وصفات هذا النبي فيه من الإعجاز ما هو واضحٌ مع كثرة محاولات أعدائه الطّعن عليه، فلم يَسْلَم رسول الله ﷺ منهم ولا من أتباعه المسلمين حيث تجرؤوا وألصقوا به ما عجز الأعداء عن إلصاقه بشخصه الكريم.

**الشبهة السابعة:**

سبب إعراض النبي ﷺ بوجه إبن أمّ مكتوم هو أنّ الثاني لم يكن مسلماً فلا محذور فيما فعله النبي ﷺ معه.

والجواب:

النبي ﷺ صاحب خُلُق رفيع مع كلّ الناس سواء كانوا مسلمين أم مشركين،

فلم يكن عنصرياً يميِّز بالمعامَلة المسلمين عن غيرهم؛ لأنّ التمييز مضافاً إلى أنه خلاف عادته وطباعه وأخلاقه ـ فإنه مخِلٌّ بغرض البعثة، حيث من المعلوم أنه مرسَلٌ لهداية هؤلاء المشرِكين بل هو رحمة للعالَمين، ومبعوثٌ إلى النّاس كافّة، وهو مأمورٌ بالدّعوة إلى ربّه بالحكمة والموعظة الحَسَنَة طبقاً لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

فعبوسه ﷺ حينئذٍ في وجه المرسَل إليهم لا سيّما مع إقبالهم عليه نقضٌ للغرض الذي أُرسِلَ لأجْلِهِ، لكونه منَفِّراً لهم عمّا يدعوهم إليه.

**الشبهة الثامنة:**

إنّ العبوس والإنبساط مع الأعمى سواء إذ لا يشقّ عليه ذلك[١] لأنه لا يتلمّس[٢] فلا يكون ذنباً، وبالتالي فلا محذور فيه.

**يرد عليه:**

(أولاً): إنْ لم يكن العبوس مضرّاً بإبن أمّ مكتوم لعماه، لكنّه مضِرٌّ بمَن سَمِعَ أو رأى عبوس النبي به، لِمَا يترتّب على العبوس بوجه الضرير من الأذيّة؛ لأنّ الضرير بحاجة ـ أكثر من غيره من أهل الفاقة ـ إلى العطف والحنان والشفقة، ورسول الله ﷺ أعظم الخلْق شَفَقَةً وعطفاً على المؤمنين عامّةً، وعلى أهل الفاقة منهم خاصّةً.

(ثانياً): إنْ لم يكن العبوس مضراً بإبن أمّ مكتوم لعدم تأثره بذلك لعماه، لكنّ

---

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٢١٠.

(٢) تفسير الأمثل: ١٩، ومجلّة الموسم العدد٢١ ـ ٢٢ ص٢٩٥.

نفس العبوس قبيحٌ عقلاً وشرعاً لمنافاته لخُلُق النبيّ العظيم قبل البعثة وبعدها، وعليه فلا يصحّ صدور الفعل عنه. مضافاً إلى أنّه كما أشرنا سابقاً أنّ العبوس في وجه الأعمى خلاف الحكمة لأنّه عبثٌ لا يترتب عليه أثر إيجابي على الضرير.

(ثالثاً): كيف لم يتأثر الأعمى وقد صَرَّحَت طائفة من الأخبار المتقدِّمة ـ لا سيّما الرواية الأولى والرابعة والخامسة والسادسة، فراجِعْ ـ بأنّ إبن أمّ مكتوم سأل النبيﷺ عن مسائل فأعرض عنه ولم يجبه وصار يتحدّث مع أولئك الصناديد؛ فإنْ كان الأعمى لم يتأثر بالعبوس لأنه لا يرى لكنّه سمع مخاطبة النبي للمشركين وشعر بإعراضه ﷺ عنه لأنه لم يجبه مع مقاطعته له.

(رابعاً): ليس قبح العبوس بوجه الأعمى من أجل أنه لا يلتمس أو لا يرى بل لأجل ما يترتب عليه من سوء أخلاق عند العابس، وإخلال بلزوم التمسّك بالصفات الجميلة والأخلاق النبيلة التي أمر النبيﷺ بالتحلّي بها وإرشاد الناس إليها بقوله وفعله وسيرته. وعليه؛ فإذا كان الأعمى لا يرى، فإنّ المشرِكين الذين كانوا عنده يَرَوْنَ ويسمعون، فماذا تراهم قالوا لمّا شاهدوا ما فعله النبيﷺ بذاك الأعمى؟! حاشا لرسول اللهﷺ أنْ يُخِلَّ بأسس الأخلاق التي جاء ليتمِّمَها، لا ليهدِمَها لقوله ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ».

(خامساً): إنّ العبوس بوجه أعمى يترتب عليه آثار سلبيّة على المؤمنين عامّةً، وعلى الجالِسِين بحضرته من أعدائه خاصّة، إذ سوف يكون عبوسه ﷺ آنذاك ذريعةً لأولئك كي يبعدوا الناس عن رسالة النبيﷺ، فيكون النبيﷺ قد غرَّرَ بنفسه ونَفَّرَ الناسَ من قَبُولِ دَعْوَتِهِ.

فقبح العبوس من ناحية آثاره السلبية على النبيﷺ ورسالته، وعلى الناس، وليس من ناحية الأعمى فحسب.

وبالجملة؛ لا يكفي مجَرَّد عمى الأعمى لتصحيح صدور العبوس أو التولّي من النبيﷺ أو غيره للعلّة المذكورة.

**الشبهة التاسعة:**

جاء في سورة النازعات أنّ الله تعالى أمر النبي موسىعليه السلام أنْ يذهَبَ لفرعون ليزكّيه ويهديه لعلّه يخشى ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النازعات: ١٧ ـ ٢١].

كما أنّه عليه السلام أُمِرَ هو وهارونعليه السلام أنْ يقولا لفرعون قولاً ليّناً، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طـه: ٤٣ ـ ٤٤].

وعليه؛ فلِمَ يُستَهْجَنُ إقبال النبيﷺ على المشرِكين لغرض هدايتهم لعلّهم يخشون ربّهم، فيكون إقباله عليهم وإعراضه عن الفقير مبرَّراً، فلا قبح فيه ما دام المناط في الدّعوات الرساليّة واحدٌ وهو تزكية الناس، فإذا جاز ذلك لموسىعليه السلام وهو المفضول، جاز لرسول اللهﷺ ذلك بطريقٍ أَوْلَى لكونه أفضل من موسى باتفاق الأدلة.

يرد عليه:

قياس فعل النبي موسىعليه السلام على الفعل الملَفَّق ـ أي العبوس ـ على رسول الله محمدﷺ مع الفارق، إذ النبي موسى لم يُعرض عن الفقير ليتوجه إلى فرعون الكافر، فلا قبح فيه أصلاً، ولكنّ النبي محمّداًﷺ ـ بحسب زعم المخالِفين ـ أعرض عن الفقير واقبل على الكافر، فالقبح متحقِّقٌ من جهة الإعراض عن الفقير، وليس من جهة الإقبال على الكافر لهدايته فحسب.

فهداية الكافرين مشروطة بعدم أذيّة الفقراء المؤمنين، فالتضحية بالمؤمنين لأجل هداية الكافرين سفه لا يصدر من عاقلٍ فضلاً عن سيّد العقلاء محمّد رسول الله ﷺ.

**الشبهة العاشرة:**

إنّ إبن أمّ مكتوم كان يستحق الزجر والتأديب؛ لأنه لم يراعِ آداب المجلس حينها، حيث قاطع النبيَّ مراراً في مجلسه وهو يسمعه يتكلّم مع الآخرين[1].

ولم يأتِ صاحب الشبهة بجديد بل أخذها من الرازي أحد علماء العامّة الذي قَرَّرَ الشبهة باستحقاق إبن أمّ مكتوم للتأديب بوجوه:

(أحدها): إنّه وإنْ كان لفقده بصره لا يرى القوم، لكنه لصحّة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ أولئك الكفّار، وكان يسمع أصواتهم أيضاً، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدّة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي ﷺ إيذاءً للنبي ﷺ، وذلك معصية عظيمة.

(ثانيها): إنّ الأهمّ مقَدَّمٌ على المهمّ، وهو كان قد أسلم وتعلّم ما كان يحتاج إليه من أمر الدين، أمّا أولئك الكفّار فما كانوا قد أسلموا، وكان إسلامهم سبباً لإسلامِ جَمْعٍ عظيمٍ، فإلقاء إبن أمّ مكتوم ذلك الكلام في البين كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرضٍ قليلٍ، وذلكَ محَرَّمٌ.

(وثالثها): أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ فنهاهم عن مجرَّد النداء إلاّ في الوقت، فههنا هذا النداء الذي

(١) تفسير الأمثل: ١٩/ ٣٦٤.

صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان، وكالقاطع على الرسول ﷺ أعظم مهماته، أولى أنْ يكون ذنباً ومعصيةً، فثبت بهذا أنّ الذي فعله إبن أمّ مكتوم كان ذنباً ومعصيةً، وأنّ الذي فعله الرسول ﷺ كان هو الواجب[١].

يرد على صاحب تفسير الأمثل الآتي:

(أوّلاً): ليس ثمّة رواية تنصّ على مقاطعة الضرير لرسول الله ﷺ سوى رواية الواحدي في أسباب النّزول[٢]، وهي كغيرها من روايات العامّة خبرٌ واحدٌ ضعيفٌ سنداً ودلالةً، ولا يوجِب عِلْماً ولا عَمَلاً، مضافاً إلى مخالفتها للمرتَكَزَات حسبما أسلفنا، ومخالفتها لأخبارنا، وحيث إنّ الرّواية مخالِفة لِمَا ذَكَرْنا، ومن مصادر القوم؛ فلا خير في رواياتهم، بل الرّشد في خلافه.

(ثانياً): ما الضير لو أخذ صاحب التفسير المذكور برواية أهل البيت عليهم السلام بدلاً من الرّواية المذكورة، إنّ ما فعله خلاف أدلّة الترجيح في دراية الأحاديث، ولكنْ وراء الأكمة ما وراءها!!!

(ثالثاً): لو كان الأعمى مسيئاً للأدب مع النبي ﷺ فلماذا نزل الوحي مناصِراً له؟!! وتوجّه بالتوبيخ واللوم على العابس، من دون إشارة إلى خطأ الأعمى أو تقصيره، بل ذكره تعالى في كتابه متلطفاً ومتحنّناً مما يكشف عدم إساءة إبن أمّ مكتوم الأعمى للرّسول الأعظم ﷺ.

* * *

(١) التفسير الكبير: ٣١/ ٥٥.

(٢) راجع بداية النقطة الثالثة: الرواية الثالثة.

## إيرادات على تفسير الرازي:

### الإيراد على الوجه الأوّل:

(١) كيف يُعَدُّ فعل إبن أمّ مكتوم معصيةً وحراماً، وليس في الآيات أيّة إشارة إلى توبيخه وتأنيبه، بل العكس، فإنّ الآيات مدحته وأطرت عليه، وذَمَّت العابسَ وقَدَحَتْ به؟ فإتيان النبيﷺ بالواجب ـ بحسب هذه الدّعوى ـ لا يستدعي توبيخه وتوهينه، بل كان الأولى الإطراء عليه والمديح له لأدائه الواجب.

(٢) لو كان إقدامه على قطع كلام النبي إيذاءاً له ﷺ، فلماذا كان يتودّد إليه النبي مرّةً بعد أخرى، ويقول له: أهلاً بِمَن عاتبني فيه ربّي؟ وهل عاتبه الله سبحانه وتعالى على أذيّة إبن أمّ مكتوم له أم كان العتاب بسبب ما حصل منه إلى الإعمى؟وهل يعاتبه الله على تأديته للواجب المأمور به حسبما أفاد الرازي.

(٣) على فرض أنّ إبن أمّ مكتوم ارتكب خطأً بأذيّته لرسول اللهﷺ، فكيف جاز للنبيّ ـ وحاشاه ﷺ ـ أنْ يعامله بخطإٍ مثله؟ أليس من الواجب على القادة الإلهيين أنْ يصبروا على أخطاء رعاياهم لا سيّما المتديّنين منهم؟! أم أنّ ما يجوز لهم لا يجوز لغيرهم؟

### الإيراد على الوجه الثاني:

(١) لا نسلم ما ادّعاه الرّازي من أنّ التصدّي لصناديد قريش كان أهمّ من إجابة إبن أمّ مكتوم، ولو كان ما ذكره حقاً لَمَا عاتبه الله تعالى على فعل الأهم المدّعى، بل يظهر أنه حَسِبَ أنّ الأهمّ هو الراجح فوقع في الخطأ، فكان العكس هو الصحيح، وهل يصحّ أنْ يشتبه الرسول الحجة من عند الله في تشخيص الراجح من المرجوح؟ كلاّ!! إلاّ على مبدأ القوم ومَن سَلَكَ منهجهم،

حيث اختار ما كان الإستغراق فيه مضيعة للوقت، وتفويتاً لفرصةٍ مهمّةٍ وهي تنمية معرفة هذا المؤمن الأعمى[١].

يتضح من هذا القول رمي النبي ﷺ بالجهل وترجيح المرجوح وترك الرّاجح، ممّا يعني العبثية في أفعال المرسَلين، فيقتضي ذلك الهرج والمرج، وفيهما من الفساد الكوني ما لا يخفى على أصحاب الشبهة.

كما أنّ ثمّة آثاراً مترتّبة على المقالة المتقدّمة منها: الطعن على النبي ﷺ في ذكائه ورجحان عقله وحسن تدبيره، والحال أنه قد شهد له أعداؤه فضلاً عن أوليائه بخلاف ذلك.

حاشا لله أنْ يترك نبيه ﷺ فريسة الخطأ والجهل، ثم يستدرك ذلك ليعلّمه ويربّيه بعد وقوعه فيهما، وحاشاه تعالى أنْ يجعل نبيه ﷺ أسوة في سنّ الخطأ ثمّ التوبة منه... إنّ الله تعالى أدّب نبيّه فأحسن تأديبه من دون أنْ يوقعه في الخطأ ثمّ يقوم بتأديبه، بل أعطاه كلّ مقوّمات الصلاح والتأديب بحيث يمتنع من الوقوع في الخطأ، لا على نحو الجبر والقسر، بل لِمَا عرفه في نبيه ﷺ من مَلَكَات الخير وخصال الحِكمة والكمال...

(٢) حتى لو كانت هداية القوم ـ بحسب دعوى العامّة ـ أهمّ من الإصغاء لإبن أمّ مكتوم كان يفرض على النبي ﷺ أنْ يصغي إليه لاستلزام ذلك إكبار القوم وتعظيمهم للنبي ﷺ حينما يشاهدونه يصغي لفقيرٍ من فقراء المسلمين.

(٣) إنّ العبوس من المنفّرات والقبائح العقليّة عن قبول الدّعوة الإلهيّة، فلا

---

(١) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦٢، والوجه الثاني الذي قرره الرازي أخذ به صاحب تفسير من وحي القرآن: ٢٤/ ٦٥.

ينقلب المنَفِّر أو القبيح إلى حَسَنٍ حين يُقال بتقديمه على الإصغاء لمؤمنٍ، فكان على النبيﷺ أنْ يمدحه لضعفه ومسكنته بدلاً من زجره وإهانته.

**الإيراد على الوجه الثالث:**

(١) ما ادّعاه الرّازي في هذا الوجه تبرُّعِيٌّ كغيره من الوجهين المتقدِّمَيْن، إذ ليس ثمّة رواية تدلّ على أنّ نداءه إبن أمّ مكتوم كالصارف للكفار عن قبول الإيمان، ولا يصحّ الإعتماد على الإستدلالات التبرّعيّة، إذ لا تعدو كونها ذوقاً واستحساناً وقياساً، وقد نَهَت الشريعة عن كلّ ذلك.

(٢) لو كان ما ذكره الوجه صحيحاً لكانت الآيات دَلَّت عليه، وهو مفقود في البين، بل العكس هو الصحيح، فقد مَدَحَت الآيات إبن أمّ مكتوم، فلو كان عمله من مصاديق النداء الصارف للكفار لجاءت آية تذمّ ذلك.

(٣) ليس ثمّة ملازَمة بين قبول الكفار للإيمان وبين نداء إبن أمّ مكتوم؛ لأنّ الأعمى لم يصرف الكفّار عن النبيﷺ، ولم يمنعه من أداء مهمّته.

ولو سَلَّمْنا أنه صرف الكفار عن النبيﷺ وقاطعه لكنّه محرَّم منفصل ومستقل عن حرمة النداء من وراء الحجرات، وهو أيضاً مردودٌ إذ كيف يكون محَرَّماً مستقِلاً وقد مدحه الله في سورة عبس ووبّخ العابس من أجله؟!!

(٤) إنّ تطبيق الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤] على مورد المتنازع عليه في غير محلّه، إذ جاءت الأخبار أنّ وفد بني تميم هم الذين كانوا ينادون النبيﷺ دون احترامٍ له، بل كانوا ينادونه دون ذكر ألقابه الشريفة، وكانوا يتقدّمون عليه بالمشي ويصرخون في وجهه، أمّا إبن أمّ مكتوم فهو على نقيضٍ منهم، كلّ ما هناك أنّه سأل

النبي ﷺ مسألةً ولم يعَلم أنّه ﷺ مشغولٌ ببعض الناس، فلا يمكن قياسه على قبيلة بني تميم، وعلى فرض أنه أساء الأدب برفع صوته فقطع على النبي ﷺ كلامه، إلاّ أنّه تصرُّفٌ ساذجٌ وبريءٌ لم يتعمّد ارتكابه لكونه ناشئاً عن قصور لجهلٍ أو خطإٍ واحتمالها في حقّ الأعمى لا مجال لدفعه.

**الشبهة الحادية عشرة:**

إنّ القرآن الكريم قد عمل على تثبيت شخصيّة النبي ﷺ وتأديبه بأدب الله، في ما يريد الله له أنْ يأخذ به من الكمال الروحي والأخلاقي والعملي..[١].

وهذا ما يريد الله أنْ يفتح قلبكَ عليه، فيما يريد لك من تكامل الوعي، وسعة الأفق، وعمق النظرة للأمور، ولا مانع من أن يربي رسوله تدريجياً، ويثبّت قلبه بطريقةٍ متحرِّكَةٍ في حركة الدعوة تبعاً لحاجتها إلى ذلك، تماماً كما كان إنزال القرآن تدريجيّاً من أجل الوصول إلى هذه النتائج[٢].

وقد اقتبسها صاحب الدّعوى من أحد علماء العامّة القائل: [بأنّ النبيّ كان في حجر تربية ربه لكونه حبيباً، فكلّما ظهرت نفسه بصبغة حجبت عنه بؤر الحق، عوتب وأُدِّبَ كما قال: أدَّبَني ربّي فأحسَنَ تأديبي، إلى أنْ تخلّق بأخلاق الله تعالى][٣].

**يرد على كل ذلك:**

(١) لا ملازَمة بين تدريبه عزّ وجلّ لنبيه وبين إيقاعه في الخطأ والمعصية؛

---

(١) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦٤.

(٢) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦٤.

(٣) روح البيان: ١٠/ ٣٣١.

لأنّ ذلك يستلزم الجبر، وخلاف العصمة التي يجب أنْ يتصف بها الأنبياء والأولياء عليهم السلام، فيمكن تأديبه دون إيقاعه في الخطأ، بل إنْ كان المراد من التأديب التعليم تدريجيّاً قبل صدور الخطأ والمعصية فهو ممكن وجائز من باب اللطف والتسديد لسعة قابليته وفقدان المانع، أمّا أنّ المراد منه التأديب بعد صدور الخطأ فهو منافٍ للعصمة ـ حسبما أسلفنا ـ.

مضافاً إلى أنّ التأديب بعد صدور الخطأ يستلزم الترجيح بلا مرجِّح، بمعنى أنّ تأديب النبي بعد صدور الخطأ يتساوى مع غيره من المخطئين في أمّته، فتساويه مع غيره، ثم تقديمه عليهم بالنبوّة يقتضي ترجحه صلى الله عليه وآله عليهم دون مرَجِّح لذلك وهو قبيح عقلاً ونقلاً.

(٢) هل يتوقّف تأديب رسوله صلى الله عليه وآله على أنْ يكون عابساً؟!! وإذا كان كذلك فلِمَ لا يكون فاسقاً فيؤدِّبه الله عزّ وجلّ بأحسن تأديبه؟!!

**الشبهة الثانية عشرة:**

إنّ ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء، فلهذا السبب حصلت المعاتبة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾[١].

يرد عليه:

(١) إنّ هذا التقديم لا يخلو من أمرين: إمّا أنْ يكون حراماً، وإمّا أنْ يكون مكروهاً، والأوّل باطلٌ قطعاً لانتفائه بحكم الأدلّة عن الأنبياء عليهم السلام، والثاني مدفوعٌ بكلّ هذا النكير والزّجر الكاشف عمّا هو أعظم من ذلك.

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٥٥.

(٢) لم يُعْهَد من سيرة النبي ﷺ الذي عاش فقيراً ومات فقيراً أنّه كان يقدِّم الأغنياء على الفقراء، لا قبل البعثة ولا بعدها، فتخصيص سيرته بما ذكرته هذه الشبهة لا بدّ له من مخَصِّص معتَدّ به، ومورد الآيات ليس فيه إشارة لا من بعيد أو قريب تدلّ على أنه ﷺ مرتكبٌ للعبوس والتقطيب.

(٣) سوآء قلنا بأنّ آية ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢/ مكيّة] نزلت قبل الهجرة أو بعدها؛ لا يصحّ الإستدلال بهذا على المدّعى ـ وإنْ كان الظاهر نزولها في مكّة ـ ؛ لأنه على فرض نزولها قبل سورة عبس كيف يتجرّأ النبي ﷺ ـ بحسب دعواهم ـ على الإقدام بالعبوس بوجه الفقير وقد نهاه الله سبحانه في الآية الثانية والخمسين من سورة الأنعام عن فعل ذلك، وأمّا على فرض نزولها بعد سورة عبس، فلا محالة سوف يكون العتاب أعظم وأشدّ لانتهاكه لحدود الله ـ حاشاه ﷺ ـ.

فعلى كِلاَ الأمرين يبقى محذور المخالَفة موجوداً، مما يفرض علينا بحكم الأدلة رفض ما ادّعاه الرازي من أنّ عبوسه ﷺ نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

(٤) إنّ سورة الأنعام ـ وفي ضمنها الآية الثانية بعد الخمسين ـ قد نزلت دفعةً واحدةً في مكّة بعد سورة عبس، كافية بدورها لأنْ يرتدع النبي ﷺ عن العبوس وعدم الإعتناء بالفقراء، سوآء أكانت هذه الآية نزلت بعد عبس أو قبلها، فإنْ نزلت قبلها كان عبوسه حراماً لمكان النهي في قوله تعالى ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾، وإنْ نزلت بعدها، كان الطّرد حراماً أيضاً لشدّة توبيخه وتأنيبه في سورة عبس، وكأنّ هذا النبي لا يعتني بتوبيخ الله تعالى وزجره مما يقتضي عدم إيمانه بما يوحَى إليه ﷺ.

يتضح مما سبق: إنّ الآية الثانية والخمسين من سورة الأنعام، وسورة عبس كافيتان في ردع هكذا نبي عن الأفعال المشينة الصادرة منه كالعبوس والطّرد ولكنه لم يرتدع ولم ينزجر.

ودعوى نزول الآية الثانية والخمسين من سورة الأنعام في المدينة يؤكّد حرمة زجر الفقراء والإعراض عنهم، وعدم الإلتزام بما أمر الله تعالى دليل على الجرأة في انتهاك الحرمات الإلهيّة، وهذا يتنزّه عنه المؤمنون الأتقياء فضلاً عن سيّد الخَلْق رسول الله محمدﷺ.

(٥) إنّ المصادر الرّوائيّة عند العامّة لا سيّما ما رواه السيوطي في الدر المنثور تؤكّد أنّ عمر بن الخطّاب وجماعة كانوا طلبوا من النبيﷺ أنْ يُبْعِدَ الفقراء حتى يتبعه أهل الجاه والشرف، فأشار عمر على النبيﷺ بطرْدِ هؤلاء، فَنَزَلَت الآية ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ كما نزل قوله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨/ مكية].

فهذه الآيات بمثابة ردٌّ على عمر بن الخطّاب الذي لم يستهوه الجلوس مع الفقراء والمساكين، وتفنيدٍ لرأيه، وليس في الآيات ما يدلّ على قبول النبيﷺ بذلك كما يزعم المخالِفون، وما ذكره الرازي وأشباهه ما هو إلاّ تطبيقاً لقصّة عبس، حيث عدّوا قصّة عمر مشابهة لقصّة عبس وتطبيقاً لموردها مع ضعف ما اعتمدوا عليه من الروايات التي يُستشَمُّ منها رائحة الدسّ والوضع.

**الشبهة الثالثة عشرة:**

لعلّ العتاب لم يقع على ما صدر من النبيﷺ من الفعل الظاهر، بل على

ما كان منه في قلبه، حيث إنّ قلبه عليه الصّلاة والسّلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلوّ منصبهم، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلّة شرفه، فلمّا وقع التعبيس والتولّي وقَعَت المعاتبة[1].

يرد عليه:

(١) ما أفاده الفخر الرازي في هذه الشبهة خطيرٌ جدّاً، إذ ينسف الأسس الدينيّة والأخلاقيّة لدى النبي محمدﷺ؛ لأنّ الميل لصناديد قريش مع ما هم عليه من الزندقة والكفر يُعتَبَرُ خروجاً ومروقاً من الدّين، إذ الميل إلى الكفر منهِيٌّ عنه بمقتضى آيات الكتاب الكريم نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادَلة: ٢٢/ مدنيّة].

إنْ قيل: إنّ الآية المتقدِّمة نزلت في المدينة فلا تكون حجّة على ما أفدتم، إذ لعلّ النبيﷺ كان يميل إلى صناديد قريش لشرفهم ثمّ تاب بعد نزول آيات سورة المجادَلة في المدينة.

قلنا: إنّ أصل الميل إلى الكفار حرمته من الثوابت في الشرائع والأديان فلا يمكن تخصيصها بوقتٍ أو زَمَنٍ دون آخر.

مضافاً إلى أنّ ذلك خلاف العصمة التي يجب أنْ يتصف بها الأنبياء عليهم السلام؛ لأنّ عدمها يؤدّي إلى انتفاء فائدة البعثة واللازم باطلٌ فالملزوم مثله.

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٥٥.

بيان الملازَمة أنه إذا جازت المعصية على النبيﷺ لم يحصل الوثوق بصحّة قوله لجواز الكذب حينئذٍ عليه، وإذا لم يحصل الوثوق لم يحصل الإنقياد لأمره ونهيه فتنتفي فائدة بعثته ﷺ وهو محال.

كما أنّه لو صَدَرَ عنه ﷺ الذَّنْبُ لَوَجَبَ اتباعه لدلالة النقل على وجوب اتباعه، لكنّ الأمر حينئذٍ باتّباعه محالٌ لأنّه قبيحٌ، فيكون صدور الذنب منه ﷺ محالاً؛ وهو المطلوب.

وبالجملة؛ إنّ دعوى الرازي على النبيﷺ بأنه نفر بطبعه عن الأعمى بسبب عماه لم نعهده من إنسانٍ سوِيٍّ فكيف بنبيٍّ عظيم، وما ذنب الأعمى حتى ينفر النبي منه؟! وهل ينفر النبيّ من صنع الله الذي أتقن كلَّ شيءٍ؟! أليس النفور من الأعمى تعييراً تكوينيّاً به لا يجرؤ على فعله من هو أدنى من النبيّ؟!

(٢) لم يعهد من سيرة النبيﷺ وسجاياه أنه كان يتقرَّب إلى أقربائه الكفّار ويتنفّر من المؤمنين منهم، إلى أنّ فعلاً كهذا يُعَدُّ من المناقص الخُلُقِيّة التي لا بدّ أنْ يتنَزَّهَ عنها عباد الله المؤمنين فكيف بنبيّه سيّد المرسَلينﷺ؟!!

(٣) لو كان ما ذَكَرَه الرازي حقّاً ـ من أنّ النبيﷺ كان ينفر بطبعه عن الفقير ـ لَدَلَّ ذلك على وجود رِجْسٍ في طبعه، مع أنّه عزّ وجلّ قد أخبر أنّه مُطَهَّرٌ من كلّ ذلك بآية التطهير، ولَدَلَّ أيضاً على خلاف كونه من المصطَفَينَ الأخيار، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾.

(٤) ظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾ يمنع كون المعاتَبَة على ما في قلبه ﷺ، فهذه الآيات صريحة في صدور الفعل في الخارج، وكذا قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ

﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ ظاهر في أنّ العابس كان خارجاً متلبّساً في العبوس لا أنّه كان في قلبه.

(٥) الميل إلى المشركين والنفور من الأعمى المؤمن يتعارض مع قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التوبة: ٣]، ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١]. فكيف يميل ﷺ إلى المشركين بقلبه وقد تبرَّأ منهم ﷺ بحكم هذه الآيات المباركة؟!!

**الشبهة الرابعة عشرة:**

إنّ النبي ﷺ كان مأذوناً في أنْ يعامِلَ أصحابه على حسب ما يراه مصلحة، وكثيراً ما كان يؤدِّبُ أصحابَه ويزجرهم عن أشياء، وكيف لا يكون كذلك وقد بُعِثَ ليؤدِّبَهم وليعَلِّمَهم محاسنَ الأخلاق، فإذا كان كذلك؛ فيكون العبوس داخلاً في إذن الله تعالى إيّاه في تأديب أصحابه[1].

يرد عليه:

(١) إنّ تأديب أصحابه لا يكون على حساب شخصية النبي ﷺ، كما أنّ تأديبهم لا يستلزم إيقاع النبي ﷺ في الحرام أو البعد عن الله تعالى، مع أنه ﷺ رحمة للعالَمين وأسوة حَسَنَة للخلق أجمعين. فإيقاعه في المحذور المتقدِّم يقتضي التغرير بالعباد، ويوهم ترجيح الدنيا على الدِّين، وفيهما من المحاذير الشرعيّة ما لا يخفى على عاقل.

(٢) إذا كان العبوس داخلاً في إذن الله تعالى؛ فلِمَ وبّخه وقرّعه وعاتبه الله

---

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٥٤.

تعالى عليه؟! وهذا من قبيل اجتماع الضدَّين في ذات النبيﷺ: الإذن في العبوس وعدم الإذن فيه لتوبيخه عليه. وعلى مسلك الأشاعرة يصحّ اجتماع الأضداد، لا سيّما أنهم يعتقدون بجبر الأفعال، وأنّ الإنسان آلة لكسب الفعل الإلهي، وقد قامت الأدلّة الفلسفيّة والشرعيّة على بطلان نظريّة الكسب الأشعري[١].

يتضح ممّا ذَكَرْنا: إنّ توبيخ الله تعالى للعابس وتشديده الإنكار عليه يدلّ على أنّ العبوس من العابس لم يكن مرضيّاً عند الله تعالى لذا لا يجوز نسبة العبوس إلى الله عزّ وجلّ وأنه بإذنه.

(٣) لو صحّ كون العبوس بإذن الله ولله تعالى كان اللازم مدح العابس وتوبيخ غيره لو كان ثمة حاجة للتوبيخ، مع أنّ الظاهر من آيات سورة عبس هو عكس ذلك.

(٤) إنّ التأديب لا ينحصر بالعبوس والتقطيب.

(٥) ـ إنّ العبوس يتنافى مع وظيفة التعليم لمحاسن الأخلاق والآداب، لذا ورد ذمّ فظاظة الأخلاق لمنافاتها لمسألة التعليم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

**الشبهة الخامسة عشرة:**

إنّ ما فعله النبيﷺ ليس ذنباً ولكنه يجري مجرى ترك الإحتياط وترك الأفضل فكان العتاب لأجل ذلك[٢].

---

(١) راجع كتابنا: الفوائد البهيّة في شرح عقائد الإماميّة: ج١/ ٣١٦.
(٢) تفسير الرازي: ٣١/ ٥٥ بتصرف ببعض ألفاظه.

**والجواب:**

(١) ترك الأولى وإنْ كان جائزاً صدوره من الأنبياء ﷺ نظير ما حصل لبعضهم كأبينا آدم وموسى ويونس ويوسف. .إلخ، كما تشير إليه آيات الكتاب الكريم وأخبار السنة المطهرة، وصدوره منهم لا يُخلّ بفوائد بعثتهم إذ لم يخالفوا أمراً إلزامياً حتى يستلزم العصيان المولوي، لكن كلّ ما في الأمر تركوا الأفضل والأحسن، والسّر في ذلك لا يخلو من أمرين: إمّا لنقصٍ كماليٍّ في ذواتهم، وإمّا أنّ الترك من مقتضيات شؤون الرّسالة بحيث إذا ما ترك الأولى أدّى ذلك إلى إعاقة شؤون الرعيّة وتيسير أمورها.

وكِلاَ الأمرين لهما ما يؤيدهما من الآيات والأخبار، فلا مانع حينئذٍ صدوره من النبيﷺ، ولعلّ من هذا القبيل ما ورد في سورة التحريم بقوله تعالى مخاطِباً نبيّه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ [التحريم: ١]، فإنّ الأوْلَى أنْ لا يحَرِّم على نفسه ما أحلّ الله له إرضاءً لبعض زوجاته، اللهمّ إلاّ أنْ يُقال إنّ تحريمه المباح على نفسه ليس في محذور ترك الأوْلَى بل لعلّه من المستحسنات العرفيّة والدينيّة والعقليّة، إذ العقلاء يمدحون مَن حَرَّم الطيبات على نفسه لمصلحة أهمّ منها.

وعليه؛ فإنّ النبي محمّداًﷺ معصومٌ عن ترك الأوْلَى لكونه سيّد الرُّسُل ورحمة الله الواسعة من جهة، ولأنه مطَهَّرٌ عن ترك الأوْلَى لآية التطهير من جهة ثانية.

وعلى فرض جواز تركه الأوْلَى لكنّه خارجٌ عن مورد سورة عبس؛ لأنّ آياتها ظاهرة في النكير والزجر عن أمرٍ مُحَرَّمٍ لا يجوز صدوره من النبيﷺ لمكان ﴿كَلَّآ﴾ في الآية السادسة من السورة ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾؛ لكونها في

مقام الزَّجْرِ والنهي تماماً كـ﴿كَلَّآ﴾ في بقيّة السور:

﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾ [مريم: ٧٩].

﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾ [المعارج: ١٥].

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ [المدثر: ١٦].

(٢) ورد أنه ما عرض للإمام علي عليه السلام أمران قط كِلاَهُما لله طاعة إلاّ عمل بأشدّهما وأشقّهما على نفسه[١]، وهذا صريح في عدم ارتكابه لِمَا هو خِلاف الأَوْلَى، والنبي صلى الله عليه وآله بذلك أَوْلَى[٢].

هذا الرّدّ جميلٌ لولا ذيله، إذ من أين ثبت صاحبه أنّ النبي صلى الله عليه وآله أَوْلى من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في عدم ترك الأَوْلَى؟ لأنّ الأولويّة تستلزم الأفضليّة لرسول الله صلى الله عليه وآله والدونيّة لأمير المؤمنين علي عليه السلام، فإذا ثبتت الفضيلة للأدنى تثبت للأعلى، وهنا في هذا المورد غير صحيح؛ لأنّ آية التطهير لم تقدِّم رسولَ الله صلى الله عليه وآله على بقيّة أهل الكساء عليهم السلام، فكلُّهُم على نفس الدَّرَجَة من الطّهارةِ والقَدَاسَة.

وكذا فإنّ آية المباهَلة جَعَلَت الإمام عليّاً عليه السلام نفس رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضائل والقُرْب، فالقول بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله أفضل منه خلاف الآيتين المتقدِّمَتَيْن، وخلاف الأخبار المتواترة التي دَلَّتْ على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام من نورٍ واحدٍ

---

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ١٣٣.

(٢) عبس فيمن نَزَلَت: ١١٦.

وعلى دَرَجَةٍ واحدةٍ من الإخلاص والطّهارة، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في بعض بحوثنا[(١)].

**الشبهة السادسة عشرة:**

إنّ دراستنا لعلاقة النبي ﷺ بهذا الأعمى تدلّ على أنّ هناك صلةً وثيقةً بينهما، بحيث كان يدخل على النبيّ وهو جالسٌ بين زوجاته، وقد اشتهرت الرواية التي تتضمن دخوله عليه وعنده عائشة وأمّ سَلَمَة، فقال لهما: إحتجبا، فقالتا: إنه أعمى!! فقال ﷺ: أنتما تريانه.

وإذا كان ذلك قد حدث في المدينة، بالإضافة إلى استخلافه عليها عند خروجه إلى الغزو؛ فإنه يدلّ على عمق الصلة منذ البداية، لا سيّما إذا سلَّمْنا بالرّواية التي تتضمّن سؤاله الملحّ بأنْ يتلو عليه كتاب الله ويعلّمه ممّا علّمه الله، ممّا يدلّ على الرّوحيّة الإيمانية التي تستوعب المعرفة الدينية للقرآن وللإسلام بالمستوى الذي ينتهز فيه الفرصة الدائمة لاكتساب العِلْم.

إنّ ذلك كلّه قد يوحي بوحدة الحال بينه وبين النبي ﷺ، بحيث يغيب عن العلاقة أيّ طابع رسمي، ممّا يجعل إعراض النبي ﷺ اعتماداً على ما بينهما من الصلة التي تسمح له بتأخير الحديث معه إلى فرصةٍ أخرى من دون أنْ يترك أيّ أثرسلبي في نفسه، لا سيّما إذا كان ذلك لمصلحة الدين التي تجعل أيّ مسلم في زمن الدّعوة الأوّل، يفرح لنجاح النبي ﷺ في استمالته لأيّ شخص من كفّار قريش الوجهاء في مجتمعهم إلى دائرة الإيمان أو الدّين الجديد...[(٢)].

---

(١) شبهة إلقاء المعصوم ﷺ نفسه في التهلكة/ دراسة كلاميّة على ضوء الأدلّة الأربعة.

(٢) من وحي القرآن: ٢٤/ ٦١ ـ النقطة الأولى.

لقد استدلّ صاحب الشبهة على صحّة عبوس النبيﷺ بوجه الأعمى بوجهين:

الأول: وحدة الحال بينهما، ووثاقة الصلة، بحيث لم تكن هذه العلاقة تخضع لحساب أو أيّ طابع رسميّ، إستناداً إلى أنه كان يدخل على النبيﷺ مع زوجاته.

الثاني: إستخلافه ﷺ له على المدينة عند خروجه إلى غزو العدوّ ممّا يعني ثمّة علاقة روحيّة بينهما، فلا مانع من أنْ يُعرِض بوجهه عنه لمصلحة أهمّ وهي هداية المشرِكين.

يرِدُ عليه:

(١) على فرض وجود صلة وثيقة بين الأعمى وبين رسول اللهﷺ لكنْ لا من جهة كثرة تردّده على النبيﷺ في بيوته وبمحضر نسائه ـ كما أفادَتِ الشّبهة ـ بل لعلّ الصِّلَة والوثاقة ـ على فرض حصولهما ـ من جهة أخرى كالإيمان وحضوره الدائم في المسجد وما شابه ذلك، فحصر وحدة الحال ووثاقة الصلة بكثرة تردّده علىالنبيﷺ في دار نسائه مع حضورِهِنَّ لا دليل عليه، لا من الرِّوَايَتَيْن اللتَيْن استشهد بهما صاحب الدَّعوى، ولا من جهة الآيات، فتبقى الدّعوى معَلَّقة حتى يَرِدَ برهانٌ على صحّتها.

وأمّا بالنسبة لاستخلافه للأعمى على المدينة فليست دليلاً على المدَّعى، كما أنّ النبيﷺ ليس محكوماً في علاقاته العامّة والإداريّة للعلاقات الشخصيّة بل للكفاءة والجدارة، مع أنه لم يثبت لدينا أنّ النبيﷺ استخلفه على المدينة، سوى ما رواه العامّة، ولا خير فيما رووا.

(٢) وحدة الحال بينهما وعمق الصلة لا تقتضي الإسترسال في الجانب

الشخصي للعلاقة التي عبّر عنها صاحب الشبهة بوحدة الحال، لمخالفته للروايات[١] الآمرة بلزوم المعاشَرة على النحو الذي يبقى معه شيءٌ من الإحتشام بين الطّرفين حتى بين الأبناء والوالدَين مع وجود صلة وثيقة بينهم.

فوحدة الحال بينهما ـ على فرض تحقّقها ـ لا تبرِّر سحق شخصيّة الأعمى أمام المشرِكين وإهانته وتحقيره، وهل يصحّ إسقاط حقّ الطّرف الآخر لمجَرَّدِ وحدة الحال هذه، من دون مراعاة مشاعره أمام الآخرين.

وقد جاء في وصيّة أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ لإبنه محمّد بن الحنفيّة قال ﷺ: لا تضيِّعَنَّ حقَّ أخيكَ اتّكالاً على ما بينكَ وبينه؛ فإنه ليس لكَ بأخٍ مَن أضَعْتَ حَقَّه[٢].

فوحدة الحال بين الأصدقاء لا ترفع السُّننَ والآدابَ ومراعاة قوانين الشَّرْعِ المبين.

(٣) يُشتَهَر عن صاحب الشبهة في عدّة مواضع من كتبه وجرائده التأكيد على عدم الإستغراق في شخصيّة المعصوم ﷺ، بل لا بدّ «على حدّ تعبيره» من الإستغراق في رسالته[٣].

وعليه؛ فإنّ الأمر يقتضي أنْ يكون كذلك من جانب النبي ﷺ بحيث لا يرتبط بأيّ مكَلَّف ـ مهما كان على صلة وثيقة به ـ إلاّ على نحو الإستغراق في الرّسالة، فيجب أنْ تكون علاقته بنا من خلال التزامه بآداب وأحكام العشرة

---

(١) وسائل الشيعة: كتب الحج - باب أحكام العشرة، ومكارم الأخلاق: باب فضل الأولاد.

(٢) وسا ئل الشيعة: ٨/ ٥٤٦ح١٢.

(٣) في رحاب دعاء الإفتتاح: ١٣٧، ومن وحي عاشوراء: ٢٠، والبينات.

الشرعيّة في سلوكه وتصرّفاته مع الأعمى وغيره من القريبين إليه والبعيدين عنه، فيظهر أنّ النبي ﷺ ـ الذي يعتقد به صاحب الشبهة ـ غير النبي الذي تعتقد به الإماميّة، فنبيُّهُ يفكّر بطريقة «أنا لا الآخر»، أمّا صاحب الشبهة فإنه يفكّر بطريقة «أنا والآخر» على حدّ زعمه في بعض المواضع[1].

فيظهر أنّ تفكيره أفضل من تفكير النبي ﷺ؛ لأنه صلوات ربي عليه وآله يفكّر بطريقة أنا لا الآخر...

أيّها القارئ!! عليكَ أنْ تفكِّرَ بما يفكِّر به صاحب الشبهة، كما عليكَ أنْ تكون معه، وإلاّ أصبحتَ انعزاليّاً على طريقة الأحزاب في يومنا هذا: مَن ليس معهم لا بدّ أنْ يكون ضدّهم... هكذا يعتقدون!! اللهمّ عَجِّلْ فَرَجَ وليّكَ (عجّل الله تعالى بفرجه الشريف) وانتقِمْ به من كلّ جبّارٍ عنيد وشيطانٍ مريد.

**الشبهة السابعة عشرة:**

إنّ قول النبي ﷺ لابن أمّ مكتوم: «مرحباً بمَن عاتَبَني فيه ربّي» دليلٌ على أنّ آيات سورة عبس نزلت في النبي ﷺ.

**والجواب:**

هذه الرّواية غير موجودة في مصادرنا، نعم هي في بعض مصارد العامّة[2]، لكنّ الشيخ الطبرسي من الإماميّة ذكر رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أمّ مكتوم قال: مرحباً مرحباً، لا والله، لا

---

(١) قال في مجلة المشاهد السياسي/ عدد١٦٨، الصادرة بتاريخ ٣٠/ ٥/ ١٩٩٩: [لإنني أفكّر بطريقة أنا والآخر، وبعض الناس يفكر بطريقة أنا لا الآخر..].

(٢) راجع أسباب النزول للواحدي: ٣٦٥.

يعاتبني الله فيكَ أبداً[١].

والتحقيق أنْ يُقال: إنه بالغضّ عن مصادمة تينك الروايَتَيْن للقرائن القطعية الدالّة على عصمة النبي ﷺ ونزاهته عن عار العبوس والإقبال على الأغنياء والإعراض عن الفقراء، إنهما مرسَلَتان سنداً، ولا خير في المراسيل من الناحية الفقهيّة والإعتقاديّة لعدم إفادتها الظنّ المعتَبَر الذي قامَت الأدلّة على صحّة الإعتماد عليه، وذلك لسقوط الواسطة إلى المعصوم عليه السلام فلا تفيد عِلْماً وعَمَلاً.

وعلى فرض صحّة ما رواه الطبرسي عن الإمام الصادق عليه السلام فلا تخلو الرواية من أمرين: إمّا تُحمَل على التقيّة، وإمّا أنها من صُنْعِ المخالِفين وضعوها في مصادرنا.

وطبقاً لقواعد الترجيح وأصول الإستنباط؛ فإنّ الرّواية ساقطة عن الإحتجاج لما تقتضيه من إلصاق الحرام برسول الله ﷺ، عدا عن مخالفتها للآيات والأخبار الدّالّة على نزاهته ﷺ وطهارته عن كلِّ عارٍ وخطإٍ ونسيانٍ وجهلٍ وقبيحٍ، لذا لا بدّ من طرحها لا سيّما وأنها توافق أخبار العامّة وتتّحد مع أصولهم ومعتقداتهم بعدم عصمة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ولكنْ ربّما يمكننا تأويلها لو كانت صادرة عن تقيّة فنقول: إنها في صدد بيان أنّ الله تعالى لا يعاتِب نبيّه محمّداً ﷺ في الأعمى لعدم إمكان صدور مثل هذا الفعل عنه ﷺ، فالرواية في مقام التعريض بذلك الرّجل الذي ارتكب ذاك الشَّطَط في حقّ إبن أمّ مكتوم، نعم قد عاتب عثمان فيه، وفي الرّواية غمز بقناة عثمان بن عفّان لتعييره المؤمن الأعمى؛ لأنّ معنى «العتاب» هو: الإنكار على الفاعل بفعله، لذا فإنّ عتاب الله عزّ وجلّ على العابس يقتضي سخط الباري سبحانه وتعالى عليه

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٢١٠.

بجريرته وسوء فعله، والنبي ﷺ بريءٌ من سوء الفعل، ونقيُّ السَّرِيرة من الأوساخ المعنويّة والظاهريّة، إذاً لا سخط عليه ولا عتاب.

**الشبهة الثامنة عشرة:**

إنّ ظواهر بعض الآيات يوهم صدور الذنب من الرسول ﷺ ممّا يثبت بأنّ سورة عبس نَزَلَتْ فيه.

والجواب:

سنردّ على هذه الشبهة في الفصول القادمة إنْ شاء الله تعالى، لا سيّما في فصل الخطابات القرآنيّة للنبي ﷺ، وعلاج التشابه فيها.

**الشبهة التاسعة عشرة:**

سياق الآية ـ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ ـ بإنضمام ما بعدها تفيد بأنّ المقصود بها هو النبي ﷺ، ولا ينافي عصمته وحسن أخلاقه حين اهتمامه بما هو أهمّ من إسلام جماعة يعدّون من أشراف العرب وساداتهم ظنّاً منه ﷺ أنهم لو أسلموا أسلم مَن تبعهم من عشائرهم، وعتابه من الله تعالى لعَظَمَة شأن إبن أمّ مكتوم لتنبيه رسول الله ﷺ لئلاّ يعود إلى عدم الإعتناء بأمثاله لفقرهم وعماهم، والتصدّي للأغنياء واحترامهم لثروتهم ورياستهم وأنّ إكرمهم عند الله أتقاهم[1].

صاحبة الشبهة مع ما يصفون من وفور عقلها وأنها مفخرة نسائها حتى عدّها بعضهم من حسنات الدّهر، وقعت في شطط القول وتَجَرَّأَتْ على ساحة قدس رسول الله ﷺ، مما يعني أنها تعاني من خَبَلٍ عَقْلِيٍّ أدّى إلى تناقص تفكيرها

---

(١) تفسير مخزن العرفان/ سورة عبس/ للسيدة الأصفهانية.

وهبوط مستواها العِلْمي، وما أصبغوه عليها ما هو إلاّ رنّة شيطان، والإيرانيون كعادتهم ـ إلاّ مَن رَحِمَ ربّي ـ يفَخِّمُون بعض كبرائهم وعلمائهم إلى درجة المعصوم عليه السلام، بحيث يصل الأمر بالمكَلَّف إلى الإعتقاد بعصمة عالِمِهِم ومرجَعِهِم، وهي آفة لا يمكن الخلاص منها إلاّ بالتوكّل على الله والإستعانة به على رفعها من النفوس، مع التسليم بأنّ العصمة إنما هي لأهل بيت العصمة من آل الرّسول عليهم السلام، ومَنْ دونهم فخرْطُ القتاد؛ إلاّ مَن رَفَعَ شأنهم، ودَفَعَ عنهم كلَّ ضيمٍ وشينْ وخطإٍ. . . ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣].

ونحن إذ نقسو على هؤلاء بالعبارات الجارحة إستنكاراً عليهم وحرصاً منا على دينهم لعلّهم يرجعون إلى رشدهم، وحتى لا يغترّ بهم الجهلاء، ولغيرتنا على رسول الله ﷺ وأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام، إذ إنّ رضاهم هو غاية المنى عندنا، ولا يهمّنا إنْ سخط الناس علينا ما دمنا في خطّ أهل البيت عليهم السلام، وكفى به فخراً. . . وعليه؛ فإنّ ما ذكرته صاحبة الشبهة مخالِف لِمَا ذكرنا سابقاً، وللأمور التالية:

(أوّلاً): لا ظهور في آيات سورة عبس على توجّهها إلى النبي ﷺ، ولا فيها ما يدلّ على أنه خطاب له ﷺ، بل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ خبرٌ محض ـ على حدّ تعبير السيد المرتضى رحمه الله ـ لم يصرّح بالمخبَر عنه، ويتضح لدى المتأمِّل في معاني مفرداتها أنّ المقصود بها غير النبي ﷺ قطعاً، وصدق المحَدِّث الكاشاني صاحب تفسير الصافي بقوله: [وأمّا ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات في النبي ﷺ دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتَبات الغير اللائقة

بمنصبه، وكذا ما ذُكِرَ بعدها إلى آخر السورة كما لا يخفى على العارِف بأساليب الكلام، ويشبه أنْ يكون من مختَلَقات أهل النفاق خذلهم الله تعالى].

وبالجملة؛ فالآية ليست خطاباً لرسول الله ﷺ، كما إنّه ﷺ ليس هو المقصود بها، وعلى فرض أنّ الخطاب له والمقصود غيره فيكون من باب «إياكِ أعني واسمَعِي يا جارة».

(ثانياً): إنّ احتجاجها بالسياق غريب؛ إذ لا يعدو كونه من مبتَدَعات العامّة، والعَجَب من الفاضلة ـ كما يزعمون ـ كيف تحتجّ ببدعةٍ من بدعهم وزخارفهم، إذ نهت أخبارنا عن ذلك ولم يقم الدّليل عند الإماميّة على حجية السياق إلاّ في موارد نادرة جدّاً ثَبُتَتْ بالدليل القطعي، وقد فصّلنا ذلك في بعض بحوثنا[1]، فلْتُرَاجعْ.

ولو صار السياق حجّةً في سورة عبس، لَصَارَ كذلك في سورة الأحزاب لتضمّنها آية التطهير، فتكون الآية دالّة على طهارة نسوة النبي ﷺ، وأنّها نَزَلَت فيهنّ بحجّة كونها ضمن الآيات المتعلّقة بنسوة النبي ﷺ، ولا أظنّ صاحبة الشبهة توافق على ذلك!!!!!

ولو تنَزَّلْنا وقلنا بحجية السياق في سورة عبس؛ فإنه على خلاف ما ادَّعَتْهُ الأصفهانيّة بحكم انضمام ﴿كَلَّآ﴾ الرَّدْعِيّة باتّفاق المفَسِّرين، حيث إنها فوق الظهور، ولعلّها تصريح بمغايرة مَن أُنزل أوائل الآيات في شأنه وهو عثمان وبين السفرة الكرام البررة نظير النبي محمّد وآله الأطهار المقصودين بالصحف المكرَّمة المرفوعة المطَهَّرَة فهؤلاء هم الذين ينالون عهد الله تعالى، ولا يناله الظالمون المتقذِّرون من الأعمى الفقير.

---

(١) أبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد: ١/ ٦٠٥.

(ثالثاً): ما ذكرته من تعليل العتاب وأنّه لإبراز شأن إبن أمّ مكتوم وشخصيته زلّة ما بعدها زلّة، إذ إنها حطّت من شأن النبي ﷺ وصَغَّرَت من قَدْرِهِ لأجل إبن أمّ مكتوم، فَنَسَبَت إليه الإعراض عن الأعمى الفقير لفقره، والتصدّي للأغنياء واحترامهم لثروتهم ورياستهم، ولو أنّ واحداً من أوساط العلماء نُسب إليه ذلك لاشمأزَّت روحه وانكسر قلبه، ولَدَفَعَ عن نفسه بأشدّ الدّفاع، وهل بلغ الأعمى من الشأن عند الله إلى هذا الحدّ، ثمّ الحطّ من مقام رسول الله ﷺ إلى هذه الدّرجة، حتّى أُنزِلَتْ فيه سورة تذمّه وتعَنِّف من شخصه وهو سيّد أولاد آدم عليه السلام؟

**الشبهة العشرون:**

إنّ ما ذَكَرَه علماء الشيعة من أنّ ظاهر الآيات لا دلالة فيها على رجوع الضمائر إلى النبي ﷺ موردُ نَظَرٍ؛ إذ كيف لا دلالة فيها على رجوعها إليه مع أنّ كلَّها ضمائر خطابيّة، والمخاطَب فيها هو الذي عبس وتولّى، وهل يظنّ أنّ تلك الخطابات تتوجّه إلى شخصٍ مجهولٍ من بني أميّة، ومَن كان هذا المشرك المخاطب الذي اهتمّ به القرآن بهذه العناية، وهل كان المسؤول عن تزكية الناس ذاك المشرك حتى أقبلَ إليه الأعمى بهذا الدّاعي، وهل يوجَد في الخطابات الإبتدائيّة مورد في القرآن يكون المخاطَب فيه غير الرسول ﷺ[1].

يرد عليه:

(١) ليس ثَمَّة ملازَمة بين الضمائر الخطابيّة في القرآن وبين كون النبي ﷺ هو المقصود بها؛ وإلاّ لَقَبُحَ ذلك في كثيرٍ من الآيات التي ظاهرها نسبة الذنب والجهل والعصيان إلى النبي ﷺ، فظاهر الخطاب فيها للنبي ﷺ والمقصود غيره.

---

(١) السيد محمود الطالقاني: تفسير برتوي از قرآن (بالفارسيّة)، أي: شعاع من القرآن.

(٢) لو كانت الضمائر في السورة راجعة إلى النبيّ ﷺ لَمَا حَسُنَ أنْ يؤتَى أوّلاً بصيغة الغائب، ثمّ الإلتفات منه إلى الخطاب؛ لكونه من ركيك الكلام الذي لا يليق صدوره في القرآن الكريم، وإلاّ كان الأَوْلَى أنْ تكون الضمائر على صيغة واحدة دون تفاوت من الغائب إلى الخطاب.

والمُلاَحَظ في القرآن الكريم أنّ كلّ الخطابات الخاصّة برسول الله هي على وتيرةٍ واحدةٍ بصيغة الخطاب، فليس ثمة آية تشير إلى ما أشارت إليه سورة عبس من الإنتقال المذكور أعلاه.

(٣) إنّ الخطاب في السورة متوَجِّه إلى شخصٍ معلومٍ، وهو رجل من بني أميّة، وليس مجهولاً كما ادّعى الطالقاني، فمرجع الضمائر في السورة كان معلوماً حين نزول الآيات وبعدها، لكنّ بني أميّة وأمثالهم أخفوا ذلك تحريفاً لكتاب الله تعالى وإخفاءً للحقائق. وعدم معلوميّة المخاطب لا يلغي نزولها بغير النبيّ، ولعلّ ذلك إهمالاً له أو فتنةً لغيره.

وعليه؛ فإنّ الرَّجُلَ العابِسَ ـ هو عثمان ـ لا يصلح أنْ يكون داعيةً، فكيف إذا جَعَلَ نفسَه زعيماً وخليفةً على المسلِمين، فكأنّ الآيات في صدد بيان فضحه لئلاّ يغْتَرّ به المسلِمُون، تماماً كَفَضْحِ أبي بكر بواسطة آية الغار ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]؛ فلم يحتجب النبيّ ﷺ عندما ترك مكّة من أبي بكر ليتمّ أمر الله فيه، وهكذا عندما فضح عمر في صلح الحديبية لمّا شكّ في النبيّ ﷺ، وأظهَرَ ما في قلبِهِ من الكفر والحقد على رسول الله محمد ﷺ، كما

فَضَحَهُم جميعاً في معركة أُحُد لمّا فرّوا إلى أعلى الجبل تاركين النبي ﷺ بين الأعداء سوى أفراد معدودين منهم أمير المؤمنين وقائد الغرّ المحَجَّلين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي أُثْخِنَ بجراحاتٍ كثيرةٍ جرَّاءَ دِفاعِهِ عن الرسول الأكرم ﷺ.

إنّ سورة عبس قد فَضَحَتْ عثمان بن عفّان كما فَضَحَت آياتٌ أُخَرُ زميليه أبا بكرٍ وعمر، كُلُّ ذلك ليتمّ الحجّة عليهم، ولئلاّ يقولوا ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طـــه: ١٣٤]، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النســـاء: ١٦٥]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

(٤) ما ادّعاه السيد الطالقاني على نحو التشكيك في عدم وجود خطابات ابتدائيّة يكون المخاطَب فيها غير النبي ﷺ هو من أعجب الأمور أيضاً؛ وهل تخفى على البصير آياتُ سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾؟!!! فإنّه خطابٌ ابتدائيٌّ يُقْصَدُ به رجلٌ، أشارت الأخبار أنه عثمان بن عفّان. مضافاً إلى أنّ الخطابات الإبتدائيّة التي يُقصَدُ بها غير النبي ﷺ كثيرة في القرآن الكريم، ولا دليل على رجوعها إلى النبي ﷺ بل يشكل الإعتقاد بنُزولها في حقّ النبيّ كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ولو علم الله منه الشرك لما جعله نبياً ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [التوحيد]، وهل يبعث الله تعالى رسولاً جاهلاً بأنّ الله واحدٌ أحدٌ؟ حاشا وكلاّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]؛ فإنه عزّ وجلّ في هذه الآية خاطب نبيه ﷺ، ولكنّه لم يقصده باعتبار أنها في مقام التوبيخ الذي لا يليق بشأن النبيّ. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾؛ كيف يوبّخه هنا، والنبي لم يكن بعدُ مولوداً، لأنّه ﷺ

وُلِدَ بعد عام الفيل ولم يرَ ذلك أصلاً؟، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر: ٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٥٨]. وعلى فرض صحّة ما ادّعاه في سورة عبس؛ فما الدّلالة على أنّ الخطاب في هذه الآيات العتابيّة أيضاً إليه ﷺ؟

**الشبهة الحادية والعشرون:**

إنّ العبوس تأثُّرٌ روحيٌّ يظهَر لكلِّ أحد في كلِّ مقام، ولا سيّما إذا كان في مسيره إلى أهدافٍ عاليةٍ، والدّعوة إلى الله تعالى تثيرها العواطف في ظروف وأوضاعٍ خاصّةٍ وليست من قسم الصفات والأخلاق، على أنها إذا لم تكن في سبيل الآمال والأغراض الشخصيّة فغير مذموم، بل إذا كان في سبيل الدّعوة إلى الله فهي بنفسها حَسَن وممدوح.

**يرد عليها:**

(١) التأثر النفسي بالعبوس المنبعث في ظروفٍ خاصّةٍ إنما هو لكلّ عصبيّ المزاج، الذي لا يتمالك عند الهزاهز، ولا يملك نفسه في تلك الظروف، وأمّا بالنسبة لرسول الله الذي مَلَكَ نفسَه ﷺ، وهو فوق كلّ واحدٍ من الناس في سِعَةِ قلْبِهِ وانشراحِ صدْرِهِ وتجلُّلِ السَّكِيْنَةِ الإلهيّةِ على روحه ونفسه؛ فلا يجوز نسبة التأثر بالعبوس على وجهه أمام المؤمنين الفقراء المستضعَفِين.

ولو كان العبوس من أجل الدَّعوة مَرْضِياً؛ فلِمَ ذَمَّهُ الله تعالى عليه وقَرَّعَه باشدّ التقريع والتوبيخ، وهل يصحّ تقريعه على الأمر الحَسَن؟!! حاشا لله تعالى أنْ يغدو عنده القبيح حَسَناً، والحَسَنُ قبيحاً، اللهمّ إلاّ على المسلَك الأشعري حسبما فُصّل في باب الحسن والقبح الشرعيين.

(٢) جَعْلُ العبوس في وجه الفقراء المتديِّنين من الأخلاقِ الحَسَنَةِ لم نسمعه من أحدٍ على الإطلاق، وعلى فرض صحّة ذلك فلِمَ خَرَجَ الله تعالى عن طور العقلاء فوبّخ العابس بما لم يُوَبَّخْ بِهِ إلاّ المارقون والمشركون الغِلاظ الشِّداد؟!!!

إنّ العبوس لا يليق بمَن عَصَمَهُ الله عزّ وجلّ من الزَّلَلِ والخطأ، ولو تطَرَّقَ إليه ذلك لاحتَمَلْنا في حقِّهِ كلَّ عثارٍ وزَلَلٍ، وعليه فلا يليق بأنْ يكون سفيراً لله تعالى إلى خلقه، ولا يعتمد عليه في أداء الرّسالة وإبلاغها، وعليه فلا يكون اصطفاؤه واختياره من الله تعالى بحقّ، وهذا القول يستلزم أموراً فاسدة تتعلّق بصفات الله كالجهل في مقام الإصطفاء أو عدم القدرة على انتخاب غيره ليكون سفيراً إلى خلقه خالياً من المعايب والزّلاّت.

(٣) لو كان الهدف هو الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ ـ حسبما ادَّعَت الشبهة ـ من دون أيِّ شائبة نفسانيّة، فلماذا أعرَضَ عن المؤمن الذي يتزكّى وهو يسعى إلى الله وإلى دينه وإلى رسوله لفقره وعماه، ويُقبِل إلى الأغنياء ورياستهم ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وبالجملة فصدور أمثال هذه التاثرات النفسانيّة من ضيق النفس وانقباض الأعصاب إنما هو شأن النفوس الضيقة من سواد الناس، لا زعماء الرّشاد وأركان البلاد وساسة العباد والهداة الأمناء وعلى رأسهم النبي الأكرم ﷺ.

**الشبهة الثانية والعشرون:**

ما توهّم من أنّ عتاب الله تعالى إيّاه يدلّ على أنّ معصيةً صَدَرَت منه لينافي مقام عصمته وهذا غير صحيح لأنّ العبوس والإعراض لم يُعَدَّا من المعاصي، وعتابه من الله سبحانه وتعالى يدلّ على كمال توجّهه إليه ومراقبته إياه، والآيات

من سورة الإسراء أشدّ عتاباً وأقسى تهديداً من آيات سورة عبس وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥][1].

يرد عليها:

(١) لقد خَلَطَ صاحبُ الشُّبهة بين العتاب وبين التوبيخ والتقريع، فجعلهما واحداً مع أنهما يفترقان مفهوماً واصطلاحاً، فالعتاب على شيء: اللوم عليه، وقد يأتي بمعنى الإنكار، لكن ظاهر الآيات في عبس هو التهديد والوعيد والتوبيخ والتسفيه على سوء الفعل.

ولو سَلَّمْنا كونهما مفهوماً واحداً على نحو الترادف، فحكاية الأفعال الموجبة للعتاب والتقريع كافية في كون العبوس بوجه الفقير والإعراض عنه عملاً محَرَّماً يستحقّ صاحبه الزَّجر الرّبّاني والعذاب الأليم، لِمَا في العبوس بوجه المحتاج ـ فضلاً عن كونه مؤمناً يطلب معرفة معالم دينه ـ وكذا الإقبال على الأغنياء لغناهم وثروتهم من القبح العقلي ما لا يتوقف فيه أحد من العقلاء فضلاً عن الأتقياء.

(٢) لو كان العتاب في الآيات موجِباً لكمال توجهه عزّ وجلّ إلى نبيّه ومراقبته إياه لَمَا صحّ الإنكار عليه بهذه الكيفيّة المشينة التي تستوجب تنفير الخلق منه، وهو مُخِلٌّ بفوائد البعثة، مضافاً إلى جرأة المشرِكين عليه ﷺ، وهل من كمال توجهه إليه ومراقبته إياه أنْ لا يراعي له حرمة أمام أولئك

---

(١) شعاع من القرآن/ محمود الطالقاني.

الصناديد فينَزّل عليه آيات بالوعيد تُتلى آناء الليل وأطراف النهار، فيستوجب ذلك استخفافاً بنبيه ﷺ وازدراءاً به عند عامّة الكفّار والمنافِقين؟!!

إنّ عتاب النبي ﷺ بهذه الكيفيّة تترتب عليه آثار سلبيّةعلى عامّة المسلِمين، وهو خلاف كونه من محامد الصِّفات ومكارِم الأخلاق التي دعا إليها الله عزّ وجلّ على لسان نبيِّهِ الكريم ﷺ.

فاستنتاج أنّ الفعل لم يكن معصيةً ومذموماً، وتحميله على صاحب الرّسالة ﷺ ممنوعٌ، والآيات تدلّ على خلافه.

(٣) ما ذَكَرَه صاحب الشبهة من أنّ آيات سورة الإسراء أشدّ عتاباً وأقسى تهديداً مردودٌ؛ لأنّ بين آيات سورة الإسراء وسورة عبس فَرْقٌ من وجهين:

الوجه الأوّل: إنّ آيات سورة عبس دلالتها واضحة على التوبيخ والتقبيح، عدا عن العتاب واللوم الشديدَين على أفعال صَدَرَتْ من العابس، لكنّ آيات سورة الإسراء ليس فيها شيءٌ ممّا ذُكِرَ في سورة عبس، بل غاية ما تدلّ عليه هو أنّ المشرِكين سَعَوا بكلِّ جهدِهم في سبيل إفتتان النبي ﷺ ليبعدوه عن دعوته الحقّة، ولولا عناية الله تعالى به وألطافه الخاصة بجنابه من العصمة والطّهارة، لَكَادَ يركن إليهم شيئاً قليلاً، لكنّ العناية أدركته والإفاضات الإلهيّة عَصَمَتْهُ، فلم يَكَد يقترب حتى بمقدار أنْ يركن إليهم شيئاً قليلاً، فلم يقع في طريق ما أرادوا منه، ولم يتأثر بإغوائهم وغرورهم، والنبي ﷺ يعْلَم أنّه لو اقتَرَبَ منهم لأذاقَهُ الله تعالى ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ الممات.

فالعصمة الإلهيّة التي هي مفاد قوله ﴿ثَبَّتْنَاكَ﴾ مَنَعَت النبي ﷺ من أنْ يركن إليهم، وهذه نعمة إلهيّة تستوجب الشكر من رسوله ﷺ لألطاف الله تعالى به.

الوجه الثاني: ليس في آيات سورة الإسراء أدنى عتاب أصلاً؛ بل تدلّ على تعظيم النبي ﷺ، وأنّ فضلَ الله عليه عظيمٌ، وأنّ مَن أَمَدَّه بالقوّة على الطّاعة إنما هو الله تعالى، وطاعته لله بتوفيقٍ منه عزّ وجلّ، وهذا نظير ما حصل للنبي يوسف عليه السلام من ألطافِ العِصمة والطّهارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾؛ فبرهان الرّبّ هو العصمة ليوسف الصدّيق عليه السلام، وكذا هي نفسها لرسول الله ﷺ، والتي عَبَّرَت عنه آيات سورة الإسراء بالتثبيت ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾.

**الشبهة الثالثة والعشرون:**

ما فعله النبي ﷺ بالأعمى لم يكن معصيةً؛ وإنما هو تَرْكٌ للأولى، وهو جائزٌ على الانبياء، وجريانه مجرى قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

**يرد عليها:**

(١) لا يمكننا المساعَدة على هكذا قول ـ وإنْ كان ترك الأولى جائز على الأنبياء ـ ؛ لأنّ المورد ليس من هذا القبيل حتى يسوغ القول به، بل المورد من قبيل فعل الحرام؛ لأنّ هذه الأفعال المعاتَب عليها في آيات سورة عبس تدلّ على غاية خِسّة فاعلها بحيث لا يليق بشأن أبسط المؤمنين فضلاً عن عدولهم وأكابرهم، وفضلاً عن المعصوم عليه السلام ولا سيّما خاتم النبيين وأشرف المرسَلين وأفضل أولي العزم من رُسُل الله صلوات الله عليه وآله وعليهم أجمعين، وعلى حدّ تعبير السيّد المرتضى رحمه الله: «وأيُّ تنفيرٍ أبلغ من العبوس في وجوه المؤمنين والتلهّي عنهم والإقبال على الأغنياء والكافرين والتصدّي لهم، وقد نَزَّه الله تعالى النبي ﷺ عمّا هو دون هذا التنفير».

(٢) مفاد آيات سورة عبس ليس ترك الأَوْلَى ـ حسبما أفدنا آنفاً ـ بل دلالتها واضحة على فعل الحرام؛ وإلاّ فإنّ ترك الأَوْلَى لا يستحقّ فاعله أنْ يُذَمّ ويَوَبَّخ بهذه الطريقة بحيث تُسقِطُه من قلوب الناس، بل يتمنى أنْ لو كتم شيئاً من الوحي لَكَتَم ما نزل به في سورة عبس حسبما أخرجه السيوطي عن إبن زيد.

والملاَحَظ من سيرة بعض الأنبياء الذين تَرَكَوا الأَوْلَى أنهم لم يُعَامَلوا تلك المعامَلة التي أبدتها سورة عبس بحقّ النبي ﷺ بحسب دعوى القائلين بها، فما أعظم هذا الأولى الذي تَرَكَه رسول الله ﷺ في مقابل أكل النبي آدم عليه السلام من الشّجرة المنهيّ عنها، فلم يُعاتَب ويُوَبَّخ كما وُبِّخَ رسول الله ﷺ مع أنه سيّد الرُّسُل وخاتم النبيين، فينبغي ـ بدلاً من تسخيفه وتضعيف دعوته وتنفير الناس عنه ـ أنْ يُمدَحَ على حِرْصِهِ لإبلاغ الرّسالة للمشرِكِين، أو يسكت عنه جهراً، حرصاً على كيانه الدّعوتي والتبليغي، ولئلاّ يصبح غَرضَاً سهلاً للمغرِضِين ولِمَن أرادَ الطَّعْنَ عليه ﷺ من أهل الكتاب والمنافِقِين.

**الشبهة الرابعة والعشرون:**

إنّ العبوس يُعتَبَرُ قبيحاً في حال تأذّى المعبوس لأجله، ولمّا كان إبن أمّ مكتوم أعمى، فلا يتفاوت معه العبوس والإبتسامة، لعدم رؤيته فلا يتأذّى، ثمّ لا يكون القول بنزولها في شأن النبي ﷺ قبيحاً ومستلزِماً للخروج من العصمة.

يرد عليها:

(١) لو لم يتفاوت الحال بين العبوس وعدمه فلماذا نزل ـ إذاً ـ العتاب بهذه الشدّة.

(٢) قبح العبوس ليس من حيث إيذاء الأعمى فحسب، بل لكونه مؤدّياً إلى خِسَّةٍ في طَبْعِ فاعِلِهِ من حيث نفوره من الفقراء وتصدّيه للأثرياء والأغنياء

وأصحاب الجاه والإعتبار في الوسط المكّي، ممّا يدلّ على غاية انحطاط في نفسيّات الفاعل وأخلاقه، بحيث لا يليق صدوره من عاقلٍ حكيم فضلاً عن سيّد العقلاء والحكماء محمّد رسول الله ﷺ.

(٣) لو لم يتأذَ الأعمى لعدم تفاوت الحال عنده؛ لكنّ مَن حوله تأذّوا، بل كلّ مَن سَمِعَ بهذا تأذّى نيابةً عن الأعمى، لكون ذاك الفعل موجِباً لاستنكار العقلاء وتذمّرهم من العابس، فبدلاً من أنْ يرحمه لضعفه، جابهه بقبيحٍ أوجَبَ عتابَ ربّ العالَمين له.

**الشبهة الخامسة والعشرون:**

إنّ ما صَدَرَ من النبي ﷺ من العبوس هو تَرْكٌ للأَوْلَى؛ لأنّ الأَوْلَى أنْ لا يعبس بوجه الأعمى، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

**والجواب:**

قلنا سابقاً أنّ المقام ليس من باب ترك الأَوْلَى فلا نعيد، مضافاً إلى أنّ قياس العتاب في سورة عبس على العتاب في الآية الثالثة والأربعين من سورة التوبة هو مع الفارق، إذ في سورة عبس عتابٌ شديدٌ ووعيدٌ وتوبيخ، أمّا في سورة التوبة فليس كذلك، بل هو ملاطَفة وتعظيم؛ لأنّ أحدنا قد يقول لغيره إذا خاطبه: أرأيتَ رحمك الله وغفر الله لكَ، وهو لا يقصد الإستصفاح له عن عقاب ذنوبه بل ربّما لم يخطر بباله أنّ له ذَنْباً كما كان ديدن أصحاب الأئمّة عليهم السلام كانوا يستفهمون من الإمام عليه السلام بقولهم: ما تقول رحِمَكَ الله...

والغرض الإجمالي في المخاطَبة استعمال ما قد صار في العادة علماً على تعظيم المخاطَب وتوقيره.

وأمّا قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فظاهره الإستفهام أو التقرير أو العتاب، ولا يجب حمله على العتاب خاصّةً، بل محتمل لجميع ما ذُكِر، وعليه فلِمَ نحمله في حقّ النبي ﷺ على العتاب دون بقيّة الأقسام؟!!

ولو فرضنا أنّ الآية الثالثة والأربعين من سورة التوبة هي من موارد ترك الأولى، لكنّ سورة عبس ليس كذلك لمكان القرائن القطعيّة من داخل السورة وخارجها على خلاف ترك الأولى، بل كلّها تشير إلى فعل الحرام الصادر من العابس.

وبعبارةٍ أُخرى: إنّ آية سورة التوبة ليس فيها عتاب صريحاً، بخلاف سورة عبس فإنها صريحة في العتاب على أمورٍ قبيحة عقلاً ونقلاً، ولا يجوز تقديم غير الصريح على الصريح، ولا المخالِف للعقل والنقل على الموافِق لهما، ولا المتشابه ـ كسورة عبس ـ على المحكَم كآية التطهير التي نزّهت النبي ﷺ عن كلّ سوء.

وعلى فرض أنّ ذيل الآية الثالثة والأربعين من سورة التوبة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تدلّ على العقاب، ـ مع أنه أحد محتملاتها ـ فلا يجوز تقديمه على غيره من معاني الآية حسبما أشرنا آنفاً.

وبهذا يتضح أنّ العتاب لا يصحّ إلاّ مع نقصٍ في المعتوب عليه، ولا يمكن ذلك في المعصوم عليه السلام بعد وفور الأدلّة على عصمته وطهارته.

## إشكال وحل:

قد يُقال: إنّ أشقى الشقاء وأعظم خسران أنْ يُوكَلَ الإنسانُ إلى نفسه، فيسقطه الله تعالى عن عين رعايته، والعتاب يدلّ على كمال رعاية الله للمعتوب عليه، فيدلّ العتاب في آيات سورة عبس على كمال لطفه ورعايته ورحمته بالنبي ﷺ.

قلنا: على فرض أنّ العتاب يدلّ على كمال رعاية الله تعالى بالمعتوب عليه، لكنه في المقابل يدلّ أيضاً على قبح ما عوتب عليه ونقصان فاعله، وأنه صار مستحقاً للملامة والعتاب والإنكار عليه، وهذا لا يليق بمقام النبي ﷺ وعصمته. مضافاً إلى أنّ العتاب يدلّ على ما ذكره الإشكال في حال خلا عن القرائن الدالة على السخط الإلهي، وسورة عبس مليئة بالقرائن على ذلك، فمن أين لنا الجزم والقطع بأنّ عتابه عزّ وجلّ في سورة عبس دليل الرّعاية واللطف؟!! بل العكس هو الصحيح...

إشكالٌ آخر:

إنّ العتاب يوجب تنبيه النبي ﷺ عن الغفلة، لذا يجب أنْ يكون تحت المراقبة الشديدة من الله تعالى، وهذا يوجب شدّة مواظبته على ترك المعاصي، وهو من الأسباب القويّة للعصمة.

والجواب:

معرفة النبي ﷺ بالله تعالى مع كمال قداسته وطهارته تكفي في عصمته بعد أنْ طهَّرَه الله تطهيراً، ولا يحتاج إلى العتاب والزجر ليواظب على نفسه أشدّ المواظبة كما أفاد الإشكال، فالمعصوم عليه السلام لا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله قبله وبعده، ولا يرى الخلق إلاّ ظلالاً لوجوده وقدرته وعَظَمَتِهِ وأسمائه، فلا ينسى ولا يغفل عن ذكر الله بحكم طهارته وقربه وقداسته عليه السلام، فكيف يُتَصَوَّر فيه المعصية؟!!

مضافاً إلى أنّ النبي ﷺ والعترة الطاهرة عليهم السلام ما عبدوا الله خوفاً من ناره ولا طمعاً بجنَّتِهِ حسبما أفاد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «إلهي ما عبدتكَ خوفاً من عقابكَ ولا طمعاً في ثوابكَ، ولكنْ وجدتُكَ أهلاً للعبادة

فعبدتُكَ»؛ فهل يحتاج هؤلاء وأمثالهم إلى التخويف أو التطميع أو العتاب في المشي على الصراط المستقيم؟! كلا؛ لأنّ العمدة في ذلك معرفتهم وقربهم وعصمتهم وما خصّهم الله تعالى به حيث خلقهم أنواراً وجعلهم بعرشه محدِقِين حتى مَنَّ علينا بهم فجعلهم في بيوتٍ أَذِنَ الله أنْ تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمه، فلا ظلمة فيهم حتى يحتاجوا إلى العتاب في مشيهم سويّاً على صراطٍ مستقيم.

**الشبهة السادسة والعشرون:**

إنّ الطباع البشريّة على طرفي الإفراط والتفريط إلاّ اليسير منهم من يمشي على صراط مستقيم، ولذا يذكر الناس أساطير في حقّ كبرائهم، حتى صدر الغلوّ من جماعة من الشيعة بالنسبة إلى أمير المؤمنين والإمام الصادق عليهما السلام، وأمّا النبي ﷺ فما غلوا فيه أصلاً، وعدم الغلوّ فيه له موجبات أهمّها ما ورد من العتاب في حقه في القرآن[1].

والجواب:

(١) يلزم على هذا أنْ يقع النبي ﷺ في الظلم والحرام، والموبقات، وهكذا الأنبياء والأوصياء حتى لا يغلو أتباعهم فيهم، وإذا صدر منهم شيء من هذه المنكرات يَقْبُحُ حينئذٍ جعلهم أنبياء وسفراء لضرورة قبح تقديم المفضول على الفاضل من رعيّتهم الذين لم يرتكبوا شيئاً من هذا القبيل، ولقبح الترجيح من دون مرَجِّح.

(٢) يلزم على رأي صاحب الشبهة أنْ يعاتب الله عزّ وجلّ الإمامين عليّاً والصادق عليهما السلام، فيُنْزِل بحقّهما آياتٍ فيها عتابٌ وتوبيخٌ لئلاّ يقع الشيعة في الغلوّ بالنسبة إليهما.

---

(١) تفسير نوين/ فارسي/ سورة عبس.

والغلوّ في الأنبياء والأئمّة عليهم السلام إنما نشأ من نقص عقول الأمّة، وعلاجه إرشادهم إلى الحقائق لا العتاب جزافاً في حقّهم، وهذا هو الذي في ورد في القرآن الكريم بالنسبة إلى النصارى ونبيّهم عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

فهذه الآية أرشدت أهل الكتاب إلى الحقيقة، ولم تأتِ بعتاب على المسيح عليه السلام، وهل أنّ حرمة النبيّ عيسى عليه السلام أعظم عند الله من حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى عاتب الثاني دون الأوّل؟!!

**الشبهة السابعة والعشرون:**

إنّ هذا العتاب في سورة عبس يؤثّر في تهذيب أخلاق المسلِمين وتربيتهم حيث إنهم إذا رأوا أنّ الله تعالى يضيِّق على نبيّه مع عَظَمَتِهِ عنده فكيف حال الأمّة نظير قوله مخاطِباً نبيّه: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾، فقد أفرده عزّ وجلّ بالخطاب ليعلم أنّ عظيم الشأن أوعده الله بالعذاب لو أشرك معه أحداً، فكيف حال مَن هو دونه، وإذا حُذِّر فغيره أولى منه بالتحذير.

والجواب:

(١) التحذير شيءٌ والعتاب شيءٌ آخر، فالتحذير للحذر عن شيء عظيم الخطر لو وقع فيه يستلزم مفسدة كبيرة، وأمّا العتاب فدائماً يكون على أمرٍ قبيحٍ وقع من المعتوب عليه، وهذا لا يليق بمقام نبينا محمد صلى الله عليه وآله لِمَا أسلفنا سابقاً فلا نعيد.

(٢) إنْ كان العتاب صادراً لأجل قبيحٍ حصل من النبي ﷺ يحسب الإفتراض المذكور فهو مقطوع العدم لمنافاته للأدلّة القطعيّة على طهارته وعصمته، وإنْ كان بنحو الجزاف لمجرَّد تهذيب المسلِمين في أعمالهم وأخلاقهم، فهذا وإنْ كان ربّما يصدر من الحكّام والسلاطين الظَّلَمَة لإعلام الرعيّة بطشهم في تشييد أمورهم، إلاّ أنه من الله عزّ وجلّ مخالِف لعدله وحكمته وقدرته ورأفته ورحمته، فلا يمكن صدوره منه إلى الخلق فضلاً عن سيّدهم رسول الله محمد ﷺ.

هذا بالنسبة إلى العتاب، أمّا التحذير فيصحّ صدوره منه عزّ وجلّ لأنبيائه ﷺ لإعلام غيره من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة».

وعلى كلّ حال لا ربط له بالعتاب على أعمال قبيحة تنبئ عن صفاتٍ ذميمةٍ.

**الشبهة الثامنة والعشرون:**

لو كان المخاطَب في سورة عبس هو شخص النبي ﷺ فمعناه رفع مسؤوليّة الإرشاد والتزكية عنه بالنسبة إلى المستغني مع أنها من وظائف مقام الرّسالة كما قال سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وعليه؛ فيتعيّن أنْ يكون العابس هو النبي ﷺ؛ لأنّ التزكية من وظائف رسالته ﷺ.

يرد عليها:

(١) ليس شرطاً في التبليغ أنْ تكون التزكية منحصرة في النبي ﷺ حتى يدّعى أنها من وظائفه خاصة، بل هي من وظائف كلّ مسلم، فكما يجب على

النبيﷺ أنْ يقوم بتزكية المنحرِفين والفاسِقين بهدايتهم إلى الإسلام، كذا يجب على غيره من المسلِمين أيضاً.

(٢) حيث إنّ التزكية من صلب وظائف النبيﷺ فلا يصحّ حينئذٍ أنْ يخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ ومعناها أنه ليس لكَ أنْ يتعلّم هذا الأعمى أو لا تهتم لتعليمه، وهذا نظير قول المدير للمعلّم: ليس عليكَ أنْ يعرف الصف الثاني الضرب والتقسيم، وكأنه يقول له: ليس عليكَ تعليمهم الضرب والتقسيم.

ومورد الآية هكذا: أيها العابس ليس لكَ أنْ تتصدّى لهداية الناس؛ لأنّكَ لستَ أهلاً لذلك.

وبعبارة أخرى: إنّ مرجع الضمائر في سورة عبس هو غير النبيﷺ ممَن تصدّى واستقدم نفسه في ذلك، مع أنه لم يكن من شأنه كعثمان بن عفان الأموي، وبهذا يستقيم الكلام حيث يقول: أيها العابس بوجه الأعمى الفقير لفقره وعماه، والمُقْبِل على الغني لثروته وغناه لتتصدى لإرشاد الغني وتزكيته، ليس لكَ شأن ذلك، فإنه لا ينبغي التصدّي للتزكية والدّعوة إلى الإسلام دين العدالة والأخوّة والمساواة ممّن هو غير متخَلّق بالأخلاق الإسلاميّة وغير متَّصِفٍ بصفاته، بل متَّصف بما يضادّ الإسلام وينبئ عن الإيمان بالمادّيات لا بالله واليوم الآخر، فهو متنفّر عن الفقير الأعمى لعماه وفقره، ومقبل على المترفين الأغنياء لأجل ثروتهم، فهذا المتصدّي ليس له قابليّة الدّعوة إلى الإسلام وتزكية المشرِكين أو الضعفاء من أهل الإيمان؛ لأنّ التطهير هو شأن الطاهر لا القذر، فإنّ عمله وأوصافه يدعوان إلى ما يخالف لسانه، بل مقام الدعوة والتزكية ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ الذين أذهب الله عنهم الرّجس

وطهّرهم تطهيراً، فهم مطَهَّرون عن ألواث القذارات المعنوية والظاهرية، وشرح الله صدورهم للإسلام، فهم على نور من ربهم، وهذا كان من شؤون النبي الطاهر المطَهَّر، فإنّه هو الذي بعثه الله في الأميين يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، فلماذا تصدّى لها هذا القذر الذي أظهر مطويات نفسه بإعراضه عن الفقير الأعمى وإقباله إلى مَن استغنى.

فجملة ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ بعد قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ يدلّ على انعزال المخاطَب عن منصب الدّعوة والوساطة في إبلاغ الإسلام إلى المشرِكِين وتزكيتهم.

وبهذا يتضح: أنّ العتاب في السورة ليس لمجرد مؤاخَذَة العابس لتعظيمه المشرِكِين لثروتهم وسيادتهم الجاهليّة فحسب ـ وإنْ كان ذلك بمجرده ذَنْباً عظيماً باعتباره تضعيفاً للإسلام والمسلِمِين وتقوية للمشرِكِين ـ بل لأنّ ظاهر الآيات في سورة عبس أنّ العمدة في عتابه أنه عرض نفسه في سبيل الدّعوة الإسلاميّة وقيادتها وتظاهر بذلك مع الأعمال الردية الكاشفة عما في نفسه من الصفات المذمومة وهذا ذَنْبٌ عظيمٌ ونقصٌ كبيرٌ في مقام الدّعوة إلى الله تعالى، وترتّب على دعاوى تلك القيادات الزائفة كثيرٌ من الآثار السلبيّة على الإسلام والمسلِمِين من حيث استغلال شعارات الدين وانتهاك حرماته بثوب الأخلاق تارةً، وبتعظيم الكافِرِين والفسّاق وتحقير المؤمنين المستضعَفين طوراً؛ لمصلحة الدين بحسب تصوّرهم الزائف البائر والبائد، كما فعل المغتصِبون الثلاثة المتقدِّمِين على أمير المؤمنين علي عليه السلام، ثمّ من بعدهم معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، وغيرهم من طغاة بني أمية وبني العباس إلى يومنا هذا.

وبالجملة؛ فالذي يُستفاد من خلال آيات عبس أنّ مورد العتاب أمورٌ

ثلاثة: صدور الأفعال الذميمة من العابس وتظاهره بها في سبيل الدّعوة ونشرها والتصدّي للمناصب القيادية السياسيّة والتشريعيّة واشتغاله بالزّعامة الدينيّة.

وكان العابس وأمثاله يجدّ ويجتهد في أنْ يصوِّرَ نفسه لدى الناس بهذه الصورة، من هنا أبعده الله تعالى عن مقام الدّعوة بقوله تعالى ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي يا أيها الرّسول قل للعابس ليس لكَ شأنُ التزكية والتربية؛ فإنّ التزكية شأن الزكي الطاهر وهم السفرة الكرام البَرَرَة ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾؛ فالعابس لا يقدر أنْ يتحمّل ثقل الدّعوة الإسلامية والتزكية؛ لذا عبس وتولى أنْ جاءه الأعمى الذي يسعى ويخشى، وإنما تصدّى لمَن استغى.

**الشبهة التاسعة والعشرون:**

إنّ المعاتب عليه لو كان له ذَنْبٌ معتنى به أكبر من ذلك للزم أنْ يُعاتَبَ عليه أيضاً، مع أنه لم يذكر في القرآن لهذا الصحابي الأموي شيء.. ثم استشهد صاحب الشبهة على براءة عثمان من العتاب بأنّ العتاب إنما هو لأجل إهانة المؤمن، ولكنّ المؤمنين في صدر الإسلام قُتلوا وظُلِمُوا من قِبَلِ المشرِكين ولم يُعاتَبوا عليهم خطاباً، بل وحتى مَن أهان النبيﷺ وضَرَبَه لم يرد عليه خطاب، فأبو جهل مثلاً حينما غضب بشدّة على النبيﷺ صرّح بأنه سيطأ عنق النبيﷺ برجله حتى يموت، فالله سبحانه ذكره ووقاحته وهَدَّدَه بالعذاب لكنه بضمير الغيبة، ويجعل المخاطب نبيهﷺ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

ثمّ قال: هذا ما كان ذكره ضرورياً بنظرنا لحفظ الآيات الكريمة عن

التكلُّف في تأويلها، وبهذا النحو تُحفَظ الفوائد والنتائج الكثيرة للآيات العتابية[١].

وبالجملة: لقد أبى صاحب الشبهة أنْ يكون العتاب القرآني في سورة عبس لعثمان، بل هو خاص برسول الله ﷺ.

**والجواب عنه:**

(أوّلاً): قلنا مراراً وتكراراً أنّ النبي ﷺ منَزَّهٌ عمّا يستلزم التنفير المقتضي إذلال المؤمن وتحقيره؛ لأنّ ذلك مُخِلٌّ بميزان العصمة والقداسة التي يجب أنْ يتصف بها الأنبياء والمرسَلون والحجج الطاهرون ﷺ، فلا موجب لزلل القدم حتى يعاتب عليه، فمَن كان كامل الذات والنورانية لا يصحّ صدور ما يوجب العتاب عليه.

(ثانياً): عدم مخاطبة القرآن الكريم لأعداء رسوله العظيم خطاباً صريحاً ليس دليلاً على المدَّعى، بل ذكر معايبهم، وهَدَّدَهم بضمير الغيبة احتقاراً لذواتهم وكأنهم ليسوا موجودين في مقابل رسوله الشريف ﷺ...

فعدم عتابه في غير عبس ـ على فرض صحته ـ ليس دليلاً على براءته من العبوس...

ونحن نسأل هذا المشَكِّك: أيّ ملازَمة بين عدم العتاب خطاباً وبين حسن حال ذاك الأموي؟!! فهل يصحّ أنْ يكون العتاب بضمير الغيبة مختصّاً برسول الله ﷺ مع مخالفة ذلك للبراهين والأدلّة، ولا يصحّ أنْ يكون خاصاً بالأموي لأنّ القرآن ـ بحسب هذه الدّعوى ـ لم يذكر ذاك الصحابي في آيات أُخَر بشيءٍ

---

(١) تفسير نوين.

من العتاب؟!! فيصحّ إلصاق العيب برسول الله ﷺ ولا يصحّ إلصاقه بأموي؟!!!

(ثالثاً): ما ذكره من أنّ الأموي لو كان له ذَنْبٌ أكبر منه لعوتب عليه مع أنه ليس في القرآن من ذلك أثر. . . كلامٌ خالٍ من الدّليل، بل تخمينٌ وتخرّص ينبئ عن جهل صاحبه وغفلته، فإنّ أدنى طالب في حوزاتنا يعلَم أنّ الأمويين قد عوتبوا في القرآن الكريم ببيانات متفاوِتة، ولعن شجرتهم الخبيثة، وحذّر المسلمين من حكومتهم وتسلّطهم على المسلمين بأفصح لسان وأبلغ بيان في سورة الإسراء في آياتٍ عديدة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣)﴾ [الإسراء: ٦٠ ـ ٦٣].

فالأمويون هم الشجرة الملعونة في القرآن باتفاق العامّة والخاصّة، وقد حذّر الله تعالى المسلِمين منهم وهم مظهر إبليس في عداوته لآدم وذريته وحسده لمَن كَرَّمَه الله من ذريّة آدم.

وسورة عبس فَضَحَتْ سرائرَ الأمويين بزعامة عثمان بن عفّان، بل إنّ السورة مفسِّرة وموضِّحة للآية الستّين من سورة الإسراء.

فقد أخرج الله عزّ وجلّ أضغانهم وكشف سرائرهم وبواطنهم لعامّة المسلمين، فصار عثمان يحكي عن شجرته الملعونة التي لا تعرف إلاّ الكِبر والغرور والشِّرك والنفاق ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ

ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فدعوى أنّ القرآن الكريم لم يذكر لهذا الصحابي الأموي ذَنْباً هي دفاع مستَمِيتٌ عن عثمان بن عفّان، وهجومٌ شَرِسٌ على سيّد الرُّسُل ﷺ، والله لو أنّ صاحب تفسير نوين مات على هذا الإعتقاد ما كان عند الله وحجحه ﷺ إلاّ مَلُوماً مخذولاً.

(رابعاً): دعوى أنّ القرآن لم يوَجّه الخطاب إلى المشرِكين والكفّار والمنافِقين وأعداء النبي ﷺ كلامٌ أشعريٌّ وشعريٌّ خالٍ عن التحقيق، وتدلّ على جهل صاحبها بآيات الكتاب الكريم، ألم تمرّ عليه الآيتان الثانية والثالثة من سورة التوبة وهي قوله تعالى مخاطِباً المشرِكين: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ٢ ـ ٣].

وقال عزّ وجلّ أيضاً في آية أخرى مخاطِباً الكفّار بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]. فكما أنّ الله تعالى خاطَبَ المؤمنين مباشَرَةً، كذا خاطَبَ الكفار والمشرِكين مباشرةً في بضع آياتٍ، فيظهر أنّ صاحب الدّعوى لا يقرأ القرآن، أو أنه يقرأ لكنه غافلٌ عنها؟!! سبحان مَن لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم!!!!!

(خامساً): ما ذكره من كونه ضرورياً في حفظ الآيات عن التكلّف في التأويل، يُعَدُّ من العجائب حيث نسي نفسه كيف تكلّف بتأويل سورة عبس وصرفها عن عثمان بن عفّان، وإلصاقها برسول الله ﷺ، مبرِّئاً الأمويين عموماً

وعثمان خصوصاً عن تلك المعاتَبات والتوبيخات، وكان كلّ ذلك تأويلاً مع التكلف عن ظواهر الآيات إلى ما يريد من تفسيرها بآرائه الفاسدة، ويحرِّف الكَلِمَ عن مواضعه من غير سند من ظهور آياتٍ أو رواياتٍ من أهل بيت العصمة والطهارة ﷺ، بل كان جميع ما لَفَّقَهُ اعتماداً على رأيه الهزيل في تفسير القرآن واستناداً إلى روايات موضوعة مختَلَقة بأسانيد ضعيفة ومعارضة للأصول والقواعد والآيات والرّوايات المعتَبَرَة، فسبحان ربّكَ ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلامٌ على المرسَلين، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

## الإستدلال على كون العابس هو عثمان بن عفان

ثمّة أدلّة نقضيّة ودفعيّة وأخرى إثباتيّة، أمّا النقضيّة فبما أسلفنا من النقض والإبرام، وليس ثمة ما يشير ـ لا من قريبٍ ولا بعيدٍ ـ إلى اختصاص سورة عبس برسول الله ﷺ، بل ـ وكما قلنا ـ إنّ القرائن القطعيّة دَلَّتْ على عكس ذلك، ونُجْمِلُها بالنقاط التالية:

النقطة الأولى: إنّ سورة عبس لم تحَدِّد هويّة العابس، فهو مرَدَّد بين اثنين: النبيّ وغيره، ولا يجوز إلصاق العبوس برسول الله ﷺ لأصالة البراءة فيه أو أصالة العدم، بمعنى أنه بريءٌ عن القبائح والمنفِّرات لشدّة طهارته وقداسته، مع التأكيد على أنّ الأصل هو عدم صدور هذه المنفِّرات من الأنبياء ﷺ، فإلصاق المنَفِّر بنبيٍّ جليلٍ، وتَنْزِيه ذاك الرّجل، خلاف الأصول المقرَّرة.

النقطة الثانية: إنّ مطلع سورة عبس من المتشابهات القرآنية التي يجب لمعرفتها الرّجوع إلى المحكَمَات من الآيات والأحاديث النبويّة الشريفة والأدلّة القطعيّة.

النقطة الثالثة: إنّ السورة تتعارض مع الآيات الأخرى الدالة على أنّ العبوس مستحيلٌ صدورُه ـ بهذه الكيفيّة ـ من الأنبياء ﷺ، فضلاً عن سيّدهم رسول الله ﷺ.

النقطة الرابعة: إنّ الخبر الذي ألصَقَ العبوسَ بالنبي ﷺ هو خبرٌ واحدٌ رواه العامّة في مصادرهم، يتعارض مع الأخبار المتواترة الدالّة على سماحة خُلُق رسول الله ﷺ.

النقطة الخامسة: إنّ الخبر المذكور يتعارض أيضاً مع القرآن الكريم وأخبارنا وإجماعاتنا، ولا يصحّ للخبر الواحد ـ حتى ولو كان إمامياً فضلاً عن أنْ يكون عاميّاً ـ أنْ يقدَّم على المتواترات والإجماعات، إذ كيف يُقَدَّم الظنُّ على الإطمئنان واليقين؟!!!

النقطة السادسة: إنّ السورة فيها توبيخٌ وزَجْرٌ وهما فرع صدور المعصية من العابس، وحيث إنّ الأنبياء ﷺ لا يصدر منهم الحرام، وإلاّ لانتفَتْ فائدة بعثتهم، فالأنبياء ﷺ منَزَّهون عن ارتكاب الحرام، والسّورة تُخبِر عن حرامٍ صَدَرَ من العابس، لذا فيجب صرفُهُ عن النبي ﷺ؛ لكونه منَفِّراً وهو خُلْف فائدة البعثة.

* * *

## الأدلة الإثباتية على نزول سورة عبس بعثمان بن عفان

الأدلّة النقضيّة المتقدِّمة تصلح ـ واقعاً ـ أنْ تكون أدلّةً إثباتيةً على نزول السّورة بغير النبي ﷺ، لكنها بحاجة إلى ما يدعمها من الأخبار لإثبات نزول السورة في عثمان؛ لأنّ الإثبات يدور مدار وجود النص المعصومي الصادر من

جهة أهل البيت عليهم السلام، وهو كافٍ من الناحية الشرعيّة لإثبات الدّعوى، والذي يحزّ في نفوسنا ـ نحن الشيعة ـ أنّ المخالِفِين يصبّون جام غضبهم على كلّ مسلِمٍ شيعيٍّ ينسب العبوس لعثمان، في حين لا تتحرّك فيهم حميّة دينيّة أو غيرة إسلاميّة على رسول الله صلى الله عليه وآله، فيلصقون به العبوس غير آبهين بما تؤدي مقالتهم الشنيعة، أمّا أنْ تنسب إلى عثمان فهو الكفر بعينه، ممّا يعني أنّ عثمان عندهم أفضل من رسول الله صلى الله عليه وآله، ولولا خوفهم الفضيحة لقالوا إنّ عثمان هو رسول الله لا محمد صلى الله عليه وآله، ولا نذهب بعيداً فإنهم نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الهجر والخطأ والنسيان والجهل بحسب ما ذكره علماؤهم في كتبهم العقائديّة، بل ذكروا بهتاناً على النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّ الشيطان ليخاف منكَ يا عمر. وفي لفظ أحمد: إنّ الشيطان ليفرق منكَ يا عمر[1].

وكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: إنّ الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه[2].

وأوردوا عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلاّ سلك فجاً غير فجّك[3].

وا إسلاماه... صار الشيطان يهاب الخليفة فيسلك فجاً غير فجّه ولا تروعه عظمة النبي صلى الله عليه وآله ولا قوّة إيمانه؟!!!

ونحن نسأل أحمد: أكان الحقّ على لسان عمر لمّا جابه رسول الله بقوله

---

(١) الغدير: ٨/ ٦٤، نقلاً عن المصادر العامية: مسند أحمد: ٥/ ٣٥٣، والترمذي في جامعه: ٢/ ٢٩٣.

(٢) مسند أحمد: ٢/ ٤٠١.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٨٩، وص٢٥٦/ كتاب بدء الخلق: باب صفة إبليس.

الفظّ حين أراد الكتف والدواة ليكتب للمسلمين كتاباً لا يضلّون بعده؟!! فحال بينه وبين ما أراده من هداية الأمّة، أم كان الحق على لسانه في مائة موردٍ التي أخطأ فيها جمعاء[١].

وزبدة المخض:

إنّنا ننَزّه رسول الله ﷺ بما لم ينَزّهه به أحد غيرنا على الإطلاق، ولا نهاب أنْ نقول الحقّ مهما كان متعلقها خطيراً؛ لأنّ الحقّ فوق الجميع، فلا يجوز الترفع عن سماعه حبّاً للسلف وتبعاً للآباء والأجداد دون علم وبرهان، وعليه؛ فإنّ الأدلّة أخذت بأعناقنا ودلّتنا على أنّ العابس هو عثمان بن عفّان، وإليكموها غير منقوصةٍ عندنا بالوجوه التالية:

(الوجه الأوّل): وجود روايتين ـ وقد تقدَّمَتا ـ تنصان على أنّ العابس هو عثمان بن عفان، الأولى تنصّ على أنّ العابس هو رجلٌ أمويّ، والثانية تنصّ على أنه عثمان، ولا تعارُضَ بينهما؛ لأنّ إحداهما تفسّر الأخرى، فعثمان من الناحية النسبيّة أمويٌّ، وأخبارنا حجّة علينا وعليهم، باعتبار اتصال أسانيدها بأئمّة أهل البيت ﷺ الذين أذهَبَ الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، أمّا أسانيد روايات العامّة ففيها ما لا يجوز الإعتماد عليه بنصّ علماء الرّجال عندهم، فكيف يصحّ الإعتماد عليها وهي تعاني من الجرح والخدش، مضافاً إلى ضعف مداليلها ومعارضتها للكتاب الكريم، وكلّ ما خالف القرآن فهو زخرف لا خير فيه.

(الوجه الثاني): سيرة عثمان الدالة على حقيقته بتقديم الأثرياء والأقرباء،

---

(١) الغدير: ج٦.

حتى لو كانوا من ألدّ الأعداء لرسول الله ﷺ، أمثال الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله ﷺ، فقد صدرت منه مخازي ومخالَفات للشرع المبين، وإليكَ ـ أخي القارئ ـ قائمة بها:

ـ ١ ـ

## قضاؤه الجائر في إمرأة ولدت لستة أشهر

أخرج الحفاظ عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: تزوّج رجلٌ منا امرأةً من جهينة، فَوَلَدَت له تماماً لستَّة أشهر، فانطلق زوجها ـ ويظهر أنه كان من حاشيته والمقَرَّبين إليه ـ إلى عثمان، فأمر بها أنْ تُرجَم، فَبَلَغَ علياً ﷺ وسلام الله عليه، فأتاه، فقال: ما تصنع؟ ليس ذلك عليها، قال الله تبارك وتعالى: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، وقال ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستّة أشهر، فقال عثمان: والله ما فطِنتُ لهذا، فأمر بها عثمان أنْ تردّ فوجِدَتْ قد رُجِمَت، وكان من قولها لأختها: يا أخيّة لا تحزني، فوالله ما كشف فرْجي أحدٌ قطّ غيره، قال: فشبّ الغلام بعدُ فاعترف الرّجل به، وكان أشبه الناس به، وقال: فرأيتُ الرّجل بعدُ يتساقط عضواً عضواً على فراشه.

أخرجه مالك وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو عمر وابن كثير وابن الربيع والعيني والسيوطي[1].

قال صاحب الغدير ـ أعلى الله مقامه الشريف ـ: إن تعجب فعجبٌ أنّ

---

(١) الغدير: ٨/ ٩٧.

إمام المسلِمِين لا يفطن لِمَا في كتاب الله العزيز ممّا تكثر حاجته إليه في شتّى الأحوال، ثمّ يكون من جرّاء هذا الجهل أنْ تودى بريئة مؤمنة، وتُتَّهم بالفاحشة، ويُهتَك ناموسها بين الملأ الديني وعلى رؤوس الأشهاد.

وهلاّ كان حين عزب عنه فقه المسألة قد استشار أحداً من الصحابة يعلم ما جهله فلا يبوء بإثم القتل والفضيحة، وهلاّ تذكّر لدة هذه القضيّة وقد وقعت غير مرّة على عهد عمر، حين أراد أنْ يرجم نساء ولدْنَ ستة أشهر فحال دونها أمير المؤمنين وابن عبّاس.

ثمّ هَبْ أنه ذهل عن الآيتين الكريمَتَيْن، ونسي ما سبق في العهد العمري، فماذا كان مُدرك حكمه برجم تلك المسكينة؟ أهو الكتاب؟فأنّى هو؟ أو السنّة؟ فمَن ذا الذي رواها؟ أو الرأي والقياس؟ فأين مدرك الرأي؟ وما ترتيب القياس؟ وإنْ كانت فتوى مجرَّدة؟ فحيا الله المفتي، وزهِ بالفتيا، ومرحباً بالخلافة والخليفة، نعم: لا يُربِّي بيت أميّ أربى من هذا البشر، ولا يُجتنى من تلك الشجرة أشهى من هذا الثمر. إنتهى كلامه رحمه الله[1].



- ٢ -

## إتمام عثمان الصلاة في السفر

[ أخرج الشيخان وغيرهما بالإسناد عن عبد الله بن عمر قال: صلّى بنا رسول ﷺ بمنى ركعتين وأبو بكر بعده وعمر بعد أبي بكر وعثمان صدراً من

(١) الغدير: ٨/ ٩٧ ـ ٩٨.

خلافته، ثمّ إنّ عثمان صلّى بعد أربعاً، فكان إبن عمر إذا صلّى مع الإمام صلّى أربعاً، وإذا صلّى وحده صلّى ركعتين[١].

وفي لفظ إبن حزم في المحلّى: ٤/ ٢٧٠: إنّ إبن عمر كان إذا صلّى مع الإمام بمنى أربع ركعات انصرف إلى منزله فصلّى ركعتين، أعادها.

وأخرج مالك بن الموطأ: ١/ ٢٨٢ عن عروة: إنّ رسول الله ﷺ صلّى الرباعيّة بمنى ركعتين، وأنّ أبا بكر صلاّها بمنى ركعتين، وأنّ عمر بن الخطّاب صلاّها بمنى ركعتين، وأنّ عثمان صلاّها بمنى ركعتين شطر إمارته ثمّ أتمّها بعدُ.

وأخرج النسائي في سننه: ٣/ ١٢٠ عن أنس بن مالك أنه قال: صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ بمنى ومع أبي بكر وعمر ركعتين، ومع عثمان ركعتين صدراً من إمارته.

وبإسناده عن عبد الرّحمان بن يزيد قال: صلّى عثمان بمنى أربعاً حتى بلغ ذلك عبد الله فقال: صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين. الحديث.

ورواه إمام الحنابلة أحمد في المسند: ١/ ٣٧٨: وأخرج الحديث أنس المذكور في مسنده: ١/ ١٤٥ ولفظه: صلّى رسول الله ﷺ الصلاة بمنى ركعتين وصلاّها أبو بكر بمنى ركعتين، وصلاّها عمر بمنى ركعتين، وصلاّها عثمان بن عفان بمنى ركعتين أربع سنين ثمّ أَتَمَّها بعدُ.

وأخرج الشيخان وغيرهما بالإسناد عن عبد الرّحمان بن يزيد قال: صلّى بنا عثمان إبن عفّان بمنى أربع ركعات، فقيل ذلك لعبد الله بن مسعود،

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١٥٤، صحيح مسلم: ٢/ ٢٦٠، مسند أحمد: ٢/ ١٤٨، سنن البيهقي: ٣/ ١٢٦.

فاسترجع ثمّ قال: صلَّيْتُ مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصلَّيْتُ مع أبي بكر بمنى ركعتين، وصلَّيْتُ مع عمر بن الخطّاب بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبّلتان[١].

وأخرج بو داود وغيره عن عبد الرّحمن بن يزيد قال: صلّى عثمان بمنى أربعاً فقال عبد الله: صليتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين، ومع أبي بكر ركعتين، ومع عمر ركعتين، ومع عثمان صدراً من إمارته ثمّ أتَمَّها، ثمّ تفرَّقت بكم الطرق، فلوددتُ أنّ لي من أربع ركعات ركعتين متَقَبَّلَتَيْن. قال الأعشى: فحدَّثني معاوية بن قرّة عن أشياخه: إنّ عبد الله صلّى أربعاً، فقيل له: عبتَ على عثمان ثم صلَّيْتَ أربعاً؟ قال: الخلاف شرٌّ[٢]][٣].

**ملاحَظة:**

تعطينا هذه الروايات الواردة في صلاة عثمان درساً ضافياً صافقه الإستقراء إن كثيرين من الصحابة ما كان يحجزهم الدِّين عن مخالَفة التعاليم المقرَّرة، وكانوا يقدِّمون عليها سياسة الوقت، وإلاّ فلا وجه لتربيعهم الصلاة وهم يرون أنّ المشروع خلافه، لمحض أنّ الخلاف شرٌّ، وهم أو مَن ناضل عنهم وحَكَمَ بعدالتهم أجمع لا يَرَوْنَ جواز التقيّة، فعبد الله بن عمر يتبع الخليفة في أُحدوثته، وكان يتمّ إذا صلّى مع الإمام، وإذا صلّى وحده صلّى ركعتين، وفي لسانه قوله: الصلاة في السفر ركعتان، مَن خالف السنة فقد كفر، وبمسمع منه

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١٥٤، صحيح مسلم: ١/ ٢٦١، مسند أحمد: ١/ ٤٢٥.

(٢) سنن أبي داود: ١/ ٣٠٨، الإثار للقاضي أبي يوسف: ص٣٠، كتاب الام للشافي: ١/ ١٥٩، ج٧/ ١٧٥.

(٣) الغدير للعلاّمة الأميني: ٨/ ٩٨ ـ ٩٩.

قوله ﷺ: إنّ الله لا يقبل عمل امرئٍ حتى يتقنه، قيل: وما إتقانه؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة.

وقوله ﷺ: مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ.

وهذا عبد الله بن مسعود يرى السنة في السفر ركعتين، ويحدِّث بها ثمّ يتمّ معتذراً بأنّ عثمان كان إماماً فما أخالفه والخلاف شر[1].

* * *

ـ ٣ ـ

## إبطال عثمان لحدود الله عزّ اسمه

[أخرج البلاذري في الأنساب ٥: ٣٣ من طريق محمد بن سعد، بالإسناد عن أبي إسحاق الهمداني: إن الوليد بن عقبة شرب فسكر فصلى بالناس الغداة ركعتين، ثم التفت فقال: أزيدكم؟ فقالوا: لا قد قضينا صلاتنا، ثم دخل عليه بعد ذلك أبو زينب وجندب بن زهير الأزدي وهو سكران فانتزعا خاتمه من يده وهو لا يشعر سكراً.

قال أبو إسحاق: وأخبرني مسروق إنه حين صلى لم يرم حتى قاء، فخرج في أمره إلى عثمان أربعة نفر: أبو زينب، وجندب بن زهير، وأبو حبيبة الغفاري، والصعب بن جثامة؛ فأخبروا عثمان خبره فقال عبد الرحمن بن عوف: ما له؟ أجن؟ قالوا: لا، ولكنه سكر، قال: فأوعدهم عثمان وتهددهم، وقال لجندب:

---

(١) الغدير: ٨/ ١١٦.

أنت رأيت أخي يشرب الخمر؟ قال: معاذ الله، ولكني أشهد إني رأيته سكران يقسلها من جوفه، وإني أخذت خاتمه من يده وهو سكران لا يعقل.

قال أبو إسحاق: فأتى الشهود عائشة فأخبروها بما جرى بينهم وبين عثمان، وإن عثمان زبرهم، فنادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود.

وقال الواقدي: وقد يقال: إن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً، فأتوا علياً فشكوا ذلك إليه، فأتى عثمان فقال: عطلتَ الحدود وضربتَ قوماً شهدوا على أخيك فقلبتَ الحكم، وقد قال عمر: لا تحمل بني أمية وآل أبي معيط خاصة على رقاب الناس. قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعزله ولا توليه شيئاً من أمور المسلمين، وأن تسأل عن الشهود فإن لم يكونوا أهل ظنة ولا عداوة أقمت على صاحبكَ الحد.

قال: ويقال: إن عائشة أغلظَتْ لعثمان وأغلظَ لها وقال: وما أنت وهذا؟ إنما أمرت أن تقري في بيتك. فقال قوم مثل قوله: وقال آخرون: ومن أولى بذلك منها، فاضطربوا بالنعال، وكان ذلك أول قتالٍ بين المسلمين بعد النبي ﷺ...][1].



ـ ٤ ـ

## توسيع عثمان للمسجد الحرام رغماً عن جيران المسجد

[قال الطبري في تاريخه ج ٥: ٤٧ في حوادث سنة ٢٦ الهجرية: وفيها زاد

(١) الغدير: ٨/ ١٢٠.

عثمان في المسجد الحرام ووسعه وابتاع من قومٍ، وأبى آخرون، فهدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصاحوا بعثمان، فأمر بهم الحبس، وقال: أتدرون ما جرأكم عليَّ؟ ما جرأكم عليَّ إلا حِلمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به. ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد ابن أسيد فأُخرِجُوا، وذكره هكذا اليعقوبي في تاريخه: ٢/ ١٤٢، وابن الأثير في الكامل: ٣/ ٣٦، وأخرج البلاذري في الأنساب: ٥/ ٣٨ من طريق مالك عن الزهري قال: وسّع عثمان مسجد النبي ﷺ فأنفق عليه من ماله عشرة آلاف درهم، فقال الناس: يوسع مسجد رسول الله ويغير سنته][1].

ملاحَظة:

كأنّ عثمان بن عفّان لم يكن يرى لليد ناموساً مطّرداً في الإسلام، ولا للمُلكِ والمالكيّة قيمة ولا كرامة في الشريعة المقدَّسة، وكأنّه لم يقرع سمعه قول نبيّ العَظَمَة ﷺ: لا يحلُّ مال امرئٍ مسلم إلاّ عن طيب نفس منه.

وفي صحيح إبن حبان: لا يحلّ لمسلِم أنْ يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسٍ منه.

وإنّ من العَجَبِ العُجاب أنّ عثمان نفسه أدرك عهد عمر وزيادته في المسجد، وشاهد محاكمة العباس بن عبد المطلب معه، وإباءه عن إعطاء داره، ومع كلّ هذا لم يكترث عثمان لذلك، بل خالف تلك السنَّة الثابتة، ثمّ احتجّ بفعل عمر وهيبة الناس، لكنه حلم فلم يهابوه، فهدم دور الناس من دون

---

(١) الغدير: ٨/ ١٢٩.

رضاهم، وسجن مَن حاوره أو فاوضه في ذلك، ووضع الأثمان في بيت المال حتى قال الناس: يوسِّع مسجد رسول الله ويغَيِّر سنَّته.

* * *

## ـ ٥ ـ

## تحريم عثمان لمتعة الحج

[أخرج البخاري في الصحيح بالإسناد عن مروان بن الحكم قال: سمعت عثمان وعلي بين مكة والمدينة وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، فلما رأى ذلك عليٌّ أهلَّ بهما جميعاً قال: لبيك عمرة وحجة معاً قال: فقال عثمان: تراني أنهى الناس عن شئ وتفعله أنت؟ قال: لم أكن لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس.

وفي لفظ أحمد: كنا نسير مع عثمان فإذا رجل يلبي بهما جمعاً قال عثمان: من هذا؟ فقالوا: عليّ. فقال: ألم تعلم أني قد نهيت عن هذا؟ قال: بلى. ولكن لم أكن لأدع قول رسول الله ﷺ لقولك.

وأخرج الشيخان بالإسناد عن سعيد بن المسيب قال: اجتمع عليٌّ وعثمان بعسفان، وكان عثمان ينهى عن المتعة، فقال له عليّ: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه؟ قال: دعنا منك، قال: إني لا أستطيع أن أدعك. فلما رأى ذلك عليّ أهلَّ بهما جميعاً.

وأخرج مسلم من طريق عبد الله بن شقيق قال: كان عثمان ينهى عن المتعة، وكان علي رضي الله عنه يأمر بها، فقال عثمان لعلي كلمة، ثم قال عليّ: لقد علمت أنّا قد تمتَّعنا مع رسول الله ﷺ؟ قال: أجل ولكنّا كنّا خائفين.

راجع صحيح البخاري: ٣/ ٦٩، ٧١، صحيح مسلم: ١/ ٣٤٩، مسند أحمد: ١/ ٩٥، ٦١، سنن النسائي: ٥/ ١٤٨، ١٥٢، سنن البيهقي: ٤/ ٣٥٢، ج٥/ ٢٢، مستدرك الحاكم: ١/ ٤٧٢، تيسير الوصول: ١/ ٢٨٢...][1].

* * *

ـ ٦ ـ

## تعطيل عثمان للقصاص

[أخرج الكرابيسي في أدب القضاء بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب: إن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: لما قتل عمر إني مررت بالهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة وهم نجى فلما رأوني ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فنظروا إلى الخنجر الذي قتل به عمر فإذا هو الذي وصفه فانطلق عبيد الله بن عمر فأخذ سيفه حتى سمع ذلك من عبد الرحمن فأتى الهرمزان فقتله وقتل جفينة بنت أبي لؤلؤة صغيرة وأراد قتل كل سبي بالمدينة فمنعوه، فلما استخلف عثمان قال له عمرو بن العاص: إن هذا الأمر كان وليس لك على الناس سلطان فذهب دم الهرمزان هدراً.

وأخرجه الطبري في تاريخه: ٥/ ٤٢ بتغيير يسير، والمحب الطبري في الرياض: ٢/ ١٥٠، وذكره ابن حجر في الإصابة: ٣/ ٦١٩ وصححه باللفظ المذكور.

---

(١) الغدير: ٨/ ١٣٠.

وذكر البلاذري في الأنساب: ٥/ ٢٤ عن المدائني عن غياث بن إبراهيم: إن عثمان صعد المنبر فقال: أيها الناس إنّا لم نكن خطباء وإن نعش تأتكم الخطبة على وجهها إن شاء الله، وقد كان من قضاء الله إن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان وكان الهرمزان من المسلمين ولا وارث له إلا المسلمون عامة وأنا إمامكم وقد عفوت أفتعفون؟ قالوا: نعم. فقال عليٌّ: أقد الفاسق فإنه أتى عظيماً قتل مسلماً بلا ذنب. وقال لعبيد الله: يا فاسق! لئن ظفرت بك يوماً لأقتلنك بالهرمزان.

وقال اليعقوبي في تاريخه: ٢/ ١٤١: أكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيد الله بن عمر فصعد عثمان المنبر فخطب الناس ثم قال: ألا إني ولي دم الهرمزان وقد وهبته لله ولعمر وتركته لدم عمر. فقام المقداد بن عمرو فقال: إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله. قال: فننظر وتنظرون، ثم أخرج عثمان عبيد الله بن عمر من المدينة إلى الكوفة وأنزل داراً له فنسب الموضع إليه «كويفة ابن عمر» فقال بعضهم:

أبا عمرو! عبيد الله رهن ... فلا تشكك بقتل الهرمزان

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ٦١ بإسناد عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: لما طعن عمر وثب عبيد الله بن عمر على الهرمزان فقتله فقيل لعمر: إن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان. قال: ولم قتله؟ قال: إنه قتل أبي. قيل: وكيف ذلك؟ قال: رأيته قبل ذلك مستخلياً بأبي لؤلؤة وهو أمره بقتل أبي. وقال عمر: ما أدري ما هذا انظروا إذا أنا متّ فاسألوا عبيد الله البيّنة على الهرمزان، هو قتلني؟ فإن أقام البيّنة فدمه بدمي، وإن لم يقم البينة فأقيدوا عبيد الله من الهرمزان. فلما ولي عثمان قيل له: ألا تمضي وصية عمر في عبيد الله؟ قال:

ومن ولي الهرمزان؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين! فقال: قد عفوت عن عبيد الله بن عمر.

وفي طبقات ابن سعد: ٥/ ٨ ـ ١٠ ط ليدن: إنطلق عبيد الله فقتل إبنة أبي لؤلؤة وكانت تدّعي الاسلام، وأراد عبيد الله ألا يترك سبياً بالمدينة يومئذٍ إلا قتله، فاجتمع المهاجرون الأولون فأعظموا ما صنع عبيد الله من قبل هؤلاء، واشتدوا عليه وزجروه عن السبي، فقال: والله لأقتلنهم وغيرهم. يعرض ببعض المهاجرين، فلم يزل عمرو ابن العاص يرفق به حتى دفع إليه سيفه فأتاه سعد فأخذ كل واحدٍ منهما برأس صاحبه يتناصيان، حتى حجز بينهما الناس، فأقبل عثمان وذلك في الثلاثة الأيام الشورى قبل أن يبايع له، حتى أخذ برأس عبيد الله بن عمر وأخذ عبيد الله برأسه ثم حجز بينهما وأظلمت الأرض يومئذ على الناس، فعظم ذلك في صدور الناس وأشفقوا أن تكون عقوبة حين قتل عبيد الله جفينة والهرمزان.

وعن أبي وجزة عن أبيه قال: رأيت عبيد الله يومئذ وإنه ليناصي عثمان وإن عثمان ليقول: قاتلك الله قتلت رجلاً يصلي وصبية صغيرة، وآخر من ذمة رسول الله ﷺ، ما في الحق تركك. قال: فعجبت لعثمان حين ولي كيف تركه؟ ولكن عرفت أنّ عمرو بن العاص كان دخل في ذلك فلفته عن رأيه.

وعن عمران بن مناح قال: جعل سعد بن أبي وقاص يناصي عبيد الله بن عمر حيث قتل الهرمزان وابنة أبي لؤلؤة، وجعل سعد يقول وهو يناصيه:

لا أسد إلا أنت تنهت واحدا ... وغالت أسود الأرض عنك الغوائل

فقال عبيد الله:

تعلم أني لحم ما لا تسيغه ... فكل من خشاش الأرض ما كنت آكلا

فجاء عمرو بن العاص فلم يزل يكلّم عبيد الله، ويرفق به حتى أخذ سيفه منه، وحبس في السجن حتى أطلقه عثمان حين ولي. عن محمود بن لبيد: كنت أحسب إنّ عثمان إنْ ولي سيقتل عبيد الله لما كنت أراه صنع به، كان هو وسعد أشدّ أصحاب رسول الله ﷺ عليه.

وعن المطلب بن عبد الله قال: قال عليّ لعبيد الله بن عمر: ما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين قتلتها؟ قال: فكان رأي عليّ حين استشاره عثمان ورأي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لكن عمرو بن العاص كَلَّمَ عثمان حتى تركه، فكان عليٌّ يقول: لو قدرت على عبيد الله بن عمر ولي سلطان لاقتصصت منه.

وعن الزهري: لَمّا استخلف عثمان دعا المهاجرين والأنصار فقال: أشيروا عَلَيَّ في قتل هذا الذي فتق في الدين ما فتق. فأجمع رأي المهاجرين والأنصار على كلمة واحدة يشجعون عثمان على قتله وقال: جلّ الناس: أبعد الله الهرمزان وجفينة يريدون يتبعون عبيد الله أباه. فكثر ذلك القول، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين! إن هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك سلطان على الناس فاعرض عنه، فتفرق الناس عن كلام عمرو بن العاص.

وعن ابن جريج: إن عثمان استشار المسلمين فأجمعوا على ديتها، ولا يقتل بهما عبيد الله بن عمر، وكانا قد أسلما، وفرض لهما عمر، وكان عليّ بن أبي طالب لما بويع له أراد قتل عبيد الله بن عمر، فهرب منه إلى معاوية بن أبي سفيان، فلم يزل معه فقتل بصفين][1].

* * *

---

(١) الغدير: ٨/ ١٣٢ ـ ١٣٤.

## ـ ٧ ـ

## خليفة جاهل بحكم الجنابة

أخرج مسلم في الصحيح[(١)] بالإسناد عن عطاء بن يسار: إنّ زيد بن خالد الجهني أخبره أنه سأل عثمان بن عفان قال: قلت: أرأيت إذا جامع الرجل امرأته ولم يمنِ؟ قال عثمان: يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ويغسل ذكره، قال عثمان: سمعته من رسول الله ﷺ.

وكذا روى مثله البخاري[(٢)]، وأحمد بن حنبل[(٣)]، والبيهقي[(٤)].

وا عجباه.. من خليفة!! زعم لنفسه مقاماً شامخاً ولا يعرف حكم الجنابة في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣].

قال الشافعي[(٥)]: أوجب الله عزّ وجلّ الغسل من الجنابة فكان معروفاً على لسان العرب أنّ الجنابة الجماع، وإنْ لم يكن مع الجماع ماءٌ دافقٌ، وكذلك ذلك في حدّ الزنا وإيجاب المهر وغيره، وكلّ مَن خوطب بأنّ فلاناً أجنب من

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٤٢.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ١٠٩.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٦٣.

(٤) السنن الكبرى: ١/ ٢٥٤ح٧٧١.

(٥) كتاب الام: ١/ ٣١.

فلانة عقل أنه أصابها وإنْ لم يكن مقترفاً أي وإنْ لم ينزل.

ودلَّت السنَّة على أنّ الجنابة أنْ يفضي الرّجل من المرأة حتى يغيب فرجه في فرجها إلى أنْ يواري حشفته أو أنْ يرى الماء الدافق وإن لم يكن جماعٌ.

وقال في اختلاف الحديث في هامش كتاب الام:

فكان الذي يعرفه من خوطب بالجنابة من العرب أنها الجماع دون الإنزال، ولم تختلف العامّة أنّ الزنا الذي يجب به الحدّ: الجماع دون الإنزال، وأنّ مَن غابت حشفته في فرج امرأة وجب عليه الحدّ، وكان الذي يشبه أنّ الحدّ لا يجب إلاّ على مَن أجنب من حرام. اهـ.

وكيف عزب عن عثمان ـ الذي ادّعى لنفسه الإمامة والخلافة عن رسول الله ﷺ ـ حكم المسألة، وقد كان ثابتاً ومعروفاً في أوساط الصحابة؟!! بل كيف لم يعقل المسألة وقد مرّنته الأسؤلة وعلّمته الجوابات النبويّة وبمسمع منه مذاكرات الصحابة لمّا وعوه عن رسول الله ﷺ والتي منها ما ورد:

(١) عن أبي هريرة مرفوعاً أنّ النبيّ قال: إذا ألزق الختان بالختان فقد وجب الغسل نزل أو لم ينزل[١].

(٢) وعن أبي موسى أنهم كانوا جلوساً فذكروا ما يوجب الغسل، فقال مَنْ حضره من المهاجرين: إذا مسّ الختان الختان وجب الغسل، وقال مَن حضره من الأنصار: لا حتى يدفق، فقال أبو موسى: أنا آتي بالخبر، فقام إلى عائشة

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٠٨، صحيح مسلم: ١/ ١٤٢، سنن الدارمي: ١/ ١٩٤، سنن البيهقي: ١/ ١٦٣، مسند أحمد: ٢/ ٢٣٤، المحلي لإبن حزم: ٢/ ٣، مصابيح السنة: ١/ ٣٠، تفسير القرطبي: ٥/ ٢٠٠، تفسير الخازن: ١/ ٣٧٥.

فسلّم ثمّ قال: إني أريد أنْ أسألك عن شيء وأنا أستحييك، فقالت: لا تستحي أنْ تسألني عن شيءٍ كنتَ سائلاً عنه أمّك التي ولدتكَ، إنما أنا أمّك، قال: قلت: ما يوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقَطْتَ، قال رسول الله: إذا جلس بين شعبها الأربع ومسّ الختان الختان وجب الغسل[1].

(٣) عن عائشة قالت: إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل، فعلته أنا ورسول الله.

قال العلاّمة الأميني ﵀: [وكأنّ الخليفة كان بمنتأى عن هذه الأحاديث فلم يسمعها ولم يعها، أو أنه سمعها لكنه ارتأى فيها رأيا تجاه السنة المحققة، أو إنه أدرك من أوليات الإسلام ظرفاً لم يشرع فيه حكم الغسل وهو المراد مما زعم إنه سمعه من رسول الله فحسب إنه مستصحب إلى آخر الأبد حيث لم يتحر التعلم، ولم يصخ إلى المحاورات الفقهية حتى يقف على تشريع الحكم إلى أن تقلد الخلافة على من يعلم الحكم وعلى من لا يعلمه، فألهته عن الأخذ والتعلم، ثم إذا لم يجد منتدحاً عن الفتيا في مقام السؤال فأجاب بما ارتآه أو بما علق على خاطره منذ دهرٍ طويلٍ قبل تشريع الحكم.

أو إنه كان سمع حكما منسوخا وعزب عنه ناسخه بزعم من يرى إن قوله ﷺ الماء من الماء وما يشابهه في المعنى من قوله: إذا أعجلت أو أقحطت فلا غسل عليك وعليك الوضوء، قد نسخ بتشريع الغسل إن كان الاجتزاء بالوضوء فحسب حكماً لموضوع المسألة، وكان قوله ﷺ: الماء من الماء وارداً في

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٤٣، مسند أحمد: ٦/ ١١٦، الموطأ لمالك: ١/ ٥١، الام الشافعي: ١/ ٣١، سنن البيهقي: ١/ ١٦٤، المحلّى لإبن حزم: ٢/ ٢، المصابيح للبغوي: ١/ ٣٢.

الجماع، وأما على ما ذهب إليه ابن عباس من إنه ليس منسوخاً بل المراد به نفي وجوب الغسل بالرؤية في النوم إذا لم يوجد احتلام، كما هو صريح قوله ﷺ: إن رأى احتلاماً ولم ير بللاً فلا غسل عليه، فمورد سقوط الغسل أجنبي عن المسألة هذه فلا ناسخ ولا منسوخ][1].

* * *

ـ ٨ ـ

## تشريع عثمان لزكاة الخيل

[أخرج البلاذري في الأنساب: ٥/ ٢٦ بالإسناد من طريق الزهري: إن عثمان كان يأخذ من الخيل الزكاة فأنكر ذلك من فعله وقالوا: قال رسول الله ﷺ: عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق.

وقال ابن حزم في المحلى: ٥/ ٢٢٧: قال ابن شهاب: كان عثمان بن عفان يصدق الخيل.

وأخرجه عبد الرزاق عن الزهري كما في تعاليق الآثار للقاضي أبي يوسف ص ٨٧.

قال الأميني: ليت هذه الفتوى المجردة من الخليفة كانت مدعومة بشئ من كتاب أو سنة، لكن من المأسوف عليه إن الكتاب الكريم خال عن ذكر زكاة الخيل، والسنة الشريفة على طرف النقيض مما أفتى به، وقد ورد فيما كتبه رسول الله ﷺ في الفرائض قوله: ليس في عبدٍ مسلمٍ ولا في فرسه شئ.

---

(١) الغدير: ٨/ ١٤٦.

وجاء عنه ﷺ قوله: عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق.

وفي لفظ ابن ماجة: قد تجوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق.

وقوله: ليس على المسلم صدقة في عبده ولا في فرسه.

وفي لفظ البخاري: ليس على المسلم في فرسه وغلامه صدقة.

وفي لفظ له: ليس على المسلم صدقة في عبده وفرسه.

وفي لفظ مسلم: ليس على المسلم في عبده ولا في فرسه صدقة.

وفي لفظ له: ليس على المرء المسلم في فرسه ولا مملوكه صدقة.

وفي لفظ أبي داود: ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر في الرقيق.

وفي لفظ الترمذي: ليس على المسلم في فرسه ولا في عبده صدقة.

وفي لفظ النسائي: كلفظ مسلم الأول.

وفي لفظ له: لا زكاة على الرجل المسلم في عبده ولا في فرسه.

وفي لفظ له: ليس على المرء في فرسه ولا في مملوكه صدقة.

وفي لفظ: ليس على المسلم صدقة في غلامه ولا في فرسه.

ولفظ ابن ماجة كلفظ مسلم الأول.

وفي لفظ أحمد: ليس في عبد الرجل ولا في فرسه صدقة.

وفي لفظ البيهقي: لا صدقة على المسلم في عبده ولا في فرسه.

وفي لفظ عبد الله بن وهب في مسنده: لا صدقة على الرجل في خيله ولا في رقيقه.

وفي لفظ ابن أبي شيبة: ولا في وليدته.

وفي رواية للطبراني في الكبير والبيهقي في السنن: ٤/ ١١٨ من طريق عبد الرحمن ابن سمرة: لا صدقة في الكسعة والجبهة والنخة[1].

ومن طريق أبي هريرة: عفوت لكم عن صدقة الجبهة والكسعة والنخة[*].

راجع صحيح البخاري: ٣/ ٣٠ ـ ٣١، صحيح مسلم١/ ٣٦١، صحيح الترمذي: ١/ ٨٠، سنن أبي داود: ١/ ٢٥٣، سنن ابن ماجة: ١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦، سنن النسائي: ٥/ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧، سنن البيهقي: ٤/ ١١٧، مسند أحمد: ١/ ٦٢ ـ ١٢١ ـ ١٣٢ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٨، ج ٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٩ ـ ٢٧٩ ـ ٤٠٧ ـ ٤٣٢، كتاب الأم للشافعي: ٢/ ٢٢، موطأ مالك: ١/ ٢٠٦، أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ١٨٩، المحلى لابن حزم: ٥/ ٢٢٩، عمدة القاري للعيني: ٤/ ٣٨٣.

ولو كان في الخيل شئ من الزكاة لوجب أن يذكر في كتاب رسول الله ﷺ الذي فصل فيه الفرايض تفصيلاً، وقد أعطاه كبرنامج يعمل به في الفرايض وعليه كان عمل الصحابة، ومنه أخذ أبو بكر ما كتبه دستوراً يعوَّل عليه في الصدقات، وكان مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يهتف بتلك السنَّة الثابتة، وعليها كان عمله عليه السلام، وعليها أصفقت الصحابة وجرت الفتيا من التابعين، وبها قال عمر بن عبد العزيز، وسعيد بن المسيب، و عطاء، ومكحول، والشعبي، والحسن، والحكم بن عتيبة، وابن سيرين، والثوري، والزهري، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأهل الظاهر، وأبو يوسف، ومحمد ابن الحنفية.

---

(١) الجبهة: الخيل، الكسعة: البغال والحمير، النخة: المربّيات في البيوت.

(*) الجبهة: الخيل، والكسعة: البغال والحمير، والنخة: المربيات في البيوت.

وقال ابن حزم: وذهب جمهور الناس إلى أن لا زكاة في الخيل أصلا. وقال مالك والشافعي، وأحمد، وأبو يوسف، ومحمد، وجمهور العلماء: لا زكاة في الخيل بحال. ا هـ ][1].

* * *

ـ ٩ ـ

## تشريع عثمان خطبة العيدين قبل الصلاة

ذكر السيوطي[2]: إنّ أوّل مَن خطب في العيدين قبل الصلاة عثمان.

وقال إبن حجر[3]: روى إبن المنذر عن عثمان بإسنادٍ صحيح إلى الحسن البصري قال: أول مَن خطب قبل الصلاة عثمان، صلّى بالناس ثمّ خطبهم فرأى ناساً لم يدركوا الصلاة، ففعل ذلك أي صار يخطب قبل الصلاة.

وحيث إنّ الثابت في السنَّة الشريفة هو تقديم الصلاة على الخطبة لكنّ عثمان حرّفها لمصلحةٍ ارتآها.

قال الترمذي: والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي وغيرهم أنّ صلاة العيدين قبل الخطبة، ويقال: إنّ أوّا مَن خطب قبل الصلاة مروان بن الحكم.

---

(١) الغدير: ٨/ ١٥٤ ـ ١٥٦.

(٢) راجع كتاب الأوائل: ١٤٥، وتاريخ الخلفاء: ١١١.

(٣) فتح الباري: ٢/ ٣٦١.

وإليكَ جملة مما ورد فيها:

ـ [١ ـ عن إبن عباس قال: أشهد على رسول الله ﷺ إنه صلّى يوم فطر أو أضحى قبل الخطبة ثم خطب.

صحيح البخاري: ٢/ ١١٦، صحيح مسلم: ١/ ٣٢٥، سنن أبي داود: ١/ ١٧٨، ١٧٩، سنن إبن ماجة: ١/ ٣٨٥، سنن النسائي: ٣/ ١٨٤، سنن البيهقي: ٣/ ٢٩٦.

٢ ـ عن عبد الله بن عمر قال: كان النبي ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر يصلّون العيدين قبل الخطبة. وفي لفظ الشافعي: إن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يصلّون في العيدين قبل الخطبة، وفي لفظ للبخاري: إن رسول الله ﷺ كان يصلّي في الأضحى والفطر ثم يخطب بعد الصّلاة.

صحيح البخاري: ٢/ ١١١ ـ ١١٢، صحيح مسلم: ١/ ٣٢٦، موطأ مالك: ١/ ١٤٦، مسند أحمد: ٢/ ٣٨، كتاب الأم للشافعي: ١/ ٢٠٨، سنن إبن ماجة: ١/ ٣٨٧، سنن البيهقي: ٣/ ٢٩٦، سنن الترمذي: ١/ ٧٠، سنن النسائي: ٣/ ١٨٣، المحلى لإبن حزم: ٥/ ٨٥، بدايع الصنايع: ١/ ٢٧٦.

٣ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يخرج يوم العيدين فيصلّي بالناس ركعتين ثم يسلّم فيقف على رجليه... إلخ.

سنن إبن ماجة: ١/ ٣٨٩، المدونة الكبرى لمالك: ١/ ١٥٥، سنن البيهقي: ٣/ ٢٩٧.

٤ ـ عن عبد الله بن السائب قال: حضرت العيد مع رسول الله ﷺ فصلّى

بنا العيد ثم قال: قد قضينا الصّلاة فمن أحب أن يجلس للخطبة فليجلس، ومن أحب أن يذهب فليذهب.

سنن إبن ماجة: ١/ ٣٨٦، سنن أبي داود: ١/ ١٨٠، سنن النسائي: ٣/ ١٨٥، سنن البيهقي: ٣/ ٣٠١، المحلى: ٥/ ٨٦.

٥ ـ عن جابر بن عبد الله قال: إن النبيﷺ قام يوم الفطر فصلّى فبدأ بالصّلاة قبل الخطبة ثم خطب الناس.

صحيح البخاري: ٢/ ١١١، صحيح مسلم: ١/ ٣٢٥، سنن أبي داود: ١/ ١٧٨، سنن النسائي: ٣/ ١٨٦، سنن البيهقي: ٢/ ٢٩٦ ـ ٦٩٨.

٦ ـ عن إبن عباس وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك: إن رسول اللهﷺ كان يصلّي قبل الخطبة. المدونة الكبرى: ١/ ١٥٥.

٧ ـ عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول اللهﷺ يوم النحر بعد الصّلاة.

صحيح البخاري: ٢/ ١١٠، سنن النسائي: ٣/ ١٨٥.

٨ ـ عن أبي عبيد مولى إبن أزهر قال: شهدت العيد مع عليّ بن أبي طالب وعثمان محصور فجاء فصلّى ثم انصرف فخطب.

موطأ مالك: ١/ ١٤٧، كتاب الأم للشافعي: ١/ ١٧١ ذكر من طريق مالك شطراً منه.

هذه الأحاديث تكشف عن استمرار رسول اللهﷺ على هذه السنة المرتبة ولم يعزَ إليه غيرها قط، وعلى ذلك مضى الشيخان ومولانا أمير المؤمنين عليعليه السلام وعثمان نفسه ردحاً من أيامه كما جاء في رواية إبن عمر من إن النبيﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يصلّون في العيدين قبل الخطبة وظاهر

هذا اللفظ وإن كان مطلقاً إلاّ أنّ الجمع بينه وبين ما جاء من مخالفة عثمان للقوم وأنه أول من قدّم الخطبة أنّه كان أولاً على وتيرتهم حتى بدا له أن يغير الترتيب ففعل، ويؤيده سكوت إبن عمر نفسه عن عثمان فيما مر ص١٦١ من قوله: كان النبي ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر يصلون العيد قبل الخطبة. فإن كان عثمان أيضاً مستمراً على سيرتهم وسنتهم لذكره ولم يفصل بينهم وبهذا يتأتى الجمع أيضاً بين حديثي إبن عباس من قوله: شهدت العيد مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر فبدؤا بالصّلاة قبل الخطبة. ومن قوله: صلّى رسول الله ﷺ ثم خطب وأبو بكر وعمر وعثمان][1].

وقال إبن حزم[2]: أحدث بنو أميّة تقديم الخطبة قبل الصّلاة، واعتلّوا بأنّ الناس كانوا إذا صلّوا تركوهم، ولم يشهدوا الخطبة، وذلك لأنهم كانوا يلعنون عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان المسلمون يفرّون وحقّ لهم، فكيف وليس الجلوس واجباً؟

وقال ملك العلماء[3]: وإنما أحدث بنو أميّة الخطبة قبل الصلاة لأنهم كانوا يتكلمون في خطبتهم بما لا يحلُّ، وكان الناس لا يجلسون بعد الصلاة لسماعها فأحدثوها قبل الصلاة ليسمعها الناس.

لاشكّ أنّ عثمان أتى ببدعة عندما قدّم الخطبة على الصلاة، وتردّى بالفضيحة، وتجرّأ على تغيير السُنَّة ولعب هو ومَن تقدَّمَه وأقرباؤه كمعاوية ويزيد ومروان. . .بسنن الرسول المصطفى ﷺ حتى الصّلاة، أخرج الشافعي[4] من

---

(١) الغدير: ٨/ ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) المحلّى: ٥/ ٨٦.

(٣) بدايع الصنايع: ١/ ٢٧٦.

(٤) كتاب الام: ١/ ٢٠٨.

طريق وهب بن كيسان قال: رأيتُ إبن الزبير يبدأ بالصلاة قبل الخطبة، ثمّ قال: كلّ سنن رسول الله قد غُيِّرَت حتى الصّلاة.

فما ينقم على عثمان وبقيّة الأمويين إلاّ لأمور بغيضة صدرت منه أهمها أمران: مخالَفة السنّة، والإبتداع بسبّ أمير المؤمنين علي عليه السلام. ولا عجب أنْ بدّل بنو أميّة ـ وعثمان منهم ـ الخطبة المجعولة للموعظة وتهذيب النفوس، إلى ما هو محظور شرعاً أشدّ الحظر من الوقيعة في أمير المؤمنين علي عليه السلام وأوّل المسلِمين، وحامية الدين والإمام المعصوم المطَهَّر بنصّ آية التطهير، ونفس النبي الأقدس بصريح آية المباهَلة، وعدل الثقل الأكبر في حديث الثقلين صلوات الله عليه وآله.

ولا نعجب من عثمان تغييره سنّة الله ورسوله صلى الله عليه وآله بعد الإنكباب على تاريخ حياته، وسيرته المعربة عن نفسيته، فهو وبنو أميّة من شجرةٍ واحدةٍ اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ولكنّ العجب كلّه ممّن يرى هؤلاء وأمثالهم من سماسرة الشهوات والميول عدولاً بما أنهم من الصحابة، والصحابة كلّهم عدول عندهم، وأعجب من هذا أنْ يُحتَج في غير واحدٍ من أبواب الفقه بقول هؤلاء وعملهم، نعم: وافق شنٌ طبقه[1].



---

(١) الغدير: ٨/ ١٦٧، بتصرّف بسيط.

ـ ١٠ ـ

## رأي عثمان في القصاص والدية

[أخرج البيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ٣٣ من طريق الزهري: إن إبن شاس الجذامي قتل رجلاً من أنباط الشام، فرفع إلى عثمان فأمر بقتله، فكلمه الزبير وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فنهوه عن قتله، قال: فجعل ديته ألف دينار، وذكره الشافعي في كتاب الأم: ٧/ ٢٩٣.

وأخرج البيهقي من طريق الزهري، عن سالم، عن إبن عمر: إن رجلاً مسلماً قتل رجلاً من أهل الذمة عمداً، ورفع إلى عثمان فلم يقتله وغلظ عليه الديّة مثل ديّة المسلم.

وقال أبو عاصم الضحاك في الديات ص ٧٦: وممن يرى قتل المسلم بالكافر عمر إبن عبد العزيز، وإبراهيم، وأبان بن عثمان بن عفان، وعبد الله، رواه الحكم عنهم، وممن أوجب ديّة الذمي مثل ديّة المسلم عثمان بن عفان.

قال الأميني: إن عجبي مقسم بين إرادة الخليفة قتل المسلم بالكافر، وبين جعل عقل الكافر مثل ديّة المسلم، فلا هذا مدعوم بحجة، ولا ذلك مشفوعٌ بسنَّة، وأيّ خليفة هذا يزحزحه مثل الزبير المعروف سيرته والمكشوف سريرته عن رأيه في الدماء وينهاه عن فتياه؟ غير إنه يفتي بما هو لدة رأيه الأول في البعد عن السنّة، ويسكت عنه الزبير وأناسٌ نهوا الخليفة عما ارتآه أولاً واكتفوا بحقن دم المسلم وما راقهم مخالفة الخليفة مرة ثانية، وهذه النصوص النبوية صريحة في أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأنّ عقل الكتابي الذمي نصف عقل المسلم، وإليك لفظ تلكم النصوص في المسألتين أما الأولى منهما فقد جاء:

١ ـ عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب عليه السلام: هل عندكم شئ من العلم ليس عند الناس؟ قال: لا والله ما عندنا إلا ما عند الناس إلا أن يرزق الله رجلاً فهماً من القرآن أو ما في هذه الصحيفة، فيها الديات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وفي لفظ الشافعي: لا يقتل مؤمن بكافر. فقال: لا يقتل مؤمنٌ عبدٌ ولا حرٌّ ولا امرأة بكافرٍ في حالٍ أبداً، وكل من وصف الإيمان من أعجمي وأبكم يعقل ويشير بالإيمان ويصلي فقتل كافراً فلا قود عليه، وعليه ديته في ماله حالة، وسواء أكثر القتل في الكفار أو لم يكثر، وسواء قتل كافراً على مال يأخذه منه أو على غير مال، لا يحل والله أعلم قتل مؤمنٍ بكافرٍ بحال في قطع طريق ولا غيره.

راجع صحيح البخاري: ١٠/ ٧٨، سنن الدارمي: ٢/ ١٩٠، سنن إبن ماجة: ٢/ ١٤٥، سنن النسائي: ٨/ ٢٣، سنن البيهقي: ٨/ ٢٨، صحيح الترمذي: ١/ ١٦٩، مسند أحمد: ١/ ٧٩، كتاب الأم للشافعي: ٦/ ٣٣ ـ ٩٢، أحكام القرآن للجصاص: ١/ ١٦٥، الاعتبار لإبن حزم: ص١٩٠، تفسير إبن كثير: ١/ ٢١٠ فقال ذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن الإمام علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يقتل مسلم بكافر، ولا يصحّ حديثٌ ولا تأويلٌ يخالف هذا...

٢ ـ عن قيس بن عباد قال: إنطلقت أنا والأشتر إلى علي فقلنا: هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة؟ قال: لا إلا ما في كتابي هذا. فأخرج كتاباً فإذا فيه: لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده.

أخرجه أبو عاصم في الديات: ص٢٧، وأحمد في المسند: ١/ ١١٩ ـ

١٢٢، وأبو داود في سننه: ٢/ ٢٤٩، والنسائي في سننه: ٨/ ٢٤، البيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ٢٩ ـ ١٩٤، والجصاص في أحكام القرآن: ١/ ٦٥، وإبن حازم في الاعتبار: ص١٨٩، وذكره الشوكاني في نيل الأوطار: ٧/ ١٥٢ وقال:

هو دليلٌ على أن المسلم لا يقاد بالكافر، أما الكافر الحربي فذلك إجماع كما حكاه البحر وأما الذمي فذهب إليه الجمهور لصدق اسم الكافر عليه، وذهب الشعبي والنخعي وأبو حنيفة وأصحابه إلى إنه يقتل المسلم بالذمي. ثم بسط القول في أدلتهم وذيفها بأحسن بيان. فراجع.

٣ ـ عن عائشة قالت: وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ كتابان وفي أحدهما: لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده.

أخرجه أبو عاصم في الديات ص٢٧، والبيهقي في سننه الكبرى: ٨/ ٣٠.

٤ ـ عن معقل بن يسار مرفوعاً: لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده، والمسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم.

أخرجه البيهقي في سننه الكبرى: ٨/ ٣٠.

٥ ـ عن إبن عباس مرفوعاً: لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده.

أخرجه إبن ماجة في سننه: ٢/ ١٤٥.

٦ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمر بن العاصي مرفوعاً: لا يقتل مسلم بكافر.

وفي لفظ أحمد: لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده.

أخرجه أبو عاصم الضحاك في الديات ص٥١، وأبو داود في سننه: ٢/

٢٤٩، وأحمد في مسنده: ٢/ ٢١١، والترمذي في سننه: ١/ ١٦٩، وإبن ماجة في سننه: ٢/ ١٤٥، والجصاص في أحكام القرآن: ١/ ١٦٩ بلفظ أحمد، وذكره الشوكاني في نيل الأوطار: ٧/ ١٥٠ فقال: رجاله رجال الصحيح. وقال في ١٥١:

هذا في غاية الصحة فلا يصحّ عن أحدٍ من الصحابة شئ غير هذا إلاّ ما رويناه عن عمر إنه كتب في مثل ذلك أنْ يقاد به ثم ألحقه كتاباً فقال: لا تقتلوه ولكن اعتقلوه.

٧ ـ عن عمران بن الحصين مرفوعاً: لا يقتل مؤمن بكافر. قال الشافعي في كتاب الأم ٦: ٣٣: سمعت عددا من أهل المغازي، وبلغني عن عدد منهم أنه كان في خطبة رسول الله ﷺ يوم الفتح: لا يقتل مؤمن بكافر. وبلغني عن عمران بن الحصين إنه روى ذلك عن رسول الله ﷺ، أخبرنا مسلم بن خالد عن إبن أبي حسين عن مجاهد وعطاء وأحسب طاووساً والحسن إن رسول الله ﷺ قال في خطبة عام الفتح: لا يقتل مؤمنٌ بكافرٍ.

وأخرجه البيهقي في السنن: ٨/ ٢٩ فقال: قال الشافعي: وهذا عامٌّ عند أهل المغازي أنّ رسول الله ﷺ تكلّم به في خطبته يومَ الفتح وهو يروي عن النبي ﷺ مسنداً من حديث عمر بن شعيب وحديث عمران بن الحصين.

وذكره الشوكاني في نيل الأوطار: ٧/ ١٥٣ فقال: إن السبب في خطبته ﷺ يوم الفتح بقوله: لا يقتل مسلم بكافر. ما ذكره الشافعي في «الأم» حيث قال: وخطبته يوم الفتح كانت بسبب القتيل الذي قتلته خزاعة وكان له عهد فخطب النبي ﷺ فقال: لو قتلت مسلماً بكافر لقتلته به. وقال: لا يقتل مؤمن بكافر. . . إلخ.

٨ ـ عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: لا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده.

أخرجه الجصّاص في أحكام القرآن: ١/ ١٦٥.

(أمّا الثانية) ففيها:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله ﷺ قضى أنَّ عقل أهل الكتابين نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى.

وفي لفظ أبي داود: كانت قيمة الديّة على عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار، ثمانية آلاف درهم، وديّة أهل الكتاب يومئذ النصف من ديّة المسلمين، قال: فكان ذلك كذلك حتى استخلف عمر فقام خطيباً فقال: إن الإبل قد غَلَت. ففرضها عمر على أهل الذّهب ألف دينار. الحديث سنن أبي داود: ٢/ ٢٥١.

وفي لفظ آخر لأبي داود: ديّة المعاهد نصف ديّة الحر: ٢/ ٢٥٧.

وفي لفظ أبي عاصم الضحّاك في الدّيّات ص٥١: ديّة الكافر على النصف من ديّة المسلم، ولا يقتل مسلم بكافر.

قال الخطابي في شرح سنن إبن ماجة في ذيل الحديث: ٢/ ١٤٢: ليس في ديّة أهل الكتاب شيء أثبت من هذا، وإليه ذَهَبَ مالك وأحمد، وقال أصحابُ أبي حنيفة: ديّته كديّة المسلم. وقال الشافعي: ثلث ديّة المسلم. والوجه الأخذ بالحديث ولا بأس بإسناده.

وأخرج النسائي في سننه: ٨/ ٤٥ من طريق عبد الله بن عمر مرفوعاً: عقل الكافر نصف عقل المؤمن. وأخرجه الترمذي في سننه: ١/ ١٦٩.

هذه سنّة رسول الله ﷺ، وإليها ذهب الجمهورُ، وعليها جَرَتِ الفقهاءُ من

المَذَاهِبِ، غير أنَّ لأبي حنيفة شذوذاً عنها في المسألتين أخذاً بما يُعرب عن قُصُورِهِ عن فهمِ السنَّة، وعرفانِ الحديثِ، وفقهِ الكتابِ، وقد ذَكَرَ غير واحدٍ من أعلامِ المذاهب أدلَّته في المقامين وزيَّفها، وبسط القول في بطلانها، وحسبك في المقام كلمة الشافعي في كتاب الأم: ٧/ ٢٩١ فإنه فَصَّلَ القولَ فيها تفصيلاً وجاءَ بفوائدَ جمّة، فراجع، وعمدة ما ركن إليه أبو حنيفة في المسألة الأولى تجاه تلكم الصحاح مرسلة عبد الرحمن بن البيلماني، وقد ضعفها الدارقني وابن حازم في الاعتبار ص١٨٩ وغيرهما، وذَكَرَ البيهقي في سننه: ٨/ ٣٠: باب بيان ضعف الخبر الذي روي في قتل المؤمن بالكافر. وذكر لها طرقاً وزيفها بأسرها][1].



ـ ١١ ـ

## رأي عثمان في القراءة

[قال ملك العلماء في بدايع الصنايع: ١/ ١١١: إن عمر ترك القراءة في المغرب في إحدى الأوليين فقضاها في الركعة الأخيرة وجهر، وعثمان ترك القراءة في الأوليين من صلاة العشاء فقضاها في الأخريين وجهر.

وقال في صفحة ١٧٢: روي عن عمر: إنه ترك القراءة في ركعة من صلاة المغرب فقضاها في الركعة الثالثة وجهر. وروي عن عثمان: إنه ترك السورة في الأولين فقضاها في الأخريين وجهر.

---

(١) الغدير: ٨/ ١٦٧ ـ ١٧٣.

قال الأميني: إن ما ارتكبه الخليفتان مخالف للسنة من ناحيتين، الأولى: الاجتزاء بركعة لا قراءة فيها. والثانية: تكرير الحمد في الأخيرة أو الأخريين بقضاء الفائتة مع صاحبة الركعة، وكلاهما خارجان عن السنة الثابتة لا يتجزأ بالصلاة التي يكونان فيها، أما الناحية الأولى فإليك نبذة مما ورد فيها:

١ ـ عن عبادة بن الصامت مرفوعاً: لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن فصاعداً.

وفي لفظ: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب إمام أو غير إمام.

وفي لفظ الدارمي: من لم يقرأ بأم الكتاب فلا صلاة له.

راجع صحيح البخاري: ١/ ٣٠٢، صحيح مسلم: ١/ ١٥٥، صحيح أبي داود: ١/ ١٣١، سنن الترمذي: ١/ ٣٤ ـ ٤١، سنن النسائي: ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨، سنن الدارمي: ١/ ٢٨٣، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٧٦، سنن البيهقي: ٢/ ٣٨ ـ ٦١ ـ ١٦٤، مسند أحمد: ٥/ ٣١٤ ـ ٣٢١، كتاب الأم: ١/ ٩٣، المحلى لإبن حزم: ٣/ ٢٣٦، المصابيح للبغوي١/ ٥٧ وصححه، المدونة الكبّرى: ١/ ٧٠.

٢ ـ عن أبي هريرة مرفوعاً: لا صلاة لمن لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج، غير تمام.

وفي لفظ: من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج «ثلاثاً» غير تمام.

وفي لفظ الشافعي: كلّ صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج. الحديث.

وفي لفظ أحمد: أيّما صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، ثمّ هي خداج، ثمّ هي خداج.

راجع مسند أحمد: ٢/ ٢٤١ ـ ٢٨٥، كتاب الأم للشافعي: ١/ ٩٣، موطأ مالك: ١/ ٨١، المدونة الكُبّرى: ١/ ٧٠، صحيح مسلم: ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦، سنن أبي داود: ١/ ١٣٠، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٧٧، سنن الترمذي: ١/ ٤٢، سنن النسائي: ٢/ ١٣٥، سنن البيهقي: ٢/ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ١٥٩ ـ ١٦٧، مصابيح السنة ١/ ٥٧.

٣ ـ عن أبي هريرة قال: إن النبيﷺ أمره أن يخرج فينادي: لا صلاة إلا بقرأءة فاتحة الكتاب فما زاد.

أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ٤٢٨، الترمذي في صحيحه: ١/ ٤٢، أبو داود في سننه: ١/ ١٣٠، البيهقي في سننه: ٢/ ٣٧ ـ ٥٩، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢٣٩ وقال: صحيح لا غبار عليه.

٤ ـ عن عائشة مرفوعاً: من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج.

أخرجه أحمد في مسنده: ٦/ ١٤٦ ـ ٢٧٥، وإبن ماجة في سننه: ١/ ٢٧٧. ويوجد في كنز العمال: ٤/ ٩٥ ـ ٩٦ من طريق عائشة، وإبن عمر، وعليّ، وأبي أمامة نقلاً عن أحمد، وإبن ماجة، والبيهقي، والخطيب، وإبن حبان، وإبن عساكر، وإبن عدي.

٥ ـ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: لا صلاة لمن لم يقرأ في كلّ ركعة الحمد وسورة في فريضة أو غيرها. صحيح الترمذي: ١/ ٣٢، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٧٧، كنز العمال: ٥/ ٩٥.

٦ ـ عن أبي سعيد قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وبما تيسر.

سنن البيهقي: ٢/ ٦٠، سنن أبي داود: ١/ ١٣٠، تيسير الوصول: ٢/ ٢٢٣.

٧ ـ عن أبي قتادة قال: إن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعتين الأوليين من الظّهر والعصر بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب.

وفي لفظ مسلم وأبي داود: كان يصلّي بنا فيقرأ في الظّهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين. الحديث.

راجع صحيح البخاري: ٢/ ٥٥، صحيح مسلم: ١/ ١٧٧، سنن الدارمي: ١/ ٢٩٦، سنن أبي داود: ١/ ١٢٨، سنن النسائي: ٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٧٥، سنن البيهقي: ٢/ ٥٩ ـ ٦٣ ـ ٦٦ ـ ١٩٣، مصابيح السنة: ١/ ٥٧ وصحّحه.

٨ ـ عن سمرة بن جندب قال: حفظت سكتتين في الصّلاة. وفي لفظ: حفظت سكتتين عن رسول الله ﷺ: سكتة إذا كَبَّر الإمام حتى يقرأ، وسكتة إذا فرغ من فاتحة الكتاب وسورة عند الركوع.

سنن أبي داود: ١/ ١٢٤، صحيح الترمذي: ١/ ٣٤، سنن الدارمي: ١/ ٢٨٣، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٧٨، سنن البيهقي: ٢/ ١٩٦، مستدرك الحاكم: ١/ ٢١٥، مصابيح السنة: ١/ ٥٦، تيسير الوصول: ٢/ ٢٢٩.

٩ ـ عن رفاعة بن رافع قال: جاء رجل يصلّي في المسجد قريباً من رسول الله ﷺ ثمّ جاء فسلم على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: أعِدْ صلاتك فإنك لم

تصلِّ. فعاد فصلّى كنَحْوِ مما صلّى فقال النبيﷺ: أعِدْ صلاتك فإنك لم تصلِّ. فقال: علِّمْني يا رسول الله كيف أصلّي؟ قال: إذا توجهت إلى القبلة فكَبِّر ثمّ اقرأ بأم القرآن وما شاء الله أن تقرأ، فإذا ركعت فاجعلْ راحتَيك على ركبتَيكَ ومَكِّنْ ركوعكَ وإمداد ظهرك فإذارَفَعت فأقمْ صلبكَ، وارفعْ رأسكَ حتى ترجع العظامُ إلى مفاصِلِها، فإذا سجدْتَ فمَكِّنْ سجودَك فإذارَفَعتَ فاجلسْ على فخذِكَ اليسرى، ثمّ اصنعْ ذلك في كلّ ركعةٍ وسجدةٍ حتى تطمئن. وفي لفظ أحمد: فإذا أتممت صلاتكَ على هذا فقد أتممْتَهَا، وما انتقصتَ من هذا من شيءٍ فإنما تنقُصه من صلاتِكَ.

سنن أبي داود: ١/ ١٣٧، سنن البيهقي: ٢/ ٣٤٥، مسند أحمد: ٤/ ٣٤٠، كتاب الأم للشافعي: ١/ ٨٨، مستدرك الحاكم: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، المحلى لإبن حزم: ٣/ ٢٥٦. وأخرج البخاري مثله من طريق أبي هريرة في صحيحه: ١/ ٣١٤، وكذلك مسلم في صحيحه: ١/ ١١٧، وذكره البيهقي في سننه: ٢/ ٣٧ ـ ٦٢ ـ ١٢٢ نقلاً عن الشيخين.

١٠ ـ عن وائل بن حجر قال: شهدت النبيﷺ وأتي بإناء «إلى أن قال»: فدخل في المحراب فصفّ الناس خلفه وعن يمينه وعن يساره ثمّ رَفَعَ يديه حتى حاذتا شحمة أذنيه ثمّ وضع يمينه على يساره وعند صدره ثمّ افتتح القراءة فجهر بالحمد ثمّ فرغ من سورة الحمد فقال: آمين. حتى سمع مَن خلفه ثمّ قرأ سورة أخرى ثمّ رَفَعَ يديه بالتكبير حتى حاذتا بشحمة أذنيه، ثمّ رَكَعَ فجعل يديه على ركبته «إلى أن قال»: ثمّ صلّى أربع ركعات يفعل فيهن ما فعل في هذه. مجمع الزوائد ٢: ١٣٤.

١١ ـ عن عبد الرحمن بن أبزي قال: ألا أريكم صلاة رسول الله؟ فقلنا:

بلى: فقام فكَبَّر ثمّ قرأ ثمّ رَكَعَ فوَضَعَ يديه على ركبتيه حتى أَخَذَ كلّ عضوٍ مأَخَذه ثمّ رَفَعَ حتى أَخَذَ كلّ عضوٍ مأَخَذه، ثمّ سَجَدَ حتى أَخَذَ كلّ عضو مأَخَذَه، ثمّ رَفَعَ حتى أَخَذَ كلّ وعضو مأَخَذه، ثمّ سَجَدَ حتى أَخَذَ كلّ عضو مأَخَذَه، ثمّ رَفَعَ فصنع في الركعة الثانية كما صنع في الركعة الأولى. ثمّ قال: هكذا صلاة رسول الله.

أخرجه أحمد في المسند: ٣/ ٤٠٧، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢/ ١٣٠ فقال: رجاله ثقات.

١٢ ـ عن عبد الرحمن بن غنم قال: إن أبا ملك الأشعري قال لقومه: قوموا حتى أصلّي بكم صلاة النبي ﷺ فصففنا خلفه وكَبّر ثمّ قرأ بفاتحة الكتاب فسمع من يليه ثمّ كَبّر فركع ثمّ رَفَعَ رأسه فكَبَّر، فصنع ذلك في صلاته كلها.

(صورة مفصلة بلفظ أحمد):

إن أبا ملك الأشعري جَمَعَ قومه فقال: يا معشر الأشعريين اجتمعوا واجمعوا نساءكم وإبناءكم أعلمكم صلاة النبي ﷺ صلّى لنا بالمدينة. فاجتمعوا وجمعوا نساءهم وإبناءهم فتوضّأ وأراهم كيف يتوضّأ فأحصى الوضوء إلى أماكنه حتى لمّا أنْ فاء الفيء وانكسر الظل قام فأذّن وصفّ الرجال في أدنى الصف، وصفّ الولدان خلفهم، وصفّ النساء خلف الولدان، ثمّ أقام الصّلاة فتقدّم فَرَفَعَ يَدَيْه وكَبَّر فقرأ بفاتحة الكتاب وسورة يسر بهما ثمّ كَبّر فركع فقال: سبحان الله وبحمده. ثلاث مرات ثمّ قال: سمع الله لمن حمده، واستوى قائماً، ثمّ كَبَّر وخر ساجداً، ثمّ كَبَّر فرفع رأسه، ثمّ كَبَّر فسجد، ثمّ كَبَّر فانتهض قائماً، فكان تكبيره في أول ركعة ست تكبيرات وكَبَّر حين قام إلى الركعة الثانية، فلما قضى صلاته أقبل على قومه بوجهه فقال: احفظوا تكبيري وتعلموا

ركوعي وسجودي فإنها صلاة رسول الله ﷺ التي كان يصلّي لنا كذي الساعة من النهار.

أخرجه أحمد في المسند: ٥/ ٣٤٣، وعبد الرزاق والعقيلي كما في كنز العمال: ٤/ ٢٢١، وذكره الهيثمي في المجمع: ٢/ ١٣٠.

١٣ ـ أخرج أبو حنيفة وأبو معاوية وإبن فضيل وأبو سفيان عن أبي نضرة عن سعيد عن النبي عليه السلام قال: لا تجزي صلاة لمن لم يقرأ في كلّ ركعة بالحمد لله وسورة في الفريضة وغيرها. أحكام القرآن للجصاص: ١/ ٢٣.

١٤ ـ عن أنس بن مالك: كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يستفتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين. كتاب الأم للشافعي: ١/ ٩٣.

١٥ ـ عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: من السنة أن يقرأ الإمام في الركعتين الأوليين من صلاة الظّهر بأمّ الكتاب وسورة سرّاً في نفسه، وينصت من خلفه ويقرأون في أنفسهم ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب في كلّ ركعة ويستغفر الله ويذكره ويفعل في العصر مثل ذلك.

بهذا اللفظ حكاه السيوطي عن البيهقي كما في كنز العمال: ٤/ ٢٥١ وفي السنن الكُبّرى للبيهقي: ٢/ ١٦٨ لفظه: إنه كان يأمر أو يحث أن يقرأ خلف الإمام في الظّهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة، وفي الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب. وقريباً من هذا اللفظ أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٢٣٩.

١٦ ـ عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يفتتح الصّلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين.

راجع صحيح مسلم: ١/ ١٤٢، سنن أبي داود: ٢/ ١٢٥، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٧١، سنن البيهقي: ٢/ ١١٣.

١٧ ـ عن أبي هريرة قال: في كلّ الصّلاة يقرأ، فما أسمعنا رسول الله ﷺ أسمعناكم، وما أخفى علينا أخفينا عليكم. وفي لفظ: في كلّ صلاة قراءة.

مسند أحمد: ٢/ ٣٤٨، صحيح مسلم: ١/ ١١٦، سنن أبي داود: ١/ ١٢٧، سنن النسائي: ٢/ ١٦٣، سنن البيهقي: ٢/ ٤٠ عن مسلم، وفي ص٦١ عن البخاري، تيسير الوصول: ٢/ ٢٢٨.

١٨ ـ عن أبي هريرة قال: إن النبي ﷺ كان يفتتح القراءة بالحمد لله رب العالمين.

أخرجه إبن ماجة في سننه: ١/ ٢٧١. وأخرجه الدارمي من طريق أنس بن مالك مع زيادة في سننه: ١/ ٨٣، والنسائي في سننه: ٢/ ١٣٣، والشافعي في كتاب الأم: ١/ ٩٣.

١٩ ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو بن العاصي مرفوعاً: كلّ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج. وفي لفظ أحمد: فهي خداج، ثمّ هي خداج، ثمّ هي خداج.

أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ٢٠٤ ـ ٢١٥، وإبن ماجة في سننه: ١/ ٢٧٨.

٢٠ ـ أخرج أبو داود في سننه ١: ١١٩ من طريق عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ إنه كان إذا قام إلى الصّلاة كَبَّر ورفع يديه حذو منكبيه، و يصنع ذلك إذا قضى قراءته وإذا أراد أن يركع.

٢١ ـ كان أبو حميد الساعدي في عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو قتادة فقال أبو حميد: أنا أعلَمُكُم بصلاة رسول الله ﷺ، كان رسول الله إذا قام إلى الصّلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثمّ يقرأ حتى يقر كلّ عظم في موضعه معتدلاً ثمّ يقرأ ثمّ يكَبِّر فيرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثمّ يركع «ثمّ ذكر كيفية الركوع والسجدتين» فقال: ثمّ يصنع في الركعة الأخرى مثل ذلك.

سنن أبي داود: ١/ ١١٦، سنن الدارمي: ١/ ٣١٣، سنن إبن ماجة: ١/ ٢٨٣ و ذكر شطرا منه، سنن البيهقي: ٢/ ٧٢، مصابيح السنة: ١/ ٥٤.

٢٢ ـ عن جابر بن عبد الله قال: يقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة وفي الأخريين بفاتحة الكتاب. قال: وكنا نحدِّث أنّه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب فما فوق ذاك. وفي لفظ الطبراني: سنة القراءة في الصّلاة أن يقرأ في الأوليين بأم القرآن وسورة، وفي الأخريين بأم القرآن.

سنن البيهقي: ٢/ ٦٣ فقال: وروينا ما دلّ على هذا عن عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعائشة. وأخرجه إبن أبي شيبة كما في كنز العمال: ٤/ ٢٠٩ ـ ٢٥٠، ورواه الطبراني باللفظ المذكور كما في مجمع الزوائد: ٢/ ١١٥.

٢٣ ـ عن جابر بن عبد الله: من صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء إمام. صحيح الترمذي: ١/ ٤٢، وصححه، موطأ مالك: ١/ ٨٠، المدونة الكبرى لمالك: ١/ ٧٠، سنن البيهقي: ٢/ ١٦٠، تيسير الوصول: ٢/ ٢٢٣.

٢٤ ـ عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: من صلّى مكتوبة أو سبحة فليقرأ بأم القرآن وقرآن معها، ومن صلّى صلاة لم يقرأ فيها فهي خداج. ثلاثاً.

أخرجه عبد الرزاق كما في كنز العمال: ٤/ ٩٦ وحسَّنه.

٢٥ ـ عن أبي هريرة مرفوعاً: لا تجزئ صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب.

وفي لفظ الدار قطني وصححه: لا تجزئ صلاة لا يقرأ الرجل فيها فاتحة الكتاب. وفي لفظ أحمد: لا تقبل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب.

كنز العمال: ٤/ ٩٦ نقلاً عن جَمَعَ من الحفاظ.

٢٦ ـ عن أبي الدرداء: إقرأ في الركعتين الأوليين من الظّهر والعصر والعشاء الآخرة في كلّ ركعة بأمّ القرآن وسورة، وفي الركعة الآخرة من المغرب بأمّ القرآن. كنز العمال: ٤/ ٢٠٧.

٢٧ ـ عن حسين بن عرفطة مرفوعاً: إذا قمت في الصّلاة فقل: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين. حتى تختمها، قل هو الله أحد إلى آخرها. أخرجه الدار قطني كما في كنز العمال: ٤/ ٩٦.

٢٨ ـ عن إبن عباس: لا تصلين صلاة حتى تقرأ بفاتحة الكتاب وسورة، ولا تدع أن تقرأ بفاتحة الكتاب في كلّ ركعة. أخرجه عبد الرزاق في الكنز: ٤/ ٢٠٨.

٢٩ ـ عن إبن سيرين قال: إن إبن مسعود كان يقرأ في الظّهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة في كلّ ركعة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب.

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢/ ١١٧ فقال: رجاله ثقات إلا أن إبن سيرين لم يسمع من إبن مسعود.

٣٠ ـ عن زيد بن ثابت قال: القراءة سنة لا تخالف الناس برأيك. أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد: ٢/ ١١٥.

هذه سنة نبيّ الاسلام في قراءة الفاتحة في كلّ ركعة من الفرائض والنوافل وعلى هذه فتاوى أئمة المذاهب][1].

* * *

ـ ١٢ ـ

## رأي عثمان في صلاة المسافر

[أخرج أبو عبيد في الغريب وعبد الرزاق والطحاوي وابن حزم عن أبي المهلب قال: كتب عثمان: إنه بلغني أنّ قوماً يخرجون إمّا لتجارة أو لجباية أو لحشرية يقصّرون الصّلاة وإنما يقصّر الصّلاة مّن كان شاخصاً أو بحضرة عدوٍّ.

ومن طريق قتادة عن عياش المخزومي: كتب عثمان إلى بعض عماله: إنه لا يصلي الركعتين المقيم ولا البادي ولا التاجر، إنما يصلي الركعتين من معه الزاد والمزاد.

وفي لفظ إبن حزم: إن عثمان كتب إلى عماله: لا يصلي الركعتين جاب ولا تاجر ولا تان[2] إنما يصلي الركعتين. الخ.

وفي لسان العرب: في حديث عثمان أنه قال: لا يغرنكم جشركم من صلاتكم

---

(١) الغدير: ٨/ ١٧٣ ـ ١٨٠.

(٢) التناية: الفلاحة والزراعة.

فإنما يقصر الصّلاة من كان شاخصاً أو يحضره عدو. قال أبو عبيد: الجشر القوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى، ويبيتون مكانهم ولا يأوون إلى البيوت.

وفي هامش سنن البيهقي: ٣/ ١٣٧: شاخصاً: يعني رسولا في حاجة، وفي النهاية: شاخصاً: أي مسافراً ومنه حديث أبي أيوب: فلم يزل شاخصاً في سبيل الله. قال الأميني: من أين جاء عثمان بهذا القيد في السفر؟ والأحاديث المأثورة في صلاته مطلقات كلها كما أوقفناك عليها في ص ١١١ ـ ١١٥، وقبلها عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ولأبي حنيفة وأصحابه والثوري وأبي ثور في عموم الآية نظر واسع لم يخصوه بالمباح من السفر بل قالوا بأنه يعم سفر المعصية أيضاً كقطع الطريق والبغي كما ذكره إبن حزم في المحلى: ٤/ ٢٦٤، والجصاص في أحكام القرآن: ٢/ ٣١٢، وابن رشد في بداية المجتهد: ١/ ١٦٣، وملك العلماء في البدايع: ١/ ٩٣، والخازن في تفسيره: ١/ ٤١٣.

وليس لحضور العدو أي دخل في القصر والاتمام وإنما الخوف وحضور العدو لهما شأن خاص في الصلوات، وأحكام تخص بهما، وناموس مقرر لا يعدوهما.

فمقتضى الأدلة كما ذهبت إليه الأمة جمعاء: إن التاجر والجابي والتاني والجشرية وغيرهم إذا بلغوا مبلغ السفر فحكمهم القصر، فهم وبقية المسافرين شرع سواء، وإلا فهم جميعاً في حكم الحضور يتمّون صلاتهم من دون أيّ فرق بين الأصناف، وليس تفصيل الخليفة إلا فتوىً مجرّدة ورأياً يخص به، وتقوُّلاً لا يُؤبَه له تجاه النصوص النبوية، وإطباق الصحابة، واتفاق الأمة، وتساند الأئمة والعلماء، وإنما ذكرناه هنا لإيقافك على مبلغ الرجل من الفقاهة، أو

تسرعه في الفتيا من غير فحص عن الدليل، أو أنه عرف الدليل لكنه لم يكترث له وقال قولاً أمام قول رسول الله ﷺ.

كناطح صخرة يوماً ليقلعها فلم يضرها فأوهى قرنه الوعل

على أن التاجر جاء فيه ما أخرجه إبن جرير الطبري وغيره من طريق علي كرم الله وجهه قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصّروا من الصّلاة.

وأخرج أبو بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن الأعمش عن إبراهيم قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله! إني رجل تاجر أختلف إلى البحرين فأمره أن يصلي بركعتين][1].



ـ ١٣ ـ

## رأي عثمان في الإحرام قبل الميقات

[أخرج البيهقي في السنن الكبرى: ٥/ ٣١ بالإسناد عن داود بن أبي هند إن عبد الله بن عامر بن كريز حين فتح خراسان قال: لأجعلنّ شكري لله أن أخرجَ من موَضعي محرِماً فأحرم من نيسابور فلمّا قدم على عثمان لامَه على ما صنع قال: ليتك تضبط من الوقت الذي يحرم منه الناس.

---

(١) الغدير: ١٨٥ ـ ١٨٦.

لفظ آخر من طريق محمد بن إسحاق قال: خرج عبد الله بن عامر من نيسابور معتمراً قد أحرم منها، وخلف على خراسان الأحنف بن قيس، فلما قضى عمرته أتى عثمان إبن عفان وذلك في السنة التي قتل فيها عثمان فقال له عثمان: لقد غررت بعمرتك حين أحرمت من نيسابور.

وقال إبن حزم في المحلى: ٧/ ٧ ٧: روينا من طريق عبد الرزاق نامعمر عن أيوب السختياني عن محمد بن سيرين قال: أحرم عبد الله بن عامر من حيرب فقدم عثمان بن عفان فلامه فقال له: غررت وهان عليك نسكك.

وفي لفظ إبن حجر: غررت بنفسك. فقال إبن حزم: قال أبو محمد (يعني نفسه): وعثمان لا يعيب عملاً صالحاً عنده ولا مباحاً وإنما يعيب ما لا يجوز عنده لا سيما وقد بين إنه هوان بالنسك والهوان بالنسك لا يحلّ وقد أمر الله تعالى بتعظيم شعائر الحج.

وذكره إبن حجر في الإصابة: ٣/ ٦١ وقال: أحرم إبن عامر من نيسابور شكراً لله تعالى وقدم على عثمان فلامه على تغريره بالنسك. فقال: كره عثمان أن يحرم من خراسان أو كرمان، ثم ذكر الحديث من طريق سعيد بن منصور وأبي بكر إبن أبي شيبة وفيه: أنّ إبن عامر أحرم من خراسان. فذكره من طريق محمد بن سيرين والبيهقي فقال: قال البيهقي: هو عن عثمان مشهور. وذكر هذه كلّها في تهذيب التهذيب: ٥/ ٢٧٣ غير كلمة البيهقي في شهرة الحديث وفي تيسير الوصول: ١/ ٢٦٥: عن عثمان: إنه كره أن يحرم الرجل من خراسان وكرمان. أخرجه البخاري في ترجمته.

ملاحظة: الثابت بالأخبار جواز الإحرام على الميقات، وهذه المواقيت حدّ للأقل من مدى الاحرام بمعنى إنه لا يعدوها الحاج وهو غير محرم، وأما الإحرام

قبلها من أي البلاد شاء أو من دويرة أهل المحرم، فإن عقده باتخاذ ذلك المحلّ ميقاتاً فلا شك إنه بدعة محرَّمة كتأخيره عن المواقيت، وأما إذا جئ به للاستزادة من العبادة عملاً بإطلاقات الخير والبرّ، أو شكراً على نعمة، أو لنذر عقده المحرم فهو كالصلاة والصوم وبقية القرب للشّكر أو بالنذر أو لمطلق البرّ، تشمله كلّ من أدلة هذه العناوين ولم يرد عنه نهي من الشارع الأقدس.

* * *

ـ ١٤ ـ

## مخالفة عثمان لآية التوريث

[أخرج الطبري في تفسيره: ٤/ ١٨٨ من طريق شعبة عن إبن عبّاس: إنه دخل على عثمان فقال: لِمَ صار الأخوان يردّان الأمّ إلى السّدس وإنّما قال الله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٌ﴾. والأخوان في لسان قومك وكلام قومك ليسا بإخوة؟ فقال عثمان: هل أستطيع نقض أمرٍ كان قبلي وتوارثه الناس ومضى في الأمصار.

وفي لفظ الحاكم والبيهقي: لا أستطيع أن أردّ ما كان قبلي ومضى في الأمصار وتوارث به الناس.

أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٣٣٥ وصحّحه، والبيهقي في سنن الكبرى: ٦/ ٢٢٧، وابن حزم في المحلى: ٩/ ٢٥٨، وذكره الرازي في تفسيره: ٣/ ١٦٣، وابن كثير في تفسيره: ١/ ٤٥٩، والسيوطي في الدر المنثور: ٢/ ١٢٦، والآلوسي في روح المعاني: ٤/ ٢٢٥.

قال الأميني: ما أجاب به الخليفة إبن عباس ينمّ عن عدم تضلّعه في العربيّة مع أنّها لسان قومه، ولو كان له قسط منها لأجاب إبن عباس بصحة إطلاق الجمع على الإثنين وإنه المطّرد في كلام العرب، لا بالعجز عن تغيير ما غلط فيه الناس كلّهم العياذ بالله وما هو ببدعٍ في ذلك عمّن تقدماه يوم لم يعرفا معنى «الأب» وهو من صميم لغة الضّاد ومشروح بما بعده في الذِّكر الحكيم، فإن إطلاق الأخوة على الأخوين قد لهج به جمهور العرب ولذلك لا تجد أي خلاف في حجب الأخوين الأم عن الثلث إلى السّدس بين الصّحابة العرب الأقحاح، والتابعين الذين نزلوا منزلتهم من العربيّة الفصحاء، والفقهاء من مذاهب الإسلام، ولا استنادَ لهم في الحكم إلاّ الآية الكريمة، وما ذلك إلاّ لتجويزهم إطلاق الجمع على الإثنين سواء كان ذلك أقلّه أو توسّعاً مطرداً في الإطلاق.

قال الطبري في تفسيره: ٤/ ١٨٧: قال جماعة أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم من علماء أهل الإسلام في كل زمان: عني الله جل ثناؤه بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾. إثنين كان الأخوة أو أكثر منهما، أنثيين كانتا أو كنّ إناثا، أو ذَكَرَيْن كانا أو ذكوراً، أو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى، واعتلّ كثير ممّن قال ذلك بأن ذلك قالته الأمّة عن بيان الله جلّ ثناؤه على لسان رسول الله ﷺ فنقلته أمّة نبيّه نقلاً مستفيضاً قطع العذر مجيئه، ودفع الشك فيه عن قلوب الخلق وروده (ثم نقل حديث إبن عباس المذكور فقال): والصّواب من القول في ذلك عندي أن المعنيَّ بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾. اثنان من أخوة الميت فصاعداً على ما قاله أصحاب رسول الله ﷺ دون ما قاله إبن عباس لنقل الأمَّة وراثة صحّة ما قالوه من ذلك عن الحجّة وإنكارهم ما قاله إبن عبّاس في ذلك. قال:

فإن قال قائل: وكيف قيل في الأخوين إخوة؟ وقد علمت أن الأخوين في منطق العرب مثالاً لا يشبه مثال الأخوة في منطقها؟ قيل: إن ذلك كان كذلك فإن من شأنها التأليف بين الكلامين بتقارب معنييهما وإن اختلفا في بعض وجوههما فلما كان ذلك كذلك وكان مستفيضاً في منطقها، منتشراً مستعملاً في كلامها: ضربت من عبد الله وعمرو رؤسهما، وأوجعت منهما ظهورهما، وكان ذلك أشد استفاضةً في منطقها من أن يقال: أوجعت منهما ظهرهما، وإن كان مقولاً أوجعت ظهرهما كما قال الفرزدق:

بما في فؤادينا من الشوق والهوى فيبرأ منهاض الفؤاد المشغف

غير أنّ ذلك وإنْ كان مقولاً فأفصح منه بما في أفئدتنا كما قال جلّ ثناؤه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. فلمّا كان ما وصفت من إخراج كل ما كان في الانسان واحداً إذا ضمّ إلى الواحد منه آخر من إنسان آخر فصارا اثنين من اثنين فلفظ الجمع أفصح في منطقها وأشهر في كلامها، وكان الأخوان شخصين كلّ واحد منهما غير صاحبه من نفسين مختلفين أشبه معناها معنى ما كان في الانسان من أعضائه واحداً لا ثاني له، فأخرج أنثييهما بلفظ أنثي العضوين اللذين وصفت، فقيل: إخوة. في معنى الأخوين، كما قيل: ظهور. في معنى الظهرين، وأفواه في معنى فموين، وقلوب في معنى قلبين. وقد قال بعض النحويين إنما قيل: إخوة، لأن أقلّ الجمع اثنان. الخ. ا ه.

وأخرج الحاكم بإسناد صححه في المستدرك: ٤/ ٣٣٥، والبيهقي في السنن: ٦/ ٢٢٧ عن زيد بن ثابت إنّه كان يحجب الأمّ بالأخوين فقال: إن العرب تسمي الأخوين إخوة. وذكره الجصاص في أحكام القرآن: ٢/ ٩٩.

وأخرج إبن جرير في تفسيره: ٤/ ١٨٩ وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن

قتادة في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾. قال: أضرّوا بالأمّ، ولا يرثون ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك. [الدر المنثور: ٢/ ١٢٦].

وذكر الجصاص في أحكام القرآن: ٢/ ٩٨ قول الصحابة بحجب الأخوين الأمّ عن الثلث كالأخوة فقال: والحجة: إن اسم الأخوة قد يقع على الإثنين كما قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. وهما قلبان. وقال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾. ثم قال تعالى: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. فأطلق لفظ الجمع على اثنين. وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. فلو كان أخاً وأختاً كان حكم الآية جارياً فيهما. الخ.

قال مالك في الموطأ: ١/ ٣٣١: فإن كان له إخوة فلامه السدس فمضت السنة أن الأخوة اثنان فصاعداً. وفي عمدة السّالك وشرحه فيض المالك: ٢/ ١٢٢: فإنْ كان معها أي الأمّ ولدٌ أو كان معها ولد إبن ذكر أو أنثى أو كان معها عدد اثنان فأكثر من الأخوة ومن الأخوات فلها السّدس لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾. والمراد بهم اثنان فأكثر إجماعاً.

وقال الشافعي كما في مختصر المزني هامش كتاب الأمّ: ٣/ ١٤٠: وللأمّ الثلث فإن كان للميت ولد أو ولد ولد أو اثنان من الأخوة أو الأخوات فصاعداً فلها السدس.

وقال إبن كثير في تفسيره: ١/ ٤٥٩: حكم الأخوين كحكم الأخوة عند الجمهور ثم ذكر حديث زيد بن ثابت من أنّ أخوين تسمي إخوة.

وقال الشوكاني في تفسيره: ١/ ٣٩٨: قد أجمع أهل العلم على أن الإثنين

من الأخوة يقومون مقام الثلاثة فصاعداً في حجب الأم إلى السّدس. هذا رأي الأمة في الأخوة فقد عزب عن الخليفة صحة الإطلاق في الآية الكريمة في لسان قومه، وإن السّلف لم يعرف من الأخوة معنى إلاّ ما يعمّ الأخوين وزعم أنّ مَن كان قبله شذّوا عن لسان قومه، وذهبوا إلى حجب الأم بالأخوين خلاف كتاب الله، وجاء يأسف على أنه لم يستطع تغيير ما وقع ونقض ما كان من الناس، هذا مبلغ علم الرجل بالكتاب وأدلة الأحكام والفروض المسلّمة بين الأمّة.

وأما إبن عباس فإنّه لم يشذَّ عن لغة قومِهِ وهو من جبهة العرب وعلى سنام قريش ومن بيتٍ هم أفصحُ من نَطَقَ بالضّاد، وإنما أراد باستفهامه من الخليفة أن يعرف الملأ مقداره من أبسط شئ يجب أن يكون في مثله فضلاً عن معضلات المسائل وهو الحيطة باللغة وعرفان موارد الاستعمال حتى يتسنّى له أخذ الحكم من الكتاب والسُّنَّة اللذين جاءا بهذه اللغة الكريمة، ولذلك أتى في قوله بصورة الإستفهام عن مدرك الحكم لا عن أصله، فإنّ الحكم كان مسَلَّماً عنده لا أنّ ما قاله للخليفة كان رأياً له في الخلاف في حجب الأخوين، وإلاّ لتبعه أصحابه المقتصين أثره، لكنهم كلّهم موافقون للأمّة وعلمائها في حجب الأخوين كما ذكره إبن كثير في تفسيره: ١/ ٤٥٩ فَعَدُّ إبن عبّاس مخالفاً في المسألة بهذه الرواية كما فعله الطبري في تفسيره: ٤/ ١٨٨، وابن رشد في البداية: ٢/ ٣٢٧ وغير واحدٍ من الفقهاء وأئمّةِ الحديث ورجال التفسير أغلوطةٌ نشأت من عدم فهم مغزى كلامه][1].

* * *

(١) الغدير: ٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٧.

- ١٥ -

## إتخاذ عثمان الحمى له ولذويه

[لقد جعل الإسلام منابت العشب من مساقط الغيث والمروج كلّها شرعاً سواء بين المسلمين إذا لم يكن لها مالكٌ مخصوصٌ كما هو الأصل في المباحات الأصلية من أجواز الفلوات وأطراف البراري، فترتع فيها مواشيهم وترعى إبلهم وخيلهم من دون أي مزاحمة بينهم، وليس لأيّ أحد أن يحمى لنفسه حمى فيمنع الناس عنه، فقال ﷺ: المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلأ والماء والنار.

وقال: ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار.

وقال: لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ. وفي لفظ: لا تمنعوا فضل الماء لتمنعوا به فضل الكلأ. وفي لفظ: من منع فضل الماء ليمنع به فضل الكلأ منعه الله فضله يوم القيامة، نعم كان في الجاهلية يحمي الشريف منهم ما يروقه من قطع الأرض لمواشيه وإبله خاصّة فلا يشاركه فيه أحد وإنْ شاركهم هو في مراتعهم، وكان هذا من مظاهر التجبّر السّائد عندئذٍ، فاكتسح رسولُ الله ﷺ ذلك فيما اكتسحه من عادات الطواغيت وتقاليد الجبابرة فقال ﷺ: لا حمى إلا لله ولرسوله.

وقال الشافعي في تفسير الحديث: كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره فلم يرعه معه أحد، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله. قال: فنهى النبي ﷺ أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون. قال:

وقوله: إلا لله ولرسوله. يقول: إلاّ ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله وإبل الزكاة كما حمى عمر النقيع لنعم الصدقة والخيل المعدة في سبيل الله.

واستعمل عمر على الحمى مولى له يقال له هنّي فقال له: يا هنّي ضم جناحك للناس، واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مجابة، وادخل رب الصريمة ورب الغنيمة، وإياي ونعم ابن عفان ونعم ابن عوف فإنهما إن تهلك يرجعان إلى نخل وزرع، وإن ربّ الغنيمة والصريمة يأتي بعياله فيقول: يا أمير المؤمنين! أفتاركهم أنا؟ لا أبا لك. الخ.

كان هذا الناموس متسالماً عليه بين المسلمين حتى تقلّد عثمان الخلافة فحمى لنفسه دون إبل الصدقة كما في أنساب البلاذري: ٥/ ٣٧، والسيرة الحلبية: ٢/ ٨٧، أو له ولحكم إبن أبي العاص كما في رواية الواقدي، أو لهما ولبني أمية كلهم كما في شرح ابن أبي الحديد: ١/ ٦٧ قال: حمى (عثمان) المرعى حول المدينة كلّها من مواشي المسلمين كلّهم إلاّ عن بني أمية. وحكى في ص٢٣٥ عن الواقدي أنه قال: كان عثمان يحمي الربذة والشرف والنقيع، فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان، فكان يحمي الشرف لإبله: وكانت ألف بعير ولإبل الحكم بن أبي العاص، ويحمي الربذة لإبل الصدقة، ويحمي النقيع لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية. ا ه.

نقم ذلك المسلمون على الخليفة فيما نقموه عليه وعدَّته عائشة مما أنكروه عليه فقالت: وإنا عتبنا عليه كذا وموضع الغمامة المحماة وضربه بالسّوط والعصا، فعمدوا إليه حتى إذا ماصوه كما يماص الثوب. قال ابن منظور في

ذيل الحديث: الناس شركاء فيما سقته السّماء من الكلأ إذا لم يكن مملوكاً فلذلك عتبوا عليه.

كانت في اتخاذ الخليفة الحمى جدة وإعادة لعادات الجاهلية الأولى التي أزاحها نبيّ الإسلام ﷺ وجعل المسلمين في الكلأ مشتركين، وقال: ثلاثة يبغضهم الله. وعدّ فيهم! مَن استن في الإسلام سنة الجاهلية. وكان حقاً على الرّجل أنْ يحمي حمى الإسلام قبل حمى الكلأ، ويتخذ ما جاء به الرسول ﷺ سنَّة متَّبَعَة ولا يحيي سنَّةَ الجاهلية، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تحويلاً، ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تبديلاً. ولكنّه..][1].

* * *

## ـ ١٦ ـ

## عثمان أهدى فدكاً إلى مروان بن الحكم

[عدَّ إبن قتيبة في المعارف ص٨٤، وأبو الفدا في تاريخه: ١/ ١٦٨ ممّا نقم الناس على عثمان قطعه فدك لمروان وهي صدقة رسول الله، فقال أبو الفدا: وأقطع مروان إبن الحكم فدك وهي صدقة رسول الله ﷺ التي طلبتها فاطمة ميراثاً فروى أبو بكر عن رسول الله ﷺ: نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث ما تركناه صدقه، ولم تزل فدك في يد مروان وبنيه إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز فانتزعها من أهله وردها صدقة.

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى: ٦/ ٣٠١ من طريق المغيرة حديثاً في

(١) الغدير: ٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ـ ٣٥٦.

فدك وفيه: إنها أقطعها مروان لمّا مضى عمر لسبيله. فقال: قال الشّيخ: إنّما أقطع مروان فدكاً في أيّام عثمان بن عفان وكأنّه تأوّل في ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ إذا أطعم الله نبيّاً طعمة فهي للذي يقوم من بعده، وكان مستغنياً عنها بماله فجعلها لأقربائه وَوَصَلَ بها رحمهم، وذَهَبَ آخرون إلى أنّ المراد بذلك التّولية وقطع جريان الإرث فيه، ثمّ تُصْرَف في مصالحِ المسلمين كما كان أبو بكر وعمر يفعلان.

وفي العقد الفريد: ٢/ ٢٦١ في عد ما نقم الناس على عثمان: إنّه أقطع فدك مروان وهي صدقة لرسول الله ﷺ وافتتح أفريقية وأخذ خمسه فوهبه لمروان.

وقال إبن الحديد في شرحه: ١/ ٦٧: وأقطع عثمان مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه تارة بالميراث وتارة بالنحلة فدُفِعَت عنها.

قال الأميني: أنا لا أعرف كُنْهَ هذا الإقطاع وحقيقة هذا العمل فإنّ فدك إنْ كان فيء للمسلمين؟ كما ادّعاه أبو بكر، فما وجه تخصيصه بمروان؟ وإنْ كان ميراثاً لآل رسول الله ﷺ؟ كما احتجت له الصديقة الطاهرة في خطبتها، واحتج له أئمّة الهدى من العترة الطاهرة وفي مقدِّمهم سيّدهم أمير المؤمنين عليه وعليهم السَّلام، فليس مروان منهم، ولا كان للخليفة فيه رَفْعٌ وَوَضْعٌ. وإنْ كان نِحْلَةً من رسول الله ﷺ لبضعته الطاهرة فاطمة المعصومة صلوات الله عليها؟ كما ادّعته وشهد لها أمير المؤمنين وإبناها الإمامان السِّبْطَان وأمّ أيمن المشهود لها بالجنّة فَرُدَّتْ شهادتهم بما لا يرضي الله ولا رسوله، وإذا رُدَّتْ شهادة أهل آية التطهير فبأيّ شيءٍ يُعْتَمَد؟ وعلى أيِّ حجةٍ يُعَوَّل؟.

إنْ دام هـذا ولـم يـحـدث بـه غـيـر   لـم يبـك ميـت ولـم يـفـرح بـمـولـود

فإنْ كان فدك نِحْلَةً؟ فأيُّ مساس بها لمروان؟ وأيّ سلطةٍ عليها لعثمان؟ حتى يقطعها لأحد. ولقد تضاربت أعمال الخلفاء الثّلاثة في أمرِ فدك فانتزَعَهَا أبو بكر من أهلِ البيتِ ﷺ، وردَّها عمر إليهم، وأقطعها عثمان لمروان، ثمَّ كان فيها ما كان في أدوار المستحوذين على الأمر منذ عهد معاوية وهلمّ جرّا فكانت تُؤخَذُ وتُعْطَى، ويفعلون بها ما يفعلون بقضاء من الشّهوات كما فصَّلْناه في الّجزء السّابع ص١٩٥ ـ ١٩٧ ط٣، ولم يعمل برواية أبي بكر في عصر من العصور، فإنْ صانعه الملأ الحضور على سماع ما رواه عن رسول الله ﷺ وحابوه وجاملوه؟ فقد أبطله مَن جاء بعده بأعمالهم وتقلّباتهم فيها بأنحاءٍ مختلفةٍ. بل إنّ أبا بكرٍ نفسه أراد أنْ يبطلَ روايته بإعطاء الصّكّ للزهراء فاطمة غير أن إبن الخطاب منعه وخرق الكتاب كما مر في الجزء السّابع عن السّيرة الحلبية، وبذلك كلّه تعرف قيمة تلك الرّواية ومقدار العمل عليها وقيمة هذا الاقطاع، وسيوافيكَ قولُ مولانا أمير المؤمنين في قطائع عثمان][1].



## ـ ١٧ ـ

## كان يوزع أموال المسلمين لأقربائه

[لم تكن فدك ببدعٍ من سايرِ الأموالِ من الفيء والغنائم والصدقات عند الخليفة بل كان له رأيٌ حُرٌّ فيها وفي مستحقيها، كان يرى المال مال الله،

---

(١) الغدير: ٨/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

ويحسب نفسه وليّ المسلمين، فيضعه حيث يشاء ويفعل فيه ما يريد، فقام كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مالَ الله خضمة الإبل نبتة الربيع.

كان يصل رَحِمَهُ بمالٍ يستوي فيه المسلمون كلّهم، ولكلّ فَرْدٍ من الملأ الدّيني منه حقٌّ معلومٌ للسّائل والمحروم، لا يسوغ في شرعة الحقّ وناموس الإسلام المقدَّس حرمان أحدٍ من نصيبه وإعطاء حقّه لغيره من دون مرضاته.

جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الغنائم: لله خمسه وأربعة أخماس للجّيش، وما أحدٌ أولى به من أحدٍ، ولا السَّهم تستخرجه من جنبِكَ، ليس أنتَ أحقُّ به من أخيكَ المسلم

وكان صلى الله عليه وآله إذا جاءه فيءٌ قسَّمَهُ من يومِه فأعطى ذا الأهل حظّين، وأعطى العزب حظاً. والسُّنَّة الثَّابِتَة في الصدقات أنّ أهل كلّ بيئةٍ أحقّ بصدقتهم ما دام فيهم ذو حاجة، وليست الولاية على الصدقات للجباية وهملها إلى عاصمة الخلافة وإنّما هي للأخذ من الأغنياء والصّرف في فقراء محالّها، وقد ورد في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله معاذاً حين بعثه إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام والصّلاة أنّه قال: فإذا أقرّوا لكَ بذلك فقلْ لهم: إنّ الله قد فَرَضَ عليكم صدقة أموالكم تُؤخَذ من أغنيائكم فتردّ في فقرائكم.

قال عمرو بن شعيب: إنّ معاذ بن جبل لم يزل بالجند إذ بعثه رسول الله إلى اليمن حتى مات النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر ثم قدم على عمر فرده على ما كان عليه فبعث إليه معاذ بثلث صدقة الناس فأنكر ذلك عمر وقال: لم أبعثك جابياً ولا آخذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فتردَّها على فقرائهم. فقال معاذ: ما بعثت إليك بشئ وأنا أجد أحداً يأخذه مني. الحديث.

ومن كتاب لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام إلى قثم بن العبّاس يوم كان عامله على مكة: «وانظرْ إلى ما اجتمعَ عندك من مالِ الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع الفاقة والخلاّت، وما فَضُلَ عن ذلك فاحمله إلينا لنقسِّمَه فيمَن قبلنا»(١).

وقال عليه السلام لعبد الله بن زمعة لمّا قَدِمَ عليه في خلافته يطلب منه مالاً: «إنّ هذا المال ليس لي ولا لك، وإنّما هو فيءٌ للمسلمين وجَلْبُ أسيافهم، فإنْ شركتهم في حربهم كان لك مثل حظِّهم، وإلاّ فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم»(٢).

ومن كلام له عليه السلام: «إنّ القرآن أُنزِلَ على النبي ﷺ والأموال أربعة: أموال المسلمين فَقَسَّمَهَا بين الوَرَثة في الفرائض، والفيء فقسّمه على مستحقّيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها».

وأتى علياً أمير المؤمنين مالٌ من أصبهان فقسَّمَه بسبعةِ أسباعٍ فَفَضُلَ رغيفٌ فكسره بسبعٍ فوضع على كلِّ جزءٍ كَسْرَة ثم أقرع بين الناس أيّهم يأخذ أوّل.

وأتته عليه السلام امرأتان تسألانه عربيَّة ومولاة لها فأمر لكلِّ واحد منها بكرّ من طعام وأربعين درهماً أربعين درهماً، فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت، وقالت العربية يا أمير المؤمنين! تعطني مثل الذي أعطيت هذه وأنا عربية وهي مولاة؟ قال لها علي عليه السلام: إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق.

ولذلك كلّه كانت الصّحابة لا ترتضي من الخليفة الثاني تقديمه بعضاً من

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٢٨.
(٢) نهج البلاغة: ١/ ٤٦١.

الناس على بعضٍ في الأموال بمزيّة معتبرة كان يعتبرها فيمن فضّله على غيره كتقديم زوجات النبيﷺ أمهات المؤمنين على غيرهنّ، والبدريّ على مَن سواه، والمهاجرين على الأنصار، والمجاهدين على القاعدين، من دون حرمان أيّ أحد منهم، وكان يقول على صهوات المنبر: مَن أراد المال فليأتني فإنّ الله جعلني له خازناً.

ويقول بعد قراءة آيات الأموال: والله ما من أحدٍ من المسلمين إلاّ وله حقٌّ في هذا المال أعطِيَ منه أو مُنِع حتى راع بعدن.

ويقول: أبدأ برسول اللهﷺ ثمَّ الأقرب فالأقرب إليه. فوضع الديوان على ذلك.

وفي لفظ أبي عبيد: إنّ رسول الله إمامنا فبرهطه نبدأ، ثمَّ بالأقرب فالأقرب.

وقبل هذه كلّها سُنَّة الله في الذِّكر الحكيم حول الأموال مثل قوله تعالى:

١ ـ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

٣ ـ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٦ ـ ٧].

هذه سُنَّة الله وسُنَّة نبيّه غير أنّ الخليفة عثمان نسي ما في الكتاب العزيز، وشذّ عمّا جاء به النبي الأقدَسْ في الأموال، وخالف سيرة مَن سبقه، وتزحزح عن العدل والنصفة، وقدم أبناء بيته الساقط، أثمار الشجرة الملعونة في كتاب الله، رجال العيث والعبث، والخمور والفجور، من فاسقٍ إلى لعينٍ، إلى حلاف مهين همّازٍ مشّاءٍ بنميم، وفضّلهم على أعضاء الصحابة وعظماء الأمّة الصّالحين، وكان يهب من مال المسلمين لأحدٍ من قرابته قناطير مقنطرة من الذّهب والفضّة من دون أيّ كيلٍ ووزنٍ، ويؤثرهم على مَن سواهم كائناً مَن كان من ذي قربى رسول الله ﷺ وغيرهم. ولم يكن يجرأ أحدٌ عليه بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لمّا كان يرى سيرته الخشنة مع أولئك القائمين بذلك الواجب، ويشاهد فيهم من الهتك والتغريب والضّرب بدرة كانت أشدّ من الدرة العمريّة مشفوعةً بالسّوط والعصا وإليكَ نبذة من سيرة الخليفة في الأموال][1]:

* * *

## ـ ١٨ ـ

### سخاء عثمان على أهل بيته بمال المسلمين

[أنّه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة من بيت مال المسلمين.

نحو ما روي أنّه دفع إلى أربعةٍ من قريش زوّجهم بناته أربعمائة ألف دينار، وأعطى مروان مائة ألف عند فتح إفريقية، ويروى خمُس إفريقية.

(١) الغدير: ٨/ ٢٣٨ ـ ٢٤١.

وروى السيد ﷺ، عن الواقدي بإسناده، قال: قدمت إبلٌ من إبلِ الصَّدَقَة على عثمان فوَهَبَهَا للحارث بن الحكم بن أبي العاص.

وروى أيضا أنّه ولّى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف، فوهبها له حين أتاه بها.

وقد روى أبو مخنف والواقدي جميعاً أنّ النّاس أنكروا على عثمان إعطاءه سعيد بن العاص مائة ألف، فكلّمه عليّ عليه السلام والزّبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن في ذلك، فقال: إنّ لي قرابةً ورحماً. فقالوا: أَمَا كان لأبي بكر وعمر قرابة وذو رحم؟ فقال: إنّ أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي، قالوا: فهداهما والله أحبّ إلينا من هداك.

وقد روى أبو مخنف أنّه لمّا قدم على عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد إبن أبي العاص من مكة وناسٌ معه أمر لعبد الله بثلاثمائة ألف ولكلّ واحدٍ من القوم بمائة ألف، وصكّ بذلك على عبد الله بن الأرقم وكان خازن بيت المال فاستكثره وردّ الصكّ به، ويُقال: إنّه سأل عثمان أن يكتب عليه بذلك كتاب دين فأبى ذلك، وامتنع إبن الأرقم أن يدفع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنّما أنتَ خازن لنا فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنتُ أراني خازناً للمسلمين وإنّما خازنك غلامك، والله لا ألي لك بيت المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المنبر. ويقال: بل ألقاها إلى عثمان، فدفعها عثمان إلى نائل مولاه.

وروى الواقدي أنّ عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت المال إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم، فلمّا دخل بها عليه قال له: يا أبا محمد إنّ أمير المؤمنين أرسل إليك يقول لك إنّا قد شغلناكَ عن

التجارة ولك ذو رحم أهل حاجة، ففرّق هذا المال فيهم، واستعنِ به على عيالك. فقال عبد الله بن الأرقم ما لي إليه حاجة وما عملتُ لأنْ يثيبني عثمان، والله لئن كان هذا من مال المسلمين ما بلغ قدر عملي أن أعطى ثلاثمائة ألف درهم، ولئن كان من مال عثمان ما أحبّ أن أزرأ من ماله شيئاً.

وروى الواقدي، عن أسامة بن زيد، عن نافع مولى الزبير، عن عبد الله ابن الزبير، قال أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقية فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جليلة، فأعطى عثمان مروان بن الحكم تلك الغنائم.

وروى الواقدي، عن عبد الله بن جعفر، عن أمّ بكر بنت المسور، قالت لمّا بنى مروان داره بالمدينة دعا الناس إلى طعامه وكان المسور ممّن دعاه فقال مروان وهو يحدّثهم: والله ما أنفقت في داري هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه.

فقال المسور: لو أكلتَ طعامكَ وسكتَّ كان خيراً لك، لقد غزوت معنا إفريقية وأنّك لأقلّنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفّنا ثقلاً، فأعطاك ابن عمك خُمس إفريقية وعملتَ على الصدقات فأخذتَ أموال المسلمين.

وروى الكلبي، عن أبيه، عن أبي مخنف أنّ مروان ابتاع خُمْسَ إفريقية بمائتي ألف درهم ومائة ألف دينار وكلّم عثمان فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان.

هذا ما أورده السيّد رحمه الله من الأخبار.

وروى المسعودي وغيره من مؤرّخي الخاصّة والعامّة أكثر من ذلك.

وهذا عدول عن سنّة النبيّ ﷺ وسيرة المتقدّمين عليه، وأصل الخروج عن

العدول في القسمة وإن كان من بدع عمر إلاّ أنّ عثمان ترك العدل رأساً بحيث لم يخف بطلانه وتضمّنه للجور العظيم والبدعة الفاحشة على العوامّ أيضاً، ولمّا اعتاد الرؤساء في أيّامه بالتوثّب على الأموال واقتناء الذخائر ونسوا سنّة الرسول في التسوية بين الوضيع والشريف شقّ عليهم سيرة أمير المؤمنين عليه السلام فعدلوا عن طاعته ومال طائفة منهم إلى معاوية وخرج عليه طلحة والزبير فقامت فتنة الجمل وغيرها، فهذه البدعة مع قطع النظر عن خطر التصرّف في أموال المسلمين كانت من موادّ الشرور والفتن الحادثة بعدها إلى يوم النشور][1].

* * *

ـ ١٩ ـ

## إيواء عثمان للحكم بن أبي العاص طريد النبي ﷺ

[الحَكَم وما أدراك ما الحَكَم؟ كان خصّاء يخصي الغنم أحد جيران رسول الله ﷺ بمكة من أولئك الأشدّاء عليه ﷺ المبالغين في إيذاءه شاكلة أبي لهب كما قاله إبن هشام في سيرته: ٢/ ٢٥، وأخرج الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر قال: كان الحَكَم يجلس عند النبي ﷺ فإذا تكلم اختلج فبصر به النبي ﷺ فقال: كن كذلك. فما زال يختلج حتى مات.

وفي لفظ مالك بن دينار: مر النبي ﷺ بالحَكَم فجعل الحَكَم يغمز النبي ﷺ بإصبعه فالتفتَ فرآه فقال: اللهم اجعل به وزغاً، فرجف مكانه وارتعش. وزاد الحلبي بعد أن مكث شهراً مغشيّاً عليه.

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٦٥، الطعن الثامن.

أسلفناه من طريق الحفاظ الطبراني والحاكم والبيهقي. ومرّت صحته في الجزء الأول صفحة٢٣٧.

روى البلاذري في الأنساب: ٥/ ٢٧: إنّ الحَكَم بن العاص كان جاراً لرسول الله ﷺ في الجاهلية وكان أشدّ جيرانه أذىً له في الإسلام، وكان قدومه المدينة بعد فتح مكة وكان مغموصاً عليه في دينه، فكان يمرّ خلف رسول الله ﷺ فيغمز به و يحكيه ويخلج بأنفه وفمه، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بإصبعه، فبقي على تخليجه وأصابته خبلة، واطّلع على رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه فعرفه وخرج إليه بعنزة وقال: من عذيري من هذا الوزغة اللعين؟ ثم قال: لا يساكنني ولا ولده فغربهم جميعاً إلى الطائف فلما قبض رسول الله ﷺ كلّم عثمان أبا بكر فيهم وسأله ردّهم فأبى ذلك وقال: ما كنت لآوي طرداء رسول الله ﷺ ثم لمّا إستخلف عمر كَلَّمَه فيهم فقال مثل قول أبي بكر، فلمّا استخلف عثمان أدخلهم المدينة وقال: قد كنت كلَّمْتُ رسول الله فيهم وسألتُه ردَّهم فوعدني أنْ يأذن لهم فقبض قبل ذلك. فأنكر المسلمون عليه إدخاله إياهم المدينة.

قال الواقدي: ومات الحَكَم بن أبي العاص بالمدينة في خلافة عثمان فصلّى عليه و ضرب على قبره فسطاطاً.

وعن سعيد بن المسيب قال: خطب عثمان فأمر بذبح الحمام وقال: إن الحمام قد كثر في بيوتكم حتى كثر الرمي ونالنا بعضه فقال الناس: يأمر بذبح الحمام وقد آوى طرداء رسول الله ﷺ.

وذكره بلفظ أخصر من هذا في صفحة١٢٥ وذكر بيتين لحسّان بن ثابت في عبد الرحمن بن الحَكَم الآتيين في لفظ أبي عمر فقال: كان يفشي أحاديث رسول

الله فلعنه وسيَّره إلى طائف ومعه عثمان الأزرق والحارث وغيرهما من بنيه وقال: لا يساكنني فلم يزالوا طرداء حتى ردَّهم عثمان فكان ذلك ممّا نقم عليه.

وفي السّيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧: إطّلع الحَكَم على رسول الله من باب بيته وهو عند بعض نسائه بالمدينة فخرج إليه رسول الله ﷺ بالعنزة وقيل بمدرى في يده وقال: مَن عذيري من هذه الوزغة لو أدركته لفقأتُ عينه، ولعنه وما وَلَد، وذكره إبن الأثير مختصراً في أسد الغابة: ٢/ ٣٤. وقال أبو عمر في «الاستيعاب»: أخرج رسول الله ﷺ الحَكَم من المدينة وطرده عنها فنزل الطائف وخرج معه ابنه مروان، واختلف في السّبب الموجب لنفي رسول الله ﷺ إياه فقيل: كان يتحيَّل ويستخفي ويتسمَّع ما يسرُّه رسول الله ﷺ إلى كبار أصحابه في مشركي قريش وسائر الكفّار والمنافقين، فكان يفشي ذلك عنه حتى ظهر ذلك عليه، وكان يحكيه في مشيته وبعض حركاته، إلى أمور غيرها كرهتُ ذِكْرَهَا، ذكروا: إن النبي ﷺ كان إذا مشى يتكفأ وكان الحَكَم يحكيه فالتفت النبي ﷺ يوماً فرآه يفعل ذلك فقال ﷺ: فكذلك فلتكنْ. فكان الحَكَم مختلجاً يرتعش من يومئذٍ، فعيّره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقال في عبد الرحمن بن الحَكَم يهجوه:

إن اللعين أبوك فارم عظامه ... إن ترم ترم مخلَّجاً مجنوناً

يمسي خميص البطن من عمل التقي ... ويظل من عمل الخبيث بطيناً

وأخرج أبو عمر من طريق عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: قال رسول الله ﷺ: يدخل عليكم رجلٌ لعينٌ. وكنتُ قد تركت عمراً يلبس ثيابه ليقبل إلى رسول الله ﷺ فلم أزل مشفقاً أن يكون أول مَن يدخل فدخل الحَكَم إبن أبي العاص.

م ـ وقال إبن حجر في تطهير الجنان هامش الصواعق ص١٤٤: وبسند رجاله رجال الصحيح عن عبد الله بن عمر إنه ﷺ قال: ليدخلنَّ السَّاعة عليكم رجلٌ لعينٌ. فوالله ما زلت أتشوّق داخلاً وخارجاً حتى دخل فلان يعني الحَكَم كما صَرَّحَتْ به روايةُ أحمد].

وروى البلاذري في «الأنساب»: ٥/ ١٢٦، والحاكم في «المستدرك»: ٤/ ٤٨١ وصحَّحَه والواقدي كما في السيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧ بالإسناد عن عمرو بن مرة قال: إستأذن الحَكَم على رسول الله ﷺ فعرف صوته فقال: إئذنوا له لعنة الله عليه وعلى مَن يخرج من صُلْبِهِ إلاّ المؤمنين وقليلٌ ماهم، ذوو مكر وخديعة يعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق.

م ـ وفي لفظ إبن حجر في تطهير الجنان هامش الصواعق ص١٤٧: إئذنوا له فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وما يخرج من صلبه يشرفون في الدنيا، ويترذلون في الآخرة، ذوو مكرٍ وخديعةٍ إلاّ الصالحين منهم وقليل ماهم].

وأخرج الحاكم في المستدرك: ٤/ ٤٨١ وصحَّحَه من طريق عبد الله بن الزبير قال: إن رسول الله ﷺ لَعَنَ الحَكَمَ ووِلْدَه.

وأخرج الطبراني وإبن عساكر والدارقطني في الأفراد من طريق عبد الله بن عمر قال: هجرت الرواح رسول الله ﷺ فجاء أبو الحسن فقال له رسول الله ﷺ: أدنُ: فلم يزل يُدنيه حتى التَقَمَ أُذُنَيْه فبينما النبي ﷺ يسارّه إذ رفع رأسه كالفزع قال: فَدعُ بسيفه الباب فقال لعليّ: إذهب فقدّه كما تقادُ الشّاة إلى حالبها. فإذا عليّ يُدخِل الحَكَم بن أبي العاص آخذاً بإذنه ولها زنمة حتى أوقفه بين يدي النبي ﷺ فلعنه نبي الله ﷺ ثلاثاً ثم قال: أحله ناحية حتّى راح إليه قومٌ

من المهاجرين والأنصار ثم دعا به فلعنه ثم قال: إن هذا سيخالف كتاب الله وسنّة نبيه، وسيخرج من صلبه فتنٌ يبلغ دخانها السّماء. فقال ناسٌ من القوم: هو أقلّ وأذلّ من أن يكون هذا منه قال: بلى وبعضكم يومئذ شيعته [كنز العمال: ٦/ ٣٩ ـ ٩٠].

وأخرج إبن عساكر من طريق عبد الله بن الزبير قال وهو على المنبر: وربِّ هذا البيت الحرام والبلد الحرام إن الحَكَم بن أبي العاص ووِلْدَه ملعونون على لسان محمدﷺ.

وفي لفظ: إنّه قال وهو يطوف بالكعبة: وربِّ هذه البنية للعن رسول اللهﷺ الحَكَم وما وَلَد. كنز العمال: ٦/ ٩٠.

وأخرج إبن عساكر من طريق محمّد بن كعب القرظي أنه قال: لَعَنَ رسولُ اللهﷺ الحَكَمَ وما وَلَدَ إلاّ الصالحين وهم قليل.

وأخرج إبن أبي حاتم وابن مردويه وعبد بن حميد والنسائي وإبن المنذر والحاكم وصحَّحَه عن عبد الله قال: إنّي لفي المسجد حين خَطَبَ مروان فقال: إنّ الله تعالى قد أرى لأمير المؤمنين يعني معاوية في يزيد رأياً حسناً أنْ يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهر قلية؟ إنّ أبا بكرؓ والله ما جعلها في أحدٍ من وِلْدِهِ ولا أحدٍ من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلاّ رحمةً وكرامةً لولده. فقال مروان: ألستَ الذي قال لوالديه أفٍّ لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست إبن اللعين الذي لعن رسول الله أباك؟ فسمعت عائشة فقالت: مروان! أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا، كذبْتَ والله ما فيه نَزَلَتْ، نَزَلَتْ في فلان بن فلان.

وفي لفظ آخر عن محمّد بن زياد: لمّا بايع معاوية لإبنه قال مروان: سنّة

أبي بكر وعمر. فقال عبد الرّحمن: سنّة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: والذي قال لوالديه أفٌّ لكما. الآية. فبلغ ذلك عائشة فقالت: كَذَبَ مروان، كَذَبَ مروان والله ما هو به ولو شئتُ أن أسمّي الذي نَزَلَتْ فيه لسمَّيْتُه، ولكنّ رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان فضضٌ من لعنة الله. وفي لفظ: ولكنّ رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله. وفي لفظ الفائق: فأنت فظاظة لعنة الله ولعنة رسوله.

راجع مستدرك الحاكم: ٤/ ٤٨١، تفسير القرطبي: ١٦/ ١٩٧، تفسير الزمخشري: ٣/ ٩٩، الفائق له: ٢/ ٣٢٥، تفسير إبن كثير: ٤/ ١٥٩، تفسير الرازي: ٧/ ٤٩١، أسد الغابة لابن الأثير: ٢/ ٣٤، نهاية إبن الأثير: ٣/ ٢٣، شرح إبن أبي الحديد: ٢/ ٥٥، تفسير النيسابوري هامش الطبري: ٢٦/ ١٣، الاجابة للزركشي ص١٤١، تفسير النسفي هامش الخازن: ٤/ ١٣٢، الصواعق لابن حجر ص١٠٨، إرشاد الساري للقسطلاني: ٧/ ٣٢٥، لسان العرب: ٩/ ٧٣، الدر المنثور: ٦/ ٤١، حياة الحيوان للدميري: ٢/ ٣٩٩، السيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧، تاج العروس: ٥/ ٦٩، تفسير الشوكاني: ٥/ ٢٠، تفسير الآلوسي: ٢٦/ ٢٠، سيرة زيني دحلان هامش الحلبية: ١/ ٢٤٥.

(لفت نظر): يوجد هذا الحديث في المصادر جلّها لولا كلّها باللفظ المذكور غير أن البخاري أخرجه في تفسير صحيحه في سورة الأحقاف وحذف منه لَعْنَ مروان وأبيه وما راقه ذكر ما قاله عبد الرحمن، وهذا دأبه في جل ما يرويه، وإليك لفظه:

كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً فقال:

خذوه. فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنّ هذا الذي أنزل الله فيه: والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني. فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلاّ أن الله أنزل عذري.

وهذا الحديث يُكَذِّب ما عزاه القوم إلى أمير المؤمنين وإبن عبّاس من قولهما بنزول آية: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾. في أبي بكرٍ كما مرَّ في الجزء السابع ص٣٢٦ ط٢.

وكان الحَكَم مع ذلك كلّه يدعو النّاس إلى الضلالِ ويمنعُهُم عن الإسلامِ، إجتمع حَويطبُ بمروان يوماً فسأله مروان عن عمره فأخبره فقال له: تأخّر إسلامك أيها الشّيخ حتى سَبَقَكَ الأحداث. فقال حويطبُ: الله المستعان والله لقد هممتُ بالإسلام غير مرّةٍ كلّ ذلك يعوقني أبوك يقول: تضع شرفك، وتدع دينَ آبائك لدينٍ مُحْدَثٍ؟ وتصير تابعاً؟ فَسَكَتَ مروان ونَدِمَ على ما كان قال له، «تاريخ إبن كثير: ٨/ ٧٠»][1].

ولو أردنا أنْ نسائل عثمان في إيواء لعين رسول الله ﷺ وطريده الحَكَم، لطال حكمنا بالضلال عليه لنزول القرآن فيه، [واللعن المتواصل من مصدر النبوة عليه وعلى من تناصل منه عدا المؤمنين، وقليلٌ ما هم، ما هو المبرِّر لعمله هذا وردِّه إلى مدينة الرّسول؟ وقد طرده ﷺ وأبناءه منها تنزيهاً لها من تلكم الأرجاس والأدناس الأمويّة، وقد سأل أبا بكر وبعده عمر أن يردّاه فقال كل منهما: لا أحلّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ.

وقال الحلبي في السيرة: ٢/ ٨٥ : كان يقال له: طريد رسول الله ﷺ

---

(١) الغدير: ٨/ ٢٤٢ ـ ٢٤٧.

ولعينه وقد كان ﷺ طَرَدَه إلى الطائف ومَكَثَ به مدَّة رسول الله ﷺ ومدَّة أبي بكر بعد أن سأله عثمان في إدخاله المدينة فأبى فقال له عثمان: عمِّي، فقال: عمُّك إلى النار، هيهات هيهات أنْ أغيِّر شيئاً فعله رسول الله ﷺ، والله لا رددته أبداً، فلمّا توفي أبو بكر وولّي عمر كلَّمَه عثمان في ذلك فقال له: ويحك يا عثمان! تتكلَّم في لعين رسول الله ﷺ وطريده وعدوّ الله وعدوّ رسوله؟ فلمّا ولّي عثمان ردّه إلى المدينة فاشتدّ ذلك على المهاجرين والأنصار فأنكر ذلك عليه أعيان الصحابة، فكان ذلك من أكبر الأسباب على القيام عليه. ه.

ألم تكن للخليفة أسوةٌ في رسول الله؟ والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾. أو كان قومه وحامته أحب إليه من الله ورسوله ؟ وبين يديه الذِّكر الحكيم: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم ما هو المبرِّر لتخصيص الرّجل بتلك المنحة الجزيلة من حقوق المسلمين و إعطياتهم؟ بعد تأمينه على أخذ الصدقات المشترط فيه الثقة والأمانة واللعين لا يكون ثقةً ولا أميناً][١].

### بنو أمية في القرآن:

[أخرج إبن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال: قال مروان لمّا بايع الناس ليزيد: سنة أبي بكر وعمر «إلى آخر الحديث المذكور» فسَمِعَتْ ذلك عائشة

---

(١) الغدير: ٨/ ٢٥٤.

فقالت: إنها لم تنزل في عبد الرحمن ولكن نزل في أبيك: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ الآية [سورة القلم: ١٠].

راجع الدر المنثور: ٦/ ٤١ ـ ٢٥١، السيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧، تفسير الشوكاني: ٥/ ٢٦٣، تفسير الآلوسي: ٢٩/ ٢٨، سيرة زيني دحلان هامش الحلبية: ١/ ٢٤٥.

وأخرج إبن مردويه عن عائشة إنها قالت لمروان: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك «أبي العاص بن أمية» إنكم الشجرة الملعونة في القرآن.
ويقول لأبيك وجدك «أبي العاص بن أمية»: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن.

ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٤/ ١٩١، والحلبي في السيرة: ١/ ٣٣٧، والشوكاني في تفسيره: ٣/ ٢٣١، والآلوسي في تفسيره: ١٥/ ١٠٧. وفي لفظ القرطبي في تفسيره: ١٠/ ٢٨٦.

قالت عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنتَ في صلبه، فأنتَ بعضٌ من لعنة الله ثم قالت: والشّجرة الملعونة في القرآن.

وأخرج إبن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ رأيت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوءٍ، واهتمّ رسول الله لـذلـك، فـأنـزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الاسراء: ٦٠].

وأخرج إبن مردويه عن الحسين بن عليّ: إنّ رسول الله ﷺ أصبح وهو مهمومٌ فقيل: ما لك يا رسول الله؟ فقال: إني أريتُ في المنام كأنّ بني أمية يتعاورون منبري هذا فقيل: يا رسول الله! لا تهتم فإنها دنيا تنالهم فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ الآية.

وأخرج إبن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وإبن عساكر، عن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر فساءه ذلك فأوحى الله تعالى إليه: «إنما هي دنيا أعطوها». فَقَرَّتْ عينُهُ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ الآية.

وأخرج الطبري والقرطبي وغيرهما من طريق سهل بن سعد قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية ينزون على منبره نزو القِرَدَة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ الآية.

وروى القرطبي والنيسابوري عن إبن عباس: إنّ الشّجرة الملعونة هو بنو أمية.

وأخرج إبن أبي حاتم عن إبن عمرو إنّ النبي ﷺ قال: رأيتُ وِلْدَ الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القِرَدَة، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾، يعني الحكم ووِلْدَه.

وفي لفظ: إنّ النبي ﷺ رأى في المنام أنّ وِلْدَ الحكم بن أمية يتداولون منبره كما يتداولون الصبيان الكرة فساءه ذلك.

وفي لفظ للحاكم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر وأبي يعلى من طريق أبي هريرة: إني أريت في منامي كأنّ بني الحكم بن العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة. فما رؤي النبيّ مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي.

(مصادر ما رويناه): تفسير الطبري: ١٥/ ٧٧، تاريخ الطبري: ١١/ ٣٥٦، مستدرك الحاكم: ٤/ ٤٨، تاريخ الخطيب: ٨/ ٢٨ وج٩/ ٤٤، تفسير النيسابوري هامش الطبراني: ١٥/ ٥٥، تفسير القرطبي: ١٠ / ٢٨٣، ٢٨٦،

النزاع والتخاصم للمقريزي ص٥٢، أسد الغابة: ٣/ ١٤ من طريق الترمذي، م تطهير الجنان لابن حجر هامش الصواعق ص١٤٨ فقال: رجاله رجالُ الصحيح إلا واحداً فثقة [الخصايص الكبرى: ٢/ ١١٨، الدر المنثور: ٤/ ١٩١، كنز العمال: ٦/ ٩٠، تفسير الخازن: ٣/ ١٧٧، تفسير الشوكاني: ٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، تفسير الآلوسي: ١٥/ ١٠٧ فقال الآلوسي: ومعنى جعل ذلك فتنةً للناس جَعْله بلاءً لهم ومختبراً، وبذلك فسَّره إبن المسيب وكان هذا بالنسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا، وعدلوا عن سنن الحق وما عدلوا وما بعده بالنسبة إلى ما عدا خلفاءهم منهم ممّن كان عندهم عاملاً وللخبائث عاملاً، أو ممّن كان أعوانهم كيف ما كان، ويحتمل أن يكون المراد: ما جعلنا خلافتهم وما جعلنا أنفسهم إلا فتنةً، وفيه من المبالغة في ذمِّهم ما فيه، وجعل ضمير «نخوفهم» على هذا لما كان له أولاداً أو شجرةً باعتبار أنّ المراد بها بنو أمية، ولعنهم لما صدر منهم من استباحة الدّماء المعصومة، والفروج المحصَّنة، وأخذ الأموال من غير حلّها، ومنع الحقوق عن أهلها، وتبديل الأحكام، والحكم بغير ما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيّه عليه الصَّلاة والسَّلام، إلى غير ذلك من القبايح العظام والمخازي الجسام التي لا تكاد تُنسى ما دامت الليالي والأيّام، وجاء لعنُهم في القرآن إمّا على الخصوص كما زعمته الشيعة، أو على العموم كما نقول فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾. إلى آيات أُخر، ودخولهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً أولياً. إلى آخر كلامه. راجع][1].

---

(١) الغدير: ٨/ ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

## هل عثمان خارج حكماً عن بني أمية؟

قال القرطبي بعد روايته حديث الرؤيا: لا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية.

١ ـ أخرج إبن مردويه عن عائشة قالت لمروان: سمعتُ رسولَ الله يقول لأبيك وجدّك أبي العاص بن أُميّة إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن(*). وقالت عائشة لمرروان: «لعن الله أباك وأنتَ في صلبه، فأنتَ بعض مَن لعنه الله ثم قالت: والشجرة الملعونة في القرآن». لا يهمّنا بسط القول حول هذا التخصيص، ولا ننبس ببنت شفة في تعميم العموم الوارد في الأحاديث المذكورة وأمثالها الواردة في بني أمية عامّة وفي بني أبي العاص جدّ عثمان خاصّةً، من قوله ﷺ في الصحيح من طريق أبي سعيد الخدري: إنّ أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإنّ أشدّ قومنا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم. وقوله ﷺ من طريق أبي ذر: إذا بلغَتْ بنو أمية أربعين اتَّخذوا عباد الله خولاً، ومال الله نحلاً، وكتاب الله دغلاً. وقوله ﷺ من طريق حمران بن جابر اليمامي: ويلٌ لبني أمية. ثلاث. أخرجه إبن مندة كما في الإصابة: ١/ ٣٥٣، وحكاه عن إبن مندة وأبي نعيم السيوطي في الجامع الكبير كما في ترتيبه: ٦/ ٣٩ ـ ٩١. وقوله ﷺ من طريق أبي ذر: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً. قال حلام بن جفال: فأنكر على أبي ذر فشهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنّي سمعتُ رسول الله يقول: ما أظلَّت الخضراءُ ولا أقَلَّت الغبراء على ذي لهجةٍ

---

(*) ذكره السيوطي في الدر المنثور: ٤/ ١٩١، والسيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧، والآلوسي في تفسيره: ١٥/ ١٠٧، والقرطبي في تفسيره: ١٠/ ٢٨٦.

أصدق من أبي ذر، وأشهد إنّ رسول الله ﷺ قاله. أخرجه الحاكم من عدّة طرق وصححه هو والذّهبي كما في المستدرك: ٤/ ٤٨٠، وأخرجه إبن عساكر كما في كنز العمال: ٦/ ٣٩، وأخرجه أحمد وإبن عساكر وأبو يعلى والطبراني والدار قطني من طريق أبي سعيد و أبي ذر وابن عباس ومعاوية وأبي هريرة كما في كنز العمال: ٦/ ٣٩ ـ ٩٠.

وذكر إبن حجر في تطهير الجنان هامش الصواعق: ١٤٧ بسند حسَّنه: إن مروان دخل على معاوية في حاجة وقال: إن مؤنتي عظيمة أصبحت أبا عشرة، وأخا عشرة، و عم عشرة ثم ذهب فقال معاوية لإبن عبّاس وكان جالساً معه على سريره: أنشدكَ بالله يا بن عبّاس أمَا تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال: إذا بلغ بنو أبي الحكم ثلاثين رجلاً اتَّخذوا آياتِ الله بينهم دولاً، وعباد الله خولاً، وكتابه دخلاً، فإذا بلغوا سبعةً وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من كذا؟ قال: اللهمّ نعم.

وقوله ﷺ بإسنادٍ حسَّنه إبن حجر في تطهير الجنان هامش الصواعق: ١٤٣: شرّ العرب بنو أمية. وبنو حنيفة. وثقيف. وقال: صحَّ قال الحاكم: على شرط الشيخين عن أبي برزة قال: كان أبغض الأحياء أو الناس إلى رسول الله بنو أمية.

وقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: لكلّ أمّةٍ آفة وآفّةُ هذه الأمّة بنو أمية، كنز العمال: ٦/ ٩١[1].

* * *

---

(١) الغدير: ٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

## ـ ٢٠ ـ

## أيادي عثمان وسخائه على مروان بن الحَكَم

[أعطى مروان بن الحكم بن أبي العاص إبن عمه وصهره من ابنته أمّ أبان خُمْسَ غنائم إفريقية وهو خمسمائة ألف دينار، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حنبل الجمحي الكندي مخاطباً الخليفة:

سأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمرا سدى

ولكن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلى لك أو تبتلى

فإن الأمينين قد بينا ... منار الطريق عليه الهدى

فما أخذا درهما غيلة ... وما جعلا درهما في الهوى

دعوت اللعين فأدنيته ... خلافا لسنة من قد مضى

وأعطيت مروان خُمْسَ العباد ظلما لهم وحميت الحمى

هكذا رواه إبن قتيبة في المعارف ص٨٤، وأبو الفدا في تاريخه: ١/ ١٦٨، وذكر البلاذري الأبيات في الأنساب: ٥/ ٣٨ ونسبها إلى أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي الخزرجي الذي منع أن يدفن عثمان بالبقيع وإليك لفظها:

أقسم بالله رب العباد ما ترك الله خلقا سدى

دعوت اللعين فأدنيته ... خلافا لسنة من قد مضى

قال: يعني الحكم والد مروان.

وأعطيت مروان خُمْسَ العباد ظلما لهم وحميت الحمى

ومــالٌ أتــاك بــه الأشــعــري من الـفـيء أنـهـيـتـه مـن تـرى
فــأمَّــا الأمــيــنــان إذ بـيَّـنـا مـنـار الـطـريـق عـلـيـه الـصـوى
فــلــم يــأخــذا درهــمــاً غـيـلـة ولـم يـصـرفـا درهـمـاً فـي هـوى

وذكرها إبن عبد ربه في العقد الفريد: ٢/ ٢٦١ ونسبها إلى عبد الرحمن، وروى البلاذري من طريق عبد الله بن الزبير أنه قال: أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقية فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جليلة فأعطى عثمان مروان بن الحكم خُمْسَ الغنائم. وفي رواية أبي مخنف: فابتاع الخمس بمائتي ألف دينار فكلَّم عثمان فوهبها له فأنكر الناس ذلك على عثمان.

وفي رواية الواقدي كما ذكره إبن كثير: صالحه بطريقها على ألفي ألف دينار وعشرين ألف دينار فأطلقها كلّها عثمان في يوم واحدٍ لآل الحَكَم ويقال: لآل مروان.

وفي رواية الطّبري عن الواقدي عن أسامة بن زيد عن كعب قال: لمّا وجَّه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقية كان الذي صالحهم عليه بطريق إفريقية (جرجير) ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، فبعث ملك الروم رسولاً وأمره أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار كما أخذ منهم عبد الله بن سعد. إلى أن قال: كان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهب، فأمر بها عثمان لآل الحكم. قلت: أو لمروان؟ قال: لا أدري. [تاريخ الطبري: ٥].

وقال إبن الأثير في الكامل: ٣/ ٣٨: وحمل خُمْسَ إفريقية إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان، وكان هذا ممّا أخذ عليه، وهذا أحسن ما قيل في خُمْسَ إفريقية، فإن بعض الناس يقول:

أعطى عثمان خُمْسَ إفريقية عبد الله بن سعد. وبعضهم يقول: أعطاه مروان الحكم، وظهر بهذا إنه أعطى عبد الله خُمْسَ الغزوة الأولى، وأعطى مروان خُمْسَ الغزوة الثانية التي افتتحت فيها جميع إفريقية. والله أعلم.

وروى البلاذري وابن سعد: إن عثمان كتب لمروان بخُمْس مصر وأعطى أقرباءه المال، وتأوَّل في ذلك الصِّلة التي أمر الله بها، واتَّخذَ الأموالَ واستسلفَ من بيتِ المال وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، وإني أخذته فقسمته في أقربائي. فأنكر الناس عليه ذلك.

وأخرج البلاذري في الأنساب: ٥/ ٢٨ من طريق الواقدي عن أمّ بكر بنت المسور قالت: لّما بني مروان داره بالمدينة دعا الناس إلى طعامه وكان المسور فيمن دعا، فقال مروان وهو يحدِّثُهم: والله ما أنفقتُ في داري هذه من مال المسلمين درهماً فما فوقه. فقال المسور: لو أكلتَ طعامك وسكتَّ لَكَانَ خيراً لكَ، لقد غزوتَ معنا إفريقية وإنكَ لأقلّنا مالاً ورقيقاً وأعواناً وأخفنا ثقلاً، فأعطاك إبن عفان خُمْسَ إفريقية وعملتَ على الصدقات فأخذتَ أموال المسلمين. فشكاه مروان إلى عروة وقال: يغلظ لي وأنا له مكرمٌ متق.

قال إبن أبي الحديد في الشرح: ١/ ٦٧: أمر (عثمان) لمروان بمائة ألف من بيت المال وقد زوَّجه ابنته أمّ أبان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكي إنْ وصلت رحمي؟ قال: لا. ولكنْ أبكي لأني أظنكَ إنكَ أخذتَ هذا المال عوضاً عمّا كنت أنفقت في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ، ولو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً. فقال: ألقِ المفاتيح يا ابن أرقم! فإنّا سنجد غيركَ، وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسَّمها كلّها في بني أمية.

وقال الحلبي في السيرة: ٢/ ٨٧: وكان من جملة ما انتقم به على عثمان بن عفّان أنه أعطى إبن عمه مروان بن الحكم مائة ألف وخمسين أوقية.

## مروان وما مروان؟

تواترت الأخبار في لعن رسول الله ﷺ على أبيه وعلى من يخرج من صلبه. وأسلفنا ما صحّ من قول عائشة لمروان: لعن رسول الله ﷺ أباك فأنتَ بعض من لعنه الله.

وأخرج الحاكم في المستدرك: ٤/ ٤٧٩ من طريق عبد الرحمن بن عوف وصححه أنّه قال: كان لا يولد لأحدٍ بالمدينة ولد إلاّ أتى به إلى النبي ﷺ فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: هو الوزغ إبن الوزغ، الملعون إبن الملعون.

وذكر الدميري في حيوة الحيوان: ٢/ ٣٩٩، وإبن حجر في الصواعق ص١٠٨، والحلبي في السيرة: ١/ ٣٣٧ ولعلّ معاوية أشار إليه بقوله لمروان: يا ابن الوزغ لستَ هناك. فيما ذكره إبن أبي الحديد: ٢/ ٥٦.

وأخرج إبن النجيب من طريق جبير بن مطعم قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فمرّ الحكم بن أبي العاص فقال النبي ﷺ: ويلٌ لأمّتي ممّا في صُلْبِ هذا.

وفي شرح إبن أبي الحديد: ٢/ ٥٥ نقلاً عن الإستيعاب: نظر عليّ عليه السلام يوماً إلى مروان فقال له: ويلٌ لك وويل لأمّة محمّد منكَ ومن بيتكَ إذا شاب صدغاكَ. وفي لفظ إبن الأثير: ويلك وويلُ أمّة محمّد منكَ ومن بنيك. «أسد الغابة: ٤/ ٣٤٨» ورواه إبن عساكر بلفظٍ آخر كما في كنْز العمال: ٦/ ٩١.

وقال مولانا أمير المؤمنين يوم قال له الحسنان السبطان: يبايعك مروان يا

أمير المؤمنين: أوَلَم يبايعني قبل قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته، إنها كفٌّ يهودية لو بايعني بيده لغدر بسبّته، أمَا إنّ له إمرةً كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة وستلقى الأمّة منه ومن ولده يوما أحمر «نهج البلاغة».

قال ابن أبي الحديد في الشرح: ٢/ ٥٣: قد روي هذا الخبر من طريق كثيرة ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب «نهج البلاغة» وهي قوله ﷺ في مروان: يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صدغاه وإن له إمرة. الخ.

هذه الزيادة أخذها إبن أبي الحديد من إبن سعد ذكرها في طبقاته: ٥/ ٣٠ ط ليدن قال: قال عليّ بن أبي طالب يوماً ونظر إليه: ليحملنّ راية ضلالة بعد ما يشيب صدغاه، وله إمرة كلحسة الكلب أنفه. ا ه. وهذا الحديث كما ترى غير ما في «نهج البلاغة» وليس كما حسبه إبن أبي الحديد زيادة فيه، ولا توجد تلك الزيادة في رواية السّبط أيضاً في تذكرته ص٤٥. والله العالم. قال البلاذري في الأنساب: ٥/ ١٢٦: كان مروان يلقَّب خيط باطل لدقّته وطوله شبه الخيط الأبيض الذي يُرى في الشمس، فقال الشاعر ويقال: إنّ عبد الرحمن بن الحكم أخوه:

لعمرك ما أدري وإني لسائلُ  حليلة مضروب القفا كيف يصنعُ

لحى الله قوما أمروا خيط باطلُ  على الناس يعطي ما يشاء ويمنعُ

وذكر البلاذري في الأنساب: ٥/ ١٤٤ في مقتل عمرو بن سعيد الأشدق الذي قتله عبد الملك بن مروان ليحيى بن سعيد أخي الأشدق قوله:

غدرتم بعمرو يا بني خيط باطل  ومثلكم يبني البيوت على الغدر

وذكر إبن أبي الحديد في شرحه: ٢/ ٥٥ لعبد الرحمن بن الحكم في أخيه قوله:

وهبت نصيبي منك يا مرو كلّه لعمرو ومروان الطويل وخالدِ
ورب إبن أم زائد غير ناقص وأنت إبن أم ناقص غير زائدِ

ومن شعر مالك الريب «المترجم في الشعر والشعراء لابن قتيبة» يهجو مروان قوله:

لعمرك ما مروان يقضي أمورنا ولكن ما تقضي لنا بنت جعفرِ
فيا ليتها كانت علينا أميرة وليتك يا مروان أمسيت ذاحرِ

وروى الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ٧٢ من طريق أبي يحيى قال: كنت بين الحسن والحسين ومروان يتسابّان فجعل الحسن يسكت الحسين فقال مروان: أهل بيت ملعونون. فغضب الحسن وقال: قلت أهل بيت ملعونون. فوالله لقد لعنك الله وأنت في صلب أبيك.

أخرجه الطبراني وذكره السيوطي في جمع الجوامع كما في ترتيبه: ٦/ ٩٠ نقلاً عن إبن سعد وأبي يعلى وإبن عساكر.

إنّ الذي يستشفه المنقّب من سيرة مروان وأعماله إنّه ما كان يقيم لنواميس الدِّين الحنيف وزناً، وإنما كان يلحظها كسياسات زمنية فلا يبالي بإبطال شئٍ منها أو تبديله إلى آخر حسب ما تقتضيه ظروفه وتستدعيه أحواله، وإليك من شواهد ذلك عظائم وعليها فقس ما لم نذكره:

١ ـ أخرج إمام الحنابلة أحمد في مسنده: ٤/ ٩٤ من طريق عباد بن عبد الله بن الزبير قال: لمّا قدم عينا معاوية حاجّاً، قدمنا معه مكّة قال: فصلّى بنا الظّهر ركعتين ثم انصرف إلى دار الندوة قال: وكان عثمان حين أتمّ الصّلاة فإذا قدم مكّة صلّى بها الظّهر والعصر والعشاء الآخرة أربعاً أربعاً، فإذا خرج إلى

منى وعرفات قصّر الصّلاة، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى أتمّ الصّلاة حتى يخرج من مكة، فلما صلّى بنا الظّهر ركعتين نهض إليه مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان فقالا له: ما عاب أحد إبن عمك بأقبح ما عبته به. فقال لهما: وما ذاك؟ قال: فقال له: ألم تعلم أنه أتمّ الصّلاة بمكة؟ قال: فقال لهما: ويحكما وهل كان غير ما صنعت؟ قد صليتهما مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر وعمر. قالا: فإنّ إبن عمّك قد أتمّها وإنّ خلافك إياه له عيب. قال: فخرج معاوية إلى العصر فصلاّها بنا أربعاً.

وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢/ ١٥٦ نقلاً عن أحمد والطبراني فقال: رجال أحمد موثقون. فإذا كان لعب مروان وخليفة وقته معاوية بالصّلاة التي هي عماد الدين إلى درجة يقدم فيها التحفظ على عثمان في عمله الشاذ عن الكتاب والسّنّة على العمل بسُنَّة رسول الله ﷺ حتى أخضع معاوية لِمَا ارتآه من الرّأي الشائن في صلاة العصر، فماذا يكون عبثهما بالدِّين فيما هو دون الصّلاة من الأحكام؟.

وإن تعجب فعجب إنه يَعدُّ مخالفة عثمان في رأيه الخاص له عيباً عليه يغيِّر لأجله الحكم الدِّيني الثابت، ولا يَعدّ مخالفة رسول الله وما جاء به محظورة تترك لأجلها الأباطيل والأحداث.

ومن العجب أيضاً أنْ ينهى معاوية عن مخالفة عثمان، ولا ينهى من خالف رسول الله ﷺ عن مخالفته. أهؤلاء من ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾؟ وأعجب من كلّ ذلك حسبان أولئك العابثين بدين الله عدولاً وهذه سيرتهم ومبلغهم من الدين الحنيف.

٢ ـ أخرج البخاري من طريق أبي سعيد الخدري قال: خرجت مع مروان

وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلّى إذا منبر بناه كثير بن الصّلت فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلّي فجبذت [الجبذ لغةً كالجذب] ثوبه فجبذني فارتفع فخطب قبل الصّلاة فقلت: غيرتم والله. فقال: أبا سعيد! قد ذهب ما تعلم. فقلت: ما أعلم والله خير ممّا لا أعلم. فقال: إنّ الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصّلاة فجعلتها قبل الصّلاة. وفي لفظ الشافعي: يا أبا سعيد ترك الذي تعلم.

أترى مروان كيف يغيِّر السُّنَّة؟ وكيف يفوه ملأ فمه بما لا يسوغ لمسلمٍ أن يتكلَّمَ به؟ كأنّ ذلك مفوَّضٌ إليه، وكأنّ تركَها المنبعث عن التجري على الله ورسوله يكون مبيحاً لإدامة الترك، لماذا ذهب ما كان يعلمه أبو سعيد من السنة؟ ولماذا ترك؟

نعم: كان لمروان في المقام ملحوظتان: الأولى اقتصاصه أثر إبن عمه عثمان، والآخر إنه كان يقع في الخطبة في مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ويسبُّه ويلعنُه فتتفرق عنه النّاس لذلك فَقَدَّمها على الصّلاة لئلاّ يجفلوا فيسمعوا العظائم ويصيخوا إلى ما يلفظ به من كبائر وموبقات. ويستظهر من كلام عبد الله بن الزبير: كل سنن رسول الله صلى الله عليه وآله قد غُيِّرَت حتّى الصّلاة.

إنَّ تسرُّب التغيير ولعب الأهواء بالسنن لم يكن مقصوراً على الخطبة قبل الصّلاة فحسب، وإنما تَطرَّق ذلك إلى كثيرٍ من الأحكام كما يجده الباحث السّابر أغوار السِّيَر والحديث.

٣ ـ سَبّهُ لمولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان الرّجل كما قال أسامة بن زيد: فاحشاً متفحشاً.

الحجر الأساسي في ذلك هو عثمان جرأ الوزغ اللعين على أمير المؤمنين

يوم قال له: أقد مروان من نفسك. قال ﷺ مم ذا؟ قال: من شتمه وجذب راحلته. وقال له: لم لا يشتمك؟ كأنك خير منه؟ وعلاه معاوية بكلّ ما عنده من حولٍ وطَولٍ، لكنّ مروان تبعه شرَّ متابعة، ولم يألُ جهداً في تثبيت ذلك كلّما أقلَّته صهوة المنبر، أو وقف على منصّة خطابة، ولم يزل مجداً في ذلك وحاضّاً عليه حتى عاد مطرداً بعد كل جمعة وجماعة في أيّ حاضرة يتولى أمرها، وبين عمّاله يوم تولّى خلافة هي كلعقة الكلب أنفه «تسعة أشهر» كما وصفها مولانا أمير المؤمنين، ولم تكن هذه السّيرة السّيئة إلا لسياسة وقتيّة، وقد أعرب عمّا في سريرته بقوله فيما أخرجه الدارقطني من طريقه عنه قال: ما كان أحد أدفع عن عثمان من عليّ. فقيل له: مالكم تسبّونه على المنبر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك.

قال إبن حجر في تطهير الجنان هامش الصواعق ص١٤٢: وبسند رجاله ثقات: إنّ مروان لمّا ولي المدينة كان يسب علياً على المنبر كلّ جمعة، ثم ولّي بعده سعيد بن العاص فكان لا يسب، ثم أعيد مروان فعاد للسب، وكان الحسن يعلم ذلك فيسكت ولا يدخل المسجد إلا عند الإقامة، فلم يرض بذلك مروان حتى أرسل للحسن في بيته بالسب البليغ لأبيه وله، ومنه: ما وجدت مثلك إلا مثل البغلة يقال لها: من أبوك؟ فتقول: أبي الفرس. فقال للرسول: إرجع إليه فقل له: والله لا أمحو عنك شيئاً مّما قلتَ بأني أسبُّكَ، ولكنْ موعدي وموعدك الله، فإنْ كنتَ كاذباً فالله أشدُّ نقمةً، قد أكرم جدّي أنْ يكون مثلي مثل البغلة. إلخ.].

ولم يختلف من المسلمين اثنان في أنّ سبّ الإمام ولعنه من الموبقات، وإذا صحّ ما قاله إبن معين كما حكاه عنه إبن حجر في تهذيب التهذيب: ١/ ٥٠٩ من أنّ كل من شتم عثمان أو طلحة أو أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ دجّالٌ لا يكتب عنه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ا ه.

فما قيمة مروان عندئذ؟ ونحن مهما تنازلنا فإنّا لا نتنازل عن أنّ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام كأحد الصحابة الذين يشملهم حكم كلّ مَن سَبَّهُم وَلَعَنَهُم، فكيف ونحن نرى أنّه عليه السلام سيّد الصّحابة على الإطلاق، وسيّد الأوصياء، وسيّد مَن مضى ومَن غبر، عدا إبن عمه صلى الله عليه وآله وهو نفس النبي الأقدس بنصّ الذِّكر الحكيم، فلَعَنَهُ وَسَبَّهُ وقد قال صلى الله عليه وآله: مَن سَبَّ علياً فقد سبَّني ومَن سبَّني فقد سَبَّ الله[1]. وكان مروان يتربّص الدوائر على آل بيت العصمة والقداسة، ويغتنم الفرص في إيذائهم قال إبن عساكر في تاريخه: ٤/ ٢٢٧: أبى مروان أن يُدفَنَ الحسن في حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: ما كنتُ لأدع إبن أبي تراب يدفن مع رسول الله، قد دفن عثمان بالبقيع. ومروان يومئذ معزول يريد أن يرضي معاوية بذلك، فلم يزل عدواً لبني هاشم حتى مات. اهـ.

أيّ خليفةٍ هذا يجلب رضاه بإيذاء عترة رسول الله؟ ومَن ومَن أولى بالدَّفن في الحجرة الشريفة من السِّبط الحسن الزكي عليه السلام؟ وبأيِّ كتابٍ وبأيةِ سُنَّةٍ وبأيِّ حقٍّ ثابتٍ كان لعثمان أن يُدفَنَ فيها؟ ومن جراء ذلك الضغن الدفين على بني هاشم كان إبن الحَكَم يحثّ إبن عمر على الخلافة والقتال دونها.

أخرج أبو عمر من طريق الماجشون وغيره: إن مروان دخل في نفر على عبد الله بن عمر بعد ما قتل عثمان فعرضوا عليه أن يبايعوا له قال: وكيف لي بالناس؟ قال: تقاتلهم ونقاتلهم معك. فقال: والله لو اجتمع عليَّ أهلُ الأرض إلاّ فدك ما قاتلتهم، قال: فخرجوا من عنده ومروان يقول:

والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

لماذا ترك الوزغ سُنَّة الإنتخاب الدّستوري في الخلافة بعد انتهاء الدَّور إلى

---

(١) مستدرك الحاكم: ٣/ ١٢١، ومسند أحمد: ٦/ ٣٢٣.

سيّد العترة؟ وما الذي سوَّغَ له ذلك الخلاف؟ وحَضَّ إبن عمر على الأمر، وتثبيطه على القتال دونه، بعد إجماع الأمّة وبيعتهم مولانا أمير المؤمنين؟ نعم: لم يكن من يوم الأوّل هناك قطّ انتخابٌ صحيحٌ، ورأيٌ حرٌّ لأهل الحلّ والعقدِ، أنّى كان ثم أنّى؟

والملك بعد أبي الزهراء لمن غلبا

**هذا مروان**

فهلمّ معي إلى الخليفة نستحفيه الخبر عن هذا الوزغ اللعين في صلب أبيه وبعد مولده بماذا استباح إيواءه وتأمينه على الصَّدَقَات والطمأنينة به في المشورة في الصالح العام؟ ولِمَ استكتبه وضَمَّه إليه فاستولي عليه؟ ونصب عينيه ما لهج به النبي الأعظم ﷺ، وما ناء به هو من المخاريق والمخزيات، ومن واجب الخليفة تقديم الصُّلَحَاء من المؤمنين وإكبارهم شكراً لأعمالهم لا الإحتفال بأهل المجانة والخلاعة كمروان الذي يجب الإنكار والتقطيب تجاه عمله الشائن، وقد جاء عن رسول الله ﷺ: مَن رأى منكَرَاً فاستطاع أن يغيِّرَه بيده فليُغَيِّرْه بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإنْ لم يستطع بلسانه فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان. وقال مولانا أمير المؤمنين ﷺ أدنى الإنكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة.

وهب أنّ الخليفة تأوَّل وأخطأ لكنَّه ما هذا التبسط إليه بكلّه؟ وتقريبه وهو ممّن يجب إقصاءه، وإيواءه وهو ممّن يستحق الطّرد، وتأمينه وهو أهل بأنْ يتهم، ومنحه بأجزل المنح من مال المسلمين ومن الواجب منعه، وتسليطه على أعطيات المسلمين ومن المحتَّم قطع يده عنها؟.

أنا لا أعرف شيئاً من معاذير الخليفة في هذه المسائل لعلّ لها عذراً وأنت

تلومها لكنَّ المسلمين في يومه ما عذروه وهم الواقفون على الأمر من كثب، والمستشفون للحقايق الممعنون فيها، وكيف يعذره المسلمون ونصب أعينهم قوله عز من قائل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾؟ أليس إعطاء الخمس لمروان اللعين خروجاً عن حكم القرآن؟ أليس عثمان هو الذي فاوض بنفسه ومعه جبير بن مطعم رسول الله ﷺ أن يجعل لقومه نصيباً من الخمس فلم يجعل ونصّ على أن بني عبد شمس وبني نوفل لا نصيب لهم منه؟.

قال جبير بن مطعم: لمّا قسَّمَ رسول الله سهم ذي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيتُه أنا وعثمان فقلت: يا رسول الله! هؤلاء بنو هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم، أرأيت بني المطلب أعطيتهم ومنعتنا؟ وإنما نحن وهم منك بمنزلةٍ واحدةٍ. فقال: إنهم لم يفارقوني أو: لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام وإنما هم بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه، ولم يقسِّم رسول الله لبني عبد الشمس ولا لبني نوفل من ذلك الخمس شيئا كما قسم لبني هاشم وبني المطلب.

ومن العزيز على الله ورسوله أن يُعطَى سهم ذوي قربى الرسول ﷺ لطريده ولعينه، وقد منعه النبي ﷺ وقومه من الخُمْسِ، فما عُذْرُ الخليفة في تزحزحه عن حُكْمِ الكتابِ والسُّنَّة، وتفضيل رحمه أبناء الشجرة الملعونة في القرآن على قربى رسول الله ﷺ الذين أوجب الله مودّتهم في الذِّكْرِ الحكيم؟ أنا لا أدري. والله من ورائهم حسيب][١].

* * *

(١) الغدير: ٨/ ٢٥٧ ـ ٢٦٧.

## ـ ٢١ ـ

## كان عثمان ينضد أسنانه بالذهب

[وأمّا ما اقتناه الخليفة لنفسه فحدِّث عنه ولا حرج، كان ينضد أسنانه بالذهب ويتلبس بأثواب الملوك قال محمّد بن ربيعة: رأيت على عثمان مطرف خز ثمن مائة دينار فقال: هذا لنائلة كسوتها إياه، فأنا ألبسه أسرها به. وقال أبو عامر سليم: رأيت على عثمان برداً ثمنه مائة دينار.

قال البلاذري: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حليٌ وجوهرٌ فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر النّاس الطَّعن عليه في ذلك وكَلَّمُوه فيه بكلامٍ شديدٍ حتى أغضبوه فقال: هذا مال الله أعطيه مَن شئتُ وأمنعُه مَن شئتُ فأرغمَ الله أنفَ مَن رغم.

وفي لفظ: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفئ وإنْ رُغِمَتْ أنوفُ أقوامٍ. فقال له الإمام علي عليه السلام: إذاً تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه. إلى آخر الحديث الآتي في مواقف الخليفة مع عمار وجاء إليه أبو موسى كيلة ذهب وفضة فَقَسَّمَها بين نسائه وبناته، وأنفق أكثر بيت المال في عمارة ضياعه ودوره.

وقال إبن سعد في الطبقات: ٣/ ٥٣ ط. ليدن: كان لعثمان عند خازنه يوم قُتِل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة درهم، وخمسون ومائة ألف دينار فانتبهت وذهبت وترك ألف بعيرٍ بالرَّبَذَة وصدقات ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار.

وقال المسعودي في المروج: ١/ ٤٣٣: بنى في المدينة وشَيَّدَها بالحَجَر والكِلْس وجَعَلَ أبوابَها من السَّاج والعَرْعَر، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً

بالمدينة، وذَكَرَ عبد الله بن عتبة: إنّ عثمان يوم قُتِلْ كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخَلَّفَ خَيْلاً كثيراً وإبْلاً.

وقال الذهبي في دول الإسلام: ١/ ١٢: كان قد صار له أموالٌ عظيمةٌ وله ألف مملوك][1].

* * *

ـ ٢٢ ـ

## توليه مَن لا يصلح للولاية على المسلمين

[أنّه ولّى أمور المسلمين مَنْ لا يصلح لذلك ولا يؤتَمَن عليه، ومَنْ ظهر منه الفِسْقُ والفَسَاد، ومَنْ لا عِلْمَ له، مراعاةً لحُرْمَةِ القَرَابَةِ، وعُدُولاً عن مراعاة حُرْمَةِ الدِّين والنَّظَر للمسلمين، حتّى ظَهَرَ ذلك منه وتكرّر، وقد كان عمر حَذَّرَه من ذلك حيث وصفه بأنّه كلّف بأقاربه، وقال له: إذا وليتَ هذا الأمر فلا تحمل بني أبي معيط على رقاب النّاس فوقع منه ما حذّره إيّاه، وعوتب عليه فلم ينفع العتب.

وذلك نحو استعماله الوليد بن عقبة وتقليده إيّاه حتّى ظهر منه شرب الخمر، واستعماله سعيد بن العاص حتى ظهرت منه الأمور التي عندها أخرجه أهل الكوفة، وتوليه عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر بن كريز، حتى روي

---

(١) الغدير: ٨/ ٢٨٥.

عنه في أمر إبن أبي صرح أنّه لمّا تظلّم منه أهلُ مصر وصرفه عنهم بمحمّد إبن أبي بكر كاتبه بأنْ يستمرّ على ولايته، وأبطن خلاف ما أظهر.

وهذه طريقة من غرضه خلاف الدين. وروي أنّه كاتبه بقتل محمَّد بن أبي بكر وغيره ممّن يرد عليه، وظفر بذلك الكتاب، ولذلك عظم التظلّم من بعد وكَثُرَ الجمع، وكان ذلك سبب الحصار والقتل، وحتى كان من أمر مروان وتسلُّطِهِ عليه وعلى أمورِهِ ما قتل بسببه.

ولا يمكن أن يقال: إنّه لم يكن عالماً بأحوال هؤلاء الفسقة، فإنّ الوليد كان في جميع أحواله من المجاهرين بالفجور وشرب الخمور، وكيف يخفى على عثمان، وهو قريبه ولصيقه وأخوه لأمّه، ولذا قال سعد بن أبي وقّاص ـ في رواية الواقدي ـ وقد دخل الكوفة يا أبا وهب أمير أم زائر. قال بل أمير.

فقال سعد: ما أدري أحمقت بعدك أم كِستَ بعدي؟! فقال: ما حَمِقْتَ بعدي ولا كِسْتُ بعدك، ولكنّ القوم ملكوا فاستأثروا. فقال سعد ما أراك إلاّ صادقاً.

وفي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى أنّ الوليد لّما دخل الكوفة مرّ على مسجد عمرو بن زرارة النخعي فوقف، فقال عمرو: يا معشر بني أسد بئس ما استقبلنا به أخوكم إبن عفّان، أَمِن عَدْلِهِ أنْ ينْزَعَ عنّا إبن أبي وقّاص الهيِّن الليِّن السَّهل القريب ويبعث علينا بدله أخاه الوليد الأحمق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً واستعظم الناس مَقْدَمَه، وعزل سعد به، وقالوا أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمّة محمد ﷺ.

وقال إبن عبد البرّ في الإستيعاب في ترجمة الوليد: أمّه: أروى بنت كريز إبن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أمّ عثمان بن عفّان، والوليد بن عقبة أخو

عثمان لأمّه يكنّى أبا وهب، أسلم يوم فتح مكة، وولاّه عثمان بالكوفة وعزل عنها سعد بن أبي وقّاص، فلمّا قدم الوليد على سعد قال له سعد: والله ما أدري أكست بعدنا أم حمقنا بعدك؟!

فقال: لا تجزعنّ أبا إسحاق، فإنّما هو الملك يتغدّاه قومٌ ويتعشّاه آخرون. فقال سعد: أراكم والله ستجعلونها ملكاً.

قال: وروى جعفر بن سليمان، عن هشام بن حسّان، عن إبن سيرين، قال لمّا قدم الوليد بن عقبة أميراً على الكوفة أتاه إبن مسعود فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ أميراً. فقال إبن مسعود: ما أدري أصلحت بعدنا أم فسد الناس؟!

وله أخبار فيها نكارة وشناعة تقطع على سوء حاله وقبح أفعاله غفر الله لنا وله، فلقد كان من رجال قريش ظرفاً وحلماً وشجاعةً وأدَباً، وكان من الشعراء المطبوعين، كان الأصمعي وأبو عبيدة وابن الكلبي وغيرهم يقولون كان الوليد بن عقبة فاسقاً شرِّيبَ خَمْرٍ، وكان شاعراً كريماً، أخباره في شرب الخمر ومنادمته أبا زبيد الطائي كثيرة مشهورة يسمج بنا ذكرها هاهنا، ونذكر منها طرفاً.

ذكر عمر بن شيبة بإسناده عن إبن شوذب، قال صلّى الوليد بن عقبة بأهل الكوفة صلاة الصبح أربع ركعات، ثم التفت إليهم، فقال أزيدكم؟!

فقال عبد الله بن مسعود ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم.

قال وحَدَّثَنَا محمَّد بن حميد، عن جرير، عن الأجلح، عن الشعبي في حديث الوليد بن عقبة حين شهدوا عليه، فقال الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربّه ... إنّ الوليد أحقّ بالعذر

نــادى وقــد تــمّــت صــلاتــهــم ... أأزيــدكــم ســكــراً ومــا يــدري

فــأبــوا أبــا وهــب ولــو أذنــوا ... لــقــرنــت بــيــن الــشــفــع والــوتــر

وَذَكَرَ أبياتاً أُخَر في ذلك عنه، ثم قال وخبر صلاته بهم سكران.

وقوله لهم: أزيدكم؟! بعد أن صلّى الصبح أربعاً مشهورٌ من رواية الثقات من نقل أهل الحديث وأهل الأخبار. ثم قال: ولا خلاف بين أهل العِلْمِ بتأويل القرآن فيما علمت أنّ قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة، وذلك أنّه بعثه رسول الله إلى بني المصطلق مصدقاً فأخبر عنهم أنّهم ارتدّوا وأبوا من أداء الصدقة، وذلك أنّهم خرجوا إليه فهابهم ولم يعرف ما عندهم، فانصرف عنهم وأخبر بما ذكرنا، فبعث إليهم رسول اللهصلّى الله عليه [و آله] خالد بن الوليد وأمره أن يتثبّت فيهم، فأخبروه أنّهم متمسّكون بالإسلام ونزلت... الآية.

وروى عن مجاهد وقتادة مثل ما ذكرنا.

وعن إبن أبي ليلى في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ قال: نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

ومن حديث الحَكَم، عن سعيد بن جبير، عن إبن عبّاس، قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب ﷺ والوليد بن عقبة ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾. إنتهى كلام إبن عبد البرّ.

وقال المسعودي في مروج الذهب: كان عمّاله على أعماله جماعة منهم الوليد بن عقبة على الكوفة، وهو ممّن أخبر النبيّ ﷺ [و آله] إنّه من أهل النّار، وعبد الله بن أبي سرح على مصر، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام، وعبد الله بن عامر على البصرة، وصَرَفَ عن الكوفة الوليدَ وولاّها سعيد بن العاص.

وكان السبب في صرف الوليد على ما روي أنّه كان يشرب مع ندمائه ومغنّيه من أوّل الليل إلى الصباح، فلمّا أذّن المؤذّنون للصّلاة خرج فتقدّم على المحراب في صلاة الصبح فصلّى بهم أربعاً، وقال: أتريدون أن أزيدكم؟! وقيل: إنّه قال في سجوده وقد أطال الشراب فاسقني، فقال له بعض من كان خلفه: ما تريد لا زادك الله بخير، والله ما أعجب إلاّ ممّن بعثك إلينا والياً، وعلينا أميراً، وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفي.

وخطب الناسَ الوليدُ فحصبه الناس بحصى المدينة، وشاع بالكوفة فعله وظهر فسقه ومداومته شرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وأبو جندب بن زهير الأزدي وغيرهما فوجدوه سكراناً مضطجعاً على سريره لا يعقل، فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ، ثم تقيّأ عليهم ما شرب من الخمر فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفّان فشهدوا عنده أنّ الوليد يشرب الخمر، فقال عثمان: وما يدريكم أنّ ما شرب خمرٌ؟ فقالوا: هي الخمرة التي كنّا نشرب في الجاهليّة، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه فزبرهما ودفع في صدورهما، وقال: تنحّيا عنّي. فخرجا وأتيا الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأخبراه بالقصّة.

فأتى عثمانَ وهو يقول: دفعتَ الشهودَ وأبطَلْتَ الحدودَ؟! فقال له عثمان: فما ترى؟ قال عليه السلام: أرى أنْ تَبْعَثَ إلى صاحبك، فإنْ أقاما الشَّهادة عليه في وجهه ولم يدلِ بحجّة أَقَمْتَ عليه الحدّ.

فلمّا حَضَرَ الوليدُ دعاهما فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجّة، فألقى عثمان السّوط إلى الإمام عليّ عليه السلام، فقال الإمام عليّ عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: قم يا بني فأَقِمْ عليه ما أوجب الله عليه. فقال: يكفينيه بعض مَن ترى، فلمّا نظر

الإمام علي عليه السلام إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحدّ عليه توقّياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ الإمام علي عليه السلام السّوط ودنا منه، فلمّا أقبل نحوه سبّه الوليد، وقال: يا صاحب مكث.

فقال عقيل بن أبي طالب وكان فيمن حضر: إنّكَ لتتكلّم يا إبن أبي معيط كأنّكَ لا تدري مَن أنت وأنتَ علجٌ من أهل صفورية ـ كان ذكر أنّ أباه يهوديّ منها ـ.

فأقبل الوليد يروغ من الإمام علي عليه السلام فاجتذبه وضرب به الأرض وعلاه بالسّوط، فقال له عثمان: ليس لكَ أن تفعل به هذا. قال: بلى وشرٌّ من هذا، إذا فَسَقَ ومَنَعَ حقَّ الله أن يُؤخَذَ منه.

فولّى سعيد بن العاص، فلمّا دخل سعيد الكوفة أبى أن يصعد المنبر إلاّ أن يغسل وأمر بغسله، وقال: إنّ الوليد كان نجساً رجيماً، فلمّا اتّصلت أيّام سعيد بالكوفة ظَهَرَتْ منه أُمُورٌ أُنكِرَتْ عليه وابتَزَّ الأموالَ، وقال في بعض الأيّام أو أنّه كتب إلى عثمان: إنّما هذه السّواد فطير لقريش.

فقال له الأشتر: أتجعل ما أفاء الله علينا بسيوفنا ومراكز رماحنا بنياناً لكَ ولقومكَ؟! ثم خرج إلى عثمان في سبعين راكباً فذكر سوء سيرة سعيد وسألوه عزله، ومكث الأشتر وأصحابه أيّاماً لا يخرج إليهم من عثمان في سعيد شيء، واتّصلت أيّامهم بالمدينة[١]. إلى آخر القصّة][٢].

* * *

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٣١ ـ ٢٣٥.

## ـ ٢٣ ـ

## إنكار عائشة والصحابة عليه لمخالفاته

[أنّه لو لم يقدم عثمان على أحداث يُوجِب خَلْعَهُ والبَرَاءَة منه لَوَجَبَ على الصحابة أنْ يُنْكِرُوا على مَن قَصَدَهُ من البلاد متظلّماً، وقد علمنا أنّ بالمدينة كان كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ولم يُنْكِرُوا على القوم بل أَسْلَمُوه ولم يدفعوا عنه، بل أعانوا قاتليه ولم يمنعوا من قتله، وحضروا منع الماءَ عنه وتَرَكُوهُ بعد القتل ثلاثة أيّام لم يدفن، مع أنّهم متمكّنون من خلاف ذلك، وذلك من أقوى الدلائل على ما ذكروه، ولو لم يكن في أمره إلاّ ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: الله قتله وأنا معه، وإنّه كان في أصحابه مَن يُصَرِّح بأنّه قتل عثمان ومع ذلك لا يقيّدهم ولا يُنْكِر عليهم، وكان أهلُ الشّام يُصَرِّحُون بأنّ مع أمير المؤمنين قتلة عثمان، ويجعلون ذلك من أوكد الشبه ولا ينكر ذلك عليهم، مع أنّا نعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد منعهم من قتله والدفع عنه مع غيره لما قتل، فصار كفّه عن ذلك مع غيره من أدلّ الدّلائل على أنّهم صدَّقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث، وأنّهم لم يقبلوا ما جعله عذراً، ولا يشكّ من نظر في أخبار الجانبين في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن كارهاً لِمَا وقع في أمر عثمان.

فقد روى السيّد رضي الله عنه في الشافي، عن الواقدي، عن الحكم بن الصلت، عن محمد بن عمّار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيت عليا عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله حين قُتِلَ عثمان وهو يقول: ما أحببت قتلَه ولا كرِهتُه، ولا أمرتُ به ولا نهيتُ عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عفّان، عن حريز بن بشير، عن أبي جلدة، أنّه سمع عليا عليه السلام يقول وهو يخطب فَذَكَرَ عثمان وقال: والله الّذي لا إله إلاّ هو ما قتلتُه ولا مالأتُ على قتله، ولا ساءني.

ورواه أبو بشير، عن عبيدة السلماني، قال سمعت عليا عليه السلام يقول من كان سائلي عن دم عثمان فإنّ الله قتله وأنا معه.

وقد روي هذا اللفظ من طرق كثيرة، وقد رواه شعبة، عن أبي حمزة الضبعي، قال: قلت لابن عباس: إنّ أبي أخبرني أنّه سمع عليا عليه السلام يقول ألاَ مَنْ كان سائلي عن دم عثمان فإنّ الله قتله وأنا معه. قال: صدق أبوك، هل تدري ما يعني بقوله؟ إنّما عنى أنّ الله قتله وأنا مع الله.

قال السيّد رضي الله عنه: فإن قيل كيف يصحّ الجمع بين معاني هذه الأخبار؟

قلنا: لا تنافي بين الجميع، لأنّه تبرأ من مباشرة قتله والمؤازرة عليه، ثم قال: ما أَمَرْتُ بذلك ولا نَهَيْتُ عنه.. يريد أنّ قاتليه لم يرجعوا إليّ ولم يكن منّي قول في ذلك بأمر ولا نهي، فأمّا قوله: الله قتله وأنا معه، فيجوز أن يكون المراد: الله حَكَمَ بقتله وأوجبه وأنا كذلك، لأنّ من المعلوم أنّ الله لم يقتله على الحقيقة.

فإضافة القتل إلى الله لا يكون إلّا بمعنى الحُكْم والرِّضَا، وليس يمتنع أن يكون ممّا حَكَمَ الله به ما لم يتولّه بنفسه، ولا آزرَ عليه، ولا شايع فيه.

فإن قال: هذا ينافي قوله عليه السلام: ما أحببتُ قتلَه ولا كرهتُه.. وكيف يكون من حكم الله وحكمه أن يقتل وهو لا يحبّ قتله؟!

قلنا: يجوز أنْ يريد بقوله ما أحببتُ قتله ولا كرهتُه.. أنّ ذلك لم يكن منّي

على سبيل التفصيل ولا خطر لي ببال، وإن كان على سبيل الجملة يحبّ قتل مَن غلب على أمور المسلمين، وطالبوه بأنْ يعتزل، لأنّه بغير حقٍّ مستولٍ عليهم فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التبرّؤ من مباشرة قتله والأمر به على سبيل التفصيل أو النهي، ويجوز أن يريد أنّني ما أحببت قتله إن كانوا تعمّدوا القتل ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود، ويريد بقوله ما كرهته.. إنّي لم أكرهه على كلّ حال ومن كلّ وجه. انتهى.

وأقول: يمكن أن يكون المعنى إنّي ما أحببت قتله لتضمّنه الفتن العظيمة الّتي نشأت بعد قتله من ارتداد آلافٍ من المسلمين وقتلهم وعدم استقرار الخلافة عليه صلوات الله عليه، ولا كرهتُه لأنّه كان كافراً مستحقّا للقتل، فلا تنافي بين الأمرين.

وأمّا تركه غير مدفون ثلاثة أيّام فقد رواه ابن عبد البرّ في الإستيعاب، قال: لَمّا قُتِلَ عثمان أُلقِيَ على المزبلة ثلاثة أيّام، فلمّا كان في الليل أتاه اثنا عشر رجلاً فيهم حويطب بن عبد العزّى وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير ومحمد بن حاطب ومروان بن الحكم فلمّا ساروا إلى المقبرة ليدفنوه ناداهم قوم من بني مازن والله لئن دفنتموه هاهنا لنخبرنّ الناس غداً، فاحتملوه وكان على باب وأنّ رأسه على الباب ليقول طق طق حتى ساروا به إلى حشّ كوكب فاحتفروا له، وكانت عائشة بنت عثمان معها مصباح في حقّ، فلمّا أخرجوه ليدفنوه صاحت، فقال لها ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربنّ الذي فيه عيناك. قال: فسكتت، فدُفِن.

وروى إبن أبي الحديد، عن محمد بن جرير الطبري، قال: بقي عثمان ثلاثة أيّام لا يُدْفَن، ثم إنّ حكيم بن حزام وجبير بن مطعم كَلَّمَا عليا عليه السلام في أنْ

يأذنَ في دفنه ففعل، فلمّا سمع الناسُ بذلك قعد له قومٌ في الطريق بالحجارة، وخرج به ناسٌ يسير من أهله، ومعهم الحسن بن علي عليه السلام وابن الزّبير وأبو جهم بن حذيفة بين المغرب والعشاء، فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة، يعرف بحشّ كوكب، وهو خارج البقيع، فصلّوا عليه، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه، فأرسل علي عليه السلام فَمَنَعَ من رَجْمِ سريرِهِ، وكَفَّ الذين راموا مَنْعَ الصّلاة عليه، ودُفِنَ في حشّ كوكب، فلمّا ظهر معاوية على الإمرة أمر بذلك الحائط فهدم وأدخل في البقيع، وأمر الناس فدفنوا موتاهم حول قبره حتّى اتّصل بمقابر المسلمين بالبقيع. وقيل: إنّ عثمان لم يُغَسَّل، وإنّه كُفِّنَ في ثيابه التي قُتِلَ فيها.

وقد روى ذلك إبن الأثير في الكامل والأعثم الكوفي في الفتوح مطابقاً لِمَا حكاه ابن أبي الحديد، وزاد الأعثم إنّهم دفنوه بعدما ذهب الكلاب بإحدى رجليه، وقال: صلّى عليه حكيم بن حزام أو جبير بن مطعم.

ولا يخفى على ذي مسكة من العقل دلالته على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان راضياً بكونه مطروحاً ثلاثةَ أيّامٍ على المزبلة، بل على أنّه لم يَأْذَنْ في دفنِهِ إلاّ بعد الأيّام الثلاثة، فلو كان أمير المؤمنين عليه السلام معتقداً لصحّة إمامته، بل لو كان يراه كأحد من المسلمين ومن عرض الناس لَمَا رضي بذلك بل كان يُعَجِّل في تجهيزه ودفنه، ويأمر بدفنه في مقابر المسلمين حتى لا يلتجئ المجهِّزُون له إلى دفنه في حشّ كوكب.

والحشّ هو المخرج، وكان ذلك الموضع بستاناً كان الناس يقضون الحوائج فيه كما هو دأبُهُم في قضاء الحاجة في البساتين، وكوكب إسم رَجُلٍ من الأنصار، كما ذكره في الإستيعاب. والإمام الّذي رضي له أمير

المؤمنين عليه السلام بمثل تلك الحال فحاله غير خفيٍّ على أولي الألباب، ولا ريب في أنّه لو لم يكن عليه السلام راضياً بقتله لَجاهَدَ قاتِلِيْه، فإنّه ليس في المنكَرات أشنع وأقبح من قَتْلِ إمامٍ فَرَضَ الله طاعتَه على العالمين في حكم الرسول صلى الله عليه وآله بأنّ: «مَنْ مات ولم يعرفه كانت ميتته ميتة جاهليّة».

وقد صرّح عليه السلام في كثير من كلماته بأنّه لم ينه عن قتله ولم ينصره، وأنّه كان في عزلة عن أمره كما سيأتي، وهل يرتاب لبيبٌ في أنّه عليه السلام لو كان نصره أو أنكر قتله لَبَالَغَ في إظهار ذلك للنّاس وفي مكاتباته إلى معاوية، فإنّه لم يكن لمعانديه عليه السلام شبهة أقوى من اتّهامه بقتل عثمان، وإنّما كان عليه السلام يقتصر على التبرّي من قتله لأنّه لم يكن من المباشرين، وذلك ممّا لا يرتاب فيه مَن له معرفة بالسِّيَر والآثار، وحينئذ فالكفّ عن نصرة عثمان والذّبّ عنه إمّا مطعنٌ لا مخلصَ عنه فيمن يدور الحقُّ معه حيثما دار، في أعيان الصحابة الكبار، حيث لم يدفعوا شرذمة قليلة عن إمامتهم في دار عزّهم حتى قتلوه أهون قتلة، وطرحوه في المزابل، ولم يتمكّن رهطه وعشيرته من دفنه في مقابر المسلمين، أو هو قَدْحٌ في ذلك الإمام حيث اختلسَ الخلافةَ وغَصَبَهَا من أهلِهَا، ولم يخلعْ نفسَه منها. فلينظر النّاصرون له في أمرهم بعين الإنصاف، وليتحرّزوا عن اللجاج والاعتساف][١].

* * *

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٣٨ ـ ٢٤١.

## ـ ٢٤ ـ

## إهانة عثمان لأبي ذر الغفاري ونفيه إلى الربذة

[ما صنع بأبي ذرّ رضي الله عنه من الإهانة والضرب والاستخفاف والتشهير مع علوّ شأنه الذي لا يخفى على أحد.

فقد روى السيد رحمه الله في الشافي وابن أبي الحديد في شرح النهج واللفظ للسّيّد: إنّ عثمان لمّا أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث إبن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم، جعل أبو ذر يقول بشّر الكافرين بعذاب أليم، ويتلو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فرفع ذلك مروان إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذرّ نائلاً مولاه أن انتهِ عمّا يبلغني عنك، فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعيب من ترك أمر الله؟! فو الله لئن أرضي الله بسخط عثمان أَحَبُّ إليَّ وخيرٌ لي من أنْ أُرضِيَ عثمان بسخط الله فأغضب عثمان ذلك، فأحفظه وتصابر.

وقال عثمان يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضاه؟!

فقال كعب الأخبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذرّ: يا إبن اليهوديّين، أتعلّمنا ديننا؟!! فقال عثمان: قد كَثُرَ أذاك لي وتولّعك بأصحابي، إلحق بالشام، فأَخْرَجَهُ إليها.

فكان أبو ذرّ يُنْكِر على معاوية أشياءَ يفعلُها، فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذرّ: إنْ كانتْ من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإنْ كانت صلةً فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه.

وبنى معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذرّ: يا معاوية إنْ كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإنْ كانت من مالك فهو الإسراف.

وكان أبو ذرّ رحمه الله يقول: والله لقد حَدَثَتْ أعمالٌ ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا في سنّة نبيه ﷺ، والله إنّي لأرى حقّاً يُطْفَأ، وباطلاً يُحْيَى، وصادقاً يُكَذَّب، وأثرة بغير تقى، وصالحاً مُسْتَأْثَراً عليه. وقال حبيب بن مسلمة الفهريّ لمعاوية: إنّ أبا ذرّ لَمُفْسِدٌ عليكم الشامَ فتداركْ أهله إنْ كانت لكم فيه حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: أمّا بعد، فاحمِلْ جنيدباً إليَّ على أَغْلَظ مركب وأوعَره، فوَجَّهَ به مع من سار به الليل والنهار، وحَمَّلَهُ على شارف ليس عليها إلاّ قتب، حتّى قدم به المدينة، وقد سَقَطَ لحمُ فخذيه من الجهد، فلمّا قَدِمَ أبو ذرّ المدينةَ، بعث إليه عثمان أنْ إلحقْ بأيّ أرض شئتَ، فقال: بمكة. قال لا. قال: فبيت المقدس. قال: لا. قال: فبأحد المصرين. قال: لا، ولكنّي مسيّرك إلى الرّبذة.. فسيّره إليها، فلم يزل بها حتّى مات.

وفي رواية الواقدي أنّ أبا ذرّ لمّا دَخَلَ على عثمان قال له: لا أنعم الله بكَ عيناً يا جنيدب. فقال أبو ذرّ: أنا جندب وسمّاني رسول الله ﷺ عبد الله، فاخترت إسم رسول الله الذي سمّاني رسول الله به على إسمي. فقال له عثمان: أنتَ الذي تزعم أنّا نقول إنّ يدَ الله مغلولة، وإنَّ الله فَقِيرٌ ونَحْنُ أَغْنِياءُ. فقال أبو ذرّ: لو كنتم لا تزعمونه، لأنفقتم مالَ الله على عبادِهِ، ولكنّي أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دخلاً، ثم يريحُ الله العبادَ منهم. فقال عثمان لِمَن حَضَرَه: أ سمعتموها من نبيّ الله ﷺ. فقالوا: ما سمعناه، فقال عثمان: ويلك يا أبا ذرّ أتكذب على رسول الله. فقال أبو ذرّ لِمَن حَضَرَهُ: أما تظنّون أنّي

صدقت. فقالوا: لا، والله ما ندري. فقال عثمان: أدعوا لي عليّاً، فدُعِيَ، فلمّا جاء قال عثمان لأبي ذرّ: أُقْصُص عليه حديثَك في بني أبي العاص، فحَدَّثَهُ، فقال عثمان لعليعليه السلام: هل سمعت هذا من رسول اللهﷺ. فقال عليه السلام: لا[1]، وصَدَقَ أبو ذرّ، فقال: كيف عرفت صدقه؟ فقال عليه السلام: لأنّي سمعت رسول اللهﷺ يقول: ما أَظَلَّتِ الخضراءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ مَن ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرّ، فقال من حضر من أصحاب النبيﷺ جميعاً: لقد صَدَقَ أبو ذرّ، فقال أبو ذرّ: أحدّثُكُم أنّي سمعت هذا من رسول اللهﷺ ثم تتّهموني، ما كنت أظنّ أنّي أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمدﷺ.

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده، عن صهبان مولى الأسلميّين، قال: رأيت أبا ذرّ يوم دخل به على عثمان، فقال له: أنت الذي فعلت.. وفعلت؟! فقال له أبو ذرّ: قد نصحتُكَ فاستغششتني ونصحتُ صاحبكَ فاستغشّني. فقال عثمان: كذبتَ، ولكنّكَ تريد الفتنةَ وتحبُّها، قد قلبت الشام علينا. فقال له أبو ذرّ: إتَّبِعْ سُنَّة صاحبَيك، لا يكون لأحدٍ عليكَ كلام. فقال له عثمان: ما لكَ ولذلك لا أمّ لك. فقال أبو ذرّ: والله ما وجدتُ لي عذراً إلاّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغضب عثمان وقال: أشيروا عَلَيَّ في هذا الشّيخ الكذّاب، إمّا أن أضربَه أو أحْبِسَهُ أو أقْتُلَهُ، فإنّه قد فَرَّقَ جماعةَ المسلمين، أو أنفِيْهِ من الأرض.

فتكلّم عليعليه السلام وكان حاضراً، فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) نحن نشكّ بصحة هذه الرواية، إذ كيف يجهل الإمامعليه السلام ما عَلِمَهُ أبو ذرعليه السلام وهو خازن عِلْم رسول اللهﷺ؟!

يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، فأجابه عثمان بجوابٍ غليظٍ لم أحبّ أن أذكره، وأجابه علي عليه السلام بمثله.

ثمّ إنّ عثمان حظر على الناس أنْ يقاعِدوا أبا ذرّ ويكلّموه[1]، فمَكَثَ كذلك أيّاماً، ثم أمَرَ أن يُؤتَى به، فلمّا أُتِيَ به ووقف بين يديه، قال: ويحك يا عثمان أمَا رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله ورأيتَ أبا بكر وعمر، هل رأيتَ هذا هديهم؟. إنّك لتبطش في بطش جبّار. فقال: أُخرُجْ عنّا من بلادنا. فقال أبو ذرّ: فما أبغض إليّ جوارك فإلى أين أخرج؟! قال: حيث شئت. قال: فأخرج إلى الشام؟. فقال: إنّما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها، أفأردّك إليها؟! قال: إذن أخرج إلى العراق؟! قال: لا. قال: ولِمَ؟! قال: تقدم على قومٍ أهل شبهة

---

(١) وهكذا صار على نهج عثمان في يومنا هذا الأحزاب الشيعيّة التي تتمظهر بثوب التشيُّع وهي بعيدة كلَّ البُعد عنه، فمنعوا من محادثة العلماء المخلصين الذين لا ينتظمون في صفوفهم أو يؤيدونهم على أخطائهم، فحظروا على كوادرهم وأنصارهم عن أنْ يقاعدوا هؤلاء ويكلّموهم، بل حظروا عليهم كلّ شيء حتى السّلام، مضافاً لأبسط الحقوق كالموارد المالية من الأخماس والزكوات وما شابه ذلك لإضعافهم وشلّ نشاطهم، بل الأنكى من ذلك أنهم أصبغوا على كلّ مخالفٍ لهم تهمة العمالة والجاسوسيّة للعدو الصهيوني لاستباحة دمائهم وإبادتهم من الوجود، وهو أسلوبٌ اتبعه المشركون في أواخر البعثة في مكّة ضدّ النبي وأهل بيته فيما سميّ بشعب سيدنا أبي طالب عليه السلام، ثمّ صار على هذا النهج أبو بكر وعمر حيث منعا الخمس والحقوق عن أهل بيت العصمة والطهارة واغتصابهم لأرض فدك التي هي مال خاص لسيدتنا ومولاتنا سيّدة النساء فاطمة عليها السلام، كلّ ذلك للنكتة التي أشرنا إليها آنفاً، فحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم وعَجّلْ فَرَجَ وليِّكَ المنتظر لننعم بالأمن والأمان في ظلّ دولته وتحت كنف رحمته عليه وعلى آبائه آلاف التحية والسَّلام.

وطعن على الأئمّة. قال: فأخرج إلى مصر؟! قال: لا. قال: فإلى أين أخرج؟! قال: حيث شئت. فقال أبو ذرّ: هو إذن التعرّب بعد الهجرة، أخرج إلى نجد؟! فقال عثمان: الشّرف الشّرف الأبعد أقصى فأقصى. فقال أبو ذرّ: قد أبيت ذلك عَلَيَّ. قال: امضِ على وجهك هذا، ولا تعدونّ الرّبذة، فخرج إليها.

أقول: الجواب الغليظ الّذي لم يحبّ ذكره هو قوله لعنه الله: بفيك التراب، وقوله عليه السلام: بل بفيك التراب، كما رواه في تقريب المعارف.

ثم قال: وروى الواقدي، عن مالك بن أبي الرجال، عن موسى بن ميسرة: أنّ أبا الأسود الدؤليّ قال كنتُ أحبّ لقاءَ أبي ذرّ لأسأله عن سبب خروجه، فنزلت الرّبذة، فقلت له: ألا تخبرني خرجت من المدينة طائعاً أو أُخرِجْتَ؟! قال: أَمَا إنّي كنتُ في ثغرٍ من الثغور أغني عنهم، فأُخرِجْتُ إلى مدينة الرسول ﷺ، فقلت: دار هجرتي وأصحابي، فأُخرِجْتُ منها إلى ما ترى، ثم قال: بينا أنا ذات ليلة نائمٌ في المسجد إذ مرّ بي رسول الله ﷺ، فقال: فضربني برجليه، فقال: لأراك نائماً في المسجد. فقلت: بأبي أنت وأمّي غلبتني عيني فنمت فيه.

فقال: كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟! فقلت: إذن ألحق بالشام، فإنّها أرض مقدّسة، وأرض تقيّة الإسلام، وأرض الجهاد. فقال: كيف بك إذا أخرجوك منها. قال: فقلت: له أرجع إلى المسجد. قال: كيف تصنع إذا أخرجوك منه. قلت: آخذ سيفي فأضرب به. فقال رسول الله ﷺ: أَلاَ أدلُّكَ على خيرٍ من ذلك، إستقْ معهم حيث ساقوك، وتسمع وتطيع، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقينّ الله عثمان وهو آثم في جنبي. وكان يقول بالرّبذة: ما ترك الحقّ لي صديقاً. وكان يقول فيها: ردّني عثمان بعد الهجرة أعرابيّا!.

ثم قال السيد رضي الله عنه والأخبار في هذا الباب أكثر من أن نحصرها وأوسع من أن نذكرها.

أقول: وروى المسعودي في مروج الذهب أبسط من ذلك.. إلى أن قال لمّا ردّ عثمان أبا ذرّ رضي الله عنه إلى المدينة على بعير عليه قتب يابس، معه خمسمائة من الصقالبة يطردون به حتى أتوا به المدينة وقد تسلّخت بواطن أفخاذه وكاد يتلف، فقيل له: إنّك تموت من ذلك. فقال: هيهات لن أموت حتى أنفى! وذَكَرَ ما ينزل به من هؤلاء، وفيه ساق الحديث إلى قوله: فقال له عثمان: وارِ وجهكَ عنّي. قال: أسير إلى مكة؟ قال: لا والله، قال: فإلى الشام؟ قال: لا والله، قال: فإلى البصرة؟ قال: لا والله. فاخترْ غير هذه البلدان. قال: لا والله لا أختار غير ما ذكرتُ لكَ ولو تركتَني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان، فسيِّرْني حيثُ شئتَ من البلاد. قال: إنّي مسيِّرُكَ إلى الرّبذة. قال: الله أكبر صَدَقَ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبرني بكلّ ما أنا لاقٍ. قال: وما قال لك؟ قال: أخبرني أنّي أُمْنَعُ من مكة والمدينة وأموتُ بالرّبذة، ويتولّى دفني نفرٌ يردون من العراق إلى نحو الحجاز، وبَعَثَ أبو ذرّ إلى جمل فحمل عليه امرأته، وقيل ابنته، وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الرّبذة، ولما طلع عن المدينة ومروان يسيّره عنها طلع عليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه ابناه عليهما السلام وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمّار بن ياسر، فاعترض مروان وقال: يا عليّ إنّ أمير المؤمنين ينهى الناس أن يمنحوا أبا ذرّ أو يسقوه، فإنْ كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمتُك، فَحَمَلَ عليه بالسّوط، فضرب بين أذني ناقة مروان وقال: تنحّ نحّاك الله إلى النار، ومضى مع أبي ذرّ فشيّعه ثم وَدَّعَه وانصرف، فلمّا أراد علي عليه السلام الإنصراف بكى أبو ذرّ وقال: رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتُكَ يا أبا الحسن وولدك ذكرتُ بكم رسول الله صلى الله عليه وآله.

فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به عليّ عليه السلام.

فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعدوني من عليّ ردّ رسولي عمّا وجّهته له، وفعل وفعل، والله لنعطيه حقّه.

فلمّا رجع عليّ استقبله الناس وقالوا: إنّ أمير المؤمنين عليكَ غضبان لتشييعك أبا ذرّ.

فقال علي عليه السلام: غضب الخيلُ على اللجمِ!

فلمّا كان بالعشيّ وجاء عثمان قال: ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ بمروان ولِمَ اجترأتَ عَلَيَّ ورَدَدْتَ رسولي وأمري؟!

فقال عليه السلام: أمّا مروان فاستقبلني بردّي فَرَدَدْتُهُ عن ردّي، وأمّا أمرُك لم أردّه.

فقال عثمان: ألم يبلغك أنّي قد نهيت الناس عن أبي ذرّ وشيعه؟!

فقال علي عليه السلام: أوكلّما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحقّ في خلافه اتّبعنا فيه أمرك؟! لعمر الله ما نفعل.

فقال عثمان: أقد مروان. قال وممّ أقيده؟! قال: ضربت بين أذني راحلته وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك.

قال الإمام علي عليه السلام: أمّا راحلتي فهي تلك، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فعل، وأمّا أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنّك بمثله لا كذب فيه ولا أقول إلاّ حقّاً.

قال عثمان ولم لا يشتمك إذا شتمته؟! فوالله ما أنت بأفضل عندي منه.

فغضب الإمام علي عليه السلام وقال لي: تقول هذا القول؟! أمروان يعدل بي فلا والله أنا أفضل منك وأبي أفضل من أبيك، وأمّي أفضل من أمّك، وهذه نبلي قد نثلتها فانثل نبلك.

فغضب عثمان واحمرَّ وجهُه وقام فدخل. وانصرف الإمام علي عليه السلام فاجْتَمَعَ إليه أهلُ بيته ورجالُ المهاجرين والأنصار.

فلمّا كان من الغد واجتمع الناس شكا إليهم الإمام عليا عليه السلام وقال: إنّه يغشّني ويظاهر مَن يغشّني، يريد بذلك أبا ذرّ وعمّاراً أو غيرهما.

فدخل الناس بينهما حتى اصطلحا. وقال الإمام عليّ عليه السلام: والله ما أردتُ بتشييعي أبا ذرّ إلاّ الله تعالى. انتهى.

**مناقب أبي ذر من طرق العامّة:**

١ ـ وروى إبن الأثير في جامع الأصول برواية الترمذي، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أَظَلَّتِ الخضراءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ أصدق لهجةً من أبي ذرّ، أشبه عيسى في ورعه. قال عمر: أفنعرّف ذلك له يا رسول الله، قال: نعم، فاعرفوا له.

٢ ـ وعن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله أمرني بحبّ أربعة وأخبرني أنّه يحبُّهم. قيل: يا رسول الله سمّهم لنا. قال: عليٌّ منهم.. يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان، أمرني بحبّهم وأخبرني أنّه يحبّهم.

وعن إبن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق من أبي ذرّ. قال أخرجه الترمذي.

وعن أبي ذرّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت

الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ، شبيه عيسى إبن مريم. فقال عمر بن الخطاب: كالحاسد يا رسول الله ﷺ أفنعرف ذلك له. قال نعم، فاعرفوه. قال: أخرجه الترمذي، وقال: قد روى بعضهم هذا الحديث فقال: «أبو ذرّ يمشي في الأرض بزهد عيسى إبن مريم».

أقول: وإذا كان أبو ذرّ رضوان الله عليه من الذي يُحِبُّهُم الله وَأَمَرَ رسولَه بِحُبِّهِم فإيذاؤه والإهانة به في حكم المعاداة لله ولرسولِهِ، وإذا كان أصدق الناسِ لهجةً فحالُ من شهد عليه بالكذب والضلال معلومٌ، وما اشْتَمَلَتْ عليه القصّة من منازعته مع أمير المؤمنين عليه السلام وشتمه يكفي في القدح فيه ووجوب لعنه][1].

* * *

## ـ ٢٥ ـ

## إهانته لعبد الله بن مسعود وعمّار بن ياسر

**[ومن جملة طعونه:**

أنّه ضرب عبد الله بن مسعود حتّى كسر بعض أضلاعه، وقد رووا في فضله في صحاحهم أخباراً كثيرةً، وكان إبن مسعود يذمّه ويشهد بفسقه وظلمه.

قال السيد رضي الله عنه في الشافي قد روى كلّ من روى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طرقهم أنّ إبن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برمل عالج يحثو عَلَيَّ وأحثو عليه حتى يموت الأعجز منّي ومنه.

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٤٣ ـ ٢٥٠.

ورووا أنّه كان يطعن عليه فيقال له: ألا خرجت إليه ليخرج معك؟ فيقول: والله لأنْ أزاول جبلاً راسياً أحبُّ إليَّ من أنْ أزاول ملكاً مؤجّلاً.

وكان يقول في كلّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: إنّ أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدي هدى محمدﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدث بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، وإنّما كان يقول ذلك معَرِّضاً بعثمان حتى غضب الوليد بن عقبة من استمرار تعريضه ونهاه عن خطبته هذه فأبى أنْ ينتهي، فكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان يستقدمه عليه.

وقد روي عنه من طرق لا تحصى كثرة أنّه كان يقول: ما يزن عثمان عند الله جناح بعوضة.. وأوصى عند موته أنْ لا يصلّي عليه عثمان، ولمّا أتاه عثمان في مرضه وطلب منه الإستغفار قال: أسأل الله أنْ يأخذَ لي منكَ بحقّي.

وروى الواقدي بإسناده، وغيره، أنّ عثمان لمّا استقدَمَه المدينة دخلها ليلة جمعة، فلمّا علم عثمان بدخوله، قال أيّها الناس إنّه قد طرقكم الليلة دويبة من تمرّ على طعامه تقيء وتسلح. فقال إبن مسعود: لست كذلك، ولكنّي صاحب رسول اللهﷺ يوم بدر، وصاحبه يوم أُحُد، وصاحبه يوم بيعة الرّضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين.

قال فصاحت عائشة: يا عثمان أتقول هذا لصاحب رسول اللهﷺ؟! فقال عثمان: أسكُتي. ثم قال لعبد الله بن زمعة بن الأسود: أَخْرِجْهُ إخراجاً عنيفاً، فأخذه إبن زمعة فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض فكسر ضلعاً من أضلاعه.

فقال إبن مسعود قتلني إبن زمعة الكافر بأمر عثمان.

وفي رواية أخرى أنّ إبن زمعة الذي فعل به ما فعله كان مولى لعثمان أسود، وكان مشذّبا طوالاً.

وفي رواية أنّ فاعل ذلك يحموم مولى عثمان.

وفي رواية أنّه لّما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدكَ الله أنْ تخرجني من مسجد خليلي رسول الله ﷺ.

قال الراوي: فكأنّي أنظر إلى حموشة ساقي عبد الله بن مسعود ورجلاه يختلفان على عنق مولى عثمان حتى أُخْرِجَ من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: لَسَاقَا إبن أمّ عبد أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد.

وقد روى محمَّد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرطي أنّ عثمان ضرب إبن مسعود أربعين سوطاً في دفنه أبي ذرّ، وهذه قصّة أخرى، وذلك أنّ أبا ذرّ لمّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ بالرّبذة وليس معه إلاّ امرأته وغلامه أوصى إليهما أن غسّلاني ثم كفّناني ثم ضَعَانِي على قارعة الطريق، فأوّل رَكْبٍ يمرّون بكم قولا لهم: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

فلمّا مات فعلا ذلك، وأقبل إبن مسعود في رَكْبٍ من العراق معتمرين، فلم يرعهم إلاّ الجنازة على قارعة الطريق قد كادت الإبل تطؤها، فقام إليهم العبد، فقال: هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فأنهل إبن مسعود باكياً وقال: صَدَقَ رسول الله ﷺ، قال: تمشي وحدَكَ، وتموت وحدَكَ، وتُبْعَثُ وحدَكَ، ثم نزل هو وأصحابُه فواروه. هذا بعض ما رواه في الشافي آخذا من كتبهم المعتبرة.

وقد رووا في أصولهم المشهورة كجامع الأصول والإستيعاب وصحاحهم المتداولة مناقب جمّة لابن مسعود لم ينقلوا مثلها لعثمان تركناها مخافة الإطناب.

فضَرْبُهُ وإخْرَاجُهُ وإهانَتُهُ وإيذاؤه من أعظم الطعون على عثمان بن عفّان.

**ومن طعونه أيضاً:**

ما صنع بعمّار بن ياسر رضي الله عنه الذي أطبق المؤالف والمخالف على فضله وعلوّ شأنه، ورووا أخباراً مستفيضةً دالّةً على كرامته وعلوّ درجته.

قال السيد رضي الله عنه في الشافي: ضَرْبُ عمّار ممّا لم يختلف فيه الرواة وإنّما اختلفوا في سببه.

فروى عباس بن هشام الكلبي، عن أبي مخنف في إسناده أنّه كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حليّ وجوهرٌ، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطَّعْنَ عليه في ذلك، وكلَّمُوهُ فيه بكلّ كلامٍ شديدٍ حتى غضب فخطب، وقال: لنأخذنّ حاجَتَنا من هذا الفيء وإنْ رُغِمَتْ أنوفُ أقوامٍ.

فقال له علي عليه السلام: إذاً تمنع من ذلك ويُحال بينكَ وبينَه، فقال عمّار: أشهد الله أنّ أنفي أوّل راغم من ذلك، فقال عثمان: أعَلَيَّ يا إبن ياسر وسميّة تجتري خذوه، فأخذوه، ودخل عثمان فدعا به وضربه حتّى غشي عليه، ثم أُخْرِجَ فحُمِلَ إلى منزل أمّ سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب، فلمّا أفاق توضّأ وصلّى. وقال:

الحمد لله، ليس هذا أوّلُ يوم أوذينا فيه في الله تعالى، فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي: وكان عمّار حليفاً لبني مخزوم، يا عثمان أمّا عليّ فاتّقيته، وأمّا نحن فاجترأتَ علينا وضربتَ أخانا حتى أشفيتَ به على التلف، أمَا والله لئن مات لأقتُلَنَّ به رَجُلاً من بني أميّة عظيم الشأن! فقال عثمان: وإنّك لهاهنا يا إبن القسرية؟!!

قال: فإنّهما قسريّتان وكانت أمّه وجدّته قسريّتين من بجيلة، فَشَتَمَه عثمان وأَمَرَ به فأُخرِج، فأُتِيَ به أمّ سلمة فإذا هي قد غَضِبَتْ لعمّار، وبَلَغَ عائشة ما صُنِعَ بعمّار فغَضِبَتْ وأَخرَجَتْ شعراً من شعر رسول الله ﷺ ونعلاً من نعاله وثوباً من ثيابه، وقالت: ما أسرع ما تركتم سُنَّةَ نبيّكم، وهذا ثوبُه وشعرُه ونعلُه لم يبلُ بعد.

وروى آخرون أنّ السَّبَبَ في ذلك أنّ عثمان مرَّ بقبرٍ جديدٍ، فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن مسعود، فغضب على عمّار لكتمانه إيّاه موته إذ كان المتولّي للصّلاة عليه والقيام بشأنه فعندها وطئ عثمان عمّاراً حتى أصابه الفتق.

وروى آخرون أنّ المقداد وطلحة والزّبير وعمّاراً وعدّة من أصحاب رسول الله ﷺ كتبوا كتاباً عدّدوا فيه أحداث عثمان وخوّفوه ربّه، وأعلموه أنّه مواثبوه إنْ لم يقلع، فأخذ عمّار الكتاب فأتاه به فقرأ منه صدراً، فقال عثمان: أَعَلَيَّ تقدم من بينهم، فقال: لأنّي أنصحهم لك، فقال: كذبت يا إبن سميّة، فقال: أنا والله إبن سميّة وأنا إبن ياسر.

فأمر غلمانه فمدّوا بيديه ورجليه ثم ضربه عثمان برجليه وهما في الخفّين على مذاكيره فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً فغُشِيَ عليه.

ثم قال رحمه الله: وقد روي من طرقٍ مختلفةٍ وبأسانيدٍ كثيرةٍ، أنّ عماراً كان يقول: ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرّابع، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأنا أشهد أنّه قد حكم بغير ما أنزل الله.

وروي عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة، أنّه قيل له: بأيّ شيءٍ أكفرتم عثمان؟ فقال بثلاث، جعل المال دولة بين الأغنياء، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ بمنزلة مَن حارب الله ورسوله، وعمل بغير كتاب الله.

ثم ساق السيّد الكلام إلى أن قال: فلا عُذْرَ يسمع من إيقاع نهاية المكروه مّمن روي أنّ النبيﷺ قال فيه: «عمّار جلدة ما بين العين والأنف ومتى تنكى الجلدة تدم الأنف».

وروي أنّه قال ﷺ: «ما لهم ولعمّار يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار».

وروي عن خالد أنّ رسول اللهﷺ قال: «مَن عادى عمّاراً عاداه الله، ومن أبغض عمّاراً أبغضه الله».

و أيّ كلامٍ غليظٍ سَمِعَه عثمان من عمّار يستحقّ به ذلك المكروه العظيم الذي تجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى في الحدود؟!! وإنّما كان عمّار وغيره يبيّن عليه أحداثه ومعايبه أحياناً على ما يظهر من سيّئ أفعاله، وقد كان يجب عليه أحد أمرين:

إمّا أن ينزع عمّا يوافق عليه من تلك الأفعال، أو أن يبيّن عذره فيها، وبراءته منها ما يظهر ويشتهر وينتشر، فإنْ أقام مقيمٌ بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجره عن ذلك بوعظ أو غيره، ولا يقدم على ما يفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحكمه به. انتهى.

وعندي أنّ السبب الحامل لعثمان على ما صنع بعمّار هو أنّ عمّاراً كان من المجاهرين بحبّ عليعليه السلام، وأنّ من غلبه على الخلافة غاصب لها، فحملته عداوته لأمير المؤمنينعليه السلام وحبّه للرئاسة على إهانته وضربه حتى حدث به الفتق وكسر ضلعاً من أضلاعه، فإنّه قد ذكر إبن الأثير في الكامل وغيره في غيره في قصّة الشورى أنّ عمّاراً كان يقول لإبن عوف: إنْ أردتَ أن لا يختلفَ المسلمون فبايع عليّاًعليه السلام، وعارضه في ذلك عبد الله بن أبي سرح وغيره واشتدّ الأمر وشتم بعضهم بعضاً.

وروى المسعودي في مروج الذهب: إنّ عمّاراً حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان، ودخل داره ومعه بنو أميّة، فقال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم وقد كان عمي، قالوا: لا. قال: يا بني أميّة تلقّفوها تلقّف الكرة، والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة، فانتهره عثمان وساءه ما قال، وأنهى هذا القول إلى المهاجرين والأنصار، فقام عمّار في المسجد، فقال: يا معشر قريش أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم مرّة هاهنا ومرّة هاهنا فما أنا بآمن أنْ ينْزَعَه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهل هذا البيت بعد نبيّكم.

وروى إبن أبي الحديد، عن أبي بكر الجوهري أنّ أبا سفيان قال لما بويع عثمان: كان هذا الأمر في تيم، وأنّى لتيم هذا؟! ثمّ صار إلى عديّ فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها واستقرّ الأمر قراره، فتلقّفوها تلقّف الكرة.

قال: وقال أبو بكر: وحدّثني مغيرة بن محمد المهلّبي، قال: ذاكرتُ إسماعيل بن إسحاق القاضي بهذا الحديث، وأنّ أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت أنفِقْ ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أميّة تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنّة ولا نار، وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: أعزب، فقال: يا بنيّ هاهنا أحد؟! قال الزبير: نعم، والله لا كتمتها عليك، قال: فقال إسماعيل: هذا باطلٌ. قلت: وكيف ذلك؟! قال: ما أنكر هذا من أبي سفيان، ولكن أنكر أن يكون عثمان سمعه ولم يضرب عنقه. انتهى.

وإنّما أوردتُ هذا الخبر ليظهر لك حقيقة إسلام القوم.

ولنرجع إلى بعض ما كنّا فيه روى إبن أبي الحديد نقلاً من كتاب السقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري بإسناده، عن أبي كعب الحارثي، قال: أتيتُ

المدينة فأتيتُ عثمان إبن عفّان وهو الخليفة يومئذ، فسألتُه عن شيءٍ من أمر ديني، وقلتُ: يا أمير المؤمنين إنّي رجلٌ من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب، وإنّي أريد أن أسألك عن أشياء فأمر حاجبك أن لا يحجبني. فقال: يا وثاب إذا جاءك هذا الحارثي فأذن له. قال: فكنت إذا جئتُ قرعتُ الباب، قال: من ذا؟ فقلت: الحارثي، فيقول: أدخل.

فدخلتُ يوماً فإذا عثمان جالس وحوله نفرٌ سكوتٌ لا يتكلّمون كأنّ على رؤوسهم الطير، فسلّمتُ ثم جلستُ، فلم أسأله عن شيء لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله، فبينا أنا كذلك إذ جاء نفرٌ فقالوا: إنّه أبى أن يجيء. قال: فغضب وقال: أبى أن يجيء! إذهبوا فجيئوا به، فإنْ أبى فجُرُّوهُ جَرّاً، قال: فمكثت قليلاً فجاؤا ومعهم رجل آدم طوال أصلع في مقدّم رأسه شعرات وفي قفاه شعرات، فقلت: من هذا؟ قالوا: عمّار بن ياسر.

فقال له عثمان: أنتَ الّذي يأتيك رسلنا فتأبى أن تجيء؟! قال: فكلّمه بشيء لم أدرِ ما هو، ثم خرج فما زالوا ينفضّون من عنده حتّى ما بقي غيري، فقام، فقلتُ: والله لا أسأل عن هذا الأمر أحداً، أقول: حدّثني فلان حتّى أدري ما يصنع.

فتبعته حتى دخل المسجد، فإذا عمّار جالس إلى سارية وحوله نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يبكون. فقال عثمان: يا وثاب عَلَيَّ بالشرط، فجاؤا، فقال: فرّقوا بين هؤلاء، ففرَّقوا بينهم، ثم أُقيمت الصّلاة فتقدّم عثمان فصلّى بهم، فلمّا كبّر قالت امرأة من حجرتها: يا أيّها الناس.. ثم تكلَّمَتْ فَذَكَرَتْ رسول الله ﷺ وما بعثه الله به، ثم قالت: تركتُم أمرَ الله وخالفتم عهده.. ونحو هذا، ثم صَمَتَتْ، وتكَلَّمَتْ إمرأة أخرى بمثل ذلك فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلّم عثمان وأقبل على الناس وقال: إنّ هاتين لفتّانتان يحلّ لي سبّهما وأنا بأصلهما عالمٌ، فقال له سعد بن أبي وقّاص: أتقول هذا لحبائب رسول الله ﷺ؟! فقال: وفيم أنت وما هاهنا، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه فانسلّ سعد، فخرج من المسجد، فاتّبعه عثمان فلقي علياً عليه السلام بباب المسجد، فقال له علي عليه السلام: أين تريد؟ فقال: أريد هذا الذي. . كذا وكذا يعني سعد، فقال له الإمام علي عليه السلام: أيّها الرجل دع عنك هذا، قال: فلم يزل بينهما كلام حتّى غضبا. فقال عثمان: ألست الذي خلّفك رسول الله ﷺ يوم تبوك. فقال علي عليه السلام: ألست الفارّ عن رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: ثم حجز الناس بينهما، قال: ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الكوفة فوجدتُ أهلها أيضاً بينهم شر ونشبوا في الفتنة وردّوا سعد بن العاص فلم يدعوه يدخل إليهم، فلمّا رأيت ذلك رجعت حتى أتيتُ بلاد قومي.

وسيأتي الأخبار في فضل عمّار، وهو أشهر من الشمس في رابعة النهار.

وقد روى إبن عبد البرّ في الإستيعاب وغيره، عن عائشة، قالت: ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلاّ عمّار بن ياسر، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ملئ عمّار إيماناً حتى أخمص قدميه.

وبرواية أخرى حشي ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنه إيمانا.

وعن خالد بن الوليد أنّ رسول الله ﷺ قال: مَنْ أبغض عمّاراً أبغضه الله. قال خالد: فما زلتُ أحبُّه من يومئذ.

وعن أنس عنه ﷺ أنّه قال: إشتاقت الجنّة إلى عليٍّ وعمّار وسلمان وبلال.

وعن علي عليه السلام قال: جاء عمّار بن ياسر يستأذن على النبي ﷺ يوماً فعرف صوته، فقال: مرحباً بالطيّب المطيّب، إئذنوا له.

وروى في المشكاة، عن الترمذي، عن أبي هريرة في حديث قال: عمّار هو الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ.

وعن أنس، عنه ﷺ قال: إنّ الجنّة تشتاق إلى ثلاثة عليّ وعمّار وسلمان.

وعن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ ما خُيِّرَ عمّار بين أمرين إلاّ اختارَ أشدَّهُما على بدنه.

وعن أحمد بإسناده، عن خالد بن الوليد، قال: كان بيني وبين عمّار بن ياسر كلامٌ فأغلظتُ له في القول، فانطلق عمّار يشكوني إلى رسول الله ﷺ، قال: فجاء خالد وهو يشكوه إلى النبي ﷺ، قال: فجعل يغلظه له ولا يزيده إلاّ غلظة والنبي ﷺ ساكتٌ لا يتكلّم، فبكى عمّار وقال: ألا تراه؟! فرفع النبي ﷺ رأسَه، وقال: مَن عادى عمّاراً عاداه الله، ومَن أبغض عمّاراً أبغضه الله. قال خالد: فخرجتُ فما كان شيءٌ أحبُّ إليّ من رضى عمّار، فلقيته بما رضي فرضي.

وروى في جامع الأصول، عن البخاري، عن عكرمة، عن أبي سعيد الخدري في ذكر بناء المسجد، قال: كنّا نحمل لبنة لبنة وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فجعل رسول الله ﷺ ينفض التراب عنه، ويقول: ويح عمّار يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار. قال: ويقول عمّار: أعوذ بالله من الفتن.

وروى من صحاحهم الأخبار السالفة بأسانيد. ولا يخفى على عاقلٍ بعد ملاحظة الأخبار السابقة التي رووها في صحاحهم حال مَن ضَرَبَ وَشَتَمَ وَأَهَانَ

وَعَادَى رَجُلاً قال فيه النبي ﷺ: إنّ مَنْ عاداه فقد عادى الله، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فقد أَبْغَضَ الله، وإنّ الجنّةَ تشتاقُ إليه، وإنّه مملوٌّ إيماناً، وإنّ الله أجارَه من الشيطانِ، وكفى بذلك كفراً ونفاقاً وطغياناً وشقاقاً][1].

* * *

ـ ٢٦ ـ

## حرقه المصاحف وجمع الناس على قراءة زيد بن ثابت

[أنّه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصّة وأحرق المصاحف وأبطل ما لا شكّ أنّه منَزَّلٌ من القرآن، وأنّه مأخوذ من الرسول ﷺ، ولو كان ذلك حسناً لسبق إليه رسول الله ﷺ، وقد جاء في الأخبار أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ كما أوصى به فجاء به إلى المهاجرين والأنصار، فلمّا رأى أبو بكر وعمر اشتماله على فضائح القوم أعرضا عنه وأمرا زيد بن ثابت بجمع القرآن وإسقاط ما اشتمل منه على الفضائح، ولمّا استخلف عمر سأل علياً عليه السلام أن يدفع إليه القرآن الّذي جمعه ليحرقه ويبطله، فأبى عليه السلام عن ذلك، وقال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ من وِلْدِي، ولا يظهر حتّى يقوم القائم من أهل البيت عليهم السلام، فيحمل الناس عليه ويجري السُّنَّة على ما يتضمّنه ويقتضيه، والأخبار الدالة على ذلك كثيرة من طرق الخاصة والعامّة[*]، وتفصيل القول في هذا الطعن إنما يتمّ من وجهين:

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٨، الطعن الخامس والطعن السادس.

(*) راجع: بحار الأنوار: ٨٩/ ٤٠ ـ ٧٧.

الأوّل: أنّ جَمْعَ الناس على قراءة زيد بن ثابت إبطالٌ للقرآن المنزل، وعدولٌ عن الرّاجح إلى المرجوح في اختيار زيد بن ثابت من حملة قراءة القرآن، بل هو ردٌّ صريح لقول الرسولﷺ على ما يدلّ عليه صحاح أخبارهم.

والثاني: أنّ إحراق المصاحف الصّحيحة إستخفاف بالدّين ومحادّة لله ربّ العالمين.

أمّا الثاني، فلا يخفى على مَنْ له حَظٌّ من العقل والإيمان.

وأمّا الأول، فلأنّ أخبارهم متضافرة في أنّ القرآن نَزَلَ على سبعة أحرف، وأنّ النبيﷺ لم ينهَ أحداً عن الإختلاف في قراءة القرآن بل قرّرهم عليه، وصَرَّحَ بجوازه، وأَمَرَ الناس بالتعلّم من إبن مسعود وغيره ممّن منع عثمان من قراءتهم، وورد في فضلهم وعلمهم بالقرآن ما لم يرد في زيد بن ثابت، فجمع الناس على قراءته وحظر ما سواه ليس إلاّ ردّاً لقول رسول اللهﷺ، وإبطالاً للصحيح الثابت من كتاب الله عزّ وجلّ. فأمّا ما يدلّ من رواياتهم على أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وعلى تقرير النبيﷺ على الاختلاف في القراءة.

فمنها: ما رواه البخاري، عن إبن عباس أنّ رسول اللهﷺ قال: أقرأني جبرئيل على حرف فراجعته فزادني، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتّى انتهى على سبعة أحرف.

وروى في جامع الأصول، عن البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والنسائي بأسانيدهم، عن عمر بن الخطاب، قال: سمعتُ هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول اللهﷺ فاستمعتُ لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأها رسول اللهﷺ، فكدت أساوره في الصّلاة، فتربّصتُ حتّى سلّم فلببته بردآء، فقلت: مَن أقرأكَ هذه السورة التي سمعتك تقرأها؟! قال: أقرأنيها

رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإنّ رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقتُ به أقودُه إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: إنّي سمعتُ هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها. فقال رسول الله ﷺ: أرسله، إقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التّي سمعتُه يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنزِلَتْ، ثم قال: إقرأ يا عمر. فقرأته القراءة التّي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنزِلَتْ، إنّ هذا القرآن أُنزِلَ على سبعة أحرف ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

قال في جامع الأصول: أخرجه الجماعة، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وروى مسلم والترمذي وأبي داود والنسائي في صحاحهم وأورده في المشكاة وفي جامع الأصول عن أبي بن كعب، قال: كنتُ في المسجد فدخل رجلٌ يصلّي فقرأ قراءة أنكرتُها، ثم دخل رجل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلمّا قُضِيَت الصّلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إنّ هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، فدخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما النبي ﷺ فقرءا فحسّن شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب والأذى إذ كنتُ في الجاهليّة، فلمّا رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني، ضرب في صدري ففضتُ عَرَقَاً، وكأنّما أنظر إلى الله فرقاً. فقال لي: يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددتُ إليه أنْ هوّن على أمّتي، فردّ إليّ الثانية اقرأه على حرفين، فرددتُ إليه أن هوّن على أمّتي، فردّ إليّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف، ولكَ بكلّ ردّة رددتكها مسألة تسألنيها، فقال: اللّهمّ اغفر لأمّتي، اللّهمّ اغفر لأمّتي، وأخّرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلّهم حتّى إبراهيم عليه السلام.

قال المجلسي: وقد رووا روايات كثيرة بتلك المضامين لا نطيل الكلام

بإيرادها، وفي بعضها قال: لقي رسول الله ﷺ جبرئيل، فقال: يا جبرئيل إنّي بعثتُ إلى أمّة أمّيّين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لا يقرأ كتاباً قطّ، فقال لي: يا محمّد إنّ القرآن أُنزِلَ على سبعة أحرف.

فهذه الأخبار كما ترى صريحة في جواز القراءة على الوجوه المختلفة، وأنّ كلاً من الأحرف السبعة من كلام الله المنزل، وفي بعض الروايات تصريح بأنّه ﷺ كره المنع من القراءات المتعدّدة، فجمع الناس على قراءة واحدة، والمنع عمّا سواها ردٌّ صريح ومضادّةٌ لنصّ الرسول ﷺ.

وما قيل: من أنّ المراد بنزوله على سبعة أحرف اشتماله على سبعة معانٍ، كالوعد والوعيد والمحكم والمتشابه والحلال والحرام والقصص والأمثال والأمر والنهي ونحو ذلك. فالأخبار تدفعه(*)، لأنّها ناطقة بأنّ السبعة الأحرف ممّا يختلف به اللفظ وليس الاختلاف فيها مقصوراً على المعنى. وكذا ما يقال: من أنّ هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطتها عنه الأئمّة وأثبتها عثمان والجماعة في المصحف وأخبروا بصحّتها، وإنّما حذفوا عنها ما لم يثبت متواتراً، وإنّ هذه الأحرف تختلف معانيها تارةً وألفاظها أخرى.

فهو مردود بأنّ مَن راجع السير وكتب القراءة علم أنّ مصحف عثمان لم يكن إلاّ حرفاً واحداً، وأنّه أبطل ما سوى ذلك الحرف، ولذلك نقم عليه إبن

---

(*) ما فهمه المجلسي ليس صريحاً في أخبارنا، بل غاية ما هناك أنّ أئمتنا ﷺ أمرونا بقراءة القرآن كما يقرأه الناس حتى ظهور مولانا الإمام القائم (عج)، وأين هذا من الدعوى المذكورة؟ بل يمكننا القطع أنّ دعواه موافقة للمخالفين القائلين بالسبعة أحرف.

مسعود وغيره، وكان غرضه رفع الإختلاف وجمع الناس على أمرٍ واحدٍ، واختيار هؤلاء السبعة من بين القرّاء، والاقتصار على قراءتهم، ورفض مَن سواهم من القرّاء على كثرتهم إنّما هو من فعل المتأخّرين، وقد تشعّبت القراءات واختلفت كلمة القرّاء بعدما جمع عثمان الناس على قراءة زيد بن ثابت، وكتب المصاحف السبعة على المشهور بين القرّاء، فبعث بواحد منها إلى الكوفة وبواحد إلى البصرة وإلى كلٍّ من الشام ومكة واليمن والبحرين بواحدٍ وأمسك في المدينة مصحفاً كانوا يقولون له الإمام.

ثم لمّا كانت تلك المصاحف مجرَّدة عن النّقط وعلامة الإعراب ونحو ذلك، وكانت الكلمات المشتملة على حرف الألف مرسومة فيها بغير ألف، اختلفت القراءات بحسب ما تحتمله صورة الكتابة، فقرأ كلٌّ بما ظنّه أولى من حيث المعنى أو من جهة قواعد العربية واللغة إلاّ في مواضع يسيرة لم يتّفقوا على صورة الكتابة، والظاهر أنّها نَشَأَتْ من كتّاب المصاحف السبعة، واختلافها إمّا لأنّ كلاً منهم كتب الكلمة بلغة كانت عنده أصحّ كالصّراط بالصاد والسين، أو للسّهو والغفلة، أو لاشتباهٍ حَصَلَ في صورةِ الكتابة.

وبالجملة، جميع القرّاء المتأخّرين عن عصر الصحابة السبعة وغيرهم يزعمون مطابقة قراءتهم لمصحفٍ من مصاحف عثمان، بل للقراءة الواحدة التي جمع عثمان الناس عليها وأمر بترك ما سواها، فهذه القراءات إنّما تشعّبت عن مصاحف عثمان.

ولذلك اشتراط علماء القراءة في صحّة القراءة ووجوب اعتبارها ثلاثة شروط كونها منقولة عن الثقات، وكونها غير مخالفة للقواعد، وكونها مطابقة لرسم مصحفٍ من تلك المصاحف، بحيث تحتملها صورة الكتابة وإن كانت

محتملة لغيرها، وادّعوا انعقاد الإجماع على صحّة كلّ قراءة كانت كذلك، ولما كَثُر اختلاف القرّاء وتكثّرت القراءات الصحيحة عندهم جرى المتأخّرون منهم على سنّة عثمان في إبطال القراءات، فاقتصر طائفة منهم على السّبعة، وزاد طائفة ثلاثة، وزاد بعضهم على العشرة، وطرح بعضهم الثلاثة من العشرة، وزاد عشرين رجلاً، وزاد الطبري على السبعة نحو خمسة عشر رجلاً، وقد فعلوا بالرواة عن السبعة أو العشرة أو فوقهما ما فعلوا بهؤلاء، فاعتبروا قوماً من الرواة وطرحوا أكثرهم.

وقد بسط الجزري في النشر الكلام في ذلك، قال بعد إيراد تشعّب القراءات وكثرتها ما هذا لفظه: بلغنا عن بعض من لا عِلْمَ له أنّ القراءات الصحيحة هي التّي عن هؤلاء السبعة، أو أنّ الأحرف السبعة التّي أشار إليها النبيﷺ هي قراءة هؤلاء السّبعة، بل غلب على كثير من الجهّال أنّ القراءات الصحيحة هي التّي في الشاطبيّة والتيسير، وأنّها هي المشار إليها بقوله ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف، وأنّ بعضهم يطلق على ما لم يكن في هذين الكتابين أنّه شاذ.

ثم قال: وإنّما أوقع هؤلاء في الشبهة كونهم سمعوا أنزل القرآن على سبعة أحرف، وسمعوا قراءات السبعة، فظنّوا أنّ هذه السبعة هي تلك المشار إليها، ولذلك كره كثير من الأئمّة المتقدّمين اقتصار إبن مجاهد على سبعة من القرّاء وخطّأه في ذلك، وقالوا: ألا اقتصر على دون هذا العدد أو زاده أو بين مراده ليخلّص من لا يعلم من هذه الشبهة، ثم نقل مثل هذا الكلام عن إمامه أبي العباس المهدوي.

أقول: فظهر أنّ تعدّد تلك القراءات لا ينفع في القدح فيما فعله عثمان من

المنع من غير قراءة زيد بن ثابت وجمع الناس عليها، ثم لو تنزّلنا عن هذا المقام وقلنا بجواز جمع الناس على قراءة واحدة فنقول اختيار زيد بن ثابت على مثل عبد الله بن مسعود والمنع من قراءته وتعلّم القرآن منه مخالفة صريحة لأمر الرسول ﷺ على ما تظافرت به أخبارهم الصحيحة عندهم:

فقد روى إبن عبد البرّ في الإستيعاب في ترجمة إبن مسعود، عن النبي ﷺ أنّه قال: استقرءوا القرآن من أربعة نفر فبدأ بابن أمّ عبد.

وعن إبن عمر، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة: من إبن أمّ عبد فبدأ به ومعاذ بن جبل، وأبيّ إبن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة. قال: وقال ﷺ: مَن أحبّ أن يسمع القرآن غضّاً فَلْيَسِمَعْهُ من إبن أمّ عبد. وبعضهم يرويه: مَن أراد أن يقرأ القرآن غضّاً كما أُنْزِلْ فَلْيَقْرَأْهُ على قراءة إبن أمّ عبد. وعن عبد الله مثله.

وعن أبي وائل، قال: سمعتُ إبن مسعود يقول: إنّي لأَعْلَمُهُم بكتاب الله وما أنا بخيرِهِم، وما في كتاب الله سورة ولا آية إلاّ وأنا أعلم فيم نزلت، ومتى نزلت. قال أبو وائل: فما سمعت أحداً أنكر عليه ذلك.

وعن حذيفة قال: لقد عَلِمَ المحفوظون من أصحاب رسول الله ﷺ أنّ عبد الله كان من أقربهم وسيلةَ، وأعلمهم بكتاب الله عزّ وجلّ.

وعن أبي ظبيان، قال: قال لي عبد الله بن عباس: أيّ القراءتين تقرأ؟ قلت: القراءة الأولى، قراءة إبن أمّ عبد، فقال لي: بل هي القراءة الأخيرة، إنّ رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبرئيل في كلّ عام مرّة، فلمّا كان العام الذي قبض فيه رسول الله ﷺ عرضه عليه مرّتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نسخ من ذلك وما بدّل.

وعن علقمة، قال: جاء رجلٌ إلى عمر وهو بعرفات فقال: جئتك من الكوفة وتركتُ بها رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلبه، فغضب عمر غضباً شديداً وقال: ويحك ومن هو؟ قال: عبد الله بن مسعود، قال: فذهب عنه الغضب، وسَكَنَ وعاد إلى حاله، وقال: والله ما أعلم من الناس أحداً هو أحقّ بذلك منه.

قال: وسئل عليعليه السلام عن قومٍ من الصحابة منهم إبن مسعود، فقال: أمّا إبن مسعود فقرأ القرآن وعلم السنّة.. وكفى بذلك.

وعن شقيق، عن أبي وائل، قال: لمّا أمر عثمان في المصاحف بما أمر، قام عبد الله بن مسعود خطيباً، فقال: تأمرونني أنْ أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت والذي نفسي بيده لقد أخذت من فيّ رسول اللهصلى الله عليه وآله سبعين سورة، وإنّ زيد بن ثابت لذو ذؤابة يلعب مع الغلمان، والله ما نزل من القرآن شيء إلاّ وأنا أعلم في أيّ شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منّي، ولو أعلم أحداً أعلم منّي بكتاب الله تبلغنيه الإبل لأتيته، قال: ثم استحيا ممّا قال، فقال: وما أنا بخيركم. قال شقيق: فقعدتُ في الحلق فيها أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله فما سمعتُ أحداً أنكر عليه ولا ردّ ما قال.

وروى في جامع الأصول، عن البخاري ومسلم والترمذي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: ذكر عنده عبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبّه، سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب. استقرئوا القرآن من أربعة: من إبن مسعود فبدأ به، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ، وأبيّ بن كعب.

وفي رواية الترمذي، قال: قال رسول الله ﷺ: خذوا القرآن من أربعة: من إبن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة.

وروي من الصحاح أكثر الأخبار السالفة بأسانيد، فهذا ما رووه في إبن مسعود وأنّ النبي ﷺ أمر الناس بأخذ القرآن منه، وصرّح بأنّ قراءته مطابقة للقرآن المنزل، فالمنع من قراءته وإحراق مصحفه ردّ على الرسول ﷺ ومحادّة لله عزّ وجلّ، ومع التنزُّل عن مخالفة النصّ أيضاً نقول كان على عثمان أن يجمعهم على قراءة عبد الله دون زيد، إذ قد روي في فضل عبد الله ما سمعتَ ولم يذكروا لزيد بن ثابت فضلاً يشابه ما روي في عبد الله سنداً ولا متناً، وقد رووا ما يقدح فيه ولم يذكر أحد منهم قدحاً في عبد الله، والإطناب في ذلك يوجب الخروج عمّا هو المقصود من الكتاب، ومّن أراد ذلك فليرجع إلى الإستيعاب وغيره ليظهر له ما ذكرنا.

وقال في الإستيعاب: كان زيد عثمانياً ولم يكن فيمن شهد شيئاً من مشاهد علي عليه السلام مع الأنصار. فظهر أنّ السبب الحامل لهم على تفويض جمع القرآن إليه أوّلاً، وجمع الناس على قراءته ثانياً تحريف الكلم عن مواضعه، وإسقاط بعض الآيات الدالّة على فضل أهل البيت عليهم السلام والنصّ عليهم، كما يظهر من الأخبار المأثورة عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ولو فوّضوا إلى غيره لم يتيسّر لهم ما حاولوا.

ومن جملة القراءات التّي حظرها وأحرق المصحف المطابق لها قراءة أبي بن كعب ومعاذ بن جبل، وقد عرفت في بعض الروايات السابقة أنّ النبي ﷺ أمر بالأخذ عنهما.

هذا سوق الطعن على وجه الإلزام وبناء الكلام على الروايات العاميّة،

وأمّا إذا بني الكلام على ما روي عن أهل البيت عليهم السلام فتوجّه الطعن أظهر وأبين، كما ستطّلع عليه في كتاب القرآن إن شاء الله[١].

* * *

ـ ٢٧ ـ

## جرأة عثمان على رسول الله صلى الله عليه وآله ومضادّته له

[فقد حكى العلاّمة رحمه الله في كتاب كشف الحقّ، عن الحميدي، قال: قال السدّي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ إنّه لّما توفي أبو سلمة وعبد الله إبن حذافة وتزوّج النبي صلى الله عليه وآله امرأتيهما أمّ سلمة وحفصة، قال طلحة وعثمان: أينكح محمّد نساءنا إذا متنا ولا ننكح نساءه إذا مات؟! والله لو قد مات لقد أجلبنا على نسائه بالسّهام، وكان طلحة يريد عائشة، وعثمان يريد أمّ سلمة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾، وأنـزل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾][٢].

* * *

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٥٨ ـ ٢٦٥ بتصرُّفٍ في بعض ألفاظه.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

- ٢٨ -

## عدم إذعانه لقضاء رسول الله ﷺ بالحق

[فقد روى العلاّمة رحمه الله في كشف الحقّ، عن السدّي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الآيات. وقال نزلت في عثمان بن عفّان لمّا فتح رسول الله ﷺ بني النضير فغنم أموالهم، فقال عثمان لعلي عليه السلام: إئتِ رسول الله ﷺ فاسأله أرض كذا وكذا، فإنْ أعطاكها فأنا شريكٌ فيها، وآتيه أنا فأسأله إيّاها فإن أعطانيها فأنت شريكي فيها، فسأله عثمان أولاً فأعطاه إيّاها، فقال له علي عليه السلام: أشركني، فأبى عثمان، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ، فأبى أنْ يخاصمه إلى النبي ﷺ، فقيل له: لِمَ لا تنطلق معه إلى النبي ﷺ، فقال: هو إبن عمّه فأخاف أن يقضي له. فنزلت الآيات، فلمّا بلغ النبي ﷺ ما أنزل الله فيه أقرّ لعلي عليه السلام بالحقّ][1].

* * *

- ٢٩ -

## جهل عثمان بالأحكام

[روى العلاّمة قدّس الله روحه في كشف الحقّ، عن صحيح مسلم، وأورده

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٧٤.

صاحب روضة الأحباب أنّ إمرأة دَخَلَت على زوجها فولدت لستّة أشهر فرفع ذلك إلى عثمان فأمر برجمها، فدخل عليه الإمام علي عليه السلام، فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ فلم يصل رسوله إليهم إلاّ بعد الفراغ من رجمها.

فقتل المرأة لجهله بحكم الله عزّ وجلّوقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

ومن الشّواهد على جهله أنّ مرويّاته في كتب الجمهور مع حرص أتباعه من بني أميّة والمتأخّرين عنهم على إظهار فضله لم يزد على مائة وستة وأربعين. وقد رووا عن أبي هريرة الدوسي خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً، وذلك إمّا لغلبة الغباوة حيث لم يأخذ في طول الصّحبة إلاّ نحواً ممّا ذُكِر، أو لقلّة الإعتناء برواية كلام الرسول صلى الله عليه وآله، وكلاهما يمنعان عن استئهال الخلافة والإمامة.

إِعْلَمْ أنّ عبد الحميد إبن أبي الحديد بعدما أورد مطاعن عثمان أجاب عنها إجمالاً، فقال: إنّا لا ننكر أنّ عثمان أحدث أحداثاً أنكرها كثيرٌ من المسلمين، ولكنّا ندّعي مع ذلك أنّها لم تبلغ درجة الفسق، ولا أحبطت ثوابه، وأنّها من الصغائر المكفّرة، وذلك لأنّا قد علمنا أنّه مغفورٌ له، وأنّه من أهل الجنّة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه من أهل بدر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله اطَّلَعَ على أهل بدر، فقال: إعْمَلُوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم. وعثمان وإنْ لم يشهد بدراً، لكنّه تخلّف على رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وضمن رسول الله صلى الله عليه وآله لسهمه وأجره، باتّفاق سائر الناس.

والثاني: أنّه من أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، وهو وإنْ لم يشهد تلك البيعة ولكنّه كان رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى أهل مكة، ولأجله كانت بيعة الرضوان، حيث أرجف بأنّ قريشاً قتلت عثمان، فقال رسول الله ﷺ: إن كانوا قتلوه لأضرمنّها عليهم ناراً، ثم جلس تحت الشجرة، وبايع الناس على الموت. ثم قال: إنْ كان عثمان حيّاً فأنا أبايع عنه، فمسح بشماله على يمينه، وقال: شمالي خيرٌ من يمين عثمان، روى ذلك أهل السير متّفقاً عليه.

والثالث: أنّه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنّهم من أهل الجنّة. وإذا كانت هذه الوجوه دالّة على أنّه مغفورٌ له، وأنّ الله تعالى قد رضي عنه، وأنّه من أهل الجنّة، بطل أن يكون فاسقاً، لأنّ الفاسق يخرج عندنا من الإيمان وينحبط ثوابه، ويُحكَم له بالنار، ولا يُغْفَر له، ولا يُرْضَى عنه، ولا يرى الجنّة ولا يدخلها، فاقتضت هذه الوجوه أن يحكم بأنّ كلّ ما وقع منه فهو من باب الصغائر المكفّرة توفيقاً بين الأدلّة. انتهى كلامه.

ويرد على ما ذكره إجمالاً: أنّ المستند في جميع تلك الوجوه ليس إلاّ ما تفرّد المخالفون بروايته، ولا يصحّ التمسّك به في مقام الاحتجاج كما مرّ مراراً، والأصل في أكثرها ما رواه البخاري، عن عثمان بن عبد الله، قال: سأل رجل من أهل مصر لعبد الله بن عمر: إنّي سائلُكَ عن شيءٍ فحدّثني، هل تعلم أنّ عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: تعلم أنّه تَغَيَّبَ عن بدرٍ ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: تعلم أنّه تغيّب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر!

قال: إبن عمر تعال أبيّن لك، أمّا فراره يوم أحد فأشهد أنّ الله تعالى عفا

عنه وغفر له، وأمّا تغيّبه عن بدر فإنّه كانت تحته بنت رسول اللهﷺ وكانت مريضة، فقال رسول اللهﷺ: إنّ لك أجر رجل ممّن شهد بدراً وسهمه.

وأمّا تغيّبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعزّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول اللهﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة. فقال رسول اللهﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده. فقال: هذه لعثمان، ثم قال له إبن عمر: إذهب بها الآن معك.

وإبن عمر هو الذي قعد عن نصرة أمير المؤمنينعليه السلام وبايع رجل الحجّاج، ولا عبرة بقوله وروايته، مع قطع النظر عن سائر رواة الخبر، وحديث العشرة المبشّرة أيضا ممّا تفرّدوا بروايته، وسيأتي في قصّة الجمل تكذيب أمير المؤمنينعليه السلام هذه الرواية.

ويؤيّد ضعفه أيضاً أنّه ليس بمرويّ في صحاحهم إلاّ عن رجلين عدّا أنفسهما من جملة العشرة، وهما سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعبد الرحمن بن عوف، والتهمة في روايتهما لتزكيتهما أنفسهما واضحة.

ويؤكّده أيضاً ما ذكره السيّد الأجلرضي الله عنه في الشافي من أنّه تعالى لا يجوز أن يعلم مكلّفاً يجوز أنْ يقع منه القبيح والحسن وليس بمعصوم من الذنوب بأنّ عاقبته الجنّة، لأنّ ذلك يغريه بالقبيح، ولا خلاف في أنّ أكثر العشرة لم يكونوا معصومين من الذنوب، وقد أوقع بعضهم بالإتّفاق كبائر وإنْ ادّعى المخالفون أنّهم تابوا منها، قال: وممّا يبيّن بطلان هذا الخبر أنّ أبا بكر لم يحتجّ به لنفسه ولا احتجّ له به في مواطن وقع فيه الإحتياج إلى الإحتجاج كالسقيفة وغيرها، وكذلك عمر، وعثمان لما حصر وطولب بخلع نفسه وهمّوا بقتله، وقد رأينا احتجّ بأشياء تجري مجرى الفضائل والمناقب، وذكر القطع له بالجنّة أولى منها

وأحرى بأن يعتمد عليه في الإحتجاج، وفي عدول الجماعة عن ذكره دلالة واضحة على بطلانه. انتهى.

ويؤيّد بطلانه أيضاً أنّ كثيراً من أعيان المهاجرين والأنصار كانوا بين قاصدٍ لقتل عثمان خارجٍ عليه وبين راضٍ بقتله، وتركوه بعد قتله منبوذاً بالعراء غير مدفونٍ حتى دُفِنَ في المزبلة بعد ثلاثة أيّام، وكيف يُظَنّ ذلك بأمثال هؤلاء مع علمهم بكونه من أهل الجنّة وكيف لم يحتجّ أنصاره من بني أميّة عليهم بهذا وهل يُظَنّ بأمير المؤمنين ﷺ أن يتركَهُ كذلك ثلاثة أيّام مع عِلْمِهِ بذلك؟!

وأيضا لو صحّ ذلك لزم كُفْر طلحة بكونه من المستحلّين بقتله، ولا ريب في أنّ استحلال قَتْل من شَهِدَ له رسول الله ﷺ بالجنّة لصغائر مكفّرة ليس بأدون من استحلال شرب جرعة من الخمر، وكذلك يلزم كفر كلّ من المتخاصمين يوم الجمل لكون كلّ منهما مستحلّين لقتل الآخر مع الشهادة لهما بالجنّة، والأوّل باطل عند المخالفين، والثاني عند الجميع، فإنّ من الخصمين أمير المؤمنين ﷺ وقد استحلّ قتل طلحة والزبير، والقول بعدم علمهم بهذه الشهادة ظاهر الفساد.

ويؤكّد بطلانه أيضا ما روي من أنّ عمر بن الخطاب سأل حذيفة عن عدّ رسول الله ﷺ إيّاه في جملة المنافقين، إذ لو كان ممّن قطع له بالجنّة لم يختلجه الشكّ في النفاق.

ثم لو قطعنا النظر عن تفرّد المخالفين بتلك الروايات ودلالة الشّواهد والأدلّة المعارضة لها على وضعها وبطلانها، نقول يرد على ما استند إليه من الرواية أنّها إمّا أن تحمل على ظاهرها الّذي فهمه إبن أبي الحديد من الرخصة

العامّة والمغفرة الشاملة لِمَا تقدّم من ذنبهم وما تأخّر، أو يتطرّق التجوّز إليها وتخصيص عمومها.

وعلى الأوّل يلزم سقوط التكليف عن البدريّين والرخصة لهم في ارتكاب المحرّمات كبائرها وصغائرها، ولو كان الفعل ممّا يؤدّي إلى الكفر كالاستخفاف بالقرآن ونحو ذلك، وهذا لو لم يكن الاعتقاد مندرجاً في العمل المشتمل عليه الرواية وإلاّ فالأمر أوضح، والبدريّون على المشهور كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله ﷺ بسهامهم وهم غائبون، وعدّتهم ثمانية.

وسقوط التكليف عن هؤلاء القوم مخالفٌ للإجماع ولضرورة الدين، ولم يدّعِ أحدٌ العِصمة في أهل البدر إلاّ في الإمام علي عليه السلام، ولا ريب في أنّ الباقين كانوا يكتسبون الآثام ويقارفون الذنوب، وفي إعلامهم بالمغفرة لهم في الذنوب التي يرتكبونها بعد ذلك إغراءٌ ظاهرٌ لهم بالقبيح، وهو قبيح.

وعلى الثاني، فإمّا أنْ تخصّص الرخصة بالصّغائر ويعمّم المغفرة بالذّنوب السّالفة والمستأنفة، وحينئذ يتوجّه مع مخالفة الضرورة والإجماع أنّه لا يستلزم المدّعى، إذ الرخصة في الصغائر وغفرانها ممّا لا يوجب كون ما صدر منهم من الصغائر المكفّرة، ومع ذلك تعميم المغفرة المبتني عليه الوجهان مخالفٌ للظاهر، وهو ظاهر.

وأمّا أن تخصّص المغفرة بالذنوب السّالفة ويكون المراد بلفظة «اعملوا ما شئتم» المبالغة في حسن ما عملوا في بدر وإظهار الرضا الكامل بعملهم الصالح من غير رخصة لهم في الأيّام الآتية، وحينئذ فلا تعلّق للرواية بالمدّعى، هذا على تقدير تسليم المساواة التي ادّعاها إبن أبي الحديد في عثمان للبدريّين.

ومستند من رواه من أهل السير ليس إلاّ قول إبن عمر كما عرفت. وأمّا ما تمسّك به ثانياً من أنّه في حكم من بايع بيعة الرضوان، وأنّ رسول الله ﷺ بايع عنه، فبعد تسليم صحّة الرواية يتوجّه عليه أنّه لا دلالة له على المدّعى بوجوه:

الأوّل: أنّ دخول عثمان واضرابه في المؤمنين ممنوع، وقد علّق الله الرّضا في الآية على الإيمان والبيعة دون البيعة وحدها حتى يكون جميع من بايع تحت الشجرة مرضيّاً، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدلّ على الثلاثة وكفرهم.

الثاني: أنّ كون الألف واللام للاستغراق ممنوع، كما أشار إليه السيد رضي الله عنه في الشافي حيث قال: الظاهر عندنا أنّ آلة التعريف مشتركة متردِّدة بين العموم والخصوص، وإنّما يحمل على أحدهما بدلالة غير الظاهر، وقد دلّلنا على ذلك في مواضع كثيرة، وخاصّة في كلامنا المنفرد للوعيد من جملة مسائل أهل الموصل.

قال: على أنّه تعالى قد وصف من رضي عنه ممّن بايع تحت الشجرة بأوصافٍ قد علمنا أنّها لم تحصل لجميع المبايعين، فيجب أن يختصّ الرضا بمن اختصّ بتلك الأوصاف، لأنّه تعالى قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، ولا خلاف بين أهل النقل في أنّ الفتح الذي كان بعد بيعة الرضوان بلا فصل هو فتح خيبر، وأنّ رسول الله ﷺ بعث أبا بكر وعمر فرجع كلّ واحد منهما منهزماً ناكصاً على عقبيه، فغضب النبي ﷺ وقال: «لأعطينّ الراية غداً رَجُلاً يحبُّ الله ورسولَه كرّارٌ غير فرّارٍ لا يرجع حتى يفتح الله على يديه».

فدعا أمير المؤمنين عليه السلام فكان أرمد فتفل في عينيه فزال ما كان يشتكي وأعطاه الراية ومضى متوجّهاً، وكان الفتح على يديه.

فيجب أن يكون هو المخصوص بحكم الآية، ومَن كان معه في ذلك الفتح من أهل البيعة تحت الشجرة لتكامل الشرائط فيهم، ويجب أن يخرج عنها مَن لم تجتمع الشرايط فيه، وليس لأحدٍ أن يقول إنّ الفتح كان لجميع المسلمين وإنْ تولاّه بعضُهم وجرى على يديه، فيجب أنْ يكون جميع أهل بيعة الرضوان ممّن رزق الفتح وأثيب به، وهذا يقتضي شمول الرِّضا للجميع، وذلك لأنّ هذا عدول عن الظاهر، لأنّ مَن فعل الشيء بنفسه هو الذي يُضاف إليه على سبيل الحقيقة، ويُقال إنّه أُثيب به ورزق إيّاه، ولو جاز ذلك جاز أن يوصف مَن كان بخراسان من المسلمين بأنّه هزم جنود الروم وفتح حصونهم وإنْ وصفنا بذلك مَن يتولاّهم ويجري على يديه. انتهى.

ودخول عثمان في جملة مَن جرى الفتح على أيديهم ممّا لم يذكره أرباب السير، بل الظاهر عدمه كما خرج عنهم المتقدّمان عليه، فهو في محلّ المنع، كما أنّ دخوله فيمن أنزلت عليه السكينة ممنوع.

**الثالث**: أنّه بعد تسليم شمول الآية له لا دلالة للرِّضا عن المؤمنين حال البيعة أوّلها، على أنّه لا يصدر عنهم كبيرة بعد ذلك حتى يكون أحداث عثمان من الصغائر المكفّرة، وقد كان أهل بيعة الرضوان على ما ذكره أرباب السير ألفاً وخمسمائة أو ثلاثمائة، وقد كان منهم مَن يرتكب أنواع المحرَّمات، وهل يقول عاقل بعدم صدور كبيرة واحدة عن أحد من هؤلاء مع كثرتهم؟

وما تمسّك به من حديث بشارة العشرة فبعد ما عرفت من أنّها من الروايات الّتي تفرّدوا بها وقامت الشواهد على ضعفها وبطلانها، يتوجّه عليه أنّ الرواية على تقدير صحّتها لا تدلّ على صلاحيّة الإمامة، إذ ليس جميع أهل الجنّة مستأهلين للإمامة، وليس المانع عنه مقصوراً على ارتكاب الكبيرة المخرجة عن الإسلام الموجبة لدخول النّار على ما زعمه إبن أبي الحديد وأصحابه.

ومن جملة الموانع الضعف عن القيام بأمر الإمامة، وعدم القدرة على دفع الأشرار، والجهل بالأحكام، وعدم استقرار الرأي لضعف العقل ونحو ذلك.

ومن جملة مطاعنه: الضعف عن منع الأشرار والفسّاق من بني أميّة، وقد عزم غير مرّة على عزل كثيرٍ منهم لما رأى مَن ظلمهم، وانحراف الناس عنه لأجلهم، فحال مروان بينه وبين ما أراد حتى حصبوه على المنبر، وآل الحال إلى الحصر والقتل.

ومنها: الجهل بكثيرٍ من الأحكام كما عرفتَ، فبعد تسليم الرواية أيضاً لا يتمّ الجواب][1].

* * *

ـ ٣٠ ـ

## نكير جماعة من صحابة النبي ﷺ على عثمان بن عفان

لقد صَدَرَ من عثمان هِنَاتٌ وأفعالٌ منكَرة، لم يتمالك في كتمانها كما فعل نظيراه قبله، لذا استنكر عليه جماعة من الصحابة منهم[2]:

### نكير أبيّ بن كعب:

وذكر الثقفي في تاريخه بإسناده، قال: جاء رجل إلى أبيّ بن كعب، فقال: يا أبا المنذر إنّ عثمان قد كتب لرجلٍ من آل أبي معيط بخمسين ألف درهم إلى

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٧٧ ـ ٢٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ٣١/ ٢٨٧ ـ ٣١٠.

بيت المال، فقال أبيّ: لا يزال تأتوني بشيءٍ ما أدري ما هو فيه، فبينا هو كذلك إذ مرّ به الصكّ، فقام فدخل على عثمان، فقال: يا إبن الهاوية يا إبن النار الحامية أتكتب لبعض آل أبي معيط إلى بيت مال المسلمين بصكّ بخمسين ألف درهم؟!، فغضب عثمان وقال: لولا أنّي قد كفيتك لفعلت بك كذا وكذا.

وذكر الثقفي في تاريخه، قال: فقام رجل إلى أبي بن كعب، فقال: يا أبا المنذر ألا تخبرني عن عثمان ما قولك فيه؟ فأمسك عنه، فقال له الرجل: جزاكم الله شرّاً يا أصحاب محمّد، شهدتم الوحي وعاينتموه ثم نسألكم التفقّه في الدِّين فلا تعلِّمُونا.

فقال أبيّ عند ذلك: هَلَكَ أصحاب العقدة وربّ الكعبة، أما والله ما عليهم آسى ولكن آسى على من أهلكوا، والله لئن أبقاني الله إلى يوم الجمعة لأقومنّ مقاماً أتكلّم فيه بما أعلم، قتلت أو استحييت، فمات رحمه الله يوم الخميس.

نكير أبي ذر:

روى الثقفي في تاريخه بإسناده، عن إبن عباس، قال: إستأذن أبو ذرّ على عثمان فأبى أنْ يأذنَ له، فقال لي: إستأذِنْ لي عليه. قال إبن عباس: فرجعتُ إلى عثمان فاستأذنتُ له عليه، قال: إنّه يؤذيني. قلت: عسى أنْ لا يفعل، فأْذَنْ له من أجلي، فلمّا دخل عليه قال له: اتّقِ الله يا عثمان، فجعل يقول اتّقِ الله.. وعثمان يتوعّده، قال أبو ذرّ: إنّه قد حدّثني نبيّ الله صلى الله عليه وآله أنّه يجاء بك وبأصحابك يوم القيامة فتطيحون على وجوهكم، فتمرّ عليكم البهائم فتطأكم كلّما مرّت آخرها رُدّت أوّلها، حتّى يفصل بين الناس.

قال يحيى بن سلمة: فحدّثني العرزمي أنّ في هذا الحديث ترفعوني حتّى إذا كنتم مع الثريّا ضرب بكم على وجوهكم فتطأكم البهائم.

وذكر الثقفي في تاريخه أنّ أبا ذرّ لمّا رأى أنّ عثمان قد أمر بتحريق المصاحف، فقال: يا عثمان لا تكن أوّل مَنْ حرق كتاب الله فيكون دمُكَ أوّل دم يهراق.

وذكر في تاريخه، عن ثعلبة بن حكيم، قال: بينا أنا جالس عند عثمان وعنده أناسٌ من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدرٍ وغيرهم، فجاء أبو ذرّ يتوكّأ على عصاه، فقال: السلام عليكم، فقال: اتّقِ الله يا عثمان إنّكَ تسمع كذا وكذا، وتصنع كذا وكذا. . وذكر مساوئه، فسكت عثمان حتى إذا انصرف، قال: مَنْ يعذرني من هذا الذي لا يدع مساءة الاّ ذكرها. فسكت القوم فلم يجيبوه، فأرسل إلى علي عليه السلام، فجاء، فقام في مقام أبي الذرّ، فقال: يا أبا الحسن ما ترى أبا الذرّ لا يدع لي مساءة إلاّ ذكرها. فقال: يا عثمان إنّي أنهاك عن أبي ذرّ، يا عثمان أنهاك عن أبي ذرّ. . ثلاث مرّات، أتركه كما قال الله تعالى لمؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. قال له عثمان: بفيك التراب. قال له علي عليه السلام: بل بفيك التراب، ثم انصرف.

وروى الثقفي في تاريخه أنّ أبا ذرّ دخل على عثمان وعنده جماعة، فقال: أشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليُجَاءُ بي يوم القيامة أو بكَ وبأصحابكَ حتى تكون بمنزلة الجوزاء من السّماء، ثم يُرمَى بنا إلى الأرض فتوطأ علينا البهائم حتّى يفرغ من محاسبة العباد. فقال عثمان: يا أبا هريرة هل سمعت هذا من النبي ﷺ؟ فقال: لا، قال أبو ذرّ: أنشدك الله سمعت النبي ﷺ يقول: ما أقلّتِ الغبراءُ ولا أَظَلَّتِ الخضراءُ على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرّ. قال: أمّا هذا فقد سمعت، فرجع أبي ذرّ وهو يقول والله ما كذبت.

وذكر الثقفي في تاريخه عن عبد الله شيدان السلمي أنّه قال لأبي ذرّ: ما لكم ولعثمان، ما تهون عليه، فقال: بلى والله لو أمرني أن أخرج من داري لخرجت ولو حبواً، ولكنّه أبى أن يقيم كتاب الله.

وذكر الثقفي في تاريخه أنّ أبا ذرّ ألقي بين يدي عثمان، فقال: يا كذّاب. فقال الإمام علي عليه السلام: ما هو بكذّاب، قال: بلى، والله إنّه لكذّاب. قال الإمام علي عليه السلام: ما هو بكذّاب، قال عثمان: الترباء في فيك يا عليّ. قال الإمام علي عليه السلام: بل الترباء في فيكَ يا عثمان. قال الإمام علي عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما أظلّت الخضراءُ ولا أقلّتِ الغبراء عُلى ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرّ. قال: أما والله على ذلك لأسيّرنّه، قال أبو ذرّ: أما والله لقد حدّثني خليلي عليه الصّلاة والسّلام أنكم تُخرِجُوني من جزيرة العرب.

وذكر الثقفي في تاريخه، عن سهل بن سعد الساعدي، قال: كان أبو ذرّ جالساً عند عثمان وكنتُ عنده جالساً إذ قال عثمان أرأيتم من أدّى زكاةَ ماله، هل في ماله حقّ غيره؟ قال كعب: لا، فدفع أبو ذرّ بعصاه في صدر كعب، ثم قال: يا إبن اليهوديّين أنت تفسّر كتاب الله برأيك ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ (إلى قوله) ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾، ثم قال: ألاَ ترى أنّ على المصلّي بعد إيتاء الزكاة حقّاً في ماله، ثم قال عثمان: أترون بأساً أنْ نأخذ من بيت مال المسلمين مالاً فنفرّقه فيما ينوبنا من أمرنا ثم نقضيه، ثم قال أناس منهم: ليس بذلك بأس. وأبو ذرّ ساكتٌ، فقال عثمان: يا كعب ما تقول. فقال كعب: لا بأس بذلك، فرفع أبو ذرّ عصاه فوجأ بها في صدره، ثم قال: أنت يا إبن اليهوديّين تعلّمُنا ديننا. فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي وأولعك بأصحابي؟! الحق بِمُكَيِنِك وغيّب عنّي وجهك.

وذكر الثقفي، عن الحسين بن عيسى بن زيد، عن أبيه أنّ أبا ذرّ أظهر عيبَ

عثمان وفراقه للدِّين، وأغلظ له حتى شَتَمَه على رؤوس الناس وبرئ منه، فَسَيَّرَهُ عثمان إلى الشّام.

وذكر الثقفي في تاريخه، عن عبد الرحمن أنّ أبا ذرّ زار أبا الدرداء بحمص، فمكث عنده ليالي، فأمر بحماره فأوكف، فقال أبو الدرداء: لا أراني الله مشيّعك، وأمر بحماره فأسرج. فسارا جميعاً على حماريهما، فلقيا رجلاً شهد الجمعة عند معاوية بالجابية فعرفهما الرجل ولم يعرفاه فأخبرهما خبر الناس، ثم إنّ الرجل قال: وخَبَرٌ آخر كرهت أن أخبركم به الآن وأراكم تكرهانه، قال أبو الدرداء: لعلّ أبا ذرّ قد نُفِي. قال: نعم والله، فاسْتَرْجَعَ أبو الدرداء وصاحبه قريباً من عشر مرّات، ثم قال أبو الدرداء: فارتقبهم واصطبر كما قيل لأصحاب الناقة، اللّهمّ إنْ كانوا كذّبوا أبا ذرّ فإنّي لا أكذّبه، وإنْ اتّهموه فإنّي لا أتّهمه، وإنْ استغشّوه فإنّي لا أستغشّه، إنّ رسول الله ﷺ كان يأتمنه حيث لا يأتمن أحداً، ويَسُرُّ إليه حيث لا يسرّ إلى أحد، أما والذي نفسُ أبي الدرداء بيده لو أنّ أبا ذرّ قطع يميني ما أبغضتُه بعد ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ما أَظَلَّتِ الخَضْرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرّ.

وذكر الثقفي في تاريخه بإسناده، قال: قام معاوية خطيباً بالشام، فقال: أيّها الناس إنّما أنا خازن فمن أعطيتُه فالله يعطيه ومن حرمتُه فالله يحرمه، فقام إليه أبو ذرّ، فقال: كذبتَ والله يا معاوية، إنّكَ لتعطي مَن حَرَمَ الله وتَمْنَع مَن أعطى الله.

وذكر الثقفي، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذرّ، قال: قلت لمعاوية: أمّا أنا فأشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ أحدنا فرعون هذه الأمّة. فقال معاوية: أمّا أنا فلا.

وعنه، عن عبد الملك بن أخي أبي ذرّ، قال: كتب معاوية إلى عثمان أنّ أبا ذرّ قد حرّف قلوب أهل الشام وبغّضك إليهم فما يستفتون غيره، ولا يقضي بينهم الاّ هو، فكتب عثمان إلى معاوية: أنْ إحمل أبا ذرّ على ناقةٍ صعبة وقتب، ثم ابعثْ معه مَن يبخش به بخشاً عنيفاً حتى يقدم به عَلَيَّ، قال: فحمله معاوية على ناقةٍ صعبةٍ عليها قتب ما على القتب الاّ مسح، ثم بعث معه مَنْ يُسَيِّرُهُ سيراً عنيفاً، وخرجت معه فما لبث الشيخ الاّ قليلاً حتّى سقط ما يلي القتب من لحم فخذيه وقرح، فكنّا إذا كان الليل أخذتُ ملائيَّ فألقيتهما تحته، فإذا كان السَّحَر نزعتُها مخافة أن يروني فيمنعوني من ذلك، حتّى قدمنا المدينة وبلَّغْنَا عثمان ما لقي أبو ذرّ من الوجع والجهد، فحجبه جمعة وجمعة حتّى مضت عشرون ليلةً أو نحوها وأفاق أبو ذرّ، ثم أرسل إليه وهو معتمد على يديّ، فدخلنا عليه وهو متّكِئٌ فاستوى قاعداً، فلمّا دنا أبو ذرّ منه قال عثمان:

لا أنـعـم الله بـعـمـرو عـيـنـا تـحـيـة السّـخـط إذا الـتـقـيـنـا

فقال له أبو ذرّ: لِمَ؟! فو الله ما سمّاني الله عمرواً ولا سمّاني أبواي عمرواً، وإنّي على العهد الذي فارقتُ عليه رسول الله ﷺ ما غيّرتُ ولا بدّلتُ. فقال له عثمان: كذبتَ لقد كذبتَ على نبيّنا وطَعَنْتَ في دينِنَا، وفَارَقْتَ رأيَنا، وضَغَّنْتَ قلوبَ المسلِمين علينا.

ثم قال لبعض غلمانه: أدعُ لي قريشاً، فانطَلَقَ رسولُه، فما لبثنا أنْ امتلأ البيت من رجال قريش. فقال لهم عثمان: إنّا أرسلنا إليكم في هذا الشيخ الكذّاب، الذي كذب على نبيّنا وطعن في ديننا، وضغّن قلوب المسلمين علينا، وإنّي قد رأيت أن أقتله أو أصلبه أو أنفيه من الأرض. فقال بعضهم: رأينا لرأيك تَبَعٌ. وقال بعضهم: لا تفعل، فإنّه صاحب رسول الله ﷺ وله حقّ، فما منهم أحد أدّى الذي عليه.

فبينا هم كذلك إذ جاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام يتوكّأ على عصى ستراً فسلّم عليه ونظر ولم يجد مقعداً فاعتمد على عصاه، فما أدري أتخلف عهد أم يظنّ به غير ذلك، ثم قال علي عليه السلام: فيما أرسلتم إلينا. قال عثمان: أرسلنا إليكم في أمرٍ قد فرّق لنا فيه الرأي فاجمع رأينا ورأي المسلمين فيه على أمر.

قال علي عليه السلام: ولله الحمد، أمَا إنّكم لو استشرتمونا لم نألكم نصيحة. فقال عثمان: إنّا أرسلنا إليكم في هذا الشّيخ الذي قد كذب على نبيّنا، وطعن في ديننا، وخالف رأينا، وضغّن قلوب المسلمين علينا، وقد رأينا أن نقتلَه أو نصلبَه أو ننفيه من الأرض. قال علي عليه السلام: أفلا أدلّكم على خيرٍ من ذلكم وأقرب رشداً؟ تتركُونَه بمنزلة مؤمن آل فرعون ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، قال له عثمان: بفيك التراب. فقال له علي عليه السلام: بل بفيكَ التراب، وسيكون به. فأمر بالناس فأُخرِجُوا.

**نكير عمّار بن ياسر:**

و ذكر الثقفي في تاريخه، عن سالم بن أبي الجعد، قال: خطب عثمان الناس ثم قال فيها: والله لأُوثِرَنَّ بني أميّة، ولو كان بيدي مفاتيح الجنّة لأدخلتهم إيّاها، ولكنّي سأعطيهم من هذا المال على رَغْم أنف من رغم. فقال عمّار بن ياسر: أنفي والله تُرْغَم من ذلك. قال عثمان: فأَرْغَمَ الله أنْفَكَ.

فقال عمّار: وأنف أبي بكرٍ وعمر ترْغَم. قال: وإنّك لهناك يا ابن سميّة.. ثم نزل إليه فوطأه فاستُخْرِجَ من تحته وقد غُشِيَ عليه وفَتَقَهُ.

وذكر الثقفي، عن شقيق، قال: كنتُ مع عمّار فقال: ثلاث يشهدون على عثمان وأنا الرّابع، وأنا أسوأ الأربعة ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ وأنا أشهدُ لقد حَكَمَ بغير ما أنزل الله.

وعنه في تاريخه، قال: قال رَجُلٌ لعمّار يومَ صفّين على ما تُقاتِلُهُم يا أبا اليقظان؟! قال: على أنّهم زعموا أنّ عثمان مؤمنٌ ونحن نزعم أنّه كافرٌ.

وعنه في تاريخه، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي، قال: انتهيتُ إلى عمّار في مسجد البصرة وعليه برنس والناس قد أطافوا به وهو يحدّثهم من أحداث عثمان وقتله، فقال رجل من القوم وهو يذكر عثمان: رحم الله عثمان، فأخذ عمّار كفّاً من حصى المسجد فضرب به وجهه، ثم قال: إسْتَغْفِرِ الله يا كافر، إسْتَغْفِرِ الله يا عدوَّ الله.. وأَوْعَدَ الرجلَ، فلم يزل القوم يُسَكِّنُونَ عمّاراً عن الرجل حتى قام وانطلق وقعدت القوم حتّى فرغ عمّار من حديثه وسكن غضبُه، ثم إنّي قمت معه فقلتُ له: يا أبا اليقظان رحمك الله أمؤمناً قتلتم عثمان بن عفّان أم كافراً. فقال: لا، بل قتلناه كافراً.. بل قتلناه كافراً.

وعنه، عن حكيم بن جبير، قال: قال عمّار: والله ما أخذني أسىً على شيءٍ تركتُه خلفي غير أنّي وددتُ أنّا كنّا أخرجنا عثمان من قبره فأضرمنا عليه ناراً.

وذكر الواقدي في تاريخه، عن سعد بن أبي وقّاص، قال: أتيتُ عمّار بن ياسر وعثمان محصور، فلمّا انتهيتُ إليه قام معي فكلّمتُه، فلمّا ابتدأتُ الكلامَ جلس ثم استلقى ووضع يدَه على وجهه، فقلت: ويحكَ يا أبا اليقظان إنّك كنت فينا لَمِن أهل الخير والسابقة، ومن عذّب في الله، فما الذي تبغي من سعيك في فساد المؤمنين وما صنعتَ في أمير المؤمنين فأهوى إلى عمامته فنزعها عن

رأسه، ثم قال: خلعتُ عثمان كما خلعتُ عمامتي هذه، يا أبا إسحاق إنّي أريد أن تكون خلافةً كما كانت على عهد النبي ﷺ، فأمّا أن يعطي مروان خمس إفريقية، ومعاوية على الشام، والوليد بن عقبة شارب الخمر على الكوفة، وابن عامر على البصرة، والكافر بما أُنزِلَ على محمد ﷺ على مصر، فلا والله لا كان هذا أبداً حتّى يُبْعَجَ في خاصرته بالحقّ.

**نكير عبد الله بن مسعود:**

وذكر الثقفي في تاريخه، عن الأعمش، عن شقيق، قال: قلنا لعبد الله: فيمَ طعنتم على عثمان؟ قال: أهلكه الشحّ وبطانة السُّوء.

وعنه، عن قيس بن أبي حازم وشقيق بن سلمة، قال: قال عبد الله بن مسعود: لوددتُ أنّي وعثمان برملِ عالجٍ فنتحاثى التراب حتى يموت الأعجز.

وعنه وعن جماعة من أصحاب عبد الله منهم علقمة بن قيس، ومسروق ابن الأخدع، وعبيدة السلماني، وشقيق بن سلمة وغيرهم عن عبد الله، قال: لا يعدل عثمان عند الله جناح بعوضة. وفي أخرى: جناح ذباب.

وعنه، عن عبيدة السلماني، قال: سمعت عبد الله يلعن عثمان، فقلت له في ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يشهد له بالنار.

وعنه، عن خثيمة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن مسعود، قال: بينا نحن فيَ بيتٍ، ونحن اثنا عشر رجلاً نتذاكر أمرَ الدجّال وفتنتَه، إذ دخل رسول الله ﷺ، فقال: ما تتذاكرون من أمر الدجّال، والذي نفسي بيده إنّ في البيت لَمَنْ هو أشدُّ على أمّتي من الدجّال، وقد مضى مَنْ كان في البيت يومئذٍ غيري وغير عثمان، والذي نفسي بيده لوددتُ أنّي وعثمان برمل عالجٍ نتحاثى الترابَ حتى يموت الأعجز.

وعنه، عن علقمة، قال: دخلت على عبد الله بن مسعود، فقال: صلّى هؤلاء جمعتهم؟ قلت: لا، قال: إنّما هؤلاء حُمُرٌ، إنّما يصلّي مع هؤلاء المضطرّ، ومَن لا صلاة له، فقام بيننا فصلّى بغير أذان ولا إقامة.

وعنه، عن أبي البختري، قال: دخلوا على عبد الله حيث كتب عبد الرحمن يسيّره وعنده أصحابه، فجاء رسول الوليد، فقال: إنّ الأمير أرسل إليكَ أنّ أمير المؤمنين يقول: إمّا أنْ تَدَعَ هؤلاء الكلمات وإمّا أنْ تَخْرُجَ من أرضِكَ، قال: رُبَّ كلماتٍ لا أختار مصري عليهن، قيل: ما هُنَّ؟ قال: أفضل الكلام كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور مُحْدَثَاتُهَا، وكلّ مُحْدَثَة ضلالة. فقال إبن مسعود: ليَخْرُجَنَّ منها إبن أمّ عبد ولا أتركهنّ أبداً، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقولهنّ.

وقد ذكر ذلك أجمع وزيادة عليه الواقدي في كتاب الدار تركناه إيجازاً.

## نكير حذيفة بن اليمان:

وذكر الثقفي في تاريخه، عن قيس بن أبي حازم، قال: جاءت بنو عبس إلى حذيفة يستشفعون به على عثمان، فقال حذيفة: لقد أتيتموني من عند رجلٍ وددتُ أنّ كلّ سهمٍ في كنانتي في بطنه.

وعنه، عن حارث بن سويد، قال: كنّا عند حذيفة فذكرنا عثمان، فقال عثمان: والله ما يعدو أنْ يكونَ فاجراً في دينه أو أحمق في معيشته.

وعنه، عن حكيم بن جبير، عن يزيد مولى حذيفة، عن أبي شريحة الأنصاري أنّه سمع حذيفة يحدّث، قال: طلبت رسول الله ﷺ في منزله فلم أجده وطلبتُه فوجدتُه في حائط نائماً، رأسُه تحت نخلة، فانتظرتُه طويلاً فلم يستيقظ فكسرتُ جريدةً فاستيقظ، فقال: ما شاء الله أنْ يقول، ثم جاء أبو بكر،

فقال: إئذن لي، ثم جاء عمر فأمرني أن آذن له، ثم جاء علي عليه السلام فأمرني أن آذن له وأبشّره بالجنّة، ثم قال: يجيئكم الخامس لا يَسْتَأذِن ولا يُسَلِّم، وهو من أهلِ النار، فجاء عثمان حتى وثب من جانب الحائط، ثم قال: يا رسول الله بنو فلان يقابل بعضهم بعضاً.

وذكر الواقدي في تاريخه، عن أبي وائل، قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: لقد دخل عثمان قبره بفجوره.

وعنه، عبد الله بن السائب، قال: لَمّا قُتِلَ عثمان أتى حذيفة وهو بالمدائن، فقيل: يا أبا عبد الله لقيت رجلاً آنفاً على الجسر فحدّثني أنّ عثمان قُتِل، قال: هل تعرف الرجل؟ قلت: أظنّني أعرفه وما أثبته. قال حذيفة: إنّ ذلك عيثم الجنّي، وهو الذي يسير بالأخبار، فحفظوا ذلك اليوم فوجدوه قُتِل في ذلك اليوم، فقيل لحذيفة: ما تقول في قتل عثمان؟ فقال: هل هو الاّ كافراً أو مسلمٌ قَتَلَ كافراً. فقالوا: أما جعلت له مخرجاً؟! فقال: الله لم يجعل له مخرجاً.

وعنه، عن حسين بن عبد الرحمن، قال: قلت لأبي وابل: حَدِّثْنَا، فقد أدركتَ ما لم نُدْرِك. فقال: اتّهموا القوم على دينكم فوالله ما ماتوا حتى خلطوا، لقد قال حذيفة في عثمان: أنّه دخل حفرته وهو فاجرٌ.

### نكير المقداد:

وذكر الثقفي في تاريخه، عن همام بن الحارث، قال: دخلتُ مسجدَ المدينة، فإذا الناس مجتمعون على عثمان، وإذا رَجُلٌ يمدحُه، فوثب المقداد بن الأسود فأخذ كفّاً من حصا أو تراب فأخذ يرميه به فرأيتُ عثمان يتَّقِيْهِ بيده.

وذكر في تاريخه، عن سعيد بن المسيّب، قال: لم يكن المقداد يُصَلِّي مع عثمان ولا يسمّيه أمير المؤمنين.

وذكر، عن سعيد أيضاً، قال: لم يكن عمّار ولا المقداد بن الأسود يصلّيان خلف عثمان ولا يسمّيانه أمير المؤمنين.

**نكير عبد الرحمن بن حنبل القرشي:**

وذكر الثقفي في تاريخه، عن الحسين بن عيسى بن زيد، عن أبيه، قال: كان عبد الرحمن بن حنبل القرشي وهو من أهل بدر من أشدّ الناس على عثمان، وكان يذكره في الشِّعر ويذكر جوره، ويطعن عليه، ويبرأ منه، ويصف صنائعه، فلمّا بَلَغَ ذلك عثمان عنه ضَرَبَهُ مائة سَوط وحمله على بعيرٍ، وطاف به في المدينة، ثم حَبَسَهُ موثقاً في الحديد.

**نكير طلحة بن عبيد الله:**

وذكر الثقفي في تاريخه، عن مالك بن النصر الأرجي أنّ طلحة قام إلى عثمان، فقال له: إنّ الناس قد جمعوا لك وكرهوك للبدع التي أحْدَثْتَ ولم يكونوا يرَوْنَهَا ولا يعهدونها، فإنْ تستقم فهو خيرٌ لكَ، وإن أبيتَ لم يكن أحدٌ أضرَّ بذلك منكَ في دنيا ولا آخرة.

وذكر الثقفي في تاريخه، عن سعيد بن المسيّب، قال: انطلقتُ بأبي أقوده إلى المسجد، فلمّا دخلنا سَمِعْنَا لغط الناس وأصواتهم، فقال أبي: يا بني ما هذا؟! فقلت: الناس محدقون بدار عثمان. فقال: مَن ترى من قريش؟ قلتُ: طلحة، قال: إذْهَبْ بي إليه فأدنني منه، فلمّا دنا منه، فقال: يا أبا محمد ألا تنهى الناس من قَتْلِ هذا الرجل؟! قال: يا أبا سعيد إنّ لك داراً فاذْهَبْ فاجْلِسْ في دارِكَ، فإنّ نعثلاً لم يكن يخاف هذا اليوم.

وذكر في تاريخه، عن الحسين بن عيسى، عن أبيه أنّ طلحة بن عبيد الله كان يومئذٍ في جماعة الناس عليه السِّلاح عند باب القصر يأمُرُهم بالدخول عليه.

وذكر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: انتهيتُ إلى المدينة أيّام حصر عثمان في الدار، فإذا طلحة بن عبيد الله في مثل الخزّة السَّوداء من الرِّجال والسِّلاح، مطيفٌ بدار عثمان حتّى قُتِل.

وذكر عنه، قال: رأيتُ طلحة يرامي الدّار وهو في خزّة سوداء عليه الدرع قد كفر عليها بقباء فهم يرامونه ويُخرجونه من الدّار ثم يخرج فيراميهم حتى دخل عليه من دار من قبل دار إبن حزم فقتل.

وذكر الواقدي في تاريخه، عن عبد الله بن مالك، عن أبيه، قال: لّما أشخص الناس لعثمان لم يكن أحد أشدّ عليه من طلحة بن عبيد الله.

قال مالك: واشترى منّي ثلاثة أدرُعٍ وخمسة أسيافٍ، فرأيتُ تلك الدروع على أصحابه الذين كانوا يلزمونه قبل مقتل عثمان بيومٍ أو يومين.

وذكر الواقدي في تاريخه، قال: ما كان أحد من أصحاب محمد ﷺ أشدّ على عثمان من عبد الرحمن بن عوف حتّى مات، ومن سعد بن أبي وقّاص حتّى مات عثمان وأعطى الناس الرضى، ومن طلحة وكان أشدّهم، فإنّه لم يزل كهف المصريّين وغيرهم يأتونه بالليل يتحدّثون عنده إلى أن جاهدوا، فكان وليّ الحرب والقتال وعمل المفاتيح على بيت المال، وتولّى الصّلاة بالناس ومنعه ومَن معه من الماء، وردّ شفاعة علي عليه السلام في حمل الماء إليهم، وقال له: لا والله ولا نعمت عينٌ ولا بركت ولا يأكل ولا يشرب حتّى يعطي بنو أميّة الحقّ من أنفسها.

وروى قوله لمالك بن أوس وقد شفع إليه في ترك التأليب على عثمان: يا مالك إنّي نصحتُ عثمان فلم يقبلْ نصيحتي، وأحدَثَ أحداثاً، وفعل أموراً، ولم نجد بُدّاً من أنْ تغيّرها، والله لو وجدت من ذلك بُدّاً ما تكلّمتُ ولا ألّبتُ.

## نكير الزبير بن العوّام:

وذكر الواقدي في تاريخه، قال: عتب عثمان على الزبير، فقال: ما فعلت ولكنّك صنعت بنفسك أمراً قبيحاً، تكلّمتَ على منبر رسول الله ﷺ بأمرٍ أعطيتَ الناس فيه الرِّضا، ثم لَقِيَكَ مروان، وصنعتَ ما لا يشبهكَ، حضر الناس يريدون منكَ ما أعطيتَهُم، فخرج مروان فآذى وشتم، فقال له عثمان: فإنّي أستغفر الله.

وذكر في تاريخه أنّ عثمان أرسل سعيد بن العاص إلى الزبير فوجده بأحجار الزيت في جماعة، فقال له: إنّ عثمان ومَن معه قد مات عطشاً. فقال له الزبير: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

## نكير عبد الرحمن بن عوف:

وذكر الثقفي في تاريخه، عن الحسن بن عيسى بن زيد، عن أبيه، قال: كَثُرَ الكلامُ بين عبد الرحمن بن عوف وبين عثمان، حتى قال عبد الرحمن: أمَا والله لئن بقيت لك لأخرجنّك من هذا الأمر كما أدخلتُك فيه، وما غررتني إلاّ بالله.

وذكر الثقفي، عن الحكم قال: كان بين عبد الرحمن بن عوف وبين عثمان كلام، فقال له عبد الرحمن: والله ما شهدتَ بدراً، ولا بايعتَ تحت الشجرة، وفَرَرْتَ يوم حنين. فقال له عثمان: وأنتَ والله دعوتني إلى اليهوديّة.

وعنه، عن طارق بن شهاب، قال: رأيت عبد الرحمن بن عوف يقول: يا أيّها الناس إنّ عثمان أبى أنْ يقيم فيكم كتاب الله، فقيل له: أنتَ أوّل مَنْ بايَعَه، وأوّل مَنْ عَقَدَ له!! قال: إنّه نقض وليس لناقضٍ عهد.

وعنه، عن أبي إسحاق، قال: ضجّ الناس يوماً حين صلّوا الفجر في خلافة عثمان فنادوا بعبد الرحمن بن عوف فحوّل وجهَه إليهم واستَدْبَرَ القِبْلَةَ، ثم خَلَعَ قميصَهُ من جيبه، فقال: يا معشر أصحاب محمّد، يا معشر المسلمين؛ أُشهد الله وأُشهدكم أنّي قد خلعتُ عثمان من الخلافة كما خلعتُ سربالي هذا. فأجابه مجيب من الصفّ الأوّل: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾، فنظروا مَن الرجل، فإذا هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وعنه، قال: أوصى عبد الرحمن أنْ يُدْفَنَ سِرّاً لئلاّ يصلّي عليه عثمان.

وذكر الواقدي في تاريخه، عن عثمان بن السريد، قال: دخلتُ على عبد الرحمن بن عوف في شكواه الذي مات فيه أعوده فذُكِرَ عنده عثمان، فقال: عاجلوا طاغيتكم هذا قبل أن يتمادى في مُلْكِه، قالوا: فأنتَ وَلَّيْتَه!! قال: لا عهد لناقض.

وذكر الثقفي في تاريخه، عن بلال بن حارث، قال: كنتُ مع عبد الرحمن جالساً فطلع عثمان حتّى صعد المنبر، فقال عبد الرحمن: فقدت أكثرك شعراً.

وذكر فيه أنّ عثمان أنفذ المسور بن مخرمة إلى عبد الرحمن يسأله الكفّ عن التحريص عليه، فقال له عبد الرحمن: أنا أقول هذا القول وحدي ولكنّ الناس يقولون جميعاً، إنّه غيّر وبدّل. قال المسور: قلت: فإنْ كان الناس يقولون، فَدَعْ أنتَ ما تقول فيه! فقال عبد الرحمن: لا والله ما أجده يسعني أنْ أسكُتَ عنه. ثم قال له: قل له: يقول لك خالي: إتّقِ الله وحدَه لا شريكَ له في

أُمَّةِ محمّد، وما أعطيتني من العهد والميثاق، لتعملنّ بكتاب الله وسنّة صاحبك، فلم تفِ.

وذكر فيه أنّ ابن مسعود قال لعبد الرحمن في أحداث عثمان: هذا ممّا عملت، فقال عبد الرحمن: قد أخذت إليكم بالوثيقة فأمركم إليكم.

وذكر فيه قال: قال علي عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف: هذا عملك، فقال عبد الرحمن: فإذا شئتَ فخذ سيفَكَ وآخذُ سيفي.

**نكير عمرو بن العاص:**

وذكر الثقفي في تاريخه عن لوط بن يحيى الأزدي، قال: جاء عمرو بن العاص فقال لعثمان: إنّك ركبتَ من هذه الأمّة المهالك وركبوها بك، فاتّقِ الله وتُبْ إليه. فقال يا ابن النابغة: قد تبتُ إلى الله وأنا أتوبُ إليه، أَمَا إنّك ممن يُؤَلِّبُ عَلَيَّ، ويسعى في السَّاعِين، قد لعمري أضرمتها فأسعر وأضرم ما بدا لك، فخرج عمرو حتّى نزل في أداني الشام.

وذكر فيه، عن الزهري، قال: إنّ عمرو بن العاص ذكر عثمان، فقال: إنّه استأثر بالفيء فأساء الأثرة، واستعمل أقواماً لم يكونوا بأهل العمل من قرابته، وآثرهم على غيرهم، فكان في ذلك سفك دمه وانتهاك حرمته.

وعنه فيه، قال: قام عمرو إلى عثمان، فقال: اتّق الله يا عثمان إمّا أنْ تَعْدِل وإمّا أنْ تَعْتَزِل.. فلمّا أنَ نشب الناس في أمر عثمان تنحى عن المدينة، وخلف ثلاثة غلمة له ليأتوه بالخبر، فجاء اثنان بحصر عثمان، فقال: إنّي إذا نكأت قرحة أدميتها، وجاء الثالث بقتل عثمان وولاية علي عليه السلام، فقال: واعثماناه ولحق بالشام.

وذكر الواقدي في تاريخه أنّ عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقدم عمرو المدينة فجعل يأتي عليا عليه السلام فيؤلّبه على عثمان، ويأتي الزبير ويأتي طلحة ويلقي الركبان يخبرهم بأحداث عثمان، فلمّا حصر عثمان الحصار الأول خرج إلى أرض فلسطين، فلم يزل بها حتّى جاءه خبر قتله، فقال: أنا أبو عبد الله إنّي إذا أحكّ قرحة نكأتها، إنّي كنت لأحرِّض عليه حتّى إنّي لأحرض الراعي في غنمه. فلمّا بلغه بيعة الناس عليا عليه السلام كره ذلك وتربّص حتى قتل طلحة والزبير ثم لحق بمعاوية.

### نكير محمد بن مسلمة الأنصاري:

وذكر الثقفي في تاريخه، عن داود بن الحصين الأنصاري أنّ محمد بن مسلمة الأنصاري قال يوم قُتِلَ عثمان: ما رأيتُ يوماً قطّ أقرّ للعيون ولا أشبه بيوم بدر من هذا اليوم.

وروى فيه، عن أبي سفيان مولى آل أحمد، قال: أتيتُ محمّد بن مسلمة الأنصاري فقلت: قتلتم عثمان؟ فقال: نعم وأيم الله ما وجدتُ رائحةً هي أشبه برائحة يوم بدر منها.

وقد ذكر الواقدي في تاريخه، عن محمد بن مسلمة مثل ما ذكره الثقفي.

### نكير أبي موسى:

وذكر الواقدي في تاريخه، قال: لَمّا ولّى عثمان عبد الله بن عامر بن كريز البصرة قام أبو موسى الأشعري، خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد أتاكم رَجُلٌ كثيرُ العمّات والخالات في قريش، يبسط المالَ فيهم بسطاً، وقد كنتُ قبضته عنكم.

### نكير جبلة بن عمرو الساعدي:

وذكر الواقدي في تاريخه، عن عامر بن سعد، قال: أوّل مَن اجترأ على عثمان بالمنطق السيّئ جبلة بن عمرو الساعدي، مرّ به عثمان وهو جالسٌ في نادي قومه، وفي يدِ جبلة بن عمرو بن جامعة، فَسَلَّمَ وَرَدَّ القومُ، فقال جبلة: لِمَ تَرُدُّون على رَجُلٍ فَعَلَ كذا وكذا.

قال: ثم أقبل على عثمان، فقال: والله لأطْرَحَنَّ هذه الجامعة في عُنُقِكَ أو لَتَتْرُكَنَّ بطانتك هذه، قال عثمان: أيّ بطانة؟! فوالله إنّي لأتخيّر الناس، فقال: مروان تخيّرتَه، ومعاوية تَخَيَّرْتَه، وعبد الله بن عامر بن كريز تَخَيَّرْتَه، وعبد الله بن سعد تَخَيَّرْتَه، منهم مَن نزل القرآن بذَمّه، وأباح رسول الله ﷺ دمه. فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه.

وذكر فيه، عن عثمان بن السريد، قال: مرّ عثمان على جبلة بن عمرو الساعدي وهو على باب داره ومعه جامعة، فقال: يا نعثل والله لأقتلنّك أو لأحملنّك على جرباء، ولأخرجنّك إلى حرّة النار، ثم جاءه مرّة أخرى وهو على المنبر فأنزله عنه.

وذكر فيه أنّ زيد بن ثابت مشى إلى جبلة ومعه ابن عمّه أبو أسيد الساعدي فسألاه الكفّ عن عثمان. فقال: والله لا أقصّر عنه أبداً، ولا ألقى الله فأقول ﴿أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

### نكير جهجاه بن عمرو الغفاري:

وذكر الواقدي في تاريخه، عن عروة، قال: خرج عثمان إلى المسجد ومعه ناس من مواليه فنجد الناس يتتابونه يميناً وشمالاً، فناداه بعضهم يا نعثل وبعضهم غير ذلك، فلم يُكَلِّمْهُم حتى صَعَدَ المنبر فَشَتَمُوه فَسَكَتَ حتى

سَكَتُوا، ثم قال: أيّها الناس إتّقوا واسمعوا وأطيعوا، فإنّ السّامع المطيع لا حجّة عليه، والسّامع العاصي لا حجّة له.. فناداه بعضهم أنتَ..أنت السّامع العاصي.

فقام إليه جهجاه بن عمرو الغفاري وكان ممّن بايع تحت الشجرة فقال: هلمّ إلى ما ندعوكَ إليه. قال: وما هو؟ قال: نحملك على شارف جرباء فتلحقك بجبل الدخان، قال عثمان: لست هناك لا أمّ لك، وتناول إبن جهجاه الغفاري عصا في يد عثمان وهي عصا النبيﷺ فكسرها على ركبته. ودخل عثمان داره، فصلّى بالناس سهلُ بن حنيف.

وذكر فيه، عن موسى بن عقبة، عن أبي حبيبة.. الحديث، وقال فيه: إنّ عثمان قال له: قَبَّحَكَ الله وَقَبَّحَ ما جِئتَ به.

قال أبو حبيبة: ولم يكن ذلك إلاّ عن ملإ من الناس، وقام إلى عثمان شيعته من بني أميّة فحملوه فأدخلوه الدار، وكان آخر يوم رأيته فيه.

**نكير عائشة:**

وذكر الطبري في تاريخه والثقفي في تاريخه، قال: جاءَتْ عائشة إلى عثمان، فقالَتْ: أعطني ما كان يعطيني أبي وعمر، قال: لا أجد له موضعاً في الكتاب ولا في السُّنَّة، ولكن كان أبوك وعمر يعطيانك عن طيبة أنفسهما، وأنا لا أفعل، قالت: فأعطِني ميراثي من رسول اللهﷺ.

قال: أولم تجئ فاطمة عليها السلام تطلب ميراثها من رسول اللهﷺ، فَشَهِدْتِ أنتِ ومالك بن أوس البصري أنّ النبيﷺ لا يُوَرِّث، وأَبْطَلْتِ حَقَّ فاطمة، وجِئْتِ تَطلُبِينَهُ، لا أفعل.

وزاد الطبري وكان عثمان متّكئاً فاستوى جالساً، وقال: ستعلم فاطمة أيّ ابن عمٍّ لها منّي اليوم ألست وأعرابي يتوضّأ ببوله شهدت عند أبيك.

قالا جميعاً في تاريخهما: فكان إذا خرج عثمان إلى الصّلاة أَخْرَجَتْ قميصَ رسول الله ﷺ، وتنادي أنّه قد خالف صاحب هذا القميص.

وزاد الطبري يقول: هذا قميص رسول الله ﷺ لم يُبل، وقد غيّر عثمان سُنَّتَهُ، أُقْتُلُوا نَعْثَلاً، قَتَلَ الله نَعْثَلاً.

وذكر الثقفي في تاريخه، عن موسى الثعلبي، عن عمّه، قال: دخلتُ مسجدَ المدينة فإذا الناس مجتمعون، وإذا كفٌّ مرتفعةٌ، وصاحبُ الكفّ يقول: يا أيّها الناس العهد حديث، هاتان نعلا رسول الله وقميصه، إنّ فيكم فرعون أو مثله، فإذا هي عائشة تعني عثمان، وهو يقول: أُسْكُتي إنّما هذه إمرأة، رَأْيُها رَأْيُ المرأة.

وذكر في تاريخه، عن الحسن بن سعيد، قال: رَفَعَتْ عائشة وَرَقَاتٍ من ورق المصحف بين عودين من وراء حجابها وعثمان على المنبر، فقالت: يا عثمان أَقِمْ ما في كتاب الله، إنْ تصاحبْ تصاحبْ غادراً، وإنْ تُفارِقْ تُفَارِقْ عن قليً.

فقال عثمان: أمَا والله لتنتهينّ أو لأُدْخِلَنَّ عليك حمران الرِّجال وسُودانها. قالت عائشة: أمَا والله إنْ فَعَلْتَ لقد لَعَنَكَ رسولُ الله ﷺ ثم ما استَغْفَرَ لَكَ حتّى مات.

وذكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: أَخْرَجَتْ عائشة قميصَ رسول الله ﷺ، فقال لها عثمان: لئن لم تَسْكُتِي لأَمْلأنَّها عليكِ حبشاناً، قالت: يا

غادرُ يا فاجرُ أخْرَبْتَ أمَانَتَكَ وَمَزَّقْتَ كتابَ الله، ثم قالَتْ: والله ما ائتَمَنَهُ رَجُلٌ قطّ إلاّ خانه، ولا صَحِبَهُ رَجُلٌ قطّ إلاّ فَارَقَهُ عن قليً.

وذكر فيه، قال: نَظَرَتْ عائشة إلى عثمان، فقالت: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾.

وذكر فيه، عن عكرمة أنّ عثمان صعد المنبر فاطَّلَعَتْ عائشة ومعها قميص رسول الله ﷺ ثم قالت: يا عثمان أشهدُ أنّكَ بريءٌ من صاحب هذا القميص. فقال عثمان: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، [هود: ٩٨].

وذكر فيه، عن أبي عامر مولى ثابت، قال: كنتُ في المسجد فمرّ عثمان، فنادَتْهُ عائشة: يا غادرُ يا فاجرُ، أَخْرَبْتَ أمانَتَكَ وَضَيَّعْتَ رَعِيَّتَكَ، ولولا الصّلوات الخمس لمشى إليك رِجَالٌ حتّى يذبحوك ذَبْحَ الشّاة، فقال لها عثمان: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ﴾ الآية، [التحريم: ١٠].

وذكر فيه، أنّ عثمان صعد، فنادَتْ عائشة وَرَفَعَتِ القميصَ، فقالَتْ: لقد خالفْتَ صاحبَ هذا. فقال عثمان: إنّ هذه الزّعراء عدوّة الله، ضرب الله مثلها ومثل صاحبتها حفصة في الكتاب ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ﴾ الآية.

فقالت له: يا نَعْثَل، يا عدوّ الله، إنّما سمّاك رسول الله باسم نعثل اليهودي الذي باليمن.. ولاعنَتْهُ ولاعَنَهَا.

وذكر فيه، عن القاسم بن مصعب العبدي، قال: قام عثمان ذات يوم خطيباً، فَحَمَدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: نسوة يكتبن في الآفاق لتنكث بيعتي، ويهراق دمي، والله لو شئتُ أنْ أملأ عليهنّ حجراتهنّ رجالاً سوداً وبيضاً لفعلتُ، ألستُ ختن رسول الله على ابنتيه. ألستُ جهّزتُ جيش العسرة، ألم أكُ رسول رسول الله إلى أهل مكة. قال إذ تكلّمت امرأة من وراء الحجاب، قال:

فجعل يبدو لنا خمارها أحياناً، فقالَتْ: صدقت، لقد كنت ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه[1]، فكان منك فيهما ما قد علمت، وجهّزت جيش العسرة وقد قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةً﴾ وكنت رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، غيبك عن بيعة الرضوان لأنّك لم تكن لها أهلاً، قال: فانتهرها عثمان، فقالَتْ: أمّا أنا فأشهدُ أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ لكلّ أُمَّةٍ فرعون، وإنّكَ فرعون هذه الأمّة.

وذكر فيه من عدّة طرق، قال: لما اشتدّ الحصار على عثمان تجهّزَتْ عائشة للحجّ، فجاءَها مروان وعبد الرحمن بن عتاب بن الأسيد فسألاها الإقامة والدفع عنه، فقالت: قد عزيت غرائري، وأدنيتُ ركابي، وفرضتُ على نفسي الحجّ فلستُ بالتي أقيم، فنهضا ومروان يتمثّل:

فحرّى قيس على البلاد حتّى إذا اشتعلت أجذما

فقالت: أيّها المتمثّل بالشعر إرجع، فرجع، فقالت: لعلّكَ ترى أنّي إنّما قلت هذا الذي قلتُه شكّاً في صاحبِكَ، فوالله لوددتُ أنّ عثمان مخيط عليه في بعض غرائري حتى أكون أقذفه في اليمّ، ثم ارتحلَتْ حتى نَزَلَتْ بعض الطريق، فَلَحِقَهَا إبن عبّاس أميراً على الحجّ، فقالت له: يا ابن عباس إنّ الله قد أعطاك لساناً وعِلْماً، فأنشدك الله أن تخذلَ عن قتل هذا الطاغية غداً، ثم انطَلَقَتْ فلمّا قَضَتْ نُسُكَهَا بَلَغَهَا أنّ عثمان قُتِل، فقالت: أبْعَدَهُ الله بما قَدَّمَتْ يداه، الحمد لله الذي قَتَلَه، وَبَلَغَهَا أنّ طلحة وُلِّيَ بعده، فقالت: أيها ذا الإصبع، فلمّا بلغها أنّ عليا عليه السلام بويع، قالت: وَدِدْتُ أنّ هذه وَقَعَتْ على هذه.

---

(١) التحقيق أنْ يُقال: ليس لرسول الله بنات من أمّ المؤمنين خديجة عليها السلام سوى سيّدة النساء الصديقة فاطمة عليها السلام، راجِعْ كتابنا «أبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد».

وذكر الواقدي في تاريخه كثيراً ممّا ذكره الثقفي، وزاد في حديث مروان ومجيئه إلى عائشة أنّ زيد بن ثابت كان معه وأنّها قالت: وددتُ والله أنّكَ وصاحبكَ هذا الذي يعنيك أمره في رجل كلّ واحد منكما وجأ، وأنّه في البحر، وأمّا أنت يا زيد فما أقلّ والله من له مثل مالك من عضدان العجوة.

وذكر من طريق آخر أنّ المكلّم لها في الإقامة مع مروان عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، قالت: لا والله ولا ساعة، إنّ عثمان غَيَّرَ فَغَيَّرَ الله به أثركم والله وترك أصحاب محمدﷺ. وزاد في خطابها لابن عباس عتاب إنّك قد أُعطِيْتَ لساناً وجدلاً وعقلاً وبياناً، وقد رأيتَ ما صنع ابن عفّان، اتّخذ عباد الله خولاً، فقال: يا أمه دعيه وما هو فيه لا ينفرجون عنه حتى يقتلوه. وقالت: أبعده الله.

ومن طريق آخر إيّاك أن تَرُدَّ الناسَ عن هذا الطاغية، فإنّ المصريّين قاتلوه.

وروى عن ابن عباس، قال: دخلتُ عليها بالبصرة فذكّرتها هذا الحديث، فقالت: ذلك المنطق الذي تكلّمتُ به يومئذٍ هو الذي أخرجني، لم أرَ بي توبة إلاّ الطلب بدم عثمان، ورأيتُ أنّه قُتِلَ مظلوماً. قال: فقلت لها: فأنت: قتلتيه بلسانك، فأين تخرجين توبي وأنت في بيتك، أو أرضي ولاة دم عثمان ولده. قالت: دعنا من جدالك فلسنا من الباطل في شيء.

وذكر الواقدي، عن عائشة بنت قدامة، قالت: سمعتُ عائشة زوج النبيﷺ تقول [كذا] وعثمان محصورٌ قد حيل بينه وبين الماء: أَحْسَنَ أبو محمد حين حال بينَه وبين الماء. فقالت لها: يا أمه على عثمان. فقالت: إنّ عثمان غَيَّرَ سُنّة رسول اللهﷺ وَسُنّة الخليفتين من قبله فَحَلَّ دَمُهُ.

وذكر الواقدي في تاريخه، عن كريمة بنت المقداد، قالت: دخلتُ على عائشة، فقالت: إنّ عثمان أرسل إليّ أنْ أرسل إلى طلحة فأبيتُ، وأرسل إليّ أنْ

أقيمي ولا تخرجي إلى مكة، فقلت: قد جليتُ ظهري وغررتُ غرائري، وإنّي خارجة غداً إنْ شاء الله، لا والله ما أراني أرجع حتّى يُقْتَل، قالت: قلت: بما قَدَّمَتْ يداه، كان أبيّ تعني المقداد ينصح له فيأبى إلاّ تقريب مروان وسعيد بن العاص، قالت عائشة: حبّهم والله صنع ما ترين، حمل إلى سعيد بن العاص مائة ألف، وإلى عبد الله بن خالد بن أسيد ثلاثمائة ألف، وإلى حارث بن الحكم مائة ألف، وأعطى مروان خمس إفريقية لا يدري كم هو، فلم يكن الله ليدع عثمان. وذكر في تاريخه، عن علقمة بن أبي علقمة، عن أبيه، عن عائشة أنّها كانت أشدّ الناس على عثمان تُحَرِّض الناسَ عليه، وتُؤَلِّب، حتى قُتِلَ، فلمّا قُتِل وبويع علي عليه السلام طَلَبَتْ بدَمِهِ... وأمثال هذه الأقوال وأضعافها المتضمّنة للنكير على عثمان من الصحابة أو التابعين منقولة في جميع التواريخ، وإنّما اقتصرنا على تاريخي الثقفي والواقدي لأنّ لنا إليهما طريقاً، ولأنْ لا يطول الكتاب، وفيما ذكرناه كفاية، ومَن أراد العلم بمطابقة التواريخ لِمَا أوردناه في هذين التاريخين فليتأمّلها يجدها موافقة.

ثم أطبق أهل الأمصار وقطان المدينة من المهاجرين والأنصار إلاّ النفر الذي اختصّهم عثمان لنفسه وآثرهم بالأموال كزيد بن ثابت وحسّان وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير ومروان وعبد الله بن عمر على حصره في الدار ومطالبته بخلع نفسه من الخلافة أو قتله إلى أن قتلوه على الإصرار إلى ما أنكروا عليه ومن ظفروا به في الحال من أعوانه، وأقام ثلاثاً لا يتجاسر أحد من ذويه أن يصلّي عليه ولا يدفنه خوفاً من المسلمين إلى أن شفعوا إلى الإمام علي عليه السلام في دفنه، فأذن في ذلك على شرط أن لا يدفنوه في مقابر المسلمين، فحُمِلَ إلى حشّ كوكب مقبرة اليهود، ولمّا أراد النَّفَرُ الذين حملوه الصّلاة عليه منعهم من ذلك المسلمون ورجموهم بالأحجار، فدُفِنَ بغير صلاة، ولم يزل

قبرُهُ منفَرِداً من مقابر المسلمين إلى أنْ وُلّيَ معاوية، فأمر بأنْ يُدْفَنَ الناسُ من حوله حتى اتّصل المدفن بمقابر المسلمين. ولم يسأل عنه أحد من بعد القتل من وجوه المهاجرين والأنصار كالإمام علي عليه السلام وعمّار ومحمد بن أبي بكر وغيرهم وأماثل التابعين إلاّ قال قتلناه كافراً. وهذا الذي ذكرناه من نكير الصحابة والتابعين على عثمان موجودٌ في جميع التواريخ وكتب الأخبار، ولا يختلف في صحّته مخالط لأهل السير والآثار، وإنّ أحسن الناس كان فيه رأياً مَن أمسك عن نصرته ومعونة المطالبين له بالخلع، وكفّ عن النكير عنه وعنهم كما ذكرناه من مواليه وبني أميّة، ومن عداهم بين قاتلٍ ومعاونٍ بلسانِه أو بيدِه أو بهما.

ومعلومٌ تخصّص قاتليه بولاية الإمام علي عليه السلام وكونهم بطانة له وخواصّاً كمحمد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر والأشتر وغيرهم من المهاجرين والأنصار وأهل الأمصار، وتولّي الكافة لهم تولّي الصالحين والمنع منهم بالأنفس والأموال وإراقة الدماء في نصرتهم، والذبّ عنهم، ورضاهم بالإمام علي عليه السلام مع علمهم برأيه في عثمان والتأليب عليه، وتولّي الصّلاة وهو محصور بغير أمره، واتّخاذ مفاتيح لبيوت الأموال، واتّخاذ قتلته أولياء خاصّة أصفياء، وإطباقهم على اختياره وقتالهم معه والدفاع عنه وعنهم، واستفراغ الوسع في ذلك، وعدم نكيرٍ من أَحَدٍ من الصَّحَابة أو التابعين يعتدّ بنكيره، ثم اشتهر التديّن بتكفير عثمان بعد قتله، وكُفِّرَ مَنْ تولاّه من الإمام علي عليه السلام وذريّته وشيعته ووجوه الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا، وحُفِظَ عنهم التصريح بذلك بحيث لا يُحتاج إلى ذكره، غير أنّ في ذكره إيناساً للبعيد عن سماع العلم، وتنبيها للغافل من سنّة الجهل... فمن ذلك: ما رووه من طرقهم، أنّ الإمام عليا عليه السلام خطب الناس بعد قتل عثمان فَذَكَرَ أشياء قد مضى بيانها، من جملتها قوله عليه السلام: سبق

الرجلان وقام الثالث كالغراب همّته بطنه وفرجه، ويله لو قصّ جناحاه وقطع رأسه كان خيراً له، شغل عن الجنّة والنار أمامه.

ورووا عن علي بن مزود، عن الأصبغ بن نباتة، قال: سأل رجل عليا عليه السلام عن عثمان، فقال عليه السلام: وما سؤالك عن عثمان إنّ لعثمان ثلاث كفرات، وثلاث غدرات، ومحلّ ثلاث لعنات، وصاحب بليّات، لم يكن بقديم الإيمان ولا ثابت الهجرة، وما زال النفاق في قلبه، وهو الذي صدّ الناس يوم أحد.. الحديث طويل.

وذكر الثقفي في تاريخه، عن عبد المؤمن عن رجلٍ من عبد القيس، قال: أتيت عليا عليه السلام في الرحبة، فقلتُ: يا أمير المؤمنين حدِّثنا عن عثمان، قال: أُدْنُ. فدنوتُ، قال: إرفَعْ صوتك. فرفعتُ صوتي، قال: كان ذا ثلاث كفرات، وثلاث غدرات، وفعل ثلاث لعنات، وصاحب بليّات، ما كان بقديم الإيمان ولا حديث النفاق، يجزى بالحسنة السيّئة.. في حديث طويل.

وذكر في تاريخه، عن حكيم بن جبير، عن أبيه، عن أبي إسحاق وكان قد أدرك عليا عليه السلام، قال: ما يزن عثمان عند الله ذباباً، فقال: ذباباً؟! فقال عليه السلام: ولا جناح ذباب، ثم قال: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وذكر فيه، عن أبي سعيد التيمي، قال: سمعتُ عليا عليه السلام يقول: أنا يعسوب المؤمنين وعثمان يعسوب الكافرين. وعن أبي الطفيل: وعثمان يعسوب المنافقين.

وذكر فيه، عن هبيرة ابن مريم، قال: كنّا جلوساً عند علي عليه السلام، فدعا إبنه عثمان، فقال له: يا عثمان ثم قال: إنّي لم أسمّه باسم عثمان الكافر، إنّما سمّيته باسم عثمان بن مظعون.

وذكر في تاريخه، من عدّة طرق، أنّ الإمام عليا عليه السلام كان يستنفر الناس ويقول: إنفروا إلى أئمّة الكفر وبقيّة الأحزاب وأولياء الشيطان، إنفروا إلى مَنْ يقول: كذب الله ورسوله ﷺ، إنفروا إلى مَن يقاتل على دم حمّال الخطايا، والله إنّه ليحمل خطاياهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء.

وذكر فيه، عن عمر بن هند، عن الإمام علي عليه السلام، أنّه قال: لا يجتمع حبّي وحبّ عثمان في قلب رجل إلاّ اقتلع أحدهما صاحبه.

وروى فيه من طرق أنّ جيفة عثمان بقيت ثلاثة أيّام لا يدفن، فسأل عليا عليه السلام رجالٌ من قريش في دفنه فأَذِنَ لهم، على أنْ لا يُدْفَنَ مع المسلمين في مقابرهم ولا يُصَلّى عليه، فلمّا عَلِمَ الناسُ بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، فخرجوا به يريدون به حشّ كوكب مقبرة اليهود، فلمّا انتهوا به إليهم رجموا سريره..

وروى فيه من طرق، عن الإمام علي عليه السلام، أنّه قال: مَن كان سائلاً عن دم عثمان فإنّ الله قتله وأنا معه.

وروى فيه عن مالك بن خالد الأسدي، عن الحسن بن إبراهيم، عن آبائه، قال: كان الحسن بن عليّ عليه السلام يقول: معشر الشيعة عَلِّمُوا أولادَكُم بُغْضَ عثمان، فإنّه مَنْ كان في قلبه حُبٌّ لعثمان فأدرَكَ الدجّالَ آمَنَ بِهِ، فإنْ لم يُدْرِكْهُ آمَنَ بِهِ في قَبْرِهِ.

ورووا فيه عن بكر بن أيمن، عن الحسين بن عليّ عليه السلام، قال: إنّا وبني أميّة تعادينا في الله، فنحن وهم كذلك إلى يوم القيامة، فجاء جبرئيل عليه السلام براية الحقّ فركزها بين أظهرنا، وجاء إبليس براية الباطل فركزها بين أظهرهم، وإنّ أوّل قطرة سَقَطَتْ على وجه الأرض من دم المنافقين دم عثمان بن عفّان.

وروى فيه عن الحسين عليه السلام أنّ عثمان جيفة على الصّراط، مَن أقام عليها أقام على أهل النّار، ومن جَاوَزَه جَاوَزَ إلى الجَنّة.

وروى فيه عن حكيم بن جبير، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله أنّ عثمان جيفة على الصِّراط يعطف عليه مَن أحبَّه ويجاوزُه عدوّه.

* * *

بهذه الإستنكارات على عثمان نكون قد أثبتنا إعوجاجه؛ من خلال سيرته الدالة على خلفيّة باطنه، بحيث لا يستقيمُ قولُ مَن قال بأنّ سورة عبس نزلت معاتِبَةً رسول الله؛ فإنّه قولٌ ينمُّ عن عدم إنصافٍ ودرايةٍ بالتفسير و العقيدة، وجهلٍ بعلاج الأحاديث.

سيرة عثمان شهادة حيّة على أنّه المعنيّ به في سورة عبس. كما أنّ بني أميّة يشاركونه في الذَّمّ، إلاّ أنّه الأنموذج الأكمل مع معاوية ويزيد، بل لعلّ غيره من بني أميّة لم يكن ـ حين نزول السّورة ـ داخلاً في زمرة المسلمين، مع أنّ ظواهر الآيات تدلّ على أنّ العابس في وجه الأعمى كان واحداً من المسلمين، فمسلِمٌ ظاهراً أعرض عن مسلِمٍ أعمى؛ لعماه وفقره، وأقبَلَ وتصدّى للكافر؛ لإستغنائه وثروته وجاهه ولكونه من طينته، وروحه من سنخ روحيّة المستغني.

والصّفات التي ذَكَرَتْها السّورة في حقّ عثمان لم تفارقه حتى أواخر سنيّ عمره وشيخوخته، وبعدما نَصَّبَ نفسه، أو بفعل تنصيب عمر بن الخطّاب له على المسلمين زعيماً لهم، لم يقدر أنْ يُجانِبَ تلك الصّفات، فلم يؤثّر فيه التأذيب الإلهي، والأنفاس النبويّة، من أوّل أمره إلى آخر دهره، حتى أثار السَّخَطَ في نفوس المسلِمين وآلَ أمرُه إلى أنْ قَتَلُوه، فلم يكن يعبأ بإسلامِ مسلمٍ وصلاحه وتقواه و تقدُّمِه في الإسلام، وكونه مهاجريّاً أو بدريّاً أو أُحُدِيّاً، ولم

يعتنِ بما أوصاه رسول الله ﷺ في حقّهم، ولا راعى إكرام مَنْ أكرمه، ولا إعظام مَن عَظَّمَه، ولا تصديق مَن صَدَّقَه، بل راعى ما يوافق هواه وما يصدّ عن سبيل رضا الله تعالى، فعبس في وجوه جمعٍ من أكابر الصّحابة وضيّق عليهم وطردهم وشرّدهم عن أوطانهم وأوكارهم، بل وضرب بعضهم ضرباً موجعاً وكاد أنْ يقتلهم، ولم يسلَم منه إلاّ مَن تزلّف له من الكفّار والفسّاق والمنافقين، فجعلهم من حاشيته ووزرائه وأعوانه وأمرائه في البلاد، وبسط لهم الأموال والأيادي، إلى أنْ انتكث عليه فتله وأجهز به عمله؛ فحاصره المسلمون وضيَّقُوا عليه حتى استأصلوه.

وبالجملة؛ فإنّ سيرة النبي ﷺ مخالِفة لِمَا في سورة عبس، بخلاف عثمان؛ إذ كلّ ما فيها ألصق به من غيره.

(الوجه الثالث)[1]:

ونكشف من خلاله عن القرائن والأمارات من نفس السّورة التي يمكن الإستدلالُ بها على كون العابس هو عثمان الذي دَلَّت عليه رواياتنا ـ حسبما أشرنا سابقاً ـ.

وهذه القرائن تقوّي تلكم الرّوايات الواردة من طرقنا، والحديث يشدُّ بعضه بعضاً، ويتقوّى أمره بالشواهد والقرائن والمتابعات، فلا يجوز ـ ساعتئذٍ ـ طرحه والعمل بغيره، لا سيّما إذا كان هذا الغير من طرق العامّة، وتتضمن دلالته إعوجاجاً في سلوك النبي ﷺ ـ حاشاه ـ، وهو مخالِفٌ لطريقته السّويّة وتعامله العادل مع الناس.

---

(١) الوجه الثالث من الوجوه الدالة على أنّ العابس في وجه الفقير الأعمى هو عثمان، وقد مرّ ذكر الوجهين الأوّلَين ص٢٣٠.

**أهمّ هذه القرائن هي الآتي:**

(القرينة الأولى): إنّ الضّمائر في السّورة على نحو الغيبة، ثمّ الإلتفات إلى الخطاب يجب أنْ تكون ـ أي هذه الضمائر ـ لنفس المخاطَب؛ لأنّ المورد هو مورد عتابٍ وملامة، فلا بدّ أنْ يتناسق مورد الغيبة وهو ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مع مورد الخطاب وهو ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، فالمرجع لتلك الضمائر هو الذي يخاطبه فيما بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فذكره بنحو الغيبة ثمّ الرّجوع عنها إلى الخطاب إليه من باب الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب، فإنّ المعني بالآيات ذُكِرَ على جهة الغيبة، ثمّ في مقام تشديد العتاب فرضه كالحاضر وعاتبه خطاباً تصويرياً، وهذا هو الظاهر من تلك الآيات الشريفة، فإنّ المتكلّم إذا أخذ في التعبير على أفعالٍ قبيحةٍ صَدَرَت عن رجل، ويريد إظهار سخطه وملامته وعتابه عليه وهو غير حاضرٍ عنده، فيتكلم عليه بنحو الغيبة كما هو كذلك، ويمضي على هذا النحو إلى أنْ يشتدّ سخطه عليه شيئاً فشيئاً، واشتداد الغضب عليه يوجب قوّة وجوده في نظر المتكلّم إلى حَدٍّ كأنه يتجسّم عنده في الخارج بشكل حضوره لديه، فيلتفت المتكلم من الغيبة حينئذٍ إلى الخطاب معه، فيخاصمه ويعاتبه مخاطبةً، فيتكلَّم عليه ما يرى أنه يليق به من العتاب والتوبيخ.

(القرينة الثانية): ما ذَكَرَه تعالى بعد توصيف سفراء الله تعالى بأنهم كرام بررة، وأنّ منصب التذكير بأيدي سفرة، من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، حيث إنّ ظاهره الرّجوع إلى الرّجل العبوس الذي يكفر بالحقايق ويستر بعمله الصفات المحمودة ممّن يسعى ـ وهو يخشى ـ تحت العناوين الموهومة من الغنى وشرف القبيلة والعشيرة وأمثالها.

إنْ قيل: إنّ آيات سورة عبس لم تحدِّد هويّة العابس وأنّه عثمان، لذا فالعابس مجهول أو مجمل فكيف قيّدتموه بعثمان بن عفّان؟

قلنا: صحيحٌ أنّ الإجمال نوعٌ من شيوع الماهية، وهذا الإجمال يبقى على إجماله وتردّده في حال لم يبيِّنه دليلٌ منفَصِلٌ، وهنا قد دلّ الدليل المنفصل على أنّ العابس هو عثمان ولا أحد سواه، فينتفي الإجمال من أساسه.

(القرينة الثالثة): لقد وَصَفَت آيات سورة عبس صنفين من الناس:

أحدهما: العابس المقَطّب، والعبوس من صفات أهل جهنّم، وقد وَرَدَت مادّة «عبس» في القرآن في آيتين: الأولى في سورة المدثر، الآية الحادية والعشرون، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾. والثانية في سورة الإنسان، الآية الحادية عشرة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

فالآية الأولى: نَزَلَت في الكافر الذي وَصَفَه تعالى بقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١].

قال الرّازي: أجمعوا على أنّ المراد به الوليد بن المغيرة.

وأمّا الآية الثانية: فتدلّ على أنّ العبوس هو اليوم المكفهر الذي تعبس فيه الوجوه، ووصف اليوم بالعبوس توسعاً لِمَا فيه من الشدّة.

فالعبوس ـ إذن ـ من صفات الجهنميين، وحاشا لرسول الله ﷺ أنْ يتصف بصفاتهم، وهذا ما أكّدَته سورة عبس بقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

فالكفرة الفجرة وجوههم كالحة عابسة متجهمة ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وثانيهما: المنبسط والهشاش البشاش، ترى على وجهه علامات البراءة والسّماحة، وهذا ما أشارت إليه الآيتان ٣٨و٣٩، وهما قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾، ولا تكون إلاّ وجوه سفراء الله تعالى الكرام البررة بالنسبة إلى المؤمنين، ووجوه السفرة هي وجوهٌ اتَّصَفَتْ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

إنْ قيل: كيف تنكرون صدور العبوس من رسول الله ﷺ في حين أنه كان يعبس في بعض الأحيان من أشخاصٍ صَدَرَت منهم أفعال، أو أمور تستوجب ذلك.

قلنا: لا ننفي أصل العبوس عنه ﷺ، وإنما ننكر وننفي العبوس بغير حقّ في وجه فقير جاء يطلب معالم دينه، فإنكار العبوس عنه مطلَقاً مخالِفٌ للضرورة، لكنْ لمّا عاتب الله سبحانه نبيّه العابس ـ بحسب دعوى المخالِفين ـ بشدّة وأغلظ عليه بالزجر والإنكار، عَلِمْنا أنّ فِعْلَه هذا ـ على فرض صدوره منه ـ محَرَّمٌ لا يجوز للأنبياء والأولياء ارتكابه، وبالتالي يُعلَم أنه لم يكن صادراً منه ﷺ، فإنّ سياق هذه المعاتَبات غيرُ لائقٍ بمنصب النبوّة كما لا يخفى على العارِف بأساليب الكلام، ويشبه أنْ يكون من مختلقات أهل النفاق ـ خَذَلَهُم الله تعالى ـ.

وبالجملة؛ فإنّ العابس المتولي عن الفقير المؤمن يعتبر تولياً عن الله تعالى واستكباراً على طاعته وعبادته، من هنا لا يمكن أنْ يكون ـ هذا العابس ـ هو النبي الأكرم ﷺ؛ لاستلزامه الإغراء بالقبيح؛ ولأنّ إرساله ـ حينئذٍ ـ وهو بهذه

الصفات الذميمة مع تساويه مع غيره من المكلَّفين يقتضي الترجيح بلا مرَجِّح وهو قبيحٌ عقلاً ونقلاً.

فلا بدّ من صَرْف النظر عن النبي ﷺ إلى غيره، ولم يثبت لدينا بدليلٍ نقليٍّ أنّ العابس رجلٌ غيرعثمان، فيتعَيَّن كونه المراد في سورة عبس، فثبت المطلوب.

(القرينة الرابعة): لقد وصفت الآيات في سورة عبس بأنّ العابس كان يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن المتقين الخاشعين من الفقراء، ويظهر من صيغتي الفعل المضارع في قوله تعالى (تصدّى ـ تلهّى) أنّ العابس كان من دأبه العمل على التصدّي للأغنياء، والإهتمام بهم لغناهم ولو كانوا كافرين، وكذا التلهّي عن الفقراء والتشاغل عنهم والإعراض ولو كانوا مؤمنين.

ويظهر من آيات السّورة المبارَكة كون التصدّي للمستغني لأجل غناه، والتلهي عن الفقير لأجل فقره، وهذا الفعل ظاهرٌ في القبح، ووجه الظهور تعليق هذا الفعل، وهو التصدّي أو التلهّي، على وصفٍ هو الغنى في الأوّل والخشية في الثاني، ولا شكّ بقبحه ذاتاً حتى ولو لم يكن الفعل صادراً من العابس لأكثر من مرّة بمعونة فهم العرف لذلك.

القرينة الخامسة: ظاهر الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ لا يصحّ نسبته إلى رسول الله ﷺ، بل يجب صرفه عنه إلى غيره، لوضوح رأفة النبي بقومه وحرصه على هدايتهم، في حين الآية تصرفه عن مجال التزكية والهداية الخاصَّيْن به صلوات الله عليه وآله، إذ كيف تنفي عنه التزكية والحال أنه ﷺ مبعوثٌ لدعوة الخلق وتنبيههم وتزكيتهم وتعليمهم بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

وكيف لا تكون تزكيتهم واجبة عليه ﷺ، وقد أُرسِلَ لذلك الغرض، وكيف لا يهمّه ذلك وقد بذل عمره الشريف في هذا المجال؟!! وكأنّ هذا القول إغراءٌ بترك الحرص على إيمان قومه! وصدور الإغراء منه عزّ وجلّ ممتنعٌ عليه، ونسبته إليه قبيحٌ عقلاً وشرعاً، وسيرة النبي ﷺ تدلّ على حرصه الشديد على قومه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]، وأيضاً قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]، وكلّ ذلك مصداق قوله ﷺ: «اللهمّ اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلَمُون»(١).

(القرينة السادسة): وجود ﴿كَلَّا﴾ الرّادعة أو الزاجرة، تفيد الرّدع والتنبيه والزجر، أي: إنتهِ ولا تغفل، وهي آكد في النفي والرّدع من «لا» لزيادة الكاف حسبما أفاد اللغويّون.

وقد وَرَدَت «كلا» في سورة عبس في موضعَيْن:

الأوّل: بمعنى الرّدع، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾.

الثاني: بمعنى حقاً، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾.

وعلى كِلاَ المعنيين فإنّ «كلاّ» الرادعة لم تؤثّر بالعابس لسوء سريرته وخبث طينته، لذا جاءت «كلاّ» المؤَكِّدَة لِمَا كان عليه العابس في واقع الحال وسوء المآل: بأنّه لم ينجز ما وعد الله تعالى وتثبيت أحكامه ونفوذ سلطانه في الإخلاص له في العبادة وتأدية حقّه عزّ وجلّ عليه مع كثرة نعمه.

وأنتَ ـ أيها القارئ ـ إذا أصخت بقلبكَ السّمعَ جيّداً لعرفتَ أنّ التشديد

---

(١) بحار الأنوار: ٩٥/ ١٦٧.

على العابس بتلكم الألفاظ الدالة على الزجر والتقريع واللوم والتوبيخ لا يصحّ أنْ يتوجّه إلى رسول الله المبعوث رحمةً للعالَمين، مع أنه ﷺ مرهف الإحساس، طاهر السَّريرة، ذليل في نفسه، متواضعٌ في خُلُقِهِ، خاشعٌ لربّه، فتكفيه الإشارة دون صريح العبارة الممزوجة بالتقريع والوعيد، فلم يكن بحاجة إلى كلّ هذا، وعليه فلِمَ هذا الإصرار على التوبيخ والزّجر ما دام النبي تكفيه الإشارة عن العبارة، والتلويح عوضاً عن التصريح؟! فلا بدّ من القول ـ إذاً ـ بأنّ عبارات العتاب منصرفة إلى غير النبيﷺ وهذا الغير هو عثمان بن عفان لا سواه، ولو كان غيره لكانت أشارت الأخبار إلى اسمه ونسبه، لا سيّما أنّ المقام مقام بيانٍ، يقبح على السفراء ﷺ إخفاءه إلاّ لتقيّةٍ وهي مفقودة في البين، فعدم ذكر مَنْ سوى عثمان في الأخبار دلالة واضحة على أنّه هو المراد بقرينة التصريح باسمه في الأخبار الشريفة.

(القرينة السَّابعة): ليس في الآيات ما يدلّ على أنّ المعنيّ بها هو النبيﷺ فضلاً عن أنْ يكون المخاطَب فيها، بل صدرها مجرَّد خبر لم يُصَرَّح فيه بالمخبر عنه، وعليه؛ فلا يجوز نسبة العبوس إليه ﷺ ما دامت غير ظاهرة فيه خطاباً وقصداً، فمن أين جاء التخصيص به ﷺ يا تُرى؟!! ما هذا إلاّ افتراءاً و﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

هذه أهمّ القرائن من نفس السورة أثبتنا بها أنّ العابس هو غير النبيﷺ، وهو على وجه الخصوص عثمان بن عفان حسبما حدَّدَتْه أخبارنا، وبحسب سياق الآيات بضميمة سيرة عثمان وصفاته الذاتية الذميمة كما تشير إلى ذلك روايات العامّة، وأمّا القرائن الخارجيّة ـ من غير سورة عبس ـ فكثيرة جدّاً ذكرنا أهمها فيما سبق.

(الوجه الرابع): من وجوه الأدلّة الإثباتية في نزول السّورة بعثمان، ومفاده:

لو دار الأمر بين كون العابس هو عثمان بن عفان لدلالة أخبارنا عليه، وبين كونه النبي الأكرمﷺ، فيترجَّح كونه عثمان دون النبيﷺ لمعارَضة ذلك لِمَا ثبت من قطعيات سيرته وتاريخه ﷺ كما سوف نوضحه في الفصل القادم في سيرة النبيﷺ.

مضافاً إلى موافقة دلالات السورة لسيرة عثمان المعروفة بالفظاظة والغلظة كقرينيه المتقدمَيْن عليه.

إنّ المخالِفِين شنّوا حملةً عشواء على خُلُق النبيﷺ حينما نسبوا إليه العبوس في وجه المؤمن الأعمى، ولو كان العبوس في هذا المورد جائزاً فلِمَ لا يلصقونه بعثمان أو بغير رسول اللهﷺ إنْ لم يرتضوا أنْ تكون نازلةً في عثمان بن عفّان؟! ولِمَ يشنُّون الحملات على الشيعة حينما يصفون عثمان أو عمر بن الخطاب بالخشونة والرّعونة والعبوس؟!!

إنّ إلصاق العبوس برسول الله في وجه المؤمن نوع أذيّة له وطَعْنٌ وتعييبٌ عليه ﷺ بعدم إقباله على الفقير بالإبتسامة والقول الحَسَن؛ لأنّ القول الحَسَن والإبتسامة الجميلة هما من جملة الصدقات الواجبة على كلّ مؤمنٍ في حقّ أخيه المؤمن، فضلاً عن سيّدهم رسول اللهﷺ...

صَدَقَ الله جلَّ وعَلاَ حيث قال في حقّ هؤلاء: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨]. واللمز لغةً هو الطَّعْنُ والتَّعْيِيبُ، ومَن طعن رسول اللهﷺ فقد نسب إليه النقص من العطاء للمسلِمِين، وقد ورد عنه أنّ التبسم في وجه أخيك صدقة،

وهل ثمّة أفضل من صدقة الإبتسامة والرّدّ الجميل يصدران من رسول الرّحمة ﷺ؟!!!

إنّ التعييب عليه ﷺ هو أذيّة له، ومَن آذاه له عذابٌ أليم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

إنْ قيل: إنّ الأخبار دَلَّت على أنّ العابس هو رجل من بني أميّة، فكيف تدَّعُون أنّه عثمان؟

الجواب: القرائن المتقدِّمة كافية بردّ هذا الإشكال، مع التأكيد على أنّ مصطلح «رجل من بني أميّة» خاص في عثمان بن عفّان، وذلك لوجوهٍ ثلاثة:

الوجه الأوّل: ليس ثمة صحابي أموي غير عثمان من حيث حضوره في مجلس النبيِّ يومذاك، وقد أكّدَتْ أخبارنا أنّه الوحيد من بني أميّة الذي كان حاضراً في ذاك المجلس.

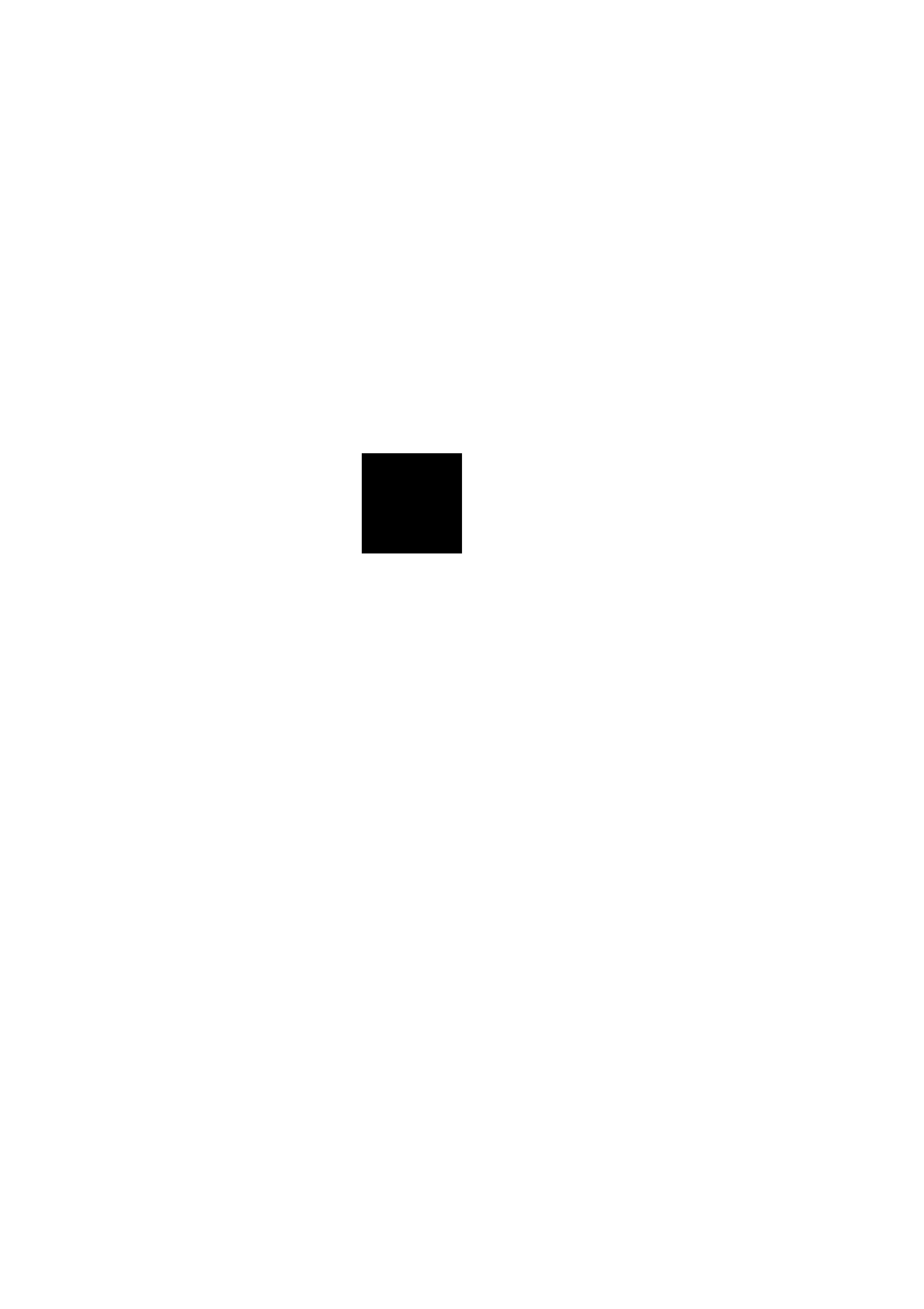
الوجه الثاني: ما ورد في رواية القمي، وقد أشرنا إليها فيما سبق، دلَّتْ على أنّ العابس هو عثمان بن عفان.

الوجه الثالث: إنّ رواية ناجية العطار دَلَّتْ أيضاً أنّ الرجل الأموي هو عثمان، قال ناجية سمعتُ الإمام أبا جعفر يقول: إنّ المنادي ـ يوم ظهور الإمام المهدي (عجَّل الله تعالى بفرجه الشريف) ـ إنّ المهدي فلان بن فلان باسمه واسم أبيه، فينادي الشيطان إنّ فلاناً وشيعته على الحقّ يعني رجلاً من بني أميّة[1]. وغيرها من أخبار علامات الظهور الدالة على صيحة إبليس الداعية إلى أنّ الحقّ مع عثمان.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٢/ ٢٩٤ح٤٥.

# الفصل الثالث



# سيرة رسول اللّه أبي القاسم محمدﷺ

نبحث في هذا الفصل بفضائله ﷺ ومكارم أخلاقه، من مصادر الخاصّة والعامّة، والرّوايات والأخبار الدالة على ذلك لم تحصر فضائله النفسية والرّوحية والخلقية بفترةٍ ما بعد النبوّة والرّسالة أو قبلها، أو بعد نزول سورة عبس، بل هي عامّة تشمل كلّ مراحل حياته الشريفة ﷺ، وبمقتضى العموم الموجود في تلكم الرّوايات الدالة على تنزّهه ﷺ عن الأخلاق الرديّة، مع عدم وجود مخصِّص أو مقيِّد لها بزمنٍ خاص ـ سواء أكان مخصّصاً عقليّاً أم نقليّاً ـ، نحكم بوفور أخلاقه الرفيعة التي عُرِفَ بها في عصر الجاهليّة، وبعد بعثته، إلى يوم شهادته ﷺ.

مضافاً إلى أنّ القول بتلبُّس النبيﷺ بأمرٍ مكروهٍ ـ كالعبوس في وجه المؤمن الفقير فضلاً عن أنْ يكون هذا التلبُّس حراماً حسبما ذكرنا سابقاً بمقتضى سياق الآيات الزاجرة الدالة على حرمة صدور ذاك الفعل من العابس ـ ثمّ عصمته عنه، يستلزم صدور المعصية منه حال التبليغ، وهو مخالف لِمَا دَلَّت عليه الأدلّة القطعيّة في مصادر التشريع الأربعة كما سوف نبرهن عليه في الفصل القادم إنْ شاء الله تعالى.

وقبل بيان شمائله وفضائله ومكارم أخلاقه، نريد أنْ نؤسّس الأصل القرآني والنبوي لشرافة النبيﷺ وأهل بيته عليهم السلام عن كلِّ خطأ ومكروه.

**ـ الأصل القرآني:**

الأصل القرآني هو الضابطة العلميّة التي يجب التوجه إليها في المسائل الشرعيّة والأخلاقيّة والسّلوكيّة وكلّ النواحي الأخرى المتعلّقة بشخص النبي ﷺ.

فالأصل العلمي هو ما يؤَسّس كقاعدة ترتكز عليها مسائل البحث، وما عداه من الأخبار المخالِفة له لا قيمة لها؛ لكونها على خلاف الأصل المحكم، فإمّا تُرَدّ وإمّا تُؤَوَّل، وفي الأعمّ الأغلب يتعيَّن الإحتمال الأوّل.

وثمّة نصوص قرآنيّة تثبت هذا الأصل كآية التطهير[1]، وآية كونه رحمة للعالَمين[2]، وأنه أسوة حَسَنَة[3]، وغيرها من الآيا ت التي سنتطرّق إليها ـ بإذن الله تعالى ـ في فصل عصمة النبي ﷺ.

**ـ الأصل النبوي:**

وأمّا الأصل النبوي، فهو ما تواتر عنه ﷺ: «إنّما بُعِثْتُ لأُتَمّمَ مكارمَ الأخلاق»[4].

وقوله ﷺ: «أفضل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً»[5].

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) مستدرك الوسائل: ١١/ ١٨٧ح١٢٧١، والبحار: ١٦/ ٢١٠ باب٩ وج٦٧/ ٣٧٢ باب٥٩، وج٦٨/ ٣٧٣ باب٩٢ وص٣٨٢ باب٩٢، ومكارم الأخلاق: ٨.

(٥) راجع: مستدرك الوسائل: ١١/ ١٨٧ح١٢٧١، وبحار الأنوار: ١٦/ ٢١٠ باب٩ وج٦٧/ ٣٧٢ باب٥٩.

وعن أبي هريرة، عنه ﷺ قال: أحبُّكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويُؤلَفون، وأبغضكم إلى الله المشّاؤن بالنميمة المفرِّقون بين الإخوان، الملتَمِسُون للبُراء العثرات(١).

وما ورد بالمتواتر أنّ النبيّ محمّداًﷺ سيّد وِلْد آدم(٢) بل سيّد مَن خلق الله إلاّ أهل بيته فهو منهم وهم منه عليهم السلام.

فإذا كان سيّد الأخلاق، وأفضل الناس إيماناً، وأحسنهم خُلُقاً، وسيّد مَن خَلَقَ الله تعالى؛ فكيف يصدر منه ما يوجب تقريعه وتوبيخه بقرآنٍ يُتلى آناء الليل وأطراف النهار؟!!!

## شمائله ومكارم أخلاقه ﷺ:

والبحث في شمائله ومكارم أخلاقه ﷺ ينقسم إلى نوعين:

**النوع الأول:** ويشير إلى نورانيّته في أصل الخلق الأوّل.

**النوع الثاني:** يشير إلى أوصافه الكريمة في الخلق الثاني الدنيوي.

**النوع الأول: أوصافه الشريفة في الخلق الأول:**

فقد تواتَرَت الأخبار الشريفة على أنه وأهل بيته عليهم السلام أوّل ما خلق الله تبارك وتعالى، وأنه اصطبغهم من نوره ورحمته، وفرض طاعتهم على عامّة خلقه حتى الأنبياء والمرسَلين والملائكة أجمعين، وذلك لفرط محبتهم له عزّ وجلّ من حيث عدم وصول أيّ مخلوق إلى درجتهم وعلوّ مقامهم كما ورد في زيارة آل

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٨٣ح١٧، نقلاً عن مجمع البيان: ١٠/ ٣٣٣.

(٢) أصول الكافي: ١/ ٤٤٠، ووسائل الشيعة: ٢٥/ ٢٣ باب١٠ح٣١٠٣٨.

ياسين بقول الإمام القائم (عجَّل الله تعالى بفرجه الشريف): «لا حبيب إلاّ هو وأهله» أي لا أحد مثلهم في المحبّة الكاملة.

من هذه الأخبار ما أورده الشيخ الكليني رحمه الله[1]:

(١) أَحمَدُ بنُ إِدرِيسَ، عن الحُسَينِ بنِ عَبدِ الله، عن مُحَمَّدِ بنِ عِيسَى، ومُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الله، عن عَلِيِّ بنِ حَدِيدٍ، عن مُرَازِمٍ، عن الإمام أَبِي عَبدِ الله عليه السلام قال: قال الله تَبَارَكَ وتَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي خَلَقتُكَ وعَلِيّاً نُوراً ـ يَعنِي رُوحاً بِلاَ بَدَنٍ ـ قَبلَ أَن أَخلُقَ سَمَاوَاتِي وأَرضِي وعَرشِي وبَحرِي، فَلَم تَزَل تُهَلِّلُنِي وتُمَجِّدُنِي، ثُمَّ جَمَعتُ رُوحَيكُمَا فَجَعَلتُهُمَا وَاحِدَةً، فَكَانَت تُمَجِّدُنِي وتُقَدِّسُنِي وتُهَلِّلُنِي، ثُمَّ قَسَمتُهَا ثِنتَينِ، وقَسَمتُ الثِّنتَينِ ثِنتَينِ، فَصَارَت أَربَعَةً: مُحَمَّدٌ وَاحِدٌ، وعَلِيٌّ وَاحِدٌ، والحَسَنُ والحُسَينُ ثِنتَانِ، ثُمَّ خَلَقَ الله فَاطِمَةَ مِن نُورٍ ابتَدَأَهَا رُوحاً بِلاَ بَدَنٍ، ثُمَّ مَسَحَنَا بِيَمِينِهِ فَأَفضَى نُورَهُ فِينَا.

(٢) أَحمَدُ، عن الحُسَينِ، عن مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الله، عن مُحَمَّدِ بنِ الفُضَيلِ، عن أَبِي حَمزَةَ، قال: سَمِعتُ الإمام أَبَا جعفر عليه السلام يَقُولُ: أَوحَى الله تَعَالَى إِلَى محمد ﷺ: أَنِّي خَلَقتُكَ ولَم تَكُ شَيئاً ونَفَختُ فِيكَ مِن رُوحِي كَرَامَةً مِنِّي أَكرَمتُكَ بِهَا حِينَ أَوجَبتُ لَكَ الطَّاعَةَ عَلَى خَلقِي جَمِيعاً فَمَن أَطَاعَكَ فَقَد أَطَاعَنِي ومَن عَصَاكَ فَقَد عَصَانِي وأَوجَبتُ ذَلِكَ فِي عَلِيٍّ وفِي نَسلِهِ مِمَّنِ اختَصَصتُهُ مِنهُم لِنَفسِي.

(٣) أَحمَدُ بنُ إِدرِيسَ، عن الحُسَينِ بنِ عَبدِ الله الصَّغِيرِ، عن مُحَمَّدِ بنِ إِبرَاهِيمَ الجَعفَرِيِّ، عن أَحمَدَ بنِ عَلِيِّ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الله بنِ عُمَرَ بنِ الإمام

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٤٤٠ ـ ٤٤١ ح٣و٤و٩و١٠ على التوالي.

عَلِيِّ بنِ أَبِي طالبعليه السلام عن الإمام أَبِي عَبدِ اللهعليه السلام قال: إنَّ الله كَانَ إِذ لاَ كَانَ، فَخَلَقَ الكَانَ والمَكَانَ، وخَلَقَ نُورَ الأَنوَارِ الَّذِي نُوِّرَت مِنهُ الأَنوَارُ، وأَجرَى فِيهِ مِن نُورِهِ الَّذِي نُوِّرَت مِنهُ الأَنوَارُ، وهُوَ النُّورُ الَّذِي خَلَقَ مِنهُ مُحَمَّداً وعَلِيّاً، فَلَم يَزَالاَ نُورَينِ أَوَّلَينِ، إِذ لاَ شَيءَ كُوِّنَ قَبلَهُمَا، فَلَم يَزَالاَ يَجرِيَانِ طَاهِرَينِ مُطَهَّرَينِ فِي الأَصلاَبِ الطَّاهِرَةِ حَتَّى افتَرَقَا فِي أَطهَرِ طَاهِرَينِ فِي عَبدِ الله وأَبِي طَالِبٍعليهما السلام.

(٤) الحُسَينُ، عن مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الله، عن مُحَمَّدِ بنِ سِنَانٍ، عن المُفَضَّلِ، عن جَابِرِ بنِ يَزِيدَ قال: قال لِي الإمام أَبُو جَعفَرٍ عليه السلام: يَا جَابِرُ إِنَّ الله أَوَّلَ مَا خَلَقَ خَلَقَ محمداﷺ وعِترَتَهُ الهُدَاةَ المُهتَدِينَ، فَكَانُوا أَشبَاحَ نُورٍ بَينَ يَدَي الله، قُلتُ: ومَا الأَشبَاحُ؟ قال: ظِلُّ النُّورِ أَبدَانٌ نُورَانِيَّةٌ بِلاَ أَروَاحٍ، وكَانَ مُؤَيَّداً بِرُوحٍ وَاحِدَةٍ وهِيَ رُوحُ القُدُسِ، فَبِهِ كَانَ يَعبُدُ الله وعِترَتُهُ ولِذَلِكَ خَلَقَهُم حُلَمَاءَ عُلَمَاءَ بَرَرَةً أَصفِيَاءَ، يَعبُدُونَ الله بِالصَّلاَةِ والصَّومِ والسُّجُودِ والتَّسبِيحِ والتَّهلِيلِ ويُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ ويَحُجُّونَ ويَصُومُونَ.

(٥) وفي الخصال ومعاني الأخبار، عن الحاكم أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المروزي، عن محمد بن إبراهيم الجرجاني، عن عبد الصمد بن يحيى الواسطي، عن الحسن بن علي المدني، عن عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن المولى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن جدهعليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام أنه قال: إنّ الله تبارك وتعالى خلق نور محمدﷺ قبل أنْ خلق السّماوات والأرض والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار، وقبل أنْ خلق آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان عليهم السلام، وكل من قال الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقبل أنْ خلق الأنبياء كلّهم بأربع مائة ألف سنة وأربع وعشرين ألف سنة وخلق عزّ وجلّ معه اثني عشر حجاباً: حجاب القدرة، وحجاب العظمة، وحجاب المِنَّة، وحجاب الرحمة، وحجاب السّعادة، وحجاب الكرامة، وحجاب المنْزِلة، وحجاب الهداية، وحجاب النبوة، وحجاب الرفعة، وحجاب الهيبة، وحجاب الشفاعة، ثم حبس نور محمد ﷺ في حجاب القدرة اثني عشر ألف سنة وهو يقول: سبحان ربي الأعلى، وفي حجاب العظمة أحد عشر ألف سنة وهو يقول: سبحان عالم السّر، وفي حجاب المنة عشرة آلاف سنة وهو يقول: سبحان من هو قائم لا يلهو، وفي حجاب الرحمة تسعة آلاف سنة وهو يقول: سبحان الرفيع الأعلى، وفي حجاب السّعادة ثمانية آلاف سنة وهو يقول: سبحان من هو دائم لا يسهو، وفي حجاب الكرامة سبعة آلاف سنة وهو يقول: سبحان من هو غني لا يفتقر، وفي حجاب المنْزِلة ستة آلاف سنة وهو يقول: سبحان العليم الكريم، وفي حجاب الهداية خمسة آلاف سنة وهو يقول: سبحان ذي العرش العظيم، وفي حجاب النبوة أربعة آلاف سنة وهو يقول: سبحان رب العِزَّة عما يصفون، وفي حجاب الرفعة ثلاثة آلاف سنة وهو يقول: سبحان ذي الملك والملكوت، وفي حجاب الهيبة ألفي سنة وهو يقول: سبحان الله وبحمده، وفي حجاب الشفاعة ألف سنة وهو يقول: سبحان ربي العظيم وبحمده، ثم أظهر اسمه على اللوح فكان على اللوح مُنَوَّراً أربعة آلاف سنة، ثم أظهره على العرش فكان على ساق العرش مُثْبَتاً سبعة آلاف سنة، إلى أن وضعه الله عزّ وجلّ في صلب آدم عليه السلام، ثم نقله من صلب آدم عليه السلام إلى صلب نوحٍ عليه السلام، ثم من صلب إلى صلب، حتى أخرجه الله عزّ وجلّ من صلب عبد الله بن عبد المطلب، فأكرمه بستِّ كراماتٍ: ألبسه قميص الرضا، وردّاه برداء الهَيْبَة، وَتَوَّجَهُ بتاج الهداية، وألبسه سراويل المعرفة،

وجعل تكّته تكة المحبة يشد بها سراويله، وجعل نعله نعل الخوف، وناوله عصا المنْزِلة، ثم قال: يا محمد اذهب إلى الناس فقل لهم: قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكان أصل ذلك القميص من ستة أشياء: قامته من الياقوت، وكمّاه من اللؤلؤ، ودخريصه من البلور الأصفر، وإبطاه من الزبرجد، وجربانه من المرجان الأحمر، وجيبه من نور الرب جل جلاله، فقبل الله عزّ وجلّ توبة آدم عليه السلام بذلك القميص، وَرَدَّ خاتم سليمان عليه السلام به، وردّ يوسف عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام به، وَنَجّى يونس عليه السلام من بطن الحوت به، وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام أنجاهم من المحن به، ولم يكن ذلك القميص إلا قميص محمدﷺ.

(٦) وفي تفسير فرات بن إبراهيم عن جعفر بن محمد الفزاري بإسناده، عن قبيصة بن يزيد الجعفي قال: دخلت على الإمام الصادق عليه السلام وعنده ابن ظبيان والقاسم الصيرفي فسلمتُ وجَلَسْت وقلتُ: يا ابن رسول الله أين كنتم قبل أن يخلقَ الله سماءَ مَبْنِيَّةَ وأرضاً مَدْحِيَّةَ أو ظُلْمَةَ أو نوراً؟ قال: كنّا أشباحَ نُوْرٍ حول العرش نسبح الله قبل أن يخلق آدم عليه السلام بخمسة عشر ألف عام، فلمّا خلق الله آدم عليه السلام فرغنا في صلبه، فلم يزل ينقلنا من صُلْبٍ طاهِرٍ إلى رَحِمٍ مُطَهَّرٍ، حتى بعث الله محمداﷺ. . الخبر.

(٧) وفي تفسير فرات بن إبراهيم عن جعفر بن محمد بن بشرويه القطان بإسناده، عن الأوزاعي، عن صعصعة بن صوحان والأحنف بن قيس، عن إبن عباس قال: قال رسول اللهﷺ: خَلَقَنِي الله نوراً تحت العرش قبل أن يخلق آدم عليه السلام باثني عشر ألف سنة، فلمّا أنْ خَلَقَ الله آدم عليه السلام ألقى النورَ في صلب آدم عليه السلام، فأقبل ينتقل ذلك النور من صُلْبٍ إلى صُلْبٍ، حتى افترقنا في صلب عبد الله بن عبد المطلب وأبي طالب، فخلقني ربي من ذلك النُّور لكنّه لا نبيّ بعدي.

(٨) في علل الشرائع عن إبراهيم بن هارون، عن محمد بن أحمد بن أبي الثلج، عن عيسى بن مهران، عن منذر الشراك، عن إسماعيل بن علية، عن أسلم بن ميسرة العجلي، عن أنس بن مالك، عن معاذ بن جبل أنّ رسول الله ﷺ قال: إن الله خلقني وعلياً وفاطمة والحسن والحسين من قبل أنْ يخلق الدنيا بسبعة آلاف عام، قلتُ: فأين كنتم يا رسول الله؟ قال ﷺ: قدام العرش نسبح الله ونحمده ونقدسه ونمجده، قلتُ: على أي مثال؟ قال: أشباحُ نُورٍ حتى إذا أراد الله عزّ وجلّ أنْ يخلق صورنا صيّرنا عمود نور ثم قذفنا في صلب آدم ثم أخرجنا إلى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، ولا يصيبنا نجس الشرك، ولا سفاح الكفر، يسعد بنا قوم ويشقى بنا آخرون، فلما صيّرنا إلى صلب عبد المطلب أخرج ذلك النور فشقه نصفين، فجعل نصفه في عبد الله ونصفه في أبي طالب، ثم أخرج الذي لي إلى آمنة والنصف إلى فاطمة بنت أسد فأخرجتني آمنة وأخرجت فاطمة عليا عليه السلام، ثم أعاد عزّ وجلّ العمود إليّ، فَخَرَجَتْ مني فاطمة عليها السلام ثم أعاد عزّ وجلّ العمود إلى علي عليه السلام فخرج منه الحسن والحسين عليهما السلام ـ يعني من النصفين جميعاً ـ فما كان من نور علي عليه السلام فصار في ولد الحسن عليه السلام وما كان من نوري صار في ولد الحسين عليه السلام فهو ينتقل في الأئمة عليهم السلام من ولده إلى يوم القيامة.

(٩) وفي تفسير فرات بن إبراهيم عن جعفر بن محمد الأحمسي بإسناده، عن أبي ذر الغفاري، عن النبي ص في خبر طويل في وصف المعراج ساقه إلى أن قال: قلت: يا ملائكة ربي هل تعرفونا حق معرفتنا؟ فقالوا: يا نبي الله وكيف لا نعرفكم وأنتم أول ما خلق الله، خلقكم أشباحَ نورٍ من نوره في نورٍ من سَنَاءِ عِزِّهِ، ومن سناء ملكه، ومن نور وجهه الكريم، وجعل لكم مقاعد في ملكوت سلطانه وعرشه على الماء، قبل أن تكون السّماء مَبْنِيَّةً والأرضُ مَدْحِيَّةً،

ثم خَلَقَ السّماواتِ والْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثم رفع العرش إلى السّماء السّابعة فاستوى على عرشه وأنتم أمام عرشه تسبِّحُون وتقدِّسون وتكبِّرون، ثم خلق الملائكة من بدء ما أراد من أنوار شتى، وكنا نمر بكم وأنتم تسبِّحون وتحمدون وتهلِّلُون وتكبِّرُون وتمجِّدُون وتُقَدِّسُون، فنُسَبِّح ونُقَدِّسُ ونُمَجِّدُ ونُكَبِّرُ وَنُهَلِّلُ بتسبيحكم وتحميدكم وتهليلكم وتكبيركم وتقديسكم وتمجيدكم، فما أُنْزِلَ من الله فإليكم، وما صعد إلى الله فمن عندكم، فَلِمَ لا نعرفكم؟ أقرئ عَلِيّاً منا السّلام... وساقه إلى أن قال:

ثم عرج بي إلى السّماء السّابعة فسمعت الملائكة يقولون لمّا أنْ رأوني: الحمد لله الذي صَدَقَنَا وعده، ثم تلقُّوني وسَلَّمُوا عَلَيَّ وقالوا لي مثل مقالة أصحابهم، فقلت: يا ملائكة ربي سمعتكم تقولون: الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ، فما الذي صدقكم؟ قالوا: يا نبيّ الله إنّ الله تبارك وتعالى لمّا أنْ خَلَقَكُم أشباحَ نُورٍ من سناء نُوْرِهِ، ومن سناء عِزِّهِ، وجعل لكم مقاعد في ملكوت سلطانه؛ عَرَضَ ولايتكم علينا، وَرَسَخَتْ في قلوبنا، فشكونا محبَّتَكَ إلى الله، فوعد ربنا أنْ يريناكَ في السّماء معنا، وقد صَدَقَنَا وعده... الخبر][1].

**ملاحظة هامّة:**

أشار الحديث الشريف إلى ثلاثة أمور مهمّة:

الأمر الأوّل: إنّ النبيﷺ وعترته الشريفة عليهم السلام أوّل ما خلق الله من الخلق الأوّل، وهو مستفاد من قوله عليه السلام حاكياً عن الملائكة: «و أنتم أوّل ما خلق الله» بقرينة قوله عليه السلام: «قبل أنْ تكون السمّاء مبنيَّةً وأنتم أمام عرشه تسبِّحون»،

---

(١) الأخبار ٤و٥و٦و٧و٨: راجع بحار الأنوار: ١٥/ ٤ ـ ٨ح٤و٥و٦و٧و٨.

ممّا يدلّ على أنهم ﷺ كانوا أنواراً ذاكرين لله تعالى بالتسبيح والتقديس، لا أنهم كانوا أشباح صور بلا شعورٍ وإدراك، كما ذهب إليه بعض المتقدّمين، ودعوى هؤلاء مردودة جملةً وتفصيلاً لكونها مخالفة لِمَا تواتر في الأخبار وضرورة الدِّين من أنّ أهل البيت ﷺ عَلَّمُوا الملائكة كيفيّة السَّيْر والسّلوك إلى الله تعالى، مضافاً إلى أنه عزّ وجلّ أشهدهم خلق الأشياء وأجرى طاعتهم عليها وفوّض أمورها إليهم وأنه حمَّلَهُم العلم والدِّين، كلّ هذا لا يصحّ التعببير عنه إلاّ بنحو الوجود الحقيقي الدالّ على وجود إدراكٍ لهم، ولا معنى لارتكاب المجاز باعتبار ما يؤول ـ كما هو دعوى بعض ـ لأنه ينافي ما ورد من أنهم حَمَلَة العلم والدِّين، وخطابهم لله تعالى يوم الميثاق بـ «أنتَ ربّنا».

فارتكاب المجاز في الأحاديث المتواترة وصرفها عن ظاهرها جرأة على الله تعالى، نعوذ بالله تعالى منها.

الأمر الثاني: إنّ الله تعالى بعد أنْ خلق النبيَّ وعترته، خلق الملائكة، بل في بعض الأخبار أنّ الملائكة خُلقوا من فاضل طينتهم وشعاعهم، ممّا يستلزم الإعتقاد بأشرفيّة أهل البيت ﷺ على عامّة الملائكة والمرسَلين.

الأمر الثالث: كلّ ما ينزل من الله تعالى وما يصعد إليه، يبدأ من عند أهل البيت ﷺ وهو قوله ﷺ: [فما أُنزل من الله فإليكم، وما صعد إلى الله فمن عندكم] فيستفاد من ذلك كمال قربهم ﷺ منه تعالى دون غيرهم، فلا أحد أقرب منهم إلى الله عزّ وجلّ كما دَلَّت عليه الأحاديث الصحيحة والحاصل:

إنّ ما نزل من ذاته المقدَّسة، فأول ما يتلقّاه هو أنفسهم الشريفة لقربها إليه تعالى، وإليه يشير قوله تعالى في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ حيث تتمّ عملية الإنزال على الإمام ﷺ في ليلة القدر لأخذ

التعاليم منه ولمبايعته التزاماً بالعهد[١]، وهو قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، ويشهد لذلك قوله عليه السلام في الزيارة: [إرادة الرّبّ في مقادير أموره تهبط إليكم].

إذن كلّ ما يهبط إلى عوالم التكوين فلا بدّ أنْ يهبط إليهم ليوزّعوه على غيرهم، وكلّ ما صعد إلى الله تعالى فمن عندهم، أي ما صعد من الخلق من حقيقة العبوديّة فيمرّ بهم، وهم يتلقّونه، ثمّ منهم يصعد إليه تعالى، إذ لا طريق إليه تعالى إلاّ منهم؛ لأنّهم أقرب الخلق إليه، وهو عزّ وجلّ قد احتجب بهم كما في الحديث «إحتجب ربّنا بنا» أو «وبنا احتجب عن خلقه»[٢].

(١٠) وفي منتخب البصائر عن الحسين بن حمدان، عن الحسين المقري الكوفي، عن أحمد بن زياد الدهقان، عن المخول بن إبراهيم، عن رشدة بن عبد الله، عن خالد المخزومي، عن سلمان الفارسيرضي الله عنه في حديث طويل قال: قال النبيﷺ: يا سلمان فهل علمتَ مَن نقبائي ومن الإثنا عشر الذين اختارهم الله للإمامة بعدي؟ فقلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: يا سلمان خلقني الله من صفوة نوره ودعاني فأطعتُ، وخلق من نوري عليّاً فدعاه فأطاعه، وخلق من نوري ونور عليّ فاطمة فدعاها فأطاعته، وخلق مني ومن عليٍّ وفاطمة الحسن والحسين فدعاهما فأطاعاه، فَسَمَّانا بالخمسة الأسماء من أسمائه: الله المحمود وأنا محمّد، والله العليّ وهذا عليّ، والله الفاطر وهذه فاطمة، والله ذو الإحسان وهذا الحسن، والله المحسن وهذا الحسين، ثم خلق منّا من صلب

---

(١) ذكرنا بإسهاب كيفيّة تلقّي الملائكة للتعاليم من إمام العصر في ليلة القدر في كتابنا «شبهة إلقاء المعصوم عليه السلام نفسه في التهلكة ودحضها» فراجع تغنم.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ١٠ح١٠.

الحسين عليه السلام تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه، قبل أنْ يخلق الله سماءً مبنيَّةً وأرضاً مَدْحِيَّةً أو هواءً أو ماءً أو مَلَكاً أو بشراً، وكنّا بعلمه نوراً نسبّحه ونسمع ونطيع. الخبر[1].

(١١) وفي كَنْز جامع الفوائد وتأويل الآيات الظاهرة، من كتاب الواحدة، عن أبي محمد الحسن بن عبد الله الكوفي، عن جعفر بن محمد البجلي، عن أحمد بن حميد، عن الثمالي، عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أَحَدٌ واحِدٌ تَفَرَّدَ في وحدانيَّتِهِ، ثم تكلّم بكلمةٍ فصارت نوراً، ثم خلق من ذلك النور محمداً ﷺ، وخلقني وذريتي، ثمّ تكلّم بِكَلِمَةٍ فَصَارَتْ روحاً، فأسكنه الله في ذلك النُّور، وأسكنه في أبداننا، فنحن روح الله وكلماته وبنا احتجب عن خلقه، فما زلنا في ظُلَّةٍ خضراء، حيث لا شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار ولا عين تطرف؛ نعبده ونقدِّسه ونسبِّحُه قبل أنْ يخلق الخلق.. الخبر[2].

(١٢) وفي كَنْز جامع الفوائد وتأويل الآيات الظاهرة، عن محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله في كتابه مصباح الأنوار بإسناده، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: إنّ الله خَلَقَني وَخَلَقَ عليّاً وفاطمة والحسن والحسين قبل أنْ يخلق آدم عليه السلام حين لا سماء مبنيَّة، ولا أرضَ مَدْحِيَّة، ولا ظُلْمَة، ولا نُوْر، ولا شمس، ولا قمر، ولا جنَّة، ولا نار، فقال العباس: فكيف كان بدء خلقكم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: يا عم لمّا أراد الله أنْ يخلقنا تكلّم بكلمة خَلَقَ منها نوراً، ثم تكلّم بكلمة أخرى فخلق منها روحاً، ثم مزج النُّورَ بالروح فخلقني وخلق عليّاً

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٩ح٩.
(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ٩ح١٠.

وفاطمة والحسن والحسين، فكنّا نسبّحُه حين لا تسبيح، ونُقَدِّسُه حين لا تقديس، فلمّا أراد الله تعالى أنْ ينشئ خلقَه، فَتَقَ نوري، فخلق منه العرش، فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من العرش، ثم فتق نور أخي عليّ، فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور عليّ، ونور عليّ من نور الله، وعليّ أفضل من الملائكة، ثم فتق نور إبنتي، فخلق منه السماوات والأرض، فالسماوات والأرض من نور ابنتي فاطمة، ونور ابنتي فاطمة من نور الله، وابنتي فاطمة أفضل من السماوات والأرض، ثم فتق نور ولدي الحسن، فخلق منه الشمس والقمر، فالشمس والقمر من نور ولدي الحسن، ونور الحسن من نور الله، والحسن أفضل من الشمس والقمر، ثم فتق نور ولدي الحسين، فخلق منه الجنَّةَ والحورَ العين، فالجنة والحور العين من نور ولدي الحسين، ونور ولدي الحسين من نور الله، وولدي الحسين أفضل من الجنة والحور العين. . الخبر[١].

(١٣) وفي علل الشرائع عن إبن المتوكل، عن الحميري، عن أحمد بن محمد، عن إبن محبوب، عن عبد الرحمن بن كثير، عن داود الرقي، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: لمّا أراد الله عزّ وجلّ أنْ يخلق الخلق، خلقهم ونشرهم بين يديه، ثم قال لهم: مَنْ ربكم؟ فأوّل مَن نَطَقَ رسول اللهﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام، فقالوا: أنتَ ربّنا، فَحَمَّلَهُم العلمَ والدِّينَ، ثم قال للملائكة: هؤلاء حَمَلَة دِيني وعِلمي وأمنائي في خلقي وهم المسئولون، ثم قال لبني آدم: أقرّوا لله بالرّبوبية، ولهؤلاء النفر بالطاعة والولاية، فقالوا: نعم ربَّنا أقررنا، فقال الله جل جلاله للملائكة: إشهدوا، فقالت الملائكة: شَهِدْنَا على

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ١٠ح١١.

أنْ لا يـقـولـوا غـداً ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ يا داود!! الأنبياء مؤكدة عليهم في الميثاق[١].

(١٤) وفي علل الشرائع عن القطان، عن إبن زكريا، عن البرمكي، عن عبد الله بن داهر، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن المفضل قال: قال لي الإمام أبو عبد الله عليه السلام: يا مفضل أَمَا عَلِمْتَ أنَ الله تبارك وتعالى بَعَثَ رسول الله ﷺ وهو روحٌ إلى الأنبياء عليهم السلام وهم أرواحٌ قبل خلق الخلق بألفي عام! قلت: بلى، قال عليه السلام: أَمَا عَلِمْتَ أنّه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته، واتباع أمره، ووعدهم الجنة على ذلك، وأوعد من خالف ما أجابوا إليه وأنكره النار، فقلتُ: بلى. الخبر[٢].

(١٥) وفي الأمالي للشيخ الطوسي عن أبي المفضل، عن محمد بن علي بن مهدي وغيره، عن محمد بن علي بن عمرو، عن أبيه، عن جميل بن صالح، عن أبي خالد الكابلي، عن إبن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا إني عبد الله وأخو رسوله وصديقه الأول قد صدَّقته وآدم بين الرُّوح والجسد، ثم إني صدِّيقه الأول في أمّتكم حقاً، فنحن الأوَّلون ونحن الآخِرُون. الخبر[٣].

(١٦) وفي تفسير القمي عن أبيه، عن النضر، عن يحيى الحلبي، عن إبن سنان قال: قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: أول مَن سبق مِن الرسل إلى «بَلى» رسول الله ﷺ، وذلك أنّه كان أقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى. الخبر[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ١٦ح٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ١٤ح١٧.

(٣) بحار الأنوار: ١٥/ ١٥ح١٩.

(٤) بحار الأنوار: ١٥/ ١٥ح٢٠.

(١٧) علل الشرائع عن الصائغ، عن أحمد الهمداني، عن جعفر بن عبيد الله، عن إبن محبوب، عن صالح بن سهل، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ بعض قريش قال لرسول الله ﷺ: بأيّ شيء سَبَقتَ الأنبياءَ وَفُضِّلْتَ عليهم وأنتَ بُعِثْتَ آخرهم وخاتمهم؟ قال ﷺ: إنّي كنتُ أوّل مَنْ أقرّ بربّي جلّ جلاله، وأوّل مَن أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فكنتُ أوّل نبي قال: بلى، فسبقتُهُم إلى الإقرار بالله عزّ وجلّ[1].

(١٨) وفي بصائر الدرجات عن عليّ بن إسماعيل، عن محمّد بن إسماعيل، عن سعدان، عن صالح بن سهل، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل رسول الله ﷺ: بأيّ شيء سبقت ولد آدم؟ قال ﷺ: إني أوّل مَن أقرّ ببلى إنّ الله أخذ ميثاق النبيين ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فكنتُ أوّل مَن أجاب[2].

(١٩) وفي تفسير العياشي عن زرارة قال: سألتُ الإمام أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ إلى ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قال عليه السلام: كان محمّد عليه وآله السّلام أوّل مَن قال بلى[3].

(٢٠) وفي تفسير القمي: قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية كان الميثاق مأخوذاً عليهم لله بالربوبية، ولرسوله بالنبوة، ولأمير المؤمنين والأئمة بالإمامة.

فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومحمّد نبيّكم وعليّ إمامكم والأئمة الهادون أئمتكم؟

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ١٥ح٢١.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ١٦ح٢٣.

(٣) بحار الأنوار: ١٥/ ١٧ح٢٤.

فقالوا: بلى.

فقال الله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لئلاّ تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾، فأوّل ما أخذ الله عز وجل الميثاق على الأنبياء له بالربوبية، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، فذكر جملة الأنبياء، ثم أبرَزَ أفضلهم بالأسامي، فقال: ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمّد فقدَّمَ رسولَ الله ﷺ؛ لأنه أفضلهم، ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى إبن مريم، فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء ورسول الله أفضلهم، ثم أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله ﷺ على الأنبياء بالإيمان به وعلى أن ينصروا أميرَ المؤمنين ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعني رسول الله ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ يعني أمير المؤمنين ﷺ تخبروا أممكم بخبره وخبر وليّه والأئمة ﷺ[١].

(٢١) وفي علل الشرائع عن أبيه، عن محمّد العطار، عن الأشعري، عن موسى بن عمر، عن إبن سنان، عن أبي سعيد القماط، عن بكير قال: قال لي الإمام أبو عبد الله ﷺ: هل تدري ما كان الحجر؟ قال: قلتُ: لا، قال ﷺ: كان مَلَكاً عظيماً من عظماء الملائكة عند الله عزّ وجلّ فلمّا أَخَذَ الله الميثاق من الملائكة له بالربوبية ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعليّ بالوصية اصطكت فرائص الملائكة، وأوّل مَن أسرع إلى الإقرار ذلك الملك، ولم يكن فيهم أشدّ حبّاً لمحمّدٍ وآلِ محمّد منه، فلذلك اختاره الله عزّ وجلّ من بينهم وألقمه الميثاق، فهو يجيء يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة؛ ليشهد لكلّ مَن وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ١٧ح٢٥

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ١٧ح٢٦.

(٢٢) وفي الأمالي للشيخ الطوسي عن المفيد، عن إبن قولويه، عن أبيه، عن سعد، عن إبن عيسى، عن إبن معروف، عن محمّد بن سنان، عن طلحة بن زيد، عن الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن جده عليه السلام قال: قال رسول اللهﷺ: ما قبض الله نبيّاً حتى أمره أنْ يوصي إلى عشيرته من عصبته، وأمرني أنْ أُوصي، فقلتُ: إلى من يا رب؟ فقال: أوصِ يا محمّد إلى إبن عمك عليّ بن أبي طالب، فإني قد أثبَتُّهُ في الكتب السَّالِفَة، وكَتَبْتُ فيها أنّه وصيكَ، وعلى ذلك أخذتُ ميثاقَ الخلائق ومواثيق أنبيائي ورسلي، أخذت مواثيقهم لي بالربوبية، ولكَ يا محمّد بالنبوة، ولعليّ بن أبي طالب بالولاية[1].

(٢٣) وفي الكافي عن أحمد بن إدريس، عن الحسين بن عبيد الله، عن محمّد بن عيسى ومحمّد بن عبد الله، عن عليّ بن حديد، عن مرازم، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله تبارك وتعالى: يا محمّد إني خلقتُكَ وعليّاً نوراً ـ يعني روحاً ـ بلا بدن قبل أنْ أخلق سماواتي وأرضي وعرشي و بحري، فلم تزل تهلّلني وتُمَجّدُني، ثم جمعتُ روحَيْكُما فجعلتُهُما واحدةً، فكانَتْ تمجّدني وتقدّسني وتهلّلني، ثم قسَّمتها ثنتين، وقسَّمتُ الثنتين ثنتين، فصارت أربعة: محمّد واحد وعليّ واحد والحسن والحسين ثنتان، ثم خلق الله فاطمة من نور ابتدأها روحاً بلا بدن ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا[2].

(٢٤) وفي الكافي عن الحسين بن محمّد، عن المعلى، عن عبد الله بن إدريس، عن محمّد بن سنان قال: كنت عند الإمام أبي جعفر الثاني عليه السلام فأجريتُ اختلاف الشيعة، فقال عليه السلام: يا محمّد إن الله تبارك وتعالى لم يزل

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ١٨ح٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ١٨ح٢٨.

متفرِّداً بوحدانيته، ثمّ خَلَقَ محمّداً وعليّاً وفاطمة فمكثوا ألفَ دَهْرٍ، ثم خلق جميع الأشياء، فأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها، وفَوَّضَ أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاءون، ويُحَرِّمُون ما يشاءون، ولن يشاءوا إلا أنْ يشاء الله تبارك وتعالى، ثم قال عليه السلام: يا محمّد هذه الديانة التي مَن تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْها مُحِقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِق، خُذْهَا إليكَ يا محمّد[1].

(٢٥) الأمالي للشيخ الطوسي عن الغضائري، عن عليّ بن محمَّد العلوي، عن الحسن بن عليّ بن صالح، عن الكليني، عن عليّ بن محمَّد، عن إسحاق بن إسماعيل النيسابوري، عن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن الحسن بن علي عليه السلام قال: سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: خُلِقْتُ من نور الله عزّ وجلّ، وخُلِقَ أهلُ بيتي من نوري، وخُلِقَ محبيهم من نورهم، وسائر الخلق في النار[2].

(٢٦) كتاب فضائل الشيعة، بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: كنّا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ أقبل إليه رجلٌ فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ فمن هم يا رسول الله الذين هم أعلى من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا وعليّ وفاطمة والحسن والحسين كنّا في سرادق العرش نسبح الله وتسبح الملائكة بتسبيحنا قبل أنْ يخلق الله عزّ وجلّ آدم بألفي عام، فلمّا خلق الله عزّ وجلّ آدم أمر الملائكة أنْ يسجدوا له، ولم يأمرنا بالسجود، فَسَجَدَتْ الملائكةُ كلُّهم، إلا إبليس؛ فإنه أبى أنْ يسجد، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي من

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ١٩ح٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٠ح٣٢.

هؤلاء الخمس المكتوب أسماؤهم في سرادق العرش[١].

(٢٧) إكمال الدين عن العطار، عن أبيه، عن الأشعري، عن إبن أبي الخطاب، عن أبي سعيد الغضنفري، عن عمرو بن ثابت، عن أبي حمزة قال: سمعتُ الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: إنّ الله عزّ وجلّ خَلَقَ محمَّداً وعليّاً والأئمّة الأحد عشر من نور عظمته، أرواحاً في ضياء نوره، يعبدونه قبل خلق الخلق، يُسَبِّحُون الله عزّ وجلّ ويقدسونه، وهم الأئمة الهادية من آل محمَّد صلوات الله عليهم أجمعين[٢].

(٢٨) إكمال الدين عن إبن إدريس، عن أبيه، عن محمَّد بن الحسين بن زيد، عن الحسن بن موسى، عن عليّ بن سماعة، عن عليّ بن الحسن بن رباط، عن أبيه، عن المفضل قال: قال المولى الإمام الصادق عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى خلق أربعة عشر نوراً، قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام، فهي أرواحنا، فقيل له: يا ابن رسول الله ومَن الأربعة عشر؟ فقال عليه السلام: محمَّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من وِلْدِ الحسين عليه السلام آخرهم القائم (عج) الذي يقوم بعد غيبته، فيقتُل الدّجَّالَ، ويُطَهِّر الأرضَ من كلِّ جَوْرٍ وظُلْمٍ[٣].

(٢٩) من رياض الجنان لفضل الله بن محمود الفارسي بإسناده إلى جابر الجعفي، عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: يا جابر كان الله ولا شيء غيره، لا معلوم ولا مجهول، فأوّل ما ابتدأ من خلقه أنْ خلق محمداﷺ، وخلقنا أهل

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٢١ح٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٣ح٣٩.

(٣) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٣ح٤٠.

البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا أَظِلَّةً خضراء بين يديه، حيث لا سماءَ، ولا أرضَ، ولا مكانَ، ولا ليلَ، ولا نهارَ، ولا شمسَ، ولا قمر. الخبر[١].

(٣٠) وروى أحمد بن حنبل بإسناده، عن رسول الله ﷺ أنه قال: كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الرحمن قبل أنْ يخلق عرشه بأربعة عشر ألف عام[٢].

(٣١) عن جابر بن عبد الله قال: قلتُ لرسول الله ﷺ: أوّل شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال ﷺ: نور نبيك يا جابر، خَلَقَهُ الله، ثمّ خَلَقَ منه كلَّ خير[٣].

(٣٢) عن جابر أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: أوّل ما خلق الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقَّهُ من جلال عظمته[٤].

(٣٣) الكافي عن عليّ بن محمَّد، عن سهل بن زياد، عن محمَّد بن عليّ بن إبراهيم، عن عليّ بن حماد، عن المفضَّل قال: قلت للمولى أبي عبد الله عليه السلام: كيف كنتم حيث كنتم في الأظلة؟ فقال عليه السلام: يا مفضَّل كنّا عند ربّنا ليس عنده أحد غيرنا، في ظُلَّةٍ خضراء، نُسَبِّحُهُ ونُقَدِّسُهُ ونُهَلِّلُهُ ونُمَجِّدُه، وما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا ذي روحٍ غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء، فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة وغيرهم ثمّ أنهى عِلْمَ ذلك إلينا[٥].

(٣٤) الكافي عن أحمد بن إدريس، عن الحسين بن عبد الله الصغير، عن محمَّد بن إبراهيم الجعفري، عن أحمد بن عليّ بن محمَّد بن عبد الله بن عمر بن

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٣ح٤١.
(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤ح٤٢.
(٣) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤ح٤٣.
(٤) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤ح٤٤.
(٥) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤ح٤٥.

الإمام عليّ بن أبي طالبعليه السلام، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان، وخلق نور الأنوار الذي نُوِّرَتْ منه الأنوارُ، وأجرى فيه من نوره الذي نُوِّرَتْ منه الأنوارُ، وهو النورُ الذي خلق منه محمَّداً وعليّاً، فلم يزالا نورَيْن أوّلين إذ لا شيء كُوِّنَ قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة، حتى افترقا في أطهر طاهرين، في عبد الله وأبي طالب عليه السلام[1].

(٣٥) الكافي عن أحمد بن إدريس، عن الحسين بن عبد الله، عن محمَّد بن عبد الله، عن محمَّد بن سنان، عن المفضل، عن جابر بن يزيد قال: قال لي الإمام أبو جعفرعليه السلام: يا جابر إنّ الله أوّل ما خَلَق خَلَقَ محمَّداً وعترته الهُداة المهتدين، فكانوا أشباحَ نُوْرٍ بين يَدَيِ الله، قلتُ: وما الأشباح؟ قال عليه السلام: ظِلُّ النور، أبدانٌ نورانيةٌ بلا أرواح، وكان مؤَيَّدَاً بروحٍ واحدٍ، وهي روح القدس، فبه كان يعبد الله وعترته، ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء، يعبدون الله بالصلاة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل، ويُصَلُّوْنَ الصَّلَوَات، ويحجُّون ويصومُون[2].

(٣٦) [قال العلاّمة المجلسي: قال الشيخ أبو الحسن البكري أستاد الشهيد الثاني قدس الله روحهما في كتابه المسمى بكتاب الأنوار: حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة لهذا الحديث، عن أبي عمر الأنصاري سألتُ عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وابن عباس قالوا جميعاً:

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤ح٤٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٥ح٤٧، ويشير الحديث إلى سبق أبدانهم النورانية ـ أي النطف ـ على غيرها من الموجودات، أي أنّ أبدانهم المادية كانت أوّل الموجودات المادية.

لمّا أراد الله أنْ يخلق محمداً ﷺ قال لملائكته: إنّي أريد أنْ أخلق خلقاً أفضِّلُه وأشَرِّفُهُ على الخلائق أجمعين، وأجعَلُه سيِّدَ الأوَّلين والآخرين، وأُشَفِّعُه فيهم يوم الدِّين، فلولاه ما زَخْرَفْتُ الجِنَانَ، ولا سَعَّرْتُ النيرانُ، فاعرِفُوا مَحِلَّهُ وأكرِمُوهُ لكرامتي، وعَظِّمُوه لعَظَمَتِي.

فقالت الملائكة: إلهنا وسيدنا وما اعتراض العبيد على مولاهم سمعنا وأطعنا.

فعند ذلك أمر الله تعالى جبرئيل وملائكة الصفيح الأعلى وحَمَلَة العرش فَقَبَضُوا تربةَ رسول الله ﷺ من موضع ضريحه، وقضى أنْ يخلقَهُ من التراب، ويُمِيْتَهُ في التراب، ويَحْشُرَهُ على التراب، فَقَبَضُوا من تربة نفسه الطاهرة قبضةً طاهرةً، لم يمشِ عليها قَدَمٌ مشت إلى المعاصي، فعرج بها الأمين جبرئيل فغمسها في عين السلسبيل، حتى نقيت كالدرة البيضاء، فكانت تُغْمَسُ كلَّ يوم في نهرٍ من أنهار الجَنَّة، وتُعْرَضُ على الملائكة، فتُشْرِقُ أنوارُها، فتستقبلُها الملائكةُ بالتّحية والإكرام، وكان يطوف بها جبرئيل في صفوف الملائكة، فإذا نظروا إليها قالوا: إلهنا وسيدنا إنْ أمرتنا بالسجود سجدنا، فقد اعْتَرَفَتْ الملائكَةُ بفضله وشرفه قبل خلق آدم عليه السلام، ولما خَلَقَ الله آدم عليه السلام سمع في ظهره نشيشاً كنشيش الطير، وتسبيحاً وتقديساً.

فقال آدم عليه السلام: يا ربّ وما هذا؟

فقال: يا آدم هذا تسبيح محمَّد العربي سيّدُ الأولين والآخرين، فالسَّعَادَةُ لِمَنْ تَبِعَهُ وأطاعه، والشقاءُ لِمَن خَالَفَهُ، فخُذْ يا آدم بعهدي، ولا تودعه إلاّ الأصلاب الطاهرة من الرجال، والأرحام من النساء الطاهرات الطيبات العفيفات.

ثمّ قال آدم عليه السلام: يا رب لقد زدتني بهذا المولود شرفاً ونوراً وبهاءً ووقاراً، وكان نورُ رسول اللهﷺ في غرة آدم كالشّمس في دوران قُبَّةِ الفُلك، أو كالقمر في الليلة المُظْلِمَةِ، وقد أنارَتْ منه السّماوات والأرض والسرادقات والعرش والكرسي.

وكان آدم عليه السلام إذا أراد أنْ يغشى حوّاء أمرها أنْ تتطيَّبَ وتَتَطَهَّرَ، ويقول لها: الله يرزقُكِ هذا النور، ويخصُّكِ به، فهو وديعةُ الله وميثاقُه، فلا يزال نورُ رسول اللهﷺ في غرة آدم عليه السلام.

فروي، عن أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: كان الله ولا شيء معه، فأوّل ما خَلَقَ: نورُ حبيبه محمدﷺ، قبل خَلْقِ الماءِ، والعرشِ، والكُرْسِيِّ، والسّماواتِ، والأرضِ، واللَّوْحِ، والقلمِ، والجَنَّةِ، والنّارِ، والملائكةِ، وآدمَ، وحواءَ؛ بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام.

فلمّا خَلَقَ الله تعالى نورَ نبينا محمدﷺ بقي ألف عام بين يدي الله عزّ وجلّ واقفاً يُسَبِّحُهُ ويحمده، والحقّ تبارك وتعالى ينظرُ إليه ويقول: يا عبدي أنتَ المراد والمريد، وأنتَ خيرتي من خلقي وعزتي وجلالي، لولاكَ ما خَلَقْتُ الأفلاكَ، مَن أحبك أحببتُه، ومَن أبغَضَكَ أبغضتُه، فتلألأ نورُه، وارتفع شعاعُه، فخَلَقَ الله منه اثني عشر حجاباً: أولها حجاب القدرة، ثمّ حجاب العَظَمَة، ثمّ حجاب العِزَّة، ثمّ حجاب الهَيْبَة، ثمّ حجاب الجبروت، ثمّ حجاب الرَّحْمَة، ثمّ حجاب النبوّة، ثمّ حجاب الكبرياء، ثمّ حجاب المَنْزِلة، ثمّ حجاب الرِّفْعَة، ثمّ حجاب السّعادة، ثمّ حجاب الشّفاعة.

ثمّ إن الله تعالى أمر نور رسول اللهﷺ أنْ يدخل في حجاب القدرة، فدخل وهو يقول: سبحان العلي الأعلى وبقي على ذلك اثني عشر ألف عام.

ثمّ أمره أن يدخل في حجاب العظمة، فدخل وهو يقول: سبحان عالم السِّرِّ وأخفى أحد عشر ألف عام.

ثمّ دخل في حجاب العزة وهو يقول: سبحان الملك المنّان عشرة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الهيبة وهو يقول: سبحان من هو غني لا يفتقر تسعة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الجبروت وهو يقول: سبحان الكريم الأكرم ثمانية آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الرحمة وهو يقول: سبحان رب العرش العظيم سبعة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب النبوة وهو يقول: سبحان ربك رب العزة عما يصفون ستة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الكبرياء وهو يقول: سبحان العظيم الأعظم خمسة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب المنْزلة وهو يقول: سبحان العليم الكريم أربعة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب الرفعة وهو يقول: سبحان ذي الملك والملكوت ثلاثة آلاف عام.

ثمّ دخل في حجاب السعادة وهو يقول: سبحان من يزيل الأشياء ولا يزول ألفي عام.

ثمّ دخل في حجاب الشفاعة وهو يقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ألف عام.

قال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ثمّ إن الله تعالى خلق من نور محمد ﷺ عشرين بحراً من نور، في كلِّ بحر علوم لا يعلَمُها إلا الله تعالى، ثمّ قال لنور محمد ﷺ: إنزِل في بحر العزّ فنَزَل، ثمّ في بحر الصبر، ثمّ في بحر الخشوع، ثمّ في بحر التواضع، ثمّ في بحر الرضا، ثمّ في بحر الوفاء، ثمّ في بحر الحلم، ثمّ في بحر التقى، ثمّ في بحر الخشية، ثمّ في بحر الإنابة، ثمّ في بحر العمل، ثمّ في بحر المزيد، ثمّ في بحر الهدى، ثمّ في بحر الصيانة، ثمّ في بحر الحياء، حتى تَقَلَّبَ في عشرين بحراً، فلمّا خرج من آخر الأبحر قال الله تعالى: يا حبيبي، ويا سيد رسلي، ويا أول مخلوقاتي، ويا آخر رسلي: أنت الشفيع يوم المحشر، فَخَرَّ النورُ ساجداً، ثمّ قام فقطرت منه قطرات كان عددها مائة ألف وأربعة وعشرين ألف قطرة، فخلق الله تعالى من كل قطرة من نوره نبياً من الأنبياء، فلمّا تكاملت الأنوارُ صارت تطوف حول نور محمد ﷺ كما تطوف الحجاج حول بيت الله الحرام، وهم يسبحون الله ويحمدونه ويقولون: سبحان من هو عالم لا يجهل، سبحان من هو حليم لا يعجل، سبحان من هو غني لا يفتقر، فناداهم الله تعالى: تعرفون من أنا؟ فسبق نور محمد ﷺ قبل الأنوار ونادى: أنتَ الله الذي لا إله إلا أنت، وحدكَ لا شريكَ لك، ربُّ الأرباب، وملك الملوك، فإذا بالنداء من قِبَلِ الحقّ: أنتَ صفيي وأنت حبيبي وخير خلقي، أمّتُكَ خير أمّة أُخرِجَت للناس، ثمّ خلق من نور محمد ﷺ جوهرةً، وقسمها قسمين، فنظر إلى القسم الأول بعين الهيبة فصار ماءً عَذْباً، ونظر إلى القسم الثاني بعين الشَّفَقَة فخلق منها العرش فاستوى على وجه الماء، فخلق الكرسي من نور العرش، وخلق من نور الكرسي اللوح، وخلق من نور اللوح

القلم، وقال له: أُكتب توحيدي، فبقي القلم ألف عام سكران من كلام الله تعالى، فلمّا أفاق قال: أُكتب، قال: يا ربّ وما أكتب؟ قال: أُكتب لا إله إلا الله محمَّد رسول الله، فلمّا سَمِعَ القلمُ اسمَ محمدﷺ خَرَّ ساجداً، وقال: سبحان الواحد القهار، سبحان العظيم الأعظم، ثمّ رفع رأسه من السجود وكتب: لا إله إلا الله محمَّد رسول الله، ثمّ قال: يا رب ومَن محمَّد الذي قرنتَ اسمه باسمك، وذِكْرَه بذِكْرِكَ؟ قال الله تعالى له: يا قلم فلولاه ما خلقتُكَ، ولا خَلَقْتُ خلقي إلا لأجله، فهو بشير ونذير وسراج منير وشفيع وحبيب، فعند ذلك انشقّ القلمُ من حلاوة ذكر محمدﷺ، ثمّ قال القلم: السَّلام عليك يا رسول الله، فقال الله تعالى: وعليكَ السَّلام مني ورحمة الله وبركاته، فلأجل هذا صار السَّلام سنة والرد فريضة، ثمّ قال الله تعالى: أُكْتُبْ قضائي وقَدَري، وما أنا خالقُهُ إلى يوم القيامة، ثمّ خلق الله ملائكة يصلون على محمَّد وآل محمَّد ويستغفرون لأمَّتِه إلى يوم القيامة، ثمّ خلق الله تعالى من نور محمدﷺ الجَنَّة وزينها بأربعة أشياء: التعظيم والجلالة والسّخاء والأمانة، وجَعَلَهَا لأوليائِهِ وأهل طاعته، ثمّ نظر إلى باقي الجوهرة بعين الهيبة فذابَتْ، فخلق من دخانها السّماوات، ومن زبدها الأرضين، فلمّا خلق الله تبارك وتعالى الأرض صارت تموج بأهلها كالسفينة، فخلق الله الجبال فأرساها بها، ثمّ خلق مَلَكاً من أعظم ما يكون في القوة، فدخل تحت الأرض، ثمّ لم يكن لقدمي الملك قرار، فخلق الله صخرة عظيمة وجعلها تحت قدمي الملك، ثمّ لم يكن للصخرة قرار فخلق لها ثوراً عظيماً لم يقدر أحد ينظر إليه لِعِظَمِ خِلْقَتِهِ وبريق عيونه، حتى لو وُضِعَتْ البحارُ كلُّها في إحدى منخريه ما كانت إلا كخردلةٍ مُلقاةٍ في أرضٍ فلاة، فدخل الثور تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه واسم ذلك الثور «لهوتا»، ثمّ لم يكن لذلك الثور قرار، فخلق الله له حوتاً عظيماً، واسم ذلك الحوت

«بهموت»، فدخل الحوت تحت قدمي الثور، فاستقر الثور على ظهر الحوت، فالأرض كلّها على كاهل المَلَك، والمَلَكُ على الصّخرة، والصّخرةُ على الثَّوْرِ، والثَّوْرُ على الحوت، والحوتُ على الماءِ، والماءُ على الهواء، والهواءُ على الظُّلْمَة، ثمّ انقطع عِلْمُ الخلائق عمّا تحت الظُّلْمَة، ثمّ خلق الله تعالى العرش من ضياءين: أحدهما الفضل والثاني العدل، ثمّ أمر الضياءين فانتفسا بنفسين، فخلق منهما أربعة أشياء: العقل والحلم والعِلْم والسخاء.

ثمّ خلق من العقل الخوف، وخلق من العِلْمِ الرِّضا، ومن الحلم المودة، ومن السّخاء المحبّة، ثمّ عجن هذه الأشياء في طينة محمدﷺ، ثمّ خلق من بعدهم أرواح المؤمنين من أمّة محمدﷺ، ثمّ خلق الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والضياء والظلام وسائر الملائكة من نور محمدﷺ.

فلمّا تكاملت الأنوار سكن نور محمَّد تحت العرش ثلاثة وسبعين ألف عام، ثمّ انتقل نورُه إلى الجَنَّة فبقي سبعين ألف عام، ثمّ انتقل إلى سدرة المنتهى، فبقي سبعين ألف عام، ثمّ انتقل نوره إلى السّماء السّابعة، ثمّ إلى السّماء السّادسة، ثمّ إلى السّماء الخامسة، ثمّ إلى السّماء الرابعة، ثمّ إلى السّماء الثالثة، ثمّ إلى السّماء الثانية، ثمّ إلى السّماء الدنيا، فبقي نورُه في السّماء الدنيا، إلى أنْ أراد الله تعالى أنْ يخلق آدمَ عليه السلام، أمر جبرئيل عليه السلام أنْ ينْزل إلى الأرض ويقبض منها قبضةً، فنَزل جبرئيل فسبقه اللعين إبليس، فقال للأرض: إن الله تعالى يريد أنْ يخلق منكِ خلقاً ويعذبه بالنار، فإذا أتتكِ ملائكتُه فقولي: أعوذ بالله منكم أنْ تأخذوا مني شيئاً يكون للنار فيه نصيب.

فجاءها جبرئيل عليه السلام فقالت: إني أعوذ بالذي أرسلَكَ أنْ تأخذ مني شيئاً، فرجع جبرئيل ولم يأخذ منها شيئاً، فقال يا رب: قد استعاذت بكَ مني فرحمتها.

فبعث ميكائيل فعاد كذلك.

ثمّ أمر إسرافيل فرجع كذلك.

فبعث عزرائيل فقال: وأنا أعوذ بعزة الله أنْ أعصي له أمراً، فَقَبَضَ قَبْضَةً من أعلاها وأدونها وأبيضها وأسودها وأحمرها وأخشنها وأنعمها، فلذلك اختلفت أخلاقُهم وألوانُهم، فمنهم الأبيض والأسود والأصفر.

فقال له تعالى: ألم تتعوذ منك الأرض بي؟ فقال: نعم، لكن لم ألتَفِتْ له فيها وطاعتك يا مولاي أولى من رحمتي لها.

فقال له الله تعالى: لم لا رحمتها كما رحمها أصحابك؟

قال: طاعتُك أَوْلَى.

فقال: إِعْلَمْ أنّي أريد أنْ أخلق منها خلقاً أنبياء وصالحين وغير ذلك، وأجعلَكَ القابضَ لأرواحهم، فبكى عزرائيل عليه السلام.

فقال له الحق تعالى: ما يبكيك؟

قال: إذا كنتُ كذلك كرهوني هؤلاء الخلائق.

فقال: لا تخف، إني أَخْلُقُ لهم عِلَلاً، فينسبون الموتَ إلى تلك العِلَل.

ثمّ بعد ذلك أمر الله تعالى جبرئيل عليه السلام أنْ يأتيه بالقبضة البيضاء التي كانت أصلاً، فأقبل جبرئيل عليه السلام ومعه الملائكة الكروبيون والصافون والمسبِّحون فقبضوها من موضع ضريحه وهي البقعة المضيئة المختارة من بقاع الأرض، فأخذها جبرئيل من ذلك المكان، فعجنها بماء التسنيم، وماء التعظيم، وماء التكريم، وماء التكوين، وماء الرحمة، وماء الرضا، وماء العفو، فخلق من الهداية رأسه، ومن الشفقة صدره، ومن السخاء كفَّيْه، ومن الصبر فؤادَه، ومن

العِفَّة فَرْجَهُ، ومن الشّرف قدميه، ومن اليقين قلبَه، ومن الطِّيْبِ أنفاسَه، ثمّ خلطها بطينة آدم ﷺ، فلمّا خلق الله تعالى آدم ﷺ؛ أوحى إلى الملائكة ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾، فحملت الملائكة جسد آدمﷺ ووضعوه على باب الجَنَّة، وهو جسد لا روحَ فيه، والملائكةُ ينتظرون متى يُؤْمَرُون بالسُّجود، وكان ذلك يوم الجمعة، بعد الظهر.

ثمّ إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدمﷺ ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ لعنه الله، ثمّ خلق الله بعد ذلك الروح، وقال لها: ادخلي في هذا الجسم فرأت الروح مدخلاً ضَيقاً، فَوَقَفَتْ، فقال لها: أدخلي كرهاً واخرُجي كَرْهَاً، قال: فدخلت الروحُ في اليافوخ إلى العينين، فجعل ينظر إلى نفسه فسمع تسبيح الملائكة، فلمّا وصلت إلى الخياشيم عطس آدم ﷺ، فأنطقه الله تعالى بالحمد، فقال: الحمد لله، وهي أول كلمة قالها آدم ﷺ.

فقال الحق تعالى: رحمك الله يا آدم، لهذا خلقتكَ، وهذا لكَ ولوِلْدِكَ أن قالوا مثل ما قلتَ، فلذلك صار تسميت العاطس سُنّة، ولم يكن على إبليس أشد من تسميت العاطس.

ثمّ إن آدمﷺ فتح عينيه فرأى مكتوباً على العرش لا إله إلا الله محمَّد رسول الله، فلمّا وصلت الرّوح إلى ساقه قام قبل أنْ تصلَ إلى قدميه فلم يطق، فلذلك قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾.

قال المولى الإمام جعفر الصادق ﷺ: كانت الروح في رأس آدمﷺ مائة عام، وفي صدره مائة عام، وفي ظهره مائة عام، وفي فخذيه مائة عام، وفي ساقيه وقدميه مائة عام، فلمّا استوى آدمﷺ قائماً أمر الله الملائكةَ بالسجود، وكان ذلك بعد الظهر يوم الجمعة.

فلم تزل في سجودها إلى العصر، فسمع آدم عليه السلام من ظهره نشيشاً كنشيش الطير، وتسبيحاً وتقديساً، فقال آدم: يا رب وما هذا؟ قال: يا آدم هذا تسبيح محمَّد العربي سيد الأولين والآخرين.

ثمّ إن الله تبارك وتعالى خلق من ضلعه الأعوج حواء، وقد أنامه الله تعالى، فلمّا انتبه رآها عند رأسه، فقال: من أنتِ؟ قالتْ: أنا حواء خلقني الله لكَ، قال: ما أحسن خلقتكِ، فأوحى الله إليه: هذه أَمَتِي حواء، وأنتَ عبدي آدم، خلقتُكُما لدارٍ اسمها جَنَّتي، فسبِّحَانِي واحمداني، يا آدم اخطب حواء مني وادفع مَهْرَهَا إليّ، فقال آدم: وما مهرُها يا رب؟ قال: تصلي على حبيبي محمد ﷺ عشر مرات، فقال آدم عليه السلام: جزاؤك يا ربّ على ذلك الحمد والشكر ما بقيتُ، فتزوَّجَهَا على ذلك، وكان القاضي الحقّ، والعاقد جبرئيل، والزوجة حواء، والشهود الملائكة، فواصلها.

وكانت الملائكة يقفون من وراء آدم عليه السلام، قال آدم عليه السلام: لأي شيء يا رب تقف الملائكة من ورائي؟

فقال: لينظروا إلى نور ولدك محمد ﷺ.

قال: يا رب اجعله أمامي حتى تستقبلني الملائكة.

فجعله في جبهته فكانت الملائكة تقف قدّامه صفوفاً.

ثمّ سأل آدم عليه السلام ربَّه أنْ يجعلَه في مكانٍ يراه آدم، فجعله في الإصبع السبابة، فكان نور محمد ﷺ فيها، ونور علي عليه السلام في الإصبع الوسطى، وفاطمة عليها السلام في التي تليها، والحسن عليه السلام في الخنصر، والحسين عليه السلام في الإبهام، وكانت أنوارهم كغُرّة الشمس في قبة الفلك، أو كالقمر في ليلة البدر.

وكان آدمعليه السلام إذا أراد أنْ يغشى حواء، يأمرها أن تتطيب وتتطهر، ويقول لها يا حواء الله يرزقكِ هذا النور، ويخصُّكِ به، فهو وديعةُ الله وميثاقُهُ.

فلم يزل نور رسول اللهﷺ في غرة آدمعليه السلام حتى حملت حواء بشيث، وكانت الملائكة يأتون حواء ويهنئونها، فلمّا وضعتْهُ، نَظَرَتْ بين عينيه إلى نور رسول اللهﷺ يشتعل اشتعالاً، فَفَرِحَتْ بذلك، وضَرَبَ جبرئيلعليه السلام بينها وبينه حجاباً من نور غلظه مقدار خمسمائة عام، فلم يزل محجوباً محبوساً حتى بلغ شيثعليه السلام مبالغ الرِّجال والنّور يشرقُ في غرته، فلمّا علم آدمعليه السلام أنّ ولده شيث بلغ مبالغ الرجال قال له: يا بني إني مفارقك، عن قريب فادنُ مني حتى آخذ عليك العهد والميثاق كما أخذه الله تعالى على مَن قبلك.

ثمّ رفع آدمعليه السلام رأسه نحو السّماء، وقد علم الله ما أراد، فأمر الله الملائكة أنْ يمسكوا عن التسبيح، ولفت أجنحتها، وأشرفت سكان الجنان من غرفاتها، وسكن صرير أبوابها وجريان أنهارها وتصفيق أوراق أشجارها، وتطاولت لاستماع ما يقول آدم عليه السلام، ونودي: يا آدم قل ما أنت قائل، فقال آدم عليه السلام: اللهم رب القدم قبل النفس، ومنير القمر والشمس، خلقتَني كيف شئتَ، وقد أودعتَني هذا النور الذي أرى منه التشريفَ والكرامةَ، وقد صار لولدي شيث، وإني أريد أنْ آخذَ عليه العهدَ والميثاقَ، كما أَخَذْتَهُ عَلَيَّ، اللهم وأنتَ الشاهدُ عليه، وإذا بالنداء من قِبَلِ الله تعالى: يا آدم خُذْ على ولدِكَ شيث العَهْدَ وأَشْهِدْ عليه جبرئيلَ وميكائيلَ والملائكةَ أجمعين.

قال: فأمر الله تعالى جبرئيلعليه السلام أنْ يهبطَ إلى الأرض في سبعين ألفاً من الملائكة بأيديهم ألوية الحمد، وبيده حريرة بيضاء وقلم مكون من مشية الله رب العالمين، فأقبل جبرئيل على آدمعليه السلام وقال له: يا آدم ربك يقرئك السَّلام ويقول

لك: أُكْتُبْ على ولدك شيث كتاباً، وأَشْهِدْ عليه جبرئيلَ وميكائيلَ والملائكةَ أجمعين، فَكَتَبَ الكتابَ وَأَشْهَدَ عليه وَخَتَمَهُ جبرئيلُ بِخَاتَمِهِ وَدَفَعَهُ إلى شيث، وكسا قبل انصرافه حلتين حمراوين؛ أضوأ من نور الشمس، وأروق من السّماء، لم يقطعا ولم يفصلا، بل قال لهما الجليل: كونيا فكانتا، ثمّ تفرَّقَا، وقَبِلَ شيث العهدَ، وأَلْزَمَهُ نَفْسَهُ، ولم يَزَلْ ذلك النور بين عينيه حتى تزوَّجَ المحاولة البيضاء، وكانتْ بطول حواء، واقترنَ إليها بخطبة جبرئيل، فلمّا وطئها حملت بأنوش، فلمّا حملت به سَمِعَتْ منادِياً ينادي: هنيئاً لكِ يا بيضاء، لقد استودَعَكِ الله نورَ سيّد المرسلين سيد الأولين والآخرين.

فلمّا ولدته أخذ عليه شيث العهدَ كما أخذ عليه، وانتقل إلى ولده قينان، ومنه إلى مهلائيل، ومنه إلى أدد، ومنه إلى أخنوخ وهو إدريس عليه السلام، ثمّ أودعه إدريس ولده متوشلخ، وأخذ عليه العهد، ثمّ انتقل إلى ملك، ثمّ إلى نوح، ومن نوح إلى سام، ومن سام إلى ولده أرفخشد، ثمّ إلى ولده عابر، ثمّ إلى قالع، ثمّ إلى أرغو، ومنه إلى شارغ، ومنه إلى تاخور، ثمّ انتقل إلى تارخ، ومنه إلى إبراهيم عليه السلام، ثمّ إلى إسماعيل عليه السلام، ثمّ إلى قيذار، ومنه إلى الهميسع، ثمّ انتقل إلى نبت، ثمّ إلى يشحب، ومنه إلى أدد، ومنه إلى عدنان، ومنه إلى معد، ومنه إلى نزار، ومنه إلى مضر، ومن مضر إلى إلياس، ومن إلياس إلى مدركة، ومنه إلى خزيمة، ومنه إلى كنانة، ومن كنانة إلى قصي، ومن قصي إلى لوي، ومن لوي إلى غالب، ومنه إلى فهر، ومن فهر إلى عبد مناف، ومن عبد مناف إلى هاشم، وإنما سمي هاشماً لأنه هَشَمَ الثريد لقومه، وكان اسمه عمرو العلاء، وكان نور رسول الله ﷺ في وجهه إذا أقبل تضيء منه الكعبة وتكتسي من نوره نوراً شعشعانياً، ويرتفع من وجهه نور إلى السّماء، وخرج من بطن أمّه عاتكة بنت مرة بنت فالج بن ذكوان وله ضفيرتان كضفيرتي إسماعيل عليه السلام،

يتوقد نورُهما إلى السّماء، فعجب أهل مكة من ذلك وسارت إليه قبائل العرب من كل جانب، وماجت منه الكهان، ونطقت الأصنام بفضل النبي المختار، وكان هاشم لا يمرّ بحجر ولا مدر إلاّ ويناديه: أَبْشِرْ يا هاشم فإنه سيظهر من ذريتك أكرَمُ الخلق على الله تعالى، وأشرفُ العالمين؛ محمَّد خاتم النبيين.

وكان هاشم إذا مشى في الظلام أنارَت منه الحنادس ويرى مَن حوله كما يرى من ضوء المصباح، فلمّا حضرت عبد مناف الوفاة أخذ العهدَ على هاشم أنْ يودع نورَ رسول اللهﷺ في الأرحام الزكية من النساء، فقبل هاشم العهد وألزمه نفسه، وجعلت الملوك تتطاول إلى هاشم ليتزوج منهم ويبذلون إليه الأموال الجزيلة وهو يأبى عليهم، وكان كل يوم يأتي الكعبة ويطوف بها سبعاً ويتعلق بأستارها، وكان هاشم إذا قصده قاصدٌ أكرمه، وكان يكسو العريان، ويطعم الجائعَ، ويُفَرِّجُ عن المعسر، ويوفي عن المديون، ومن أصيب بِدَمٍ دَفَعَ عنه، وكان بابُه لا يُغْلَق عن صادرٍ ولا وارِد، وإذا أَوْلَمَ وليمةً أو اصطنع طَعاماً لأحدٍ وفَضُلَ منه شيْء يأمر به أنْ يلقى إلى الوحش والطيور، حتى تحدثوا به وبجوده في الآفاق، وسوده أهل مكة بأجمعهم وشرّفوه وعظَّمُوه وسَلَّمُوا إليه مفاتيح الكعبة والسقاية والحجابة والرفادة ومصادر أمورِ الناس ومواردها وسلَّمُوا إليه: لواءَ نزار، وقوس إسماعيل عليه السلام، وقميص إبراهيم عليه السلام، ونعل شيث عليه السلام، وخاتم نوح عليه السلام، فلمّا احتوى على ذلك كله؛ ظهر فخرُه ومَجْدُه، وكان يقوم بالحاجّ ويرعاهُم، ويتولى أمورَهم ويُكْرِمَهُم، ولا ينصرِفُونَ إلاّ شاكِرِيْن...][1].

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٦ ـ ٣٨ح٤٨، والحديث طويل جداً، وللتبرك بقراءته يمكن الرجوع إلى المصدر المذكور هذا.

**تعقيب هام:**

يُستفاد من هذه الأخبار الولوية الشريفة المتقدِّمة أنّ للوجود المَلَكي وجود ملكوتي سابق، ويُعَبَّر عنه بعالَم الغيب، حيث لا يمكن نيل ذلك العالَم بالحواس الظاهرة، ولا الوقوف عليه عبر الأدوات التي تحكم عالم الحس والشهادة، كما أنه لا يخضع للقوانين التي تحكم عالمنا المادّي من الزمان والمكان والحركة وما إلى ذلك، وفي عالَم الملكوت تعيش الملائكة التي تخضع بكينونتها الوجوديّة إلى أحكام ذلك العالَم، فحيث لا فساد فيه، لا فساد ولا خلط فيمن يعيش فيه من الملائكة، فهم عُمّار العالَم العلوي المنزَّهون من قوانين النشأة الأرضيّة، لذا فإنهم مبَرَّؤون عن الشهوة والغضب والحِدّة والطيش والأخلاق الذميمة والهرم والسقم والموت والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان، وهي جواهر روحانيّة مبَرَّأة عن هذه الأحوال، وهي بتركيبتها النورانيّة ليست الصادر الأول عند الله جلّ وعلا، بل المستفاد من الأخبار المتقدِّمة وغيرها ـ مضافاً للآيات الشريفة الدالة على ذلك ـ أنّ للكون عالَمَيْن، علويٌّ وسفليٌّ، ولكلٍّ منهما خصائصه التي تميّزه، لذا من الضروري أنْ يكون هناك مظهَرٌ للإسلام الأعظم على صعيد كل درجة من هذين العالَمين. وما أشارت إليه الآيات، وأكَّدَتْهُ الأخبار الشريفة أنّ الصادر الأول الذي خلقه الله هو نور النبيﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ. ومن هذا النور خلق العرش والكرسي وحَمَلَة العرش وسكنة الكرسيّ، ثمّ القلم واللوح والجنّة والملائكة والشمس والقمر...

وعليه؛ فإنّ وجود النبيﷺ وأهل بيته ﷺ في ذاك العالَم المقدَّس صورة كماليّة لله تعالى، أو مظهَر اسمه الأعظم، لا يمكن أنْ ينفصل عن العالَم الأرضي عند هبوطه من عالَم الغيب والملكوت؛ إذ لا إثنينيّة في الذات

المحمّديّة حتى يُدَّعى انفصاله عن موطنه الأوّل الذي كان فيه معلّماً للملائكة وللأنبياء والمرسَلين ﷺ، فمَن كان مظهَراً للذات الإلهيّة في الكمال والجمال في عوالم الملكوت لن تنعكس حقيقته إلى شيٍ آخر لا علاقة له بالكمال، بل المظهريّة الملكوتيّة هي نفسها المظهريّة المَلَكيَة، فالمظهر الأتمّ والآية العظمى لذلك الصّادر الأول في نشأة الناسوت هو الوجود الإنساني البشري لخاتم النبيينﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ.

فرسول اللهﷺ وأهل بيته ﷺ المظهَر التام للأسماء والصفات الإلهيّة، ومقتضى مظهريتهم الكاملة أنْ يكون تحت تدبيرهم جميع مظاهر أسماء الله عزّ وجلّ، ولولاهم ﷺ لَمَا ظَهَرَت آثار الأسماء الإلهيّة ولم تتحقق مصاديقها في الواقع الخارجي، لا سيّما وأنّ الملائكة لا استعداد لها في تحمُّل أعباء هذه المهمّة، ولا قدرة لها في أنْ تكون المظهر الذي يجلي أسماء الله وصفاته، وذلك بسبب عدم اكتمال قابليتها كما يشهد لهذا استيضاحها عن علّة جعل الآدمي خليفةً في الأرض بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ فقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وما سجودها لآدمﷺ إلاّ اعترافاً بتقصيرها وعدم بلوغها ما بلغ، بل إنّ السجود له يرمز إلى أنها مطيعة له منقادة إليه، وعليه تكون النتيجة أنّ جميع هؤلاء الملائكة إنما هم تحت إرادة هذا الخليفة وأمره، فهذا الخليفة هو منشأ تدبير الملائكة، وهو الواسطة بين الله جلّ جلاله وبينهم، وهم خاضعون لهذا الموجود الأرضي، منقادون وساجدون له من حيثيّة كونه قبلةً إلى الله سبحانه وتعالى.

وسجودهم لآدمﷺ لأجل ما كان يحمله من حقائق عن أهل البيتﷺ، فهم ﷺ قسم ثالث في قبال خلق آدمﷺ والملائكة كما يشهد له قوله تعالى: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، حيث ورد في الأخبار الصحيحة أنّ ثمّة

جماعة غير الملائكة لم يؤمَروا بالسّجود لآدم عليه السلام وهم النبي وعترته الطاهرة عليهم السلام.

فالتفصيل المستفاد من الآية المبارَكة قاطع للشركة، فالعالون منفصلون ذاتاً عن آدم والملائكة، فعدم سجود إبليس لعنه الله لآدم عليه السلام لا يخلو من أمرين: إمّا استكباراً، وإمّا لكونه من العالين الذين لم يؤمَروا بالسجود لآدم عليه السلام لكونهم أشرف منه. الإحتمال الثاني منتفٍ من اصله بالضرورة الدينيّة، فيتعيّن الإحتمال الأول.

فإذا ما كان هؤلاء العالون بهذه الدّرجة من الكمال والجلال، فكيف يجيز المخالفون لأنفسهم أنْ ينسبوا إلى رسول الله ﷺ ما يتنافى وكماله وجلاله الذي كان عليه في الصدور الأول للخلق، وبقي عليه إلى آخر يوم من حياته الشريفة؟!!!

والمحصّلة من المجموع الكمّي لأخبار سبق نور نبينا ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وأخذ الميثاق على الأنبياء بولاية أهل البيت عليهم السلام، كلّ ذلك يشير إلى اسبقيّتهم ونورانيتهم وأفضليتهم على عامّة الخلق، فما من فضيلة أو منقبة أو خُلُقٍ كريم ثبت لنبيٍّ أو رسول فلا بدّ أنْ يثبت لرسولنا وأئمتنا عليهم السلام بطريقٍ أَوْلى؛ لأنّ ما ثبت من الفضائل للأدنى، لا بدّ أنْ يتصف به الأعلى بقياس الأولويّة المذكور، والطريقة الإستقرائيّة المتّبعة في كشف أخلاق الأنبياء والمرسَلين لم تُشر ـ لا من قريب ولا من بعيد ـ أنّ أحداً منهم عليهم السلام عبس وقطّب في وجه أحدٍ من أتباعه ومريديه من أجل حفنة رجسة نجسة من الكفّار والمشركين، فلِمَ صار نبينا ﷺ ـ حاشاه من ذلك ـ بدعاً من الرّسل، فخرج ـ حسبما يدّعي المخالفون ـ عن جادّة زملائه الكرام من الأنبياء والمرسَلين والصدّيقين عليهم السلام مع كونه

سيّدهم ورئيسهم وأفضلهم؟! أليس هذا خروجاً عن القانون العام المتبع في الأخلاق النظرية والعمليّة معاً؟!! وهل يمكن لمَن كان مظهراً للإسم الأعظم والنور الأقدس ـ باتفاق الخاصة والعامّة ـ أنْ تصدر منه هِناتٌ توجب نزول آيات التقريع والتوبيخ فيه مدى الدهر؟! أليس هذا خلاف المطهرية والأقدسيّة اللتين جُبِلَت بهما طينته الشريفة ومادّته اللطيفة؟!!

فمَن كان معلّماً للملائكة التكبير والتهليل وطرائق السير والسلوك إلى الله تعالى، مع كونه الصادر الأول عن المشيّة الإلهيّة لا يجوز عقلاً ونقلاً إلصاق العبوس به من أجل تصورٍ لم يصل إلى مرحلة التصديق[1]، وحتى لو استلزم إذعاناً وتصديقاً فلا يجوز صدور القبيح ممن جعله الله عزّ وجلّ أول صادر للمشيّة الإلهيّة.

إذن، كان النبيّ ـ صلوات الله عليه وآله ولعن الله ظالميهم ـ نوراً يُستضاء به في عوالم الملكوت، بقي كذلك في عالَم الناسوت، حينما هبط إلى الأرض ليّعلّم الجاهلين من الآدميين كما عَلَّمَ الملائكة المقرَّبين ومَن كان نوراً لا يجوز صدور العبوس بوجه فقير مؤمن؛ لأنّ ذلك من مصاديق الظلمة المضادّة للنور.

**النوع الثاني: أوصافه الشريفةﷺ في الخلق الدنيوي:**

أشارت الأخبار ـ التي هي فوق التواتر بعشرات المرّات ـ إلى أنّ الله جلّ ذِكْرُهُ وتعالة مجدُهُ، خلق سيّد الكائنات محمداًﷺ نوراً في كلّ وجوده، فروحه

---

(١) يُراد بذلك تصوره ﷺ ـ بحسب دعوى المخالفين ـ بأنّ صناديد قريش سيهتدون على يديه، لكنهم لم يهتدوا، فتصوّره ـ في هذه الحالة ـ لم يبلغ درجة التصديق، وهو عبث يتنزه عنه خيال سيّد الكائنات محمّد رسول اللهﷺ، فما قُصِدَ لم يحصل، وهو خلاف الحكمة، فتأمّل.

خُلِقَت من النور، وجسمه من النور، وكان في النور، ثمّ تسلسل في الأصلاب والأرحام النورانية لم تؤثر فيه عوالم المادة ولم تنجسه الجاهليّة بأنجاسها عندما ترعرع في جزيرة العرب التي عاشت البداوة والقساوة في صحرائها وأخلاق أهلها، فكان رسول الله ﷺ نوراً يُستَضَاءُ به في ظلمات البرّ والبحر.

وقد جاء في الأخبار الشريفة[١] أنّ تأثير نوره كان واضحاً على وجوه آبائه قبل تولّده، ولمّا وُلِدَ ﷺ تنوَّرَت الأرض به بعد ظلامها، وتَطَهَّرَت بعد تنجيسها، فكان أنور من الشمس والقمر، بل هما تنوَّرَتا بنوره ﷺ، إذ خلقهما الله تعالى لأجله ﷺ ولأجل أهل بيته الأطهار ﷺ، فكلّه ﷺ نور، وروحه نُورٌ، وجسمه نُورٌ، وأفعاله نُورٌ، وأقواله نُورٌ، وسكوته نُورٌ، وجسده بعد مماته نُورٌ، فهو ﷺ من النور إلى النّور، يتقَلَّبُ في الأنوار في كلّ الأطوار والأحوال، لا تُغَيِّرُ الطوارئُ فِكْرَه وخيالَه ونفسَه وروحَه وقلبَه؛ بسبب نورانيته وقداسته ونزاهته وطهارته ﷺ، سبحان خالقه ومكَوِّنه ومدَبِّره.

* * *

**والخلاصة:**

إنّ روحه ﷺ نُورٌ مجَرَّد عن علائق المادّة وآثارها، وجسمه نُورٌ لا تؤَثِّر فيه شوائب المادّة وظَلمتها، فهو «الكامل المكمِّل للخليقة، والواسطة في الإفاضة عليهم على الحقيقة، وكلّ مَنْ تَقَدَّمَهُ عصراً من الأنبياء وتأخَّرَ عنه من الأقطاب والأولياء نوّابٌ عنه ومستمدّون منه على حدّ تعبير الآلوسي»[٢].

فالنبي ﷺ وأهل بيته ﷺ مظاهر الإسم الأعظم في النشأتين الملكوتيّة

---

(١) راجع: بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي قدّس سرّه: ج١٥ باب بدء خِلقة النبي ﷺ.
(٢) روح المعاني: ١٢/ ٢٩، سورة الأحزاب/ آية التطهير.

والأرضيّة، ويشهد لهذا ما جاء عن النبي ﷺ: «كنتُ أوّل الناس في الخلق وآخرهم في البعث»[(١)].

كما ورد في حديث نباتة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «نحن الأوَّلُون ونحن الآخِرُون»[(٢)]، أي: الأوّلون خلقاً وصدوراً، والآخرون بعثاً وظهوراً في العالَم الأرضي.

ولقد حاز ﷺ من الكمالات الرّفيعة ما لا يمكن وصفه على ما يوحي به النّص الوارد عن جابر قال: قال رسول الله: «أوّل ما خَلَقَ الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقّه من جلال عَظَمَتِهِ»[(٣)].

وهل يمكن للمحدود أنْ يصف نور المطلق؟ كلاّ، لقد فاز بالسبق حتى صار واسطة الإيجاد باعتبار قوس النّزول ومبدأ الخلقة والخليقة، وكذلك في قوس الصعود حتى صار واسطة لوصول كلّ ذي كمال إلى كماله المترقَّب.

وبالجملة؛ فإنّ النصوص الدالة على علوّ شأنه، ووفور فضله، وشرف عِلمه، وكمال معرفته، وإخلاص عَمَلِه، كثيرة جدّاً تفوق المئات بل الآلاف، نذكر نبذة منها لنفوز بعطر سيرته المبارَكة، منها:

١ ـ ما رواه الثقة محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله بإسناده عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن إسحاق بن

---

(١) الغدير في الكتاب والسنة: ٧/ ٥٦، نقلاً عن الطبقات الكبرى لإبن سعد: ١/ ١٤٩، وتفسير جامع البيان للطبري: ٢١/ ١٢٥، ودلائل النبوّة لأبي نعيم: ١/ ٤٤، ومصادر أخرى.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ١٥ح١٩.

(٣) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤ح٤٤.

غالب، عن المولى الإمام أبي عبد الله عليه السلام في خطبة له خاصّة، يذكر فيها حال النبيّ والأئمة الأطهار وصفاتهم عليهم السلام، قال:

[فَلَمْ يَمْنَعْ رَبَّنَا لِحِلْمِهِ وأَنَاتِهِ وعَطْفِهِ مَا كَانَ مِنْ عَظِيمِ جُرْمِهِمْ وقَبِيحِ أَفْعَالِهِمْ، أَنِ انْتَجَبَ لَهُمْ أَحَبَّ أَنْبِيَائِهِ إِلَيْهِ وأَكْرَمَهُمْ عَلَيْهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ فِي حَوْمَةِ الْعِزِّ مَوْلِدُهُ، وفِي دَوْمَةِ الْكَرَمِ مَحْتِدُهُ، غَيْرَ مَشُوبٍ حَسَبُهُ، ولَا مَمْزُوجٍ نَسَبُهُ، ولَا مَجْهُولٍ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ صِفَتُهُ، بَشَّرَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ فِي كُتُبِهَا، ونَطَقَتْ بِهِ الْعُلَمَاءُ بِنَعْتِهَا، وتَأَمَّلَتْهُ الْحُكَمَاءُ بِوَصْفِهَا، مُهَذَّبٌ لَا يُدَانَى، هَاشِمِيٌّ لَا يُوَازَى، أَبْطَحِيٌّ لَا يُسَامَى، شِيمَتُهُ الْحَيَاءُ، وطَبِيعَتُهُ السَّخَاءُ، مَجْبُولٌ عَلَى أَوْقَارِ النُّبُوَّةِ وأَخْلَاقِهَا، مَطْبُوعٌ عَلَى أَوْصَافِ الرِّسَالَةِ وأَحْلَامِهَا، إِلَى أَنِ انْتَهَتْ بِهِ أَسْبَابُ مَقَادِيرِ الله إِلَى أَوْقَاتِهَا، وجَرَى بِأَمْرِ الله الْقَضَاءُ فِيهِ إِلَى نِهَايَاتِهَا، أَدَّاهُ مَحْتُومُ قَضَاءِ الله إِلَى غَايَاتِهَا، تُبَشِّرُ بِهِ كُلُّ أُمَّةٍ مَنْ بَعْدَهَا، ويَدْفَعُهُ كُلُّ أَبٍ إِلَى أَبٍ مِنْ ظَهْرٍ إِلَى ظَهْرٍ، لَمْ يَخْلِطْهُ فِي عُنْصُرِهِ سِفَاحٌ، ولَمْ يُنَجِّسْهُ فِي وِلَادَتِهِ نِكَاحٌ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَبِيهِ عَبْدِ الله، فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وأَكْرَمِ سِبْطٍ، وأَمْنَعِ رَهْطٍ، وأَكْلأَ حَمْلٍ، وأَوْدَعِ حَجْرٍ، اصْطَفَاهُ الله، وارْتَضَاهُ، واجْتَبَاهُ، وآتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ مَفَاتِيحَهُ، ومِنَ الْحُكْمِ يَنَابِيعَهُ، ابْتَعَثَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، ورَبِيعاً لِلْبِلَادِ، وأَنْزَلَ الله إِلَيْهِ الْكِتَابَ فِيهِ الْبَيَانُ والتِّبْيَانُ، قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، قَدْ بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ، ونَهَجَهُ بِعِلْمٍ قَدْ فَصَّلَهُ، ودِينٍ قَدْ أَوْضَحَهُ، وفَرَائِضَ قَدْ أَوْجَبَهَا، وحُدُودٍ حَدَّهَا لِلنَّاسِ وبَيَّنَهَا، وأُمُورٍ قَدْ كَشَفَهَا لِخَلْقِهِ وأَعْلَنَهَا، فِيهَا دَلَالَةٌ إِلَى النَّجَاةِ، ومَعَالِمُ تَدْعُو إِلَى هُدَاهُ، فَبَلَّغَ رَسُولُ الله ﷺ مَا أُرْسِلَ بِهِ، وصَدَعَ بِمَا أُمِرَ، وأَدَّى مَا حُمِّلَ مِنْ أَثْقَالِ النُّبُوَّةِ، وصَبَرَ لِرَبِّهِ، وجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، ونَصَحَ لِأُمَّتِهِ، ودَعَاهُمْ إِلَى النَّجَاةِ، وحَثَّهُمْ عَلَى الذِّكْرِ، ودَلَّهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى؛ بِمَنَاهِجَ ودَوَاعٍ أَسَّسَ لِلْعِبَادِ أَسَاسَهَا، ومَنَارٍ رَفَعَ لَهُمْ أَعْلَامَهَا؛ كَيْ لا يَضِلُّوا مِنْ بَعْدِهِ، وكَانَ بِهِمْ

رَؤوفاً رَحِيماً][١].

٢ ـ وبإسناده عن سالم بن أبي حفصة العجلي عن المولى الإمام أبي جعفرعليه السلام قال:

«كان في رسول اللهﷺ ثلاثة لم تكن في أَحَدٍ غيره: لم يكن له فيئ، وكان لا يمرُّ في طريق فيمرُّ فيه بعد يومين أو ثلاثة إلاّ عَرَفَ أنه قد مَرَّ فيه لطيب عرفه، وكان لا يمُرُّ بحجرٍ ولا بشَجَرٍ إلاّ سجد له»[٢].

أقول: إذا ما كان النبيﷺ بهذا المستوى من الكمال والعلم بالأسماء والصفات الإلهيّة، ومظهَراً للذات الصّمدانيّة: فكيف يصحّ صدور فعل منه يوجب تقريعه وتوبيخه في سورة عبس التي هي في الواقع وثيقة قطعيّة على حرمة فعل العابس وإجرامه مع الفقير المؤمن؟!! وهل يصحّ صدور قبيحٍ من رجل كان يسجد له الحجر والشجر بسبب كمالٍ في ذاته وأخلاقه، بحيث صار جسمه لا ظلَّ له لكونه أنور من الشمس والقمر؟!

هذا ما نودّ أنْ يجيبنا عليه أولئك المدَّعون!!

٣ ـ وبإسناده عن جابر قال: قلت للمولى أبي جعفر عليه السلام: صِفْ لي نبيَّ الله عليه وآله السّلام، قال عليه السلام: كَانَ نَبِيُّ اللهﷺ أَبْيَضَ مُشْرَبَ حُمْرَةٍ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، مَقْرُونَ الْحَاجِبَيْنِ، شَثْنَ الْأَطْرَافِ، كَأَنَّ الذَّهَبَ أُفْرِغَ عَلَى بَرَاثِنِهِ، عَظِيمَ مُشَاشَةِ الْمَنْكِبَيْنِ، إِذَا الْتَفَتَ يَلْتَفِتُ جَمِيعاً مِنْ شِدَّةِ اسْتِرْسَالِهِ، سُرْبَتُهُ سَائِلَةٌ مِنْ لَبَّتِهِ إِلَى سُرَّتِهِ، كَأَنَّهَا وَسَطُ الْفِضَّةِ الْمُصَفَّاةِ، وَكَأَنَّ عُنُقَهُ إِلَى كَاهِلِهِ إِبْرِيقُ فِضَّةٍ، يَكَادُ أَنْفُهُ إِذَا شَرِبَ أَنْ يَرِدَ الْمَاءَ، وَ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ، كَأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي صَبَبٍ، لَمْ يُرَ

(١) أصول الكافي: ١/ ٤٤٤ح١٧.
(٢) أصول الكافي: ١/ ٤٤٢ح١١.

مِثْلُ نَبِيِّ الله قَبْلَهُ وَ لا بَعْدَهُ ﷺ[1].

أقول: لم نقرأ ولم نسمع أنّ أحداً من الأنبياء ﷺ عبس بوجه أحدٍ من أتباعه من أجل بعض الكفرة الفجرة، وعليه فلمّا كان رسول الله ﷺ أفضل من عامّة الأنبياء والمرسَلين ﷺ، ولم يعهد من واحدٍ منهم أنْ فعل ما نسبه المخالفون إليه ﷺ، ـ إذاً ـ كان أفضل من جميع المرسلين في الكمالات النفسيّة والخلقيّة والرّوحيّة، فلا يجوز أنْ يصدر منه ما لم يصدر منهم ﷺ، وقد أكّد الخبر المتقدّم أنّه لم يُرَ قبله ولا بعده في الخُلُق الرّفيع والدِّين القويم والأخلاق الحَسَنَة.

٤ ـ الأخبار الشريفة التي عدَّدَت صفات الإمام؛ لا شكّ أنّها تنطبق على رسول الله ﷺ لكونه إماماً ونبيّاً ورسولاً، فما ثبت لأئمّتنا ﷺ من الصّفات الكمالية والجماليّة يثبت أيضاً لرسول الله بنفس المناط لكونهم نفسه، أو بطريقٍ أولى لأسبقيته عليهم زماناً. فقد جاء في أصول الكافي بإسناده عن عبد العزيز بن مسلم، عن مولانا الإمام الرّضا معدِّداً لصفات الإمام فقال:

[إنَّ الإمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الأنبِيَاءِ، وإرثُ الأوصِيَاءِ، إنَّ الإمَامَةَ خِلافَةُ الله، وخِلافَةُ الرسول ﷺ، ومَقَامُ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ ﷺ، ومِيرَاثُ الحَسَنِ، والحُسَينِ ﷺ، إنَّ الإمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ، ونِظَامُ المُسلِمِينَ، وصَلاحُ الدُّنيَا، وعِزُّ المُؤمِنِينَ، إنَّ الإمَامَةَ أُسُّ الإسلامِ النَّامِي، وفَرعُهُ السَّامِي، بِالإمَامِ تَمَامُ الصَّلاةِ، والزَّكَاةِ، والصِّيَامِ، والحَجِّ، والجِهَادِ، وتَوفِيرُ الفَيءِ، والصَّدَقَاتِ، وإمضَاءُ الحُدُودِ والأحكَامِ، ومَنعُ الثُّغُورِ والأطرَافِ، الإمام يُحِلُّ حَلالَ الله، ويُحَرِّمُ حَرَامَ الله، ويُقِيمُ حُدُودَ الله، ويَذُبُّ عَن دِينِ الله، ويَدعُو إلَى سَبِيلِ رَبِّهِ

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٤٤٣ح١٤.

بِالحِكمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ والحُجَّةِ البَالِغَةِ، الإمام كَالشَّمسِ الطَّالِعَةِ المُجَلِّلَةِ بِنُورِهَا لِلعَالَمِ، وهِيَ فِي الأُفُقِ بِحَيثُ لا تَنَالُهَا الأَيدِي والأَبصَارُ، الإمام البَدرُ المُنِيرُ، والسِّرَاجُ الزَّاهِرُ، والنُّورُ السَّاطِعُ، والنَّجمُ الهَادِي فِي غَيَاهِبِ الدُّجَى، وأَجوَازِ البُلدَانِ والقِفَارِ، ولُجَجِ البِحَارِ، الإمام المَاءُ العَذبُ عَلَى الظَّمَإِ، والدَّالُّ عَلَى الهُدَى، والمُنجِي مِنَ الرَّدَى، الإمام النَّارُ عَلَى اليَفَاعِ الحَارُّ لِمَنِ اصطَلَى بِهِ، والدَّلِيلُ فِي المَهَالِكِ، مَن فَارَقَهُ فَهَالِكٌ، الإمام السَّحَابُ المَاطِرُ، والغَيثُ الهَاطِلُ، والشَّمسُ المُضِيئَةُ، والسَّمَاءُ الظَّلِيلَةُ، والأَرضُ البَسِيطَةُ، والعَينُ الغَزِيرَةُ، والغَدِيرُ، والرَّوضَةُ، الإمام الأَنِيسُ الرَّفِيقُ، والوَالِدُ الشَّفِيقُ، والأَخُ الشَّقِيقُ، والأُمُّ البَرَّةُ بِالوَلَدِ الصَّغِيرِ، ومَفزَعُ العِبَادِ فِي الدَّاهِيَةِ النَّآدِ، الإمام أَمِينُ الله فِي خَلقِهِ، وحُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وخَلِيفَتُهُ فِي بِلادِهِ، والدَّاعِي إِلَى الله، والذَّابُّ عَن حُرَمِ الله، الإمام المُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، والمُبَرَّأُ عَنِ العُيُوبِ المَخصُوصُ بِالعِلمِ المَوسُومُ بِالحِلمِ نِظَامُ الدِّينِ، وعِزُّ المُسلِمِينَ، وغَيظُ المُنَافِقِينَ، وبَوَارُ الكَافِرِينَ.

الإِمَامُ واحِدُ دَهرِهِ لا يُدَانِيهِ أَحَدٌ، ولا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ، ولا يُوجَدُ مِنهُ بَدَلٌ، ولا لَهُ مِثلٌ ولا نَظِيرٌ، مَخصُوصٌ بِالفَضلِ كُلِّهِ، مِن غَيرِ طَلَبٍ مِنهُ لَهُ ولا اكتِسَابٍ، بَلِ اختِصَاصٌ مِنَ المُفضِلِ الوَهَّابِ

فَمَن ذَا الَّذِي يَبلُغُ مَعرِفَةَ الإمام، أَو يُمكِنُهُ اختِيَارُهُ!!

هَيهَاتَ هَيهَاتَ ضَلَّتِ العُقُولُ، وتَاهَتِ الحُلُومُ، وحَارَتِ الأَلبَابُ، وخَسَأَتِ العُيُونُ، وتَصَاغَرَتِ العُظَمَاءُ، وتَحَيَّرَتِ الحُكَمَاءُ، وتَقَاصَرَتِ الحُلَمَاءُ، وحَصِرَتِ الخُطَبَاءُ، وجَهِلَتِ الأَلِبَّاءُ، وكَلَّتِ الشُّعَرَاءُ، وعَجَزَتِ الأُدَبَاءُ، وعَيِيَتِ البُلَغَاءُ: عَن وصفِ شَأنٍ مِن شَأنِهِ، أَو فَضِيلَةٍ مِن فَضَائِلِهِ، وأَقَرَّت بِالعَجزِ والتَّقصِيرِ.

وكَيفَ يُوصَفُ بِكُلِّهِ، أَو يُنعَتُ بِكُنهِهِ، أَو يُفهَمُ شَيءٌ مِن أَمرِهِ، أَو يُوجَدُ مَن يَقُومُ مَقَامَهُ، ويُغنِي غِنَاهُ، لا كَيفَ وأَنَّى، وهُوَ بِحَيثُ النَّجم مِن يَدِ المُتَنَاوِلِينَ، ووَصفِ الوَاصِفِينَ، فَأَينَ الاختِيَارُ مِن هَذَا؟!!، وأَينَ العُقُولُ عَن هَذَا؟!!، وأَينَ يُوجَدُ مِثلُ هَذَا؟!!

أَتظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يُوجَدُ فِي غَيرِ آلِ الرَّسُولِ محمدا!! كَذَبَتهُم والله أَنفُسُهُم، ومَنَّتهُمُ الأَبَاطِيلَ؛ فَارتَقَوا مُرتَقاً صَعباً دَحضاً تَزِلُّ عَنهُ إِلَى الحَضِيضِ أَقدَامُهُم، رَامُوا إِقَامَةَ الإمام بِعُقُولٍ حَائِرَةٍ بَائِرَةٍ نَاقِصَةٍ، وآرَاءٍ مُضِلَّةٍ، فَلَم يَزدَادُوا مِنهُ إِلا بُعداً، قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤفَكُونَ، ولَقَد رَامُوا صَعباً، وقَالُوا إِفكاً، وضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً، ووَقَعُوا فِي الحَيرَةِ إِذ تَرَكُوا، الإمام عَن بَصِيرَةٍ، وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعمَالَهُم فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ، وكَانُوا مُستَبصِرِينَ رَغِبُوا عَنِ اختِيَارِ الله، واختِيَارِ رَسُولِ الله ﷺ، وأَهلِ بَيتِهِ إِلَى اختِيَارِهِم، والقُرآنُ يُنَادِيهِم، ورَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشاءُ، ويَختارُ ما كانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبحانَ الله وتَعالى عَمَّا يُشرِكُونَ، وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ «الآيَةَ»، وقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾، وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أم ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أم ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بَل هُوَ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

فَكَيفَ لَهُم بِاختِيَارِ الإِمَامِ، والإِمَامُ عَالِمٌ لا يَجهَلُ، ورَاعٍ لا يَنكُلُ، مَعدِنُ القُدسِ والطَّهَارَةِ، والنُّسُكِ والزَّهَادَةِ، والعِلمِ والعِبَادَةِ، مَخصُوصٌ بِدَعوَةِ

الرسولﷺ ونَسلِ المُطَهَّرَةِ البَتُولِعليها السلام، لا مَغمَزَ فِيهِ فِي نَسَبٍ، ولا يُدَانِيهِ ذُو حَسَبٍ، فِي البَيتِ مِن قُرَيشٍ، والذِّروَةِ مِن هَاشِمٍ، والعِترَةِ مِنَ الرسولﷺ، والرِّضَا مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ، شَرَفُ الأَشرَافِ، والفَرعُ مِن عَبدِ مَنَافٍ.

نَامِي العِلمِ، كَامِلُ الحِلمِ، مُضطَلِعٌ بِالإِمَامَةِ، عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ، مَفرُوضُ الطَّاعَةِ، قَائِمٌ بِأَمرِ الله عَزَّ وجَلَّ، نَاصِحٌ لِعِبَادِ الله، حَافِظٌ لِدِينِ الله، إِنَّ الأَنبِيَاءَ والأَئِمَّةَ عليهم السلام يُوَفِّقُهُمُ الله، ويُؤتِيهِم مِن مَخزُونِ عِلمِهِ وحِكَمِهِ مَا لا يُؤتِيهِ غَيرَهُم، فَيَكُونُ عِلمُهُم فَوقَ عِلمِ أَهلِ الزَّمَانِ؛ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وقَولِهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ وقَولِهِ فِي طَالُوتَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وقَالَ لِنَبِيهِﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وقَالَ فِي الأَئِمَّةِ مِن أَهلِ بَيتِ نَبِيِّهِ وعِترَتِهِ وذُرِّيَّتِهِ ﷺ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

وإِنَّ العَبدَ إِذَا اختَارَهُ الله عَزَّ وجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ؛ شَرَحَ صَدرَهُ لِذَلِكَ، وأَودَعَ قَلبَهُ يَنَابِيعَ الحِكمَةِ، وأَلهَمَهُ العِلمَ إِلهَاماً، فَلَم يَعيَ بَعدَهُ بِجَوَابٍ، ولا يُحَيَّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ.

فَهُوَ مَعصُومٌ مُؤَيَّدٌ، مُوَفَّقٌ مُسَدَّدٌ، قَد أَمِنَ مِنَ الخَطَايَا والزَّلَلِ والعِثَارِ، يَخُصُّهُ الله بِذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وشَاهِدَهُ عَلَى خَلقِهِ، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾، فَهَل يَقدِرُونَ عَلَى مِثلِ هَذَا فَيَختَارُونَهُ،

أَو يَكُونُ مُختَارُهُم بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَيُقَدِّمُونَهُ، تَعَدَّوا وبَيتِ الله الحَقَّ، ونَبَذُوا كِتَابَ الله وراءَ ظُهُورِهِم كَأَنَّهُم لا يَعلَمُونَ، وفِي كِتَابِ الله الهُدَى والشِّفَاءُ، فَنَبَذُوهُ واتَّبَعُوا أَهوَاءَهُم؛ فَذَمَّهُمُ الله، ومَقَّتَهُم، وأَتعَسَهُم فَقَالَ جَلَّ وتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقَالَ: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقَالَ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، وصَلَّى الله عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وسَلَّمَ تَسلِيماً كَثِيراً][1].

٥ ـ روى محمّد بن مسعود الكازروني بإسناده إلى الأعمش، عن أبي صالح، عن كعب قال:

نجد مكتوباً محمّد رسول الله لا فظٌّ ولا غليظ ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيّئة السيّئة، ولكن يعفو ويغفر، أمّته الحامدون، يكبّرون على كلّ نجد، ويحمدونه في كلّ منزل، يتأزّرون على أنصافهم، ويتوضّؤون على أطرافهم...[2].

٦ ـ وفي تفسير القمّي بإسناده عن الحسين بن عبد الله السكّيني، عن أبي سعيد البجلي، عن عبد الملك إبن هارون، عن الإمام الصّادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام:

أنّ ملك الرّوم عرض على الإمام الحسن بن علي عليه السلام صور الأنبياء، فعرض عليه صنماً بلوح، فلمّا نظر إليه بكى بكاء شديداً، فقال له الملك: ما يبكيك؟ فقال: هذه صفة جدي محمد ﷺ؛ كثّ اللحية، عريض الصدر، طويل

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠٣.

(٢) بحار الأنوار: ١٥/ ٢٤٠ح٥٩.

العنق، عريض الجبهة، أقنى الأنف، أفلج الأسنان، حسن الوجه، قطط الشعر، طيب الريح، حسن الكلام، فصيح اللسان، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، بلغ عمره ثلاثاً وستين سنة، ولم يخلف بعده إلا خاتم مكتوب عليه لا إله إلا الله محمّد رسول الله، وكان يتختم في يمينه، وخلف سيفه ذا الفقار، وقضيبه وجبة صوف وكساء صوف، كان يتسرول به لم يقطعه ولم يخيطه حتى لحق بالله، فقال الملك: إنا نجد في الإنجيل أنّه يكون له ما يتصدّق على سبطيه، فهل كان ذلك؟ فقال له الإمام الحسن عليه السلام: قد كان ذلك، فقال الملك: فبقي لكم ذلك؟ فقال عليه السلام: لا، قال الملك: أوّل فتنة هذه الأمة عليها، ثم على ملك نبيكم واختيارهم على ذرية نبيهم منكم القائم بالحق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر. الخبر[1].

أقول: قوله عليه السلام: طيّب الرّيح، حَسَنُ الكلام، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكَر، يشير إلى حُسن مخاطبته للآخرين، وكراهته للمنكر، سواء أكان قبل البعثة أو بعدها مطلَقاً، فصدور العبوس منه يُعتبر منكَراً فارتكابه له خلاف كراهته له، فتأمَّلْ.

٧ ـ وفي أمالي الطوسي بإسناده عن إبن عقدة، عن أحمد بن محمّد بن عبد الرّحمان، قراءةً عن محمّد بن عيسى العبدي قال: حدَّثَنا المولى الإمام عليّ بن موسى عليه السلام، عن أبيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن جدّه عليه السلام، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنهم قالوا: يا عليّ صِفْ لنا نبينا ﷺ كأنّنا نراه؛ فإنّا مشتاقون إليه، فقال عليه السلام:

كان نبيّ الله أبيض اللون مشرباً حمرة، أدعج العين، سبط الشعر، كثف

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٤٦ح٢.

اللحية، ذا وفرة، دقيق المسربة، كأنما عنقه إبريق فضة يجري في تراقيه الذهب، له شعر من لبته إلى سرته كقضيب خيط إلى السرة، وليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شثن الكفين والقدمين، شثن الكعبين، إذا مشى كأنّما يتقلع من صخر، إذا أقبل كأنما ينحدر من صبب، إذا التفت التفت جميعاً بأجمعه كلّه، ليس بالقصير المتردد، ولا بالطويل المتمعِّط، وكان في الوجه تدوير، إذا كان في الناس غمرهم، كأنما عرقه في وجهه اللؤلؤ، عرفه أطيب من ريح المسك، ليس بالعاجز ولا باللئيم، أكرم الناس عشرةً، وألينهم عريكةً، وأجودهم كفّاً، من خالطه بمعرفة أحبّه، ومن رآه بديهة هابه، عزّه بين عينيه، يقول باغته [في نسخة: ناعته]: لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ وسلّم تسليماً[1].

بيان: قال الجوهري: الإشراب خلطُ لونٍ بلون، كأنّ أحدهما سقى الآخر، وإذا شُدِّد يكون للتكثير والمبالغة، ويقال: إشرب الأبيض حمرة، أي: علاه ذلك.

قال الفيروزآبادي: الدعج بالتحريك والدعجة شدّة سواد العين مع سعتها، والأدعج الأسود.

وقال الجزري في صفته ﷺ: في عينيه دعج، يريد أنّ سواد عينيه كان شديد السَّوَاد، وقيل: الدعج شدّة سواد العين في شدّة بياضها.

وقال السبط: من الشَّعر المنبسط المسترسل. وقال الوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن.

قوله: المتردد؛ قال الجزري: أي المتناهي في القصر كأنه تردّد بعض خلقه

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٤٧ح٣.

على بعض، وتداخلت أجزاؤه، وقال في صفته ﷺ: لم يكن بالطويل الممغط، هو بتشديد الميم الثانية؛ المتناهي في الطول، وأمغط النهار إذا امتدَّ، ومغطتُ الحبل وغيره إذا مددتُه، وأصله ممغط، والنون للمطاوعة، فقُلِبَتْ ميماً، وأُدْغِمَتْ في الميم، ويُقال: بالعين المهمَلة، بمعناه.

قوله عليه السلام غمرهم؛ قال الجزري: أي كان فوق كلّ مَن كان معه، والعريكة: الطبيعة.

قوله عليه السلام: من رآه بديهة هابه؛ قال الجزري: أي مفاجاةً وبغتةً؛ يعني: من لقيه قبل الاختلاط به هابه لوقاره وسكونه، وإذا جالَسَه وخالَطَهُ بَانَ حُسْنُ خُلْقِهِ.

قوله عليه السلام: عزّه بين عينيه؛ تأكيدٌ للسّابق، ويفسّرُهُ اللاّحق، أي: يظهر العزّ في وجهه أوّلاً، قبل أنْ يُعْرَف.

يقول باغته: بالباء الموحدة والغين المعجمة؛ أي: من رآه بغتةً، وفي بعض النُّسَخ: غرّة بالغين المعجمة والرّاء المهملة، ولعله من الغرّ بالفتح، بمعنى: حدّ السّيف، فيرجع إلى الأول، أو هو بالضّم بمعنى: الغرة؛ وهي: البياض في الجبهة وفي بعض النسخ: ناعته بالنون والعين المهملة...[١].

أقول: مراد قوله عليه السلام في ذيل الرواية واضح للمتأمّل؛ من كون النبيﷺ ليس لئيماً في قوله وفعله، بل ألين الناس عريكةً، فمَن خالَطَهُ أحبَّهُ وهابَهُ، وكلّ ذلك ينافي ما نُسِبَ إليه من العبوس.

٨ ـ وفي عيون أخبار الإمام الرِّضا عليه السلام بإسناده عن الحسن بن عبد الله بن

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٤٧ح٣.

سعيد العسكري عن عبد الله بن محمّد بن عبد العزيز، عن إسماعيل بن محمّد بن إسحاق بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين عليه السلام، بمدينة الرسول ﷺ، قال: حدثني الإمام عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد عليه السلام، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام قال: قال الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: سألتُ خالي هند بن أبي هالة[1] عن حلية رسول الله ﷺ، وكان وصّافاً للنبي ﷺ، فقال:

كان رسول الله ﷺ فخماً مفخَّماً، يتلألأ وجهُه تلألؤَ القمرِ ليلةَ البدرِ، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إنْ انفرقت عقيقته فرق، وإلاّ فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه، إذاً هو وفرة، أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب، سوابغ في غير قرن بينهما، له عرق يدره الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشمّ، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً متماسكاً، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر

---

(١) هو هند بن أبي هالة التميمي ربيب رسول الله ﷺ، أمه خديجة أمّ المؤمنين عليها السلام، شهد بدراً وقيل: شهد أُحُداً، وكان وصافاً لحلية رسول الله ﷺ وشمائله وأوصافه. ونحن نتوقف في نسبته إلى السيدة خديجة، بل لعلّ المذكور هو إبن أخت خديجة رضع من أمّ المؤمنين خديجة فصار ابناً بالرضاعة، فهو أخٌ لسيّدة النساء فاطمة عليها السلام لذا يصحّ أنْ يكون خالاً للإمامين الحسن والحسين عليهما السلام؛ لأنّ الصحيح عندنا أنّ أمّ المؤمنين خديجة لم تتزوج بأحدٍ قبل اقترانها برسول الله ﷺ، ولمّا تزوّجها النبي كان عمرها خمساً وعشرين سنةً، لا كما يدّعي المخالفون أنها كانت بنت أربعين سنة، وقد فصّلنا ذلك في كتابنا «أبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد»، فراجعْ.

الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سبط القصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعاً، يخطو تكفؤا، ويمشي هوناً، ذريع المشية [سريع المشية: ن]، إذا مشى كأنما ينحط في صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نَظَرُهُ إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلّ نظره الملاحظة، يبدر من لقيه بالسّلام.

قال: قلتُ: فَصِفْ لي مَنْطِقَهُ، فقال:

كان ﷺ مواصل الأحزان، دائم الفِكْرِ، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكَلِم فَصْلاً لا فضولَ فيه ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين، تعظم عنده النّعمة وإن دقّت، لا يذم منها شيئاً، غير أنّه كان لا يذم ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحقّ لم يعرفه أحدٌ، ولم يقم لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفه كلّها، وإذا تعجّب قلّبها، وإذا تحدَّثَ اتّصَلَ بها، يضرب براحته اليمنى باطنَ إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فَرِحَ غَضّ طرفه، جلّ ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام.

قال الإمام الحسن عليه السلام: فكتمتُها[1] الإمامَ الحسين عليه السلام زماناً ثم حدَّثْتُهُ،

---

(١) كتمانه صفات جده عن أخيه الإمام الحسين لا يعني بالضرورة جهله بعِلْم أخيه لصفات جدهما، فيُحمَل الكتمان على وجوه: إما لدفع شبهة الغلو عنهم فتظاهر بالجهل، فهو تجاهلٌ وليس جهلاً، وإمّا لتقيّة لا ندري ما سببها، وإما لتأكيد صفات النبي بذكر أخيه لها، وإما لإظهار إطّلاع أخيه على ما اطّلع هو عليه، كلّ ذلك بناء على صحّة صدور الرواية عنهم أو صدور هذا المقطع بالخصوص. ولفهم أخبارهم المتشابهة وطرق معالجتها عليكَ بمراجعة كتابنا: «شبهة إلقاء المعصوم نفسه في التهلكة ودحضها».

فوجدتُهُ قد سَبَقَنِي إليه، وسأله عمّا سألتُه عنه، ووجدتُهُ قد سأل أباه عن مدخلِ النبي ﷺ ومخرجِه ومجلِسِهِ وشكلِه، فلم يَدَعْ منه شيئاً.

قال المولى الإمام الحسين عليه السلام: سألتُ أبي عليه السلام عن مدخل رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: كان دخولُه لنفسه مأذوناً له في ذلك، فإذا آوى إلى منْزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاءٍ: جزءٌ لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزّأ جزءه بينه وبين الناس، فيردّ ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم منه شيئاً، وكان من سيرته في جزء الأمة: إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسّمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي، ويقول: ليبلِّغ الشاهد منكم الغائب...

فسألتُهُ عن مخرج رسول الله ﷺ كيف كان يصنع فيه؟ فقال عليه السلام: كان ﷺ يخزن لسانه إلا عمّا يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفِّرهم، ويكرم كريمَ كلّ قومٍ ويولّيه عليهم، ويحذِّرِ الناسّ ويحترس منهم من غير أنْ يطوي عن أحد بشره ولا خُلُقَه، ويتفقد أصحابَه، ويسأل الناسَ عمّا في النّاس، ويُحَسِّنُ الحَسَنَ ويُقَوِّيْهِ، ويُقَبِّحُ القبيحَ ويوهِّنَهُ، معتدلُ الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أنْ يغفلوا أو يميلوا، ولا يقصر عن الحقّ، ولا يجوزه الذين يلونه من الناس، خيارهم أفضلُهُم عندَهُ، أعمُّهُم نصيحةً للمسلمين، وأعظَمُهُم عنده منْزلةً أحسنُهُم مواساةً وموازَرَةً.

قال عليه السلام: وسألتُهُ عن مجلسه ﷺ فقال عليه السلام: كان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكْرٍ، ولا يوطن[1] الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قومْ

---

(١) أي لا يتخذ لنفسه مجلساً يُعْرَف به.

جَلَسَ حيث ينتهي به المجلسُ، ويأمر بذلك، ويعطي كلَّ جلسائِهِ نصيبه، ولا يحسب أحدٌ من جلسائه أنّ أحداً أكرم عليه منه، مَن جالسهُ صابره حتى يكون هو المنصرفُ عنهُ، مَن سألَهُ حاجةً لم يرجع إلا بها أو بميسورٌ من القول، قد وَسِعَ الناسُ منه خُلُقُهُ، وصار لهم أَبَاً، وصاروا عندَه في الحقّ سواءً، مَجْلِسُهُ مجلسُ حِلْمٍ وحياء، وصدق وأمانة، لا تُرْفَعُ فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تُنثى فلتاته، متعادلين متواصلين فيه بالتقوى، متواضعين يوقِّرُون الكبير، ويرحمون الصّغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

فقلتُ: فكيف كانت سيرته في جلسائه؟! فقال ﷺ: كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظٌ، ولا صخاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيّب فيه مؤمّليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحداً، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته ولا عثراته، ولا يتكلم إلاّ فيما رجا ثوابَه، إذا تكلّم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطّير، وإذا سكت تكلّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، إذا تكلَّمَ أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك ممّا يضحكون منه، ويتعجّب ممّا يتعجَّبُون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه، حتى أنْ كان أصحابه ليستجلبونهم، ويقول ﷺ: إذا رأيتم طالبَ الحاجةِ يطلبُها فارفدوه، ولا يقبل الثّناء إلاّ من مكافىء، ولا يقطع على أحدٍ كلامَه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام.

قال ﷺ: فسألتُهُ عن سكوت رسول اللهﷺ فقال ﷺ: كان سكوتُه على أربع: على الحِلْمِ، والحذر، والتقدير، والتفكير، فأما التّقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم في

الصبر، فكان لا يغضبه شيء، ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أَخْذُهُ الحسن ليقتدي به، وتَرْكُهُ القبيح ليُنْتَهَى عنهُ، واجتهادُهُ الرأيَ في صلاحِ أمَّتِهِ، والقيام فيما جمع لهم خير الدنيا والآخرة[1].

٩ ـ وفي معاني الأخبار ومكارم الأخلاق بسندين متّصلين بإبن أبي هالة التميمي عن أبيه عن الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال:

«سألتُ خالي هند بن أبي هالة، وكان وصّافاً للنبي ﷺ، وأنا أشتهي أنْ يصف لي منه شيئاً لعلّي أتعلّق به، فقال: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً»[2].

أقول: كونه ﷺ فخماً مفخماً يستلزم أنْ يكون على حظٍّ كبير من الأخلاق بحيث لا يصدر منه ما يُخرجه عن عَظَمَة أخلاقه الكريمة ﷺ.

١٠ ـ عن البصائر بإسناده عن الحسن بن عليّ بن النعمان، عن يحيى بن عمر، عن أبان الأحمر، عن زرارة، عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إنّا معاشر الأنبياء تنام عيوننا، ولا تنام قلوبنا، ونرى من خلفنا كما نرى من أمامِنا[3].

١١ ـ وعن عبد الله بن حامد، عن محمّد بن حمدويه، عن محمّد بن عبد الكريم، عن وهب بن جرير، عن أبيه، عن محمّد بن إسحاق، عن عبد الله بن

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٤٨ح٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ١٥٤، باب أوصافه ﷺ وشمائله. و أمّا سؤال الإمام عليه السلام عن خاله بالرّضاعة ليس جهلاً منه بأوصاف جدّه النبيّ ﷺ وإنما تجاهل، إذ كيف يخفى على الإمام الحسن شمائل جدّه ﷺ وقد عاش في كنفه المقدّس، عدا عن أنّ عِلمه عليه السلام بجدّه عن حضور لا عن كسب ونظر، فتأمّلْ.

(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ١٧٢ح٧.

عبد الرّحمان بن أبي الحسين، عن شهر بن حوشب قال: لمّا قدم رسول اللهﷺ المدينة أتاه رهطٌ من اليهود، فقالوا: إنّا سائلوكَ عن أربع خصال ـ وساق الحديث إلى أنْ قال ـ : قالوا: أخبِرْنا عن نومكَ كيف هو؟ قال: أنشدكم بالله، هل تعلمون من صفة هذا الرّجل الذي توعمون أنّي لست به تنام عينه، وقلبه يقظان؟ قالوا: اللهمّ نعم، قال ﷺ: وكذا نومي. الخبر[1].

أقول: الرّوايات في أنّ قلبه لا ينام فوق الإستفاضة، رواها العامّة والخاصّة، ومَن كان بهذا المستوى من اليقظة أو التيقظ، كيف يمكن أنْ تسري إلى أخلاقه غفلةٌ أو سِنَةٌ أو جهلٌ في حقّ مؤمنٍ جاءه طالِباً معرفة معالِم دِينِهِ؟!! فإذا ما كان رسول اللهﷺ متيقّظاً في منامه، وفي حالة حضورٍ دائم، لا يطرق روحَه سَهْوٌ أو غفلةٌ، فبطريقٍ أَوْلَى يحصل له ذلك في يقظته، فما بال هؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً!!

١٢ ـ وفي المناقب: [كان النبيﷺ قبل المبعث موصوفاً بعشرين خصلة من خصال الأنبياء، لو انفرد واحدٌ بأحدها لدلّ على جلاله، فكيف من اجتمعت فيه، كان نبياً أميناً، صادقاً حاذقاً، أصيلاً نبيلاً، مكيناً فصيحاً، نصيحاً، عاقلاً فاضلاً، عابداً زاهداً، سخياً مكيّاً، قانعاً متواضعاً، حليماً رحيماً، غيوراً صبوراً، موافقاً مرافقاً، لم يخالط منجماً، ولا كاهناً، ولا عيافاً، ولمّا قالت قريش: إنه ساحرٌ، عَلِمْنَا أنّه قد أراهم ما لم يقدروا على مثله، وقالوا: هذا مجنونٌ لمّا هجم منه على شيء لم يفكر في عاقبته منهم، وقالوا: هو كاهن؛ لأنه أنبأ بالغائبات، وقالُوا: مُعَلَّمٌ؛ لأنه قد أنبأهم بما يكتمونه من أسرارهم، فَثَبُتَ صِدْقُهُ من حيث قصدوا تكذيبه، وكان فيه خصالُ

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٩٣ح٣١.

الضّعفاء، ومن كان فيه بعضُها لا ينظم أمره، كان يتيماً فقيراً، ضعيفاً وحيداً غريباً، بلا حصار ولا شوكة، كثير الأعداء، ومع جميع ذلك تعالى مكانه، وارتفع شأنه، فدلّ على نبوّته ﷺ، وكان الجلف البدويّ يرى وجهه الكريم فيقول: والله ما هذا وجه كذّاب، وكان ﷺ ثابتاً في الشدائد وهو مطلوب، وصابراً على البأساء والضرّاء وهو مكروبٌ محروب، وكان زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، فَثَبُتَ له الملك، وكان يشهد كلُّ عضوٍ منه على معجزة:

نوره: كان ﷺ إذا مشى في ليلةٍ ظلماءَ بدا له نورٌ كأنّه قمر، قالت عائشة: فَقَدْتُ إبرةً ليلةً، فما كان في منْزلي سراجٌ، فدخل النبي ﷺ، فوجدتُ الإبرة بنور وجهه.

حمزة بن عمر الأسلمي قال: نفرنا مع النبي ﷺ في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعُهُ عرفة.

جابر بن عبد الله: إنه كان لا يمر في طريق، فيمر فيه إنسان بعد يومين، إلا عرف أنه عبر فيه.

مسلم: كان النبي ﷺ يقيل عند أم سلمة، فكانت تجمع عرقه وتجعله في الطيب.

عبد الجبار بن وائل، عن أبيه قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بدلو من ماء، فشرب ثم توضأ فتمضمض، ثم مجّ مَجَّةً في الدّلو، فصار مِسْكاً أو أطيبَ من المِسْكِ.

ظله: لم يقع ظلّه على الأرض؛ لأن الظّل من الظلمة، وكان إذا وقف في الشمس والقمر والمصباح نوره يغلب أنوارها.

قامته: كلّما مشى مع أحدٍ كان أطول منه برأس، وإنْ كان طويلاً.

رأسه: كان يظله سَحَابَةٌ من الشمس، وتسير لمسيره، وتركد لركوده، ولا يطير الطيرُ فَوْقَهُ.

عينيه: كان يبصر من ورائه كما يبصر من أمامه، ويرى من خلفه كما يرى من قدامه.

أنفه: لم يشم به منذ خلقه الله تعالى رائحةً كريهةً.

فمه: كان يمجّ في الكوز والبئر، فيجدون له رائحةً أطيبَ من المسك.

لسانه: كان ينطق بلغاتٍ كثيرة.

محاسنه: كانت فيه سبع عشرة طاقة نور يتلألأ في عوارضه.

أذنيه: كان يسمع في منامه كما يسمع في انتباهه، ويسمع كلامَ جبرئيل عند الناس ولا يسمعونه.

ربيع الأبرار: إنّه دخل أبو سفيان على النبيﷺ وهو يقاد، فأحسّ بتكاثر الناس، فقال في نفسه: واللاّت والعزّى يا ابن أبي كبشة لأملأنّها عليكَ خَيْلًا ورجلاً، وإني لأرجو أنْ أرقى هذه الأعواد، فقال النبيﷺ: أويكفينا الله شرّكَ يا أبا سفيان.

صدره: لم يكن على وجه الأرض أعلم منه.

ظهره: كان بين كتفيه خاتم النبوّة، كلّما أبداه غطّى نورُهُ نورَ الشّمس، مكتوبٌ عليه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له تَوَجَّهْ حيثُ شِئتَ فأنتَ مَنْصُوْرٌ.

في حديث جابر بن سمرة: رأيتُ خاتمه غضروف كتفيه مثل بيض الحمامة.

وسئل الخدري عنه فقال: بضعة ناشزة.

أبو زيد الأنصاري: شَعْرٌ مجتمِعٌ على كتفيه.

السائب بن يزيد: مثل زرّ الحجلة، ولما شك في موت رسول الله ﷺ وضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه فقالت: قد توفي رسول الله ﷺ، قد رُفِعَ الخَاتَم.

بطنه: كان يشدّ عليه الحجر من الغرث، فيشبع قلبه، كان تنام عيناه ولا ينام قلبه.

يداه: فار الماء من بين أصابعه، وسبّح الحصى في كفِّهِ.

ركبه: وُلِدَ مسروراً مختوناً، وما احتلم قَط؛ لأن ذلك من الشّيطان، وكان له شهوة أربعين نبيّاً.

جلوسه: عائشة قلت: يا رسول الله إنك تدخل الخلاء فإذا خرجت دخلتُ على أثرك فما أرى شيئاً، إلاّ أني أجدُ رائحةَ المِسْك، فقال ﷺ: إنّا معاشر الأنبياء تنبت أجسادنا على أرواح الجنة، فما يخرج منه شيء إلاّ ابتلعته الأرض.

وتبعه رجل علم مراده فقال ا: إنّا معاشر الأنبياء لا يكون منّا ما يكون من البشر.

أمّ أيمن: أصبح رسول الله ﷺ فقال: يا أمَّ أيمن قومي فاهرقي ما في الفخارة، يعني البول، قلت: والله شربتُ ما فيها وكنتُ عطشى، قالت: فضحك حتى بدت نواجذُهُ ثم قال: أمَا إنّك لا تنجع بطنُكِ أبداً.

ومنه حديث دم الفصد.

فخذه: كل دابة ركبها النبيﷺ بقيت على سنها لا تهرم قط.

رجليه: أرسلهما في بئر ماؤه أجاج فعذب.

قوته: كان لا يقاومه أحد.

إسحاق بن بشار: إن ركانة بن عبد بن زيد بن هاشم كان من أشدّ قريش فحلاً، فقال له النبيﷺ في وادي أصم: يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوكَ إليه، قال: إني لو أعلم أنّه حق لاتّبعتك، فقال النبيﷺ: أفرأيت إنْ صرعتك أتعلم أنّ ما أقول حقّ؟ قال: نعم، قال: قم حتى أصارعك، قال: فقام إليه ركانة فصارعه، فلمّا بطش به رسول اللهﷺ أضجعه، قال: فعد، فعاد، فصرعه، فقال: إنّ ذا لعجب يا قوم، إنّ صاحبكم أسحر أهل الأرض.

حرمته: كان القمر يحرِّكَ مهدَهُ في حال صباه، وكان لا يمرّ على شجرةٍ إلا سَلَّمَت عليه، ولم يجلس عليه الذباب، ولم تدنُ منه هامة ولا سامة.

مشيه: كان إذا مشى على الأرض السَّهْلَة لا يبينُ لقدمَيْهِ أَثَرٌ، وإذا مشى على الصَّلْبَة بانَ أثَرُهُما.

هيبته: كان عظيماً مهيباً في النفوس حتى ارتاعت رُسُلُ كِسْرَى، مع أنه كان بالتّواضع موصوفاً، وكان محبوباً في القلوب، حتّى لا يقليه مصاحب، ولا يتباعد عنه مقارِبٌ، قال السديّ في قوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾: لَمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة، قالوا: ما صنعنا قتلناهم حتى لم يبقَ منهم إلا الشّريد تركناهم، إذ همّوا وقالوا: ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرُّعْبَ حتى رجعوا عمّا همّوا.

ورُوِيَ أنَّ الكفارَ دخلوا مكة كالمنهزمين؛ مخافة أنْ يكون له الكرّة عليهم، وقال ﷺ: نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾؛ وذلك أنّ النبي ﷺ لَمّا قصد خيبر وحاصر أهلها، هَمَّت قبائلُ من أسد وغطفان أنْ يغيروا على أهل المدينة، فكفذ الله عنهم؛ بإلقاء الرُّعْبِ في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾؛ وقال ﷺ: لم نخلُ في ظفر إما في ابتداء الأمر وإما في انتهائه، وكان جميل بن معمر الفهري حفيظاً لما يسمع، ويقول: إنّ في جوفي لقلبين أعقل بكلّ واحدٍ منهما أفضل من عقل محمّد، فكانت قريش تسمّيه ذا القلبين، فتلقّاه أبو سفيان يوم بدر وهو آخذٌ بيده إحدى نعليه والأخرى في رجله، فقال له: يا با معمّر ما الخبر؟ قال: انهزموا، قال: فما حال نعليك؟ قال: ما شعرت إلا أنها في رجلي لهيبة محمّدٍ، فنَزل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

أمير المؤمنين عليه السلام:

وينصر الله من لاقاه إنّ له ... نصراً يمثّل بالكفّار إذ عندوا][1].

١٣ ـ [وفي المناقب عن الترمذي في الشمائل والطبري في التاريخ، والزمخشري في الفائق، والفتال في الروضة، رووا صفة النبي ﷺ بروايات كثيرة منها عن أمير المؤمنين عليه السلام، وابن عباس، وأبي هريرة، وجابر بن سمرة، وهند بن أبي هالة، أنّه كان ﷺ فخماً مفخماً، في العيون معظماً، وفي القلوب مكرماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أزهر منور اللون، مشرباً بحمرة،

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٧٥ ـ ١٨٠ح١٩.

لم تزر به مقلة، لم تعبه ثجلة، أغر أبلج، أحور أدعج، أكحل أزج، عظيم الهامة، رشيق القامة، مقصّداً واسع الجبين، أقنى العرنين، أشكل العينين، مقرون الحاجبين، سهل الخدين صلتهما، طويل الزندين، شبح الذراعين، عظيم مشاشة المنكبين، طويل ما بين المنكبين، شثن الكفين، ضخم القدمين، عاري الثديين، خمصان الأخمصين، مخطوط المتنين، أهدب الأشفار، كثّ اللحية، ذا وفرة، وافر السبلة، أخضر الشمط، ضليع الفم، أشم أشنب، مفلج الأسنان، سبط الشعر، دقيق المسربة، معتدل الخلق، مفاض البطن، عريض الصّدر، كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، سائل الأطراف، منهوس العقب، قصير الحنك، داني الجبهة، ضرب اللحم بين الرجلين، كان في خاصرته انفتاق، فَعِمُ الأوصال، لم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير الشائن، ولا بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردّد، ولا بالجعد القطط، ولا بالسبط، ولا بالمطهم، ولا بالمكلثم، ولا بالأبيض الأمهق، ضخم الكراديس، جليل المشاش، كَنوز المنخر، لم يكن في بطنه ولا في صدره شَعْرٌ إلا موصل ما بين اللبة إلى السّرة كالخطّ، جليل الكتد، أجرد ذا مسربة، وكان أكثر شيبه في فودي رأسه، وكأنّ كفّه كفّ عطّار مسّها بطيب، رحب الراحة، سبط القصب، وكان إذا رضي وسرّ فكأن وجهه المرآة، وكان فيه شيءٌ من صور، يخطو تكفّؤاً ويمشي الهوينا، يبدأ القوم إذا سارع إلى خير، وإذا مشى تقلع كأنما ينحدر في صبب، إذا تبسّم يتبسّم عن مثل المنحدر عن بطون الغمام، وإذا افترّ افترّ عن سنا البرق إذا تلألأ، لطيفُ الخلق، عظيم الخلق، ليِّنُ الجانب، إذا طلع بوجهه على النّاس رأوا جبينه كأنه ضوء السِّرَاج المتوقِّد، كأنّ عرقه في وجهه اللؤلؤ، وريح عرقه أطيب من ريح المسك الأذفر، بين كتفيه خاتم النبوة[١].

---

(١) خاتم النبوة: وهو غدّة حمراء مثل بيضة الحمامة، كانت بين كتفي رسول اللهﷺ.

أبو هريرة: كان يقبل جميعاً، ويدبر جميعاً.

جابر بن سمرة: كانت في ساقه حموشة.

أبو حجيفة: كان قد سمط عارضاه وعنفقته بيضاء.

أم هاني: رأيتُ رسولَ الله ﷺ ذا ضفائر أربع، والصحيح أنّه كان له ذؤابتين، ومبدؤها من هاشم.

أنس: ما عددت في رأس رسول الله ﷺ ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء، ويُقال: سبع عشرة.

إبن عمر: إنّما كان شيبة نحواً من عشرين شعرة بيضاء.

البراء بن عازب: كان يضرب شعره كتفيه.

أنس: له لمّة إلى شحمة أذنيه.

عائشة: كان شعره فوق الوفرة ودون الجمة][1].

أقول: سبحان مَن عدَّله في قوام جسمه، كيف لا يعدّله في قوام روحه، مع ارتفاع المانع وقابليّة الموضع والمقتضي؟!! فما اعتدال خَلْقِهِ إلاّ لاعتدال روحه ونفسه، ما أعظمه من عظيم، وما أجلّه من جليل!

١٣ ـ وفي تفسير العيّاشي بإسناده إلى صفوان الجمّال، عن المولى أبي عبد الله عليه السلام، وعن سعد الإسكاف، عن المولى أبي جعفر عليه السلام قال:

[جاء أعرابيٌّ أحدَ بني عامر، فسأل عن النبي ﷺ فلم يجده، قالوا: هو بقزح، فطلبه فلم يجده، قالوا: هو بمنى، قال: فطلبه فلم يجده، فقالوا: هو

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٨٠ ـ ١٨٢ح٢٠.

بعرفة، فطلبه فلم يجده، قالوا: هو بالمشاعر، قالوا: فوجده في الموقف، قال: حلّوا لي النبي ﷺ، فقال الناس: يا أعرابي ما أنكرك، إذا وجدت النبي ﷺ وسط القوم وجدته مفخّماً، قال: بل حلّوه لي حتى لا أسأل عنه أحداً، قالوا: فإن نبي الله أطول من الرّبعة وأقصر من الطّويل الفاحش، كان لونه فضّة وذهب، أرجل الناس جمّة، وأوسع الناس جبهةً، بين عينيه غرّة، أقنى الأنف، واسع الجبين، كثّ اللحية، مفلّج الأسنان، على شفته السفلى خالٌ، كأنّ رقبته إبريق فضّة، بعيد ما بين مشاشة المنكبين، كأنّ بطنه وصدره سبل سبط البنان، عظيم البرائن، إذا مشى مشى متكفّئاً، وإذا التَفَتَ التَفَتَ بأجمَعِهِ، كأنّ يده من لينها متن أرنب، إذا قام مع إنسان لم ينفتل حتى ينفتل صاحبه، وإذا جلس لم يحلّ حبوته حتى يقوم جليسه.

فجاء الأعرابي، فلمّا نظر إلى النبي ﷺ عرفه، قال بمحجنه على رأس ناقة رسول الله ﷺ عند ذنب ناقته، فأقبل الناس تقول: ما أجرأك يا أعرابي؟ قال النبي ﷺ: دعوه فإنه أرب [أي: أديب]، ثم قال: ما حاجتك؟ قال: جاءتنا رسلُكَ تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتحجّوا البيتَ، وتغتسلوا من الجّنَابَةِ، وبعثني قومي إليكَ رائداً، أبغي أنْ أستحلفك، وأخشى أنْ تغضبَ، قال ﷺ: لا أغضب، إنّي أنا الذي سمّاني الله في التوراة والإنجيل محمّد رسول الله، المجتبى المصطفى، ليس بفحّاشٍ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يتبع السّيئة السّيئة، ولكن يتبع السيئة الحسنة، فسلني عمّا شئتَ، وأنا الذي سمّاني الله في القرآن: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾، فَسَلْ عمّا شئتَ.

قال: إن الله الّذِي رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ هو أرسلك؟

قال ﷺ: نعم، هو أرسلني.

قال: بالله الذي قامت السماوات بأمره، هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ، وأرسَلَكَ بالصّلاة المفروضة، والزّكاة المعقولة؟

قال ﷺ: نعم.

قال: وهو أَمَرَكَ بالإغتسال من الجنابة، وبالحدود كلّها؟

قال ﷺ: نعم.

قال: فإنّا آمنّا بالله، ورُسُلِهِ، وكتابِهِ، واليومِ الآخِرِ، والبعثِ، والميزانِ، والموقِفِ، والحلالِ، والحرامِ، صغيرِهِ وكبيرِهِ.

قال: فاسْتَغْفَرَ له النبي ﷺ ودَعَا][1].

أقول: قوله ﷺ: «ولا يتبع السيئة الشيئة، ولكن يتبع السيئة الحسنة»؛ إشارة واضحة على أنّه لم يعامل إنساناً قَطّ بما عامَلَه ذلك الإنسان بالسيّئة، فكيف برجلٍ مؤمنٍ كإبن أمّ مكتوم، لم يُقابل رسولَ الله ﷺ، في حين أنّ النبي ﷺ لم يجازِ أحداً بسيّئةٍ أساءها إليه ﷺ؟!!

١٤ ـ روى الكازوروني في المنتقى عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ ـ واصفاً الرسول الأكرم ﷺ ـ قال: لم يكن بالطّويل الممَغَّط، ولا القصير المتردّد، كأنّه ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسّبط، كان جعداً رجلا، ولم يكن بالمطهّم، ولا المكلثم، وكان في الوجه تدويرٌ أبيضٌ مشرّب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، أجرد، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى يتقلّع، كأنما يمشي في صبب، وإذا التَفَتَ التَفَتَ جميعُهُ، بين كتفَيْهِ خاتَمُ النّبوّة، وهو خاتم النبيّين، أجودُ النّاسِ كَفّاً، وأرحبُ النّاسِ

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٨٤ح٢١.

صَدْرَاً، وأصدقُ النّاسِ لهجةً، وأوفى النّاسِ ذِمَّةً، وألينُهم عريكةً، وأكرمُهُم عِشْرَةً، مَن رآه بِدِيْهَةٍ هابَهُ، ومَن خَالَطَهُ معرفة أحبَّهُ، يقول ناعتُهُ: لم أر قبلَه ولا بعده مثلَهُ[1].

١٤ ـ وفي الغارات بإسناده عن إبراهيم بن محمّد من ولد أمير المؤمنين عليعليه السلام، قال: كان عليعليه السلام إذا نعت النبيﷺ قال: لم يكُ بالطوّيل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكُ بالجعد القطط، ولا السبط، كان جعداً رجلا، ولم يكُ بالمطهّم ولا المكلثم، وكان في الوجه تدويراً أبيضَ مشرَّب، أدعج العين، أهدبُ الأشفار، جليل المشاش والكتد، أجرد ذا مسربة، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلّع، كأنّما يمشي في صَبَبْ، وإذا التفت التفت معاً، بين كتفَيْهِ خاتم النّبوّة، وهو خاتم النبيّين، أجود الناس كَفَّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفى الناس ذِمَّةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عِشرةً، بأبي مَن لم يشبع ثلاثاً متواليةً من خبز برّ حتّى فارق الدنيا، ولم ينخل دقيقه[2].

أقول: كونه ﷺ: «أكرم النّاس عِشرةً وأصدقَهم لهجةً، وأليَنهم عريكةً» يتنافى مع إلصاق العبوس به، فيُطرح لمخالفته لثوابت أخلاقه قبل النبوّة وبعدها، بل تتأكّد أخلاقه الكريمة بعد بعثته تأكيداً للحجة، وإتماماً للمحجّة، ولكونه قدوة حسنة يتأسّى بها أفراد الرعيّة، فتأمَّلْ.

١٦ ـ وفي مجمع البيان قال: «ومن عجيب أمره ﷺ أنّه كان أجمع الناس لدواعي الترفّع، ثمّ كان أدناهم إلى التواضع، وذلك أنه ﷺ كان أوسط الناس

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٩٠.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ١٩٤ح٣٣.

نسباً، وأوفرهم حسباً، وأسخاهم، وأشجعهم، وأزكاهم، وأفصحهم، وهذه كلّها من دواعي الترفّع، ثم كان من تواضعه أنّه كان يرقع الثّوب، ويخصف النعل، ويركب الحمار، ويعلف الناضح، ويجيب دعوة المملوك، ويجلس في الأرض، ويأكل على الأرض، وكان يدعو إلى الله من غير زبر ولا كهر ولا زجر، ولقد أحسن مَن مَدَحَهُ في قوله:

فما حملت من ناقة فوق ظهرها أبرّ وأوفى ذمّة من محمّد][1].

١٧ ـ وفي المجمع تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال: أي أعرِض عنهم عند قيام الحجّة عليهم، والأياس من قبولهم، ولا تقابلهم بالسّفه صيانةً لقدرك»[2].

١٨ ـ وفي أمالي الصَّدوق بإسناده عن إبن إدريس، عن أبيه، عن ابن عيسى، عن محمد بن يحيى الخزاز، عن موسى بن إسماعيل، عن أبيه، عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

إنّ يهوديّاً كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فتقاضاه، فقال له ﷺ: يا يهوديّ ما عندي ما أعطيك.

فقال: فإنّي لا أفارقُكَ يا محمَّد حتى تقضيني.

فقال ﷺ: إذاً أجلس معك.

فجلس معه حتى صلّى في ذلك الموضع الظّهر والعصر والمغرب والعشاء

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٩٩.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٠٠، نقلاً عن مجمع البيان.

الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهدّدونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله ﷺ إليهم، فقال ﷺ: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله يهوديّ يحبسك؟ فقال ﷺ: لم يبعثني ربّي عزّ وجل بأنْ أظلم معاهداً ولا غيره، فلمّا عَلاَ النّهار، قال اليهودي: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أمَا والله ما فعلتُ بكَ الذي فعلت إلاّ لأنظُرّ إلى نعتِكَ في التّوراة، فإنّي قرأتُ نعتَكَ في التّوراة: محمّد بن عبد الله مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب، ولا متزيّن بالفحش ولا قول الخناء، وأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّك رسولُ الله ﷺ، وهذا مالي، فاحْكُمْ فيه بما أنزل الله، وكان اليهودي كثير المال، ثم قال عليه السلام: كان فراشُ رسول الله ﷺ عباءة، وكانت مرفقته أُدُم، حَشْوُهَا لِيْف، فثنيت له ذات ليلة، فلمّا أصبح... فأمر ﷺ أن يجعل بطاقٍ واحدٍ[1].

أقول: تباً لأولئك الأشرار الذين نسبوا العبوس إلى رسول الله ﷺ لقلّة حلمه وصبره على فقير يريد معرفة أحكام دِينه، في حين كان يصبر على اليهودي والنصراني وعابد الوثن، ولو قلنا لأولئك أنّ أحد ساداتكم وكبرائكم أو أحد مراجعكم الكبار أو مؤسّس مذهبكم صبر على عابد وثن ولم يصبر على مؤمن به وبدينه ومذهبه، لحكموا علينا بالفسق والفجور أو الكفر؛ لكوننا تجرّأنا على مَن يحبّون ويعتقدون، وإليه يميلون... فإذا لم يجيزوا لمن يحبّون نسبة السُّوءِ إليه، فكيف يجيزون لرسول الله نسبة النقص وسوء الخُلُق، وهو سيّد خلق الله، وخاتم أنبيائه ورُسُله؟!!!

١٩ ـ وفي تفسير القمّي بإسناده عن إبن أبي عمير، عن عبد الله بن سنان

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢١٦ح٥.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ في بيت أمّ سلمة في ليلتها، ففقدتْهُ من الفراش، فدخلها في ذلك ما يدخل النساء، فقامَتْ تطلبُه في جوانب البيت، حتى انتهت إليه، وهو في جانب من البيت، قائم رافع يديه يبكي وهو يقول: اللهم لا تنْزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم لا تشمت بي عدواً ولا حاسداً أبداً، اللهم ولا تردَّني في سوء استنقذتني منه أبداً، اللهم ولا تكلني إلى نفسي طَرْفَةَ عَيْنٍ أبداً، قال: فانصَرَفَتْ أمُّ سَلَمَة تبكي، حتى انصرف رسولُ الله ﷺ لبكائها، فقال لها: ما يبكيكِ يا أم سلمة؟ فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ولِمَ لا أبكي وأنتَ بالمكان الذي أنتَ به من الله، قد غفر الله لكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، تسأله أنْ لا يشمتَ بكَ عدوّاً أبداً، وأنْ لا يردَّكَ في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينْزع منك صالحاً أعطاك أبداً، وأنْ لا يَكِلَكَ إلى نفسك طَرْفَةَ عَيْنٍ أبداً، فقال: يا أمّ سَلَمَة، وما يؤمنني، وإنّما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان[1].

أقول: قوله ﷺ: «اللهمّ لا تنْزع مني صالح ما أعطيتني أبداً» و«اللهمّ ولا تردّني في سوء استنقذتني منه أبداً، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» فيه دلالة لمَن تدبّر أنّ النبي ﷺ كان يطلب من الله تعالى أنْ لا يسلب منه ما أعطاه من خصال الخير، كما يتمنى منه عزّ وجلّ أنْ لا يكله إلى نفسه طرفة عين أبداً، وحيث إنّ الله تعالى جوادٌ كريم، وجوده وكرمه عام، وحيث إنّ قابليّة النبي واسعة، لذا فإنّ الله تعالى ذكره لا يسلب منه ما أعطاه من الخير بمقتضى قابليّة القابل وجود الكريم عزّ وجلّ، وعليه فطلبه ﷺ تأكيدٌ لِمَا كان عليه من الخير، ولو صدر منه عبوس أو نفور بطاعة، لَمَا صحّ أنْ يدعو الله عزّ وجلّ أنْ لا يسلبه شيئاً ممّا أعطاه سابقاً، فتأمَّلْ.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢١٧ح٦.

وبالجملة؛ فإنّ رسول اللهﷺ كان عالِماً عامِلاً بكلّ ما أمره به الله عزّ وجلّ فلم يفته شيء من العمل، لذا أراد منه أنْ يثبت على ما أعطاه بحيث لا يركن إلى نفسه، وحاشاه ﷺ من ذلك؛ لأنّ الرّكون إلى النفس ليس من صفات العابدين المطيعين، فكيف بمن كان سيّد العابدين الطائعين!!

٢٠ ـ وفي المحاسن بإسناده، عن أبيه، عن النوفلي، عن أبيه، عن الإمام أبي عبد اللهعليه السلام قال: قال رسول اللهﷺ: خلق الله العقلَ فقال له: أَدْبِرْ فأَدْبَرْ، ثم قال له: أَقْبِلْ فأَقْبَلْ، ثم قال: ما خلقتُ خَلْقَاً أحبّ إليَّ منكَ، فأعطى الله محمَّداً تسعة و تسعين جزءاً، ثم قسَّمَ بين العبادِ جزءاً واحداً[1].

أقول: إذا ما كان النبيﷺ بهذا المستوى من الكمال العقلي، فهل يُتَصَوَّر في حقّه العبوس في وجه مؤمنٍ في حين أنّ العبوس بتلك الصّفة من جنود الشيطان؟!! وهل يُعْقَل أنْ يشارك النبيﷺ جنودَ الشيطان في العبوسَ الذي ذمّه الله عزّ وجلّ عليه؟!! لا أعتقد مؤمناً يتصوّر ذلك!!

٢١ ـ وفي المناقب قال: أما آدابه ﷺ فقد جمعها بعض العلماء، والتقطها من الأخبار: كان النبيﷺ أحكم الناس، ، وأحلمهم، وأشجعهم، وأعدلهم، وأعطفهم، لم تمس يده يد امرأة لا تحل، وأسخى الناس لا يثبت عنده دينار ولا درهم، فإن فضل، ولم يجد من يعطيه، ويجنّه الليل، لم يأوِ إلى منْزله حتى يتبرَّأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من يسير ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله، ولا يُسأل شيئاً إلا أعطاه، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه، حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام إنْ لم يأته شيء، وكان يجلس على الأرض، وينام عليها، ويأكل عليها، وكان

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٢٤ح٢٦.

يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشاة، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيا، ويضع طهوره بالليل بيده، ولا يتقدمه مطرق، ولا يجلس متكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم، وإذا جلس على الطعام جلس محقّراً، وكان يلطع أصابعه، ولم يتجشأ قط، ويجيب دعوة الحر والعبد ولو على ذراع أو كراع، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، لا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربه، ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، لا يلبس ثوبين، يلبس برداً، حبرة يمنية، وشملة جبة صوف، والغليظ من القطن والكتان، وأكثر ثيابه البياض، ويلبس العمامة، ويلبس القميص من قبل ميامنه، وكان له ثوب للجمعة خاصة، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً، وكان له عباء يفرش له حيث ما ينقل تثني ثنيتين، يلبس خاتم فضّة في خنصره الأيمن، يحبّ البطيخ، ويكره الرّيح الرّديّة، ويستاك عند الوضوء، يردف خلفه عبده أو غيره، يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار، ويركب الحمار بلا سرج وعليه العذار، ويمشي راجلاً، وحافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، ويشيّع الجنائز، ويعود المرضى في أقصى المدينة، يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويناولهم بيده، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم، يصل ذوي رحمه من غير أنْ يؤثرهم على غيرهم إلا بما أمر الله، ولا يجفو على أحدٍ يقبل معذرة المتعذّر إليه، وكان أكثر الناس تبسُّماً ما لم ينْزل عليه قرآن أو لم تجرِ عظة، وربما ضحك من غير قهقهة، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكلٍ ولا مَلْبَسٍ، ما شَتَمَ أحداً بشتمةٍ، ولا لعن امرأة ولا خادماً بلعنةٍ، ولا لاموا أحداً إلا قال: دعوه، ولا يأتيه أحدٌ حرٌّ أو عبدٌ أو أَمَةٌ إلاّ قام معه في حاجته، لا فظ، ولا غليظ، ولا

صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يغفر ويصفح، يبدأ مَن لقيه بالسّلام، ومَن رامَه بحاجة صابرة، حتى يكون هو المنصرف، ما أخذ أحدٌ يده فيرسل يده حتى يرسلها، وإذا ألقى مسلماً بدأه بالمصافحة، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله، وكان لا يجلس إليه أحدٌ وهو يصلي إلا خفّف صلاتَه وأقبل عليه، وقال: ألك حاجة، وكان أكثر جلوسه أنْ ينصب ساقيه جميعاً، يجلس حيث ينتهي به المجلس، وكان أكثر ما يجلس مستقبلَ القِبلة، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته، وكان في الرِّضا والغضب لا يقول إلا حقّاً، وكان يأكل القثاء بالرطب والملح، وكان أحبّ الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب، وأكثر طعامه الماء والتمر، وكان يتمجع اللبن بالتمر، ويسميهما الأطيبين، وكان أحبّ الطعام إليه اللحم، ويأكل الثّريد باللّحم، وكان يحبّ القرع، وكان يأكل لحم الصيد، ولا يصيده، وكان يأكل الخبز والسمن، وكان يحب من الشّاة الذّراع والكتف، ومن القدر الدّباء، ومن الصباغ الخل، ومن التّمر العجوة، ومن البُقول الهندباء، والباذروج، والبقلة اللينة[١].

أقول: من خلال هذا السّرد الأحوالي الخاص برسول اللهﷺ، يتضح لذي لبٍّ أنّه ﷺ لم يتغيَّر يوماً عن صفةٍ من تلكم الصّفات الجميلة، حيث يستشفّ منها الإطلاق المقامي والأحوالي والزّماني، فصفاته الحميدة لم تكن يوماً من الأيّام غير الصفات التي نشأ وترعرع عليها، فلم تؤثر فيه بيئة الجاهليّة وتقاليدها وأعرافها وأخلاقها، بل أثّر فيها وغيَّرَ رجالَها وقلب موازينها رغماً عنها.

٢٢ ـ وفي مكارم الأخلاق عن أنس بن مالك قال: خدمتُ النبيﷺ تسع

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٢٦ح٣٤.

سنين، فما أعلمُهُ قال لي قطّ: هلاّ فعلتَ كذا وكذا، ولا عاب عَلَيَّ شيئاً قَطّ.

وعن أنس بن مالك قال: صحبتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، وشممتُ العطر كلّه، فلم أشم نكهةً أطيب من نكهته، وكان إذا لقيه واحدٌ من أصحابه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرّجل ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه، فتناول يده، ناولها إياه، فلم ينْزع عنه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع عنه، وما أخرجَ ركبَتَيْهِ بين جليسٍ له قط، وما قعد إلى رسول الله ﷺ رجلٌ قط فقام حتى يقوم.

وعن أنس بن مالك قال: إنّ النبي ﷺ أدركه أعرابيٌّ فأخذ بردائه، فجبذه جبذةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحة عُنُقِ رسولِ الله ﷺ وقد أثَّرَت به حاشية الرّداء من شدّة جبذته، ثم قال له: يا محمد مرّ لي من مال الله الذي عندك، فالتفَتَ إليه رسولُ الله ﷺ، فضحك وأمر له بعطاء.

عن أبي سعيد الخدري يقول: كان رسول الله ﷺ حيياً لا يُسأل شيئاً إلاّ أعطاه.

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه.

**سخاؤه وجوده:**

عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس كفّاً، وأكرَمَهُم عِشْرَةً، مَن خالطه فعرفه أحبَّهُ.

من كتاب النبوة، عن إبن عباس عن النبي ﷺ قال: أنا أديب الله، وعليٌّ

أديبِي، أمرني ربّي بالسَّخَاء والبِرّ، ونهاني عن البخل والجَّفَاء، وما شيءٍ أبغض إلى الله عزّ وجلّ من البخل وسوء الخُلُق، وإنه ـ أي سوء الخُلُق ـ ليفسد العملَ كما يفسد الطّينُ العسلَ.

وبرواية أخرى عن أمير المؤمنينعليه السلام كان إذا وصف رسولَ اللهﷺ قال: كان أجودَ النّاس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفاهم ذمةً، وألينَهم عريكة، وأكرمَهم عِشْرَةً، ومَن رآه بديهة هابَهُ، ومَن خالطَهُ فعَرَفَهُ أَحَبَّهُ لم أرَ مثلَهُ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ][1].

## في جُملٍ من أحواله وأخلاقه:

من كتاب النبوة عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه السلام قال: ما صافح رسولُ اللهﷺ أحداً قط فنَزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينْزع يده، وما فاوضه أحدٌ قَطّ في حاجةٍ أو حديثٍ فانصرف حتى يكون الرّجل ينصرف، وما نازعهُ الحديثَ حتى يكون هو الذي يسكت، وما رأى مقدَّماً رِجْلَهُ بين يَدَيْ جليسٍ له قَطّ، ولا عرض له قط أمران إلا أخذ بأشدّهما، وما انتصر نفسه من مظلمةٍ حتى ينتهك محارم الله فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى، وما أكل متّكِئاً قَطّ حتى فارق الدّنيا، وما سُئِلَ شيئاً قَطّ فقال لا، وما ردّ سائلاً حاجة إلا بها أو بميسورٍ من القول، وكان أخف الناس صلاةً في تمام، وكان أقصرُ الناس خطبة، وأقله هذراً، وكان يُعْرَفُ بالرّيح الطّيب إذا أقبل، وكان إذا أكل مع القوم كان أوّل مَن يبدأ وآخر من يرفع يده، وكان إذا أكل أكل مما يليه، فإذا كان الرّطب والتمر جالت يدُهُ، وإذا شرب شرب ثلاثة أنفاسٍ، وكان يمصّ الماءَ مصّاً ولا يعبّه عبّاً، وكان يمينه لطعامه وشرابه وأَخْذِهِ وإِعْطَائِهِ، كان لا

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

يأخذه إلاّ بيمينه، ولا يعطي إلا بيمينه، وكان شمالُه لما سوى ذلك من بدنه، وكان يحب التيمّن في كلّ أموره: في لبسه وتنعّله وترجّله، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا تكلّم تكلّم وِتراً، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً، وكان كلامه فصلاً يتبيّنه كلّ مَن سمعه، وإذا تكلم رأى كالنّور يخرج من بين ثناياه، وإذا رأيتَه قلتَ: أفلج الثنيتين وليس بأفلج، وكان نظره اللحظ بعينه، وكان لا يكلّم أحداً بشيءٍ يكرهه، وكان إذا مشى ينحطّ من صبب، وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً، وكان لا يذمّ ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا يتنازع أصحابه الحديث عنده، وكان المحدِّث عنه يقول: لم أرَ بعيني مثلَه قبله ولا بعده ﷺ.

عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ إذا رئي في الليلة الظَّلْمَاء رئي له نُورٌ كأنَّه شقة قمر[1].

وعن عائشة قال: قلت: يا رسول الله لو أنَّكَ إذا دخلت الخلاء فخرجتَ دخلتُ في أثرك فلم أرَ شيئاً خرج منكَ غير أنّي أجد رائحةَ المِسْك!!! قال ﷺ: يا عائشة إنّا معشر الأنبياء ينبت[2] أجسادنا على أرواحِ أهلِ الجَنَّةِ، فما خرج مِنَّا منْ شَيْءٍ، ابتلعَتْهُ الأرض.

وعن إبن عباس قال: إن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر، وهو على حصير قد أثَّرَ في جَنْبَيْهِ، فقال: يا نبيَّ الله، لو اتخذتَ فِرَاشَاً!! فقال ﷺ: ما لي وللدُّنيا، ما مثلي ومثل الدّنيا إلا كراكبٍ سار في يومٍ صائِفٍ، فاستَظَلَّ تحت شجرةٍ ساعةً من نهارٍ، ثم راحَ وتَرَكَهَا[3].

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) في نسخة: «بُنِيَت».

(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٣٩.

تعقيب: إذا كان جسده الشريف ﷺ نبت على أرواح أهل الجنّة فلا يخرج منه إلاّ الطّاهر الطيّب، فما بالكَ بروحه الشريفة، فهل تظنّ ـ أخي القارئ ـ بمَن كان هكذا صفته أنْ يصدر منه خلاف أخلاق أهل الجنّة؟!!!

٢٣ ـ وفي الكافي بإسناده إلى ابن أبي عمير، عن إبن أذينة، عن زرارة، عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: دخل يهودي على رسول الله ﷺ، وعائشة عنده. فقال: السَّام عليكم، فقال رسول الله ﷺ: عليك.

ثم دخل آخر، فقال مثل ذلك، فرَدَّ عليه كما رَدَّ على صاحبه، ثم دخل آخر، فقال مثل ذلك، فرَدَّ رسول الله ﷺ كما رَدَّ على صاحبه، فغَضِبَتْ عائشة، فقالَتْ: عليكم السَّام والغضب واللعنة يا معشر اليهود، يا إخوة القردة والخنازير، فقال لها رسول ﷺ: يا عائشة إنّ الفحش لو كان ممثَّلاً لكان مثال سوء، إنّ الرّفق لم يوضع على شيء قط إلاّ زانه، ولم يرفع عنه قط إلاّ شانه، قال: قالت: يا رسول الله أَمَا سَمِعْتَ إلى قولهم السّام عليكم؟ فقال ﷺ: بلى، أَمَا سَمِعْتِ ما رَدَدْتُ عليهم!! قلتُ: عليكم، فإذا سلَّم عليكم مُسْلِمٌ فقولوا: السَّلام عليكم، وإذا سلَّم عليكم كافرٌ فقولوا: عليك[1].

تعقيب: هل يُعقَل أنْ يرفق رسولُ الله ﷺ بيهوديٍّ سلَّم عليه بالسّام ـ الموت ـ ولا يرفق بإبن أمّ مكتوم المؤمن؟! فكيف يأمر بالرِّفق وهو لم يرفق بمؤمنٍ كإبن أمّ مكتوم؟!! ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥].

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٥٨ح٤٣.

٢٤ ـ وفي الكافي بإسناده إلى محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الوشاء، عن جميل بن دراج، عن المولى الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يقسّم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا و ينظر إلى ذا بالسَّوِيَّة، قال عليه السلام: ولم يبسط رسول الله ﷺ رِجْلَيْهِ بين أصحابه قَطّ، وإنْ كان ليصافحُهُ الرَّجُلُ فما يترك رسولُ الله ﷺ يدَهُ من يدِهِ حتى يكونَ هو التاركُ، فلمّا فطنوا لذلك كان الرَّجُلُ إذا صافحه قال بيده، فنَزعها من يده[١].

وفي الكافي بإسناده إلى محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن عمر بن عبد العزيز، عن جميل، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يقَسِّمُ لحظاتِه بين أصحابه، ينظر إلى ذا و ينظر إلى ذا بالسَّوِيَّة[٢].

أقول: من وفور أخلاقه الكريمة أنّه ﷺ كان يقسّم نظره بين أصحابه حرصاً منه على أنْ لا يخدش بمشاعر أحدهم، ولكون التقسيم من أصول العدل والإنصاف، فكيف يصحّ ـ إذاً ـ إلصاق العبوس بأحد أصحابه، مقدِّماً المشركين عليه، أهذا هو العدل الذي كان مشهوراً به بين أصحابه؟!! حاشا لرسول الله أنْ يخلّ بموازين الحِلْم والعدل من أجل بعض صناديد قريش الذين ما دخلوا في الإسلام بعدما صدر منه بحقّ صاحبه إبن أمّ مكتوم.

٢٥ ـ وفي الكافي بإسناده إلى عنبسة بن مصعب، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعتُه يقول: أتي النبي ﷺ بشيءٍ فقَسَّمَهُ، فلم يَسَع أهلَ الصّفة جميعاً، فخصّ به أناساً منهم، فخاف رسول الله ﷺ أنْ يكون قد دخل قلوب الآخرين شيءٌ، فخرج إليهم، فقال: معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم يا أهل

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠ح٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٨٠ح١٢١.

الصفة؛ إنّا أوتينا بشيءٍ فأردنا أنْ نُقَسِّمَهُ بينكم فلم يسعكم، فَخَصَصْتُ به أُنَاسَاً منكم؛ خشينا جَزَعَهُم وهَلَعَهُم[1].

أقول: لقد اعتذر رسول اللهﷺ من بعض أهل الصفة لعدم تمكنه من إعطائهم بعض العطايا تقديماً لأحوجهم عليهم، فكيف يمكن أنْ يصدر منه ما يوجب تقريعَه وتوبيخه في سورة تُتلى آناء الليل وأطراف النهار؟! فإذا كان بهذه الدّرجة من المراقبة في توزيع العطايا، فلِمَ لا يكون كذلك في مراعاة مشاعر مَن طلب معرفة دِينه خالِصاً مخلِصاً لا يريد درهماً ولا ديناراً ولا طعاماً ولا شراباً، أفهل كان أهل الصفة أفضل حالاً من إبن أمّ مكتوم حتى خشى جزعهم وهلعهم، ولم يخشَ هلع ذاك التقيّ؟!!

٢٦ ـ وفي نهج البلاغة قال سيّد الخلائق وإمام المتقين أمير المؤمنين عليعليه السلام: إلى أنْ بعث الله سبحانه محمداﷺ لإنجاز عدته، وتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلادُهُ[2].

وقال عليه السلام في موضِعٍ آخر: حتّى بعث الله محمداﷺ شهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البريّة طفلاً، وأنجبها كهلاً، أطهر المطَهَّرين شيمةً، وأجود المستمطرين ديمةً[3].

وقال عليه السلام في موضِعٍ ثالث: ولقد كان في رسول اللهﷺ كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذمّ الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قُبِضَتْ عنهُ أطرَافُهَا، ووطئت لغيره أكنافها، وفطم من رضاعها، وزُوِيَ عن زخارفها

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٦٩ح٨١.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٨٤ح١٣٤.

(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٨٤ح١٣٥.

وساقها، إلى قوله ﷺ: فتأسَّ بنبيِّكَ الأطهر الأطيب ﷺ؛ فإنّ فيه أسوةً لِمَن تأسّى، وعزاءً لِمَن تعزّى، وأحبّ العباد إلى الله تعالى المتأسّي بنبيه ﷺ، والمقتصّ لأثره، قضم الدّنيا قضماً، ولم يعرها طرفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم من الدنيا بطناً، عُرِضَتْ عليه الدنيا فأبى أنْ يقبلَها، وعَلِمَ أنّ الله سبحانه أَبْغَضَ شيئاً فأَبْغَضَهُ، وحَقَّرَ شيئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شيئاً فَصَغَّرَهُ، ولو لم يكن فينا إلاّ حبّنا ما أُبْغِضَ الله، وتعظيمنا ما صُغِّرَ الله، لكفى به شقاقا لله ومحادة عن أمر الله، ولقد كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته، فتكون فيه التصاوير، فيقول: يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيِّبِيْهِ عنّي؛ فإنّي إذا نظرتُ إليه ذكرت الدّنيا وزخارفها، فأَعْرَضَ عن الدّنيا بقلبِهِ، وأماتَ ذِكْرَهَا من نفسِهِ، وأَحَبَّ أنْ تغيبَ زينتها عن عينه؛ لكيلا يتّخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيَّبَهَا عن البصر، وكذلك مَن أبغض شيئاً أبغض أنْ ينظر إليه، وأنْ يذكر عنده، ولقد كان في رسول الله ﷺ ما يدلّك على مساوي الدّنيا وعيوبها: إذ جاع فيها مع خاصته، وزُوِيَتْ عنه زخارفُها، مع عظيم زلفته، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بعقْلِهِ: أَكْرَمَ الله محمدا ﷺ بذلك أم أهانه!! فإنْ قال: أهانه، فقد كَذَبَ والعظيمِ، وإنْ قال: أكرَمَهُ، فَلْيَعْلَم أنّ الله قد أهانَ غيرَهُ، حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس منه، فتأسى متأسٍّ بنبيِّهِ، واقتصّ أثره، وولج مولجه، وإلاّ فلا يأمَن الهَلَكَة، فإن الله جعل محمدا ﷺ علماً للسّاعة، ومبشّراً بالجنة، ومنذِراً بالعقوبة، خرج من الدّنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منه الله عندنا؛ حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه وقائدا

نطأ عقبه[١].

تعقيب: كونه ﷺ أسوةً حسنة لا يصحّ أنْ تكون بعد نزول سورة عبس، بل يشمل ما قبل البعثة وبعد البعثة، وهو مقتضى إطلاق الأسوة في كلّ أحواله وأزمانه حسبما أشرنا سابقاً فلا نعيد.

٢٧ ـ وفي نوادر الرّاوندي بإسناده عن الإمام المعَظَّم موسى بن جعفرعليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليعليه السلام: بينا رسول اللهﷺ يتوضّأ إذ لاذ به هِرُّ البيت، وعرف رسول اللهﷺ أنّه عطشان، فأصغى إليه الإناء حتى شرب منه الهِرّ، و توضّأ بفضله[٢].

أقول: شدّة عطفه ورحمته ﷺ اقتَضَتْ أنْ لا يتوضّأ حتى يسقي الهِرّ، أيعقل أنْ يردّ العبدَ المؤمن إبن أمّ مكتوم دون أنْ تأخذه فيه رأفة أو رقّة؟!! وهل الرقّة والعطف على الحيوان أولى منها على إبن أمّ مكتوم؟!!!

٢٧ ـ وفي المناقب قال: كان ﷺ يمزح ولا يقول إلاّ حقّاً، ومن مزاحه الحكيم أنّه قال للعجوز الأشجعيّة: يا أشجعيّة لا تدخل العجوز الجَنَّة، فرآها بلال باكيةً، فوصفها للنبيﷺ، فقال: والأسود كذلك، فجلسا يبكيان، فرآهما العبّاس، فذكرهما له، فقال: والشيخ كذلك، ثمّ دعاهم وطيّب قلوبهم، وقال: ينشئهم الله كأحسن ما كانوا، وذكر أنهم يدخلون الجنّة شبّاناً منوَّرين، وقال: إنّ أهل الجَنَّة جرد مرد مكحَّلون.

وقالت له ﷺ عجوز من الأنصار: أُدعُ لي بالجنّة، فقال عليه السلام: إنّ الجنّة لا

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٨٤ح١٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٩٣ح١٦٠، وأصغى الإناء: أماله.

يدخلها العُجّز، فَبَكَتْ المرأة فضحك النبي وقال: أَمَا سمِعْتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٦](١).

أقول: لقد كان النبي ﷺ يمرِّر حِكَمَهُ من خلال المزحة، فكان مزاحه عِلْماً وتعليماً للجّاهلين وتطييباً لخواطرهم، فلِمَ لم يساوِ إبن أمّ مكتوم بهم، فيعلّمه بمزحةٍ تثلج فؤاده وتطيب خاطرَه، فتكون سُنّة من بعده لأمّته كيف يتعاطون مع العميان بنا يُناسب حالهم ولا يزعج بالَهم؟!! وهل كُتِبَ على الضرير إبن أمّ مكتوم أنْ يُجابَه بعبوسٍ في وجهٍ لم يعْرِف إلاّ الإبتسامة ﷺ «أنّه إذا حَدَّثَ بحديثٍ تبسم في حديثه»(٢)، وورد عنه ﷺ أنّه كان يداعب الرّجُلَ يريد به أنْ يسرَّه(٣).

٢٨ ـ وفي الخصال بإسناده إلى ابن الوليد، عن الصفار، عن محمد بن عبد الجبار، عن الحسن بن علي بن فضال، عن ظريف بن ناصح، عن إبراهيم بن يحيى قال: حدثني الإمام جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: قَسَّمَ الله تبارك وتعالى أهلَ الأرضِ قِسْمَيْن: فجعلني في خيرهما، ثمّ قَسَّمَ النِّصْفَ الآخرَ على ثلاثة: فكنت خيرَ الثلاثة، ثم اختار العربَ من الناس، ثم اختار قريشاً من العرب، ثم اختار بني هاشم من قريش، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم، ثم اختارني من بني عبد المطلب(٤).

أقول: حيث إنّ رسول الله ﷺ في خير قسمٍ خَلَقَهُ الله تعالى كيف يمكن

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٩٨ نقلاً عن مكارم الأخلاق.
(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٢٩٨ نقلاً عن مكارم الأخلاق.
(٤) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٢١ح١٠.

صدور حرام منه يوجب التوبيخ والتقريع؟! ودعوى أنّ عبوسه ﷺ مكروه كان ينبغي أنْ يتنزَّه عنه، مردودة بالأصل القرآني في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ إذ إنّ الفعل المكروه خلاف الرّحمة وخلاف التطهير، فتأَمَّلْ.

٢٩ ـ وفي عيون أخبار الإمام الرِّضا عليه السلام للصّدوق، عن الإمام الرِّضا عليه السلام عن آبائه الطاهرين عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيّد وِلْد آدم ولا فخر[1].

أقول: كونه ﷺ سيّدَ وِلد آدم يقتضي أفضليته عِلْماً وعَمَلاً على عامّة الأنبياء والمرسَلين عليهم السلام، وهو بالضّرورة يستلزم عدم جواز صدور العبوس منه بوجه ضرير فقيرٍ مؤمنٍ؛ وذلك لعدم ثبوت ما يدلّ على أنّ أحداً من الأنبياء عبس في وجه ضريرٍ من أتباعه؛ لكون العبوس في تلك الحالة قبيحاً لا يجوز صدوره من معصوم، فإذا ثبتتْ فضيلة ما للأنبياء الأدوَن منه ﷺ، ثبتت له ﷺ بطريقٍ أَولى، وحيث لم يصدر عبوسٌ من نبيٍّ بوجه مؤمنٍ تقيٍّ، فلا يصدر ذلك من رسول الله ﷺ بطريقٍ أَولَى.

٣٠ ـ وفي الإحتجاج مرسَلاً عن إبن عبّاس أنّ النبي ﷺ إحتجَّ على وفد اليهود بأنه أفضل من عامّة الأنبياء عليهم السلام، فقال ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ صلّى عَلَيَّ في كتابه قال الله»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ثمّ وصفني تعالى بالرّأفة والرّحمة وذكر في كتابه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٢٥ح٢١.

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨][1].

أقول: إنّ العبوس بوجه مؤمنٍ ضرير خلاف الرّأفة والرّحمة، فلا يصحّ صدوره من مؤمنٍ تقيٍّ، فضلاً عن سيّد المؤمنين وعامّة الخلق أجمعين محمّد رسول الله ﷺ، ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

٣١ ـ وفي تعداد فضائه وشمائله ﷺ وأنّه فارَقَ النبيين بمئة وخمسين خصلة، منها في باب النبوّة، قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقوله: «أعطيت جوامع الكلم» وقوله: «أرسلت إلى الخلق كافة»، وبقاء دولته: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، والعجز عن الإتيان بمثل كتابه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾، وكان ممنوعاً من الشّعر وروايته: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، وتسهيل شريعته: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وأضعاف ثواب الطاعة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، ورفع العذاب: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، وفرض محبّة أهل بيته: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وفي باب أمّته: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني الملائكة، وإفشاء السّلام: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

وفي باب الطّهارة: كمال الوضوء، والتيمُّم، والإستنجاء بالحجارة، وأنّ الماء مزيلٌ للنّجاسات، وأن لا يؤثّر النّجاسة في الماء الكثير، وقوله: جُعِلَتْ لي الأرضُ مسجداً، وترابها طهوراً، وكان ينام ثم يصلّي ويقول: «تنام عيني ولا ينام قلبي»، ويقال: فرض عليه السّواك وهو قد سنّه لنا.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٢٩ح٢٥.

وفي باب الصلاة: الأذان والإقامة، والجمعة والجماعة، والركوع والسجدتين، والتشهُّد والسّلام، وصلاة الليل والوتر، وصلاة الكسوفين والإستسقاء، وصلاة العشاء الآخرة.

وفي باب الزكاة: حرّم عليه الزّكاة، والصَّدَقَة، وهديّة الكافر، وأحلّ له الخُمس والأنفال والغنيمة، وجعل زكاة المال ربع الخمس لا ربع المال.

وفي باب الصيام: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وليلة القدر، والعيدين، وتحليل الطّعام والشراب، واللمس ليال الصيام إلى وقت الصبح، وحرّم صوم الوصال، وقالوا: أبيح له الوصال في الصّوم، وكتب عليه الأضحية وسنّها لنا، وكذلك الفطرة على وجه.

وفي باب الحج يقال: أحلّ له دخول مكّة بغير إحرام، وعقد النكاح وهو محرم.

وفي باب الجهاد: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ وقوله: «نُصِرْتُ بالرُّعب، وأُحِلَّت لِيَ الغنائم، وكان إذا لبس لامته لم ينْزَعها حتى يقاتل، ولا يرجع إذا خرج، ولا ينهزم إذا لقي العدوّ وإنْ كثروا عليه، وإنه أفرس العالمين، وخُصَّ بالحِمَى».

وفي باب النكاح: حُرِّمَ عليه نكاح الإماء والذمّيات، والإمساك بمن كرهت نكاحه، وحَرُمَ أزواجه على الخَلْق، وخُصَّ بإسقاط المهر، والعقد بلفظ الهبة، والعدد ما شاء بعد التخيير، والعزل عمن أراد، وكان طلاقه زائداً على طلاق أمّته، والواحدة من نسائه إذا أتت بفاحشة ضعف لها العذاب.

الإمام أبو عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ يعني قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الآية.

وفي باب الأحكام: تخفيف الأمر على أمّته، والقربان بغير الفضيحة، وتيسير التوبة بغير القتل، وستر المعصية على المذنب، ورفع الخطاء والنسيان وما استكره عليه، والتخيير بين القصاص والدية والعفو، والفرق بين الخطاء والعمد، والتوبة من الذّنب دون إبانة العضو، وتحليل مجالسة الحائض والانتفاع بما نالته، وتحليل تزويج نساء أهل الكتاب لأمّته.

وفي باب الآداب لم يكن له خائنة الأعين؛ يعني الغمز بالعين، والرّمز باليد، وحَرَّم عليه أكل الثوم على وجه.

وفي باب الآخرة: وذلك أنّه أوّل مَن تنشقّ عنه الأرضُ، وأوّل مَن يدخل الجَنَّة، وأنّه يشهد لجميع الأنبياء بالأداء، وله الشّفاعة، ولواء الحمد، والحوض، والكوثر، ويسأل في غيره يوم القيامة، وكلّ الناس يسألون في أنفسهم، وأنه أرفع النبيّين دَرَجَةً، وأكثرهم أمّةً(١).

تعقيب: إذا كان من خصاله ﷺ ستر المعصية على المذنب، ورَفْعَ العقوبة عن المخطئ والنّاسي والمُكْرَه، فكيف جاز له ﷺ ـ بحسب دعوى المخالِفين ـ أنْ يعاقِبَ إبن أمّ مكتوم على ما ارتكبه من خطأ معه ﷺ؟!! وكيف لم يستر عليه معصيته التي جناها على نفسه؟!!

٣٢ ـ وفي المناقب أيضاً ذكر اثنين وعشرين خاصية للنبي ﷺ فقال: كان أحسن الخلائق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾، وأجملهم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾، وأطهرهم: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا﴾، وأفضلهم: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وأعزّهم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾، و أشرفهم: ﴿إِنَّآ

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٣٢ح٢٧.

أَرْسَلْنَٰكَ﴾، وأظهر معجزةً: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾، وأهيب الناس: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾، وأكملهم سعادةً: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾، وأكرمهم كرامةً: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾، وأقربهم منزلةً: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾، وأقواهم نصرةً: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا﴾، وأصحهم رؤيا: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾، وأكملهم رسالةً: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وأحسنهم دعوةً: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، وأعصمهم عصمةً: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾، وأبعدهم صيتاً: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، وأحسنهم خُلُقاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، وأبقاهم ولايةً: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وأعلاهم خاصّيَّةً: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، وأجلّهم خليفةً: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وأطهرهم أولاداً: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾.

وإنّ الله تعالى وضع ثلاثة أشياءٍ على هوى الرّسول: الصّلاة: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، والشفاعة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، والقِبْلة: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾، كقول الناس: من حبّ فلان لفلان أنّه إنْ أمره بتحويل القِبلة لحوّلها، وأعطى التوراة لموسى ﷺ، والإنجيل لعيسى ﷺ، والزبور لداود ﷺ.

وقال النبي ﷺ: أُوْتِيتُ السَّبْعَ الطِّوَال مكان التّوراة، والماءين مكان الإنجيل، والمثاني مكان الزبور، وفَضّلَني ربّي بالمفصّل، وإنّه شاركه مع نفسه في عشرة مواضع: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

ومن جلالة قَدْرِهِ أنّ الله نسخ بشريعته سائرَ الشّرائع، ولم ينسخ شريعتَهُ، ونهى الخَلْقَ أنْ يَدْعُوْهُ باسمه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾، وإنما كان ينبغي أنْ يدعى له: يا أيّها الرّسول، يا أيّها النبيّ، ولم يُأْذَنْ بالجَهْرِ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، وإنّ الله تعالى أرسل سائرَ الأنبياء إلى طائفة دون أخرى قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، كما قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾، قريةً واحدةً لم يكمل له أربعين بيتاً ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ ولم تكمل أربعين بيتاً ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ إلى مصر وحدها، وأرسل إبراهيم عليه السلام بكوثى(*)، وهي قرية من السّواد، وكان بعده لإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام في أرض كنعان، ويوسف عليه السلام في أرض مصر، ويوشع عليه السلام إلى بني إسرائيل في البريّة، وإلياس عليه السلام في الجبال، وأرسل نبينا ﷺ إلى الناس كافّة قوله: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾، وإلى الجنّ أيضاً قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وإلى الشياطين أيضاً قال ﷺ: «إن الله أعانني على شيطان حتّى أَسْلَمَ على يَدَيَّ» «قوله» ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾، وقال: قوله ﷺ: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود والأبيض»، وقال ﷺ: «بُعِثْتُ إلى الثقلين».

وإنّه علق خمسة أشياء باتّباعه: المحبة: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ﴾، والفلاح: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والهداية: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، والرَّحْمَة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ﴾ الآية.

وإنّه مدح كلّ عضوٍ من أعضائه: نفسه: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾، رأسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، شعره: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، عينه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾،

---

(*) كوثى هي في أرض بابل العراق، وفيها ولد خليل الرّحمان وبها طُرِحَ في النّار.

بصره: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾، أُذُنُه: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، لسانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، كلامه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾، وجهه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، خدّه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾، فؤاده: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾، قلبه: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، صدره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، ظهره: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾، يده: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾، قيامه: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾، صوته: ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، رجله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا﴾ يعني طأ الأرض بِقَدَمَيْك، روحه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾، خُلُقُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، ثوبه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، عِلْمُهُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، صلاته: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، صومه: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، كتابه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾، دينه: ﴿دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أمّته: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، قِبلَتُهُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾، بلده: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾، قضاياه: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، جنده: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾، عزّته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾، عصمته: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، شفاعته: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، صلابته: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، وَصِيُّهُ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أهلُ بيتِهِ: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[1].

**٣٣ ـ وفي إرشاد القلوب بإسناده مرفوعاً إلى الإمام موسى بن جعفرعليه السلام قال:**

**قال: حدثني أبي جعفر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، قال: حدثني أبي علي عليه السلام قال: حدثني أبي الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال:**

**بينما أصحاب رسول اللهﷺ جلوسٌ في مسجده بعد وفاته عليه السلام يتذاكرون فضلَ رسول اللهﷺ، إذ دخل علينا حبرٌ من أحبار يهود أهل الشّام قد قرأ التّوراة**

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٣٤ ـ ٣٣٩ح٢٨.

والإنجيل والزّبور وصحف إبراهيم والأنبياء، وعرف دلائلهم، فسلَّمَ علينا وجلس، ثم لبث هنيئة، ثم قال: يا أمّة محمَّد ما تركتم لنبيٍّ درجة، ولا لمرسَلٍ فضيلةً، إلاّ وقد تحمّلتموها لنبيّكُم، فهل عندكم جواب إنْ أنا سألتُكُم؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سَلْ يا أخا اليهود ما أحبَبْتَ، فإنّي أجيبُكَ عن كلِّ ما تسأل بعون الله تعالى ومَنِّه، فو الله ما أعطى الله عزّ وجلّ نبيّاً ولا مرسَلاً درجةً ولا فضيلةً إلاّ وقد جمعها لمحمدﷺ، وزاده على الأنبياء والمرسَلين أضعافاً مضاعَفَةً، ولقد كان رسول اللهﷺ إذا ذَكَرَ لنفسه فضيلةً قال: ولا فخر، وأنا أذكر لكَ اليوم من فَضلِهِ من غير إزراءٍ على أحدٍ من الأنبياء، ما يقرّ الله به أعينَ المؤمنين، شكراً لله على ما أعطى محمداﷺ الآن، فاعلم يا أخا اليهود إنّه كان من فضله عند ربّه تبارك وتعالى وشرفه ما أوجب المغفرة والعفو لمَن خفض الصّوت عندَه فقال جل ثناؤه في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾، ثمّ قرن طاعته بطاعته فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾، ثم قرّبه من قلوب المؤمنين، وحَبَّبَهُ إليهم، وكان يقول ﷺ: حبّي خالطَ دماءَ أمّتي، فهم يؤثروني على الآباء، وعلى الأمهات، وعلى أنفسهم، ولقد كان أقرب النّاس وأرأفهم فقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، والله لقد بلغ من فضله ﷺ في الدّنيا ومن فضله ﷺ في الآخرة ما تقصُرُ عنه الصفاتُ، ولكن أخبرك بما يحمله قلبُكَ، ولا يدفَعُهُ عقلُكَ، ولا تنكِرُهُ بِعِلْمٍ إنْ كان عندَكَ:

لقد بلغ من فضله ﷺ أنّ أهل النّار يهتفون ويصرخون بأصواتهم ندماً أن لا يكونوا أجابوه في الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ

يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾، ولقد ذكره الله تبارك وتعالى مع الرّسول، فبدأ به وهو آخرهم؛ لكرامته ﷺ، فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾، وقـال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، والنبيّون قبله، فبدأ به وهو آخرهم، ولقد فَضَّلَه الله على جميع الأنبياء، وفَضَّلَ أُمَّتَهُ على جميع الأمم، فقال عزّ وجلّ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

فقال اليهودي: إنّ آدمعليه السلام أسجد الله عزّ وجلّ له ملائكتَهُ، فهل فَضَّلَ لمحمدﷺ مثل ذلك؟

فقال عليه السلام: قد كان ذلك، ولئن أسجد الله لآدم ملائكته؛ فإنّ ذلك لِمَا أودَعَ الله عزّ وجلّ صلبَهُ من الأنوار والشَّرَف، إذ كان هو الوعاء، ولم يكن سجودهم عبادةً له، وإنّما كان سجودُهُم طاعةً لأمرِ الله عزّ وجلّ، وتَكْرِمَةً وتحيَّةً مثل السَّلام من الإنسان على الإنسان، واعترافاً لآدمعليه السلام بالفضيلة، وقد أعطى الله محمداﷺ أفضل من ذلك وهو: أنّ الله صلى عليه، وأَمَرَ مَلاَئِكَتَهُ أنْ يُصَلُّوا عليه، وتَعَبَّدَ جميعَ خلقه بالصّلاة عليه إلى يوم القيامة، فقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، فـلا يصلّي عليه أحدٌ في حياته ولا بعد وفاته إلا ﷺ بذلك عشراً، وأعطاه من الحسنات عشراً بكلّ صلاة صلّى عليه، ولا يصلّي عليه أحد بعد وفاته إلا وهو يعلم بذلك ويرد على المصلّي والمسلّم مثل ذلك.

ثم إن الله عزّ وجلّ جعل دعاء أمَّتِهِ فيما يسألون ربهم جل ثناؤه موقوفاً عن الإجابة حتى يصلّوا فيه عليه ﷺ، فهذا أكبر وأعظم مما أعطى الله آدم عليه السلام، ولقد أنطق الله عزّ وجلّ صم الصّخور والشّجر بالسّلام والتّحية له، وكنّا نمرّ

معه ﷺ فلا يمرّ بشعب ولا شجر إلا قالت: السَّلام عليكَ يا رسول الله؛ تحيّةً له، وإقراراً بنبوّته ﷺ.

وزاده الله عز وجلّ تَكرِمَةً؛ بأَخذِ ميثاقِهِ قبل النبيّين، وأَخذِ ميثاق النبيّين بالتّسليم والرّضا والتصديق له، فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، فلا يرفع رافعٌ صوتَه بكلمةِ الإخلاص، بشهادة أنْ لا إله إلاّ الله، حتى يرفع صوته معها بأنّ محمَّداً رسولُ الله في الأذان والإقامة والصّلاة والأعياد والجُمَع، ومواقيت الحج، وفي كلّ خطبة، حتى في خطب النّكاح، وفي الأدعية.

ثمّ ذكر اليهوديّ مناقب الأنبياء وأمير المؤمنين عليه السلام، يثبت للنبي ﷺ ما هو أعظم منها، تركنا ذكرها طلباً للاختصار، حتى وصل إلى أنْ قال اليهودي: فإنّ الله عزّ وجلّ ناجى موسى على جبلِ طور سيناء بثلاثمائة وثلاث عشرة كلمة، يقول له فيها: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ فهل فعل بمحمَّد شيئاً من ذلك؟

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: لقد كان كذلك، ومحمد ﷺ ناجاه الله جل ثناؤه فوقَ سبع سماوات رفعه عليهنّ، فناجاه في موطنَيْن: أحدهما: عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى، وكان له هناك مقامٌ مَحْمُودٌ، ثم عرج به حتى انتهى إلى ساق العرش، فقال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨)﴾، ودنا له رفرفاً أخضر، أغشي عليه نورٌ عظيمٌ، حتّى كان في دنوّه كقابَ قوسَيْن أو أدنى، وهو مقدارُ ما بين الحاجب

إلى الحاجب...[١].

أقول: مَن كان جامعاً لمثل هذه الخصال كيف يمكن أنْ يصدر منه العبوس المزعوم بوجه إبن أمّ مكتوم؟!! فإذا لم تكن هذه الخصال عاصمةً له ﷺ من الخطايا والهفوات، فأيُّ شيء يعصمه يا تُرى؟!! حاشا لفؤاد رسول اللهﷺ أنْ يتلوّث بمكروه أو خطأ...

٣٤ ـ وفي الإختصاص بإسناده عن جماعة من أصحابنا، عن محمد بن جعفر المؤدب، عن عدة من أصحابنا، عن إبن أبي الخطاب، عن إبن أسباط، عن الحسن بن زياد، عن صفوان الجمّال، عن الإمام أبي عبد اللهعليه السلام قال:

قال لي يا صفوان: هل تدري كم بعث الله من نبيّ؟ قال: قلت: ما أدري، قال: بعث الله مائة ألف نبي وأربعة وأربعين ألف نبيّ، ومثلهم أوصياء بصدق الحديث، وأداء الأمانة، والزّهد في الدّنيا، وما بعث الله نبيّاً خيراً من محمدﷺ، و لا وصيّاً خيراً من وصيّه[٢].

أقول: بما أنّ رسول اللهﷺ أفضل الأنبياء والرّسل، وبما أنّ هؤلاء الرُّسُل عليهم السلام لم يصدر منهم عبوسٌ في وجه مؤمنٍ ضرير، يثبت بهذا أنّ النبيﷺ لم يصدر منه عبوس في وجه إبن أمّ مكتوم، لكونه ﷺ وريثاً لعامّة الأنبياء عليهم السلام في خصال الخير والكمال، فَتَأَمَّلْ.

٣٥ ـ وفي التوحيد ومعاني الأخبار للصدوق رحمه الله، بإسناده عن إبراهيم بن هارون الهيتي، عن محمد بن أحمد بن أبي الثلج، عن الحسين بن أيوب، عن

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٤١ح٣٣، والحديث طويل جدّاً.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٢ح٣٥.

محمد بن غالب، عن علي بن الحسين، عن الحسن بن أيوب، عن الحسين بن سليمان، عن محمد بن مروان الذهلي، عن الفضيل بن يسار قال:

قلتُ: للمولى الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال عليه السلام: كذلك الله عزّ وجلّ.

قال: قلتُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾.

قال لي عليه السلام: محمد ﷺ.

قلتُ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾.

قال عليه السلام: صَدْرُ محمد ﷺ.

قلتُ: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

قال عليه السلام: فيه نور العِلْم، يعني النبوّة.

قلتُ: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾.

قال عليه السلام: عِلْمُ رسول الله ﷺ، صَدَرَ إلى قَلْبِ علي عليه السلام.

قلتُ: ﴿كَأَنَّهَا﴾.

قال عليه السلام: لأيّ شيء تَقرأ كَأَنَّها؟

قلتُ: وكيف؟ جُعِلْتُ فِدَاكَ.

قال عليه السلام: كأنّه كوكبٌ دُرِّيٌّ.

قلتُ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

قال عليه السلام: ذاك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لا يهوديّ ولا نصرانيّ.

قلتُ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾.

قال ﷺ: يكاد العِلْمُ يخرج من فم العالِم من آلِ محمَّد مِن قبل أنْ يَنْطِقَ بِهِ.

قلتُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾.

قال ﷺ: الإمام على أثر الإمام[1].

وعن عبد الله بن جندب، عن الإمام عليّ بن موسى الرِّضا ﷺ أنّه كتب إليه: مثلنا في كتاب الله كمثل «المشكوة» والمشكاة في القنديل، فنحن المشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾، المصباح محمّد رسول الله ﷺ: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾، من عنصره الطاهرة، إلى قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ لا دعيّة ولا منكرة، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ القرآن ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ إمام بعد إمام ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ الآية؛ فالنّور عليّ، يهدي الله لولايتنا مَن أحبّ، حَقٌّ على الله أنْ يبعثَ وليّنا مُشْرِقاً وجهُهُ، نيّراً بُرْهَانُهُ، ظاهرةً عند الله حجّته. الخبر[2].

وعن محمّد بن الحسين، عن إبن سنان، عن عمار بن مروان، عن المنخّل، عن جابر، عن الإمام أبي جعفر ﷺ: قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فهو محمد ﷺ، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ وهو العِلْم، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ فزعم أنّ الزجاجة أمير المؤمنين ﷺ وعِلْمُ نبيّ الله عندَه[3].

وعن محمّد الرقاشي قال: كتبتُ إلى الإمام أبي محمّد ﷺ أسألُه عن

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٥ح٤٢.
(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٦ح٤٣.
(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٦ح٤٤.

المشكاة، فرجع الجواب: المشكاة قَلْبُ محمد ﷺ[١].

أقول: كونه ﷺ نوراً بذاته، ومشكاة النور الإلهي، لا يجوز إلصاق العبوس به، لكون العابس بوجه الضرير ظلمة وضلال، وهما خلاف النّور والهداية، فتَدَبَّرْ.

٣٦ ـ وفي كنْز الفوائد بإسناده عن عبد الله بن سليمان قال: قلت للإمام أبي عبد الله عليه السلام: قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾؟ قال عليه السلام: البرهان رسول الله ﷺ، والنور المبين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٢].

تعقيب: البرهان أو النّور أو المشكاة لا يجتمع مع الهفوات والأخطاء، فتَأَمَّلْ جيّداً.

٣٧ ـ وعن الكافي بإسناده إلى أحمد بن مهران، عن محمَّد بن عليّ ومحمَّد بن يحيى، عن أحمد بن محمَّد جميعا، عن محمَّد بن سنان، عن المفضل، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: ما جاء به علي عليه السلام آخذ به، وما نهى عنه أنتهي عنه، جرى له من الفضل ما جرى لمحمد ﷺ، ولمحمد ﷺ الفضل على جميع مَن خلق الله. الخبر[٣].

تعقيب: صدور العبوس منه ـ على فرض حصوله ـ خلاف الفضل في الكمالات، وهو تناقض في أقوال المعصومِين عليهم السلام يستحيل صدوره منهم؛ لإقتضائه العبثيّة في الأحكام والشّرائع.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٦ح٤٥.
(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٧ح٤٦.
(٣) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٥٨ح٥١.

٣٨ ـ وفي عيون أخبار الإمام الرِّضا عليه السلام بإسناده إلى إبن عبدوس، عن إبن قتيبة، عن حمدان بن سليمان، عن الهروي، عن الإمام الرِّضا عليه السلام في خبر طويل قال: إنّ آدم عليه السلام لّما أكرمه الله تعالى بإسجاد ملائكته وبإدخال الجنة قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل منّي؟ فعلم الله عزّ وجلّ ما وقع في نفسه، فناداه: إرْفَعْ رأسَكَ يا آدم، فانْظُرْ إلى ساقِ عرشي، فرفع آدم عليه السلام رأسه، فنظر إلى ساق العرش، فوجد عليه مكتوباً: لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله، عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيّدة نساء العالمين والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة، فقال آدم عليه السلام: يا ربّ مَن هؤلاء؟ فقال عزّ وجلّ: هؤلاء من ذريتك، وهم خيرٌ مِنْكَ ومن جميع خَلْقِي، ولولاهم ما خلقتُكَ ولا خَلَقْتُ الجَنَّةَ والنّار، ولا السّماء والأرض، فإيّاك أنْ تنظر إليهم بعين الحسد؛ فأخرِجُكَ عن جواري، فنظر إليهم بعين الحسد وتمنّى منْزلتهم، فَتَسَلَّطَ عليه الشّيطان حتى أكل من الشّجرة التي نهى عنها، وتسلّط على حوّاء لنظرها إلى فاطمة عليها السلام بعين الحَسَد حتى أكلت من الشّجرة كما أكلّ آدم، فأخرجهما الله عزّ وجلّ عن جنته، وأهبطهما عن جواره إلى الأرض[١].

**تعقيب هامٌّ:**

دلالة الحديث على شرافة فضل رسول الله وأهل بيته عليهم السلام، وأنّه عزّ وجلّ خلق الكائنات لأجلهم واضحة لا غبار عليها، وهو يقتضي كمالهم في كلّ شيء، وعدم جواز نسبة النقص إليهم بشيء على الإطلاق، ونهي الله جلّ وعلا لآدم عن أنْ ينظر إليهم بعين الحسد محمولٌ على أمرين على سبيل منع الخلو:

إمّا أنه خطاب لآدم عليه السلام، ويُقصد به ولد آدم عليه السلام. وإمّا يُراد به تمنّي

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٦٢ح٦٢.

درجتهم لا بقصد زوال النعمة منهم عليهم السلام، فيكون المراد بالحسد الغبطة التي لا ينبغي صدورها منه لاستحالتها عليه، بمعنى يستحيل وصوله عليه السلام إلى درجتهم، فيكون بذلك تمنى المستحيل، وهو أمر لا ينبغي صدوره من آدم صفوة الله تعالى، كما يؤيّده قول الإمام عليه السلام في الرّواية: «وتمنّى منزلتهم»، والإحتمال الثاني ظاهر من الرّواية بعكس الأول.

٣٩ ـ وفي إرشاد القلوب، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إفتَخَرَ إسرافيلُ على جبرائيل، فقال: أنا خيرٌ منكَ، قال: ولِمَ أنتَ خيرٌ منّي؟ قال: لأنّي صاحب الثمانية حَمَلَة العرش، وأنا صاحب النّفخة في الصُّور، وأنا أقرب الملائكة إلى الله تعالى، قال جبرائيل عليه السلام: أنا خيرٌ منكَ، فقال: بِمَ أنتَ خيرٌ منّي؟ قال: لأنّي أمين الله على وَحْيِهِ، وأنا رسوله إلى الأنبياء والمرسلين، وأنا صاحب الخسوف والقذوف، وما أهْلَكَ الله أمةً من الأمم إلاّ على يدي، فاختصما إلى الله تعالى، فأوحى إليهما: أُسْكُتَا فوعزتي وجلالي لقد خلقتُ مَن هو خيرٌ منكما، قالا: يا ربّ أوتخلق خيراً منّا، ونحن خُلِقْنَا من نور؟ قال الله تعالى: نعم، وأوحي إلى حجب القدرة انكشفي فانْكَشَفَتْ، فإذا على ساق العرش الأيمن مكتوبٌ: لا إله إلا الله محمَّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين خيرُ خلق الله، فقال جبرائيل: يا ربّ فإنّي أسألك بحقّهم عليكَ إلاّ جَعَلْتَني خادِمَهُم، قال الله تعالى: قد جَعَلْت، فجبرائيل من أهل البيت، وإنّه لَخَادِمُنَا[1].

أقول: لمّا كان النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أفضل من الملائكة، لا يجوز ـ إذاً ـ صدور ما ينافي هذه الأفضليّة...!

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٦٤ح٦٨.

٤٠ ـ وفي جامع الأخبار، والأمالي للصَّدُوق بإسناديهما إلى ماجيلويه، عن عمّه، عن أحمد بن هلال، عن الفضل بن دكين، عن معمر بن راشد قال: سمعت الإمام أبا عبد الله عليه السلام يقول: أتى يهوديٌّ النبي ﷺ، فقام بين يديه يحدّ النظر إليه، فقال: يا يهوديّ حاجتك!! قال: أنتَ أفضل أمْ موسى بن عمران النبيّ الذي كلّمه الله وأنزل عليه التّوراة والعصا، وَفَلَقَ له البحرَ، وأَظَلَّهُ بالغَمَام، فقال له النبي ﷺ: إنّه يُكْرَه للعبد أنْ يُزَكّيَ نَفْسَهُ، ولَكِنّي أقول: إنّ آدم عليه السلام لمّا أصاب الخطيئة، كانت توبته أنْ قال: اللهمّ إنّي أسأَلُكَ بحقّ محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ لمّا غَفَرْتَ لي، فغفرها الله له، وإنّ نوحاً لمّا رَكِبَ في السّفينة، وخاف الغَرَقَ، قال: اللهمّ إنّي أسأَلُكَ بحقّ محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ لمّا أنجيتَني من الغَرَق، فَنَجَّاهُ الله عنه، وإنّ إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النّار، قال: اللهم إنّي أسألك بحقّ محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ لمّا أنجيتني منها، فَجَعَلَهَا الله عليه بَرْداً وَسَلاَماً، وإنّ موسى عليه السلام لمّا ألقى عصاه، وأوجس في نفسه خِيْفَةً، قال: اللهم إنّي أسألك بحقّ محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ لمّا أمنتني، فقال الله جل جلاله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

يا يهوديّ إنّ موسى عليه السلام لو أَدْرَكَنِيْ ثمّ لم يؤمِن بي وبنبوتي ما نَفَعَهُ إيمانُه شيئاً، ولا نَفَعَتْهُ النّبوَّةُ، يا يهوديّ؛ ومن ذرّيّتي المهديُّ عليه السلام، إذا خَرَجَ نَزَلَ عيسى ابن مريم عليه السلام لنصرته، وَقَدَّمَهُ وصَلَّى خَلْفَهُ[1].

تعقيب: توسّل الأنبياء عليهم السلام برسول الله ﷺ وبأهل بيته الكِرَام عليهم السلام يقتضي كَمَالَهم في كلّ شيء، ومن كلّ الجّهات، فصدور العبوس بوجه الضّرير هفوة ونقص، وهو خلاف الكَمَال.

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٦٦ح٧٢.

٤١ ـ وفي قرب الإسناد بإسناده عن الطيالسي، عن فضيل بن عثمان قال: سَمِعْتُ الإمامَ أبا عبد الله عليه السلام يقول: إِتَّقُوا الله، وَعَظِّمُوا الله، وَعَظِّمُوا رَسُوْلَهُ، ولا تُفَضِّلُوا على رسولِ الله ﷺ أحداً؛ فإنّ الله تبارك وتعالى قد فَضَّلَهُ. الخبر(١).

تعقيب: مقتضى التعظيم هو أنْ لا ينسب أحد المسلمين إلى رسول الله ﷺ ما ينافي حقَّ تعظيمه وتكريمه ﷺ، فنسبة الجهل أو الخطأ إليه يعاكس الأمر بتعظيمه وتفضيله على عامّة الأنبياء والمرسَلين، وحيث لم يرد في الأخبار أنّ أحداً من الأنبياء عبس بوجه أحد أتباعه ـ بل سيرتهم التواضع مع أصحابهم ـ فلا بدّ إذاً أنْ يكون رسول الله ﷺ أكمل منهم عليهم السلام في صفة التواضع والحِلم مع أصحابه المؤمنين، فكيف بمَن كان مثل إبن أمّ مكتوم؟!!

وقول مَن قال بأنّ العابس هو رسول الله ﷺ يلزم منه تقديم عامّة الأنبياء عليهم السلام على رسول الله ﷺ، حيث لم يَرِد ـ كما قلنا ـ أنّ أحداً منهم عبس في وجه ضرير، وتقديم الأنبياء عليه ﷺ يلزم منه تقديمهم وتفضيلهم عليه ﷺ، وهو خُلْف تقديم وتفضيل الرّسول الأكرم عليهم جميعاً.

٤٢ ـ وروى الكافي رواية شريفة جامعة لمعالي شمائله ﷺ بإسناده عن محمَّد بن يحيى، عن أحمد بن محمَّد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن إسحاق بن غالب، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام في خطبةٍ له خاصّة يذكر فيها حال النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام وصفاتهم:

«فلم يمنع ربّنا لِحِلْمِهِ وأَنَاتِهِ وعَطْفِهِ ما كان من عظيمِ جرمهم، وقبيح

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٦٧ح٧٥.

أفعالهم، أنِ انتَجَبَ لهم أحبّ أنبيائه إليه، وأكرمهم عليه، محمَّد بن عبد اللهﷺ، في حومة العزّ مولدُهُ، وفي دومة الكَرَم محتدة، غير مشوبٍ حَسَبُهُ، ولا ممزوج نَسَبُهُ، ولا مجهول عند أهلِ العِلْمِ صفته، بشّرت به الأنبياء في كُتُبِها، ونَطَقَتْ به العلماءُ بنعتها، وتأمَّلَتْهُ الحُكَمَاءُ بوصفها، مُهَذَّبٌ لا يُدَانَى، هاشميٌّ لا يُوَازَى، أبطحيٌّ لا يُسَامَى، شيمته الحَيَاء، وطبيعته السَّخَاء، مجبولٌ على أوقار النّبوّةِ وأخلاقِهَا، مطبوعٌ على أوصافِ الرِّسَالةِ وأحلامِهَا، إلى أَنِ انْتَهَتْ به أسبابُ مقاديرِ الله إلى أوقاتِهَا، وجرى بأمرِ الله القضاءُ فيه إلى نهاياتِهَا، أدّاه محتوم قضاء الله إلى غاياتها، تبشِّرُ به كلُّ أمّةٍ مَن بَعْدَها، ويدفعه كلُّ أَبٍ إلى أَبٍ، مِن ظَهْرٍ إلى ظَهْرٍ، لم يخلطْهُ في عنصرِهِ سِفَاح، ولم ينجِّسْهُ في ولادتِهِ نِكَاحٌ، مِن لدن آدمعليه السلام إلى أبيه عبد الله، في خير فرقة، وأكرم سبطٍ، وأمنع رَهْطٍ، وأكلأ حَمْلٍ، وأودع حِجْرٍ، إِصْطَفَاهُ الله وارتضاهُ واجتباهُ، وآتاه من العِلْمِ مفاتيحُهُ، ومن الحكم ينابيعه، ابتعثه رحمةً للعباد، وربيعاً للبلاد، وأنزل الله إليه الكتابَ، فيه البيان والتبيان ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، قد بيَّنَهُ للنّاس ونهجه بعلم قد فصّله، ودين قد أوضحه، وفرائضٍ قد أوجبها، وحدود حدّها للنّاس وبيّنها، وأمور قد كشفها لخلقه وأعلنها، فيها دلالة إلى النجاة، ومعالم تدعو إلى هداه، فبلغ رسول اللهﷺ ما أرسل به، وَصَدَعَ بما أُمِرَ، وأدّى ما حُمِّلَ من أثقالِ النّبوّة، وصَبَرَ لربّه، وجاهد في سبيله، ونصح لأمّته، ودعاهم إلى النّجاة، وحثّهم على الذّكر، ودَلَّهُم على سبيلِ الْهُدى؛ بمناهجَ ودواعٍ أسَّسَ للعبادِ أساسَها، ومنار رفع لهم أعلامَها؛ كي لا يَضلُّوا من بعده، وكان بهم رءوفاً رحيماً»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٦٩ح٨٠.

تعقيب: جَمَعَت الرّوايةُ الشّريفةُ أروعَ خِصالِ الخيرِ والكَمالِ المحمّديّ ﷺ، حيث لا يدانيه ﷺ فيها أحدٌ سوى أهل بيته الميامين ﷺ، فأهمّ ما ورد فيها أنّه ﷺ:

(أ) غير مشوبٍ حسبه؛ أي أخلاقه، ونسبه معلوم ليس فيه أيّ لَبسٍ.

(ب) مهذَبٌ لا يُدانَى؛ أي لا يدانيه في الكمال أحدٌ سوى أهل بيته لقوله تعالى حاكياً عنهم ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ المباهَلة [آل عمران: ٦١].

(ج) هاشميٌّ لا يُوَازَى؛ أي لا يعادله أحد.

(د) شيمته الحَيَاء؛ والشيمة: الأخلاق.

(هـ) مجبول على أوقار النبوّة وأخلاقها، مطبوع على أوصاف الرِّسَالة وأحلامها...

(و) آتاه الله عزّ وجلّ من العِلْمِ مفاتيحه، ومن الحكم ينابيعه.

(ز) إبتعثه عزّ وجلّ رحمةً للعباد، وربيعاً للبلاد.

(ح) جعله عزّ وجلّ دليلاً على سبيل الهدى بمناهج ودواعٍ أسّس للعباد أساسها.

فمَن كان بهذه الخصال؛ كيف يتطرّق إلى ساحته زعر في أخلاقه وصفاته، فإمّا أنْ يكون الله تعالى عابثاً وحاشاه من ذلك؛ لأنّ العبثيّة من لوازم الفقر والحاجة، وإمّا أنْ تكون قابليّة الرّسول ضيّقة، وهذا خُلْف تفضيله على عامّة الخَلْق لسعة قابليّته ووفور عقله، وكِلاَ الإحتمالَين قبيحٌ لِمَا قلنا، فلا بدّ إذاً من الإعتقاد بأنّ الله تعالى حينما حباه بكمال الصّفات، لِعِلْمِهِ بِسِعَةِ قابليّته لها كلّها، دون أنْ يصيب بعضها خَلَلٌ أو فتورٌ، فثبُتَ المطلوب.

٤٢ ـ وفي أمالي الشيخ الطوسي بإسناده عن الحسين بن إبراهيم القزويني، عن محمَّد بن وهبان، عن عليّ بن جيش، عن العباس بن محمَّد بن الحسين، عن أبيه، عن صفوان بن يحيى، عن الحسين بن أبي غندر، عن المفضل، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بعث الله نبياً أكرم من محمدﷺ، ولا خَلَقَ الله قَبله أحداً، ولا أنذر الله خلقه بأحدٍ من خَلْقِهِ قبلَ محمدﷺ، فذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، فلم يكن قبله مطاعٌ في الخَلق، ولا يكون بَعْدَهُ إلى أنْ تقوم السّاعة في كلّ قَرْنٍ، إلى أنْ يَرِثَ الله الأرضَ وَمَنْ عَلَيْهَا[1].

أقول: تشير الصحيحة المذكورة إلى كون النبيﷺ أوّل المخلوقات، وكان منذراً في عالَم الذّر وأحد المُنذرين، وهؤلاء المُنْذِرُون: هو وأهل بيته الميامين، ويشهد لهذا «مِنْ» التبعيضيّة، إذ هو ﷺ من بعض المنذرين، ولو كان متفرّداً بالإنذار لَمَا صَحَّ الإتيان بمن التبعيضيّة، فكان منذراً للأنبياء عليهم السلام قبل أنْ يُنذر الأنبياء أقوامهم في دار المُلْك حسبما يشير إلى ذلك ـ تأكيداً للآية ـ ما جاء في خبر عليّ بن إبراهيم بإسناده عن عليّ بن معمر عن أبيه قال: سألتُ الإمام أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ قال: إنّ الله تبارك وتعالى لمّا ذرأ الخلق من الذر الأوّل، أقامهم صفوفاً قدّامه، وبعث الله عزّ وجلّ محمّداً حيث دعاهم فآمَن به قوم وأنكره قوم، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ يعني به محمَّداً حيث دعاهم إلى الله عزّ وجلّ في الذر الأوّل[2].

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٧١ح٨٢.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥/ ١٧٣ح١٠٨.

وفي خبرٍ آخر عن معمر عن أبيه قال: سألتُ الإمام أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ يعني محمّداً، حيث دعاهم إلى الإقرار بالله في الذر الأوّل[1].

فرسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أوّل المنذرين وأوّل خلق الله تعالى، وعلّة أسبقيّتهم على المخلوقات بسبب سعة قابلياتهم وشدّة طهارتهم وقربهم من الله تبارك وتعالى.

والإستشهاد بالآية الأولى ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾؛ فيه احتمالان:

**الإحتمال الأوّل:** أنْ يُراد منها أنّ رسول الله محمدا ﷺ من جملة النذر السّابقة، وليس إنذاره مختصّاً بهذا الزّمان، بمعنى أنّ النبي ﷺ كان منذراً من جملة الأنبياء الأوائل.

هذا الوجه أحد قولي العلاّمة المجلسي ـ أعلى الله مقامه ـ، لكنّه إنْ أراد به أنّ رسولنا كان مبعوثاً في جملة الأنبياء في عالم المُلك، فيردّه أنه ليس ثمة خبر يشير إلى ذلك، ولا أظنّ المجلسي غوّاص الأخبار يميل إليه، وإنْ أراد به أنّ النبي ﷺ كان مرسلاً في عالَم الذر فحقٌّ وهو القدر المتيقّن من الآية والأخبار القطعيّة.

**الإحتمال الثاني:** أنْ يُراد منها أنّ الرسول ﷺ إنّما كان منذراً لعامّة الخلق في عالم الذر أو الأرواح، فالمعنى: إنّما أنتَ منذرٌ للنذر الأولى في الذر، فتكون كلمة (من) للتعليل؛ أي بسبب وجود المنذَرين في عالَم الذر، صرت يا رسولي منذِراً لهم، تدعوهم إلى الإقرار بي، وهو كتعليل قوله تعالى: ﴿مِّمَّا

---

(١) نفس المصدر: ح١٠٩.

﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ [نوح: ٢٥]؛ أي بسبب معاصيهم أُغرِقُوا فأُدخِلُوا ناراً.

وقد تكون (من) بمعنى (على) كقوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

فالمعنى: إنما أنتَ نذير على النذر الأولى. ويؤيِّد الوجهين ما تقدَّمَ من خبر إبن معمّر، فتَأَمَّلْ.

والإستشهاد بالآية الثانية ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ فيه احتمالان أيضاً:

الإحتمال الأوّل: أنْ يُراد منها أنّ النبي ﷺ منذر وهاد لكلّ قوم، فيكون هادياً للأنبياء وأممهم. هذا الإحتمال هو ما اشتُهر بين المفسِّرين حسبما ادّعى العلاّمة المجلسي رحمه الله.

الإحتمال الثاني: أنْ يكون غرض الإمام عليه السلام في الخبر حصر الإنذار في رسول الله ﷺ، أي لم يكن مَن أنذر قبله منذراً حقيقةً، وإنّما المنذر والمطاع على الإطلاق هو النبي ﷺ، كما يدلّ عليه آخر الخبر، فالإستشهاد بالآية الأولى إمّا بحملها على الأخير من المعنيين، فإنّه لمّا كان منذراً للنذر فهو المنذر للجميع حقيقةً، وإنما كانوا نوّابه في الإنذار، كما أنّ مَن بعده من الأوصياء كذلك[1]، وإمّا بحملها على غير الحصر، أي هذا منذرٌ من جملة مَن يسمّون بالنذر من الأنبياء السابقة.

ما ادّعاه المجلسي رحمه الله من كون إنذار أئمتنا عليهم السلام لم يكن إنذاراً حقيقيّاً أو كاملاً وإنما كان تابعاً لإنذار رسول الله ﷺ، دونه خرط القتاد، وهو مجرَّدُ

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٧٢.

احتمال تناهضه آية التطهير التي ساوت بين رسول الله وأهل بيته، وكذا آية المباهَلة، ونفس آية النذر المتقدّمة ليس فيها ما يشير إلى أكمليّة رسول الله من أهل بيته الميامين، بل إنها تؤكّد المساواة بينه وبينهم في آيتي التطهير والمباهَلة المبارَكتَين.

وبالجلمة؛ فثبوت كونه ﷺ أوّل خلق الله ونذيراً من أهل البيت يستلزم ثبوت كلّ مكارم الأخلاق التي اتصف بها الأنبياء عامّةً، فصدور ما يوجب توبيخه في القرآن الكريم خلف كونه نذيراً من النذر الأولى التي لم يصدر منها ما يوجب التوبيخ والتقريع.

٤٣ ـ وفي تفسير فرات بن إبراهيم بإسناده عن عليّ بن محمّد بن عليّ بن عمر الزّهري، عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال: الحمد لله على آلائه وبلائه عندنا أهل البيت، وأستعين الله على نكبات الدّنيا وموبقات الآخرة، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّي محمّداً عبده ورسوله، أرسلني برسالته إلى جميع خلقه؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، واصطفاني على جميع العالمين من الأوّلين والآخرين، أعطاني مفاتيح خزائنه كلّها، واستودعني سرّه، وأمرني بأمره، فكان القائم، وأنا الخاتم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، واعلموا أنّ الله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، و﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أيّها النّاس إنّه سيكون بعدي قومٌ يكذبون عليّ فلا تقبلوا منهم ذلك، وأمورٌ تأتي من بعدي يزعم أهلها أنها عنّي ومعاذ الله أنْ أقول على الله إلا حقّاً، فما أمرتكم إلاّ بما أمرني بِهِ، ولا دعوتكم إلاّ إليه، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

قال: فقام إليه عبادة بن الصامت فقال: متى ذلك يا رسول الله؟ ومَن هؤلاء؟ عرّفناهم لنحذرهم.

فقال ﷺ: أقوامٌ قد استعدّوا للخلافة من يومهم هذا، وسيظهرون لكم إذا بَلَغَتِ النَّفسُ منّي هاهنا، وأومأ بيده إلى حَلْقِهِ.

فقال له عبادة بن الصامت: إذا كان كذلك فإلى مَن يا رسول الله؟

قال ﷺ: فإذا كان ذلك فعليكم بالسَّمْعِ والطّاعة للسَّابِقِيْنَ مِن عِتْرَتِي، فإنّهم يصدّونَكم عن البغي، ويهدُونَكم إلى الرُّشْدِ، وَيَدْعُوْنَكُم إلى الحقّ، فَيُحْيُوْنَ كِتَابِي وسُنَّتِي وَحَدِيْثِي، ويموتون البدع، ويقمعون بالحق أهلها، ويزولون مع الحق حيث ما زال، فلن يُخَيَّلَ إليّ أنكم تعملون، ولكني محتجٌّ عليكم إذا أنا أعلمتكم ذلك فقد أعلمتكم..

أيها الناس إنّ الله تبارك وتعالى خلقني وأهل بيتي من طينةٍ لم يخلق منها أحداً غيرنا، فكنّا أوّل مَن ابتدأ من خلقه، فلمّا خلقنا فتق بنورنا كلّ ظُلْمَة، وأحيا بنا كلّ طينة طيّبةٍ، وأمات بنا كلّ طينةٍ خبيثةٍ، ثمّ قال: هؤلاء خيار خلقي، وحملة عرشي، وخزّان عِلْمِي، وسادة أهل السّماء والأرض، هؤلاء الأبرار المهتدون، المهتدى بهم، مَن جاءني بطاعتهم وولايتهم أولجته جَنَّتي وكَرَامَتِي، ومَن جاءني بعداوتهم والبراءة منهم أولجتُهُ ناري، وضَاعَفْتُ عليه عَذَابِي، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ثم قال:

نحن أهل الإيمان بالله ملاكه وتمامه حقّاً حقّاً، وبنا سدّد [في نسخة: بنا سداد] الأعمال الصالحة، ونحن وصيّة الله في الأولين والآخرين، وإنّ منا الرّقيب على خلق الله، ونحن قَسَمُ الله أقْسَمَ بنا، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾..

أيها الناس: إنّا أهلُ البيت، عَصَمَنَا الله من أنْ نكونَ مفتونين، أو فاتِنِيْن، أو مفتِنِين، أو كذّابين، أو كاهِنِيْن، أو ساحِرين، أو عائِفِين، أو خائِنِيْن، أو زاجِرِيْن، أو مبتَدِعِيْن، أو مُرْتَابِيْن، أو صَادِفِيْن عن الحقّ منافِقِيْن، فمَن كان فيه شيءٌ من هذه الخصال فليس منّا، ولا نحن منه، والله منه بريءٌ، ونحن منه برآء، ومَن بَرِأَ الله منه أَدْخَلَهُ جهنّم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وإنّا أهل البيت طَهَّرَنَا الله من كلّ نجسٍ، فنحن الصّادِقُون إذا نطقوا، والعَالِمُون إذا سُئِلُوا، والحَافِظُون لما اسْتُوْدِعُوا، جَمَعَ الله لنا عَشْرَ خِصَالٍ، لم يَجْتَمِعْنَ لأحَدٍ قَبْلَنَا، ولا يكون لأحَدٍ غيرنا: العِلْمُ، والحِلْمُ، والحُكْمُ، واللبُّ، والنّبوّة، والشّجاعة، والصّدق، والصّبر، والطّهارة، والعفاف، فنحن كلمة التّقوى، وسبيل الهدى، والمثل الأعلى، والحجّة العظمى، والعروة الوثقى، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

تعقيب: كونه ﷺ مصطفىً على جميع العالمين، ومعه مفاتيح الخزائن كلّها، ومستودع السّرّ والأمر، ومخلوقاً وأهل بيته عليهم السلام من طينةٍ لم يُخْلَق منها أَحَدٌ من العالَمِين، وبهم أمات الله عزّ وجلّ كلّ طينةٍ خبيثةٍ، وفتق بنورهم كلّ ظُلمة. . . كلّ ذلك لا يجتمع مع ما نُسِبَ إليه من العبوس بوجه ضريرٍ مؤمنٍ جاءه طالباً معالِمَ دِينِهِ، فتَدَبَّرْ هذا الحديث فإنّه من الأسرار العظيمة الدالة على علوّ فضل رسول الله وأهل بيته الأنوار عليهم السلام.

٤٤ ـ وفي نهج البلاغة قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام واصفاً رسول الله ﷺ: إجْعَلْ شرائفَ صلواتك، ونوامي بركاتك على محمَّدٍ عبدِكَ ورسولِكَ، الخاتم لِمَا سَبَق، والفاتح لِمَا انْغَلَق، والمُعْلِن الحقّ بالحقّ،

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٧٤ح٨٥، والآية في سورة يونس: ٣٢.

والدّافع جيشات الأباطيل، والدّامغ صَوْلاَت الأضاليل، كما حمل فاضطلع قائماً بأَمْرِكَ، مستوفزاً في مرضاتِكَ، غير ناكلٍ عن قدم، ولا واهٍ في عزم، واعياً لوحيِكَ، حافظاً على عَهْدِكَ، ماضِيَاً على نفاذ أمركَ، حتى أورى قبس القابس، وأضاء الطّريق للخابط، وهَدَيْتَ به القلوبَ، بعد خوضات الفتن والإثم، وأقام موضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام، فهو أمينُكَ المأمونُ، وخازنُ عِلْمِكَ المخْزُوْن، وشهيدُكَ يومَ الدِّين، وبعيثُكَ بالحَقِّ، ورسولُكَ إلى الخَلْقِ[1].

وفي موضعٍ آخر قال ﷺ: فاسْتَوْدَعَهُم في أفضل مستودعٍ، وأقرّهم في خير مستقر، تناسختهم كرائمُ الأصلاب إلى مطهَّرَات الأرْحَام، كلّما مضى سَلَفٌ قام منهم بدِين الله خلف، حتّى أَفْضَتْ كرامةُ الله سبحانه إلى محمدﷺ، فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعزّ الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه، عترته خير العِتَر، وأسرته خير الأُسَر، وشجرتُه خير الشَّجَر، نبتت في حرم، وبسقت في كرمٍ، لها فُرُوْعٌ طِوَالٌ، وثَمَرٌ لا يُنال، فهو إمامُ مَن اتّقى، وبَصِيْرَةُ مَن اهْتَدَى، سراجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشَهَابٌ سَطَعَ نُوْرُهُ، وزند بَرَقَ لَمْعُهُ، سيرته القصد، وسُنَّتُهُ الرُّشد، وكلامُهُ الفَصل، وحُكْمُهُ العَدْل، أرسَلَهُ على حين فترة من الرُّسُل، وهفوةٍ عن العَمَلِ، وغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ[2].

تعقيب: كيف يلتقي العبوس بوجه ضريرٍ كونه ﷺ بتلكم الصِّفات الحميدة والمزايا الرّفيعة؟!! أليس هذا الإلتقاء ـ على فرض حدوثه ـ اجتماعاً بين

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٧٨ح٩٠.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٧٩ح٩١.

النَّقِيضَيْن؟!! وهل يمكن أنْ تصدر مثل هذه المتناقضات من الله تعالى الذي أحكم صنع محمَّدٍ رسول الله ﷺ؟ وهل يصحّ أنْ تصدر هذه الترهات من محمّدٍ الخاتم لما سبق والفاتح لِمَا انغَلَق؟!!!!

اللهمّ أُحْكُمْ بيننا وبين مَن ظلم رسولَنا محمَّداً وآلَه الطاهرين ﷺ، وسيعلم الذين ظلموا رسول الله وآله أيَّ منقَلَبٍ ينقلبون.

٤٥ ـ ما رواه من المخالِفِين أبو حامد الغزالي عن أبي البحتري قال: ما شتم رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم أحداً من المؤمنين بشتيمة إلاّ جعل لها كفّارة ورحمة، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة وقيل له وهو في القتال: لو لعنتم يا رسول الله فقال: «إنّما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً» وكان إذا سئل أنْ يدعو على أحدٍ مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدّعاء عليه إلى الدّعاء له وما ضرب بيده أحداً قط إلاّ أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلاّ أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين قط إلاّ اختار أيسرهما إلاّ أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلاّ قام معه في حاجته وقال أنس بن مالك: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه «لم فعلته؟» ولا لامني نساؤه إلاّ قال «دعوه وإنما كان هذا بكتاب وقدر» قالوا: وما عاب رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم مضجعا، إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال: محمَّدٌ رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ...[١].

وقال في موضعٍ آخر: كان ﷺ أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً ويقول:

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٦٤، في بيان جملة من آدابه وأخلاقه.

أنا أفصح العرب وإنّ أهل الجنّة يتكلمون فيها بلغة محمدﷺ وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه نزراً وأنتم تنثرون الكلام نثراً قالوا: وكان أوجز الناس كلاماً وبذاك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كلّ ما أراد وكان يتكلّم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ولا يقول المنكر ولا يقول في الرّضا والغضب إلاّ الحق ويعرض عمن تكلم بغير جميل ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة ويقول «لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فإنه أنزل على وجوده» وكان أكثر الناس تبسُّماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه بهم ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك أصحابه عنده التبسّم اقتداء به وتوقيراً له... قالوا: وكان من أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينْزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة وكان إذا سُرَّ ورضى فهو أحسن الناس رضا فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب ـ وليس يغضب إلاّ لله ـ لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في أموره كلّها وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوّة واستنْزل الهدى فيقول «اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكراً وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتبه عليَّ فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعاً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٦٨.

تعقيب: قوله: وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير، يتعارض مع ما ادّعوه من فضول الأفعال مع الضرير إبن أمّ مكتوم، أليس عبوسه فضولاً وبّخه الله تعالى عليه بحسب زعمهم؟ فكيف يوبخه على شيء لم يكن من سجايا نفسه الكريمة بحسب ما أفاده أبو حامد آنفاً؟!!

لستُ أدري، لعلّ أبا حامد وأتباعه يدرون فيفيضون علينا من نمير علومهم ومعارفهم، فالظاهر أنّ عقولهم فوق مستوى عقول الآخرين فصرنا لا ندرك ما يقولون، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠].

٤٦ ـ وروى إبن سعد في الطبقات بإسناده عن إسماعيل بن إبراهيم الأسدي، عن يونس، عن الحسن قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله؟ فقالت: كان خُلُقُه القرآن(١).

وبإسناده أيضاً عن عبد الوهّاب بن عطاء، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئيني عن خلق رسول الله قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: قلت: بلى، قالت: فإنّ خلق رسول الله القرآن، قال قتادة: وإنّ القرآن جاء بأحسن أخلاق النّاس(٢).

وعنه أيضاً بإسناده عن أنس قال: كان رسول الله أحسن النّاس خُلُقاً(٣).

تعقيب: صدور العبوس منه ﷺ ـ وحاشاه من ذلك ـ بوجه الفقير خلاف

---

(١) الطبقات: ١/ ٢٧٣.

(٢) الطبقات: ١/ ٢٧٣.

(٣) نفس المصدر.

خُلُقه القرآني، ولا تبعيض في خُلُقِهِ، بحيث يقال إنّه كان فظّاً وعبوساً قبل نزول سورة عبس ثمّ صار حليماً بعد توبيخه وتقريعه، فإنّ ذلك مردودٌ بما ورد في سورة القلم من أنّه ﷺ على خُلُقٍ عظيم، وقد نزلت سورةالقلم قبل سورة عبس وخلاف العموم والشّمول في خُلُقِهِ.

وعليه؛ فإنّ خُلُقَهُ الكريم ﷺ كان شاملاً لكلّ مراحل حياته الشّريفة، فالتبعيض بأخلاقه الكريمة خلاف الشّمول القرآني، فَتَدَبَّرْ.

٤٧ ـ وعنه بإسناده عن يعلى بن عبيد الطنافسي وعبد الله بن نمير الهمداني قالا: أخبرنا حارثة إبن أبي الرّجال عن عمرة عن عائشة أنّها سُئِلَت: كيف كان رسول الله إذا خلا في بيته؟ قالت: كان ألين النّاس وأكرم النّاس، وكان رجلاً من رجالكم إلاّ أنّه كان ضاحكاً بسّاماً(١).

أقول: كونه ﷺ ضحّاكاً بسّاماً وأَلْيَن النّاس يتنافى مع العبوس في وجه مؤمنٍ فقير جاءه طالباً معالِمَ دِينِهِ، أليس تقريعه على العبوس دليل انتقامه لنفسه، والإنتقام للنفس من لوازم النفس الأمّارة بالسّوء، وقد نُزِّهَ النبيﷺ عن ذلك، ولِمَا كان معروفاً من سيرته من أنّه لم يكن ينتقم لنفسه بل لله تعالى، فقد روت عائشة قالت: [ما خُيِّرَ رسول الله في أمرَيْن إلاّ أخذ أيسرهما ما لم يكن اثماً، فإنْ كان اثماً كان أبعد النّاس منه، وما انتقم رسول الله لنفسه إلاّ أنْ تُنتَهَك حرمة الله فينتقم لله](٢).

إذن كان النبيﷺ ينتقم لله تعالى لا لنفسه، وعليه فإذا كان العبوس لله تعالى ـ على فرض ذلك حسبما قد يتصوّر البعض ـ فلِمَ وبّخه الله تعالى عليه،

---

(١) الطبقات: ١/ ٢٧٤.

(٢) الطبقات: ١/ ٢٧٥.

وهل يقرّع ويوبّخ الله جلّ وعلا على أمرٍ كان فيه وصلة إليه عزّ وجلّ وإخلاصاً لعبادته؟!! كلاّ وحاشا، إلاّ أنْ يكون هذا الإله مصنوعاً وجاهلاً وغير حكيم، يضع الأشياء في غير مواضعها، يعاقب على الحسنة، ويثيب على السيئة، وهو إله صنعه المشركون والمخالفون إرضاءاً لكبرائهم وساداتهم، وتقرُّباً إلى إبليس اللعين، أمّا إلهنا العظيم فهو حكيم، عالِم، قادر، عادل، رحيم ورؤوف، يضع الأمور في نصابها ويثيب على الحسنة ويعاقب على السيّئة، وقد يعفو برحمته وفضله، أزليٌّ أبديٌّ سرمديٌّ لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، سبحانه ما أعظم شأنه وأجلَّ سلطانه. . . فهكذا إله لا يُرسِل إلى البشر رسولاً ضعيفاً في إيمانه، جاهلاً في عواقب الأمور، فظّاً غليظاً على الفقراء، متواضعاً للأغنياء والكفّار، ومَن ظنّ أنّ الله تعالى يرسل رسولاً بهذه الصفات لمصلحة ارتآها، فقد كفر بالله العظيم وأمات قدرة الله تعالى وصغّر عظيم شأنه.

٤٨ ـ وعن إبن سعد بإسناده عن عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن عيّاش قال: كان رسول الله ﷺ أصبر الناس على أوزار النّاس(١).

وبإسناده عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله إذا لقيه الرّجل فصافحه لم ينْزِع يده من يده حتى يكون الرّجل هو الذي ينْزعها، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرّجل هو الذي يصرفه، ولم يُرَ رسول الله مقدماً ركبتيه بين يدي جليسٍ له قط(٢).

٤٩ ـ روى المتقي الهندي من علماء العامّة بإسناده عن أنس عن النبي قال: إنّي لأراكم من ورائي كما أراكم(٣).

---

(١) الطبقات: ١/ ٢٨٥.

(٢) الطبقات: ١/ ٢٨٦.

(٣) كنز العمال: ١١/ ١٨٨ح٣١٩٥٨.

وبإسناده عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: هل ترون قبلتي ههنا؟ فوالله ما يخفى عَلَيَّ خشوعكم ولا ركوعكم! إني لأراكم من وراء ظهري[(١)].

تعقيب: إذا ما كان النبيﷺ بهذا المستوى الرّوحي بحيث لا يخفى عليه حركة المصلّين المأمومين خلفه، فكيف خفي عليه ما يجول في خاطر إبن أمّ مكتوم حتى عبس في وجهه، وكيف خفي عليه نفاق صناديد قريش الذين قدّمهم على المؤمن الفقير، ألم يرهم بروحه بأنهم لن يدخلوا في الإسلام أبداً حتّى بدرت منه إساءة إلى رجلٍ طاهرٍ كإبن أمّ مكتوم؟!!

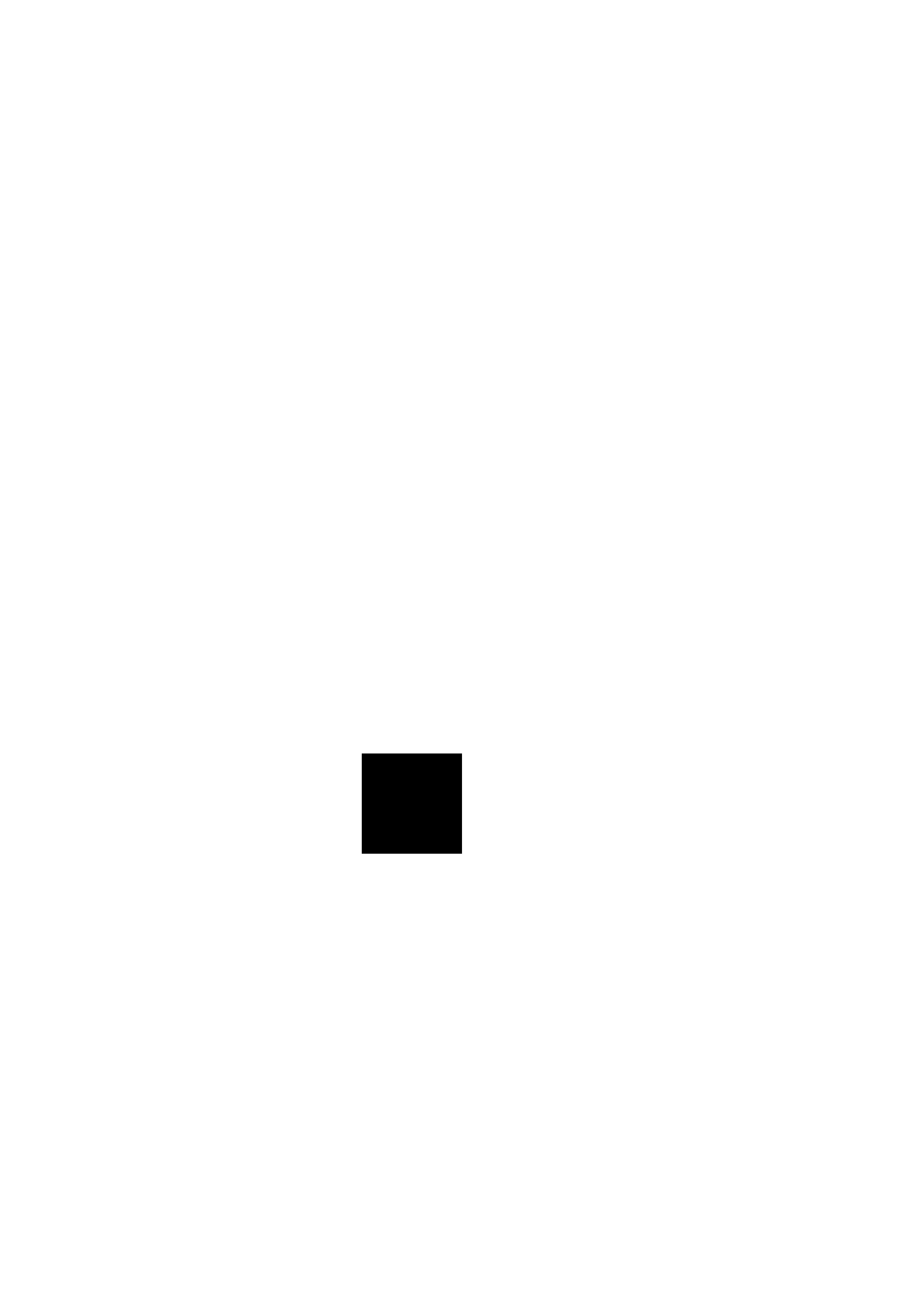
٥٠ ـ وعنه أيضاً بإسناده عن عبد الله بن بسر وأبي هريرة، عن النبيّ قال: إنّ الله تعالى جعلني عبداً كريماً ولم يجعلني جبّاراً عنيداً... إنّما يُعِثْتُ لأتمّم صالح الأخلاق... وإنّما بُعِثْتُ رحمةً ولم أُبعَث عذاباً[(٢)].

من خلال هذا العرض المسهب لسيرة رسول الله الأخلاقيّة والرّوحيّة والنفسيّة يتضح لدى المنصف المتأمّل مدى الظّلم والحَيف الذي لحق به ﷺ بما ألصقه المخالِفون بنبيّ الرّحمة محمدﷺ، كلّ ذلك إرضاءً لعثمان بن عفّان، ومَن تقدّمه من مغتصبي الخلافة، وتبريراً لشرورهم ونزواتهم، فلم يراعوا لرسول الله حرمة، ومع كلّ هذا يدّعون أنّهم على خطاه وأنهم أتباعه وأهل سُنَّتِهِ، أمّا الشّيعة فكفّار بنظر هؤلاء، وما ذلك إلاّ لأنّهم نزّهوا النبيﷺ عن الأخطاء والسّهو والنسيان، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

* * *

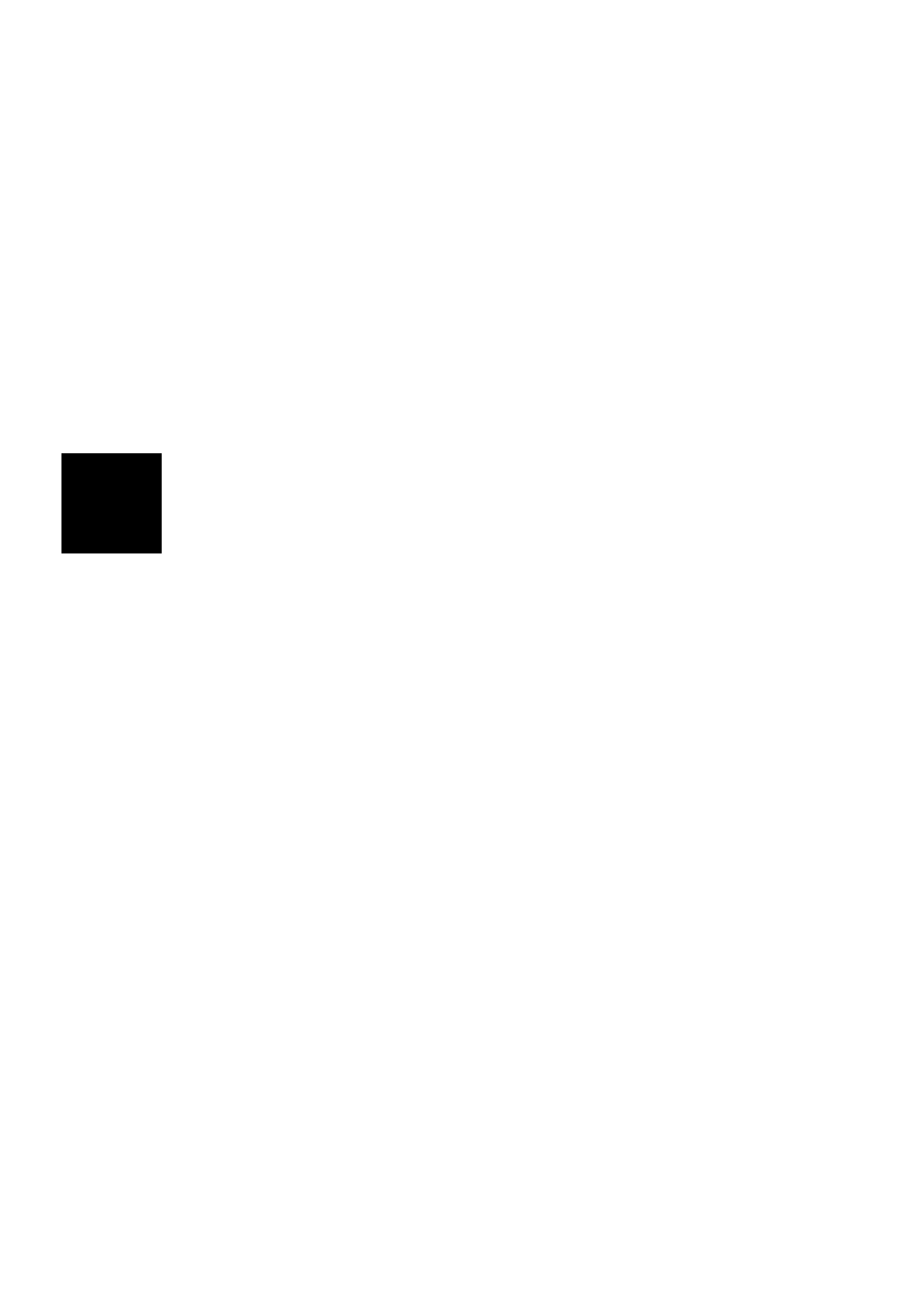
(١) كنز العمال: ١١/ ١٨٨ح٣١٩٥٩.

(٢) كنز العمّال: ١١/ ١٩٠ ـ ١٩١ح٣١٩٨٣ + ٣١٩٩٣ + ٣١٩٩٤.





# الفصل الرابع



# علاج المتشابه القرآني

ذكرنا في البحوث المتقدِّمة الآراء في تفسير المتشابه والمحكَم، وأنهيناها إلى ثلاثة عشر قولاً، ثمّ ذكرنا فائدة وجود المتشابه في الكتاب الكريم فلا نعيد.

وما يهمّنا هنا في هذا الفصل هو ذِكر الآيات المتشابهة المتعلّقة برسول الله ﷺ، وكيف يمكن علاجها عبر الطّرق والأدلّة الإستنباطيّة التي سنّها لنا أهل البيت عليهم السلام في عصر غيبة مولانا الإمام المهديّ بن الحسن (عجَّل الله تعالى بفرجه الشريف)؛ لأنّ الجمود على المتشابه غير جائزٍ لِمَا يترتّب عليه من محاذير تتناول شخصيّة النبيّ المعصوم عليه السلام، فكما لا يجوز الجمود على المتشابه في آياتِ الرّبوبيّة والذّات الإلهيّة لِمَا في ذلك من الإنتقاص للذّات المقدَّسة، فلا بدّ ـ حينئذٍ ـ من معالجتها لئلاّ تصطدم بالأسس التوحيديّة الثابتة، ومن هذا المنطلق معالجة الآيات المتعلِّقة بذات النبيّ محمد ﷺ لئلاّ تصطدم المتشابهات مع المحكمات من الأدلّة العقليّة والقرآنيّة والنبويّة الثابتة لعصمة النبيّ الأعظم ﷺ.

وزبدة المخض: حيث قامت الأدلّةُ القطعيّة على عصمة الرسول الأكرم ﷺ ـ كما سوف نبرهن عليه في الفصل الآتي إنْ شاء الله تعالى ـ فثمّة خطابات حادّة موجَّهَة إلى الرّسول الأكرم عليه السلام تنهاه عن اتِّباع الهوى والشّرك والخائنين؛ ممّا يوهم وجود أرضيّة في نفس النبي ﷺ لصدور المعاصي

والموبقات، وهذا ينافي مبدأ العصمة الذي يتَّصِف به الرسول الكريم ﷺ، وها نحن سنذكر بعضَ هذه الآيات وتحليلها وصرفها عن ظاهرها بمقتضى الأدلّة والقرائن القطعيّة على ذلك:

### الآية الأولى

**قوله تعالى:** ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]

ذَكَرَ مفسِّرو العامّة عدّة روايات في سبب نزولها، كلٌّ واحدة تختلف عن الأخرى مع وجود تعارضٍ واضحٍ بينها، ويزيدها تعارضاً وتناقضاً رواية محمّد بن كعب القرضي الدالّة على أنّ الآيات المزبورة نزلت أثناء سورة النجم في قصّة الغرانيق...

وممّا يدعو للعَجَب أنّ أكثر العامّة تشبّثوا بهذه الأخبار محاوِلين تمويه أمرها، دون أنْ يراعوا لرسول الله ﷺ حرمةً وقداسةً ونزاهةً، يُفْرَض أنْ يتحلّى بها سيّد ولد آدم ﷺ، ولكنّهم كعادتهم يلصقون به الطيش والزَّيْف، لكنّ الأصحاب ـ عندهم ـ منزَّهون عن كلّ ذلك... وا إسلاماه!!

فقد أخرج السيوطي ستّ روايات بطرقٍ متعدِّدة[1] بما لا يتناسب وساحة النبي ﷺ وقداسة تفكيره، ويجمعها أمران:

**الأمر الأوّل:** طلب المشركين من رسول الله ﷺ أنْ يكفّ عن شتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم.

---

(١) الدرّ المنثور: ٤/ ٣٥٢، ومجمع البيان: ٦/ ٢١٩.

الأمر الثاني: طرد العبيد والسقاط الذين رائحتهم رائحة الصنان حتى يجالسوه ويسمعوا منه، فطمع في إسلامهم، فنَزَلَت الآية. . .

**الرواية الأولى:** أخرج إبن اسحق وابن أبى حاتم وابن مردويه، عن إبن عباس قال: إنّ أمية بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش، أتوا رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم فقالوا: تعال فاستلم آلهتنا وندخل معك في دينك، وكان رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم، فرقّ لهم فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله ﴿نَصِيرًا﴾.

وأخرج إبن مردويه من طريق الكلبى عن باذان عن جابر إبن عبد الله مثله.

**الرواية الثانية:** وأخرج إبن جرير وابن أبى حاتم، عن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله يستلم الحجر فقالوا: لا ندعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا. فقال رسول الله ﷺ: وما عليَّ لو فعلت والله يعلم منِّي خلافه؟ فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾.

**الرواية الثالثة:** وأخرج إبن أبى حاتم عن إبن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا طاف يقول له المشركون: إستَلِمْ آلهتَنَا كى لا نضرَّكَ فكاد يفعل فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾. . . الآية.

**الرواية الرابعة:** وأخرج إبن أبى حاتم عن جبير بن نفير، أنّ قريشاً أتوا النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم فقالوا له: إنْ كنتَ أرسلْتَ إلينا فاطرد الذين اتَّبَعُوكَ من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك. فركن إليهم فأوحى الله إليه ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية.

**الرواية الخامسة:** وأخرج إبن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال:

أنزل الله ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١] فقرأ عليهم رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم هذه الآية ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النجم: ١٩] فألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فقرأ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ما بقى من السورة وسجد، فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية. فما زال مغموماً مهموماً حتى أنزل الله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الآية.

الرواية السادسة: وأخرج إبن جرير وإبن مردويه عن إبن عبّاس عنهما، أنّ ثقيفاً قالوا للنبي ﷺ: أجِّلْنا سَنَة حتى نهدي لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدي للآلهة أحرزناه ثمّ أسلمنا وكسرنا الآلهة، فهمَّ أنْ يؤجِّلهم فنَزلت ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ الآية.

ووجه الإشكال عند المغرضين والنّافِين للعصمة هو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ مدَّعِينَ بذلك أنّ الرسول الأكرم ﷺ كاد يميل إلى طموحات المشركين وتلبية طلباتهم لولا أنّ الله تعالى نهاه وأوعده بالعقاب، بل بعقابٍ مضاعَف في الدّنيا والآخرة.

وما ادّعاه هؤلاء باطلٌ من أساسه؛ لأنّ مفاد الآية غير ما ذهبوا إليه وذلك للأمور التالية:

(أوّلاً): إنّ الآيات تحدَّثَت عن طريقة تعامل المشرِكين مع النبي ﷺ لمّا همّوا أو قاربوا على أنْ يزيلوه ﷺ عن القرآن ليقف بجانبهم، وغرضهم من ذلك أنْ ينجرّ تركه لهم عن الدَّعْوَة وتبليغ الوحي إلى التساهل منه والموافقة لأهوائهم التي هي افتراء على الله تعالى، لكنّ النبي ﷺ لم ينجر إلى دعوتهم الباطلة؛ لِمَا يملكه من مَلَكَاتٍ قدسيّةٍ تمنعه من الميل إليهم وتلبية مطالبهم.

وحاصل الآيتَيْن أنّ المشرِكِين قد كادوا باختلاف وسائلهم في طلب متاركة رسول الله ﷺ ليحصل لهم ما توهّموه من الغرض الفاسد وهو الموافقة لأهوائهم، وقد قاربوا بذلك أنْ يفتنوه ـ و الفتنة بمعنى الإزلال والصَّرف عمّا أوحي إليه ـ باحتمال الصَّلاح في المتارَكَة من قِبَلِهِ ليكفّ عن الدَّعوة، لكنّ الله تعالى سَدَّدَه، وتسديده تعالى لنبيّه لا عن عبث أو الترجيح بلا مرجِّح، بل لِمَا يملكه النبي ﷺ من قابليّات نفسيّة وروحيّة عالية تجعله وعاءاً للمشيئة الإلهيّة دون الرّضوخ للباطل وأهله، فرسول الله ﷺ لم يركن إليهم ولم يكد؛ لكونه ﷺ لم يُجِبْهم إلى ما سألوه. . .

فالشطر الأوّل من الآيات ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يخبر عن دنوّ المشرِكِين من إزلاله وصرفه عن القرآن الكريم، لا عن دنوّ النبي ﷺ وقربه من الزَّلَل والإنصراف عمّا أوحي إ ليه، وشتّان ما بين المعنيَيْن.

فدعوتهم إليه متاركة القرآن لا يستلزم الرضوخ إليهم والميل والرُّكون إلى ما يطلبون ويشتهون. . . ولولا القابليّات الإيمانيّة والألطاف الإلهيّة التي يفيضها الخالق العظيم على عباده المتَّقِين ـ والنبيُّ أفضل المتَّقِين ـ من زيادة الإشراق والتثبيت الدّائم وقوّة الصَّبر والتحمُّل لَكَان رَكَن إليهم ولكنّه لم يفعل بما يمتلكه من معانٍ إعتقاديّة سامية تجعله محلاً للإفاضة الربانيّة والتوفيقات الصَّمَدَانيّة كما ورد في الدّعاء: «بكَ عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك، ولولا أنتَ لم أدرِ ما أنت»، وكما ورد في دعاء الصّباح لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «يا مَن دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته».

(ثانياً): إنّ التثبيت في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ يفيد العصمة الإلهيّة لرسوله الكريم ﷺ، وعصمته له لا على

نحو الجبر، وإلاّ بطل الثواب، بل بسبب قابليّته وشدّة قُرْبِهِ من الله عزّ وجلّ..

فالآية مرَكَّبة من قضيَّتَيْن: شرطيّة وأخرى جزائيّة، أمّا الأولى فقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾، وأمّا الثانية فقوله: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾، وبما أنّ «لولا» تفيد الإمتناع، فتدلّ الآية على امتناع الجزاء لوجود التثبيت مثل قوله عليه السلام: «لولا الحجّة لَسَاخَت الأرض بأهلها»، فامتنع هلاك النّاس لوجود الإمام عليه السلام.

فالحاصل: إنّ الآية تفيد امتناع صدور الرُّكون منه ﷺ إليهم لوجود مَلَكَة العصمة، فالمعنى: لولا أنْ ثبَّتْناكَ بعصمتنا لكنتَ دَنَوْتَ بالميل إليهم قليلاً، لكنّا ثبَّتْناكَ ـ لاستحقاقكَ ذلك ـ فلم تدنُ ولو قليلاً إليهم، فضلاً عن أنْ تجيبهم إلى ما سألوا، فهو ﷺ لم يجبهم إلى ما سألوا ولا مالَ إليهم شيئاً قليلاً ولا كاد أنْ يميل.

(ثالثاً): إنّ المراد من الجزاء ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ﴾ هو القُرب من الميل والإنصراف، وليس معناه الميل، فامتنع القرب من الميل، فضلاً عن نفس الميل لأجل وجود التثبيت.

(رابعاً): إنّ تثبيت الله عزّ وجلّ لنبيّه الكريم ﷺ لم يكن أمراً مختصّاً بالواقعة الخاصّة، بل كان أمراً عامّاً لجميع الوقائع المشابهة لتلك الواقعة؛ لأنّ السبب الذي أوجب إفاضة التثبيت عليه فيها، يوجب إفاضته عليه في جميع الوقائع المشابهة، ولا معنى لخصوصيّة المعلول والمسبَّب مع عموم العلّة، وبذلك تكون الآية من دلائل عصمة النبي ﷺ وسداده في كلّ مراحل حياته بلا استثناء.

وعليه: يكون التثبيت في مجال التطبيق فرع التثبيت في مجال التفكير، إذ

إنّ عمل الإنسان فرع تفكيره، وعلى ذلك يُفاض على النبي ﷺ مبتدئاً من ناحية التفكّر، منتهياً إلى ناحية العمل، فهو في ظلّ هذا السَّدَاد المُفَاض، لا يفكّر بالعصيان والخلاف، فضلاً عن الوقوع فيه.

وتسديده عزّ وجلّ لنبيّه يعني عنايته الزائدة برسوله الكريم ولا يكله إلى نفسه ابداً مع التحفُّظ على حريته واختياره في كلّ موقف.

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ نظير ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]، فكما أنّ فضل الله تعالى مانعٌ من الوقوع في الضّلال، فلولا الفضل لَكَان ضلَّ، وهكذا أنّه لولا التثبيت الإلهي لَكَادَ أنْ يركن، فكان تثبيت الله تعالى له مانعاً من حصول ذلك الرُّكون.

وبالجملة: إنّ الأخبار المتقدّمة التي اعتمدها العامّة لا تلائم ظاهر الكتاب الدّالّ على عصمة النبي ﷺ، لا سيّما وأنّه عزّ وجلّ أذهب عنه الرِّجس وطهَّرَه تطهيراً، ونفى عنه المقاربة من الرُّكون ـ بنصّ الآية المتقدِّمة ـ وكذا نفى عنه الميل اليسير فضلاً أنْ يهمَّ بالعمل.

(خامساً): إنّ الخطاب المزبور في الآية لا يُراد منه النبي ﷺ بل يُقصَد به أمّته، والآية من قبيل: «إياكِ أعني واسمَعِي يا جارة»، خاطب الله بذلك نبيه ﷺ وأراد به أمَّتَهُ، وقِسْ على الآية غيرها من الآيات التي من هذا القبيل كما سوف يأتي معنا إنْ شاء الله تعالى.

## الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٦ ـ ٧]

إتّفَقَ جمهور العامّة على جواز صدور المعصية من النبي ﷺ عقلاً، ولا يجوز شرعاً، واعتقادهم هذا مبنيٌّ على إنكارهم للقبح والتحسين العقليَّين، وقد استدلّوا ـ بلسان الرّازي ـ على جواز المعصية عقلاً بدعوى أنّ العقل لا يمنع من أنْ يكون الشخص كافراً فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوّة.. [(١)].

والعجب أنّهم يستدلّون على جواز الكفر على النبي ﷺ قبل البعثة بالعقل مع أنهم ينكرون القبح والحسن العقليَّين، أليس هذا تضارباً وتناقضاً في عقائدهم وأصولها؟! مَن أنكر ذلك فقد أنكر الضَّرورة والوجدان...

**والحاصل**: إنّ الرّازي أنهى تفسير الآية إلى وجوه عديدة يجمعها الضَّلال عن الدِّين والجهل بالمصير...

وبهذه الآية استَدَلَّت المخطئة على مدَّعاها بجواز سَلْب الإيمان عن النبي ﷺ قبل بعثته وهي كما قلنا سابقاً من الآيات المتشابهات التي لا بدّ لمعرفتها بالتفصيل من الرّجوع إلى المحكَمَات للوقوف على حقيقتها، ولأجل تسليط الضوء على مقاصدها، لا بدّ من البحث في مفرَدَتَيْن في الآية هما: الضَّلال والهداية.

والضّلال والهداية ـ في أغلب موارد استعمالهما ـ هما لفظان متضادّان، إذا حلّ أحدهما إرتفع الآخر... ومن الضّلال اشتُقَّ الضّال والمُضِل، ومن الهداية: الهادي والمهديّ...

وللضال معانٍ في أصل اللغة:

الأوّل: الضّال: ضدّ الهدى والرَّشاد، فهو مساوق لعدم الإيمان، ومنه قوله

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢١٦، سورة الضحى.

تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾، ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾، ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾...

وأضللت فلاناً: إذا وجّهتَه للضّلال عن الطريق، وإيّاه أراد لبيد بقوله:

مَنْ هداه سُبُلَ الخير اهتدى ناعم البال، ومَن شاء أضلّ

ومن مشتقّات الضّلال: التضليل وهو تصيير الإنسان إلى الضّلال، قال الرّاعي:

وما أتيتُ نُجَيدةَ بنَ عُوَيمرٍ أبغي الهدى، فيزيدني تضليلاً

وضلَّ فلانٌ عن القصد: إذا جار. والضَّلضلة: الضّلال، وأرض مَضِلَّةٌ: يُضَلّ فيها ولا يُهتدى فيها للطريق، وفلان يلومني ضلّةً: إذا لم يُوَفَّق للرَّشاد في عذله، وفتنةٌ مَضلّةٌ: تُضِلُّ النّاس.

الثاني: الضّال: التائه الذي لم يُعرَف مكانه، ومؤنثه الضالة وهي ما ضلّ من البهائم للذكر والأنثى، يُقال: ضلّ الشيء: إذا ضاع. والضّالَّة من الإبل: التي بمضيعةٍ لا يُعْرَف لها ربّ أي مالِك. وضللتَ الشيءَ: إذا جعلتَه في مكان ولم تدرِ أين هو، وأضللته: إذا ضيَّعْتَه. وأضللت بعيري: إذا كان معقولاً فلم تهتدِ لمكانه...

الثالث: الضّال: من ضلّ الشيء: إذا خفي وغاب... والضّلّة: الغيبوبة في خير... ومنه ضُلُّ أي الذي لا يُعْرَف... وأصل الضّلال: الغيبوبة، يُقال: ضلّ الماءُ في اللبن: إذا غاب، وضلَّ الكافرُ: إذا غاب عن الحجّة، وضلّ النّاس: إذا غاب عنه حِفظه، والحِكمة ضالّةُ المؤمن أخذها أين وجدها: أي مفقودته لا يزال يطلبها... وأضللت بعيري: إذا ذهب مني... والضّال:

الشيء المفقود الذي تسعى وراءه، لذا يُقال: ضالّة منشودة.

الرّابع: الضّال: من المنسيّ والنّسيان، وضللتُ الشّيء: أُنسِيْتُهُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ أي تغيب عن حفظها، أو يغيب حفظها عنها.

هذه أربعة معانٍ لكلمة «ضال»، فالأخذ بالأوّل دون البقيّة يُعتَبَرُ ترجيحاً بلا مرَجِّح، بل اعتقاداً بِلاَ دليلٍ ولا برهان، وهو أمرٌ ترفضه الأدلّة العقليّة القطعيّة وكذا النقليّة من الكتاب والسُّنّة الشريفة... مضافاً إلى أنّ تقديم الأوّل على غيره مندرجٌ في خانة التقوُّل على الله تعالى بغير عِلْمٍ، وإقحامُ الرسول الأكرم ﷺ في تيه الكفر والجهل حاشا لنعلَيْه الشريفَتَيْن أنْ تطأ شبهة، فكيف بما نسبوا إليه من الزَّندَقَة، وما الكافر والزنديق إلاّ هم، عليهم لعنة الله تعالى وملائكته ورُسُلِهِ وجميع عباده الصّالِحين...

وبالجملة: فإنّ تفسير الضّال بأيّ واحدٍ من هذه المعاني سوى الأوّل ببعض شقوقه لا يثبت ما يدَّعِيه أولئك الفسقة الكفرة سوآء أجعلناها معانٍ مختلفة جوهراً وشكلاً أم جعلناها معنىً واحداً جوهراً ومختلفاً شكلاً وصورةً، فإنّ ذلك لا يؤثّر في المقصود، وإليكَ التوضيح:

أمّا المعنى الأوّل:

فالضّال وإنْ كان يتبادر منه الحيرة وعدم الهداية، إلاّ أنّ ثمّة قرائن تصرفه عن معناه الأوّل إلى غيره بما يتناسب وساحة قدس النبي ﷺ ونزاهته عن الكفر ولوازمه، بل يمكن تقسيم الضّلالة إلى قسمَيْن بحسب التصوّر العقليّ:

أحدهما: أنْ تكون الضّلالة في النفس الإنسانيّة وصفاً وجوديّاً كامناً في النفس، بحيث يُوجِب ـ هذا الوصف ـ مَنقَصَة للنفس، وظلمة لها؛ كالكفر

والشِّرك والفسق، والضّلالة في هؤلاء الأفراد صفة وجوديّة تكمن في نفوسهم، وتتزايد بحسب استمرار الإنسان في الكفر والشِّرك والعصيان والتجرّي على المولى عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فزيادة الفسق تؤدّي إلى الكفر وتزيد منه أيضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: ٣٧].

ثانيهما: أنْ تكون الضّلالة في النفس أمراً عدميّاً بمعنى كون النفس فاقدة للرَّشاد والهداية ولا تملك منهما شيئاً لوحدها، بمعنى أنْ يكون الإنسان ضالاً من حيث إنّه غير واجدٍ للهداية من عند نفسه، وفي الوقت نفسه لا تكمن فيه صفة وجوديّة مثل ما تكمن في نفس المشرِك والعاصي، وهذا كالطّفل الذي أشرف على التمييز وكاد يعرف الخير من الشَّر، والصَّلاَح من الفساد، والسَّعادة عن الشَّقاء، فهو آنذاك ضالّ، لكنْ بالمعنى الثاني للضّلال أي الأمر العدمي لا الوجودي، فيكون صاحب هذا القسم غيرَ واجدٍ للنُّور الذي يهتدي به في سبيل الحياة بنفسه بل باستعانة بالله عزّ وجلّ وتفضُّل منه...

فالإلتزام بالضّلالة بهذا المعنى لازم القول بالتوحيد الأفعالي، فإنّ كلّ ممكنٍ كما لا يملك وجوده وحياته، لا يملك فعله ولا هدايته ولا رشده؛ إلاّ عن طريق ربّه عزّ وجلّ، وإنّما يُفاض عليه كلّ شيء منه ـ لكن لا على نحو الجبر بل على سبيل الإختيار للمكلَّف ـ قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

فكما أنّ وجوده مفاضٌ من الله عزّ وجلّ فهكذا كلّ ما يوصف به من جمال وكمال هو من فيوض رحمته الواسعة، والإعتقاد بالهداية الذاتيّة دون الإستعانة

بالله عزّ اسمه، وغناء الممكن بعد وجوده عن هدايته سبحانه يناقض التوحيد الإفعالي، ويصبّ في خانة التفويض المعتزلي الذي قامت الأدلّة الفلسفيّة على بطلانه وفساده.

فأصل الهداية من الله عزّ وجلّ، وقد تضافرت الآيات على هذا الأصل، وأنّ هداية كلّ ممكن مكتسبة من الله تعالى، كلٌّ بحسب قابليّته وسِعَة ظرفه من غير فَرْقٍ بين الإنسان وغيره، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: ٧٨]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزّخرف: ٢٧]، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠].

وعليه: فالآية التي نبحث فيها تهدف إلى بيان النِّعَم التي أنعمها سبحانه على رسوله الكريم ﷺ، منذ أنْ استعدّ لها، فآواه بعدما صار يتيماً لا مأوى له ولا ملجأ، وأفاض عليه الهداية بعدما كان فاقداً لها حسب ذاتها، وأمّا تحديد زمن هذه الإفاضة فيعود إلى أوليات حياته وايّام صباه؛ بقرينة ذكره بعد الإيواء الذي تحقّق بعد اليتم، وتمّ بجده عبد المطّلب فوقع في كفالته إلى ثمانية أعوام...

وبالجلمة: فإنّ الهداية في الآية نفس الهداية الواردة في قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾، ونظائرهما من الآيات التي دَلَّتْ على أنّ النبي ﷺ كان ضالاً أي فاقداً للهداية في مقام الذّات دون استعانة بالله تعالى، فالرَّحمة الإلهيّة أفاضَت عليه الهداية بحسب قابليّته دون أنْ تخرجه من الإختيار المقتضي للثواب والمديح، وهو مقتضى التوحيد الأفعالي، ولازم ذلك كون النبي ﷺ ممكِناً بالذّات، فاقداً في ذاته كلَّ كمالٍ

وجمالٍ، مفاضاً عليه كلّ جميلٍ من جانبه عزّ وجلّ، واين هذا من الضّلالة المساوقة للكفر والشّرك والعصيان.

وبما تقدَّم يتَّضِح معنى الهداية الواردة في الآية، فهي صفة وجوديّة أُفِيضَت على الرّسول الكريم لاستحقاقٍ فيه، بتفضُّلٍ من الله تعالى، حيث أنعم على نبيه ﷺ وعلى عامّة الخلق بنعمة الوجود والهداية التكوينيّة والتشريعيّة بحيث تكون لله الحجّة البالغة.. وبذلك يتَّضِح أنّ الضّلالة في الآية ـ لو فَسَّرناها بضدّ الهدى والرَّشَاد ـ لا تدلّ على ما يدَّعيه أولئك المجرمون الكافرون، بل هي بصدد بيان قانونٍ كلّيٍّ سائدٍ على عوالم الإيجاد والتكوين من غير فَرْقٍ بين الإنسان وغيره، وبين الأنبياء وغيرهم.

كلّ هذا بناءاً على المعنى الأوّل لكلمة «ضال»، وأمّا بقيّة المعاني إلاّ الثاني فقد تكون هي أقرب لفهم الآية من المعنى الذي تقدَّم؛ من حيث تدعيمها بالأخبار الشّريفة الصّادرة عن أهل بيت العصمة والطّهارة ﷺ؛ والمعنى الثاني (وهو التائه الذي لم يعرف مكانه) ـ والذي قلنا أنّه لا ينطبق على الآية ـ هو ما اعتقده المخالفون في حقّ الرسول الكريم ﷺ ـ وكذا مال إليهم بذلك الشيخ السبحاني[1] ولم ينكره ـ حيث نُقل عن أوليات حياته من أنّه ضلّ في شِعاب مكّة وهو صغير، فمَنَّ الله عليه إذ ردَّهُ إلى جَدِّهِ، وقصّته معروفة في كتب السِّيَر، ولولا رحمته سبحانه لأدركه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً، فشملته العناية الإلهيّة فردّه إلى مأواه وملجئه...

إذ كيف يضيع سيّد رُسُلِهِ مع ما يملك بين ضلوعه من الإيمان بالله تعالى بحيث يفيض عليه عزّ وجلّ من العِلْم اللدنّي والحضوري ما يغنيه عن السّؤال

---

(١) لاحِظْ مفاهيم القرآن: ٥/ ١٦٩.

والطَّلَب، وقد نزَّهَهُ سبحانه عن الجهل والسَّهو والنِّسيان، أوليس الضّياع في شِعاب مكّة جهلاً رفعه الله عزّ وجلّ عنه مذ كان على أرض مكّة؟!! ونحن نسأل أخانا العلاّمة المذكور: كيف يضيع النبيﷺ في شعاب مكّة وقد إدَّعَيْتَ قبل صفحة من كلامكَ المتقدِّم في كتابك المعهود: أنّ الله قرن به من لدن أنْ كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره؟!(١).

فمَن كان مسدَّداً بمَلَك مذ كان فطيماً كيف يضيع في شِعاب مكّة؟! ومَن كان سيّد الخَلْق لا يكون المَلَك أفضل وأعلم منه!!

فالقولان الآخران ـ أي الثالث والرّابع ـ هما المتعيِّنان، ويتوافقان مع الآية والأخبار الدّالّة على ذلك.

فعلى معنى أنْ تكون الضّلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء إذا خفي وغاب عن الأعين» فالإنسان الضّال هو الإنسان المخفي ذكره، المنسيّ اسمه، لا يعرفه إلاّ القليل من النّاس، ولا يهتدي كثيرٌ منهم إليه، فبهذا المعنى يكون سبحانه قد رفع ذكر رسوله محمداﷺ وعرَّفه للنّاس عندما كان خاملاً ذكره، منسيّاً إسمه، ويؤيِّد هذا المعنى ما ورد في سورة الضُّحى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ فرفع ذكره في العالم عبارة عن هداية النّاس إليه ورفع الحواجز بينه وبين النّاس، وعلى هذا فالمقصود من «الهداية» هو هداية النّاس إليه لا هدايته من الضّلال والكفر، فكأنّه قال: فوجدكَ ضالاً، خاملاً ذكرك، باهتاً إسمك، فهدى النّاس إليك وسيَّرَ ذِكْرَكَ في البلاد، وإلى ذلك يشير مولانا الإمام الرضا عليه السلام على ما

---

(١) نهج البلاغة: خ١٧٨/ الخطبة القاصعة.

في خبر إبن الجهم بقوله: قال الله عزّ وجلّ لنبيّه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ يقول: ألم يجدكَ وحيداً فآوى إليكَ النّاس، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني عند قومكَ ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي هداهم إلى معرفتك[1].

وروى العيّاشي بإسناده عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ قال: فرداً لا مثل لكَ من المخلوقين، ﴿فَآوَىٰ﴾ النّاس إليكَ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي ضالاً في قومٍ لا يعرفون فضلَكَ، فهداهم إليكَ، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ تعول أقواماً بالعِلْمِ فأغناهم الله بكَ[2].

وعن عليّ بن إبراهيم عن أحمد بن أبي عبد الله. . . عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام في قول الله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ فآوى إليكَ النّاس، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ أي أهدى إليكَ قوماً لا يعرفونكَ حتّى عرفوك، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أي وجدك تعول أقواماً فأغناهم بعِلْمِكَ فلا تسأل عن شيءٍ أحداً، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ قال: وجدكَ ضالاً في قومٍ لا يعرفون فضل نبوّتِكَ فهداهم الله بك[3]. وورد مثله في عيون الأخبار مع زيادة[4].

هذان المعنيان يتوافقان مع الآية والأسس المنطقيّة الدالّة على وجوب تنزُّه الأنبياء عليهم السلام عن الضّلال والكفر والعصيان، فكيف بسيّدهم رسول الله محمد ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام!!!

والعجب كيف أنّ هؤلاء يمضون معاملات علمائهم وكبرائهم من باب

---

(١) بحار الأنوار: ١٦/ ١٤٢.

(٢) نور الثقلين: ٥/ ٥٩٥ح١٣.

(٣) نور الثقلين: ٥/ ٥٩٦ح١٧.

(٤) نور الثقلين: ٥/ ٥٩٦ح١٨.

الحمل على صحّة فعل المسلم، فيحملونها على الأحسن للأصل العقلائي المذكور، ولا يمضون أو يحملون أفعال رسول الله ﷺ على أكمل الوجوه وأفضلها؛ أسوةً بغيره ممّن يحبّون وعنه يدافعون؟!! وهل أنّ قاعدة وجوب حمل المسلم على الصحّة قد سنّها المعصوم ﷺ لي ولك ولم يسنّها للأنبياء والأولياء ﷺ؟!! وهل يجوز أنْ أمضي للمسلم تصرّفاته المشكوك بها على أفضل المحامل، ولا يجوز لرسول الله ﷺ وأهل بيته الطّاهِرين ﷺ حملهم على محملٍ واحدٍ يليق بهم وبقدسيّتهم؟!!

يظهر أنّ العامّة وبعض أذنابهم من الشيعة قد أخرجوا رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ من ذاك الأصل العقلائيّ، فبدلاً من حملهم على الصّحّة عند الشَّكِّ في بعص التصرُّفات نتيجة تشويش بعض الأخبار وتشابه بعض الآيات، صاروا يحملونهم على الأسوأ والأقبح!! نعوذ بالله من سبات العقل ونقصان الورع والدِّين... اللهمّ اجعلني من العارِفين بسيّد رُسُلِكَ وآله الميامين، ولا تُمِتْني إلاّ وهم راضون عنّي، رضىً لا سخط بعده ابداً، وموفياً لرعاية الحقّ فيهم والذود عن حياض قدسهم... ولا تسلبني ما أنعمتَهُ عَلَيَّ من فَهمِ مُرَادِهِم وحَلِّ ألغاز أخبارهم بحقّ الحقّ و القائم بالقسط والعدل مولاي صاحب الزَّمان ومُظْهِرِ الفُرْقان الإمام المفدَّى المهديّ المنتظر (عج).

* * *

### الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]

جاءت لفظة «الرجز» في القرآن تسع مرّاتٍ، ثمانية بمعنى العذاب إلاّ هذه.

فالرُّجز بضمّ الرّاء في هذه الآية بمعنى عبادة الأوثان والفسق...

وعليه فالرِجز بالكسر هو: العذاب في لغة أهل الحجاز، وهو غير الرجس؛ لأنّ الرجس هو النتن والقذر...

والرُّجز بضمّ الرّاء هو: العصيان والفسق وعبادة الأوثان...

فالأوّل نظير قوله تعالى:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ: ٥].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية: ١١].

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤].

والثاني ورد فقط في سور المدثر.

وأمّا الرجس فجاء في تسع آيات، هي الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١].

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة: ٩٥].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ١٠٠].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: ٣٠].

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥].

والرِّجس هو القذارة الماديّة والمعنويّة بشتّى مصاديقهما.

وبيت القصيد هنا هو: الرُّجز الوارد في الآية مورد البحث، فذكروا في معناه وجوهاً:

(الوجه الأوّل): العذاب، ذكره القتبي، وأصله الإضطراب، وقد أُقيم مقام سببه المؤدي إليه من المآثم، فكأنّه قيل: اهجر المآثم والمعاصي المؤدّيان إلى العذاب..[1].

(الوجه الثاني): السَّخَط، أي: أُهجُرْ كلّ ما يؤدّي غلى سخطه عزّ وجلّ..[2].

(الوجه الثالث): المعصية والإثم..[3].

(الوجه الرّابع): الرجز إسم لصنَمَيْن: إساف ونائلة، وقيل: للأصنام عموماً. روي ذلك عن مجاهد وعكرمة والزّهري..[4].

(الوجه الخامس): الرجز إسم للقبيح المستقذَر..[5].

(الوجه السَّادس): الرجز إسم للجفاء والسَّفَه وكلّ شيء يقبح، ولا تتخلّق بأخلاق هؤلاء المشرِكين..[6].

---

(١) تفسير روح المعاني: ١٦/ ٢٠٥، وتفسير الرّازي: ٣٠/ ١٩٣.

(٢) تفسير روح المعاني: ١٦/ ٢٠٥، وتفسير الرّازي: ٣٠/ ١٩٣.

(٣) تفسير روح المعاني: ١٦/ ٢٠٥.

(٤) تفسير روح المعاني: ١٦/ ٢٠٥.

(٥) عين المصدر السّابق.

(٦) عين المصدر السّابق.

وقد احتجّ مَن جَوَّزَ المعاصي على الأنبياء ﷺ بهذه الآية، وقالوا: لولا أنّه كان مشتغلاً بها لَمَا جاز زجره عنها بقوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾.

والجواب:

عدا عن أنّ الآية من المتشابهات التي تنسب إلى رسول الله ﷺ المعصية، وتنهاه عنها، إلاّ أنّه لا بدّ من صرفها عن ظاهرها لتعارضها مع الآية المنَزِّهة له ﷺ، وعلاج التعارض أنْ يُقال:

(أوّلاً): إنّ هذا الخطاب في الآية وأمثاله من باب «إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة»، وهذا النّوع من الخطاب له أهمّيته من النّاحية البلاغيّة؛ لأنّ الله تعالى إذا خاطب أعزّ الخلق إليه بهذا الخطاب فغيره أَوْلَى به، من هنا بإمكان القارئ الكريم والعالِم اللَّبيب أنْ يحلّ كثيراً من الآيات التي تخاطب الرسول الأكرم ﷺ بلحنٍ حادٌ وشديدٍ، ولكنّها تقصد غيره من أمّتِهِ، فهكذا آيات مفادها ولسانها تعليم الأمّة بواسطة توجيه الخطاب إلى رسوله محمد ﷺ.

(ثانياً): ولو سلَّمْنا جَدَلاً أنّ المقصود من الخطاب هو رسول الله ﷺ، فيكون أمراً على نحو التأكيد لا التأسيس، بمعنى أنّ الله تعالى يؤكّد لنبيّه ما جرى عليه من هجران ما يوجب العذاب والإبتعاد عمّا يُسخط رضاه عزّ وجلّ، وليس بمعنى ما تصوّره العامّة من أنّه ﷺ كان يتقرَّب إلى الباطل فأمره عزّ وجلّ بتركه وهجره.

وبعبارة أخرى: المراد من الأمر بالهَجْر هو المداومة على ذلك الهجران كما أنّ المسلم إذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ فليس معناه أنّنا لسنا على الهداية فاهْدِنا، بل المراد ثَبِّتْنا على هذه الهداية، فكذا ههنا.

**والحاصل:**

بما أنّ الآية الكريمة تشير إلى هجران ما يستلزم العذاب، وهو مرٌّ منتَفٍ عن سيّد الرُّسل ﷺ، إذ لا بدّ للأنبياء عليهم السلام من التحلّي بالصّفات الكريمة والحميدة، والتخلّي عن الصّفات الذميمة؛ حتّى لا يؤدّي عدم ذلك إلى نفور الناس منه لكونه سفيراً وحجّةً لله تعالى، فيجب حينئذٍ أنْ لا تتّصِفَ ذاتُه الشّريفة بما يوجب سخط الباري عزّ وجلّ، وإلاّ فيقبح تقديم المفضول على الفاضل؛ لتساوي النبي ﷺ مع غيره في القبائح والذمائم (وحاشاه ثم حاشاه ﷺ)، فتقديمه على فرض صدور القبائح منه ـ وفَرْضُ المحال ليس محالاً ـ يستلزم أيضاً الجبر في التبليغ وأداء الرّسالة، وهو قبيحٌ أيضاً؛ لوجود غيره ممّن لم يرتكب قبيحاً، فتقديم فاعل القبيح على مَن لم يصدر منه قبيحاً يُعتَبَرُ إنقلاباً على أدلّة العقل والنَّقْل القائلَيْن بعدم جواز رفع الوضيع، ووضع الرَّفيع الشَّريف:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرّعد: ١٦].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠].

فالآية نَزَلَت للتعليم، ولا تدلّ على اتّصاف النبيّ الأكرم ﷺ بها.

(ثالثاً): يُحمَل ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ على القذارة الماديّة كما يُحْمَل على القذارة المعنويّة، وحيث إنّ كلتا القذارَتَيْن منفيّتان عن رسول الله محمد ﷺ فلا بدّ من صَرْفِهما عنه ﷺ إلى غيره، بمعنى أنّ فاعل القذارة هو غير النبيّ؛ لتَنَزُّه النبي ﷺ عن فِعْلِ القَذَر، وقد جاء في بعض الأخبار أنّ فاعل القذارة هو أبو جهل، حيث جاء بقذارة وألقاها على النبي ﷺ، فيكون مورد الآية ناظراً إلى احتمالَيْن لا ثالث لهما:

(الإحتمال الأوّل): أ نْ يكون الأمر بهجر وإبعاد الدَّنس عن ثوبه وبدنه الذي أصابه القذر، فالأمر بالهجر أمرٌ بتطهير المسبَّب.

(الإحتمال الثّاني): أنْ يكون الأمر بهجر الفاعل أو المسبِّب المؤدّي إلى المسبَّب، تماماً كوجود المعلول بوجود العلّة، فلا يتحقّق المعلول بدون عِلَّتِهِ، وهنا أرادت الآية من النبي ﷺ هجران فاعل القذارة له حتى لا يتلوَّث به.

ولا يبعد صحّة الإحتمال الثاني لموافقته للإعتبار العلمي الدّا ل على قدرة النبي ﷺ على معاقبة المسبِّبِيْن لأذيّته، بالدّعاء عليهم واجتثاثهم من على وجه الأرض، لكنّ حكمة الله تعالى أَمَرَت النبي ﷺ بالصَّبْرِ على الأذيّة وهَجْرِ أولئك الأراذل دون عقاب لمصالحِ وحِكَمٍ...

وبالنتيجة: فلا تدلّ الآية الشريفة على تلبُّس النبي ﷺ بالمعصية والإثم لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ إلاّ على الإحتمال الأخير الذي أفدناه.

* * *

**الآية الرّابعة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ

وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء/ ١٠٥ ـ ١٠٦]

ظاهر الآيتَيْن أنّ النبيﷺ كان يدافع عن الخائنين ويساعدهم على مَن يطالبهم بحقوقه، ويُبطل حقوق المحِقِّين من أهل الدَّعوى، لذا نهاه الله عزّ وجلّ عن ذلك وأمره بالتوبة والإستغفار من ذلك العمل المشين والفِعْلِ القبيح..

لكنّ التّأمُّل في آيات الكتاب العزيز ـ بعد ضمّها إلى بعض ـ يقتضي الإعتقاد بخلاف الكلام المتقدِّم؛ لأنّ الله تعالى قد طَهَّرَ رسوله الكريمﷺ عن الجناية والمعصية بآياتٍ كثيرةٍ سنوردها على القارئ في مستقبل البحث ـ إنْ شاء الله ـ فلا بدّ حينئذٍ من صَرْفِهَا عن ظاهرها لتتلاءم مع الآيات والأخبار الدّالّة على تنْزيهه عن الخطيئة والعصيان.

ومورد الآية يشير إلى تأكيد النّهي على النبيﷺ عن أنْ يميل إلى الباطل، بل عليه الطَّلَب من الله تعالى أنْ يوفِّقَهُ للصَّوَاب دائماً، و يستر عليه من أنْ يميل إلى الدِّفاع عن خيانة أهل الباطل، ويشهد لهذا ما في ذيل الآيات الكريمة بعد هاتين الآيتَيْن وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣]، «فالآية تنصّ على أنّهم لا يضرّون النبيﷺ وإنْ بذلوا غاية جهدهم في تحريك عواطفه إلى إيثار الباطل وإظهاره على الحقّ، فالنبيﷺ في أمنٍ إلهيٍّ من الضَّرَر، والله يعصمه فهو لا يجور في حكمه ولا يميل إلى الجور، ولا يتبع الهوى، ومن الجور والميل إلى الهوى المذموم أنْ يفرق في حُكْمِهِ بين قويٍّ وضعيفٍ، أو صديقٍ وعدوٍّ، أو مؤمنٍ وكافرٍ ذمّيٍّ، أو قريبٍ وبعيدٍ، فأمره بأنْ يستغفر ليس

لصدور ذَنْبٍ ذي وبالٍ و تَبِعَةٍ منه، ولا لإشرافه على ما لا يُحْمَد منه، بل ليسأل من الله أنْ يظهره على هوى النفس، ولا ريب في حاجته في ذلك إلى ربّه وعدم استغنائه عنه، وإنْ كان على عصمة، فإنّ لله سبحانه أنْ يفعل ما يشاء...»[1].

ونظير هاتين الآيتَيْن قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمّد: ١٩].

فأمر النبي ﷺ بالإستغفار لا يلازم صدور المعصية من النبي ﷺ؛ وذلك لأنّ الإستغفار من الذنب أعمّ من كونه مخالَفةً قطعيّةً للمولى عزّ وجلّ، إذ ربّما يكون فِعْل المباح ذنباً عند المقرَّبين ﷺ...

وبتوضيحٍ آخر: إنّ ثمّة أصلاً عند العقلاء مفاده أنّ الشّخص إذا كان عظيماً اشتَدَّت المسؤوليّة عليه، وهذا ما يعبِّرُون عنه بـ: «حسنات الأبرار سيِّئات عند المقرَّبين»...

فَعَظَمَة الشخصيّة وخطر المسؤوليّة متحالفان، فرُبَّ عملٍ يُعَدُّ صدوره من شخصٍ جُرْماً ومعصية، وفي الوقت نفسه لا يُعَدُّ صدوره من إنسانٍ آخر كذلك.

مثال ذلك: إنّ الأحكام الشّرعيّة تنقسم إلى واجب وحرام ومستحب ومكروه ومباح ـ بناءاً على بعض المسالك الفقهيّة ـ ولا محيص عن الإتيان بالواجب وترك الحرام، نعم هناك رخصة في ترك المستحب والإتيان بالمكروه ولكن على المترَقِّب العارِف بمصالح الأحكام ومفاسدها أنْ يُحلّي الواجبات بالمستحبَّات، ويتخلّى عن المحرَّمات مع ترك المكروهات، ولا يقصر عنه

---

(١) تفسير الميزان/ الطباطبائي: ٥/ ٧٢.

المباح، فهو وإنْ أباحه الله سبحانه ولكنْ ربّما يترجّح فعله على تركه أو العكس لعنوانٍ ثانويٍّ.

فالعارِف بعَظَمَةِ الرَّبِّ يتحمّل من المسؤوليّة ما لا يتحمّله غيره، فيكون المترقَّب منه غير ما يُتَرَقَّب من الآخر، ولو صدر منه ما لا يليق، وتساهَلَ في هذا الطريق، يتأكّد منه الإستغفار وطَلَب المغفرة، لا لصدور الذَّنْبِ منه بل من باب قياس عمله إلى علوّ معرفته وعَظَمَة مسؤوليّته، فمثلاً ثمّة فَرْقٌ بين المتحضّر والبدويّ، فالمرجوّ من الأوّل القيام بالآداب والرّسوم الرّائجة في الحضارات الإنسانيّة، لكنّ المرجوّ من الثاني أبسط الرّسوم والآداب، فما ذلك إلاّ لاختلافهما من ناحية التربية والمعرفة، كما أنّ الترقُّب من نفس المتحضّرين مختلِفٌ جدّاً، فالمأمول من المثقَّف أشدّ وأكثر من غيره، كما أنّ الإنضباط المرجوّ من الجنديّ يغاير المتَرَقَّب من غيره، والغفلة القصيرة من العاشق تُعَدُّ جُرْماً وغَفْلَةً في منطق العشق، وليست كذلك إذا صَدَرَت من غيره.

هذه الأمثلة ونظائرها تثبت الأصل المتقدِّم وأنّ الوظائف لا تنحصر في الإتيان بالواجبات، والتحرُّز عن المحظورات، بل هناك وظائف أخرى، وكلّما زاد العِلْمُ والعرفان توفَّرَت الوظائف وكَثُرَت المسؤوليّات، ولأجل ذلك تُعَدُّ بعض الغفلات أو اقتراف المكروهات من الأنبياء ذَنْباً مطلَقاً بل ذَنْبٌ إذا قيس إلى ما أعطوا من الإيمان والمعرفة، ولو قاموا بطلب المغفرة والعفو، فإنّما هو لأجل هذه الجّهات، من هنا نرى شيخ الأنبياء نوحاً يقول: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويقتفي أثره خليل الرّحمان النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]، ويقول النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والمنشأ الوحيد لهذا الطَّلَب مرّةً بعد أخرى هو وقوفهم على أنّ ما قاموا به من الأعمال والطّاعات وإنْ كانت في حدٍّ نفسِها بالغةً حَدَّ الكَمَال، لكنّ المطلوب والمتَرَقَّب منهم أكمل وأفضل منه.

فاستغفار الأولياء والأنبياء عليهم السلام لا يكون من ذَنْبٍ أو خطيئة ارتكبوها.. كيف وقد صاروا أنبياء وأولياء لِعِلْمِ الله فيهم بأنّهم لا يفكِّرُون في معصيةٍ فضلاً عن إتيانها خارجاً، من هنا وقع الجدال بين المحقِّقين في وجه الحِكْمَة التي من أجلها صدر منهم طَلَب العفو من الله عزّ إسمه والإستغفار ممّا حصل منهم، وثمّة آراء ووجوه في المسألة هي الآتية:

الوجه الأوّل:

إنّ القول باختصاص التوبة والإستغفار بغير المعصوم عليه السلام لتفرُّع الإستغفار من العصيانِ ضعيفٌ، بل هما يعمّان الأولياء والأوصياء والأنبياء عليهم السلام؛ وذلك لأنّ المعصية وإنْ كانت منتفية في حقِّهِم عليهم السلام بمقتضى الأدلّة الدّالّة على وجوب عصمتهم وطهارتهم عليهم السلام لكنّ التوبة والإستغفار لا يلازمان العصيان دائماً، بل يعمّان غيره، فتخيُّل الإختصاص بغير الأنبياء وبالمعصية على وجه التحديد يؤدّي إلى اضطرابٍ في فَهْمِ الآيات والأخبار الدّالّة بظاهرها على صدور الإستغفار من هؤلاء العُظَمَاء عليهم السلام.

فاختصاص التوبة والإستغفار بمقام العصيان من دون غيره مستلزِمٌ أيضاً لانسلاخهم عن أعظم مقامات العبوديّة والكَمَال وسَدُّ أهمّ أبواب الرَّحمة عليهم، إذ لا يوجد في العبوديّة مقامٌ أعلى من الإعلان بالنَّدَامة وإظهار التقصير والإعتراف به وبالقصور عن خدمة ربِّ الأرباب، ولذا كان العابِدُون يواظبون على الدُّخول من ذلك الباب أكثر منه من غيره من الأبواب، فكان رسول الله ﷺ

لا يقوم من مجلِسِهِ إلاّ بعد الإستغفار سبعين مرّة أو أكثر بمقتضى حمل «السبعين» على العدد الكثير، وهكذا كان أهل البيت عليهم السلام يبادرون إلى الإستغفار عند حلول منيّة لهم ونزول بلاء. . . كلّ ذلك من باب إظهار التقصير بجنب الرَّبِّ العظيم، إذ مهما عبده هؤلاء في كلّ لحظات وجودهم، يعتبرون أنفسهم مقصِّرين عن أداء حقِّهِ عزّ وجلّ.

الوجه الثاني:

إنّ عصيان الأنبياء عليهم السلام واستغفارهم منه يختلف بطبيعته عن عصيان سائر النّاس، فإنّ معاصي سائر النّاس منفيّة عنهم عليهم السلام، لكنّ بعض الطّاعات عصيان لهم على سبيل الحقيقة، مثلاً اللازم لهم مباشرة أولى الرّجحين، فالعدول إلى المفضول وارتكاب خلاف الأَوْلَى عصيان حقيقي لهم، فالصّوم ندباً راجحٌ، والإفطار عند سؤال مؤمن أرجح، فلو صام النبي صلى الله عليه وآله حينئذٍ ربّما كان عاصياً، وكذا دعاء يونس على قومه كان لله تعالى وكذا دعاء موسى على قارون، ولكنّ الحِلْم والعفو أرجح وأولى، وكذا دعاء الخليل على الزُّناة كان عبادةً لله تعالى، لكنّ العفو والتشبُّه بالله تعالى وبالنبي الأميّ خاتمهم وأكملهم وبأوصيائه المعصومِيْن أَوْلَى، فتَرْكُ الأولى عصيانٌ، وما ورد عليه وآله أمران قطّ إلاّ وقد اختاروا أشقّهما على أنفسهم، وأرضاهما لله تعالى، فاختيار بعض الأنبياء للأسهل عصيان في حقِّهِم كما في حقّ آدم في الأكْلِ من الشَّجَرَة[١].

وفيه:

(١) هذا الوجه رَجَّحَ رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله على الأنبياء في اختياره الأشقّ

---

(١) أنوار الولاية/ زين العابدين: ٥٦٨.

على النَّفس و الأرضى لله تعالى، مع أنّه يتعارَض ظاهراً مع ما ورد في سورة التحريم من عتاب الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ بتحريمه النِّساء على نفسه ابتغاء مرضاة عائشة وحفصة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ [التحريم: ١].

فالتحريم وإنْ كان شاقّاً على النفس إلاّ أنّه لم يكن مرضيّاً بشكلٍ كاملٍ لله تعالى، ولو كان مرضياً لَمَا عاتبه على ذلك ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، اللهمّ إلاّ أنْ يُقال: إنّ تحريم النبي ﷺ بقيّة الأزواج والنِّساء بشكلٍ مطلَق كان شاقّاً على نفسه مع كونه غير مرضيٍّ لله ولرسوله، لكنّه ﷺ فعله ـ من باب تَرْك الأوْلَى ـ لدَفْعِ التُّهمة عن نفسه، فلم يرتضه المولى عزّ وجلّ له.

لكنّ هذا يُعتَبَرُ تَرْكاً للأولى وقد نُزِّهَ عنه نبينا ﷺ؛ بنصّ آية التطهير، فالصّحيح أنّ الله تعالى لم يرد من النبي ﷺ أنْ يشقّ على نفسه من أجل عائشة وحفصة فحسب بل لدَفْعِ التُّهَمَة، فلم يُرَخِّص له عزّ وجلّ الإمتناع عن بقيّة الأزواج أمثال أمّ سلمى ومارية وزينب بنت جحش لطهارتهِنَّ، فلا تؤخَذ الصّالحة بجرم الطّالِحَة لأجل دفع التهمة عن نفسه... وفي التّرخيص للنبيّ عن الإمتناع دلالة واضحة على فضيحة عائشة وحفصة، وجلالة قدر مارية بالخصوص وكذا أمّ سلمى وزينب رضي الله عنهُنَّ.

والحاصل: سوآء كان ترك الأوْلَى لدفع التهمة عن نفسه أو لإرضاء عائشة وحفصة، فلا يخرج عن كونه تركاً للأوْلَى، وقد ابتلى به أكثر المرسلين ومنهم نبيّ الرّحمة محمد ﷺ مع وجود فارق هو أنّ تَرْكَهُ ﷺ للأوْلَى لأجل قابليات قومه، بخلاف غيره من الأنبياء حيث كان تركهم له بسبب ضيق قابلياتهم ﷺ، والله العالِم.

(٢) مرجع هذا الوجه إثبات المعصية لهم ﷺ، غاية الأمر أنّ معصيتهم ليست معصية في حقّ غيرهم، وهذا القدر لا يكفي في توصيفهم بصفة المعصية، كما أنّ إفطار الصّائم للمسافر في شهر رمضان ليس معصيةً للمفطِر المقيم، فيلزم أنْ يكون ذلك جائزاً في حقّ المعصوم ﷺ قياساً له على مسألة الصّيام.

**الوجه الثالث:**

إنّ الأنبياء والأوصياء ﷺ ليسوا على حالة واحدة وفي مقامِ الوقوف الدّائم من أوّل عمرهم إلى آخره، بل استعدادهم أشدّ وأقوى من كلّ أحد، ويحصل لهم الترقّي في آن يسير بأزيد ممّا يخطر ببال أحد ويعقله إنسانٌ سواهم، ويكشف عنه استغفار النبي ﷺ سبعين وأزيد في كلّ مجلِسٍ، فبعد الترقّي ما فعلوه قبل ذلك نقصٌ وعصيان لو فعلوه حينئذٍ[1].

**يرد عليه:**

إنّ هذا خاصٌّ بالأنبياء والأوصياء ﷺ إلاّ نبيّنا وأهل بيته ﷺ، فاستغفار النبي ﷺ سبعين مرّة أعمّ ممّا ذَكَرَه هذا الوجه، وهو أوّل الكلام.

**الوجه الرّابع:**

إنّهم ﷺ يباشرون المباحات من الأكل والشرب والجماع والنوم ونحوذلك بحكم الضّرورة وبمقدارها على وجه الرّجحان، لكنّها بالنسبة إلى مقام خلواتهم نقصٌ، ولذا قال تعالى حكايةً عن النبيّ يونس ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فكونه ﷺ من الظالمين من حيث تركه لمثل

(١) أنوار الولاية: ٥٦٨.

هذه العبادة التي فرّغه إليها في بطن الحوت حسبما جاء في الأخبار. مضافاً إلى ما في هذه الأمور ممّا ينافي الأدب من الأكل ومدّ الرِّجل والنَّوم في حضور الرَّب تعالى وإلى تربية صفة الحيوانيّة ونحوها...

وفيه:

صحيحٌ أنّ النبيّ يونس عليه السلام إستغفَرَ بتَرْكِهِ لمثل هذه العبادة ونسب إلى نفسه الظُّلْمَ، لكنّ هذا الإستغفار لا يستلزم عدم تركه للأولى قبل دخوله إلى بطن الحوت كما هو مَفاد الأخبار الدّالة على ترْكِهِ الأَوْلَى لمّا كان في المدينة.

مضافاً إلى تطرُّق المناقشة إلى بعض الأمثلة المضروبة كالأكل والنَّوم أمام حضور الرَّبِّ الجليل، حيث إنّهما من صنع الله عزّ وجلّ في العباد، وإنْ نامَتْ عيونهم لكنّ قلوبهم يقظة مع الله تعالى وفي حضرته...

نعم، ربّما يشعرون بالبُعد حال الأكل والنَّوم؛ لأنّ الإنشغال بهاتين الصِّفَتَيْن من خواصّ القوّة الحيوانيّة التي يتنزَّه عنها الملائكة الذين هم أدنى من الأنبياء رتبةً، فكانوا يبكون ويستغفرون بسبب انشغالهم بالأمور الدنيويّة وإنْ كان ذلك على وجه الإضطرار...

هذا الوجه للشيخ الاربلي وقد عبَّر عنه بكونه معنىً شريفاً اختصّه به الله تعالى، وها نحن ننقل عبارته لأهمّيتها:

[إنّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالى وقلوبهم مملوة به، وخواطرهم متعلِّقة بالملأ الأعلى، وهم أبداً في المراقَبة كما قال عليه السلام: أعْبُد الله كأنَّكَ تراه فإنْ لم تره فإنّه يراك، فهم ابداً متوجِّهون ومُقْبِلُون بكلِّهِم عليه، فمتى انحطّوا عن تلك الرُّتبة العالية والمنْزلة الرَّفيعة إلى الإشتغال بالمأكل والمشرَب والتفرُّغ إلى النِّكاح وغيره من المباحات، عدُّوه ذَنْباً واعتقدوه

خطيئةً، واستغفروا منه، ألا ترى أنّ بعض عبيد أبناء الدُّنيا لو قعد وأكل وشرب ونكح وهو يعلم أنَّه بمرأى من سيّده ومسمع لكان ملوماً عند النّاس ومقصّراً فيما يجب عليه من خدمة سيّده ومالكه، فما ظنُّكَ بسيّد السّادات وملك الأملاك... وإلى هذا اشار ﷺ إنّه ليران على قلبي وإنّي لأستغفر بالنّهار سبعين مرّةً، ولفظة السَّبْعِيْن إنّما هي لعدّ الإستغفار لا إلى الرين، وقوله: حسنات الأبرار سيّئات عند المقرَّبين، ونظيره إيضاحاً من لفظه ليكون أبلغ من التأويل... فقد بان بهذا أنّه كان يعدّ اشتغاله في وقت ما بما هو ضرورة للأبدان معصية، يستغفر الله منها وعلى هذا فَقِسِ البواقي وهذا معنى شريف يكشف بمدلوله حجاب الشبهة..][1].

وما ذكره الإربلي رحمه الله من الجواب دفاعاً عن استغفار الأولياء والأنبياء إنّما يتماشى مع الآيات التي ظاهرها نسبة الذّنب والتّوبة، وأمّا الأدعية التي اعترف فيها الأئمّة عليهم السلام بالذّنب فلا تُقاس كلّها على الآيات، بل إنّ بعضها نظير ما ورد في دعاء كميل بن زياد: «اللهمّ اغفِر لي الذُّنُوبَ التي تحبس الدُّعاء، اللهمّ اغفِر لي الذُّنُوبَ التي تُنْزِل النِّقَم»؛ لا يمكن أنْ يكون كما ذكره الشيخ الإربلي بل يُحْمَل نظير هذا على التعليم للنّاس، وأمّا ما كانوا يناجون به ربّهم في ظلمات الليل وفي سجداتهم فيُحمَل على ما حقَّقَه العلاّمة الإربلي وعلى غيره من الوجوه المعتَبَرَة. مضافاً إلى أنّ ما ادّعاه من أنّه كان يران على قلب النبي لا يجوز نسبته إلى سيّد الأنبياء؛ لأنّ الرين هو اسوداد القلب من الذُّنوب، وهو من صفات الجهنميين، ففي التنْزيل قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، فما أفاده رحمه الله مخالف لمبدأ العصمة، مع التأكيد على أنّ رواية

---

(١) كشف الغمّة/ الاربلي: ٣/ ٤٤.

الرين على القلب من مصادر العامّة الذين ينسبون المعاصي للأنبياء حتى في التبليغ، فتأَمَّلْ.

**الوجه الخامس**: إنّ عبادات النّاس لا تليق بجناب الرَّبِّ تبارك وتعالى كما قال النبي ﷺ: [يا أبا ذر إنّ حقوق الله أعظم من أنْ يقوم بها العباد، وإنّ نِعَمَ الله عزّ وجلّ أكثر من أنْ يحصيها العباد ولكن أمسوا تائبين وأصبحوا تائبين][1].

**الوجه السَّادس**:

إنّ عدم عصيانهم بعصمة الله تعالى[2] وتوفيقه لهم على الطّاعة وعدم مباشَرَة المعصية وإلاّ فلو تُرِكُوا وأنفسهم لربّما أتوا بما تأمره نفوسهم؛ كما قال يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

**وفيه**:

إنّ هذا الوجه يستلزم العصمة الجبريّة التي قامَت البراهين القطعيّة على نفيها عنهم عليهم السلام[3]، إذ ما الدّاعي لعصمتهم المدَّعاة في حين أنّهم متساوون مع غيرهم في القابليّات الدّاعية إلى المعصية، فعصمتهم دون غيرهم ترجيح بلا مرجِّح وهو منتَفٍ بحكم الضَّرُورَة.

مضافاً إلى أنّ تمسُّك صاحب هذا الوجه بما قاله النبيّ يوسف عليه السلام مصادَرة

---

(١) مجموعة ورام: ٢/ ٥٣.

(٢) أنوار الولاية: ٥٦٩.

(٣) راجع الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية: ١/ ٣٢٠.

على المطلوب، وقوله عليه السلام نظير قول الله لنبيّه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٣]؛ وقد تَقَدَّمَ معنا وجه تفسيرهما فلا نعيد.

الوجه السّابع:

إنّ الوجود العارضي ـ كوجودهم عليهم السلام في الدّنيا ومخالطتهم للفُسّاق والمنافِقين والكافِرين ـ ذَنْبٌ ليس بعده ذَنْب، والكمال إنّما هو في الفناء، ولا يتحقَّق الوجه الآثم مع بقاء الحياة، فاستغفارهم اشتياقٌ إلى الوصال وإظهار الشَّوق كما قال سيِّد الموَحِّدِيْن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «فُزْتُ وربّ الكعبة[1]».

الوجه الثّامن:

إنّ استغفارهم عليهم السلام لرفع الدَّرَجَة، فالإعتراف بالذَّنْبِ والتقصير من أفضل مقامات العابِدِين، وليس إخباراً بل إنشاء لنوع العبادة، فكما أنّ البلايا ترد عليهم من دون ذَنْبٍ لرَفْعِ الدَّرَجَة، فكذا الإستغفار.

الوجه التّاسع:

إنّ استغفارهم عليهم السلام إنّما كان للتعييب على أنفسهم وتوبيخها واحتقارها؛ لأنّ كمالها بذلك.

الوجه العاشر:

إنّ استغفارهم عليهم السلام كان لتعليم النّاس.

---

(١) تاريخ إبن عساكر: ٣/ ٣٦٧، ترجمة الإمام عليّ عليه السلام.

وفيه:

إنّه ينافيه الإكثار منه في المواضع الخالية من النّاس كما كان يحصل لبعضهم عليهم السلام في سجدته بصلاة الليل وليس عنده من يعلّمه.

الوجه الحادي عشر:

إنّ استغفارهم كان نيابةً عن ذنوب المؤمنين، فكانوا عليهم السلام ينسبونها إلى أنفسهم ويستغفرون للمؤمنين نيابةً عنهم؛ كما فعل النبيّ موسى عليه السلام عندما طلب الرؤية نيابةً عن بني إسرائيل...

وفيه:

إنّه وإنْ كان صحيحاً في ذاته، لكنّه ليس مُطَّرِداً في كلّ حالاتهم وأزمنتهم عليهم السلام.

الوجه الثاني عشر:

إنّ استغفارهم عليهم السلام كان على سبيل التواضع وسحق الإنّيّة.

الوجه الثالث عشر:

كان استغفارهم عليهم السلام لا لأنفسهم بل لشيعتهم المذنِبين، فكانوا يستغفرون لهم كما يستغفر الملائكة لشيعتهم أيضاً.

الوجه الرَّابع عشر:

كان استغفارهم عليهم السلام لإفاضة الرَّحمة الإلهيّة، إذ يرَوْنَ ما لا يرى غيرهم، فإنّ ذنوب العباد تحجب الفيوضات وتوجب النّقمات، فاستغفارهم مانعٌ من النّقمة، وسببٌ للنّعمة.

هذا القدر من الوجوه الأربعة عشر بعدد الأولياء القادة العظام الأربعة عشر النبيّ وعترته الطّاهرة عليهم السلام جعلها الله تعالى ذخراً لي ولوالديّ ولِمَن أُحبُّ من شيعة الأئمّة عليهم السلام يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

* * *

### الآية الخامسة

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ١ ـ ٣]

لقد اعتمد علماء العامّة على هذه الآيات في نسبة المعصية والوزر لرسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة، بناءاً على الأصل الفاسد الذي أسَّسُوه من جواز صدور المعاصي من الأنبياء عليهم السلام قبل البعثة، بل وصدور الكفر منهم، وبالتالي فلا عَجَب إذا نسبوا إليه صلى الله عليه وآله العبوس بعد البعثة وحال التبليغ أيضاً. وقد رووا في مسانيدهم المعتَبَرة كالدّرّ المنثور والتفسير الكبير وصحيحي مسلم والبخاري والترمذي والنسائي قصّة شقّ صدر النبي صلى الله عليه وآله واستخراج عَلَقة سوداء من قلبه:

فقد روى أبو هريرة أنّه قال للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسول الله ما أوّل ما رأيتَ من أمر النبوّة؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً وقال: لقد سألت ابا هريرة إني لفي صحراء إبن عشرين سنة وأشهراً إذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط وأرواح لم أجدها في خلق قط وثياب لم أجدها على أحد قط، فأقبَلاَ إليَّ يمشيان حتى أخذ كلّ واحدٍ منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسّاً فقال أحدهما لصاحبه: أضجِعْهُ، فأضجَعَني بلا قصرٍ ولا قهرٍ، فقال أحدهما: إفْلِقْ صدرَهُ، فخوّى أحدهما صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أَخْرِجِ الغلّ والحَسَد، فأخرج شيئاً كهيئة

العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أَدْخِلِ الرّأفة والرَّحْمَة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضّة، ثمّ هزّ إبهام رِجْلِي اليمنى، وقال: أُغْدُ واسْلَمْ، فرجعت بها اغدو بها رقّةً على الصّغير ورحمةً للكبير(١).

وعن أنس قال: شق بطنه من عند صدره إلى أسفل بطنه فاستخرج قلبه، فغُسِلَ في طستٍ من ذهب ثم مُلِئَ إيماناً وحِكْمَةً..(٢).

وقال الطَّبَري(٣): حدثني أحمد بن محمد بن حبيب الطوسي قال: حدثنا أبو داود الطيالسي قال: أخبرنا جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي قال: أخبرني عمر بن عروة بن الزبير قال: سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنكَ نبي أوّل ما علمت حتى علمت ذلك واستيقنت؟ قال: يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما في الأرض والآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: هو هو، قال: فزنه برجل فوزنت برجل فرجحته ثم قال: زنه بعشرة فوزنني بعشرة فرجحتهم ثم قال: زنه بمائة فوزنني بمائة فرجحتهم ثم قال: زنه بألف فوزنني بألف فرجحتهم فجعلوا ينتثرون عليَّ من كفة الميزان قال: فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأمّته رجحها ثم قال أحدهما لصاحبه: شقّ بطنه فشقَّ بطني ثم قال أحدهما: أَخرِجْ قلبَه أو قال: شُقَّ قلبَه، فشقَّ قلبي فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدّم فطرحها ثم قال أحدهما للآخر: إغْسِلْ بطنه غسل الإناء واغسل قلبه غسل الإناء أو اغسل قلبه غسل الملاءة ثم دعا بالسكينة كأنها

---

(١) الدر المنثور: ٦/ ٦١٥.

(٢) الدر المنثور: ٦/ ٦١٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٢.

وجه هرة بيضاء فأدخلت قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه فخاطا بطني وجعلا الخاتم بين كتفي فما هو إلا أنْ ولَّيا عنَي.

وقال اليعقوبي[1]: [. . .فلم يزل مقيماً في بني سعد يرون به البركة في أنفسهم وأموالهم حتى كان من شأنه في الذي أتاه في صورة رجل، فشقّ عن بطنه وغسل جوفه، ما كان. فخافوا عليه وردُّوه إلى جدّه عبد المطّلب وله خمس سنين، وقيل أربع سنين، وهو في خلق إبن عشرة وقوّته.].

وقال مسلم[2]: [حدّثنا شيبان بن فرُّوخ. حدّثنا حمّاد بن سلمة. حدّثنا ثابت البُناني عن أنس بن مالك؛ أنّ رسول الله أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منكَ، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثمّ لأَمَهُ، ثمّ أعاده في مكانه، وجاء الغِلمان يسعون إلى أمّه (يعني ظِئْرَهُ) فقالوا: إنّ محمّداً قد قُتِل، فاستقبلوه وهو منتقع اللّون، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثر ذلك المخيط في صدره].

وأخرج السيوطي[3] بإسناده إلى إبن أبي حاتم عن مجاهد قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ أي ذَنْبَكَ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ قال: أثقل ظهرك.

وورد في أخبارٍ أُخَر عند العامّة أنّ الحادثة حصلت وعمره ستتان أو ثلاث، وذكر الرّازي في تفسيره وجهين في معنى شرح الصّدر:

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٣٣١.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ١٨٣ح٢٦١.

(٣) الدر المنثور: ٦/ ٦١٤.

المعنى الأوّل: شقّ الصّدر وغسله وإنقائه من المعاصي ثمّ ملؤه بالعِلْمِ والإيمان.

المعنى الثاني: ما يرجع إلى المعرفة والطاعة، فقد أبدل الله تعالى قلب نبيه ﷺ الذي كان مليئاً بالهَمّ والغَمّ، معرفةً وسروراً بطاعة الله عزّ وجلّ.

ثمّ اختار الرّازي المعنى الأوّل دون الثاني، وهذا ديدن المشكّكين الضّالّين حيث يتبنُّون المعاني المتشابهة دون المحكَمَة، والسِّر هو أنّ قلوبهم مريضة كما حدَّثنا الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

والحاصل من كلّ ذلك أنّ الملائكة قامت بعمليّة غسل القلب من المعاصي وإبداله بالطّاعات والعبادات... وهذا من أعجب الآراء التي لم يعتقد بها عَبَدَة الأوثان بأصنامهم، ولا النَّصارى في عقيدتهم بعيسى عليه السلام... إنّها عقيدة تفرَّدَ بها هؤلاء النَّوَاصِب متَعَمِّدِينَ أذِيَّةَ رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته... ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧]، فثمّة أمران لا بدّ من نقضهما:

الأوّل: قصّة شقّ الصّدر.

الثاني: نسبة الوزر إلى رسول الله ﷺ.

الأمر الأوّل ـ حادثة شق الصدر:

هذه الحادثة استنكرها المسلِمُون الشّيعة الإماميّة قاطبةً، إلاّ بعض الشواذ

ببعض اعتقاداتهم نظير ما ذهب إليه السيّد هاشم معروف الحسني الذي عدّها نوعاً من الإعجاز، والعقل لا يحيل ذلك ما دامت قدرة الله تتَّسِع لِمَا لا تحيط به العقول ولا تدركه الأوهام والظّنون..[1].

إنّ ما تفوّه به هذا الرَّجل لا يُعَبِّر عن رأي الإماميّة الذين تفرّدوا من بين عامّة الملل والأديان والمذاهب والفِرَق بتنْزيه الأنبياء والمرسَلين ﷺ من وصمة الشيطان وهمزاته ولمزاته وآثاره... فما ذكره هاشم الحسني ليس سوى هرطقة وشططاً عن جادّة الصواب، أجارنا الله تعالى من سوء الخاتمة بسيّد المرسَلين وآله الطّاهرين.

تفنيد حاثة شقّ الصدر:

إنّا لو عرضنا الحادثة على كتاب الله الكريم نراها مخالِفةً له جملةً وتفصيلاً، عدا عن مخالفتها للبراهين النبويّة والولويّة وأحكام العقل، وإليك الملاحَظات عليها:

الملاحظة الأولى:

إنّ الحادثة رواها العامّة بأسانيد متعدّدة وبمداليل مختلفة ومضطربة، وفي أوقات متعدِّدة، ويظهر من صحيح مسلم وغيره أنّ الحادثة تكرَّرَت مرّاتٍ متعدِّدة في صغره في السنة الثانية أو الثالثة وأخرى في العاشرة، وعند كبره يوم مبعثه وعند الإسراء.

والقدر المتيَقَّن من غسل قلبه في تلكم الرّوايات هو تطهيره من الشّيطان، وهذا يحصل من أوّل مرّة، فما بال هذا النبيّ المزعوم عند العامّة لا يكتفي بمرّة

---

(١) سيرة المصطفى: ٤٦.

لتطهيره، بل احتاج إلى مرّاتٍ!!!، فيظهر أنّ الشيطان متمكّنٌ منه ومهيمِنٌ عليه، فإذا كان كذلك فكيف يُشرَّف بالنبوّة ويجعله الله عزّ وجلّ رحمةً للعالَمين وسيّداً للأنبياء والمرسَلين الذين لم يحتاجوا إلى عمليّة قسريّة تطهِّرُهُم من مسّ الشيطان كما احتاجه سيّد المرسَلِين!!!

كما أنّ الإضطراب في مداليلها يوجب سقوطها من أساسها، وحتى لو كانت مستقيمةً في المداليل فليست بحجّة ما دامت تصادم أدلّة عصمة الأنبياء، فلا حاجة للإستدلال بغير أدلّة العصمة على بطلانها وسقوطها عن الإعتبار.

فبعض الرّوايات تقول إنّ الملَكَيْن شقّا قلبه، وبعضها إنّهما شقّا بطنه إلى عانته واستخرجا علقة سوداء، وفي بعضها أخرجا منه مغمز الشّيطان، وفي رابعة أخرجوا أمعاءه ثمّ غسلوها بثلج، وفي خامسة أنهما غسلا قلبه بماء زمزم... إلى آخر ما هنالك من خزعبلات في مضامين هذه الرّوايات التي تتوافق مع ما روي عن أميّة بن أبي الصلت ـ حسبما يذكر صاحب كتاب الأغاني ـ أنّه كان نائماً، فجاء طائران فوقع أحدهما على باب البيت، ودخل الآخر فشقّ عن قلب أميّة ثمّ ردّه الطّائر، فقال له الطّائر الآخر: أوعى؟ قال: نعم، قال: زكا؟ قال: أبى.

وفي رواية أخرى رواها أيضاً الأصفهاني في الأغاني أنّ أميّة المذكور كان نائماً عند أخته على سريرٍ، فانشقّ جانبٌ من سقف بيتها، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما على صدره، ووقف الآخر مكانه، فشقّ الواقع على صدره، فأخرج قلبه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أوعى؟ قال: وعى، قال: أقبل؟ قال: أبى، قال: فرُدَّ قلبَهُ في موضعه..[1].

---

(١) الأغاني: ٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩ ـ ١٩٠.

مضافاً إلى أنّ حادثة شقّ الصّدر تتوافق مع الإعتقاد المسيحي القائل بأنّ البشر جمعياً سقطوا في الخطيئة واقتراف الآثام ـ حتى النبيّ محمدﷺ ـ إلاّ عيسى بن مريم الذي ارتفع عن طبقة البشر، فهو وحده قد استحقّ العصمة والصَّوْن من الآثام.

وحديث شقّ الصّدر يأتي مؤيّداً لهذا الإعتقاد الباطل، ومؤكداً أيضاً لِمَا أورده البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة في حديث عن النبيﷺ قال: «كلّ بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن، فطُعن في الحجاب»[1]؛ أي طُعِنَ إبليس في المشيمة، والطّاعِن له عيسى عليه السلام.

وفي رواية: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من بني آدم مولود إلاّ يمسّه الشيطان حين يولد، فيستهلّ صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها»[2].

وفي رواية ثالثة: كلّ بني آدم قد طعن الشيطان فيه حين ولد غير عيسى بن مريم وأمّه، جعل الله دون الطّعنة حجاباً فأصاب الحجاب ولم يصبها[3]!!!

فقه هذا الحديث يطعن في كلّ بني آدم إلاّ النبيّ عيسى بن مريم وأمّه وبذلك لم يسلم مِنْ طعن الشيطان أحدٌ غيرهما من بني آدم أجمعين، حتى الرُّسُل: نوح وإبراهيم وموسى والخاتم سيد الرُّسُل محمدﷺ وجميع النبيّين!!

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١٤٢، ط. عام١٣٠٩، وفتح الباري: ٦/ ٤٧٠.

(٢) أضواء على السنة المحمّدية/ محمود أبو ريّة: ١٨٥، ومسند أحمد: ٢/ ٢٧٤، وتفسير الطبري: ٣/ ٢٣٩، وصحيح البخاري: ١٤/ ١٦٥٥.

(٣) أضواء على السنة المحمدية: ١٨٥.

المـلاحظة الثانية:

لم تقف رواياتهم عند كون عيسى نبيّ الله الوحيد الذي لم يقربه الشّيطان، بل تناولت شخصيّة النبي ﷺ حيث لم ينجُ من نخسة الشيطان إلاّ بعد أنْ نفذت الطّعنة إلى قلبه، وكان ذلك بعمليّة جراحيّة تولَّتْها الملائكة بآلات جراحية مصنوعة من الذَّهَب! ونَصَّت هذه الرّوايات بأنّ صدره ﷺ قد شُقّ وأُخرِجَت منه العَلَقَة السّوداء، وكان حظاً للشيطان ـ كما يقولون ـ وكأنّ العمليّة الأولى لم تنجح فأُعيد شقّ صدره، ووقع ذلك مرّات عديدة بَلَغَت خَمْسَاً، أربعٌ منها باتّفاق جميع رواياتهم، وقالوا أنّ تكرار الشق إنما هو زيادة في تشريف النبي ﷺ!!!

وهذه العمليّة الجراحيّة لتشبه من بعض الوجوه عمليّة صلب المسيح عليه السلام وهو لم يرتكب ذَنْباً يستوجب هذا الصَّلْب، وإنّما ذكروا ذلك لكي يغفر الله تعالى خطيئة آدم التي احتملها هو وذريته من بعده إلى يوم القيامة، وأصبحت في أعناقهم جميعاً، وتنصّ العقيدة المسيحيّة أنّه لا يظفر بهذا الغفران إلاّ مَن يؤمن بعقيدة الصَّلْب.

ولئن قال المسلمون للمسيحيّين: ولِمَ لا يغفر الله لآدم خطيئة بغير هذه الوسيلة القاسية التي أزهقت فيها روح طاهرة بريئة هي روح عيسى عليه السلام بغير ذَنْبٍ؟ قيل لهم: ولِمَ لم يخلق الله عزّ وجلّ قلب رسوله الذي اصطفاه كما خلق قلوب إخوانه من الأنبياء المرسَلين ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ نقيّاً من العلقة السّوداء وحظّ الشيطان بغير هذه العمليّة الجراحيّة التي تمزّق فيها صدره وقلبه مرّاتٍ عديدة!!

المـلاحظة الثالثة:

المحقَّق عند المسلمين جميعاً أنّه ليس للشيطان سلطان على عباد الله

المخلصين، وخيرهم الأنبياء والمرسَلون، وخيرهم رسول الله محمدﷺ، فهذا الحديث الظنّي يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤١].

فكيف يُدفع الكتاب بالسنّة أو يُعارض المتواتر الذي يفيد اليقين بأحاديث الآحاد التي لا تفيد إلاّ الظنّ؟! هذا إذا كانت هذه الأحاديث صحيحة، على أنّ حديث نخس الشيطان قد طعن فيه الزّمخشري في الكشّاف، وقال فيه الرّازي أنّ القاضي قد طعن في هذا الخبر وأنّه خبرٌ واحدٌ، ورد على خلاف الدّليل فوجب ردّه.

**الملاحظة الرّابعة:**

إنّ الشيطان إنما يدعو إلى الشر مَن يعرف الخير والشّرّ، والصبي ليس كذلك، ولو فرضنا قدرته على النخس والطعن لكان فعل أكثر من ذلك، من إهلاك الصّالحين وإفساد أحوالهم.

**الملاحظة الخامسة:**

إنّ تأثير الغسل إنما هو في إزالة الأجسام، والمعاصي ليست بأجسام، فلا يكون للغسل فيها تأثير.

مضافاً إلى أنّه لا يصحّ أنْ يملأ القلب علماً، بل الله تعالى يخلق فيه العلوم، وقبل أنْ يُملأ قلبه عِلْماً وإيماناً كان جاهلاً كافراً وهما ـ أي الجهل والكفر ـ من الكيفيّات النفسانيّة التي لا يمكن تطهيرهما بالماء، وكيف يطهر القلب وما فيه من الإعتقاد بالماء؟!!

**الملاحظة السادسة:**

إنّ ملء قلبه إيماناً ثمّ وضعه في صدره، فيه دلالة على سلب إختيار الإيمان

من قلب النبي ﷺ، فيصبح مجبَرَاً على عمل الخير، وليس لإرادته واختياره فيه أيّ أثر أو دور؛ لأنّ حظّ الشيطان قد أُبعِدَ عنه بشكلٍ قطعيٍّ وقهريٍّ، وبعمليّة جراحيّة، كأنّ أنس بن مالك ـ بحسب بعض الرّوايات المتقدّمة ـ يرى أثر المخيط في صدره الشّريف!!!

**تفنيد ما ادعاه هاشم معروف الحسني:**

أمّا الإعتراض على السيد هاشم صاحب كتاب «سيرة المصطفى ﷺ» القائل بأنَّ حادثة شقّ الصّدر نوعٌ من الإعجاز، والعقل لا يحيل ذلك ما دامت قدرة الله تعالى تتَّسِع لِمَا لا يحيط به العقل... فبما يلي:

ما أفاده الحسني مصادَرة على المطلوب؛ لأنّه جعل النتيجة داخلة في الإعجاز.

وبمعنى آخر: جعل الإعجاز دليلاً على حصول الحادثة، في حين إنّا لا ننكر إعجاز الله تعالى، بل ننكر الصُّغرى التي ادّعاها، إذ إنّه ركّب صغرى على كبرة منطقيّة، مع أنّ الصُّغرى مخالِفة للعقل وصريح الآيات والأخبار، والصُّغرى والكبرى هكذا:

الصُّغرى: حادثة شقّ الصّدر إعجاز.

الكبرى: وكلُّ إعجاز داخلٌ في قدرة الله تعالى.

النتيجة: فحادثة شقّ الصّدر داخلة في الإعجاز الإلهي.

فالنتيجة المنطقية فاسدة؛ لأنّ المقدّمات فاسدة، فما ابتنى على فاسدٍ سيكون فاسداً، وهذا ما حصل عند السيد الحسني رحمه الله!

فإدخاله حاثة شقّ الصّدر في الإعجاز هو أوّل الكلام، فمن أين أثبتَ

ذلك؟ وما الدّليل عليه؟ فهذه أسئلة برسم الإجابة لا أظنّ أنّ الحسني ـ لو قُدِّرَ له الحياة ـ يملك ردوداً عليها، فتبقى الحادثة مجرَّد دعوى جزافية تفتقر إلى مستند علمي قاطع، وكلّ دعوى بلا دليل تُرَدُّ على صاحبها، فعلى المدَّعِي البيِّنَة، وحيث لا بيِّنة لديه لا يُقبَل قوله، بل الدّليل عكس ما قاله، والقول المعاكِس للدَّليل ظنٌّ، وإنّ الظّنّ لا يُغني من الحقّ شيئاً ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩].

الإعجاز لا يقلب الحقائق إلى أباطيل أو بالعكس، بل له ضوابط وشروط، لذا لا يتدخل الإعجاز في الضّرورات والقطعيّات العقائديّة، كما أنّه لا يكون خارقاً للعقل، نظير اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما، ووجود المعلول بلا علّة، وانقسام الثلاثة إلى عددين صحيحين. . . فإنّ هذه أمور يحكم العقل باستحالتها وامتناع تحقُّقها.

فالعقل يحكم بأنّ الرسول ﷺ ـ كغيره من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ـ يجب أنْ يكون منزَّهاً عن الجهل والكفر، فلا يجوز ـ حينئذٍ ـ أنْ تدخل المعجزة لجعل الجاهل والكافر نبيّاً؛ لأنّ ذلك تدخُّلٌ في الضّرورة العقليّة. . . ودعوى السيد الحسني من هذا القبيل!!!

وأمّا الأمر الثاني: نسبة الوزر إلى رسول الله ﷺ «حاشا له من ذلك»:

الوِزْر بكسر الواو وسكون الزّاء، بمعنى: الحِمْل الثقيل، ووزَرَ يزر: إذا حمل ما يُثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذُّنوب، ووزَرَ وِزْراً: أَثِمَ، ومنه اشتقّ إسم الوزير لتحمّله أثقال الملك، وإنّما سُمِّيَت الذُّنوب أوزاراً لِمَا يُستَحقّ عليها من العقاب العظيم، والوَزَر بفتح الواو والزّين بمعنى: الملجأ والجّبل

المنيع، وكلّ مَعْقل وزرٌ، وفي التنزيل: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ [القيامة: ١١]، فكلّ ما التجأتَ إليه وتَحصَّنْتَ به فهو وزَرٌ، ومعنى الآية: لا شيء يُعتصم فيه من أمر الله تعالى.

وعليه؛ فلو قرأنا الآية بصيغة كسر الواو فيدور المعنى بين اثنين: الحِمْل الثقيل والذَّنب.

فبما أنّ الحَمْلَ على «الذَّنب» خلاف الأدلّة القطعيّة الدّالّة على تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الإثم والعصيان، يتعيَّن الأخذ بالمعنى الأوّل وهو الثِّقْل والتَّعَب وذلك يتناسب مع القرائن القطعيّة على ذلك... فكلّ لفظ مجمل المعاني تدور بين المتشابه وغيره، يجب حينئذٍ الإحتراز عن الأخذ بمعانيه المتشابهة لورود النهي عن الأخذ بها لا سيّما في أصول العقيدة.

لقد استعير للذنب إسم الوزر كما حسُن أنْ يُستعار للهمّ المجهد والغمّ الباهظ، ولقد كان رسول الله ﷺ قبل البعثة في أشدّ ما يكون من الغمّ والهمّ، وأثقله وأجهده لأجل ما يراه من ضلال النّاس وأهوائهم المردية وعوائدهم القبيحة وعباداتهم الباطلة، ويتجرّع من ذلك غصص النكد حتى إنّه ﷺ كان لأجل ذلك يحبّ العزلة ويلازم غار حراء مدّة من السنة مستوحشاً من ضلال النّاس، معانياً لأعباء هذا الهمّ المبرح وضيق الصّدر، منتظراً لفرج الله ولطفه ورحمته الواسعة، حتى شرح الله تعالى صدره ويسّر أمره، فوضع عنه أوزار الهمّ والعناء بالبعثة والرّسالة وبالدّعوة إلى الحقّ، فوجد من ذلك انشراح الصّدر وروح الهدى وراحة الفرج ومسرّة اليسر، و لا يبعد أنْ يكون الإنشراح ببلوغ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام مبلغ الرجال ليكون العضد القوي لنصرة رسول الله ﷺ وإحياء التوحيد بجهوده القيّمة وجهاده العظيم...

فالمراد من وضع وزره ﷺ على «ما يفيده السّياق هو إنفاذ دعوته وإمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب فإنّ الرّسالة والدّعوة وما يتفرّع على ذلك هي الثقل الذي حمله إثر شرح صدره»[١].

وثمّة معانٍ أخرى للوزر لا تتلاءم مع السّياق بحسب دعوى السيد الطباطبائي إلاّ أنّ الحقّ أنّ بعضها مقبول لإدخالها في التأويل وبطون الآية نظير ما قيل:

- إنّ الوزر هو ما كان يرى من ضلال قومه وعنادهم مع عجزه عن إرشادهم.
- أو ما كان يراه ﷺ من تعدّيهم ومبالغتهم في إيذائه.
- أو همّه لوفاة عمّه أبي طالب عليه السلام وزوجته خديجة أمّ المؤمنين عليها السلام.
- أو أنّ الوزر: ذَنْب شيعته، ووضْعه غفرانه.

والحاصل: إنّ الآية ترشد إلى ما ذكرنا آنفاً، وهذا يتوافق مع دلالة العقل والنقل على عصمة النبيّ من الإثم والعصيان، وكذا سوق السّورة في طرد الإمتنان بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ أي بالوحي والنبوّة بعدما كان ضيقاً بالهموم ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ أي ثقل الهمّ والغمّ ببَركَة الأمر بالدّعوة والتجاهر بها، كما ينصّ على ذلك حديث الدّار... ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ أي بحقائق المعارف والرّسالة وإعلان ذكرك على غيرك من الأنبياء والمرسَلين عليهم السلام، حيث قَرَنَ الله تعالى إسمه ﷺ بإسمه، فإسمه قرين اسم ربّه في الشّهادَتَيْن اللّتَيْن هما أساس دين الله عزّ وجلّ، وعلى كلّ مسلم أنْ يذكره مع ربّه كلّ يوم في الصّلوات الخمس المفروضة.

---

(١) تفسير الميزان: ٢٠/ ٣١٥.

ويوضح ذلك تعليله المؤكّد بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾؛ فإنّ هذا التعليل إنّما يناسب الفرج من الضّيق وتيسير الأمور وإزاحة ثقل الهمّ الباهظ، ولا مناسبة له مع غفران الذُّنوب.

* * *

**الآية السّادسة**

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١ ـ ٢].

تمسّك المخَطِئون لعصمة الأنبياء ﷺ بهذه الآية على مدّعاهم، حيث أشارت الآية ـ بحسب اعتقاد هؤلاء ـ إلى صدور ذنوبٍ من النبيّ محمد ﷺ (حاشاه)، وإلاّ فما معنى أنْ يغفر الله تعالى ما تقدّم من ذَنْبِهِ وما تأخّر أي ما تقدَّمَ من فتح مكّة أو صلح الحديبية أو خيبر، وما تأخّر عن أحدها على خلافٍ بين المفسِّرين في تعيين يوم الفتح.

ونحن لن نزيد على ما ذكره العلاّمة المفسّر الطبرسي من أعلام القرن السّادس الهجري لأهمية أكثره، وتلخيصه لجميع الأقوال في المسألة، قال رحمه الله:

[قيل فيه أقوال كلّها غير موافق لما يذهب إليه أصحابنا: أنّ الأنبياء معصومون من الذنوب كلها، صغيرها وكبيرها، قبل النبوة وبعدها. فمنها: إنهم قالوا معناه ما تقدم من معاصيك قبل النبوة، وما تأخر عنها ومنها: قولهم ما تقدم الفتح، وما تأخر عنه ومنها: قولهم ما وقع وما لم يقع على الوعد بأنه يغفره له إذا وقع ومنها: قولهم ما تقدم من ذَنْب أبويك آدم وحواء ببركتك، وما تأخر من ذنوب أمّتك بدعوتك.

والكلام في ذَنْب آدم كالكلام في ذَنْب نبينا ﷺ، ومَن حمل ذلك على الصغائر التي تقع محبطة عندهم، فالذي يُبْطِل قولهم: أنّ الصغائر إذا سقط عقابها، وقعت مكفرة، فكيف يجوز أنْ يمن الله سبحانه على نبيه ﷺ بأن يغفرها له، وإنما يصحّ الإمتنان والتفضل منه سبحانه بما يكون له المؤاخذة به لا بما لو عاقب به لكان ظالماً عندهم، فوضح فساد قولهم. ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل:

أحدهما: إنّ المراد ليغفر لك الله ما تقدم من ذَنْب أمّتك، وما تأخر بشفاعتك، وأراد بذكر التقدُّم والتأخُّر ما تقدَّم زمانه، وما تأخَّر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السّالف والآنف من ذنوبك. وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للإتصال والسبب بينه وبين أمته، ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سأله رجل عن هذه الآية فقال: والله ماكان له ذَنْب، ولكن الله سبحانه ضمن له أنْ يغفر ذنوب شيعة علي عليه السلام ما تقدَّم من ذَنْبهم وما تأخَّر، وروى عمربن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله سبحانه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال: ما كان له ذَنْب، ولا هَمَّ بذَنْب، ولكنّ الله حمَّلَهُ ذُنُوبَ شيعته، ثم غفرها له.

والثاني: ما ذكره المرتضى، قدس الله روحه، أنّ الذَنْب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، والمراد ما تقدَّم من ذَنْبهم اليك في منعهم إيّاك عن مكّة، وصدِّهم لكَ عن المسجد الحرام، ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليكَ تلك الوصمة، بما فتح لكَ من مكّة، فستدخلها فيما بعد، ولذلك جعله جزاء على جهاده وغرضاً في الفتح، ووجهاً له قال: ولو أنّه أراد مغفرة ذنوبه، لم يكن

لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ معنى معقول، لأنّ المغفرة للذُّنوب لا تعلُّقَ لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه. وأمّا قوله: ما تقدَّمَ وما تَأَخَّرَ، فلا يمتنع أنْ يريد به ما تَقَدَّمَ زمانُه من فِعْلِهِم القبيح بك وبقومك.

وقيل أيضاً في ذلك وجوه أخر منها: إنّ معناه: لو كان لك ذَنْب قديمٌ أو حديثٌ، لغفرناه لك ومنها: إنّ المراد بالذَّنْب هناك ترك المندوب، وحسن ذلك، لأنّ من المعلوم أنّه ممّن لا يخالف الأوامر الواجبة فجاز أنْ يُسمّى ذَنْبا منه، ما لو وقع من غيره، لم يسمَّ ذَنْباً، لعلوّ قدره ورفعة شأنه ومنها: إنّ القول خرج مخرج التعظيم، وحسن الخطاب كما قيل في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. وهذا ضعيفٌ لأنّ العادة جَرَتْ في مثل هذا أنْ يكون على لفظ الدُّعاء][1].

تنبيهٌ هامٌ: الوجه الأوّل في ذيل كلام الطّبرسي في نقل الوجوه الأخرى في معنى الذُّنُوب المنسوبة إلى النبي ﷺ غير مراد للشيخ رحمه الله، وذلك لأنّه ذكر سابقاً أنّ الأنبياء عليهم السلام منزَّهُون عن ارتكاب الذُّنُوب صغيرها وكبيرها قبل النبوّة وبعدها، فلا يظنَّنَّ أحدٌ أنّ الطبرسي نقل أحد الأقوال فهو يتبنّاها لأنّه لم يردّها، بل ردّها مسبقاً وسلفاً فتأمّلْ.

وبعبارة أخرى: إنّ المراد من الذنْب هو ما كانت قريش تصفه به، كما أنّ المراد من المغفرة هو إذهاب آثار تلك النِّسَب في المجتمع، ويكون المراد أيضاً من المغفرة هو العفو عن ذنوب شيعة أخيه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وإضافة الذنوب إلى النبي ﷺ توسعاً وتجوزاً.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٩/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

وهنا من الجيّد أنْ نستعرض ما قاله العلاّمة السيد المرتضى من أعلام القرن الثالث والرّابع الهجريّين لدقّته ومتانته، قال ﷺ تحت عنوان:

## تنزيه سيّدنا محمدﷺ عن الذَّنْب:

إنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أو ليس هذا صريحاً في أن له ﷺ ذنُوْباً كانت مغفورة.

(الجواب): قلنا أمّا مَن نفى عنه ﷺ صغائر الذُّنُوْب مضافاً إلى كبائرها، فله عن هذه الآية أجوبة نحن نذكرها ونبيّن صحيحها من سقيمها، منها: أنّه أراد تعالى بإضافة الذَّنب إليه ذَنب أبيه آدم عليه السلام. وحسنت هذه الإضافة للإتصال القربى، وعفوه له من حيث أقسم على الله تعالى به، فأبرّ قسمه، فهذا المتقدم، والذنب المتأخّر هو ذَنب شيعة أخيه عليه السلام. وهذا الجواب يعترضه أن صاحبه نفى عن نبيٍّ ذَنباً وإضافه إلى آخر، والسؤال عليه فيمن أضافه إليه كالسؤال فيمن نفاه عنه.

ويمكن إذا أردنا نصرة هذا الجواب أن نجعل الذُّنُوْب كلّها لأمّته ﷺ، ويكون ذِكرُ التَّقَدُّم والتَّأَخُّر إنّما أراد به ما تقدَّم زمانه وما تأخَّر، كما يقول القائل مؤكِّداً: «قد غفرت لكَ ما قدَّمت وما أخرت وصفحت عن السالف والآنف من ذُنُوْبك».

ولإضافه ذنُوْب أمته إليه وجهٌ في الإستعمال معروف لأنّ القائل قد يقول لِمَن حَضَرَهُ من بني تميم أو غيرهم من القبائل: أنتم فعلتم كذا وكذا وقتلتم فلاناً، وانْ كان الحاضرون ما شهدوا ذلك ولا فعلوه وحسنت الإضافة للإتّصال والتسبُّب ولا سبب أوكد ممّا بين الرسولﷺ وأمّته، فقد يجوز توسُّعاً وتجوُّزاً أنْ تُضاف ذُنُوْبهم إليه.

(ومنها): أنّه سمى ترك الندب ذنباً وحسن ذلك لأنّه ﷺ ممن لا يخالف الأوامر إلاّ هذا الضرب من الخلاف ولعظم منْزلته وقدره جاز أنْ يسمَّى بالذنب منه ما إذا وقع من غيره لم يُسَمَّ ذنباً، وهذا الوجه يضعفه على بُعْد هذه التسمية أنّه لا يكون معنى لقوله: أنني اغفر ذنبك، ولا وجه في معنى الغفران يليق بالعدول عن الندب.

(ومنها): أنّ القول خرج مخرج التعظيم وحسن الخطاب كما قلناه في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. وهذا ليس بشيء لأنّ العادة قد جرت فيما يخرج هذا المخرج من الألفاظ أنْ يجري مجرى الدُّعاء، مثل قولهم: غفر الله لكَ، وليغفر الله لكَ، وما أشبه ذلك. ولفظ الآية بخلاف هذا لأنّ المغفرة فيها جرت مجرى الجزاء والغرض في الفتح. وقد كنا ذكرنا في هذه الآية وجهاً اخترناه وهو أشبه بالظّاهر ممّا تقدَّم، وهو أنْ يكون المراد بقوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ الذُّنُوْب إليك، لأنّ الذَّنْب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً، إلاّ ترى أنّهم يقولون: أعجبني ضرب زيد عمراً إذا أضافوه إلى الفاعل، وأعجبني ضرب زيد عمرا إذا أضافوه إلى المفعول.

ومعنى المغفرة على هذا التأويل هي الازالة والفسخ والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه، وذُنُوْبهم إليه في منعهم إيّاه عن مكّة وصَدِّهِم له عن المسجد الحرام. وهذا التأويل يطابق ظاهر الكلام حتى تكون المغفرة غَرَضاً في الفتح ووجهاً له وإلاّ فإذا أراد مغفرة ذُنُوْبه لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ معنى معقول، لأنّ المغفرة للذُّنُوْب لا تعلق لها بالفتح، وليست غرضاً فيه.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، فلا يمتنع أنْ يريد به ما تقدَّم

زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك وما تأخّر، وليس لأحدٍ أنْ يقول أنّ سورة الفتح نزلت على رسول الله ﷺ بين مكّة والمدينة وقد انصرف من الحديبية.

وقال قومٌ من المفسِّرِيْن: أنّ الفتح أراد به فَتْح خيبر، لأنّه كان تالياً لتلك الحال، وقال آخرون: بل أراد به أنّا قضينا لكَ في الحديبية قضاءً حَسَناً فكيف يقولون ما لم يقله أحدٌ من أنّ المراد بالآية فَتْح مكّة، والسورة نزلت قبل ذلك بمدّة طويلة، وذلك أنّ السورة وإنْ كانت نزلت في الوقت الذي ذُكِر وهو قبل فَتْح مكّة، فغير ممتنع أنْ يريد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فَتْح مكّة، ويكون ذلك على طريق البشارة له والحكم بأنّه سيدخل مكّة وينصره الله على أهلها، ولهذا نظائرٌ في القرآن، والكلام كثيرٌ.

ومما يقوي أنّ الفتح في السّورة أراد به فَتْح مكّة قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، فالفتح القريب ههنا هو فَتْح خيبر، وأما حمل الفتح على القضاء الذي قضاه في الحديبية فهو خلاف الظّاهِر. ومقتضى الآيه لأنّ الفتح بالإطلاق الظاهر منه الظفر والنصر، ويشهد بأنّ المراد بالآية ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

فإنْ قيل: ليس يعرف إضافة المصدر إلى المفعول إلاّ إذا كان المصدر متعدياً بنفسه، مثل قولهم: أعجبني ضرب زيد عمرواً، وإضافة مصدر غير متعدٍّ إلى مفعوله غير معروفة.

قلنا: هذا تحكُّمٌ في اللسان وعلى أهله لأنّهم في كتب العربية كلّها أطلقوا أنّ المصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول معاً، ولم يستثنوا متعدّياً من غيره، ولو كان بينهما فَرْقٌ لبيَّنُوه وفَصَّلُوه كما فعلوا في غيره وليس قلة الإستعمال معتبرة

في هذا الباب لأنّ الكلام إذا كان له أصلٌ في العربية استُعْمِلَ عليه، وإن كان قليل الاستعمال.

وبعد فإنّ ذنبهم ههنا إليه إنّما هو صدّهم له عن المسجد الحرام ومنعهم إيّاه عن دخوله، فمعنى الذَّنْب متعدٍّ، وإذا كان معنى المصدر متعدياً جاز أنْ يجري مجرى ما يتعدّى بلفظه، فإنّ من عادتهم أنْ يحملوا الكلام تارةً على معناه وأخرى على لفظه، أَلاَ ترى إلى قول الشاعر:

جئني بمثل بني بدر لقومهم    أو مثل إخوة منظور بن سيار

فأُعمِلَ الكلام على المعنى دون اللفظ، لأنّه لو أعمله على اللفظ لقال: أو مثل: بالجر، لكنّه لمّا كان معنى، جئني احضر، أو هات قوماً مثلهم، حسن أنْ يقول أو مثل بالفتح، وقال الشاعر:

درست وغير آبهن مع البلى    إلاّ رواكد جمرهن هباء ومشجج

أما سوار قذى له    فبدا وغيب سارة المعزاء

فقال: ومشجج بالرفع إعمالاً للمعنى، لأنّه لمّا كان معنى قوله إلاّ رواكد أنهن باقيات ثابتات عطف ذلك المشجج بالرفع، ولو أجرى الكلام على اللفظ لنصب المعطوف به وأمثلة هذا المعنى كثير. وفيما ذكرناه كفاية بمشيئة الله تعالى[1].

والحاصل: إنّ أغلب الرّوايات تشير إلى أنّ الفتح هو فَتْح مكّة بعد صلح الحديبية، وثمّة رواية في تفسير البرهان تعقيباً على قوله تعالى في سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ أشار الرسول ﷺ بأنّ النصر هو وأهل

(١) تنزيه الأنبياء: ١١٥ ـ ١١٨.

بيته عليهم السلام «بنا فتح الله وبنا يختم»[١]، ولا تعارُضَ في البين، فيمكن الجَمْع بين هذه الرّواية وبين الرّوايات الأخرى؛ لأنّ ذلك من المثبتات التي لا يقع التعارض فيها.

كما أنّ الذَّنْبَ المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إنّما هو أمران وقد أيدتهما الأخبار المقدَّسة الصادرة عنهم عليهم السلام:

الأوّل: ذنوب شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وهم في الواقع شيعته صلى الله عليه وآله، فقد جاء في خبر عمر بن يزيد بياع السابري قال: قلت للإمام أبي عبد الله عليه السلام: قول الله في كتابه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ قال: ما كان له ذَنْبٌ ولا هَمَّ بذَنْبٍ، ولكنّ الله حَمَّلَهُ ذنوب شيعته ثم غفر لها، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾[٢].

وجاء عن المفضل بن عمر أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: والله ما كان له ذَنْبٌ، ولكنّ الله سبحانه ضمن أنْ يغفر ذنوب شيعة علي عليه السلام ما تقدَّمَ من ذَنْبِهِم وما تَأَخَّرَ[٣].

الثاني: إنّ الذَّنْبَ المنسوب إليه صلى الله عليه وآله هو ما كانت قريش تصفه به، وإليه يشير الخبر الوارد عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله المأمون عن مفاد الآية فقال عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي: ٣/ ٤٥٦، الأمالي للشيخ الطوسي: ص٦٦، البحار: ٣٢/ ٢٩٨ و٣٠٩، ونهج السعادة للشيخ المحمودي: ٣/ ٤٢٣، وتفسير فرات: ٣٦٧، وكتاب الشيعة في أحاديث الفريقين للشيخ مرتضى الأبطحي: ص٢٦٨.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٥٤ح١٣، والسابري: الرطب أو الدروع المحكمة.

(٣) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٥٥ح١٥.

لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمأة وستين صنماً، فلمّا جاءهم بالدَّعوة إلى كلمةِ الإخلاص كَبُرَ ذلك عليهم وعَظُمَ وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ فلمّا فتح الله تعالى على نبيه ﷺ مكّة، قال له: يا محمّد ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ عند مشركي أهل مكّة بدعائك توحيد الله فيما تقدّم وما تأخّر، لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكّة، ومَن بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس إليه، فصار ذَنْبُه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن][1].

زبدة المخض:

إنّ سياق الآيات يأبى أنْ يكون المراد من الذَّنب فيها هو معصية الله، بل المتعيِّن بمقتضى مناسبة سوقها نحو أمرٍ معيَّن ذي دلالة هو أنْ يكون المراد ذَنْبه عند قريش والعرب من أجل ما جاء به في دعوته بتحطيم الوثنيّة ورفض عبادة الأصنام، فصارت دعوته عند قريش ثقيلة حتى ثارت ثائرتهم عليه ﷺ فقابلوه بالبذاءة والشغب والسَّبِّ والنِّسب المفتَعَلَة، فوصفوه بأنّه كاهنٌ وساحرٌ ومفترٍ وكذّاب، ثمّ قامَت الحرب بينه وبينهم فقتَلَ أبطالهم وناوش ذؤبانهم بقيادة سيّد الخلائق أمير المؤمنين علي عليه السلام، فاعتزّ النبي ﷺ بنصر الله على يد ابن عمّه عليه السلام فما جرى على المشرِكين كان يُعتَبَر ذَنْباً ارتكبه النبيّ وابنُ عمّه عليهما السلام.

بعدما وجد المشرِكُون النبي ﷺ مجرماً بحقّ ديانتهم، وأنّ ما ارتكبه هو ذَنْبٌ ليس بعده ذَنْب، فما هو الأمر الذي يمكن أنْ يبرِّئ ساحته ويرسم له صورة

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٥٦ح١٨.

ملكوتيّة فيها ملامح الصِّدق والصَّفاء وعلائم العطف والحنان حتى تقف قريش على خطئها وجهلها؟

إنّ الأمر الذي يمكن أنْ ينَزِّهَ ساحَتَهُ من هذه الأوهام و الأباطيل ليست إلاّ الواقعة التي تَجَلَّت فيها عواطفه الكريمة ونواياه الصّالحة، حيث تصالح بمرونةٍ خاصة مع قومه الذين قصدوا الفتك به وقتله في داره، وأخرجوه من موطنه ومهاده حتى أثارت ـ تلك المرونة ـ تعجب الحضّار من أصحابه ومخالفيه، حيث تصالح معهم على أنّه «مَن أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومَن جاء قريش ممّن مع محمَّد لم يردّوه عليه، وأنّه مَن أحبّ أنْ يدخُلَ في عقد محمَّد وعهده دخل فيه، ومَن أحبّ أنْ يدخُلَ في عقد قريش وعهدهم دخل فيه[1]»، وهذا العطف الذي أبداه النبيﷺ في هذه الواقعة مع كونه من القدرة بمكان، وقريش في حالة الإنحلال والضَّعْف، صوَّر من النبيﷺ عند قومه وأتباعه صورة إنسانٍ مَصْلِحٍ يحبّ قومه ويطلب صلاحهم ولا تروقه الحرب والدِّماء والجدال فوقفوا على حقيقة الحال، وعضوا الأنامل على ما افتعلوا عليه من النَّسَب وندموا على ما فعلوا، فصاروا يميلون إلى الإسلام زرافات ووحداناً، والتحقوا بالنبي قبل أنْ يسيطر على مكّة وجوارها.

إنّ هذه الواقعة التي لَمَسَ الكفّار منها خُلُقَهُ العظيم، رَفَعَت السِّتارَ الحديديَّ الذي وضعه بعض أعدائه الألدّاء بينه وبين قومه، فعرفوا أنّ ما يُرمَى به النبيﷺ ويُوْصَف به بين أعدائه مجرَّد ادِّعاءاتٍ كاذِبة، كان ﷺ منَزَّهاً عنها...

ففَتْحُ مكّة وقبله وقعة الحديبية أثبتا بوضوح أنّ النبيّ الأعظمﷺ أكرم

---

(١) سيرة إبن هشام: ٢/ ٣١٧.

وأجلّ وأعظَم من أنْ يكون كاهناً أو ساحراً، إذ الكاهن والسّاحر أدون من أنْ يقوم بهذه الأمور الجليلة، كما أنّ لطفه العميم وخُلُقَهُ العظيم آيتان واضحتان على أنّه رجلُ صِدْقٍ ووَفَاءٍ... وأنّ ما يجري بينه وبين قومه من الحروب الدّامية كانت نتيجة شقائهم وجدالهم ومؤامراتهم عليه... لقد كَسَرَ فَتْحُ مكّة الجليدَ الذي كان حائلاً بين النبيﷺ وأعدائه، فعرفوا أنّه ﷺ مُنزَّهٌ عمّا أُلصِقَ به، وهل ثمّة فتح أعظم من هذا الفتح حيث أطفأ نائرة هؤلاء وأذهب بالآثار التي رتّبوها على عداوته لأصنامهم وحقارتهم؟!!

وثمّة آياتٌ أُخَر على نسق الآية المتقدِّمة فالجواب عنها كالجواب عن تلك، من هذه الآيات قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمّد: ١٩].

فالخطاب في هذه الآيات للرّسول لكنّ المقصود غيره تعليماً للأمّة، وكلّ مَن نسب إليه ذَنباً أو معصيةً فإنّه عاقٌّ له، فيشمله قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، .. ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾[النحل: ٥٦].

* * *

**الآية السابعة**

**قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤ ـ ١٥].

تأمر الآية الأولى أنْ يكون الرّسول الأكرم أوّل المسلمين في التوحيد العبادي والصفاتي والأفعالي كما تشير الآية الثانية إلى بيان أنّ النبيﷺ في مقام العبوديّة لله تعالى وعدم العصيان، إذ لو عصى ـ وفرض المحال ليس بمحال ـ فستكون عاقبته العذاب الأليم. . . وحاشا لرسول اللهﷺ أنْ يعصي الله عزّ وجلّ لتنزّهه عن ذلك بمقتضى ما لديه من قابليات العصمة والطهارة، فالآية الأولى تقرّر استفهاماً مفاده: استحالة استعانة النبيﷺ بغيره عزّ وجلّ، كيف؟! والله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، ومن دونه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ لأنّ النبيّ محمداﷺ هو الدّاعي الأوّل إلى الإسلام، فيكون هو المسلم الأوّل من أمّته، وإلاّ كان من الذين يأمرون ولا يأتمرون وحاشاه صلوات الله عليه وآله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ومحال أنْ يكون منهم، وإنّما صحّ هذا النهي لأنّه موَجَّهٌ من الأعلى إلى مَن هو دونه، فنهيه ﷺ عن الشِّرك لا يستلزم ارتكاب النبيﷺ له وصدوره منه لأدلّة العصمة، فلا بدّ حينئذٍ من التصرف بظاهر الخطاب لصرفه عن النبيﷺ إلى غيره، فيكون من باب: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة» كما قلنا أكثر من مرّة. . .

ونظير هاتين الآيتين ما جاء في الآيات الآتية:

(١) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

(٢) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

(٣) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

(٤) ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ١].

فلسان هذه الآيات ـ لا سيّما الآية الخامسة ـ يختلف عمّا أراده الجاهلون، بل إنّ صريح سياقها ينادي ببراءة النبي ﷺ عن الشّرك والوثنيّة، كما أنّه تأكيدٌ إلى إطاعة النبي ﷺ لله تعالى المدلول عليها بحكم العقل الضروري، والأمر بالطّاعة والنهي عن معصية الشّرك، لا يخلوان من الإرشاد لحكم العقل بوجوب طاعة الله تعالى والإنتهاء عن معصيته التي دعاه إليها الكافرون والمنافقون وهي أنْ يتركهم وآلهتهم فيتركوه وإلهه، ولم يجبهم النبي ﷺ إلى ذلك لقضاء عقله الشريف بقبح ما دعوه إليه، وليس في الآية شيء مما يظنّه أولئك الغافلون!! فالأمر بالتقوى حكمٌ إرشاديٌّ تأكيديٌّ وليس أمراً مولويّاً يُفيد النهي عن المعصية، فإنّ ذلك خلاف الطّهارة المطلَقة التي اتصف بها النبي ﷺ بالأدلّة القطعية...

* * *

## الآية الثامنة

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

الآية كالآيات السابقة تخاطب النبيّ الأكرم ﷺ وتقصد غيره من أفراد أمّته دون مَنْ استثناهم الدّليل القطعيّ وهم المخْلَصون الذين لا سلطان لإبليس عليهم حتى يتقوّلوا على الله تعالى.

والتقوّل هو الإختلاف والإفتراء بالكذب على الباري عزّ اسمه، والمعنى:

ولو تقوّل علينا هذا الرّسول الكريم الذي حمّلناه رسالتنا وأرسلناه إليكم بقرآنٍ نزّلناه عليه، واختلق بعض الأقاويل ونسبه إلينا، لأخذنا منه باليمين كما يُقبض على المجرم فيؤخذ بيده، أو المراد قطعنا منه يده اليمنى، أو المراد لانتقمنا منه بسلب القوّة والقدرة عنه، ولقطعنا منه الوتين وقتلناه لأنّ الوتين عرق يسقي الكبد فإذا انقطع مات صاحبه، وقيل هو رباط القلب. . . فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين تحجبونه عنّا وتنجونه من عقوبتنا وإهلاكنا. . .

وهذا تهديد ظاهري متوجِّه للنبي ﷺ على تقدير وافتراض أن يفتري على الله كذباً وينسب إليه شيئاً لم يقله وهو رسولٌ من عنده أكرمه بنبوّته واختاره لرسالته. . .

فـ [لو] الواردة في الآية تفيد الشرطية والإمتناع أي هي على هيئة الشرط كما قال اللغويون، وتدلّ على امتناع الشّرط وامتناع الجواب؛ لأنّ الثاني ملازم للأوّل، ينتفي بانتفائه تماماً كالسَّبَب والمسبَّب أو العلّة والمعلول، فإذا امتنع الأوّل امتنع الثاني بالضّرورة. . نظير قولهم: «لو جاءني لأكرمته، لكنّه لم يجئ»: فالإكرام يدور مدار المجيء، فإذا انتفى المجيء انتفى الإكرام. . . أو تقول: «لو سرق نبيٌّ لقطعت يده، ولكنّ الأنبياء لا يسرقون ـ إذاً ـ يستحيل إقامة الحدّ عليهم لاستحالة صدور السَّرِقة منهم. .».

وهنا هكذا. . فعلى فرض أنّ النبي ﷺ تقوّل على الله، وفَرْضُ المحال ليس محالاً، فسوف يأخذ منه الله تعالى باليمين ويقطع منه الوتين، لكنّه يستحيل عقلاً ونقلاً أنْ يتقوّل ـ فديتُهُ بنفسي ـ لعصمته وطهارته وشرافته وسموّ قدره وفضله، إذاً يستحيل أنْ يعاقبه الله تعالى على ما لم يرتكبه، كالسّالبة بانتفاء الموضوع، فتأمَّلْ.

الآية المباركة في معناها نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٧٤ ـ ٧٥]، وكذا قوله تعالى في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

والحاصل: إنّ الآية جاءت على نحو الجملة الشرطيّة المستحيلة المؤلَّفة من أداة الشرط «لو» التي هي بقوّة «إذا»، وجواب الشرط أو متعلّق الجملة الشرطيّة هو قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝﴾...

وبعبارة أخرى: إنّ الجملة الشرطية في الآية المباركة مؤلَّفة من مقدم وتالي، فالمقدّم هو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝﴾ والتالي هو قوله تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝﴾.

وحيث إنّ التالي متوقف على المقدَّم، والمسبَّب فرع وجود السَّبَب، فيستحيل ـ إذاً ـ معاقبته ﷺ؛ لاستحالة صدور المقدّم وهو التقوُّل على الله تعالى، لتوقُّف المشروط على شرطه، والمسبّب على سببه أو المعلول على علّته، والتالي على المقدّم... وعليه، كيف يهدّد الله عزّ وجلّ رسوله الأكرم محمداً ﷺ بقطع الحياة عنه لو تقوّل عليه الكذب وادّعى السّفارة الإلهيّة كذباً وزوراً (حاشا لشخصه الكريم) في حين أنّ الله تعالى لم يُهْلِكْ مُدّعي النبوّة من الكذابين على مرّ العصور والأزمنة إلى يومنا هذا، أليس هذا تمييزاً بالعقاب لسيّد الرُّسُل لو صدر منه ما لا يجوز على غيره ممّن ادّعى ما ليس له من السفارة والرّسالة؟!!!

**والجواب:**

قد يُقال في الإجابة: إنّ التهديد متوجّه إلى الرّسول محمدﷺ خاصّة لامطلق مدَّعي النبوّة المفتري على الله عزّ وجلّ في دعواه النبوّة وإخباره عن الله تعالى...[1].

لكنّ الجواب المذكور غير سديد وذلك للترجيح بلا مرجِّح أي ترجيح تعذيب النبيّ دون غيره ممن ادّعاها زوراً بلا مرجِّحٍ عقليٍّ ونقليٍّ في حين أنّهﷺ ـ على فَرْضِ صدور التقوُّل ـ كغيره ممّن تقوَّلَ على الله تعالى الكذب، فيكون تعذيبه على الفَرْض المذكور ـ دون غيره ـ خلاف العدالة الإلهيّة، فنقع في محذورٍ آخرٍ كان لا بدّ للسيد من الإلتفات إليه، ولعلّه رحمه الله تعالى نسى ذلك...!!!

**فالأفضل في الجواب أن نقول:**

إنّ الأخذ باليمين نحمله على الإنتقام منه بالحقّ وإقامة الحجّة على مدّعي النبوّة، بحيث يقيِّض الله عزّ اسمه لمدَّعي النبوّة مَن يعارضه فيه، وحينئذٍ يظهر للناس كذبه فيه، فيكون ذلك إبطالاً لدعواه وهدماً لكلامه، أو أنّه عزّ وجلّ يسلب القدرة عن دعواه بعدم تمكّنه بل استحالة قدرته على الإتيان بالمعاجز والكرامات التي هي طريقٌ لمعرفة الصَّادق من الكاذب، فعندما يدَّعي النبوَّة مُدَّعٍ ولا يتمكّن من الإتيان بمعجزة تدلّ على صدق دعواه، يعني ذلك أنّ الله عزّ وجلّ قطع منه الوتين الفكري والرُّوحي والتكويني في بعض مراحله بحيث يسلِّط عليه مَنْ يقتصّ منه فيقتله...

---

(١) الطباطبائي/ تفسير الميزان: ١٩/ ٤٠٥.

**والخلاصة:**

إنّ الآية الشريفة تضارع قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بحملها على الفرض والتقدير، وإنْ كان الشرك بحقّه ﷺ ممتنِعُ التَّحقُّق، فهي في مقام التّدليل على أنّ الله عزّ اسمه يعاقِب كلّ العاصين والكافرين والمشرِكين حتى لو فُرِض ـ وفَرْض المحال ليس بمحالٍ ـ أنّهم أنبياء.

وتحذير النبيّ محمد ﷺ من الشِّرك ليس حالة خاصّة به صلوات الله عليه وآله، بل شملت غيره من الأنبياء والمرسَلين نظير إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، وصدر الآية الخامسة والستين من سورة الزّمر المبارَكة، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

فالآيات تنهى الأنبياء عن الشِّرْك، وهي إرشاد إلى حكم العقل القاضي بتوحيد الله عزّ وجلّ ووجوب تنزيهه عن النقص والتجسيم ووجود شريكٍ له، ويؤكّد حكم العقل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرّعد: ٣٦].

* * *

**الآية التاسعة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٢ _ ٥٣]

إختلف المفسِّرون في تفسير هذه الآية المبارَكة على قولين:

الأوّل: هو لمشهور العامّة إلاّ المحققون منهم فقد مالوا إلى ما ذهب إليه علماء الإماميّة في تفسير معناها.

الثاني: وهو لكافّة علماء الإماميّة دون منازع، فقد ذهبوا إلى عكس الفريق الأوّل، مؤوِّلين لمفردات الآية بما بتناسب وعصمة الأنبياء والمرسَلين من وصمة الشيطان وغروره.

فذهب الأوائل في تفسيرها بما لا يتناسب وساحة الأنبياء عليهم السلام، فحملوها على وسوسة الشيطان للأنبياء لكنّ إرادة الله تعالى أنقذتهم من إغواء إبليس اللعين.

قالوا: إنّ إلقاء الشيطان في أمنية الرّسول والنبيّ إنّما هو بإلقاء الوسوسة في قلوب الأنبياء عليهم السلام، بحيث يوهن عزائمهم الرّاسخة، ويقنعهم بعدم جدوى دعوتهم وإرشادهم، وأنّ هذه الأمّة غير قابلة للهداية، فتظهر بسبب ذلك سحائب اليأس في قلوبهم ويكفّوا عن دعوة الناس وينصرفوا عن هدايتهم... وحملوا الإلقاء في الأمنية على المداخلة فيها بما يخرجها عن صراحتها فيفسد أمرها، كما أنّ معنى الأمنية هو التلاوة... وقالوا: إنّ معنى الآية هو أن ما من رسولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنّى وتلا الآيات النّازلة عليه تدخّل الشيطان في قراءته فأدخل فيها ما ليس منها، واستشهدوا لذلك التفسير بما رواه الطبري عن محمّد بن كعب القرظي ومحمّد بن قيس قالا:

جلس رسول الله في نادٍ من أندية قريش كثيرٌ أهله، فتمنّى يومئذٍ أنْ لا يأتيه

من الله شيء فينفروا عنه فأنزل الله عليه ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ فقرأها النبيّ ﷺ حتى إذا بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ ألقى عليه الشيطان كلمتين: [تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى] فتكلّم بها ثمّ مضى فقرأ السّورة كلّها، فسجد في آخر السّورة وسجد القوم جميعاً معه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السّجود، فرضوا بما تكلّم به وقالوا قد عرفنا أنّ الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك، فلمّا أمسى أتاه جبرائيل ﷺ فعرض عليه السّورة، فلمّا بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه، قال: ما جئتك بهاتين! فقال رسول الله: إفتريتُ على الله وقلتُ على الله ما لم يقل، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ قال: نسمع مَن كان مِن المهاجرين بأرض الحبشة إنّ أهل مكّة قد أسلموا كلّهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحبُّ إلينا، فوجدوا قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان[1].

(وفيه):

(أوّلاً): إنّ هذا التفسير لا يناسب ساحة الأنبياء بنصّ القرآن الكريم الدّال على نزاهة وطهارة الأنبياء ﷺ من الإفتراء على الله تعالى بالكذب عليه وتغرير النّاس بالدّخول في الباطل.

---

(١) تفسير الطبري: ١٧/ ١٣١، والدر المنثور للسيوطي تعقيباً على الآية..

مضافاً إلى أنّ القرآن ينفي وجود سلطة لإبليس على قلوب الأنبياء وضمائرهم حتى يوهن عزائمهم في طريق الدّعوة والإرشاد، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ويقول عزّ وجلّ ناقلاً عن نفس الشيطان اللعين في سورة ص: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وليس إيجاد الوهن في عزائم الأنبياء عليهم السلام من جانب الشيطان إلاّ إغواءهم المنفي بنصّ الآيات الشريفة.

(ثانياً): التفسير المذكور مبنيٌّ على أنّ «تمنّى» بمعنى «تلا» و«أمنية» بمعنى تلاوته، وهو استعمال أو تفسير ليس مأنوساً في لغة القرآن والحديث، ولو صحّ فإنما هو استعمال شاذ يجب تنزيه الأنبياء عن ساحته.

(ثالثاً): إنّ رواية الطبري المتقدّمة مضطربة ومشوَّشة دلالةً، فقد نُقِلَت بصور مختلفة يبلغ عددها أربعٌ وعشرون صورة مما يسقطها عن الحجية، مضافاً إلى ضعف السند لا سيّما إلى أنّ سلسلة سندها ينتهي بإبن عبّاس الذي لم يكن مولوداً في الوقت المجعول للقصّة.

(رابعاً): لقد وصف الله عزّ وجلّ في صدر السّورة نبيه الكريم صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

وعندئذٍ كيف يصحّ له عزّ وجلّ (وحاشاه من ذلك سبحانه وتعالى) أنْ يصف نبيه صلى الله عليه وآله من أوّل السورة بهذا الوصف ثمّ يبدر من نبيه صلى الله عليه وآله ما ينافي هذا التوصيف أشدّ المنافاة وفي وسعه سبحانه صون نبيه صلى الله عليه وآله عن الإنزلاق إلى مثل هذا المنْزَلَق الخطير.

(خامساً): إنّ الجملتين الزائدتين الملصقتَين بالآيات، تكذِّبُهما سائر

الآيات الدّالة على صيانة النبيّ الأكرم ﷺ في مقام تلقّي الوحي والتحفُّظ عليه وإبلاغه كما في قوله تعالى ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

فالآية الأخيرة وإنْ كان موردها النبيّ عيسى عليه السلام حيث جعله الله عزّ وجلّ مبارَكاً طاهراً مطهَّراً في كلّ مراحل حياته، ولا شكّ أنّه عليه السلام أدنى رتبة من نبيّنا محمد ﷺ بالإتفاق، فإذا ما ثبتت المباركية والتطهيريّة لمَن هو أدنى من رسول الله سيّد الرُّسُل ﷺ، يثبت ذلك له بطريقٍ أَوْلَى.

(سادساً): يظهر أنّ مُلَفِّق القصّة المزبورة لم يلتفت إلى التهافت الحاصل بين صدرها وذيلها، فالصدر يمتدح آلهة المشرِكين بتينك الجملتين الزّائدتين، وذيل الآيات التي وقعت بعدهما والتي استرسل النبي ﷺ في تلاوتهما ـ يذمّ آلهتهم كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٢ ـ ٢٣].

وعليه؛ كيف يرضى الوليد بن المغيرة عن النبي ﷺ بهذا الثناء القصير، ثمّ يغفل عن الآيات اللاحقة التي تندّد بآلهتهم بشدّة وعنف، ويعدُّها معبودات خرافيّة لا تملك من الألوهيّة إلاّ الإسم والعنوان..؟!

أوليس ذلك دليلاً على أنّ جاعل القصّة من الوضّاعين الكذابين، أراد أنْ ينتقص من سيّد الموحِّدين ويقلِّل من إيمانه ورجاحة عقله ووفور عِلمِهِ..؟!

**رأينا نحن الشيعة:**

إنّ المراد من التمني هو التقدير والتفكير في هداية الأمّة والتخطيط لهذا الأمر بالخطط الناجعة بتهيئة المقدّمات لذلك، لكنّ الشيطان لعنه الله تعالى يقف حاجزاً وسدّاً منيعاً في إنجاح أمنية النبي ﷺ بحضّ النّاس على المخالَفة والمعاكَسة، وإفشال خطط الأنبياء عليهم السلام حتى تصبح المقدمات عقيمةً غير منتجة.

وبعبارة أخرى: «إنّ التمنّي قلبيٌّ، ويُراد به تقدير بعض ما يتمنّاه من توافق الأسباب على تقدّم دينه وإقبال النّاس عليه وإيمانهم به، ألقى الشيطان في أمنيته ﷺ، وداخل فيها بوسوسة الناس ضدّ الأنبياء عليهم السلام وتهييج الظالمين وإغراء المفسِدين، فأفسد الشيطان الأمر على ذلك الرّسول أو النبيّ وأبطل سعيه، فينسخ الله تعالى ويزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعي الرّسول أو النبيّ وإظهار الحق والله عليمٌ حكيم...»[1].

هذا المعنى هو الظاهر من القرآن الكريم حيث يحكي في غير موردٍ أنّ الشيطان كان يحضّ أقوام الأنبياء عليهم السلام على المخالفة ويعدهم بالأماني حتى يخالفوهم، قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) تفسير الميزان: ١٤/ ٣٩١، بتصرُّفٍ يسير.

هذه الآيات ونظائرها تشهد بوضوح على أنّ الشيطان وجنوده كانوا يسعون بشدّة وحماس في حضّ النّاس على مخالفة الأنبياء والرُّسُل ﷺ، وكانوا يخدعونهم بالعدة والأماني، لكنّ الله تعالى ينسخ ما يلقيه الشيطان اللعين ثم يُحكم آياته، فنسخه عزّ وجلّ لما يلقيه الشيطان عبارة عن إبطاله وإفشاله، وإبداله بالدّلائل النّاصعة الهادية إلى الله تعالى وإلى مرضاته وشرائعه... قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، إلى غير ذلك من الآيات السّاطعة التي تحكي عن انتصار الحق الممثل في الرّسالات الإلهيّة في صراعها مع الباطل وأتباعه.

وعليه؛ فليس في الآية ما يدلّ على وجود أرضيّة أو قابليّة الخطأ والعصيان عند النبي ﷺ حسبما يتمسّك به المخطّئون للأنبياء ﷺ، بل الآية كغيرها من الآيات المتشابهة التي لا بدّ من معرفتها على حقيقتها من خلال الرّجوع إلى المحكَمات من الآيات والأخبار وأحكام العقل.

* * *

### الآية العاشرة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]

تشير الآية إلى خطر الشّرك على الفكر والرُّوح وبالتالي على المصير

الوخيم للمشرك الذي ينتظره من العذاب الأليم، كما أنّ عمل المشرك سيُحْبَط من أساسه وكأنه لم يعمل شيئاً من الخيرات التي يستحقّ الإثابة عليها. . وتقدير الكلام في الآية بعد القسم باللام في [لقد] أُقسم أنّه لو أشركتَ يا رسولي الكريم أنتَ ومَن تقدَّمَكَ من الأنبياء ليحبطنّ عملكم ولتكونُنَّ من الخاسرين.

والسؤال: كيف يصحّ هذا الخطاب التهديدي للأنبياء ﷺ مع عِلْمِ الله تعالى أنّ رسله لا يشركون؟

والجواب: إنّ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ قضية شرطية، والقضيّة الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها، ألا ترى أنّ قولك: لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أنّ كلّ واحدٍ من جزأيها غير صادق، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ولم يلزم من هذا صدق القول بأنّ فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا.

فالشِّرك قبيحٌ صدوره من بقيّة النّاس، ولكنّه أقبح لو صدر من الأنبياء ﷺ، وكذا فإنّ طاعات الأنبياء والرُّسُل أفضل من طاعات غيرهم، فكذلك القبائح التي تصدر منهم على سبيل الإفتراض فإنها بالتقدير المتقدِّم تكون أقبح لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه بحسب الإفتراض، وبتقدير حصوله منه، يكون تأثيره في جانب غضب الله تعالى أقوى وأعظم.

وإنما قلنا على تقدير حصول الشِّرك منه باعتبار كونه ـ كغيره من الأنبياء ـ مختاراً في عصمته وليس ملجَئاً عليها، فبإمكانه أنْ يعصي لكنّه لا يعصي بل يمتنع صدور المعصية منه لقبحها ولكونها خلاف مراد المولى جلّ وعلا.

فخطاب النبي ﷺ وسائر الأنبياء ﷺ بالنهي عن الشِّرك وإنذارهم بحبط

العمل والدّخول في زمرة الخاسرين محمولٌ على بيان أنّ النبي ﷺ مأمورٌ بالإيمان بما يدعو المشركين إلى الإيمان به ومكلّف بما يكلّفهم ولا يسعه أنْ يجيبهم إلى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهتهم، وإليه يشير ما سبق هذه الآية بقوله تعالى حاكياً عنه ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤].

وكون الأنبياء ﷺ معصومين بعصمةٍ إلهيّةٍ يمتنع معها صدور المعصية عنهم لا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحّة توجهه إليهم، ولو كان كذلك لم تتصوّر في حقّهم معصية كسائر مَن لا تكليف عليه فلم يكن ثمّة معنى لعصمتهم، على أنّ العصمة ـ وهي قوّة يمتنع معها صدور المعصية ـ من شؤون مقام العِلم، لا تنافي ثبوت الإختيار الذي هو من شؤون مقام العمل وصحّة صدور الفعل والترك عن الجوارح، فمنع العلم القطعي بمفسدة شيء منعاً قطعيّاً عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافي كون العالم بذلك مختاراً في الفعل لصحّة صدوره عن جوارحه، فالعصمة لا تنافي بوجهٍ التكليف.

فالتكليف لمّا كان مِنْ ظاهر أمره أنْ يتعلّق بمَن يجوز عليه الطّاعة والمعصية، فلو تعلّق بمَن ليس منه إلاّ الطّاعة مع مشاركة غيره له كان ذلك تكليفاً على وجهٍ أبلغ كالكناية التي هي أبلغ من التصريح، ولعلّ من هذا القبيل ما ورد في بعض الرّوايات أنّ هذه الخطابات من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة».

وزبدة المخض:

إنّ الآية المباركة ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ فيها تأييدٌ لمدلول الحجج العقليّة الدّالّة على عدم جواز عبادة الآلهة المصطنعة كأنه قيل له: لا تعبد غير الله عزّ وجلّ

فإنّه جهل، وكيف يسوغ لك أنْ تعبده وقد دلّ الوحي على النهي عنه كما دلّ العقل على ذلك، وأين هذا ممّا ادّعاه المتشابهون الضالون[1]..؟!!

فيتضح من خلال ما تقدّم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يُشرِكوا بالله تعالى طَرْفَةَ عَيْنٍ أبداً، ولم يفكِّرُوا بالشِّرْكِ، مع أنّهم يمتلكون القدرة والإختيار الكامِلَيْن في هذا الأمر، ومعصوميتهم لا تعني سلب القدرة والإختيار منهم، إلاّ أنّ علمهم الغزير وارتباطهم المباشر والمستمر مع الله تعالى يمنعهم حتى من التفكير بالمعاصي التي منها الشّرك، فهل يمكن أنْ يتناول السمَّ طبيبٌ عالمٌ حاذقٌ مطَّلِعٌ على تأثير تلك المادّة السامّة والخطيرة وهو في حالةٍ طبيعيّةٍ؟!

إذن ما الغاية من مخاطبتهم بهذا الخطاب التهديدي الخطير؟ ليست الغاية سوى إطلاع الجميع على خطر الشِّرْك، فعندما يخاطب الله عزّ وجلّ أنبياءَه العِظام عليهم السلام بهذه اللهجة الشديدة؛ فعلى الأمّة أنْ تدرك تكليفها بصورة صحيحة، وفي هذا الإطار جاء عن مولانا سيّد الأنام الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام لمّا وجّه إليه المأمون ـ لعنه الله تعالى ـ سؤالاً فقال له: يابن رسول الله أليس من قولكَ أنّ الأنبياء معصومون؟ قال عليه السلام: بلى، قال: فما معنى قول الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾؟ قال الإمام عليه السلام: هذا ممّا نزل «بإياكِ أعني واسمعي يا جارة» خاطب الله تعالى بذلك نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأراد به أمّته، وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾، قال: صدقت يا ابن رسول الله[2].

وفي خبرٍ عن بهلول مرسَلاً إلى الإمام أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى:

---

(١) المتشابهون أي مَن يتبعون المتشابهات دون المحكمات.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٤/٤٩٧ ح١٠٠.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ يعني لئن أشركتَ في الولاية غيره ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بل الله فاعبد بالطّاعة وكن من الشّاكِرِين أنْ عضدتكَ بأخيكَ وابن عمّك[١].

وبالإسناد عن أبي حمزة عن مولانا الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: سألتُهُ عن قول الله تعالى لنبيّه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ قال عليه السلام: تفسيرها: «لئن أمرتَ بولاية أحدٍ مع ولاية عليّ صلوات الله عليه من بعدك ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين»[٢].

وفي المناقب لابن شهر آشوب بإسناده عن صحيح الدارقطني: إنّ رسول الله أمر بقطع لص فقال اللص: يا رسول الله قدّمته في الإسلام وتأمره بالقطع؟ فقال: لو كانت ابنتي فاطمة[٣]، فسمعت فاطمة فحزنت، فنزل جبرئيل عليه السلام بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فحزن رسول الله ﷺ فنزل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فتعجّب النبي ﷺ من ذلك، فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: كانت فاطمة حزنت من قولك، فهذه الآيات لموافقتها لترضى[٤].

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٤٩٨ح١٠٣.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٤٩٨ح١٠٥.

(٣) روي في صحيح البخاري: ج٤ح٣٧٣٣، وفيه أنّ بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، لو كانت فاطمة لقطعتُ يدها. وقد تلاعبت يد التحريف فحذفت مورد نزول الآية، وأبدلوها بما ذكره البخاري وسنن النسائي في باب ذكر المخزومية التي سُرِقَت ومسند أحمد مثله.

(٤) تفسير نور الثقلين: ٤/ ٤٩٧ح١٠٢.

### الآية الحادية عشرة

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]

لعلّه يُستظهَر من هذه الآية قساوة أخلاق الرسول الأكرم ﷺ مع أصحابه، فاستدعى عتاب الله عزّ وجلّ على هذا، فأخذها الجاهلون القاصرون بإدراكهم ممسكاً لهم على مدّعاهم الخسيس...

لكنّ التأمُّلَ في سياق الآية ـ صدرها وذيلها ـ مع ما رافقها من لوازم لا تنفك عنها يعطينا دلالات قيّمة في كيفيّة تعاطي الرّسول القائد مع مجريات الأمور من حوله، حيث لاقى من قومه القساة أشدّ أنواع الأذيّة لخبث أخلاقهم وفساد نواياهم، فقد كانوا يستحقون الفظاظة بالقول والفعل استنكاراً على رعونتهم وفظاظتهم إلاّ أنّ الأدب الإلهي أراد من نبيّه الكريم أنْ يتجافى عمّا يؤدّي إلى زيادة خشونتهم عسى أنْ ينحازوا ـ ظاهراً ـ إلى رسول الله فيأمن مكرهم وكيدهم.

فهذه الآية تتضمن سلسلة من التعاليم الكلية الموجهة إلى رسول الله ﷺ وتشتمل من حيث المحتوى على برامج أساسيّة وكلية، ولكنّها من حيث النزول ترتبط بواقعة أُحُد لمّا انهزم أصحاب النبي ﷺ ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان، وبعد المعركة جاؤوا إليه ﷺ معتذرين، وكان النبي ﷺ غاضباً عليهم لاستحقاقهم ذلك، فكانوا يستحقون العقاب والملامة، لكنه ﷺ لم يفعل ذلك طبقاً لقانون الرّحمة الإلهي لمصالح اقتضت هو أعلم بها منّا، ولعلّ منها قلّة أنصاره ﷺ دعته أنْ يعفو عنهم؛ لأنّ أكثر المسلمين كانوا حديثي عهدٍ

بالإسلام، ولم ترتوِ نفوسهم من المفاهيم الحقيقيّة للإسلام، لذا فإنّه بمجرّد أنْ استشهد النبي ﷺ انقلبوا على أدبارهم مرتدِّين كما تشير الآية المباركة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فقد عفا النبي ﷺ عنهم مع استحقاقهم للعقاب، وعفوه زيادة فضلٍ وإحسان منه ﷺ، لذا مدحه الله عزّ وجلّ على عفوه ﷺ عنهم، وتركه التغليظ لهم فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾، فمضمون الآية يشير إلى أنّ ما فعله النبي ﷺ بهم إنّما هو بسبب ما افاض الله تعالى عليه من الرّحمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ فالباء تفيد السببية أي بسبب الرّحمة التي لديك يا رسولي محمَّد ـ وهي في الواقع رحمة الله تعالى ـ لنت لهم وعفوتَ عنهم، وقد يعفو الله عن العبد مع استحقاقه للعقاب، ولا يُراد من العفو إساقط العقاب الأخروي، بل المراد منه الإسقاط الدنيوي.

ففي الآية إلتفاتٌ عن خطابهم إلى خطاب رسول الله ﷺ، وكأنه عزّ وجلّ يقول لهم: قد لانَ لكم رسولُنا برحمةٍ منّا، ولذلك أمرناه أنْ يعفو عنكم ويستغفر لكم ويشاوركم في الأمر وأنْ يتوكّل علينا إذا عزم...

ونكتة الإلتفات أنّ الكلام فيه شوب عتاب وتوبيخ لأولئك الجفاة العتاة، ولذلك اشتمل على بعض الإعراض فيما يناسبه من الموارد ومنها هذا المورد الذي يتعرّض فيه لبيان حالٍ من أحوالهم لها مساس بالإعتراض على النبي ﷺ فإنّ حزنهم لقتل مَن قُتِل منهم ربّما دلّهم على المناقشة في فِعْلِ النبي ﷺ ورميه بأنّه أوردهم مورد القتل والإستيصال، فأعرض الله تعالى عن مخاطبتهم والتفت إلى نبيه ﷺ فخاطبه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾.

والكلام متفرِّعٌ على كلامٍ آخر يدلّ عليه السِّياق، والتقدير: وإذا كان حالهم ما تراه من التشبُّه بالذين كفروا والتحسُّر على قتلاهم فبرحمةٍ منّا لِنْتَ لهم وإلاّ لانفضّوا من حولك.

(إنْ قيل):

كيف يسقط العقاب الدنيوي عن أولئكَ العتاة المردة في حين أنّ ظاهر الآية يدلّ على مطلَق العفو والإستغفار بقرينة قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ممّا يعني إسقاط العقاب الأخروي عنهم، فكيف التوفيق بينهما؟

(قلنا):

يمكن التفصيل في توزيع إسقاط العقاب الأخروي، فيشمل الضعفاء منهم دون العتاة الصناديد الذين ألَّبُوا وانقلبوا على أهل البيت عليهم السلام حيث لا يجوز العفو الأخروي عن المنافِقين؛ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى؛ لعلّ المراد بالعفو والإستغفار الوارِدَيْن في الآية الحقّ الشخصي لرسول الله صلى الله عليه وآله فيتعدّى حينئذٍ مَن ذَكَرْنا من العتاة المردة؛ فلا تعارُضَ في البَيْن، ويؤيّدها ما جاء في تفسير العفو والإستغفار الوارِدَيْن في الآية هكذا ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختصّ بك ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما لله عزّ وجلّ[١].

والحاصل:

لا تشير الآية إلى ما ادّعاه الخصم، بل الصحيح ما أشرنا إليه، إذ هي في صدد بيان المنّة من الله تعالى ورسوله على أولئك العتاة تأكيداً للحجة عليهم وتشديداً للعقاب الأخروي لهم من حيث تصلّبهم في النفاق والكفر مع رحمة

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٣٩٥.

الله تعالى لهم في الدّنيا، فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

**الآية الثانية عشرة**

**قوله عزّ وجلّ:** ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٤ ـ ٩٥]

هذه الآية من أعظم الآيات تشابهاً لكنّها عند التدبُّر بإرجاعها إلى المحكَم ينتفي تشابهها بيسرٍ وسهولةٍ، ويمكن الإجابة على هذا التشابه من وجوه:

الوجه الأوّل:

إنّ معنى الآيات هو: يا أيّها النبيّ إنْ كنتَ في ريبٍ أو شكٍّ فما أنزلنا إليك من المعارف الرّاجعة إلى المبدأ والمعاد وما قصصنا عليكَ إجمالاً من قصص الأنبياء الحاكية لسنّة الله الجارية في خلقه من الدّعوة أوّلاً ثمّ القضاء بالحقّ، فاسأل الذين يقرأون جنس الكتاب السماوي من قبلك.

وبعبارة أخرى: لمّا كانت الآيات المُنْزَلَة على رسول الله ﷺ قد ذكرت جوانب من ماضي الأنبياء والأمم السّالفة، وكان من الممكن أنْ يشكّكَ بعض المشركين ومنكري دعوة النبي ﷺ في صحّة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أنْ يراجعوا أهل الكتاب أو الذين لديهم خبرة بالكتب السماويّة السّابقة على القرآن، للتأكُّد والعلم بصحّة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك؛ لأنّ كثيراً من هذه المسائل قد ورد في كتب السّابقين، إلاّ أنّه بدل أنْ يُوَجَّه الخطاب لهؤلاء، خاطب النبي ﷺ فقال ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ليثبت بواسطة هذا صحة

الآية الأخرى ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

يتلخّص ممّا تقدّم: إنّ مفاد الآية هو دفع شبهة المخالف المشكّك فيما أنزلنا على نبيّنا ليُعَلِّمَ الآخرين أحكام دينهم ويلقّنهم العقائد وأصول الشرائع، فإنْ بقي هذا الشاك على تشكيكه فليسأل مَن له دراية في دراسة الكتب السماويّة ليتضح له صحّة ما نزل على نبيّ الله محمد ﷺ، فيكون الخطاب خاص برسول الله ﷺ والموضوع له عامٌّ لصدقه على كثيرٍ من المشكِّكِين.

ويؤيّد هذا الوجه ما ورد في بعض التفاسير من أنّ جمعاً من كفّار قريش كانوا يقولون: إنّ هذا القرآن لم ينزل من الله تعالى، بل إنّ الشيطان يلقيه على محمد ﷺ!! وسبب هذا الكلام أنْ يقع عدّة أشخاص في الشك والتردُّد فجابهم الله عزّ وجلّ بهذه الآية.

وبعبارة أوضح: إنّ المعنى: فإنْ كنتَ أيُّها المُخَاطَب أو السَّامِع في شكٍّ ممّا أنزلنا إليكَ على لسان نبيّنا محمد ﷺ فاسأل العالِمِين؛ فالخطاب لغيره.

الوجه الثاني:

كان الرّسول الأعظم ﷺ يتلقّى مسألة الوحي مع الشهود والمشاهدة كما تحكي آيات القرآن هذا المعنى الذي لا يُبقي أيَّ شكٍّ في هذا المورد، وعليه فإنّ ما يتراءى للنّاظر للوهلة الأولى ـ بأنّ هذه الآيات تحكي عن أنّ النبي ﷺ كان شاكّاً في صدق الآيات التي كانت تنزل عليه وأنّ الله سبحانه قد أزال شكّه عن هذا الطريق ـ يتعارض مع ما قلنا من أنّ مسألة الوحي كانت يقينيّة عند الرّسول لابتنائها على الشُّهُود والمشاهدة؛ لذا ليس ثمّة شكٌّ في إنزال الوحي عليه، وبالتالي لا شكّ في كونه رسولاً موحىً إليه، فلا بدّ حينئذٍ من القول بأنّه ﷺ لا يُقصَد في فحوى الخطاب المذكور، بل المقصود غيره، وهو أسلوبٌ

رائجٌ عند العرب حيث يخاطبون القريبين لأجل تنبيه البعيدين، وهذا ما يُعْرَف عند العرب في مثلهم المشهور: «إياك أعني واسمعي يا جارة» وتأثير مثل هذا الكلام أكبر من الخطاب الصريح في كثيرٍ من الموارد.

**والحاصل:**

إنّ الله عزّ وجلّ يخاطب نبيّه الكريم ﷺ ولا يقصده، بل الخطاب شامل للخلق، فالمعنى: إنْ كنتم في شكٍّ فاسألوا، والدّليل عليه قوله في آخر السّورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤]، فقد أخبر الله عزّ وجلّ النّاسَ أنّ النبي ﷺ لم يكُ شاكّاً وإنّما النّاس هم الشّاكّون، لذا كان الخطاب في الآية نيابةً عن الأمّة الشّاكّة تماماً كنيابة النبيّ موسى عليه السلام عن قومه الذين طلبوا منه رؤية الله تعالى مع استنكاره عليهم بأنّ الله تعالى لا يُرى بالبصر، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٧]؛ حينئذٍ دعا النبيّ موسى ﷺ لمّا أمره الله عزّ وجلّ أنْ يدعوه بلسانهم فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فطلب موسى عليه السلام للرؤيةِ البصريّة لم تكن لنفسه وإنّما كانت استجابةً لطلب

قومه، وفي موردنا هذا فإنّ الخطاب التشكيكي في الآية لم يكن ناتجاً من عند النبي ﷺ حتى يعاتبه الله على ذلك، وإنّما كان خطاباً إلهيّاً موجّهاً للنبي ﷺ ليكون عامِلاً لتحريك قومه إلى السُّؤال من العالمين بقصص الأنبياء والأمم السّابقة، ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] فقال: ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ والخطاب للنبيّ وحده، فالتعبير بالخطاب المفرد ثم استلحاقه بالجمع، لا يدلّ على أنّ النبي ﷺ قد طلّق امرأةً في حياته، بل هو بيان قانونٍ عامٍّ، والبديع في هذا التعبير أنّ المخاطَب في بداية الجملة هو النبي ﷺ وفي نهايتها كلّ النّاس، وهذه قرينة مهمّة لصرف الآية عن ظاهرها، وثمّة قرائن أخرى تثبت أنّ المقصود في الآية هم المشرِكُون والكافرون والمنافقون وليس النبيّ الأعظم ﷺ وهي الآيات التي تتلو هذه الآية والتي تتحدَّث عن كفر وجحود هؤلاء.

ويُلاحَظ نظير هذا الموضوع في الآيات المرتبطة بالنبي عيسى عليه السلام، عندما يسأله الله تعالى يوم القيامة بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه عليه السلام ينكر هذه الدعوى بصراحه ويضيف: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

بل التدبُّر في الآية الخامسة والتسعين من سورة يونس: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾ يعطينا صورةً كاملةً عن أنّ المقصود من آية ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ هو عموم النّاس؛ وذلك لأنّ من البديهي والقطعيّ في حياة النبي ﷺ أنّه لم يكن شاكّاً أو كاذباً أو مكذِّباً لآيات الله تعالى مطلَقاً، فنهي الآية ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ إشارة واضحة إلى تأكيد سيرته الطّاهرة ﷺ ونهيٌ عن الدُّخول في زمرة الكافِرين، وحقيقة هذا النهي الإرشاد

دون النهي المولوي الذي يُحتَمَل في متعلَّقِه الميل القلبي والقالبي إلى الكفر والتكذيب وقد نُزِّه نبينا ﷺ عنه عقلاً ونقلاً وسيرةً.

الوجه الثالث:

مخاطبة النبي ﷺ بمثل هذا الخطاب لا يستلزم وجود ريبٍ في قلب النبي ﷺ، وإلاّ لَسَرَت الملازَمَة إلى غيره من الأنبياء الذين خوطبوا بمثل هذه الخطابات نظير ما ورد في النبيّ عيسى عليه السلام حسبما أفدنا آنفاً، والكليم موسى عليه السلام حينما طلب الرُّؤية، والخليل إبراهيم عليه السلام حينما طلب كيفيّة الإحياء، بل المقطوع به عدم دخول الشك إلى واحدٍ من هؤلاء الأعاظم، وعلى رأسهم سيّد الموحِّدِين محمد ﷺ، فإنّ هذا النَّوع من الخطاب كما يصحّ أنْ يُخاطَب به مَن يجوز عليه الرَّيب والشَّك، كذلك يصحّ أنْ يُخاطَب به مَن هو على يقينٍ من القول وبيّنةٍ من الأمر على نحو التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المُخْبِرُ ممّا تعاضَدَت عليه الحجج وتجمَّعَتْ عليه الآيات، فإنْ فُرِضَ من المخَاطَب أو السّامِعِ شكٌّ في واحدةٍ منها كان له أنْ يأخذ بالأخرى... وهذه طريقة شائعة في عُرْف التخاطب والتفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جرياً على ما تدعوهم إليه قرائحهم، ترى الواحد منهم يقيم الحجّة على أمرٍ من الأمور ثمّ يقول: فإنْ شككت في ذلك أو سلّمنا أنها لا توجب المطلوب، فهناك حجّة أخرى على ذلك وهي أنَّ كذا كذا، وذلك كناية عن أنّ الحجج متوافرة متعاضدة كالدّعائم المضروبة على ما لا يحتاج إلى أزيد من واحدٍ منها، لكنّ الغرض من تكثيرها هو أنْ تكون العريشة قائمة عليها على تقدير قيام الكلّ والبعض، فيؤول معنى الكلام إلى أنّ هذه معارف بيّنها الله لك بحجج تضطر العقول إلى قبولها وقصص تحكي سنّة الله في خلقه والآثار تدلّ عليها، بيّنها في كتابٍ لا ريب فيه، فعلى ما بيّنه حجّة، وهناك حجّة أخرى وهي أنّ أهل الكتب السّماويّة

الموفين حقّ قراءتها يجدون ذلك فيما يقرأونه من الكتاب، فهناك مبدأُ ومَعاد، وهناك دينٌ إلهيٌّ بعث به رسله يدعون إليه ولم يدعوا أمّةً من الأمم إلاّ انقسموا قبيلين: مؤمن ومكذّب، فأنزل الله آية فاصلة بين الحقّ والباطل وقضى بينهم، وهذا أمرٌ لا يسع أهل الكتاب أنْ ينكروه وإنما كانوا ينكرون بشارات النبيّ وبعض ما يختصّ به الإسلام من المعارف وما غيّروه في الكتب من الجزئيّات، ومن لطيف الإشارة أنّ الله سبحانه لم يذكر في القصص المذكورة في هذه السورة قصّة هود وصالح لعدم تعرُّض التوراة الموجودة عندهم لقصتهما، وكذا قصّة شعيب وقصّة المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها وليس إلاّ لمكان أنْ يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه، فهذه الآية في إلقاء الحجّة على النبيﷺ وزانها وزان قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧] في إلقاء الحجة إلى النّاس][1].

الوجه الرّابع:

الآية التي نبحث فيها مؤلّفة من شرطٍ وجزاء، فهي كالجمل الشرطية التي لا يُشتَرَط وجود الشّرط فيها، بل مفترض الوجود، فيكون الشّرط إمّا للتأكيد على مسألةٍ ما على فَرْضِ وجودها، وإمّا لبيان قانون كلّي عام على فَرْض عدم وجود متعلّق له خارجاً، نظير قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالمخاطَب في هذه الآية هو النبيّ محمدﷺ فقط بحسب الظّاهر، إلاّ أننا لمّا كنّا نعلم أنّ النبيﷺ قد فقد أباه قبل ولادته، وأمّه في طفولته، فإنّ من

---

(١) تفسير الميزان: ١٠/ ١٢٥ بتصرُّف يسير ببعض ألفاظه.

الواضح أنّ احترام الوالدَين قد طُرِحَ كقانونٍ عامٍّ بالرّغم من أنّ المخاطَب ظاهراً هو النبي ﷺ.

وبعبارة أخرى: إنّ الكلام في الآية خرج مخرج التقرير والإفهام كما يقول القائل لعبده: إنْ كنتَ عبدي فأطعني، ولأبيه: إنْ كنتَ والدي فتعطَّفْ عَلَيَّ، ولولده: إنْ كنتَ إبني فبُرَّني، يريد بذلك المبالَغة، وربما خرجوا في المبالَغة عمّا يستحيل كقولهم: بكت السماء لموت فلان[١] أي لو كانت السّماء تبكي على ميت لبكت عليه، وكذلك ههنا يكون المعنى: لو كنتَ ممّن يشكّ فاسألِ الذين يقرأون الكتاب من قبلك.

الوجه الخامس:

يجوز أنْ يكون المعنى هكذا: ما كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليكَ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب، أي لسنا نريد بأمرك أنْ تسأل لكونكَ شاكّاً، ولكنْ لتزداد إيماناً كما قال النبيّ إبراهيم ﷺ لله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فالزّيادة في التعريف ليس ممّا يبطل صحّة العقيدة وإنما أمر سبحانه بسؤال أهل الكتاب مع جحد أكثرهم لنبوّته، والمراد بسؤالهم: السؤال عن صفة النبيّ العربي الذي سيُبْعَث، وقد بشَّرَت به التوراة، فانظر يا رسولي فيما وافق تلك الصِّفة.

الوجه السّادس:

إنّ المراد بالشك: الضيق والشدّة بما يعانيه من نعتهم وأذاهم، أي إنْ

---

(١) يُستثنى من ذلك بكاؤها على سيّد الشهداء الإمام الحسين ﷺ، فالسّماء لا تبكي على أيّ أحد، بل على خاصة خواص عباده المخلصين.

ضقتَ ذرعاً بما تلقى من أذى قومكَ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم فاصبر كذلك.

الوجه السّابع:

إنّ النبيﷺ لمّا أُسرِيَ به إلى السّماء أوحى الله تعالى إليه في الإمام عليعليه السلام ما أوحى من شرفه وعظمته عند الله تعالى، ورد إلى البيت المعمور وجمع له النبيين وصلّوا خلفه، عرض في نفس رسول الله من عظم ما أوحى إليه في الإمام عليعليه السلام فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني الأنبياء، فقد أنزلنا إليهم في كتبهم من فضله ما أنزلنا إليكَ في كتابكَ ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٩٥﴾ فقال الإمام الصادقعليه السلام: فوالله ما شكّ وما سأل[1].

خلاصة الكلام:

إنّ الآيات مورد البحث تدعو في الحقيقة عامّة النّاس إلى المطالَعة والتحقيق والسّؤال من أهل العِلْم، ثمّ طلبت منهم أنْ يحموا الحقّ ويدافعوا عنه بعد أن اتضح لهم، إلاّ أنّ الآيات التالية لتلك الآيات تقول بأنّكَ لا تنتظر أنْ يؤمِن كلّ هؤلاء؛ لأنّ البعض قد فسد بحيث لا يمكن إصلاحه، وعلى هذا فلا تيأس من عدم إيمان هؤلاء، ولا تهدر طاقتك في سبيل هدايتهم بل توجه إلى مَن له قابليّة الإيمان والهداية. . . فمورد الآية هو كلّ مشكِّك في رسالة النبيّ وأهل بيته عليهم السلام، فعليه بالبحث والتنقيب للوصول إلى اليقين، ولا بدّ أنْ تكون

---

(١) راجع: تفسير الصافي: ٢/ ٤١٩.

وسائل التنقيب سليمةً من الشّكّ والإعوجاج أيضاً؛ لأنّ الوسيلة إذا كانت سقيمة فستكون النتيجة سقيمة لا محالة، إذ النتيجة تتبع أخسّ المقدّمَتَيْن. . .

ولا علاقة لرسول الله ﷺ بموضوع التشكيك قطعاً لمعارضته للآيات والبراهين القطعيّة الدالّة على تَنَزُّهِ الأنبياء ﷺ عن ذلك، فضلاً عن سيّدهم محمَّد المصطفى الأمجد ﷺ.

وينبغي أنْ ننقل ما ورد في الأخبار الشريفة ما يكون ضابطة على تنزيه النبي ﷺ من الشك، فثمة خبران أوردهما الصَّدُوق في العلل يشيران إلى ذلك، وهما كالآتي:

**الخبر الأوّل:**

حدثنا المظفر بن جعفر بن المظفر العلوي ﵁ قال: حدَّثَنا جعفر بن محمَّد بن مسعود عن أبيه قال: حَدَّثَنا عليّ بن عبد الله، عن بكر بن صالح، عن أبي الخير، عن محمَّد بن حسان، عن محمَّد بن عيسى، عن محمَّد بن إسماعيل الدارمي، عن محمَّد بن سعيد الإذخري، وكان ممّن يصحب موسى بن محمَّد بن عليّ الرِّضا، أنّ موسى أخبره أنّ يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل فيها وأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ مَن المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطَب به النبيّ أليس قد شكَّ فيما أنزل الله عزّ وجلّ إليه؟ فإنْ كان المخاطَب به غيره فعلى غيره إذاً أُنْزِلَ الكتاب؟ قال موسى: فسألت أخي عليّ بن محمَّد ﵇ عن ذلك قال: أمّا قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنّ المخاطَب بذلك رسول الله ﷺ، ولم يكن في شَكٍّ ممّا أنزل الله عزّ وجلّ ولكنْ قالَتِ الجَهلَةُ: كيف لا يَبْعَثُ إلينا نبياً من الملائكة إنه لم يفرق بينه وبين

غيره في الإستغناء عن المأكل والمشرب والمشي في الأسواق، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيه ﷺ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ بمحضر من الجَهلَةِ هل يبعث الله رسولاً قبلك إلاّ وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولكَ بهم أسوة وإنما قال: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ ولم يقل: «ولكن ليتبعهم» كما قال له ﷺ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ولو قال: «تعالوا نبتهل فنجعل لعنة الله عليكم: لم يكونوا يجيبون للمباهلة، وقد عرف أنّ نبيه ﷺ مؤدّي عنه رسالته وما هو من الكاذبين، وكذلك عرف النبي ﷺ أنّه صادقٌ فيما يقول، ولكنْ أَحبَّ أنْ ينصف من نفسه(١)».

الخبر الثاني:

حَدَّثَنا محمّد بن الحسن رضي الله عنه قال: حَدَّثَنا الحسين بن الحسن بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن حمّاد بن عيسى، عن إبراهيم بن عمير، رفعه إلى أحدهما عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: لا أشكّ ولا أسأل(٢).

## الآية الثالثة عشرة

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١]

---

(١) علل الشرائع: ١/ ١٥٦ باب١٠٧ح١.
(٢) نفس المصدر: ١/ ١٥٧ح٢.

الآية مورد البحث: من الآيات المتشابهة التي تمسّك بها نفاة العلم الحضوري الفعلي لرسول الله ﷺ وأهل بيته الطّاهرين ﷺ، كما أنّها مستمسك قويٌّ لدعاة كون النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ أُناساً عاديين لكنهم يتميّزون بشيءٍ من القداسة الدِّينيّة، واحتجّوا على دعواهم بأنّ الإعتقاد بحضوريّة عِلْمِهِم ﷺ بما يعلمه علاّم الغيوب يستلزم مشاركتهم ﷺ لله تعالى في هذه الصِّفة، فالقول بالعِلْم الحضوري لهم ﷺ يستتبع الشِّرْك والغلوّ، بسبب كون عِلْمِهِم علةً للإطّلاع على المعلومات.

وقد أجبنا بالتفصيل في كتابنا «شبهة إلقاء المعصوم ﷺ نفسه في التهلكة ودحضها»[1] بأنّ إحاطتهم بالمعلومات ليس على وجه العلّة المستقلّة دون استعانة بالذات الإلهيّة المقدَّسة، ضرورة أنّ العلم بهذا المعنى من خصائص ذات الواجب المتعال التي لا يشاركها فيه الممكن المحتاج، فمن المستحيل عقلاً أنْ يستقلّوا بهذا العلم لعدم قدرة المخلوق عليه إلاّ بتوفيقٍ منه وقوّة، فعِلْمُهم ﷺ بتعليم الله عزّ وجلّ لهم آناً فآناً، عارض على ذواتهم المقدَّسة وليس عينها لاستحالة وجوده فيهم قبل وجود ذواتهم الشريفة، فحضوره عندهم بمعنى انكشاف المعلومات لديهم فعلاً بإذنٍ من علاّمِ الغيوب.

فعلومهم الحضوريّة في طول علم الله وإرادته عزّ وجلّ وليست عرضيّة في مقابل علم الله عزّ وجلّ، فهم ﷺ الفقراء ذاتاً، حدوثاً وبقاءً إليه عزّ اسمه،

(١) شبهة إلقاء المعصوم ﷺ نفسه في التهلكة ودحضها: ج٢ ص١٤، ننصح العلماء والمثقَّفين، بدراسته ومدارسته لا سيّما الحوزات العلميّة لاحتياجها إلى المجال الإختصاصي بالعِلْم الحضوري، وهو متوفِّرٌ في هذا الكتاب المبارَك، فلله الحمد وللنبي والأولياء الأطهار الشُّكر والمِنّة على توفيقهم لي بتأليفه للزود عنهم ﷺ.

ومعنى الفقر الذاتي أنّه دائماً يحتاج إلى إفاضة الوجود من الغني بالذات إلى الممكن آناً فآناً، فكلّ آنٍ يكون وجوده ووجود الفيض العلمي عليه غير السّابق كما لا يخفى.

وخفي على هؤلاء أم أنهم تغافلوا عن الآيات المحكَمات المفسِّرة والموضِّحة للآيات المتشابهات، وقد بلغ مجموع الآيات المحكَمة حدود سبع عشرة آية أثبتناها في بعض بحوثنا مع شرح النكات العلمية فلتراجعْ[1].

والتحقيق أنّ الآية المتقدِّمة ليست دليلاً على مدّعاهم وذلك لأمرَيْن:

**الأمر الأوّل:**

كونها من الآيات المتشابهات التي لا يجوز العمل بها دون الرُّجُوع إلى المحكَمَات من الآيات والأخبار وأحكام العقل.

ويكفي من الآيات المحكمة الدّالة على عِلْمِ النبيﷺ حتى بالجزئيّات آيتان:

**الآية الأولى:**

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

هذه الآية تُسمَّى بآية التطهير وهي تفيد الطّهارة المطلَقة عن الرِّجس المعنوي والمادّي بكلّ مراتبهما ومصاديقهما، فالقول بأنّ النبيﷺ لم يكن يعلم المنافقين اعتماداً على ظاهر آية متشابهة قولٌ بغير عِلْمٍ، فلا بدّ من التصرُّف

---

(١) راجعْ: شبهة إلقاء المعصوم عليه السلام نفسه في التهلكة ودحضها: ٢/ ٦٠ ـ ١١٧.

بظاهر الآية المتشابهة لتتلاءم مع آية التطهير المحكَمَة[1].

**الآية الثانية:**

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

حقيقة الرُّؤية الإلهيّة عبارة عن العِلْم الحضوري لله تعالى، بمعنى أنّ أعمال الخير والشر كلّها مرئية لله تعالى ومشهودة لديه، ونفس هذه الرُّؤية أعطاها لرسوله ﷺ وأهل بيته ﷺ لثبوت التلازم والتلاحم بين رؤيته عزّ وجلّ ورؤيتهم ﷺ، فالتفصيل بين رؤيته ورؤيتهم بحمل الأولى على الحضور، والثانية على العلم الكسبي، ليس عليه دليلٌ معتَبَرٌ بل الأدلّة القطعيّة ترفضه والتي منها الأخبار الصحيحة الواردة عنهم ﷺ، مضافاً إلى وجود مسانخة بين رؤية الله تعالى ورؤية الرّسول والمؤمنين لأعمال العباد لاقتران رؤيتهما برؤية الله عزّ وجلّ، فالآية تدلّ على أنّ رسول الله والأئمّة المعصومين ﷺ وهم المؤمنون حقّاً ـ يرون كل ما يعمله العباد رؤيةً لا تتمّ إلاّ بالإشراف الوجودي على الأعمال ومنابعها النّفسيّة ويوجد تناسق بين مدلولات هذه الآية المباركة وبين آية الشّهادة[2] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ في ماهيّة التطلّع والشّهود، فكما أنّ من الطبيعي أن لا تتحقّق الشّهادة في الآية إلاّ بالحضور والإشراف على المشهود عليه ثمّ أداء الواقع بدقّة، كذا لا تتحقّق رؤية الأعمال في الآية المبحوث فيها إلاّ بالحضور والإشراف على

---

(١) للإستفادة أكثر راجعْ: شبهة إلقاء المعصوم ﷺ نفسه في التهلكة ودحضها: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٥٣، وأبهى المداد في شرح مؤتمر علماء بغداد: ١/ ٥٨٥ ـ ٦٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

العمل المرئي بل النيّة الباطنيّة لكونها من مبادئ العمل، لأنّ الشّهادة والرّؤية ليستا على مجرّد شكل العمل وصورته الظّاهرة المتقضية، وإنما تكون أيضاً ـ على السريرة والباطن في كون العمل طاعةً أو عصياناً، فلا بدّ إذن من أن يكون مثل هذا الرّائي أو الشّاهد أو الشّهيد واقفاً على الضّمائر ومطّلعاً على السّرائر في النّشأة الدّنيا لكي تتحقّق مقوّمات الشّهادة يوم القيامة وفي النّشأة الأخرى.

ويظهر هذا المعنى من قوله تعالى حاكياً عن النبيّ عيسى بن مريم عليه السلام وجوابه لله سبحانه في ذلك الموقف العظيم يوم الحساب ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة/ ١١٧] ذلك أنّ اقتران شهادة المسيح على أمّته ورقابته عليهم بشهادة الله ورقابته عليهم يُظهر مدى التشابه بينهما رغم أنّ شهادة المسيح شعاع من تلك الشهادة، وهذا لا يتمّ إلاّ بالإشراف والإطّلاع على القلوب.

وآية الشهادة وآية رؤية الأعمال نصّان قطعيّان في علم الرسول والأئمّة عليهم السلام بأعمال العباد التفصيليّة لكنّه وقعت إشكالية في معارضة مدلول أخبار العرض لتينك الآيتين، حيث إنّ الآيتين تدلاّن ظاهراً على إشرافهم المستمرّ على الأعمال بل على أسسها ومبادئها النّفسيّة التي تصبغ العمل بالطّاعة والعصيان، في حين نجد الأخبار التي توهِم عدم إشرافهم على الأعمال حين صدورها من الفاعلين قد عبّرَت بالعرض على أهل البيت عليهم السلام، فعلامَ العرض حينئذٍ إذا كانوا مشرفين على الأعمال وعلى مبادئها النفسيّة، لا سيّما وأنّ أخبار العرض تتعارض مع تينك الآيتين ممّا يقتضي ـ وللوهلة الأولى ـ طرحها حسب قواعد الترجيح الفِقهيّة والرّجاليّة وموازين الإستنباط؟!.

لكنّ الإنصاف أنّ هذا الإختلاف أو التعارض يرتفع بعد التأمّل في مراتب

العلم والشّهود، وذلك أنّ للعلم مراتب متفاوتة، والطّرح المذكور إنّما يتمّ فيما لو كان تعارضاً بيّناً لا يمكن من خلاله الجمع بين الأخبار والآيات وإلاّ فالقاعدة تقتضي عرض الأخبار على الكتاب فما وافقه يؤخذ به وإلاّ يُضرب بمخالفه عرض الحائط، وفي موردنا ليس ثمة تعارضٌ بالشّرط المذكور حتى يُدّعى طرحه للنكتة التي ذكرنا آنفاً، خصوصاً أنّ التعبير بالعرض تعبيرٌ عن بعض مراتب العلم والشّهود، ومن هنا يمكن أن نصحّح العرض على الله تعالى يوم الخميس حسبما ورد في صحيحة يونس وبريد العجلي وغيرهما من أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء[1]. كما أنّ إشرافهم على الأعمال ومبادئها النّفسيّة هو بعض مقتضيات علمهم الحضوري وكونهم شهداء الله تعالى على الخلق ويشهد لذلك عدّة حيثيات:

الحيثية الأولى: علمهم ﷺ بالغيب بسبل تختلف عن سبل غيرهم من النّاس وهو ظاهر لمن جاس أخبار ديارهم المقدّسة، مضافاً إلى أنّ الآيات الّتي دلّت على صلاحيّة اطّلاع الأنبياء والمرسَلين على عوالم الغيب كقوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فإنها تدلّ بطريق أولى على إطّلاع آل البيت عليه بل أزيد منه لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]، وحيث إنّ آل إبراهيم هم رسول الله محمّد والأئمّة الأطهار، وحيث إنّ النبيّ محمّداً أفضل من إبراهيم الخليل بإجماع

---

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٦ح٢٣ و٤٥.

الأمّة فإنّ آل محمّد هم نفس النبيّ ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] وقوله ﷺ: «فاطمة بضعة منّي وروحي التي بين جنبيّ»، و«أنا من عليّ وعليّ منّي»، و«الحسن منّي»، و«الحسين منّي»، لذا فإنهم أفضل من إبراهيم الخليل عليه السلام وعامّة الأنبياء والمرسلين.

الحيثية الثّانية: أنهم واسطة الفيض الإلهي والحبل الممدود بين الأرض والسَّماء وهو ما يعبّر عنه بالولاية التكوينيّة وهي من توابع علمهم الحضوري الّذي هو حضور المعلوم بوجوده الخارجي عند العالم، وهذا لا ينطبق في المقام إلاّ على علم العلّة بالمعلول، لذا فهم عليهم السلام العلّة الغائيّة لخلق الكائنات حسبما أفاد حديث الكساء ونظائره من الأخبار المقدَّسة، منها ما رواه في الكافي عن مولانا الإمام الصّادق عليه السلام قال: إنّ الله خلقنا فأحسن خلقنا وصوّرنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده ولسانه النّاطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرّأفة والرّحمة، ووجهه الّذي يؤتى منه، وبابه الّذي يدل عليه، وخزانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السَّماء وينبت عشب الأرض، وبعبادتنا عُبد الله، ولو لا نحن ما عُبدَ الله.

الحيثية الثّالثة: العصمة من الضّلال والجّهل، فإنّ إطلاق الوسط وعدم تقييده في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] يدلّ على أنهم في قلب الوسط الحقيقي، لذا فهم معصومون عن الإنحراف والإفراط والتّفريط.

مضافاً إلى أنّ الله تعالى قد اصطفاهم من بين النّاس ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ والإصطفاء هو بعينه الإجتباء وهما

بمعنى الإختيار ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحجّ: ٧٨].

وليس المراد من الإجتباء الإنتقاء الظّاهري فيشمل كلَّ أفراد الأمّة حسبما تصوّر جمهور العامّة ووافقهم بعص دعاة الوحدة ممن ينتسبون إلى التشيّع بهتاناً وزوراً، بل المقصود هم فئة خاصّة من خواص عباد الله تعالى حيث لا سلطة لإبليس على أفكارهم ومشاعرهم، إذ من الواضح أنّ الإجتباء يعني الإصطفاء من كل ما يدنس الفطرة ويشوبها بالأكدار، وهؤلاء هم المخلَصون [بالفتح] الّذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى لذا حكى عزّ شأنه عنهم بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [ص: ٨٣].

وقال عزّ وجلّ في حقّ النبيّ يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإذا ثبت صرف السّوء عن عبده يوسف عليه السلام فما ظنّك بمن كان الله عزّ وجلّ يتولّى أمره في كلّ لحظة من عمره: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النّساء: ١١٣].

الحيثية الرّابعة: إنّ شهادتهم على الخلق تستلزم ديمومة حضورهم وإشرافهم على الأمم في كلّ قرن وإلاّ فإنّ فرض الشّهادة دون ما ذكرنا يعتبر خدشاً في مقاماتهم التي رتّبهم الله تعالى فيها.

روى الكليني عن سماعة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ قال: نزلت في أمّة محمّد خاصّة، في كل قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمّد شاهد علينا.

والقول بأنهم شهداء يقتضي الإعتقاد بحضوريّة علومهم وأنه لا يتخلّف المعلوم عندهم لحظةً ما، فتصوُّر أنهم يتلقّون العلوم في ليلة القدر من دون سبق المعرفة قبلها هو خُلف الإعتقاد بعلمهم الحضوري، مضافاً لمخالفته للأدلّة والأخبار.

الأمر الثاني:

عند التعارض بين المتشابة والمحكَم، يؤخَذ بالثاني ويُؤَوَّل المتَشابَه، وتأويل الآية يقتضي أنْ يكون المراد من ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ وجهان:

(الوجه الأول): لا تعلمهم بحسب الوسائل الطبيعيّة لتمرُّسِهم في النفاق، ويؤيِّده قوله في نفس الآية ﴿مَرَدُوا﴾ الظاهرة في كونهم متمرِّنين ومتمرِّسين على الشر بحيث لا يشعر بها أحد بوسائله العادية.

(وفيه):

(أوّلاً): إنّ الوجه المذكور ناظرٌ إلى مساواة النبيﷺ بغيره من النّاس الذين قد تخفى عليهم الواضحات فضلاً عن غيرها، في حين أنّ للنبيﷺ خصائص ومميزات تميِّزه عن بقيّة المخلوقات، ففيه من البصيرة الباطنيّة نتيجة الترويض النفسي والرُّوحي، وكذا فيه من الفطنة والذكاء الخارِقَيْن نتيجة الصّفاء البدني بحيث لا تخفى عليه ألآعيب الماكرين وتدليس المدلِّسِين.

(ثانياً): يتعارض الوجه المذكور مع ما جاء في الآيات الدّالة على فراسة النبيّ بحيث يخرق بصره وبصيرته المادة مهما كانت كثيفةً، ولا تفصل الجدران أو الستائر بينه وبين أعمال المنافقين فهو مزوَّد بوسائل طبيعيّة فوق العادة تماماً كتزوُّد الجنّ بها حيث يرون ما لا نرى، ويفعلون ما لا نقدر عليه، أو كتزوُّد آلات التصوير المتطوِّرة التي تخرق الحجب المادية من النبات والجلد فترى ما

خلفهما، ورؤيتها لِمَا وراءَهما لا يخرجها عن كونها آلةً ماديةً... فلِمَ لا يزوّد النبي ﷺ بأزيد مئات المرات بما زوّدت به الجنّ والكاميرا أو أشعّة ما وراء الحمراء؟ وعلى فَرْض أنّه ﷺ لم يزوَّد بمثل ما زُوِّدَت به الجنّ وغيره ممّا ذكرنا، فيبقى على طبيعته العادية، وهذا لا يستلزم عدم وقوفه على الأسرار عن طريق الإلهام والتعليم الإلهي.

(الوجه الثاني): المراد بـ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ اي لوحدك دون استعانة بالله تعالى لا يمكنك أنْ تعلمهم؛ لأنّ علمك هو عارضٌ على ذاتك، أمّا الله عزّ وجلّ فعِلْمُهُ ذاتيٌّ نابعٌ منه لا من شيءٍ آخرٍ، فمَن كان عِلْمُهُ عرضياً لا يمكنه أنْ يعلم إلاّ أنْ يفيض الله تعالى عليه فيعلم ويرى.

فموضوع الآية هو التفصيل بين العرضي والذاتي، بين الفقير والغني المطلَق، بين الممكن والواجب، فالنبي ﷺ أو أيّ إنسانٍ آخرٍ لا يمكنه أنْ يطّلع على الخبايا والخفايا إلاّ باستعانة بمَن عِلْمه ذاتي وهو الله تعالى فقط.

فالآية في مقام بيان الإمتنان على النبي ﷺ بأنّه يعلم المنافقين بتعليم منه تعالى بقرينة ما جاء في الآيات الأخرى الدّالة على سعة عِلْمِهِ وإحاطته بالكائنات.

الأخذ بهذين الأمرين بناءً على أنّ المقصود بالخطاب هو النبي ﷺ فقط، أمّا بناءً على أنّ المقصود غيره فيندرج في باب: «إياك أعني واسمعي يا جارة»؛ فيكون معنى الآية: إنّكَ أيّها المسلم لن تتعرَّفَ على المنافِقِين ولن تهتدي إلى طرائق حيلهم وتدليسهم بالطّرق الطبيعيّة المتعارفة وإنما يلزمك في ذلك إلى طرق أخرى ربّانية تستكشف من خلالها واقعَ المنافِقِين، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فعليكَ أنْ تصل إلى مقام ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أو كما ورد في رواية

حمّاد بن بشير عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن ربّ العزّة قال: [وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ولِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ..][1].

فإنْ لم يفنَ العبد في مقام الربوبيّة لن يصل إلى مقام الشهود والحضور: «إتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[2].

فالمسلم المتأثّر بتيار الشهوة وفورة الغضب لا يمكنه الولوج في مقام التفرُّس و الإطّلاع على الخفايا، وكأنّ لسان الآية حاكٍ عن هذا، وكاشفٍ عن واقعٍ يعيشه المسلم وهو الجهل بالواقعيات والورائيّات ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾؛ لأنّكَ متجلببٌ بلباس البدن، فإذا خلعتَ اللباس البدني الحاجب، فإنّكَ تعلم وتتفرّس ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فنعلّمكَ بتعليمنا، فتنظر بنورنا، ومَن نظر بنورنا اهتدى إلى الواقع.

هذا هو المعنى الواقعي للآية الشريفة ولا عبرة بغيره من التمحُّلات التي لا توجب إلاّ بُعداً عن الواقع، والله العالِم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ ومعناها:

لا تقل أو لا تتبع ما ليس لكَ به عِلْمٌ، فالقول بما ليس به عِلْمٌ بهتانٌ وزورٌ

---

(١) أصول الكافي: ٢/ ٣٥٢.

(٢) الكافي: ١/ ٢١٨، ووسائل الشيعة: ١٢/ ٣٨، وبحار الأنوار: ٢٤/ ١٢٣...

على الطرف الآخر وهو ظلمٌ وتعَدٍّ على حقوق الآخرين وهذا من الكبائر العِظام عند الله تعالى، فإذا قلنا أنّ المقصود بالخطاب هو الرسول الأكرم ﷺ، فإنّ ذلك خيانة بحقّ النبيّ الأكرم ﷺ يتنزّه عنه اقلّ المؤمنين، فكيف بسيّد الخلق محمد ﷺ؟!!

فلا بدّ حينئذٍ من صرف ظاهر الآية إلى غيره وهو الصّواب الموافق للإعتبار العقلي والشرعي والعُرفي، فالصحيح ـ إذاً ـ أنّ الخطاب لرسول الله ﷺ، والمقصود به غيره.

* * *

### الآية الرابعة عشرة

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]

تشير الآية إلى أنّ المخاطب في الآية شخصٌ كان يخوض في الباطل ويسخر من آيات الله ويستهزأ بها، كما تشير إلى تسلُّط الشيطان على المخاطَب بالنسيان بعد أنْ كان مأموراً بترك مخالطة الكفّار والمشركين الذين يخوضون في آيات الله تعالى، لكنّ الشيطان أنساه هذا الأمر وجلس مع هؤلاء القوم سهواً، فنبّهه الله سبحانه على وجوب النهوض فوراً حال تذكُّره حرمة الجلوس مع الظالمين.

وظاهر الخطاب موجَّهٌ إلى الرسول الأكرم ﷺ، من هنا اعتقد بعض المفسِّرين أنّ مورد الآية هو الموضوعات لا الأحكام، ويجوز النسيان في الموضوعات دون الأحكام[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٤/ ٦٢.

والسؤال: هل من الجّائز أنْ يتسلّط الشيطان على رسول الله ﷺ فيسبّب له النسيان كغيره من النّاس؟

**والجواب:**

ما ذكره الطبرسي - إنْ صحّت النسبة إليه في كتابه مجمع البيان - مغالطة ودعوى ليس عليها دليل، وعلى المدّعي البيّنة، وحيث لا بيّنة لديه، فتبقى نظريّته مجرَّد وهمٍ وخيال... وجوابنا التفصيلي عليه في بعض بحوثنا، فلتُراجَع لأهميتها العلميَّة الكبرى[1].

مضافاً إلى أنّ النسيان في الموضوعات المتجدِّدة تستلزم الرِّجس المنفي عن النبي ﷺ بالأدلّة والبراهين القطعيّة من الكتاب والسنة ودليل العقل كما سوف يأتي معنا في الفصل القادم إنْ شاء الله تعالى.

كما ينبغي التنبيه على أنّ الخطاب في الآية موَجَّهٌ للمؤمنين كما يشهد له سياق الآيات بعد الآية المذكورة كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ [الأنعام: ٦٩]، فيكون النهي في الآية [ولا تقعد] تأكيداً لهم وذكرى لعلّهم يتقون.

## الآية الخامسة عشرة

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ [هود: ١٢]

---

(١) الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية: ١/ ٤٣٠ - ٤٦٧، وشبهة إلقاء المعصوم عليه السلام نفسه في التهلكة ودحضها: ١/ ٢٨٧ - ٣٢٧.

قال العلاّمة الطبرسي: «ثم أمر الله عزّ وجلّ رسوله بالثبات على الأمر وحثّه على حجاج القوم بما يقطع العذر فقال ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي ولعلّك تارك بعض القرآن وهو ما فيه سبُّ آلهتهم ولا تبلغهم إياه دفعاً لشرّهم وخوفاً منهم ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ أي ولعلّك يضيق صدرك مما يقولونه وبما يلحقك من أذاهم وتكذيبهم. وقيل: باقتراحهم ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ أي كراهة أنْ يقولوا أو مخافة أنْ يقولوا ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ من المال ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يشهد له فليس قوله فلعلك على وجه الشك بل المراد به النهي عن ترك أداء الرّسالة والحث على أدائها كما يقول أحدنا لغيره وقد علم من حاله أنّه يطيعه ولا يعصيه ويدعوه غيره إلى عصيانه لعلك تترك بعض ما آمرك به لقول فلان وإنما يقول ذلك ليوئس من يدعوه إلى ترك أمره فمعناه لا تترك بعض ما يوحى إليك ولا يضق صدرك بسبب مقالتهم هذه»[(١)].

**الآية السادسة عشرة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ [التحريم: ١ ـ ٢]

الظاهر من الآية أنّ النبي ﷺ حرّم شيئاً مباحاً على نفسه ابتغاء أنْ ترضى عنه بعض أزواجه... فعاتبه الله تعالى على ذلك الإمتناع «أي ما حرّمه على نفسه» استصلاحاً لعائلته، فشاء الله تعالى أنْ يخفّفَ عن رسوله ﷺ ثقل هذا القيد والإمتناع؛ لأنّ بعض أزواجه لا يستحقنّ أنْ يمنع نفسه عن الحلال من أجلهنّ، لأنّهنّ آذينه حتى أرضاهنّ بالحلف على تركه، فأمره الله تعالى «بتحليل إيمانه بدفع كفّارة وهي إطعام عشرة مساكين[(٢)]».

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٥/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥/ ٣٦٨ح٥.

ولا يخفى أنّ المراد بحلفه اليمين على تحريم ما أحلّ الله تعالى له هو الإمتناع بالحلف عن شيءٍ كان مباحاً له، وليس المراد بالتحريم تشريعه ﷺ على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحلية، فليس له ذلك[١].

والآية لم تبيِّن هذا الشيء الذي حرّمه النبيُّ على نفسه بواسطة الحلف، لكنّ الأخبار فسَّرَتْهُ، وإنْ اختلفت في بيان نوعيّته، لذا ثمّة قولان في بيانه وسبب نزولها:

القول الأول:

إنّ سبب التحريم هو شربه ﷺ للعسل عند إحدى أزواجه، فغضبت حفصة وعائشة منه، فاختلقتا عليه أمراً منكراً وهو انبعاث رائحة كريهة من فمه الشريف.

فقد روى العامّة ـ حسبما نقل ذلك الآلوسي في روح المعاني ـ عن البخاري وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة صاحبة الجمل يوم البصرة قالت: إنّ رسول الله كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إنْ أيّتُنا دخل عليها النبيّ ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: لا، بل شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود.

وفي رواية: حلفت فلا تخبري بذلك أحداً، فنَزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ . . . وفي رواية أخرى قالت سودة: أكلت مغافير؟ قال: لا، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل، فقالت: جرست ـ

---

(١) تفسير الميزان: ١٩/ ٣٣٠.

أي لحست ـ نحلة العرفط[١]، فحرّم العسل، فنزلت. وفي حديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة: شرب العسل في بيت حفصة، والقائلة سودة وصفية[٢].

وأخرج إبن المنذر وإبن أبي حاتم والطبراني وإبن مردويه، قال الحافظ السيوطي بسندٍ صحيح عن إبن عبّاس قال: كان رسول الله شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحاً، فدخل على حفصة، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: أراه من شرابٍ شربته عند سودة والله لا أشربه، فنزلت الآية[٣].

وروى الرازي في تفسيره نظير ما تقدَّم ببعض الزّيادات: إنّه عليه الصّلاة والسَّلام شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنّا نشمّ منكَ ريح المغافير وكان رسول الله يكره التفل فحرّم العسل... إلى أنْ قال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾.. مبتغياً ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾... وهذا زلّة منه؛ لأنّه ليس لأحد أنْ يحرِّمَ ما أحلّ الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قد غفر لك ما تقدَّمَ من الزلة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمكَ لم يؤاخذك به[٤]...

ويظهر من سياق آيات سورة التحريم أنّ عائشة صاحبة الجمل ورفيقتها المخلصة حفصة هما المثل الذي ضربه الله تعالى في السّورة، وهما اللتان تواطأتا وتظاهرتا على رسول الله ﷺ بكيدهنّ وفسقهنّ واجترائهنّ على نبي الرحمة ﷺ.

---

(١) المغافير، واحد مغفور، ويقال له مغاثير، وهو صمغ العرفط. العرفط: نبات كريه الرائحة يأكله النحل، فتظهر رائحته في العسل.

(٢) تفسير روح المعاني: ١٥/ ٢١٧.

(٣) نفس المصدر السابق: ١٥/ ٢١٨.

(٤) تفسير الرازي: ٣٠/ ٤٢، وتفسير الكشاف للزمخشري المعتزلي: ٤/ ٥٥٠.

قال البيضاوي في تفسيره: قيل: شرب عسلاً عند حفصة، فواطأت عائشة سودة وصفيّة، فقلن له: إنّا نشمّ منكَ ريح المغافير فحرّم العسل[١].

وقال الطبرسي رحمه الله ناقلاً عن المصادر العامية: «إنّه قد أُهدِيَت لحفصة بنت عمر بن الخطّاب عكة من عسل، فكانت إذا دخل عليها رسول الله حبسته وسقته منها، وإنّ عائشة أنكرت احتباسه عندها، فقالت لجويريّة حبشية عندها»: إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على حفصة فادخلي عليها فانظري ماذا تصنع؟ فأخبرتها الخبر وشأن العسل، فغارت عائشة وأرسلت إلى صواحبها فأخبرتهنّ، وقالت: إذا دخل عليكنّ رسول الله فقلن: إنّا نجد منكَ ريح المغافير وهو صمغ العرفط كريه الرائحة، وكان رسول الله يكره ويشقّ عليه أنْ يوجد منه ريح غير طيّبة لأنّه يأتيه المَلَك، فدخل رسول الله على سودة التي قالت: فما أردت أنْ أقول ذلك لرسول الله ثمّ إني فرقت من عائشة، فقلت: يا رسول الله ما هذه الريح التي أجدها منك، أكلت المغافير؟ فقال: لا، ولكن حفصة سقتني عسلاً، ثمّ دخل على إمرأة امرأة وهنّ يقلن له ذلك، فدخل على عائشة فأخذت بأنفها، فقال لها: ما شأنكِ؟ قالت: أجد ريح المغافير أكلتها يا رسول الله؟ قال: لا، بل سقتني حفصة عسلاً، فقالت: جرست إذاً نحلها العرفط! فقال: والله لا أطعمه أبداً، فحرَّمَهُ على نفسه. . .

وقيل: إنّ التي كانت تسقي العسل رسول الله أمّ سلمة عن عطاء بن أبي مسلم[٢].

وقيل: بل كانت زينب بنت جحش، قالت عائشة: إنّ رسول الله كان

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٠٥.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ٤٢.

يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً فتواطأتُ أنا وحفصة أيّتنا دخل عليها فلتَقُلْ: إنّي أجدُ منكَ ريح المغافير[١]. . .

**ملاحظة هامّة:**

نلاحظ من خلال هذا السرد الرّوائي العامّي، ويؤيّده سياق آيات سورة التحريم، الأمور الآتية:

**الأول**: إنّ ما صدر من النبي ﷺ من الإمتناع عن المحلَّل له لأجل عائشة وحفصة ما كان ينبغي صدوره منه ﷺ لأجلهما. . .

**الثاني**: كذبهما على النبي ﷺ بافتراء شربه للمغافير. . .

**الثالث**: المظاهرة والتواطؤ على النبي ﷺ بكيد المؤامرات الخبيثة ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾.

**الرّابع**: بوحهما ببعض الأسرار النبويّة ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾.

**الخامس**: عدم التصديق بكونه نبيّاً لقول إحداهنّ ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ فسؤالها ينمُّ عن عدم تصديقها بأنه موحىً إليه.

**السّادس**: العصيان والإثم لقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أي وجد منكما ما يوجب التوبة وهو ميل قلوبكما عن الواجب من مخالصة رسول الله بحبّ ما يحبّه وكراهة ما يكرهه[٢].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٠٦.

السّابع: عدم الإحترام والتقدير لرسول الله ﷺ بسبب ما حصل منهما من سوء الأدب مع رسول الله محمد ﷺ.

الثامن: التهديد بطلاقهنّ وإبداله أزواجاً خيراً منهنّ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ والتهديد يستتبع التعريض بهنّ، وأنّهنّ لسن مسلمات ولا مؤمنات ولا قانتاتٍ ولا تائبات ولا عابدات ولا سائحات ولا ثيّبات يحترمن الثيبوبة، لأجل أنّ النبيَّ تزوجهنّ ثيبات فيُفرض عليهنّ احترامه بسبب شفقته عليهنّ ولكنّهن تجرَّأْنَ عليه ﷺ وآذينه بنفسه وببعض أزواجه وبإبنته سيّدة النساء عليها السلام وبابن عمّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إلى آخر ما هنالك من مخازيهِنَّ التي لا يمكن أنْ يحصيها إلاّ الله تعالى ورسوله وأهل البيت عليهم السلام.

القول الثاني:

كان سبب نزول الآية أنّ رسول الله ﷺ خلا بجاريته مارية القبطية في يوم عائشة، وعَلِمَتْ بذلك حفصة، فقال لها: اكتمي علَيَّ وقد حرَّمْتُ مارية على نفسي، وأُبشِّرُكِ أنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمّتي، فأخبرت به عائشة، وكانتا متصادقتين[1].

وقيل: خلا بها في يوم حفصة، فأرضاها بذلك، واستكتمها فلم تكتم، فطلقها واعتزل نساءَه، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية، وروي أنّ عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لَمَا طلّقك[2]...

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٤١، والكشاف: ٤/ ٥٤٩، والبيضاوي: ٢/ ٥٠٥.

(٢) تفسير الرازي: ٣٠/ ٤١، والكشاف: ٤/ ٥٥٠، وروح المعاني: ٥/ ٢١٨.

وروى ذلك أيضاً الآلوسي قال: إنّه ﷺ وطئها في بيت حفصة في يومها، فوجدت وعاتبته فقال ﷺ: ألا ترضين أنْ أحرمها فلا أقربها؟ قالت: بلى، فحرَّمَها[1].

فالمشهور عند الجمهور ـ بحسب دعوى الآلوسي ـ أنّ المرأة التي وقع عليها رسول الله هي مارية وطئها في بيت حفصة في يومها، وهو الموافق لبعض أخبارنا، فقد جاء في تفسير القمي: سبب نزولها أنّ رسول الله ﷺ كان في بعض بيوت نسائه وكانت مارية القبطية معه تخدمه، وكان ذات يومٍ في بيت حفصة فذهبت حفصة في حاجة لها، فتناول رسول الله مارية فعلمت حفصة ذلك فغضبت وأقبَلَتْ على رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله هذا في يومي وفي داري وعلى فراشي؟! فاستحيا رسول الله منها، فقال: كفى فقد حرمت مارية على نفسي ولا أطؤها بعد هذا أبدا وأنا أفضي إليك سرّاً فإنْ أنتِ أخبرتِ به فعليكِ لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: إنّ أبا بكر يلي الخلافة بعدي ثم من بعده أبوك، فقالت: مَن أخبركَ بهذا؟ قال: الله أخبرني، فأخْبَرَتْ حفصةُ عائشةَ من يومها ذلك، وأخبَرَتْ عائشةُ أبا بكرٍ، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إنّ عائشة أخبرتني عن حفصة بشيءٍ ولا أثق بقولها فاسألْ أنتَ حفصة، فجاء عمر إلى حفصة، فقال لها: ما هذا الذي أخبَرَتْ عنكِ عائشة، فأنْكَرَتْ ذلك، قالَتْ: ما قلتُ لها من ذلك شيئاً، فقال لها عمر: إنْ كان هذا حقاً فأخبرينا حتى نتقدَّمَ فيه، فقالت: نعم قد قال رسول الله ذلك فاجتمعوا على أن يسمُّوا رسول الله فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بهذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ يعني قد أباح الله لك

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ٢١٨.

أنْ تكفِّرَ عن يمينك ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي أخبرت به ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني أظهر الله نبيه على ما أخبرت به وما هموا به ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي أخبرها وقال: لِمَ أَخْبَرْتِ بما أخبرتُكِ؟ وقوله ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ قال لم يخبرهم بما علم مما همّوا به ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ لَا إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ يعني لأمير المؤمنين عليه السلام[(١)].

وقال الطبرسي رحمه الله: [إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قسّم الأيام بين نسائه فلمّا كان يوم حفصة قالت يا رسول الله إن لي إلى أبي حاجة فأذن لي أن أزوره فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جاريته مارية القبطية وكان قد أهداها المقوقس فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وجهه يقطر عرقاً فقالت حفصة: إنما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما ما رأيت لي حرمة وحقاً فقال صلى الله عليه وآله: «أليس هي جاريتي قد أحلّ الله ذلك لي أسكتي فهو حرامٌ علَيَّ التمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن وهو عندك أمانة» فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت: ألا أبشّرك أنّ رسول الله قد حرَّم عليه أَمَته مارية وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواجه فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ فطلّق حفصة واعتزل سائر نسائه تسعة وعشرين يوماً وقعد في مشربة أم إبراهيم مارية حتى نزلت آية التخيير عن قتادة والشعبي ومسروق.

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

وقيل: إنّ النبي ﷺ خلا في يوم لعائشة مع جاريته أم إبراهيم مارية القبطية فوقفت حفصة على ذلك فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تُعلِمِي عائشة ذلك» وحرَّم مارية على نفسه فأعلمت حفصة عائشة الخبر واستكتمتها إياه فاطلع الله نبيه ﷺ على ذلك وهو قوله ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ يعني حفصة عن الزجاج قال: ولما حرَّم مارية القبطية أخبر حفصة أنه يملك من بعده أبو بكر ثم عمر فعرفها بعض ما أفشت من الخبر وأعرض عن بعض أن أبا بكر وعمر يملكن بعدي وقريب من ذلك ما رواه العياشي بالإسناد عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي جعفر عليه السلام إلا أنه زاد في ذلك أن كل واحدة منهما حدثت أباها بذلك فعاتبهما رسول الله في أمر مارية وما أفشتا عليه من ذلك وأعرض عن أنْ يعاتبهما في الأمر الآخر][1].

والحاصل: إنّ القول الثاني أيّدَتْهُ أخبارنا الشريفة، فحمل الآية على هذه الأخبار أظهر من حملها على حديث العسل، وذلك لأنّ أكل المغافير ليس فيه على النبي ﷺ كثير خوف من حفصة أو عائشة، فالمغافير مجرَّد أكلة كان بإمكانه عدم المعاودة إليها دون إلزامٍ لإرضاء زوجته بإسرار الحديث لها، فالقول الثاني ـ إذاً ـ أوفق بظاهر الآية، وإنْ كان الجمع بين الأخبار مما يكاد يصحّ ولا يمتنع، وقصارى ما يمكن أنْ يُقال: إنّ النبي ﷺ من المحتمل أنْ يكون قد شرب عسلاً عند زينب كما هو عادته، وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرَّم العسل واتفق له عليه السلام قبيل ذلك أو بعيده أنْ وطئ جاريته مارية في بيتها وفي يومها وعلى فراشها، فوجدت فحرّم مارية، وقال لحفصة ما قال تطييباً لخاطرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان.

---

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٤٣.

هذا الجمع قد ارتآه الآلوسي في تفسيره[١] وهو جيد لولا أنّ أكل المغافير مما لا يصحّ صدوره عن النبيﷺ وذلك لأمرين:

الأوّل: لأنّه ﷺ كان يكره التفل كما في رواية الزمخشري.

والثاني: لعلمه ﷺ بأنّ المغافير ذو رائحة كريهة بل كيف يأكله مع انبعاث تلك الرّائحة منه، وإطلاعه ـ ولو عن طريق الإلهام أو الوحي ـ بأنّ في العسل رائحة المغافير، بل بإمكانه ﷺ معرفة ذلك من خلال شمّه على أقلّ تقدير.

وبالجملة: سوآء أكان سبب النزول هو أكل العسل أم وطء مارية، فلا يهمّ كثيراً، ولكنّ المهمّ هو: هل أنّ ظاهر الخطاب في الآية يفيد العتاب وترك الأولى أم لا؟

ظاهر الجمهور الأول، قالوا: إنّ النبيﷺ ترك الأوْلَى فعاتبه الله تعالى عليه، وعبّر عنها الزمخشري بزلةٍ صدرت منه؛ لأنّه ليس لأحدٍ أنْ يحرِّمَ ما أحلّ الله تعالى؛ لأنّه عزّ وجلّ إنما أحلّ ما أحلّ لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرَّمَ كان ذلك قلب المصلحة مفسدة[٢]...

وقد وافقه عليه الرّازي لكنه أخرج الخطاب في الآية عن كونه عتاباً من الله تعالى للنبيﷺ، فحمله على التنبيه، في حين جعل الخطاب في سورة عبس عتاباً أراد منه الله تعالى تأديب نبيهﷺ، وهذا التهافت من العَجَب العُجاب لأفكار الرّازي.

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ٢٢٤.

(٢) تفسير الكشاف: ٤/ ٥٥١.

أمّا الآلوسي فكاشف عمّا يختمر في ضميره، فعبّر عمّا جرى بالمعاتبة بسبب ترك النبي ﷺ للأوْلَى، فقال: [قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تعظيم لشأنه ﷺ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السّامي الكريم يُعَدُّ كالذَّنبِ وإنْ لم يكن في نفسه كذلك، وأنّ عتابه ليس إلاّ لمزيد الإعتناء به..][1].

ويظهر من الشيخ البلاغي رحمه الله من الإمامية الميل إلى القول الأوّل فقال: [وحاصل الأمر أنّ النبي ﷺ عزّ عن الإمتناع عن شيء استصلاحاً لعائلته، فإنّ التحريم هو المنع، ولكن شاء الله أنْ يخفف عن رسوله ثقل هذا القيد، ويتولى إصلاح عائلته بتأديب الوحي فأنكر عليه أنْ يلقي على نفسه الشريفة ثقل القيود والإمتناع عن الحلال][2].

ولا يكون الإنكار إلاّ من حرام أو تركٍ للأولى، وحيث إنّ الأوّل ممتنعٌ عقلاً ونقلاً في حقّ الأنبياء والأولياء لا سيّما نبيّنا الأكرم ﷺ، لكنّ الثاني غير ممتنعٍ لحصوله عند الأنبياء عليهم السلام، فلا مانع من حصوله عند النبي ﷺ... وكذا ذهب إلى ذلك الشيخ الطوسي في التبيان ونسبه الطبرسي إلى القيل[3].

وذهب فريقٌ آخر إلى القول الثاني، بمعنى أنّه ﷺ لم يترك الأوْلَى، فحملوا الآية على مورد التوجُّع له ﷺ لكونه بالغ في إرضاء أزواجه وتحمل في ذلك المشقة[4].

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ٢١٩.

(٢) هو الشيخ البلاغي في كتابه: «الهدى إلى دين المصطفى: ج٢ ص٢٦».

(٣) تفسير التبيان: ١٠/ ٤٦، ومجمع البيان: ١٠/ ٤٣.

(٤) كما يظهر ذلك من الطبرسي في المجمع: ١٠/ ٤٣.

وحمل الطباطبائي الخطاب على إظهار وتأييد الإنتصار له ﷺ وإنْ كان في صورة عتاب[١].

وقفة قصيرة مع التفسير الأمثل:

إستشكل صاحب التفسير المذكور بكون الآية في مورد العتاب والتوبيخ على ترك الأَوْلَى، ولكنّه لم يستشكل بالأعظم منه وهو نسبة الجهل إلى رسول الله ﷺ في التبليغ والعبثيّة في التصرُّف، فقال:

[. . . فإنّ جملة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ لم تأتِ كتوبيخٍ وعتاب، وإنما هي نوع من الإشفاق والعطف، تماماً كما نقول لمن يجهد نفسه كثيراً لتحصيل فائدة معيَّنة من أجل العيش ثم لا يحصل عليها، نقول له: لماذا تتعب نفسك وتجهدها إلى هذا الحدّ دون أن تحصل على نتيجة توازي ذلك التعب[٢]؟ ثم أضاف بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا العفو والرّحمة إنما هو لمن تاب من زوجات الرّسول اللاتي رتبن ذلك العمل وأعددنه، أو انها إشارة إلى أنّ الرسول ما كان يعلم[٣] في البداية أنّ هذا القسم سيؤدّي احتمالاً إلى جرأة وتجاسر بعض زوجاته عليه ﷺ . . .][٤].

إنّ العبث والجهل من أبرز مصاديق الرِّجس الذي نُزِّهَ عنه رسول الله وأهل بيته الميامين ﷺ بنصّ آية التطهير وبضرورة العقل الدال على طهارة الأنبياء والأوصياء والأولياء عن وصمة آثار الشيطان وسلطنته عليهم بالعبثية والجهل. .

(١) تفسير الميزان: ١٩/ ٣٢٢.

(٢) هذا الكلام يستلزم العبث في تصرُّفات النبي ﷺ ـ وحاشاه من ذلك ـ.

(٣) هذا كلام واضح في نسبته الجهل إليه ﷺ.

(٤) تفسير الأمثل: ١٨/ ٤٠٧.

ونحن نسأل: هل يصحّ تنزيه النبي ﷺ عن ترك الأَوْلَى، ولا يصحّ تنزيهه عن الجهل مع أنه أوجب وأَوْلَى؟!!

**تصوري في فهم الآية المباركة:**

دعوى أنّ خطاب الآية محمولٌ على الإنتصار له ﷺ في صورة عتاب كما عليه السيد الطباطبائي من الإماميّة والألوسي من العامّة، لا يخرجه عن ترك الأولى، وصدوره من الأنبياء عليهم السلام غير قبيحٍ شرعاً وعرفاً، ولو كان قبيحاً لَمَا صحّ صدوره من بعضهم كالنبي آدم وموسى ويونس وغيرهم، إذاً صدوره من النبيّ لا قبحَ فيه، نعم صدوره من الأنبياء يدلّ على ضيق القابليّة في ذواتهم عليهم السلام أو في ذوات رعاياهم، وحيث إنّ النبيّ محمَّداً كامل القابليّة بدلالة آية التطهير فلا تصحّ النسبة إليه بالمعنى الأول، وعليه فلا مانع من صحّة النسبة بالمعنى الثاني، وهو النقص في قابليات أفراد أمّته، لذا اقتضى صدور ما هو خلاف الأَوْلَى من النبي مراعاةً لهم، من هنا جاء في الخبر مؤيّداً الآية بأنّه كان يريد مرضاة حفصة وعائشة حرصاً منه أنْ ترتكبا ما هو أفظع من الإرضاء وهو التشهير بالنبي ﷺ والإنتقاص منه والتعييب عليه، فأراد استرضاءهما تقديماً للأهمّ على المهمّ، فالأهمّ هو عدم التعييب عليه، والمهمّ هو استرضاؤهما.

وبعبارة أخرى: دار الأمر بين استرضائهما وبين التعييب عليه والإنتقاص منه، فقدّم الأوّل على الثاني لأهمية الثاني من الأول، وكأنّ الأوّل أقلّ ضرراً من الثاني، وعند التخيير يقبح عقلاً اختيار الأكثر على الأقلّ منه.

هذا التفصيل لم يسبقنا إليه أحد من أعلام المفسِّرين، فالمنّة لله تعالى والشكر له ولأوليائه الطاهرين عليهم السلام، فقد خالفنا فطاحلَ علماءِ الإمامية القائلين بجواز صدور ما هو خلاف الأَوْلَى من الأنبياء حتى نبينا ﷺ، ومن هؤلاء السيد

المرتضى والشيخ مغنيّة[1] وظاهر السيد الطباطبائي[2]، والطبرسي[3].

قال علم الهدى السيد المرتضى ﵀: [وأمّا قوله تعالى ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فظاهره الإستفهام والمراد به التقرير، واستخراج ذكر علّة إذنه وليس بواجب حمل ذلك على العتاب؛ لأنّ أحدنا قد يقول لغيره: لِمَ فعلتَ كذا وكذا، تارةً مستفهماً وطوراً مقرِّراً، فليست هذه اللفظة خاصّة للعتاب والإنكار، وأكثر ما يقتضيه وغاية ما يمكن أن يدّعى فيها أنْ تكون دالّة على أنّه ﷺ ترك الأَوْلَى والأفضل، وقد بيّنا أنّ ترك الأَوْلَى ليس بذَنْبٍ وإنْ كان الثواب ينقص معه، فإنّ الأنبياء يجوز أنْ يتركوا من النوافل كثيراً وقد يقول أحدنا لغيره إذا ترك الندب لم تركت الأفضل ولِمَ عدلتَ عن الأَوْلَى ولا يقتضي ذلك إنكاراً ولا قبيحاً][4].

وخلاصة ما أفاده العلاّمة المرتضى قدّس سرّه هو جواز ترك الأَوْلَى على الأنبياء ﵈، وفسَّرَه بنقصان الثواب.

وفيه: ما أفاده السيد العلاّمة قدّس سرّه لا بأس به، ولكنه بحقّ سيّد الرُّسُل مردود بمقتضى تنزيهه عن كلّ ذلك بنصّ آية التطهير. كما إنّه لا فَرْقَ في قبح ترك الأَوْلَى بين أنْ يكون بالمعنى الذي أفاده السيد المرتضى وبين ما أفاده المشهور من أنّ السبب في ترك الأنبياء للأولى إنما هو نقصان ذواتهم ﵈ بمقتضى التفاوت في علومهم ودرجاتهم وقربهم من المبدأ الفيّاض عزّ ذِكره وتعالى مجده.

---

(١) تفسير الكاشف: ٤/ ٤٨ سورة التوبة، الآية٤٣.

(٢) تفسير الميزان: ٩/ ٢٨٤.

(٣) مجمع البيان: ١٠/ ٤٣.

(٤) تنزيه الأنبياء: ١١٤و١٢١.

فالسيد المرتضى ـ أعلى الله مقامه ـ بحث في النتائج ولم يبحث في المقدّمات التي أدّت إلى نشوء ترك الأنبياء للأَوْلَى، فإنْ كان يميل في المقتضى لذلك إلى ما ذهب إليه المشهور، فلا شكّ ـ حينئذٍ ـ في أنْ يكون تركهم ﷺ للأَوْلَى لم يكن أَوْلَى وهو قبيح عقلاً، وإنْ كان يميل إلى ما أسّسناه آنفاً فلا قبح حينئذٍ فيه البتّة، وذلك للقاعدة الأصيلة: «الكلّ مقامٍ مقال» و«إنّا معاشر الأنبياء نكلِّمُ الناسَ على قدر عقولهم»، فلا يسع الأنبياء على القاعدة التي نعتقد بها ـ طبقاً لما يعتقدون ﷺ ـ أنْ يحدِّثوا بكلّ ما يعلمون، ولا أنْ يعملوا بكلّ ما يعلمون.

ولكنّ الإنصاف أنّ الأنبياء لم يكونوا على درجة واحدة من المعرفة والقرب حتى يُدَّعى أنّ تركهم للأَوْلَى كان بسبب نقصان قوابل أتباعهم، فالصحيح أنّ ذلك متفاوت بينهم ﷺ بل يمكن القول إنّهم منقسمون في ذلك بحسب ما أفدناه سابقاً، فلا الجميع قد تركوا الأولى، ولا أنهم كانوا في سياقٍ واحدٍ في السبب الداعي لترك الأَوْلَى، فتأمَّلْ.

والحاصل أنّ الآية نظير قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]؛ أي الأَوْلَى لكَ أنْ تتريَّث في الإذن لهم حتى تنكشف حقايقهم، فالنبيﷺ عالم بحقايق المنافِقِين وبما يجول في نفوسهم، وإنّما أذن لهم النبيﷺ في القعود عن الجهاد لسدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة؛ لأنّه ﷺ كان يعلم من حالهم أنّهم غير خارجين البتة سوآء أذن لهم في القعود أم لم يأذن، فبادر إلى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة، لكنّ أولويّة عدم الإذن لهم أنسب لظهور فضيحتهم وأنهم أحقّ بذلك، فمعنى الآية: عفا الله عنكَ لِمَ أَذِنْتَ لهم في التخلُّف والقعود؟ ولو شئت

لم تأذن لهم ـ وكانوا أحقّ بعدم الإذن ـ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميز عندك كذبهم ونفاقهم.

وهكذا في سورة التحريم: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ من الملاذ ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ تطلب رضاهنّ، وهنّ أحقّ بطلب مرضاتك منكَ، فالأَوْلَى ألاّ تحرِّم الملاذ على نفسكَ لأجلهنّ، فترك التحريم كان أفضل من فعله ـ كما أشار إلى ذلك المرتضى والطبرسي ومغنيّة رحمهما الله تعالى ـ ولا يمتنع ذلك شرعاً وعقلاً؛ لأنّه يحسن أنْ يُقال لتارك النفل لِمَ لَمْ تفعلْهُ ولِمَ عدلتَ عنه؟!! لكنّ التحقيق هو ما أشرنا إليه آنفاً، والله العالِم بحقائق الأمور.

والخلاصة: إنّ الآية ظاهرها العتاب على ترك الأولى لمقتضيات ناقصة عند بعض أزواجه استدعت النبي ﷺ ترك الأرجح والأولى تقديماً للأهمّ على المهمّ حسبما قلنا، وهذا ليس نقصاً في ذات الرسول ﷺ حتى يستدعي ذلك العتاب التوبيخي، بل العتاب على ذلك من باب الإشفاق والملاطفة نظير خطابه له في قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ١ ـ ٢].

وهو عتاب يختلف بطبيعته عن العتاب في سورة عبس الدال على صدور ما يوجب التنفير من العابس، وقلنا إنّه عثمان وليس النبي ﷺ، فقياس العتاب بترك الأولى ـ بالمعنى الذي أشرنا إليه ـ على العتاب الإستنكاري في غير محلّه مع وجود فوارق كثيرة بينهما.

وبالغضّ عمّا قلنا، فلو سَلَّمْنَا بصحّة صدور ترك الأولى منه فنحمله على ترجيحه المهمّ على الأهمّ، والحسن على الأحسن، فمن فعل ذلك يسمى بأنه ترك الأولى، إذ إنّه فضلاً عن عدم ارتكابه لذنبٍ فقد أدّى مستحبّاً أيضاً، غاية الأمر أنّه كان هناك مستحبٌّ أقوى ممّا أدّاه.

**نهاية المطاف...**

ما أفدناه من تحليل جملةٍ من الآيات المتشابهة كافٍ في إعطاء صورة إجمالية وضابطة كلية عن طرق معالجة الآيات التي تدلّ بظاهرها على ما يتنافى مع عصمة النبيّ الكريم ﷺ، وهو أمرٌ يجب على المسلمين عموماً، والعلماء خصوصاً التفطُّن له والرّكون إلى الضوابط العامّة ـ التي ذكرنا قسماً منها خلال سيرنا في البحث ـ لئلاّ يؤدّي التقصير إلى التَّقَوُّلِ بغير عِلْمٍ في حقّ سيّد وِلْدِ آدم عليهما السَّلام، بل في كلّ موردٍ يدور الأمر بين التنزيه والتلبيس بالمتشابه يجب حينئذٍ تقديم التنزيه على التلبيس؛ لأنّ الأوّل مقطوع، والثاني مشكوك أو مظنون، فالأخذ به ممنوع، قال تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل: ٥٦].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩].

## الآيات المحكمات

في مقابل تلكم الآيات المتشابهة ـ والتي حسبما قلنا لا يجوز العمل بها وإنْ وجب الإعتقاد بكونها قرآناً نزل على الخاتم محمدﷺ ـ يجب البحث عن دليل قطعي سوآء من الآيات الأخرى أم من أدلّة العقل لصرفها عن ظواهرها بحيث تتناسب وعظمة الله تعالى وتوحيده في ذاته وأفعاله وصفاته وعبادته، وتتناسب أيضاً مع تنزيه أوليائه وأنبيائه عن الجهل والمناقص الذاتية والعرضيّة وإلاّ لأدّى العمل بتلكم الآي المتشابهة نسبة الجبر في أفعال المولى عزّ ذكره وإتّهام سفرائه بالمناقص التي أشرنا إليها سابقاً، وهو أمرٌ مرفوضٌ جملةً وتفصيلاً على الصعيد العقائدي الذي قام عليه فكر مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مقابل التشويش والإضطراب والإنحراف الذي أصاب المدرسة العمرية بشتى مسالكها ومشاربها، فجرَّت على الإسلام المصائب والويلات، ودفعت أتباعها إلى التحمُّس ضدّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي هي في الواقع مدرسة الخاتم محمدﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحَى، علَّمَه شديد القوى.

وما أصاب المدرسة العُمَرِيَّة كان مذ استولى عمر بن الخطّاب وصاحبه إبن أبي قحافة على مقاليد الخلافة الإلهيّة واعتدائهم على بضعة النبيّ الطاهرة الزكيّة سيّدة النساء الزهراء البتول عليها السلام ولعن الله ظالميها؛ ولم تكن تلك الإنحرافات وليدة الأزمنة المتأخرة عنهما، بل ولدت معهما، فكانا يحملانها في داخل

صدريهما، لكنّ المانع لذلك هو وجود الخاتم سيّد المرسَلين بمؤازرة إبن عمّه سيّد الموحِّدِين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أسد الله الغالب عليه السلام.. فعندما استشهد ﷺ بفعل ما دبّراه له ﷺ، استضعفوا أمير المؤمنين عليا عليه السلام لقلّة أنصاره وأعوانه وللوصية من رسول الله بعدم الخروج على القوم بالسيف إلاّ إذا توافرت الأنصار، فأظهروا ما أخفوه من العداوة والحسد والحقد...

والحاصل أنّ الظلم العمري كان أصيلاً في الذات العمرية، لم يتبدّل نتيجة المخالطة بأهل بيت الوحي والتنزيل، وهل يتأثر الصخر بنسيم السَّحَر؟!

كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً، فكانت مدرستهما تخرِّج الدمويين الذين يستقوون على النساء والعجائز والضعفاء، وتخرِّج ذوي النفوس المريضة التي لا تتمسّك إلاّ بالمتشابه لكونه من سنخها وماهيتها...

من هنا يتضح أنّ الفكر العمري مبتنٍ على المتشابه دون أنْ يلتفت إلى قواعد المحكَم؛ لأنّ الإلتفات يستلزم بسط الحقائق على العقول والأفئدة والنفوس، وهذا يؤدي ـ باعتقادهم ـ إلى انحراف قواعدهم الشعبيّة عمّا رسمه أصحاب مدرستهم، وفي ذلك رجوع الحقّ إلى أهله، وهم لا يريدون ذلك لتعارضه مع مصالحهم ونزواتهم.

وبالجملة: فإنّ سبب انحراف الناس، عدمُ اهتدائهم إلى الحقّ ـ قصوراً أو تقصيراً ـ بمقتضى تمسّكهم بالأباطيل والشبهات ولو أنهم راجعوا أهل الذكر، لرُفِعَ السبب بدفع موجبه... وحيث إنّ قضيّة العبوس المنسوبة إلى خاتم الرّسل هي من المتشابهات الموجبة للإنحراف العقيدي، لا بدّ من إرجاعها إلى

المحكَمات القرآنية والعقليّة، وقد تقدَّم منا عرض المحكَمات العقلية على القارئ الكريم، فبقي لدينا المحكَمات القرآنية، وهي كثيرة منها:

### الآية الأولى

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]

الآية تشير إلى أربع فقرات:

الأولى: ولولا فضل الله عليك ورحمته.

الثانية: وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة.

الثالثة: وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم.

الرّابعة: وكان فضل الله عليكَ عظيماً.

فالفقرة الأُولى: تشير إلى امتنان الله تعالى على رسوله الكريمﷺ، حيث وهبه القدرة الرُّوحية على عدم التأثُّر بإغواء الجاهلين، وهذا الإيهاب ليس على نحو الجبر وإلاّ كان خلاف الفضل العظيم الوارد في ذيل الآية، وخلاف الإختيار الإنساني الذي دَلَّت عليه آيات الكتاب الكريم.

ورعاية الله تعالى وفضله الجسيم على النبيﷺ ليست مقصورةً على حالٍ دون حال، أو بوقتٍ دون وقتٍ آخر، بل هو واقعٌ تحت رعايته وصيانته منذ أنْ بُعِثَ إلى أنْ لاقى ربّه، فلا يتعدّى إضلال هؤلاء إلاّ أنفسهم ولا يتجاوز إلى النبيّ فهم الضالون بما همّوا به.

والفقرة الثانية: أشارت إلى مصادر حكم النبيّ ومنابع قضائه، وإنّه لا

يصدر في ذلك المجال إلاّ عن الوحي والتعليم الإلهي، وتشير الفقرة الثالثة أيضاً إلى سعة قابليّة النبيّ للتعليم الإلهي والفيض الرباني، والتعبير بصيغة الماضي [وعلّمك] دلالة واضحة إلى الفراغ في تعليمه كلّ ما يحتاج إليه خلال دعوته المبارَكة، بمعنى أنه عزّ وجلّ أعطاه من العلوم الحضورية بحيث تغنيه عن مطلق العباد.

فلو قلنا بأنّه عبس في وجه الفقير لدلّ ذلك على عدم تعليمه وعدم قابليته للفيض الإلهي، ويؤكّد هذا ما أشارت إليه الفقرة الرابعة حيث دفعت توهم اختصاص فضله عليه بواقعة دون أخرى، بل مقتضى عظمة الفضل، سعة شموله لكلّ الوقائع والحوادث، سواء أكانت من باب المرافعات والمخاصمات أم الأمور العادية، وتدلُّ الفقرة الأخيرة على تعرّفه على الموضوعات ومصونيته عن السهو والخطأ في مورد تطبيق الشريعة أو غيره، ولا كلام أعلى وأغزر من قوله تعالى في حقّ حبيبه ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فصدور العبوس ـ حينئذٍ ـ منه ﷺ خلاف المصونية المتقدّمة، وخلاف الفضل العظيم.

**الآية الثانية**

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]

تشير الآية المباركة إلى العلم الإفاضي الموهوب للنبيّ يعقوب عليه السلام وهو يختلف بطبيعته عن العلم الإكتسابي، والطّريق إلى تحصيل الإفاضي إنما هو الإخلاص في التوحيد العبادي والأفعالي، وعليه تكون الوسيلة التي أمر بها عزّ وجلّ من ضمن السّلسلة الافعاليّة التي أمر بالأخذ بها، وبه يندفع ما قد يتصوّره البعض من أنّ التوسّل خلاف التوحيد العبادي والافعالي لله عزّ وجلّ، وذلك

لأنّ التمسّك بالوسيلة الرّبانيّة يعني التمسّك بالتوحيد الأفعالي لكون الوسيلة سبباً ربّانيّاً لا بدّ من الأخذ به تماماً كمن يأخذ بالأسباب الظّاهريّة ولا يعدّ تصرّفه شرعاً وعرفاً خلاف التوحيد المذكور.

فما استفاده النبيّ يعقوب عليه السلام من العلم الموهوب خلاف ما تعارف عليه أكثر النّاس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ إنّ أكثرهم يتمسّكون بالأسباب العاديّة ولا علاقة لهم بالحقائق والوقائع الثابتة، ولو كان علمه عليه السلام من صنف الإكتسابي الّذي يحكم بالأسباب الظّاهريّة ويتوصَّل إليه من الطّرق العاديّة المألوفة لعلمه النّاس واهتدوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ ثناء على يعقوب عليه السلام لكون ما حباه به المولى من العلم الموهبي لا يضلّ في هدايته ولا يخطئ في إصابته وهو مطلق يشمل الأحكام وإصابة الرّأي، والكلام كما يفيده السّياق يشير إلى ما تفرس له النبيّ يعقوب سلام الله عليه من الصبر على البلاء، وما أكنَّه في نفسه من حاجته ليوسف، وهي حاجة لا ينساها ولا يزال يذكرها، فمن هذه الجّهات يعلم أنّ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ تصديقاً ليعقوب عليه السلام فيما قاله لنبيّه وتصويباً لما اتخذه من الوسيلة لحاجته فأمرهم بالأسباب، متوكّلاً على الله فقضى الله عزّ وجلّ له حاجته التي أسرّها في نفسه.

فإذا ثَبُتَ صحّة نسبة العلم الإفاضي إلى النبيّ يعقوب عليه السلام يثبت بطريق أولى لرسول الله لكونه سيّد الرّسل والأنبياء وأفضلهم وأعلمهم وكذا ما لرسول الله هو لعترته الطّاهرة ـ إلاّ النبوّة التشريعيّة ـ لكونهم نفسه بنصّ آية المباهلة والأخبار والإجماع.

فمن كان ذا يقين ومعرفة بالله عزّ وجلّ من أجل تعليمه له، لا يمكن أن يتغيّر بتدبيره عزّ وجلّ من دون أن يكون لغيره تعالى فيه نصيب، لذا فإنّ آرآءهم الشّخصيّة لا يدخل غيره عزّ وجلّ فيها، ولا ولاية للشّيطان عليها، فتأمّل.

فإذا ما ثبت تعليم الله تعالى لنبيه محمد ﷺ مذ كان أوّل خَلْق الله تعالى فكيف يصدر منه العبوس الذي استوجب تعكير حياته الرُّوحيّة التي كان يهنأ بها في عالَم الأنوار يا تُرى؟!! وهل يمكن فصل حياته النورانيّة في عالَم الملكوت عن حياته في عالم الملك، فيكون في الأول عالِماً وفي الثاني جاهلاً متهوِّراً وطائشاً متسرِّعاً؟!!!

### الآية الثالثة

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥]

تشير الآية المبارَكة إلى أمرين عند الخضر عليه السلام:

الأوّل: نبوّته المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

الثاني: عِلْمُهُ بالغيب، ويعَبَّر عنه بالعِلْم اللدني، المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

فالأوّل وحي خاص بالأحكام الشرعيّة، والثاني يعمُّ المسائل الغيبيّة، وإطلاق الرّحمة على شخصه الكريم للتدليل على العناية الربانية لهذا العبد الصالح، لذا لا يمكن أنْ يتطرّق إليه جهلٌ أو سهو أو خطأ، لا في التبليغ ولا في تحديد الموضوعات الصرفة، وإلاّ لكان خلاف الإطلاق المزبور.

وكذا الإطلاق في نسبة العِلْم اللدني كافٍ في تحديد الماهية الروحية للخضر عليه السلام المتصفة بالعِلْم الربوبي المزدان بالعشق الربوبي.

والعلم اللدني من لوازم الولاية الإلهيّة للمتصف به، فالدور الذي اختُصَّ به الخضر عليه السلام بحيث صار موسى الرّسول المبعوث بشريعة عالميّة يومذاك يصبح تابعاً له ليعلّمه مما عُلِّمَ رُشداً، يُلقي الضوء على حقيقة العلم الملكوتي الذي كان يحمله، إنّه فوق علم النبوّة التشريعيّة.

إنّه رحمة من الله تعالى على موسى الرّسول، لكنْ ليس معنى ذلك أنّ الرّحمة التي كان يمتلكها الخضر عليه السلام هي نفس الرّحمة التي كانت عند خاتم الرُّسُل والأنبياء صلى الله عليه وآله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ ففرقٌ بين ﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ وبين ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً﴾ فرحمة الخضر عليه السلام جزء من رحمة الرّسول الخاتم صلى الله عليه وآله، لكونه صلى الله عليه وآله رحمةً للعالَمين، والخضر من ضمن العالَمين المرزوقين بالرّحمة المحمَّديّة على صاحبها وآله سادة الخلق آلاف السّلام والتحيّة.

فالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله أصل الرّحمة، والعبد الصالح جزء من تلك الرّحمة. فإذا كان الخضر عليه السلام بتلك المنزلة الرفيعة والدّرجة العظيمة حتى أفاض الحقُّ عليه من العِلْم اللدني بحيث صار مضرب المثل الإلهي وهو دون رسول الله صلى الله عليه وآله في القُرْب الإلهي، فكيف بمن كان من ربّه كقاب قوسين أو أدنى؟!! وإذا لم يغب عن الخضر عليه السلام الحكمة من قتل الغلام وإقامة الجدار وخَرْق السفينة، فكيف يخفى على مَن هو أفضل منه بمرّات ما كان يجول في خاطر إبن أمّ مكتوم أو ما يفكّر به أولئكَ الصعاليك من مشركي الجزيرة العربية الذين أراد النبي صلى الله عليه وآله هدايتهم حسبما خُيِّلَ إلى بعض مَن يدّعي لنفسه الفكر والحجى ممّن يحسبون أنفسهم علماء وآياتٍ كبرى؟!!

**الآية الرابعة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]

دلَّت الآية الشّريفة على الطّهارة العامّة المعنويّة والماديّة لأهل البيت عليهم السلام وذلك بقرينتَين:

الأولى: إذهاب الرّجس عنهم عليهم السلام، ونعني به دفع الرّجس لا الرّفع، والفرق بينهما واضح من حيث إنّ الأوّل مرفوع عنهم من الأصل، والثّاني كان ثابتاً ثمَّ رُفِع، وهذا ـ أي الرّفع ـ غير جائز لِمَا يترتَّب عليه من نسبة الجّبر في الأفعال الإلهيّة، وفي أفعالهم أيضاً، وكلّ ذلك منفيٌّ بدلالة العقل والنّقل لاستلزامه نفي الثّواب والعقاب والجنّة والنّار والحُسْن والقبح العقليَّين.

الثانية: التطهير العام بكلّ مراتبه حتى ترك الأَوْلى والقذارة الماديّة لما قد يتصوّره البعض من أنّ الآية نفت عنهم الرّجس المعنوي فقط، فجاء التطهير مؤكّداً لإذهاب الرّجس بحيث يشمل نفي الطّبيعة بعامّة مراتبها، وليس المنفي هو نوع الرّجس ولا صنفه، بل جنسه وهو بدوره يلازم نفي الطّبيعة، ولأجل ذلك لم يكتفِ سبحانه بقوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ بل أكّده بقوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ولو كان المراد نفي قسم خاصّ من الرّجس ـ أي النّجاسة المعنوية كالشّرك والكفر والمعاصي وما شاكل ذلك ـ لَمَا كان لهذه العناية وجه.

وبالجّملة: فالآية تفيد العصمة المُطْلَقَة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ والطّهارة المُطلقة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؛ والعصمة تفضُّل من الله عزَّ شأنه على من علم أنه يتمسَّك بعصمته، وهي بهذا المعنى نوع من العلم المُفاض منه عزّ شأنه

على من اختاره الله سبحانه فيمنعه عن ارتكاب المعصية أو الوقوع في الخطأ، بل ويردعه عن التفكير في كلّ ذلك، فضلاً عن العمل، وذلك أثر العلم وخاصّيته؛ فإنّ العلم النّافع والحكمة البالغة يوجبان تنزُّه صاحبهما عن الوقوع في المهالك والتلوّث بأقذار المعاصي، وذلك ما نلاحظه في رجال العلم والحكمة من أهل الدّين والتقى، غير أنّ سببيّة العلم العادي سببيّة غالبيّة لا دائميّة[1].

وزبدة المخض:

إنّ إرادة الله تعالى التكوينيّة تعلّقت بزوال الرّجس عن أهل البيت عليهم السلام، وهذه الإرادة هي حتميّة نظراً إلى علمه تعالى باستعدادهم لاستحقاق ذواتهم المقدَّسة للطّهارة ونفي الرّجس بإفاضة العصمة عليهم، ولا يلزم من ذلك المجازفة المنافية للحكمة الإلهيّة وهي أنه سبحانه وتعالى أراد ذلك أيضاً من غيرهم بالإرادة غير الحتميّة (الإرادة التشريعيّة) كإرادته الإيمان من الناس، فالتكوينيّة لا تنفكّ عن المراد بخلاف التشريعيّة.

ولمّا تعلّقت إرادته الحتميّة بزوال الرّجس وبإفاضة الطّهارة المطلقة عليهم استلزم ذلك الإعتقاد بصوابيّة آرآئهم ومطابقتها للمشيئة الإلهيّة، وعليه؛ كيف يمكن الفصل بين صوابيّة ما يرتأونه من الكتاب والسنّة وبين ما يبدونه في مجال تشخيص الموضوعات وإصابة الرّأي؟!

إنّ الفصل بين المجالات المتعدّدة التي هي من مهام وظائفهم لكونهم

---

(١) للمزيد من الإطلاع أنظُر كتابنا: شبهة إلقاء المعصوم عليه السلام نفسه في التهلكة ودحضها: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٥٢.

القدوة الحسنة يستلزم تقسيم تلك الطّهارة المدلول عليها بالمصدر المحذوف المتعلّق والّتي تفيد عمليّة التطهير والتقديس المطلق لذواتهم المقدَّسة، كما يستلزم تبعّض نفي الرّجس ـ حسبما أفدنا سابقاً ـ مع كونه مدلولاً عليه بلام الجّنس التي تفيد الإطلاق أو العموم في نفي الطّبيعة.

ولا تقتصر وظائفهم على بيان الأحكام الشّرعيّة فحسب بل تشمل كلّ ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بأفعال المكلَّفين وسيرهم وعروجهم نحو الله عزّ شأنه، كما لا تقتصر تلكم الوظائف على حالة التبليغ دون غيرها ممّا قد يسبّب الإنفصام بشخصيّة المعصوم ونسبة الجبر إلى أفعاله وتصرّفاته، وقلّ من تفطّن إلى هذا الإشكال ممن كتبوا في عصمة الأنبياء والأوصياء ﷺ، لذا ارتأينا جعله دليلاً برأسه ليكون علامةً فارقةً تشكّل مفصلاً في حياة المعصوم الدّاعية الأكبر إلى الله تعالى فلا اثنينيّة في تصرّفاته وأفعاله وأقواله بحسب ما فصَّلناه في تحليل ماهيّة العصمة وجوهرها.

فمَن كان مطهَّراً بجميع أنواع التطهير المعنوي والمادّي، كيف يتطرَّق إلى ساحة روحه فعل الحرام أو المكروه، لا أدري كيف يفكّر هؤلاء الذين نسبوا إلى المطهَّر خاتم النبيين ما يتنزَّه عنه أبسط المتدينين؟!!

**الآية الخامسة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]

حيث إنّ الآية أمرت بإطاعة الرّسول إطاعةً مطلَقةً؛ لأنّ متعلَّقها محذوفٌ وهو دليل عموم إطاعته ﷺ، ولو أراد عزّ وجلّ التخصيص أو التقييد لنَصَبَ

قرينة على ذلك، وحيث إنّه لم يفعل، دلّ أيضاً على العموم، ولا تجوز إطاعته مطلَقاً إلاّ إذا كان معصوماً مطلَقاً في كلّ حالاته وأزمنته بلا فَرْقٍ بين حالات التبليغ أو قبلها أو بعدها.

وبالجملة: فالإطاعة المطلَقة تستلزم العصمة المطلَقة، وهذا بدوره دليلٌ على أنّ الرّسول لا يأمر بشيءٍ ولا ينهى عن شيءٍ يخالف حكم الله تعالى في كلّ واقعة تحصل معه أو مع أحدٍ من أفراد رعيّته وإلاّ كان فرض طاعته تناقضاً منه تعالى.

وبما تقدّم يتضح لديكَ أنّ الرسول ﷺ وأولي الأمر عليهم السلام لا يجوز عليهم أنْ يأمروا بمعصيةٍ[1] ولا أنهم يخطئون في حكمٍ أو يشتبهون في مسألة.

وعليه؛ فإنّ العبوس خطأٌ لا بدّ من نفيه عن خاتم الرُّسُل ﷺ بحكم تنزيهه عن الخطأ والجهل والخطل.

فالإطاعة المطلَقة تستلزم العصمة المطلَقة حتى عن ترك الأَوْلَى، وحيث إنّ العبوس على خلاف الأَوْلَى ـ على أقلّ تقدير ـ لذا يجب تنزيه النبيّ عنه للإطلاق المذكور.

**الآية السادسة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١]

تشير الآية الشّريفة إلى عصمة النبيّ عيسى عليه السلام من خلال كونه مباركاً خلال مسيرة حياته كلّها مذ كان صغيراً وإلى منتهى عمره الشّريف، فلا سلطة لإبليس

---

(١) راجع كتابنا: شبهة إلقاء المعصوم عليه السلام نفسه في التهلكة ودحضها: ١/ ٣٣٣.

اللعين وآثاره من الخطأ والسّهو والنّسيان والجّهل على ساحة عيسى المقدّسة بشيء، لأنّ البركة في حياته لا تتلاءم مع ما ذكرنا من آثار إبليس، لأنّ معنى البركة لغةً هي النَّفَّاع للنّاس يعلّمهم دينهم ويدعوهم إلى العمل الصّالح ويربّيهم تربية زاكية ويهديهم إلى وجوه الحكم والمنافع والخيرات، فإن ضلّوا فمن قِبَل أنفسهم لا من قِبَلِه، هذا مضافاً إلى أنّ من معاني البركة: الزّيادة والعلوّ فكأنّه قال: اجعلني في جميع الأحوال غالباً مفلحاً منجحاً لأني ما دمت باقياً في الدّنيا أكون على الغير مستعلياً بالحجّة، فلو فرضنا أنه غير معصوم في تشخيص الموضوعات وإبداء النظر فيها، يستلزم هذا عدم كونه مباركاً، وبالتالي ليس نفَّاعاً ولا مستعلياً بالحجّة، بل تكون الحجّة لغيره عليه، وهذا خلف كونه حجّة على الآخرين وما ثبُت للنّبي عيسى عليه السلام فهو ثابت لرسول الله محمّد وآله الميامين بطريق أولى، لكون النبيّ محمّداً أفضل من عيسى، وعترته نفسه ﷺ بمقتضى آية المباهلة، ولوحدة المناط من حيث الرّسوليّة والحجّية، وهما يستلزمان مَلَكَة العصمة والطّهارة.

وبعبارة أخرى: لما ثبُتَ كون النبيّ عيسى عليه السلام نفّاعاً مباركاً في كلّ تصرّفاته سواء أكانت تبليغيّة أم غيرها ثبت ذلك أيضاً للنبي وآله بطريق أَوْلَى لأفضليّة النبيّ وآله عليهم السلام من عامّة المرسَلين، ولا يمكن الفصل بين التبليغ وغيره لاستلزامه التّبعيض بالبركة والطّهارة وهو خلاف الإطلاق في الآية المباركة.

وبالجملة: فالعبوس خلاف البركة فلا يجوز إلصاقه به ﷺ.

### الآية السابعة

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]

جاء في تفسيرها أنّ الشاهد من كل أمّة هو الإمام عزّ وجلّ، والشاهد عليهم هو الرّسول ﷺ.

وبالغضّ عن ذلك، فإنّ مفراداتها تشهد بأنّ الشاهد من كلّ أمّة يُفرَض أنْ يكون على منزلة عظيمة حتى يمكنه الشهادة على الأمّة، لا سيّما وأنّ المراد من الشهادة لغةً هو الحضور مع المشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، لذا يُقال: شهد المجلس: أي حضره واطّلع عليه، فيفيد موارد استعمالها بمعنى الرقابة والنظارة، فيُستعمل مع لفظ «على» الإستعلائيّة، ومنه ما تكرّر في القرآن الكريم من إطلاق الشهيد عليه عزّ وجلّ بقوله الكريم: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج/ ٩].

فهذه الآية وغيرها من الآيات المصرِّحة بوجود الشاهد على الأمّة في الدنيا والآخرة، ولا وجه لتخصيصه بيوم البعث والحساب، فها هو النبيُّ عيسى عليه السلام كان شاهداً على أمّته في الدنيا، بقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة/ ١١٧] وكذا سيكون عيسى عليه السلام شهيداً عليهم في الآخرة لقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء/ ١٥٩].

وصفوة القول: إنّ النبيّ وعترته الطاهرة، وعيسى بن مريم عليهم جميعاً صلوات الله الملك الحنّان، سيكونون الشهداء على الناس، فعيسى عليه السلام شهيد على أتباعه الذين غالوا به وبأمّه، ورسول الله والأئمّة شهداء على عيسى والأنبياء والمرسَلين وعامّة خلق الله من الملائكة والجنّ والإنس، إذ أنهم حجج الله وسفراؤه إلى خلقه من دون استثناء، وقد دلّت عليه الآية المباركة السابقة مورد البحث، والآية اللاحقة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكيف يكونون شهداء على الناس، وهم لا يعلمون شيئاً من حالهم، ولا يدرون بما يعملون؟، وهل الشاهد إلاّ الحاضر المطّلع؟!.

تنبيه:

ليس المراد من «الأمّة الوسط» كلّ الناس، بل هي فئة خاصّة أو طبقة خاصّة من الناس، وذلك لأنّ هؤلاء المخاطَبين بقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ جُعلوا في حاقّ الوسط والإعتدال تكويناً، ليقوموا بمهمّة الإشراف على الناس ومراقبة أعمالهم وأقوالهم، بل والإشراف على مبادئ نياتهم، وبذلك يتحمّلون الشهادة ليؤدوها يوم القيامة، ولو كان المراد من «الوسطية» كل الناس، لكان كل من انتحل الإسلام ديناً وهو لا يفهم منه إلاّ لماماً ـ بل قد يكون أشقى من عبّاد الأوثان، بل أعتى من عاد وثمود ـ هو من الأمّة الوسط، مع أنّ الأمر خلاف ذلك، لأنّ وصف الأمّة بالوسطية يعني أنها تتصف بوصفٍ عالٍ فيها، وهو على حدّ قوله تعالى موجِّهاً الخطاب إلى بني إسرائيل ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة/ ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة/ ٤٧] رغم أنّ الملك كان واحداً في كل عصر، وأنّ الأفضليّة على العالمين كانت لخصوص فئة متفرّدة منهم، ومثله قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح/ ٢٩] رغم أنّ فيهم المنافقين والفاسقين.

والآية الكريمة بعد التأمّل فيها وفيما يناسبها من الآيات تؤكّد على حقيقة قرآنيّة يتكرّر التعبير عنها في الكتاب المجيد، وهي موقف الشهادة يوم القيامة، وتنوّع الشهود فيه على أعمال العباد، فهناك الأعضاء والجوارح، والملائكة المكرَّمون والأولياء المقرَّبون فيقول تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ

ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر/ ٦٩].

﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل/ ٨٩].

ومن الطبيعي أنْ لا تتحقّق الشهادة إلاّ بالحضور والإشراف على المشهود عليه ثمّ أداء الواقع بدقّة، كما أنّ الشهادة ليست على مجرّد شكل العمل وصورته الظاهرة المتقضّية وإنما تكون أيضاً على ما هو السرّ في كون العمل طاعة أو عصياناً، أي النيّة والسريرة ونوعها كما أسلفنا سابقاً، فلا بدّ إذن من أنْ يكون مثل هذا الشاهد واقفاً على الضمائر ومطّلِعاً على السرائر في النشأة الأولى، لكي تتحقّق مقدّمات الشهادة يوم القيامة وفي النشأة الأخرى.

وهذا المعنى يظهر من قوله سبحانه حكاية عن عيسى وجوابه لله عزّ وجلّ في ذلك الموقف العظيم يوم الحساب ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ذلك أنّ اقتران شهادة المسيح عليه السلام على أمّته ورقابته عليهم، بشهادة الله ورقابته عليهم، يُظهر مدى التشابه بين الشهادتين، رغم أنّ شهادة المسيح عليه السلام شعاع من تلك الشهادة، وهذا لا يتمّ إلاّ بالإشراف والإطّلاع على القلوب، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة/ ١٠٥] إذ جعلت رؤية الرسول والمؤمنين لأعمال العباد إلى جنب رؤية الله تعالى مما يشير إلى نوع مسانخة بينهما.

وبهذا يتضح أنّ المراد من الشهادة في الآية المبحوث عنها هي الشهادة على الأعمال، وأنّ هؤلاء الخواص من الأمّة جُعِلُوا وسطاً ومُنِحُوا هذه الكرامة لارتباط هذه الشهادة بهذا الوصف، مما يصبغ على الشاهد صفة العلم

الحضوري التام دون الإشائي أو الإرادي لكونه خلاف الحضور والتطلّع اللّذين هما من لوازم الشهادة الحقيقيّة.

فإذا ما كان الرسول ﷺ بهذه المثابة من الأهميّة والحضور الدائم، فكيف يخفى عليه ما يَؤُوْلُ إليه حال المشركين الذين تصدّى لهم بالإقبال والبِشر، مع أنه لم يدخل واحدٌ منهم في الإسلام طواعيةً واختياراً، فيظهر أنّ ما قصده ﷺ من هدايتهم لم يقع، وما وقع ـ وهو الإصرار على الشِّرك ـ لم يُقْصَد بحسب تصوُّر النبي ﷺ، وهذا عين العبث الذي يُفْرَض تنزيه النبي ﷺ عنه؛ لكونه رجساً وقد دَفَعَهُ عزّ وجلّ عنه بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

والحاصل: إنّ العبوس خلاف الشهادة المطلوب فيها الحضور الدّائم.

## الآية الثامنة

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١ ـ ١٠]

تتحدّث هذه الآيات كلّها عن معراج رسول الله محمّد ﷺ إلى عوالم الملكوت والجبروت وسدرة المنتهى، وأنّه أُوحِيَ إليه، وأنّ الله عزّ وجلّ علّمه وليس جبرائيل ـ كما يتوهّم الحشويّة من العلماء الّذين يركَبون مراكب العامّة ـ ويشهد لِمَا قلنا سياق الآيات والضمائر المتّحدة فيها، إذ كلّها تشير إلى رسول الله، إذ هو مَن لا ينطق عن الهوى، وهو مَنْ أُوْحِيَ إليه، وهو مَنْ كان بالأفق الأعلى ـ عوالم الجبروت التي لم يقدر على اجتيازها جبرائيل ـ

ثمّ هو مَنْ دنا من ربّه بروحه فتدلّى ـ أي فَهِمَ عنه ـ وهو مَنْ كان مِن ربّه بالقرب الرّوحي كقاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه ما لا نعلم الكثير عنه وآله المطهَّرين.

قال عليّ بن إبراهيم:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ①﴾ قال: النجم رسول الله إذا هوى لمّا أُسرِيَ به إلى السّماء وهو في الهواء، وهذا ردٌّ على مَنْ أنكر المعراج وهو قَسَمٌ برسول الله ﷺ وهو فضل له على الأنبياء وجواب القَسَم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③﴾ أي: لا يتكلّم بالهوى ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤﴾ يعني الله عزّ وجلّ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥﴾ يعني: رسول الله ﷺ، قال: وحدّثني ياسر عن أبي الحسن الرِّضا عليه السلام قال: ما بعث الله نبيّاً إلاّ صاحب مرّة سوداء صافية وقوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦﴾ يعني: رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ يعني: رسول الله ﷺ من ربّه عزّ وجلّ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ قال: إنّما نزلت هذه ثمّ دنا فتدانى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ قال: كان من الله كما بين مقبض القوس إلى رأس السيّة ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: من نعمته ورحمته قال بلى أدنى من ذلك ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩﴾ قال وحي مشافهة.

وفي أمالي الشيخ الصدوق بإسناده إلى إبن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: لمّا عرج بي إلى السّماء دنوت من ربّي عزّ وجلّ حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى فقال لي: يا محمّد من تحبّ من الخلق؟، قلت: يا ربّ عليّاً، قال: إلتفت يا محمّد، فالتفتُّ عن يساري فإذا عليّ بن ابي طالب عليه السلام.

وزبدة المخض: فقد دلّت الآية الكريمة على أنّ النبيّ لا ينطق عن الهوى

بل هو لا ينطق إلاّ عن وحي وتعليم، من دون ان يذكر النبيّ لذلك التعليم حدّاً، وللوحي قيداً وأنّ الأئمّة ﷺ ورثة النبيّ في علمه وسائر فضائله؛ وإذا كان معلّمه هو الله شديدُ القوى فكيف يُنسَب إليه عدم العلم في الناسوت؟! كما أنّ كونه ﷺ ذا مرّة فاستوى، واضحٌ في أنّ النبيّ في حدٍّ من الإستواء لا يعرضه شيء من الجهل والسّهو وعدم الحضور، لأنّ ظاهر الإستواء هو الإستواء التامّ الحقيقي في الظاهر والباطن بل الغاية هي الباطن، وعليه؛ كيف يُتصَوَّر عدم حضوريّة علمه، أليس هذا مخالفاً لاستوائه الباطني، وقد أخبر سبحانه أنّه ذو مرّة فاستوى.

والحاصل: إنّ العبوس لا يتوافق مع الإستواء والإعتدال في قوّتيه: النظريّة والعمليّة، وهو خُلْف ما أشارت إليه الآية الكريمة وغيرها من الآيات الدالة على الطهارة، كما إنّ العبوس بالكيفيّة التي ذكروها هي في الواقع نوعُ هوىً نفسانيّ، يتنزّه عنه النبي ﷺ بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ④﴾؛ ومن المعلوم أنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، وحيث إنّ أداة «إنْ» مخفَّفَة بمعنى «ما» النافية، فهي في قوّة النفي، فتفيد الجملة نفي أنْ ينطق ﷺ عن غير وحيٍ، بل كلّ ما يقوله ﷺ وحيٌ يوحَى من الله تعالى، وعليه فلا يصحّ أنْ يُقال إنّه عبس بوجه فقيرٍ لأنّ ذلك خلف كونه موحَىً إليه من الله تعالى، ولو كان العبوس مُوحَىً به من عند الله تعالى لَمَا جاز أنْ يوبّخه الله عزّ وجلّ، إذ كيف يأمره به بواسطة الوحي ثمّ يعاتبه على فعله المُوْحَى إليه؟!!

مضافاً إلى أنّ النطق الوارد بعد النفي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ يفيد عموم حجية نطقه ﷺ، ولأنّ مقتضى النفي المطلَق نفي الهوى عن مطلَق نطقه ﷺ، فيكون معناه: إنّ النبي ﷺ ما ينطق فيما يدعوكم إلى الله تعالى أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه ورأيه ـ وإنْ كانت نفسه لا تهوى إلاّ ما يريد الله

تعالى ـ بل ليس ذلك إلاّ وحياً يوحَى إليه من الله عزّ وجلّ.

فمَن كان بهذه الدّرجة من الوحي المطلَق كيف يصدر منه عصيانٌ يتمنّى بعده أنْ يُلقى من شاهقٍ لشدّة عتاب الله تعالى له؟!!

**الآية التاسعة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩]

لقد أطلقت الآية على رسول الله وأهل بيته مصطلح العلماء ذوي الصّدور الأمينة الحافظة لآيات الله عزّ وجلّ وكلماته وأسراره، فالقرآن الكريم محفوظٌ في تلك الصدور الأمينة على وحي الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾؛ فالله تعالى حافظ للقرآن ولأسراره في أوعية صفوة خَلْقِهِ، تلك الأوعية والخزائن الرُّوحيّة الصافية المتينة.

وفي هذه الآية الشريفة أمران:

أحدهما: ثبوت القرآن في صدور هؤلاء الأطهار، وثانيهما: العلم المطلَق.

والثاني أعمّ من الأوّل؛ إذ القرآن وإنْ كان فيه تبيان كلّ شيء لكن لا على وجه التفصيل، وإنما كليّات، يُرجَع في تفاصيلها إلى مَنْ أوتي العلم وهم أهل الذّكر حسبما أشرنا.

فالعبوس معاكسٌ للحفظ، ومضادٌّ لكون النبيﷺ عالِماً، والعبوس بوجه مؤمنٍ يريد وجه الله تعالى ليس عِلْماً، بل هو محض الجهل بالواقع، ومَن كان كذلك لا يصلح أنْ يكون رسولاً نبياً.

### الآية العاشرة

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩]

حقائق القرآن الكريم في كتابٍ مكنون لا يمسُّها إلاّ المطهَّرون من كلّ دَنَسٍ ورِجْسٍ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في آية التطهير بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فهؤلاء المطهَّرون لا يشاركون الآخرين في العوارض الطّارئة على النفوس أو اللازمة لها بأصل جبلّتها بسبب ما يعلمه ربّها من سوء اختيارها، فالتطهير عامٌّ يتناول حتى تَرْك الأولى، وعليه فكيف يتركه رسول الله وقد جعله عزّ وجلّ من المطَهَّرِين الذين يمسّون الحقائق القرآنية والأسرار الربوبيّة؟!!

### الآية الحادية عشرة

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]

وقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ١٥]

الرسول ﷺ شاهد على كلّ جزئيات الأفعال والأعمال والأقوال بإذن الله تعالى، فالشاهد هو المشاهد بالبصر أو البصيرة، لذا يُقال: شهد المجلس أي حضره واطّلع عليه، ويُستفاد من موارد إستعمال هذه المادّة أنْ تكون الشهادة بمعنى التطلُّع والإشراف، فيفيد معنى الرّقابة والنظارة، ومن الطبيعي ألاّ تتحقّق الشهادة إلاّ بالحضور والإشراف على المشهود عليه ثمّ أداء الواقع بدقّة، كما أنّ الشهادة ليست على مجرّد شكل العمل وصورته الظاهرة المتقضّية وإنما تكون أيضاً على ما هو السرّ في كون العمل طاعة أو عصياناً، أي النيّة والسريرة

ونوعها كما أسلفنا سابقاً، فلا بدّ إذن من أنْ يكون مثل هذا الشاهد واقفاً على الضمائر ومطّلِعاً على السرائر في النشأة الأولى، لكي تتحقّق مقدّمات الشهادة يوم القيامة وفي النشأة الأخرى.

وهذا المعنى يظهر من قوله سبحانه حكاية عن النبيّ عيسى وجوابه لله عزّ وجلّ في ذلك الموقف العظيم يوم الحساب ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ذلك أنّ اقتران شهادة المسيح عليه السلام على أمّته ورقابته عليهم، بشهادة الله ورقابته عليهم، يُظهر مدى التشابه بين الشهادتين، رغم أنّ شهادة المسيح عليه السلام شعاع من تلك الشهادة، وهذا لا يتمّ إلاّ بالإشراف والإطّلاع على القلوب، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥] إذ جعلت رؤية الرسول والمؤمنين لأعمال العباد إلى جنب رؤية الله تعالى مما يشير إلى نوع مسانخة بينهما.

وبهذا يتضح أنّ المراد من الشهادة في الآية المبحوث عنها هي الشهادة على الأعمال، وأنّ هؤلاء الخواص من الأمّة جُعِلُوا وسطاً ومُنِحُوا هذه الكرامة لارتباط هذه الشهادة بهذا الوصف، مما يصبغ على الشاهد صفة العلم الحضوري التام دون غيره كالإشائي لكونه خلاف الحضور والتطلّع اللّذين هما من لوازم الشهادة الحقيقيّة.

فكيف يكون الرسول صلى الله عليه وآله شاهداً على تفاصيل الأعمال مع ما تقتضيه مَلَكَة الشهادة من التقوى العالية والعرفان الكبير بالله تعالى، ثم يقع في محذور مخالفة ربّ العالَمين وإسخاطه في مقابل إرضائه لصناديد المشرِكين؟!!

**الآية الثانية عشرة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥]

الرُّؤية بمعنى إدراك المرئي بالعين أو بالقلب، ومعنى الآية: يا ايُّها الرسول قل للناس: إعملوا ما شئتم ولكن اعلموا أنّ الله تعالى يرى أعمالكم وأنتم بمنظره ومرآه، فيجازيكم بها يوم القيامة حتى تردوا إليه، وكذلك رسوله شاهدٌ ناظرٌ لِمَا تعملون، والمؤمنون ـ الذين هم غيركم قطعاً ـ أيضاً شهداء وناظرون، فعليكم بالدِّقّة والمراقَبَة.

ونعني بالمؤمنين في الآية الكريمة أهل البيت ﷺ كما أفادت الأخبار القطعيّة والصّريحة.

فالله تعالى يرى أعمال العباد بحقائقها، ظواهرها وبواطنها، مبادئها ومطالبها، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرص ولا في السّماء.

وأمّا رؤية الرّسول والمؤمنين، فإنْ كانت بالعين الظاهرة اختلفت عن رؤية الله تعالى، مع التأكيد على أنّ الرؤية البصريّة لا تختص بالرّسول والمؤمنين، بل تعمّ كلّ مَن يكون العمل بمنظره ومرآه حتى المنافقين والكافرين، فلا بدّ وأنْ تكون رؤيتهم رؤية تنفذ إلى صميم العمل وروحه، وتحيط بحقيقته ومبادئه النفسية، ومن الضروري عدم حصول مثل هذه الرؤية لجميع المؤمنين.

فكما أنّ الله تعالى يرى حقائق أعمال العباد، كذلك الرّسول وهؤلاء المؤمنون المطَهَّرون يرونها بالإشراف عليها والتطلُّع. فالآية تدلّ على أنّ رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ الأنوار هم المصداق الأوحد للمؤمنين في الآية

المبارَكة، يرون كلّ ما يعمله العباد رؤية لا تتم إلاّ بالإشراف الوجودي على الأعمال ومنابعها النفسية.

فإذا ما كان الرّسول بهذه الخصوصية العظيمة والميزة الفريدة فكيف يصدر منه ما يوجب توبيخه وعتابه في قرآنٍ يُتلى آناء الليل وأطراف النهار؟!!

وزبدة المخض: إنّ الآيات المحكَمَات كثيرة جدّاً لو أردنا استقصاءها لخرجنا بالبحث عن طوره، وما ذكرناه كافٍ ووافٍ لمَن ألقى السّمعَ وهو شهيد، فمَن أراد الحقّ وجده، والله عزّ وجلّ الموفّق للصواب والسَّداد.

* * *





# الفصل الخامس

## عصمة رسول اللّه محمَّد المصطفى ﷺ

الغاية والفائدة من عقد هذا الفصل هي إثبات تنزيه رسول الله ﷺ عن العبوس في وجه إبن أمّ مكتوم، والعبوس بذاته ليس مستقبحاً ما لم يؤدّ إلى تمرُّدٍ وعصيان لله عزّ وجلّ أو إهانة مؤمنٍ، وما ورد في أخبار العامّة من أنّ النبي ﷺ عبس في وجه إبن أمّ مكتوم المؤمن هو ما تستقبحه الإمامية وتردّه من أساسه، لِمَا يترتّب عليه من الإهانة والإنتقاص من ذاك المؤمن، مضافاً إلى ما فيه من رفعة لأولئك الكفار والمشركين الذين تواجدوا في دار النبي ﷺ يومذاك.

لذا من المفيد جدّاً أنْ نرسم طريقاً آخر لا يقلّ أهميّةً عمّا تَقَدَّمَهُ من الأدلّة السّابقة، وهذا الطريق هو معرفة كيفيّة تنزيه المسلم للنبيّ وأهل بيته الميامين عليهم السلام في كلّ موردٍ يحتمل فيه التوهين والتنقيص من شخصيّة الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ولا يمكن تنزيههم إلاّ من خلال إتقان أدلّة العصمة، وهذا ما يتكفّله هذا الفصل، لا سيّما العصمة في التبليغ؛ لأنّ دعوى صدور العبوس من النبي ﷺ إنّما كان حال التبليغ الذي أجمع المسلمون ـ إلاّ شرذمة من المخالفين ـ على وجوب عصمة النبي ﷺ فيه، ومع هذا نسبوا إليه فيه الخطأ. وسنوزِّع البحث على نقاط:

**النقطة الأولى ـ معنى العصمة:**

ترجع فائدة هذه النقطة إلى بيان البُعد العلمي والعملي عند النبيّ المعصوم عليه السلام، لذا من الأهمية بمكان أنْ ندقِّقَ في التعريف لاستجلاء حقيقة العصمة في المعصوم عليه السلام.

والتعريف من ناحيتين: الأولى لغويّة، والثانية اصطلاحيّة:

**التعريف اللغوي:**

فقد ورد في تفسير العصمة معنيان: المنع والحفظ، ويرجع الثاني إلى الأول عند التأمل، فيكون موضّحاً للمعنى الأول، ويشهد له ما ذكره أئمة اللغة.

**قال ابن منظور:**

«العصمة في كلام العرب: المَنْع، وعصمةُ الله عبدهُ: أنْ يعصمه مما يوبقه، وعصمه يعصِمُهُ عصماً: منعه ووقاه، واعتصم فلانٌ بالله: إذا امتنع به من المعصية، وعَصَمَهُ الطعامُ: منعه من الجوع واستعصم: امتنع وأبى؛ قال تعالى حكايةً عن امرأة العزيز حين راودته عن نفسه فاستعصم أي تأبّى عليها ولم يجبها إلى ما طلبت؛ والعصمة المنعة، والعاصم: المانع الحامي، والاعتصام الامتساك بالشيء، افتعال منه ومنه شعْر أبي طالب عزّ وجلّ: «ثِمال اليتامى عِصمةٌ للأرامل» أي يمنعهم من الضياع والحاجة»[1].

**وقال الطريحي:**

« عصمةُ الله للعبد: منعه من المعصية، وعصمه الله من المكروه: حفظه

---

(١) لسان العرب: ١٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤، مادة عصم.

ووقاه؛ وفي الحديث: ما اعتصم عبدٌ من عبادي بأحدٍ من خلقي إلاّ قطعت أسباب السماوات من يديه وأسختُ الأرضَ من تحته»[1].

وفي دعاء كميل ﷺ: اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، أي الوقايات الإلهية لعبده؛ والعِصَم: جمع عِصمة وهي الحفظ كما قلنا وتأتي بمعنى القلادة ومنه مِعصم اليد وهو موضع السِوار من الساعد.

وقال إبن فارس: «عصم: أصلٌ واحدٌ صحيح يدلّ على إمساكٍ ومنعٍ وملازمةٍ، والمعنى في ذلك كلِّه واحدٌ، من ذلك «العصمة»: أنْ يعصم الله عبده من سوءٍ يقع فيه، واعتصم العبد بالله تعالى: إذا تمنَّع، واستعصم: إلتجأ، وتقول العرب: أعصمت فلاناً: هيأت له شيئاً يعتصم بما نالته يده أي يلتجىء ويتمسّك به»[2].

وقال الزمخشري: [عصم: أنا معتصمٌ بفلانٍ مستعصم به، ومُعصم بحيله، وأعصم الكِفْل بعُرف فرسه أو بقربوس سرجه لئلاّ يسقط، قال جرير:

والتغلبي على الجواد غنيمةٌ كِفْلُ الفروسة دائم الإعصام

واستعصم أي أبى وطلب العصمة منه...][3].

التعريف الإصطلاحي:

لقد اختلفت كلمات متكلّمي الإماميّة في تحديد اصطلاح «العصمة» إلاّ أنّ المحتوى واحد تقريباً، وإنْ كان أغلبها حدوداً ناقصة بحاجة إلى تهذيب، لذا

---

(١) مجمع البحرين: ٦/ ١١٦.

(٢) المقاييس: ٤/ ٣٣١.

(٣) أساس البلاغة: ٤٢٣.

عدَّلنا بعضها في تعريفنا للعصمة، وها نحن ننقل عبارات الأعلام:

قال الشيخ المفيد[1]:

«العصمة لطفٌ يفعله الله سبحانه بالمكلّف بحيث يمتنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما».

قال الخواجة نصير الدين الطوسي:

«إنها لطفٌ منه تعالى لصاحبها بحيث لا يكون له مع ذلك داعٍ إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك»[2].

وقال في موضع آخر: «العصمة هي كون المكلّف بحيث لا يمكن أن يصدر عنه المعاصي من غير إجبار له على ذلك»[3].

وقال السيّوري[4]:

«العصمة عبارة عن لطفٍ يفعله تعالى بالمكلّف بحيث لا يكون له داع إلى ترك الطاعة».

وقال الشيخ البحراني[5]:

«العصمة صفة للإنسان يمتنع بسببها من فعل المعاصي ولا يمتنع منه بدونها».

---

(١) النكت الإعتقادية: ٣٧، ط. المفيد.

(٢) نقد المحصّل: ٣٦٩، ط. قم.

(٣) قواعد العقائد: ٤٥٥، ط. قم.

(٤) إرشاد الطالبين: ٣٠١، ط. قم.

(٥) قواعد المرام: ١٢٥، ط. قم.

وقال السيد الطباطبائي[(١)]:

«إنها قوةٌ تمنع الإنسان من الوقوع في الخطأ وتردعه عن فعل المعصية واقتراف الخطيئة».

هذه نبذة من تعاريف متكلِّمي الإمامية للعصمة، ولا يخفى عند المتأمِّل أنها حدود ناقصة تقتصر على امتناع المعصوم عن الحرام وترك الطاعة، لكنها لا تشمل كل ما ينافي المروءَة أو يخلّ بفائدة البعثة حتى ولو لم يكن طاعة أو معصية كأغلب الأفعال الخارجة عن حدود الحلال والحرام المعبَّر عنهما في كلمات هؤلاء الأعلام بـ «المعصية والطّاعة».

وقد ذكرنا في بعض بحوثنا[(٢)] أنّ هذه التعاريف التي أجمعوا عليها أخصّ من المدَّعى؛ لأنّ مسألة النبوّة أو الإمامة لا تقتصر على تبيين الحلال والحرام، بل تشمل جميع الأفعال والأقوال المتعلِّقة بأفعال النبيّ أو الإمام عليهما السلام.

أصحّ التعاريف:

بما أنّ تعاريفهم ليست جامعة لاقتصارها على الطاعة والمعصية الدالين على الواجب والحرام، وخروج المستحب والمكروه منها، بالإضافة إلى عدم شمولها للمباحات المنفِّرة، فلا بدّ من استبدالها بتعريفٍ جامعٍ يستوعب الأفعال الخارجة عن حيطة الحلال والحرام أو الطاعة والمعصية، لذا فالصحيح في تعريف العصمة أنها:

[قوّة قدسيّة بسبب شدّة اليقين، تمنع صاحبها عن اقتراف الخطايا والذنوب

---

(١) تفسير الميزان: ٢/ ١٣٨، ط. الأعلمي.

(٢) الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية: ١/ ٤٣٣.

والأفعال ـ حتى عمّا ينافي المروءة كالتبذل بين الناس من الأكل في الطريق أو ضحكٍ عالٍ وكلّ عمل يستهجن فعله عند العرف ـ التي تخلّ بمقام صاحبها].

أو بعبارة مختصرة: «**هي قوّة عِلْمٍ ويقين تمنع صاحبها عن اقتراف الخطايا والأفعال التي تخلّ بمقام صاحبها عند العرف العام والخاص**».

ونقصد بالذنوب: كلّ الذنوب الصغيرة والكبيرة، الصادرة عمداً أو جهلاً أو سهواً أو نسياناً، كما يُراد من الخطايا ما يعمّ المباحات المنفِّرة أو الخطأ في تشخيص الموضوعات سوآء التي يترتب عليها حكم تكليفي، أو لا يترتّب عليها حكمٌ تكليفيٌ بناءً على افتراض وجود موضوع لا يترتّب عليه حكم، وإنْ كان الظاهر عدم وجود موضوع لا يترتّب عليه حكم تكليفي، وهو الأقوى عندنا.

وعلى ضوء تعريف العصمة بالعلم اليقيني أو القوّة أو المَلَكَة القدسيّة المترشحة من العلم الحضوري القطعي يندفع ما توهم من صدور العبوس من النبي ﷺ بوجه إبن أمّ مكتوم، سوآء أكان العبوس حال التبليغ أم قبل التبليغ أم بعده، ما دام النبي ﷺ متصفاً بالعلم الحضوري وهو حالة عامّة تشمل كلّ مراحل حياته، إذ لا فرق في عدم صحّة الخطأ الصادر من النبي ﷺ أنْ يكون صدوره مبنيّاً على جوازه في التبليغ أو غير التبليغ، مع أنّ المدّعين لصدور العبوس يصرِّحون بصدوره حال التبليغ لكونه ﷺ كان في صدد دعوة صناديد قريش للهداية والإسلام وهما من أبرز مصاديق التبليغ، وإذا لم يكن فعله ﷺ ـ حال جلوسه مع المشركين ـ تبليغاً فماذا يمكن أنْ يسمّوه لنا؟!!

فما صدر من النبي ﷺ ـ بحسب دعواهم ـ إمّا يكون تبليغاً أو غير تبليغ، فإنْ كان تبليغاً فلا يجوز صدور الخطأ في تبليغه، وإنْ لم يكن تبليغاً فهو عبثٌ لخلوّه من الغاية، والنبي ﷺ منزَّهٌ عن العبث، فثبت المطلوب.

**النقطة الثانية ـ وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام:**

وقع الخلاف بين الفريقَيْن في دائرة عصمة الأنبياء عليهم السلام على أنحاءٍ أربعة:

ـ النحو الأوّل: فيما يتعلّق بعقائدهم عليهم السلام.

ـ النحو الثاني: فيما يتعلّق بالتبليغ.

ـ النحو الثالث: فيما يتعلّق بالأحكام الشرعيّة.

ـ النحو الرابع: فيما يتعلّق بأفعالهم وشؤون حياتهم عليهم السلام.

**أمّا النحو الأول:**

فقد أجمعت الأمّة بشتّى فِرَقِها على عصمة الأنبياء عليهم السلام في عقائدهم، فهم موحِّدون مؤمنون بالله تعالى وبعدالته وببقيَّة الأصول الإعتقاديّة، فلا مسرح للكفر والضلال في اعتقاداتهم، إلاّ الأزارقة من الخوارج، فقد جوّزوا على الأنبياء عليهم السلام الكفر، أخذاً بمبدئهم من أنّ «كلّ ذَنْبٍ كفر»[1]، بل جوّز إبن فورك أنْ يبعث الله تعالى بالنبوّة كافراً، إلاّ أنّ العادة قضت أنْ لا يقع هكذا نبيّ، وقال بعض الحشوية بوقوعه، وبعضهم جوّزوا على الأنبياء الكفر.

وما نسبه القاضي الأيجي وآخرون من تجويز الشيعة إظهار الكفر من الأنبياء عليهم السلام تقيّةً، يُعتَبَرُ زوراً وبهتاناً علينا نحن الشيعة؛ لأنّ إظهار الكفر تقيّةً يستلزم الإغراء بالقبيح، ويؤدّي إلى تزلزل عقائد الناس وانحرافهم عن جادّة الدِّين. مضافاً إلى أنّه يفضي إلى إخفاء الدّعوة بالكلية وترك تبليغ الرّسالة.

---

(١) المواقف: ٣٥٩.

وأما النحو الثاني:

إدّعى العلاّمة المجلسي والسيوري[١] وتبعهما آخرون من أنّ الأمّة متفقة على وجوب عصمة الأنبياء عن المعاصي الكبيرة عمداً أو سهواً، لكنها دعوى غير دقيقة؛ فالتحقيق أنّ الأشاعرة يعتقدون بصدور الخطأ عمداً تقديماً للأهمّ على المهمّ نظير العبوس ـ المنسوب إليه ﷺ ـ بوجه إبن أمّ مكتوم، وحصول العبوس إنما كان حال التبليغ لا في غيره.

وأما النحو الثالث:

وهو المتعلّق ببيان الأحكام الشرعيّة، فقد أجمعوا على أنه لا يجوز على الأنبياء الخطأ في هذا النحو، لا عمداً ولا سهواً، إلاّ جماعة منهم كالكراميّة والحشويّة حيث استدلوا على صحّة صدور الخطأ في بيان الأحكام بقصّة الغرانيق وقد رواها الطبري في تفسيره أيضاً.

وأما النحو الرابع:

وهو أفعال الأنبياء ﷺ الخارجة عن نطاق التبليغ وبيان الأحكام وصحّة العقيدة، فقد اختلف المسلمون على ذاك إلى خمسة أقوال:

الأوّل: مذهب أصحابنا الإماميّة، وهو أنّه لا يصدر عنهم الذنب لا صغيرة ولا كبيرة، لا عمداً ولا نسياناً، ولا خطأً في التأويل ولا إسهاءً من الله سبحانه، ولم يخالف فيه إلاّ الشيخ الصدوق وشيخه محمّد بن الحسن بن الوليد، فإنّهما جوّزا الإسهاء لا السّهو الذي يكون من الشيطان، وكذا القول في الأئمّة الطاهرين ﷺ.

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ٨٩، وإرشاد الطالبين: ٣٠٤.

الثاني: إنّه لا يجوز عليهم الكبائر، ويجوز عليهم الصغائر إلاّ الصغائر الخسيسة المنفِّرة كسرقة حبّة قمحٍ أو لقمة خبزٍ، وكلّ ما يُنسَب فاعلُه إلى الدّناءة والضِّعة، وهذا قول أكثر المعتزلة.

الثالث: إنّه لا يجوز صدور الصغائر والكبائر عمداً لا سهواً أو تأويلاً، وهو قول أبي علي الجبائي أحد متكلِّمي المعتزلة.

الرّابع: إنّه لا يصدر منهم الذنب إلاّ سهواً.

الخامس: إنّه يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وسهواً وخطأً، وهو قول الحشويّة وهم الإخباريون من العامّة.

ثمّ اختلفوا في وقت العصمة على ثلاثة أقوال:

الأوّل: إنّه من وقت ولادتهم إلى أنْ يلقوا الله سبحانه، وهو مذهب أصحابنا الإماميّة.

الثاني: إنّه من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوّة، وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: إنّ عصمتهم من وقت النبوّة، أمّا قبل ذلك فيجوز صدور المعصية عنهم، وهو قول أكثر الأشاعرة ومنهم الفخر الرّازي، وبه قال أبو هذيل وأبو علي الجبائي من المعتزلة[١].

**منشأ هذه الهفوات:**

ثمّة عوامل متعدِّدة لنشوء هذه الهفوات بحقّ الأنبياء ﷺ أهمّها:

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ٩٠ ـ ٩١.

**العامل الأوّل:** شدّة تعصّبهم لصحابة النبيّ الذين اغتصبوا الخلافة من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، استلزم التقليل من عصمة الأنبياء عليهم السلام لتبرير كفر هؤلاء المغتصبين، ومن المحتمل أيضاً أنْ يكون السبب هو الغلوّ بالصحابة، لذا تراهم دائماً في حالة تقديس وتنزيه للصحابة الذين يهوون ويعشقون.

**العامل الثاني:** جمود أكثرهم على ظواهر آيات القرآن التي يُشَمُّ منها للوهلة الأولى غياب العصمة في بعض أمورهم عليهم السلام، في حين أنّ التدقيق في هذه الآيات وتفسيرها على ضوء آيات القرآن الأخرى ينفي هذا التوهّم بالمرّة، ولكن نظراً لأنّ أهل الظاهر والجمود لم يكلفوا أنفسهم عناء التحقيق والتدقيق، فابتلوا بمثل هذه المناقص.

هذا العامل وإنْ كان وجيهاً بذاته لو لم تكن ثمّة مبرِّرات أخرى تنفي تنزيه الصحابة عن كلّ نقصٍ، وحيث لا تخلو مصادرهم من روايات الغلوّ[١] ببعض الصحابة، فلا يكون ـ هذا العامل ـ كافياً في إثبات المدَّعى.

**العامل الثالث:** ذهاب أفراد الفريق الذي اعتبر الأدلّة العقليّة دخيلةً في هذه المسألة، وفسّر آيات القرآن أفضل من صاحبه، أدّى ذلك إلى بروز فريق آخر مضادّ للفريق الأوّل، نظراً لتوهمهم بأنّ الهدف من البعثة إنما يتحقق بالعصمة بعد النبوّة أو العصمة في خصوص نطاق دائرة التبليغ أو من الذنوب الكبيرة.

ويعود السبب في نشوء هذا العامل هو الحسد، وهذا العامل غير بعيد عن

---

(١) نقصد بالغلو المعنى اللغوي لا الإصطلاحي، الذي هو إصباغ الألوهيّة على المخلوق، بل الغلو يراد به تنزيه بعض الصحابة عن الأخطاء فهم كالمعصومين بنظر العامّة لا يمكن أنْ يتطرق إلى ساحتهم سهوٌ أو نسيان أو خطأ!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!

الواقع، إلاّ أنّ الحسد أعمّ من كونه للعلماء القائلين بالعصمة فيتعدّى إلى حسد الآخرين للأنبياء والأئمّة ﷺ، وهو الظاهر من الآيات والأخبار المفسِّرة لها نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، فقد جاء في تفسيرها أنّ أهل البيت ﷺ هم المحسودون(١).

وبالجملة؛ فإنّ ما ذهب إليه العامّة والمعتزلة خلاف الحق، والصحيح ما ذهب إليه الإمامية من تنزيه الأنبياء والأئمّة ﷺ من كل ذنبٍ ودناءة ومنقصة قبل النبوة وبعدها، كبيرة كانت أم صغيرة، قبل البلوغ والنبوة أم بعدهما، وكذلك تجب عصمتهم ﷺ من الخطأ سوآء كان في العقيدة أو تبليغ النبوّة وأداء الرّسالة، أو بيان الأحكام وغيرها، ودليلنا على ذلك الأدلّة العقليّة ـ كما سوف ترى ـ والأخرى النقليّة من الآيات والرّوايات عن أئمّة الهدى ﷺ حتى صار القول بالعصمة من قبيل الضروريات في مذهب الإمامية.

والعَجَب العُجاب من فخر الدين الرازي كيف نسب إلينا أنّنا «نجوِّز على الأنبياء التظاهر بالكفر تقيّةً»(٢) مع أنّ علماء الشيعة ـ قديماً وحديثاً ـ إنهالوا على هذه العقيدة بكلّ عنف، واستنكروا على قائلها، بل عندهم لا تجوز التقية في العقائد لعامة أفراد الأمّة أبداً مهما تعرّضت حياتهم المقدَّسة للخطر في هذا الطريق، وغدت قرباناً للدّين والعقيدة.

فإذا ما كان إظهار الكفر تقيّةً للأدنى من الأنبياء والأوصياء غير جائزٍ، فكيف يجوز نسبتها إلى الأنبياء العِظام والأئمّة ﷺ؟!

فما ذكره الرّازي وأمثاله لم يتفوّه به أحدٌ من علماء الشيعة، ويا ليت الرّازي

---

(١) تفسير الصافي: ١/ ٤٦٠، وأصول الكافي: ج١ باب الحجة.

(٢) تفسير الرازي: ج٣ ص٧ عقب تفسيره للآية ٣٦ من سورة البقرة.

ذكر لنا اسم شخصٍ واحدٍ أو كتابٍ واحدٍ تنعكس فيه مثل هذه العقيدة المعوجّة لكنّا له من الشاكرين، لكنّه لم يذكر لعلمه يقيناً أنْ ليس أحدٌ من الشيعة يعتقد بما ادّعاه الرّازي على الإماميّة، فما نسبه إلينا افتراءٌ علينا وكذباً صريحاً وبهتاناً جليّاً سنطالبه به يوم تشخص فيه القلوب والأبصار، ولن تغني الرازي وأمثاله ما جنته يداه واكتسبه جنانه علينا، وافتراه قلمه المسموم على عقائدنا!!!!

نعم، التقيّة العمليّة كالتي ظهرت من عمّار لإنقاذ نفسه من الهلكة فلا محذور فيها ولا ربط لهذا بما قالوه، ولو كانت تقيّة عمّار محظورة لَمَا شرّعها الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

* * *

## الأدلة على عصمة الأنبياء عليهم السلام

نقسّم الأدلّة على عصمتهم عليهم السلام لا سيّما عصمة النبيّ الأعظم ﷺ إلى قسمين، أحدهما عقلي والآخر نقلي.

### الأدلّة العقليّة على عصمة الأنبياء عليهم السلام:

نستدلّ على وجوب عصمتهم عليهم السلام ـ لا سيّما عصمة سيّدنا رسول الله ﷺ ـ بوجوه:

### الوجه الأوّل ـ الوثوق فرع العصمة والطّهارة:

لو لم يكونوا عليهم السلام معصومين لزم انتفاء فائدة بعثتهم، واللازم باطلٌ، فالملزوم مثله.

بيان الملازمة: إنّه إذا لم يكونوا معصومين كان فعل المعصية منهم جائزاً

على فَرْضٍ وقوعه ـ إذ فَرْض المحال ليس بمحالٍ ـ وإذا وقعت المعصية، فإمّا يجب إتباعهم فيها أو لا، والأوّل باطل لاستحالة التكليف بالقبيح منه تعالى، والثاني موجب لانتفاء فائدة بعثتهم، إذ الغرض من بعثتهم إتباعهم.

وأمّا بطلان اللازم فظاهرٌ؛ لاستلزامه الحرص على تحصيل أمر والسعي في إبطاله، وذلك سفهٌ قبيحٌ يستحيل صدوره منه تعالى.

وبعبارة أخرى: يجب أنْ يكونوا معصومين ليحصل بذلك الوثوق بأقوالهم وأفعالهم فيحصل الغرض من وجوب بعثتهم، فدعوى جواز صدور المعاصي منهم يخلُّ بغرض البعثة المطلوب فيها الوثوق بهم وعدم احتمال صدور الخطأ منهم.

قال المحقِّق الطوسي ـ أعلى الله مقامه ـ في التجريد: «ويجب في النبيِّ ـ مطلَق نبيٍّ ـ العصمة ليحصل الوثوق، فيحصل الغرض»[1]. والمراد بالغرض هو الفوائد المترتِّبة على بعثة الأنبياء من الإنقياد والطاعة.

وبالجملة؛ فإنّ ثقة الناس بالأنبياء، وبالتالي حصول الغرض من بعثتهم، إنما هو رهن الإعتقاد بصحّة مقالهم وسلامة أفعالهم وهذا بدوره فرع كونهم معصومين عن الخطأ والعصيان في السر والعلانية من غير فَرْقٍ بين معصيةٍ وأخرى، ولا بين فترة من فترات حياتهم وأخرى، وذلك لأنّ المبعوث إليه إذا جوّز الكذب على النبيّ، أو جوّز المعصية على وجه الإطلاق، جوّز ذلك ايضاً في أمره ونهيه وأفعاله التي أمره باتباعه فيها، ومع هذا الإحتمال لا ينقاد إلى امتثال أوامره، فلا يحصل الغرض من البعثة؛ لأنّه بحكم عدم عصمته يحتمل

---

(١) كشف المراد: ٢١٧، ط. صيدا.

أنْ يكون كاذباً في أوامره ونواهيه، وأنْ يتقوّل على الله تعالى ما لم يأمر به، ومع هذا الإحتمال لا يجد المبعوث إليه في قرارة نفسه حافزاً على الإمتثال.

هذا بالنسبة إلى أقوال النبيّ، وأمّا أفعاله فهي مثل أقواله، لا بدّ أنْ يكون معصوماً فيها؛ لأنّ الأمّة مأمورة باتّباع أفعاله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإنْ احتملنا كون عمله على خلاف رضاه تعالى، فكيف نجد في أنفسنا الباعث على اتّباعه.

وعليه؛ بما أنّ قول النبيّ وفعله حجّتان شرعيّتان، فيجب إتّباعه فيهما، وهذا لا يحصل إلاّ عند الوثوق بصحتهما، ومع عدم حصول هذا الوثوق تنتفي بواعث الإتباع فلا يحصل الغرض.

### الوجه الثاني ـ العاصي الكذّاب لا يجد آذاناً صاغية:

إنْ وقعت المعصية منهم فلا يخلو هذا من أمرين: إمّا أنْ يجب الإنكار عليهم أو لا، والثاني ـ أي عدم الإنكار ـ باطلٌ لعموم وجوب النهي عن المنكَر، فلو لم يُنكِر عليهم لزم إبطال وظائفهم التي من أجلها أُرسِلُوا، وهو باطلٌ بالإجماع، فيتعيّن الأوّل ـ أي وجوب الإنكار عليهم ـ لكنّ ذلك موجِبٌ لسقوط محلّهم من القلوب، فلا يُصار إلى ما يأمرون به وينهَوْنَ عنه، فتنتفي فائدة بعثتهم.

### الوجه الثالث ـ الخائن لا يؤتَمَن:

لو سلَّمنا صدور المعاصي منهم، لجاز حينئذٍ أنْ لا يؤدّوا بعض ما أُمِروا بأدائه، فيجوز أنْ يكونوا قد أمروا بغير ما أمر الله تعالى ـ فيأمرون بصلاةٍ سادسة

أو بصوم شهرٍ آخر ـ أو أنّ الشرع سيُنسخ، ممّا يرفع الوثوق بإخباراتهم، وهو خلاف الغاية من بعثتهم، مضافاً لاستلزام ذلك عدم استمرار حكم الشرع.

**الوجه الرابع ـ الإغراء بالجهل قبيحٌ:**

من البديهيات عند الإماميّة أنّ الله تعالى حكيمٌ لا يفعل العبث، بل لا يريد إلاّ الهداية لعباده، لذا فإنّه لا يُقْدِمُ على أدنى شيءٍ يتسبَّب في انحرافهم نحو الباطل والضلال؛ لأنّ صدور أيٍّ منهما من أيٍّ كان يُعتَبَرُ قبيحاً، فكيف لو صدرا من ذاته المقدَّسة؟ ولو وضع الله تعالى أسرار النبوّة كالإعجاز أو الوحي والإئتمان على دينه، تحت اختيار غير المعصوم الذي يحتمل كذبه وخطأه وارتكابه للمعاصي، يكون بذلك أوقع عباده في الضّلال، وهذا يشبه قيام شخصٍ معروفٍ بانتخاب شخصٍ مخادعٍ منحرِفٍ وكيلاً عنه، أليس هذا العمل قبيحاً؟! لا أظنّ عاقلاً يحتمل صدور مثل هذا العمل من الله تعالى، فيضع المعجزات وأسرار النبوّات بيد الشخص المذنِب الكذّاب المنحرف العاصي!!!

وقد صرَّحَ الله تعالى في قرآنه المجيد أنّه شديدٌ على المتقوّلين الكذب عليه بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٥].

و ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم، والمعنى أي لو ادّعى النبيُّ الذي أرسلناه ما لم نقله، وهو لن يفعل ذلك، لكن فرض المحال ليس بمحالٍ، وهو من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، فإنّ الله تعالى يأخذه أخذ عزيزٍ مقتدر، ولن يمنعنا من ذلك مانعٌ.

فالآيتان المتقدِّمَتان تؤكِّدان على نفس الحقيقة التي تمّت الإشارة إليها

أعلاه، وهي أنّ مَن يمتلك الآيات الإلهيّة والمجهَّز بسلاح الإعجاز المقتدر، وقد أمضى الله تعالى كلامه، لو انحرف حتى للحظةٍ واحدةٍ عن المسير الإلهي، فلن يمهله الله تعالى بل سيضربه في أخطر نقطة من بدنه أي شريان قلبه ويقضي عليه، وإلاّ لكان الله عزّ اسمه هو السّبب وراء إضلال النّاس وإغرائهم بالجهل، وهذا بنفسه يُعَدُّ دليلاً صارخاً على مسألة العصمة، لذا فإنّه عزّ وجلّ لا يسدِّد الكذّاب بالكرامة أو المعجزة للنكتة العلميّة التي ذكرنا آنفاً.

والعلّة التي من أجلها يشدِّد الله عزّ وجلّ العقاب على سفرائه ـ على فرض حصول مكروهٍ منهم أو تَرِكٍ للأَوْلَى ـ وهذه الأخطاء لو حصلت تؤدّي إلى جعل الخطأ سُنَّةً حَسَنَةً يقتدي بها أتباعهم من الرّعيّة، فيستلزم إضلال النّاس وإبعادهم عن جادّة الصّواب والطّاعة، فعدم صدّه من قِبَلِ الله تعالى يقتضي أنْ يكون الله تعالى ـ وحاشاه ـ السبب وراء إضلال خلق الله عزّ اسمه.

إذن يمكن الإستفادة من مضمون هذه الآية أنّ النبيَّ مصونٌ عن مثل هذا الخطأ، وهذا عين ما قاله مولانا وسيّدنا الإمام الهمّام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام للمأمون لعنه الله تعالى: [من دين الإماميّة، لا يَفْرِضُ الله طاعةَ مَنْ يعلَمُ أنّهُ يُضِلُّهُم ويغويهم، ولا يختارُ لرسالته ولا يصطفي من عباده مَنْ يَعْلَمُ أنّه يكفُرُ به وبعبادته، ويعبُدُ الشيطان دونه][1]، ونقرأ في حديثٍ آخرٍ عن مولانا أمير المؤمنين وسيّد الموحِّدِين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: [إنّ الله إنما يأمر بطاعةِ رسوله لأنّه معصومٌ مطَهَّرٌ لا يأمُرُ بمعصيةِ الله وإنما أمر بطاعةِ أولي الأمر لأنهم معصومون مطَهَّرون لا يأمرون بمعصية الله، فهم أولوا الأمر، والطاعةُ

(١) بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي: ج١١ ص٧٦ح٣ باب عصمة الأنبياء عليهم السَّلام.

لهم مفروضةٌ من الله ومن رسوله، لا طاعة لأحدٍ سواهم ولا محبّة بعد رسول الله إلاّ لهم][1].

**الوجه الخامس ـ للوحي قلوبٌ صافية:**

من الواضح أنّ الأوامر الإلهيّة تتطلّب استعداداً في القلوب ولياقةً في النفوس لها، ويستحيل أنْ يقوم بأدائها على أتمّ وجه مَن لا لياقة له عليها، كما نعلم أيضاً أنّ أنبياء الله تعالى يتلقّون كلام الله تعالى عن طريق الوحي فيبلّغونه للنّاس، وكلامه عزّ وجلّ نورٌ وصفاءٌ لا يدخل إلاّ قلوباً صافيةً ونورانيّةً وطاهرةً، خاليةً من كلّ ظُلمةٍ وكدورةٍ، والخطايا من أبرز مصاديق الظُّلمة، فلا يصحّ التكليف بالوحي لمَن كان قلبُهُ مليئاً بالكدورة والمعاصي... إذ كيف يستطيع الملوّث بالذُّنوب صاحب القلب المظلم أنْ يجد الطريق إلى عالَم النّور؟ كيف يصير القلب المليء بالشهوات والأهواء مهبطاً للوحي الإلهي ومحلاً للعِلْمِ الربّاني؟ وهل يُعْقَل هذا المعنى بدون وجود التجانس والسنخية بينهما؟ ثمّ إنّ وكيل كلّ شخصٍ إنما يعكس وجود موكِّلِه وصفة من صفاته، ولذا لا يسمح مرجع ديني كبير لنفسه أبداً بإنتخاب وكلائه من بين الأفراد المشبوهين، ولو اتفق وفعل ذلك، لَعَابَهُ النّاس كلّهم، واعتبروا تصرّفه هذا قبيحاً، ولخرجوا على أمره أيضاً، فهل يمكن أنْ ينتخب الله تعالى ـ حيث هو منبع القداسة والتقوى والطّهارة ـ وكيلَهُ من بين المذنِبين، ويوكل هذه المسؤوليّة العظيمة لغير المعصوم؟!! حاشا لله تعالى أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ في الأرض أو في السّماء ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) إحقاق الحق: ١٣/ ٧٨.

**الوجه السادس ـ إستحالة إجتماع الضدّين:**

إنّه لو صدر عن النبي ﷺ ذَنْبٌ لزم اجتماع الضدَّيْن، أي الأمرين المتضادَّين، وهما وجوب متابعته في كلّ شيء من جهة، ووجوب مخالفته عند صدور الخطأ منه من جهة أخرى، فالأوّل يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومورد الآية وإنْ كان نبيّنا محمدا ﷺ لكنّها تشمل باقي الأنبياء ﷺ لعدم القائل بالفرق، ولأنّ المورد لا يخصِّص الوارد كما لا يخفى في الأصول، فما ثبت للنبي محمد ﷺ من أدلّة العصمة هو بعينه للأنبياء والأئمّة ﷺ، والثاني يدلّ عليه اتّفاق الأمّة على حرمة متابعة المذنب العاصي.

وعليه؛ يستحيل صدور أمرين متضادين من الله الحكيم عزّ اسمه.

**الوجه السابع ـ الكذّاب مردودُ الشّهادة:**

فلو أقدم نبيٌّ من الأنبياء على المعصية لَوَجَبَ أنْ يكون مردود الشّهادة لأنّ شهادة الفاسق وأخباره غير مقبولة؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]، فكيف يمكنه والحالة هذه أنْ يكون شاهداً على الوحي الإلهي في الدّنيا أو على الأمم يوم القيامة؟!!

**الوجه الثامن ـ النبيّ العاصي[1] أقلّ درجة من عُصاة الأمّة:**

فلو صدر من الأنبياء ذَنْبٌ فهذا يعني أنّ مقامهم أقلّ درجةً من عُصاة الأمّة؛ لأنّ مقام النبوّة في غاية الرِّفعة والسُّمُوّ، فارتكابهم للمعاصي والإعراض عن

---

(١) وحاشا للأنبياء ﷺ مِنْ ذلك.

أوامر ربّهم ونواهيه من أجل لذّةٍ فانيةٍ أفحش وأشنع من عصيان هؤلاء، وهو أمرٌ لا يلتزمه عاقلٌ.

**الوجه التاسع ـ مَن عصى استحقّ اللَّعن:**

فلو صدرت المعصية من الأنبياء لكانوا مستحِقّين للعذاب لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] ولاستحقّوا اللعن لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وأجمعت الأمّة على أنّ أحداً من الأنبياء عليهم السلام لم يكن مستحِقّاً للَّعْنِ ولا العذاب، فثبت أنّه ما صدرت المعصية منهم.

**الوجه العاشر ـ الآمرون بالمعروف العاملون به:**

إنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يأمرون النّاسَ بطاعة الله تعالى، فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤] وقال عزّ وجلّ أيضاً: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فما لا يليق بواحدٍ من وعّاظ الأمّة كيف يجوز أنْ يُنسَب إلى الأنبياء عليهم السلام؟!!

**الوجه الحادي عشر ـ الإصطفاء يتناول جميع الأفعال والتروك:**

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧] وهذا يتناول جميع الأفعال والتّروك بدليل حذف المتعلَّق، فهم مصطَفون أخياراً في جميع تصرفاتهم وأقوالهم وأحوالهم، ولو أراد التخصيص لذكر قرينة على ذلك، ولمّا لم يفعل دلّ عدم القيد على اصطفائهم في جميع الأحوال والأمور، وهو ينافي صدور الذَّنب منهم.

## الوجه الثاني عشر ـ لا سلطة لإبليس على الأنبياء ت:

حكى الله تعالى عن إبليس لعنه الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] فاستثنى من جملة مَن يغويهم: المخلَصين وهم الأنبياء ﷺ، قال تعالى في صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﷺ: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص: ٤٦]، وقال في يوسف ﷺ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وإذا ثَبُتَ وجوب العصمة في حقّ البعض، ثَبُتَ وجوبها في حقّ الكلّ؛ لأنّه لا قائل بالفَرْقِ.

## الوجه الثالث عشر ـ الأنبياء من حزب الله تعالى:

إنّه تعالى قسّم الخلق قسمين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال في الصنف الآخر: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ولا شكّ أنّ حزب الشيطان هو الذي يفعل ما يرتضيه الشيطان، والذي يرتضيه الشيطان هو المعصية، فكلّ مَن عصى الله تعالى كان من حزب الشيطان، فلو صدرت المعصيةُ من الأنبياء ﷺ ـ حاشاهم ـ لَصَدَقَ عليهم أنهم من حزب الشيطان، ولَصَدَقَ عليهم أنّهم من الخاسرين، ولَصَدَقَ على زُهّاد الأمّة أنهم من حزب الله وأنّهم من المفلِحين، فحينئذٍ يكون ذلك الواحد من الأمّة أفضل بكثيرٍ عند الله من ذلك الرّسول، وهذا لا يقوله عاقلٌ، لكنّ الأشاعرة قالوا به حيث اعتبروا النبيّ محمَّداً هو العابس وليس عثمان بن عفّان. . . !!!

## الوجه الرّابع عشر ـ عدم التبعيض في العصمة:

والملكة قوّة نفسانيّة راسخة بالنّفس بطيئة الزّوال، وملكة العصمة بحسب الإصطلاح هي قوّة تمنع الإنسان عن الوقوع في الخطأ أو فعل المعصية

واقتراف الخطيئة، وليست هذه القوة نفس صدور الفعل أو عدم صدوره وإنما هي مبدأ نفساني تصدر عنه الأفعال من الملكات النفسانيّة.

وهذه المَلَكة أو القوّة القدسيّة (العصمة) هي من قبيل العلوم والمعارف، لا من قبيل العمل وإلاّ فالعمل مترتب على ذلك العلم.

وبعبارة أخرى: إنّ العصمة درجةٌ من العلم والمعرفة واليقين يصل إليها الإنسان بحيث تحجزه عمليّاً عن الخطأ والعصيان، فالعصمة منشأها العِلْم، وهذا الضّرب من العلم هو الّذي يمنع صاحبه من الإتيان بما يخالف أوامر الله تعالى في السّلوك والعمل، وبذلك يتّضح أنّ جَذْرَ العصمة ليس أمراً عمليّاً بل هو أمر علمي، وهذا ما يوضحه القرآن وهو يشير إلى أنّ العلم هو منشأ السّلوك الخارجي، فاليقين الّذي تمتلئ به شخصيّة الإنسان هو الّذي يتحكّم بنمط سلوكه الخارجي، وعليه يتّضح الفرق بين بُعدين يتميّز بهما المعصوم عليه السلام هما البُعد العلمي والبُعد العملي، ومعنى الأوّل هو أنّ للمعصوم عِلْماً هو من القوّة والتّأثير بحيث لا ينفك عن العمل المترتّب عليه، ومعنى الثّاني هو أنّه لا يمكن أن يصدر عن المعصوم ما يؤدّي به إلى الشرك لأنّه عالم.

فالعصمة تكمن أساساً وقبل كلّ شيء بالعِلْمِ الذي يوجد عند النبيّ أو الإمام عليه السلام، وحسبما أشرنا سابقاً إنّ العصمة قوّة قدسيّة بسبب شدّة اليقين، واليقين أمرٌ نظريٌّ يختلج في نفس المعصوم عليه السلام على نحو التصديق لا التصوّر.

ويعبارةٍ أخرى: إنّ القوّة القدسيّة هي من قبيل العلوم والمعارف، وليس من قبيل العمل؛ لأنّ العمل مترتِّبٌ على ذلك العِلْم.

وبالتدقيق بما قلنا آنفاً يتضح معنى العصمة الذاتية للمعصوم من حيث

إتصاف ذاته بمعارف يقينيّة، هذه المعارف سابقة على المجال العملي التطبيقي، والقول «بملكة العصمة في الخليفة ـ سوآء أكان نبيّاً أم إماماً ـ لا يعني خروج أفعاله عن الإختيار؛ للزوم ذلك إبطال عِلْمِهِ وإرادته وتأثيرهما في أفعاله، وهو ينافي افتراض كونهم فرداً من أفراد الإنسان الفاعل بالعِلم والإرادة، بل العصمة من الله عزّ وجلّ إنما هي بإيجاد سببٍ في الإنسان المعصوم تصدر عنه أفعاله الإختياريّة صواباً وطاعةً وهو نوع من العِلْم الرّاسخ وهو المَلَكة النفسانيّة نظير العفّة والشجاعة والعدالة، فصدور الأفعال عن المعصوم بوصف الطاعة دائماً ليس إلاّ لأنّ العلم الذي يصدر عنه إنّما فعله بالمشيئة وهي صورة علميّة صالحة غير متغيِّرة، وهذه الصّورة هي الإذعان بوجوب العبوديّة دائماً»[1].

* * *

نهاية المطاف:

على ضوء ما تقدّم فإنّ العصمة موهبةٌ إلهيّةٌ تُفاض سلفاً ـ وقبل العمل ـ على مَن يُعْلَم من حاله أنّه باختياره ينتفع منها في ترك القبائح، فتُعَدُّ مفخرةً قابلةً للتحسين والتكريم...

والأدلّة المتقدِّمة ـ لا سيّما الوجه الرّابع عشر ـ يتمّ الإستدلال بها على عصمة الأنبياء ﷺ في الأنحاء الأربعة التي أشرنا إليها، كما أنها كافية في إثبات عصمتهم ﷺ في جميع الأوقات: قبل البعثة، حال البعثة، وبعد البعثة والتبليغ؛ لأنّ تلكم الأدلّة مطلَقة تشمل كلّ ما ذكرنا، مضافاً إلى أنّ القول بالعصمة في مجال دِون آخر يستلزم القول بتبعُّض مَلَكَة العصمة، وهو قولٌ جزافٌ لا يبتني على أساسٍ علميٍّ لكون المَلَكَة حالة راسخة في صقع النفس،

---

(١) راجع كتابنا: شبهة إلقاء المعصوم نفسه في التهلكة ودحضها: ١/ ٣١٢.

فلا يمكن أنْ نبعّضها أو نجزّئها ونقيّدَها بمجالَي تلقّي الوحي والتبليغ دون غيرهما ؛ لأنّ المَلَكَة لا تُبَعَّض ولا تُجَزَّأ بحالٍ دون حالٍ[1] .

## العصمة في القرآن الكريم

ثمّة آياتٌ كثيرةٌ في الكتاب العزيز تشير إلى عصمة النبي ﷺ ـ كغيره من الأنبياء ـ عن الخطأ في مجالَي تلقّي الوحي وتبليغه بل وعصمته في مجالَي إبداء رأيه في الأمور الشخصيّة وتشخيص الموضوعات، وقد إستعرضنا قسماً معتدّاً به في بعض بحوثنا[2] ، ونقتصر هنا على آيتين[3] هما :

### الآية الأولى

قوله عزّ وجلّ : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن : ٢٦ ـ ٢٨]

دلالة الآيات على مصونيّة الرُّسُل والأنبياء في مجال تلقّي الوحي وما يليه من التحفّظ والتّبليغ واضحة لا غبار عليها من حيث ارتضائه عزّ وجلّ لهم كي يكونوا مرسلين ومنذرين وحافظين لما أُنزِلَ عليهم فلا يضيّعونه بالإهمال والخطأ والنسيان وإلاّ لا يصحّ تسميتهم بمرسلين ومنذرين، إذ كيف يُرسَلُ من

---

(١) للمزيد من الإطلاع والإستفادة في موضوع العصمة راجع كتابنا : الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية.

(٢) راجع : شبهة إلقاء المعصوم نفسه في التهلكة ودحضها : ١/ ٣١٣ ـ ٣٢٩.

(٣) ثمّة آيات واضحة الدلالة على عصمة رسول الله المطلَقة في جميع المجالات لم نذكرها هنا لضيق المجال، فراجع : شبهة إلقاء المعصوم نفسه في التهلكة ودحضها : ١/ ٣٢٢ ـ ٣٥٧.

كان قابلاً للإهمال والخطأ فإنّ ذلك خلاف الوثاقة في الأداء والأمانة في النقل؟! وكيف يخطئ من كان الله عزّ اسمه من ورائه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً؟! وما الرّصد بالمراقبة إلاّ للتحفّظ على الوحي من كلّ تخليط وتشويش بالزّيادة والنّقص نتيجة إغراء الشّيطان وجنوده وقد نزه الله سبحانه وتعالى أولياءَه وأنبياءَهُ عن الإصغاء إلى وساوس إبليس مع التّاكيد بأنّه لا سلطة لإبليس عليهم ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [ص/ ٨٢ ـ ٨٣].

وفي الآي المباركة دلالة على عصمة الرّسول المرسَل في المجالات الثّلاثة: تلقّي الوحي والتّحفّظ عليه والإبلاغ والتّبيين.

يقول العلاّمة الطباطبائي: «إنّ قوله ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ إلى آخر الآيتين يدلّ على أنّ الوحي الإلهي محفوظ من لدنّ صدوره من مصدر الوحي إلى بلوغه للناس، مصون في طريق نزوله إلى أن يصل إلى من قصد نزوله إليه؛ أمّا مصونيّته من حين صدوره من مصدره إلى أن ينتهي إلى الرّسول فيكفي في الدّلالة عليه قوله ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ وأمّا مصونيّته من حين أخذ الرّسول إيّاه وتلقّيه من ملَك الوحي بحيث يعرفه ولا يغلط في أخْذِهِ، ومصونيّته في حفظه بحيث يعيه كما أوحي إليه من غير أن ينساه أو يغيّرَه أو يبدِّلَه ومصونيتة في تبليغه إلى النّاس من تصرّف الشيطان فيه فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حيث يعطينا صورةً واقعيةً عن أنّ الغرض الإلهي من سلوك الرّصد هو أن يعلم إبلاغهم رسالات ربّهم أي أنْ يتحقّق في الخارج إبلاغ الوحي إلى النّاس، ولازمه بلوغه إياهم،ولولا مصونيّة الرّسول في الجّهات الثلاث المذكورة جميعاً لم يتمّ الغرض الإلهي وهو ظاهر.

وحيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض غير سلوك الرّصد دلّ ذلك على أن الوحي محروس بالملائكة وهو عند الرّسول، كما أنّه محروس بهم في طريقه إلى الرّسول حتى ينتهي إليه ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾.

وأمّا مصونيّته في مسيره، من الرّسول حتى ينتهي إلى النّاس فيكفي فيه قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ على ما تقدَّمَ معناه.

أضِفْ إلى ذلك دلالة قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بما تقدَّمَ من تقريب دلالته.

ويتفرع على هذا البيان: أنّ الرّسول مؤيَّد بالعصمة في أخذ الوحي من ربِّه وفي حفظه وفي تبليغه إلى النّاس، مصون من الخطأ في الجّهات الثلاث جميعاً لِمَا مرّ من دلالة الآية على أنّ ما نزّلَه الله سبحانه من أحكام دينه على النّاس من طريق الرِّسالة بالوحي، مصون في جميع مراحله إلى أن ينتهي إلى النّاس، ومن مراحله مرحلة أخذ الرَّسول للوحي وحِفْظِهِ له وتبليغه إلى النّاس.

والتّبليغ يعمّ القول والفعل فإنّ في الفعل تبليغاً كما في القول، فالرّسول معصوم من المعصية باقتراف المحرَّمات وترك الواجبات الدّينيّة لأن في ذلك تبليغاً لِمَا يُناقِض الدّين فهو معصوم من فعل المعصية كما أنّه معصوم من الخطأ في أخذ الوحي وحفظِهِ وتبليغه قولاً.

وقد تقدَّمت الإشارة إلى أنّ النبوّة كالرّسالة في دورانها مدار الوحي، فالنّبي كالرّسول في خاصيّة العصمة، ويتحصَّل بذلك أنّ أصحاب الوحي سواء كانوا رُسُلاً أو أنبياء، معصومون في أخذ الوحي وفي حفظ ما أوحِيَ إليهم وفي تبليغه إلى النّاس قولاً وفعلاً»[1].

---

(١) تفسير الميزان: ٢٠/ ٥٦ ـ ٥٧.

ونضيف إلى قول السّيد الطباطبائي رحمه الله أنّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ إلى قوله ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ يفيد ديمومة الحفظ والرَّصد والإحاطة للرُّسُل والأنبياء سواء أكان ذلك في المجالات الثلاثة التي ذكرها رضوان الله تعالى عليه أم المجال الرّابع وهو العصمة عن الخطأ في الأمور الشّخصيّة؛ لأنّ عمليّة الرَّصد والإحاطة بما يصدر منهم مطلقة فلا مجال لتقييدها بالأمور الثلاثة المذكورة، فدعوى أنّ مورد العصمة هو المجالات الثّلاثة فقط خلاف الإطلاق في الآيتين، هذا مضافاً إلى أنّ كلّ حياتهم الشريفة تبليغ لرسالات الله تعالى، فتقييد رسالة الله بالمجالات الثلاثة دون المجال الرابع يأباه الذّوق الأدبي والعرفي واللفظي،كما أنّ القول بعصمتهم في المجالات الثلاثة فقط يستلزم القول بالجبر الّذي قامت الأدلة القطعيّة على بطلانه، مضافاً إلى أنَّه يستلزم نفي مَلَكَة العصمة التي تقدَّم منّا استحالة القول بتجزئتها وتبعيضها، فتأمّل.

وعليه فالآيتان تقرّران عصمة رسول الله في القول والفعل والتّقرير في كلّ المجالات بدون استثناء.

**الآية الثانية**

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١]

تشير الآية الشّريفة إلى عصمة النبيّ عيسى عليه السلام من خلال كونه مباركاً خلال مسيرة حياته كلّها مذ كان صغيراً وإلى منتهى عمره الشّريف فلا سلطة لإبليس اللعين وآثاره من الخطأ والسّهو والنّسيان والجّهل على ساحة عيسى المقدَّسة بشيء، لأنّ البركة في حياته لا تتلاءم مع ما ذكرنا من آثار إبليس، لأنّ معنى

البركة لغةً هي النفاع للنّاس يعلّمهم دينهم ويدعوهم إلى العمل الصّالح ويربّيهم تربية زاكية ويهديهم إلى وجوه الحكم والمنافع والخيرات، فإن ضلّوا فمن قِبَل أنفسهم لا من قِبَلِه، هذا مضافاً إلى أنّ من معاني البركة الزّيادة والعلوّ فكأنّه قال: «اجعلني في جميع الأحوال غالباً مفلحاً منجحاً لأني ما دمت باقياً في الدّنيا أكون على الغير مستعلياً بالحجّة» فلو فرضنا أنه غير معصوم في تشخيص الموضوعات وإبداء النظر فيها، يستلزم هذا عدم كونه مباركاً، وبالتالي ليس نفّاعاً ولا مستعلياً بالحجّة، بل تكون الحجّة لغيره عليه، وهذا خلف كونه حجّة على الآخرين وما ثبُت للنّبي عيسى عليه السلام فهو ثابت لرسول الله محمّد وآله الميامين بطريق أولى، لكون النبيّ محمّداً أفضل من النبيّ عيسى، وعترته نفسه ﷺ بمقتضى آية المباهلة، ولوحدة المناط من حيث الحجّية والرّسوليّة التي تستلزم مَلَكَة العصمة والطّهارة.

وبعبارة أخرى: لمّا ثبُتَ كون النبيّ عيسى عليه السلام نفّاعاً مباركاً في كلّ تصرّفاته سواء أكانت تبليغيّة أم غيرها ولا يمكن الفصل بين التبليغ وغيره لاستلزامه التّبعيض بالبركة والطّهارة وهو خلاف الإطلاق في الآية المباركة؛ فتأمَّلْ.

* * *

## النقطة الثالثة ـ مناشئ العصمة وأسبابها:

بعد أنْ عرّفنا القارئ الكريم معنى العصمة وأنّها قوّة قدسيّة يتصف بها النبيّ والولي عليهما السلام، لا بدّ هنا أنْ نعرّفه منشأها وحقيقتها والأسباب التي دعت لاتصافهما بها، وهل هو علميٌّ أو عمليٌّ؟

وبتوضيحٍ آخر: هل أنّ المؤدّي إلى عصمة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ـ لا سيّما النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ـ هو علميٌّ محض أو أنّ ثمّة سبباً آخر غير ذلك؟

والجواب:

بما أنّ العصمة في الأنبياء والأوصياء ـ وفي طليعتهم النبيّ وأهل بيته الميامين ـ ذاتيّة بالإتفاق، وفي ذات الوقت ليست جبريّةً، فقد وقع خلافٌ بين المتكلِّمين في أصل هذه المناشئ هل هو التقوى أو العشق أو العِلْم؟ هنا آراء ثلاثة علينا مناقشتها لننتخب الصحيح منها:

الرأي الأوّل ـ ترشح العصمة من التقوى:

يشير هذا الرأي إلى أنّ سبب العصمة هو التقوى العالية التي يتحلّى بها صاحبها بحيث تمنعه من أنْ يقترف ما نهاه الله عزّ وجلّ عنه، أو أنْ يترك ما أمره به، لذا نرى التقيَّ إنساناً يحمل شعوراً عظيماً من الخوف من ربّ العالَمين حيث يصبح هذا الخوف مَلَكَةً تمنعه من الفجور والمعصية ليتحوَّل إنساناً يحبُّ الخير للخير ويكره الشرّ لأنّه شرٌّ.

وبعبارة موجَزة: إنّ العصمة ـ بناءً على هذا الرأي ـ هي عبارة عن الطمع في السّعادة، والخوف من المعصية؛ لأنّ المتقي هو الطّامع في السّعادة الأخروية، وفي نفس الوقت يُعَدُّ خائفاً من معاصيه التي تبعده عن جناب الحقّ المتعال.

يُلاحَظ عليه:

(أوّلاً): إنّ العصمة ـ بحسب هذا الرأي ـ لا تكون على مقتضى طبع صاحبها بل بالتكلّف في بادئ الأمر حتى تصبح مَلَكَةً، فبذا تكون العصمة كسبيّةً لا هبةً إلهيّة لوجود قابليّات عالية في صاحبها، وأمراً عَرَضياً لا ذاتياً، وهذا خلف ما يُجمِع عليه الإماميّة من أنها صفة ذاتيّة تلازم المتحلِّي بها وهو في بطن أمّه، ولا يلزم من ذلك الجبر كما سنبرهن عليه لاحقاً.

(ثانياً): إنّ الرأي المذكور يستلزم أنْ يكون السبب في عبادتهم لله عزّ وجلّ هو الخوف من الله تعالى، فلولا الخوف لانتَفَت العصمة بارتفاع الخوف، وهذا يضاد ما ورد في الكتاب والأخبار من أنّ عبادتهم إنّما كانت لوجه الله عزّ وجلّ وحبّاً له. . .

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩]، والحبّ لله عزّ وجلّ لا يمنع من الخوف الملازم للخشية أي خوف إجلال وليس خوفاً في مقام العمل ويعبَّر عنه بخوف الإذلال، فلا يريدون إلاّ وجه ربّهم، لذا لا يخافون ولا يرجون غيره، وإنما يخافون ويرجون ربّهم، فلا يخافون يوم القيامة من سوء الحساب، إذ لا حساب عليهم حتى يخافوه، وإنما يخشون ربهم إجلالاً وتعظيماً لكونه القادر العظيم الذي لا تخرجه قدرته من العدل أو تدخله في الظُّلْم تشفياً وانتقاماً، فهو مع كمال قدرته الحليم الرؤوف والمحسن الغفور.

مضافاً إلى أنّه لو كان السبب في العصمة هو التقوى لارتفعت العصمة بارتفاع سببها، فلو خلا عصرٌ من المعاصي لخلت نفوسهم من العصمة.

كما أنّ الوجه المذكور يقتصر على الأوامر والزواجر فلا يشمل المستحبَّات والمكروهات بل والمباحات، فتدور التقوى مدار الواجبات والمحرَّمات فقط، مما يقتضي خلو ذواتهم المقدَّسة ممّا ذكرنا من العصمة عن المكروه وعدم التلبُّس في المستحب، وانهماكهم في المباح فيتساوون مع أقلّ أفراد الرّعية، وفيه من المحاذير ما لا يخفى على الفَطِن.

ونقصان نفوسهم مما عدا الواجب والحرام يستوجب أيضاً النقص فيها، الموجب لئلا تتهيّأ بعد للإستكانة والتواضع والخشوع، وفيه أيضاً ما فيه من عدم الكمال واللياقة النفسيّة والرّوحيّة التي يجب أنْ يتحلّى بها في كلّ آنات حياته بحيث لا تتفاوت من حالٍ إلى حال، وفي الزمن السابق عن لاحقه.

وعليه؛ فالوجه المذكور لا يصلح مستنداً للعصمة المطلَقة التي تتعدّى الواجبات والمحرَّمات إلى المستحبّات والمكروهات والمباحات التي يفعلها المعصوم تأسيساً لغيره وإلاّ فإنّ المباح عنده داخلٌ في العناوين التكليفيّة الأخرى: «حسنات الأبرار سيئات عند المقربين».

(ثالثاً): إنّ هذا القول يستلزم أنْ تكون التقوى أصلاً متقدماً على العصمة التي هي مجموعة عقائد راسخة في نفس صاحبها، وهو خلف كونها ـ أي التقوى ـ فرع الإعتقاد.

وبمعنى آخر: إنّ المتّقي هو مَن استفرغ وسعه لمرضاة الله عزّ اسمه، فالتقوى ثمرة الإعتقاد بالله تعالى، فلا يمكن تقدّمها على الإعتقاد، وحيث إنّ العصمة قوّة قدسيّة تمنع صاحبها من الوقوع في الخطأ، فلا يمكن ـ حينئذٍ ـ للتقوى أنْ تكون منشأً وسبباً للعصمة باعتبار أنّ التقوى ثمرة عمليّة لتلك القوة القدسيّة المتقدِّمة على مرحلة العمل المعَبَّر عنها بالتقوى.

الرأي الثاني ـ العصمة فرع دوحة العشق:

يرجع هذا الرأي إلى استشعار عظمة الخالق والتفاني في معرفته وحبّه وعشقه، فيقتضي ذلك سلوك طريق الخير، وصدّاً عن سلوك ما يخالف رضاه عزّ وجلّ.

يرد عليه:

إنّ هذا الراي لا يخرج عمّا تقدّمه بل هو أحد عوامل حصول تلك المرتبة من التقوى المتقدِّمة، بل هي مترشِّحة من العلم بالله تعالى الذي ستتكلّم عنه في الرأي الثالث...

**الرأي الثالث ـ العصمة نتيجة العلم الحضوري بالله تعالى وبعواقب المعاصي:**

إنّ حقيقة العصمة ومنشأها الواقعي هي أنْ يحصل لصاحبها العِلم القطعي بالله عزّ وجلّ والعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات.

والعِلم القطعي يمنع صاحبه عن التلبُّس بالمعصية والخطأ ـ فضلاً عن التفكير فيهما ـ ويمنعه عن الضّلال تماماً كسائر الأخلاق التي تبحث عن العِفّة والشّجاعة والإيثار وغير ذلك من الصّفات الحميدة التي يمتاز بها الأولياء والأنبياء ﷺ حيث يكون لكلٍّ واحدة من تلكم الصّفات صورة علميّة راسخة موجبة لتحقُّق آثارها، مانعةً عن التلبُّس بأضدادها من آثار الجبن والتهوُّر والخمود والشَّرَه والبخل.. إلخ.

وهذا العِلْم ـ كما أشرنا ـ شعورٌ يقينيٌّ غير مغلوبٍ البتّة وليس من قبيل الشّعور والإدراك الظنّيين، ولو كان كذلك لتسرّب إليه التخلُّف، لذا هو من غير سنخ سائر العلوم والإدراكات المتعارفة التي تقبل الإكتساب و التعلُّم.

فالعِلْم اليقيني بعواقب ومثالب الأعمال الخطيرة ـ وهو فرع العِلْم بالله تعالى ـ يخلق في نفس الإنسان وازعاً قويّاً يصدُّه عن ارتكابها، وأمثاله في حياتنا كثيرٌ، كما لو وقف أحدٌ على أنّ في الأسلاك الكهربائيّة طاقةً من شأنها أنْ تقتل مَن يمسُّها فإنّه يحجم من تلقاء نفسه عن مسِّ تلك الأسلاك والإقتراب

منها، تماماً كمَن يعلَم أنّ النّارَ تحرق فلا يضع نفسه فيها لِعِلْمِهِ القطعيّ بأنّها تُحْرِق، وهكذا يُقاس عليه سائر العواقب الخطيرة، فإذا كان العِلْمُ اليقينيُّ القطعيُّ بالعواقبِ الدنيويّةِ لبعض الأفعال يُوجِدُ تلك المصونيّة المانعة من ارتكاب الخطأ في نفس العالِم بها، فكيف بالعِلْم القطعيّ بالعواقب الأخرويّة للمعاصي ورذائل الأفعال، علماً لا يداخله ريبٌ ولا يعتريه شكٌّ بحيث تسقط دونه الحُجُب فيرى صاحبُهُ رأيَ العين تبعات المعاصي ولوازمها وآثارها في النشأة الأخرى وهو العلم الذي عبَّر عنه الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [التكاثر: ٦ ـ ٧].

فمثل هذا العِلْم يجعل من صاحبه إنساناً مثاليّاً لا يخالف قول ربّه عزّ وجلّ قيد أنملة، فهو مضافاً إلى أنّه لا يرتكب معصيةً بتاتاً فإنّه لا يفكّر بها على الإطلاق، فأمثال هذا مصداق قول سيّد الموحِّدِين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام واصفاً المتّقين[1]: [عَظُمَ الخالقُ في أنفسهم فَصَغُرَ ما دونه في أعيُنِهِم، فهُمْ والجنّةُ كَمَن قد رآها فهُمْ فيها منَعَّمُون، وهم والنّارُ كَمَن قد رآها، فهم فيها مُعَذَّبون، قلوبُهُم محزونةٌ، وشرورهم مأمونةٌ..].

فالمتَّقُون يمتلكون قلوباً صافيةً، وعيوناً برزخيّةً يَرَوْنَ بها عوالمَ الملكوت، في حين أنّ مَن سواهم يغطُّ في سُباتِ الغَفْلَةِ والجهل، مسترسلاً في التلذُّذ بالمادّة وحجب الظُّلْمَة.

هذا الرّأي مع ما تقدّمه مقترنان، أحدهما فرعُ الآخر، فالأُنس بالله تعالى وعشقه ثمرة الإعتقاد به، فالعِلْم بعواقب المعاصي لا يكون منشئاً للعصمة على نحو العِلّة التامّة، نعم ـ العِلْم بالعواقب ـ جزء علّة لعدم ارتكابهم لها؛ فالقول

(١) خطبة المتقين في نهج البلاغة: ج٢ ص١٨٥ خ١٨٨.

بأنّ عصمتهم مترشّحة من عِلْمِهِم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات بنحو العلّة التامّة يُتَصَوَّر فيه محذوران هما الآتي:

(المحذور الأوّل): يستلزم نفي العصمة قبل العِلْم بمثالب المعاصي ومناقب الطّاعات، فإنْ كان الحال إفاضة هذا العِلْم قبل نزولهم إلى دار الدّنيا، فلا محالة يكون عِلْمُهُم بالمثالب علّةً لعدم ارتكابهم لها، وإنْ كان بعد نزولهم إلى الدُّنيا يكون عِلْمُهُم فيها متأخِّراً عن وجودهم، ممّا يقتضي القول بجهلهم قبل هبوطهم إلى الأرض.

(وفيه): إنّ عِلْمَهُم سابقٌ على وجودهم في الدّنيا ـ فهو جزء علّة لعدم ارتكابهم للمعاصي وليس علّةً تامّةً ـ لكونه جائزة خاصّة بهم من قِبَل الله تعالى؛ لعِلْمِهِ بهم قبل إيجادهم بعدم تخلُّفهم، وبعدم مخالفتهم لأوامره ونواهيه، وهذا يكفي لاستحقاقهم سلفاً ذاك التفضُّل الخاص، ويقضي بتمايزهم وامتيازهم عن عامّة خَلْقِ الله سبحانه وتعالى.

(المحذور الثاني): يستلزم أنْ يكون المتحلّي بهذا العِلْم ـ أي العِلْم بمثالب المعاصي ـ معصوماً خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب؛ لأنّه لولا العِلْم بعواقب المعصية لَكَان كغيره من بقيّة المكلَّفِين، بل لعلّ المكلّف المتقي أفضل حالاً من النبيّ والوليّ لأنّ المتّقي لم يصل إلى مرحلة الشّهود العلمي بعواقب المعاصي، ومع هذا فقد أطاع الله تعالى، إذاً ما ميزة الثاني عليه؟!!!

(وفيه): إنّ دعوى وجود ملازمة بين العِلْم بالمثالب وبين الخوف من العقاب لا وجه له، وذلك لأنّ العِلْمَ بالمثالب فرع ثمرة الإعتقاد والحبّ لله تعالى، فعدم ارتكاب المعصوم للمثالب لا يدور مدار الخوف من عقاب الله

تعالى(*)، بل للأعمّ من ذلك، لذا قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: [إلهي ما عبدتك خوفاً من نارِكَ ولا طمعاً في جنّتكَ ولكن وجدتُكَ أهلاً للعبادة فعبدتُكَ] وهذا نظير إتيانكَ للصّلاة، فلا ملازمة بين إتيانك لها وبين الخوف من العقاب، بل قد تصلّي لأجل الثواب أو لأجل الحبّ وليس لأجل العقاب، فتأَمّلْ.

**فالصحيح:**

إنّ حقيقة العصمة هي حبّهم وأُنسهم بالله تعالى، وهذا الأُنس والحبّ ثمرة عِلْمِهِم واعتقادهم بالله عزّ وجلّ، فعصمته لهم عليهم السلام؛ لِعِلْمِهِ عزّ وجلّ بأنهم سيعصمون أنفسهم بلطفٍ منه واستعانة بكبريائه المقدَّس بإختيارهم حبّاً له لا خوفاً من عقابه أو رجاءَ ثوابه؛ لأنّ هكذا عبادة هي عبادة العبيد والتجّار، أمّا غير ذلك فهي عبادة الأحرار، فعصمتهم الذاتية بحسب ما تفضّل به الله عزّ وجلّ عليهم بالعلوم الحضوريّة نتيجة العِلْم بذواتهم وسعة قابليّاتهم، فهم عليهم السلام معصومون بمحض إرادتهم واختيارهم، إذ لا إرادة عندهم إلاّ في محبته وعشقه وإطاعته والقرب منه، وهذه الإرادة استلزمت أنْ يهبهم العلم الخاص المسمّى بـ: «العصمة» لكن بتوسُّط إرادتهم واختيارهم، إذ لولا اختيارهم لَمَا أفاض سبحانه عليهم ذاك العِلْم، فيرجع الأمر إلى الإختيار...

وبالجملة: فإنّ عصمتهم الذاتية نتيجة عِلْمِهِ تعالى الأزلي المتعلّق بتصرّفاتهم بعد نزولهم إلى عالَم التكليف، وعليه؛ تكون العصمة قوّة ذاتيّة في التكوين النفسي لصاحبها من دون أنْ تُلغي اختياره وقدرته على الفِعْلِ والتَّرْكِ،

---

(*) إذ كيف يعاقبه ولم يرتكب ذنباً يُعاقَب عليه؟! فالمعصوم لا يخاف عدل الله تعالى منه، فالخوف ليس خوف إجحاف بل خوفهم منه تعالى خوف إجلال، وشتّان ما بينهما...!!

فتكون الإرادة بما تستلزمه من محبّة وشوق هي نفس العِلْم بالله تعالى وليس شيئاً آخر زائداً عليه، فلا يمكن أنْ تغاير الإرادةُ العِلْمَ، ونفس هذه الإرادة أو هذا العِلْم استدعى إفاضة عِلْمٍ آخر على ذواتهم المقدَّسة ألا وهو العِلْم الخاص المتعلِّق بالعصمة.

وعليه؛ يمكننا القول: إنّ ثمّة عِلْمَين لا ينفصلان عن ذات المعصوم عليه السلام: العِلْم بالله تعالى، والعِلْم بمصائر الأمور والأشياء أو ما يُسَمَّى بالعِلْم الخاص «العصمة».

فعصمتهم عليهم السلام ناشئة عن وجودِ عِلْمٍ خاصٍّ لديهم وهو يختلف عن العِلْم الخاص الآخر المسَمَّى بـ «العِلْم بمثالب المعاصي ومناقب الطّاعات»...

فالعِلْم الخاص هو إرادتهم للإنقياد لله تعالى والحبّ له، فلمّا أحبّوه وأخلصوا في حبّهم استحقّوا ذاك العِلْم، والذي من آثاره استحالة صدور المعصية منهم عليهم السلام.

فالعِلْم بالمثالث ومناقب الطاعات ليس له دخالة ولا أثر في تحقُّق الإرادة التامّة لديهم في أصل الإنقياد والتلبُّس في الطاعة في جميع الأمور، بمعنى أنّ طاعتهم لله تعالى ليست متوقِّفة على إطلاعهم على مثالب المعاصي ومناقب الطاعات، بل تتوقف ـ طاعتهم ـ على حبّهم وأنسهم بالله تعالى وليس لشيءٍ آخر سواه.

من هنا عبّر سيّد الخلائق أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هذه الإلتفاتة الطاهرة بقوله الشريف تعليماً لنا[1]:

---

(١) بحار الأنوار: ج٩١ ص٩٨ باب٣٢، ومفاتيح الجنان/ أعمال شهر شعبان المبارَك.

[. . إلهي هب لي قلباً يُدنيه منكَ شوقُهُ، ولساناً يرفعُهُ إليكَ صِدْقُهُ، ونَظَراً يقربه منكَ حقُّهُ.

إلهي إنّ مَن تَعَرَّفَ بِكَ غير مجهولٍ، ومَن لاذ بكَ غير مخذولٍ، ومَن أقبَلْتَ عليه غير مملولٍ.

إلهي إنّ مَن انتهج بكَ لمستنيرٌ، وإنّ مَن اعتصمَ بكَ لمستجيرٌ، وقد لُذْتُ بكَ يا سيّدي فلا تخيّبَنَّ ظَنّي مِن رحمَتِكَ، ولا تحجبني عن رأفتِكَ.

إلهي أقِمْنِي في أهلِ وِلايَتِكَ مَقَامَ مَن رَجَا الزّيَادَةَ مِنْ مَحَبَّتِكَ.

إلهي وألهِمْنِي وَلَهَاً بِذِكْرِكَ إلى ذِكْرِكَ، وهمتي إلى روح نجاح أسمائك ومحل قُدْسِك.

إلهي بكَ عليكَ إلاّ ألحَقْتَنِي بِمَحَلّ أهلِ طاعتِكَ والمثوى الصّالح مِن مرضاتِكَ فإنّي لا أقدر لنفسي دفعاً، ولا أملكُ لها نفعاً.

إلهي أنا عبدُكَ الضعيفُ المُذْنِبُ ومملوكُكَ المُنِيْبُ المغيث، فلا تجعلْني ممّن صَرَفْتَ عنه وجهكَ وَحَجَبَهُ سَهْوُهُ عن عَفْوِكَ.

إلهي هَبْ لي كمالَ الإنقطاعِ إليكَ، وأنِرْ أبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ؛ حتّى تخرق أبصارُ القلوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إلى مَعْدِنِ العَظَمَةِ، وتصير أرواحُنا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ.

إلهي واجعلني ممّن نَادَيْتَهُ فأجابَكَ، ولاحَظْتَهُ فَصُعِقَ لجلاَلِكَ فَنَاجَيْتَهُ سِرّاً، وَعَمِلَ لكَ جَهْراً.

إلهي لم أُسَلِّطْ على حُسْنِ ظَنّي قنوطَ الإياس، ولا انقطعَ رجائي من جميل كَرَمِكَ.

إلهي إنْ كانت الخطايا قد أسقَطَتْنِي لديكَ فاصْفَحْ عَنِّي بِحُسْنِ تَوَكُّلِي عَلَيْكَ.

إلهي إنْ حَطَّتْنِي الذُّنُوب من مكارمِ لُطْفِكَ فقد نَبَّهَنِي اليقينُ إلى كَرَمِ عَطْفِكَ.

إلهي إنْ أَنَامَتْنِي الغَفْلَةُ عن الإستعدادِ لِلِقَائِكَ فَقَد نَبَّهَتْنِي المعرفةُ بِكَرَمِ آلائِكَ.

إلهي إنْ دعاني إلى النّار عظيمُ عِقَابِكَ فقد دعاني إلى الجَنَّةِ جَزِيْلُ ثَوَابِكَ.

إلهي فلك أسألُ، وإليكَ أبتَهِلُ وأَرْغَبُ، وأسألُكَ أنْ تُصَلّي على محمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ، وأنْ تَجْعَلَنِي ممّن يُدِيْمُ ذِكْرَكَ، ولا يَنْقُضُ عَهْدَكَ، ولا يَغْفَلُ عن شُكْرِكَ، ولا يَسْتَخِفُّ بِأَمْرِكَ.

إلهي وألحقني بِنُوْرِ عِزِّكَ الأَبْهَج فأكونُ لَكَ عارِفاً، وعن سِوَاكَ مُنْحَرِفاً وَمِنْكَ خَائِفاً مُتَرَقِّباً يا ذا الجلال والإكرام، وصلى الله على محمَّدٍ رَسُولِهِ وآلِهِ الطّاهِرِين وَسَلَّمَ تسليماً كثيراً].

فلمّا كان أمير المؤمنين عليه السلام في مقام تعليم الأمّة كيف تناجي ربّها، وكيف تطلب من خالقها أنْ يرزقها من معاني الجلال والكمال، فلابدّ أنْ يكون عليه السلام متَّصِفاً بكلّ ذلك، فتدلّ هذه المقاطع الشريفة على انقطاع أئمتنا عليهم السلام إلى الله تعالى دون أنْ يكون في انقطاعهم شيءٌ سوى وجه الله عزّ وجلّ، ممّا يعني أنهم كانوا ولا يزالون خالصين إليه بالعبادة والتقرُّب..

فشوقُهُم عليهم السلام إلى الله تعالى هو السّبب في العصمة، بل وهو السبب في إفاضة العِلْم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، فالإنقطاع إليه عزّ وجلّ يُدلف

على قلب العبد المعارف والعلوم كما يشهد له الآيات نظير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وفي الأخبار ما يؤكّد ذلك نظير ما ورد بما معناه: مَن أخلص لله أخلص الله تعالى له، ومَن تقرَّبَ إليه شبراً تقرَّبَ إليه ذراعاً، ومَن أخلص لله أربعين صباحاً تفجَّرَت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، إلى آخر ما ورد في ذلك، فلْتُرَاجعْ.

فإذا ما كانت التقوى النسبيّة بهذا المستوى من الأهميّة بحيث تؤدّي إلى اكتساب رضا الله تعالى على التقي فيدلف عليه من المعارف لتكونَ سبباً لنيل إكرامه وتلطّفه، فكيف بِمَنْ أخلص لله تعالى بروحه ونفسه وفكره وبدنه وكلّ توجّهاته، فهل تكون القدرة الإلهيّة ضنينة[1] بالإفاضة عليه وإكرامه؟!! وحاشا لله أنْ يمنع رفده عن آله الميامين وشيعتهم من الأنبياء والمرسَلين والملائكة أجمعين؟!!

بما تقدَّمَ يتّضح أنّ سبب عشقهم ﷺ لله تعالى هو عِلْمُهم بالله عزّ وجلّ، وهذا العِلْم يستتبع العمل لا محالة.

وعليه؛ فإنّ للمعصوم بُعْدَيْن مهمَّيْن:

الأوّل: البُعد العلمي أو مقام اليقين في العِلْم.

الثاني: البُعد العملي أو مقام الخلوص في العمل.

وهذان البُعدان مترابطان لا انفكاك بينهما في شخصيّة المعصوم ﷺ وهما

---

(١) الضنين: البخيل.

جوهر العصمة، وبهما يتميّز المعصوم عن غيره من حيث إِنّهم يعلمون من ربّهم ما لا يعلمه غيرهم لذا قال الله تعالى مادحاً شأنهم: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠] فإنّ المحبّة الإلهيّة تبعثهم على أن لا يريدوا إلاّ ما يريده الله عزّ وجلّ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] وعلمهم غير العلم الموجود عند عامّة البشر، فعلومهم عليهم السلام لا يتسرّب إليها التخلّف بخلاف علوم غيرهم في أكثر الأحيان.

قال العلاّمة الطّباطبائي عليه الرّحمة: «إنّ القوّة المسمّاة بقوّة العصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتة، ولو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشّعور والإدراك لتسرَّبَ إليها التّخلف، ولَتَخبَّط الإنسان على أثره أحياناً، فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم والإدراكات المتعارفة التي تقبل الإكتساب والتّعلم، وقد أشار الله في خطابه الذي خصّ به نبيّه ﷺ بقوله»: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء/ ١١٣] وهو خطاب خاصّ لا نفقهه حقيقةَ الفقه إذ لا ذوق لنا في هذا النّحو من العِلْم والشّعور.

والعلم الّذي حباه المولى عزّ وجلّ لخاصّة أوليائه وإن كان يخالف سائر العلوم في أنّ أثره العِلْمي وهو صرف الإنسان عمّا لاينبغي قطعي غير متخلّف دائماً بخلاف سائر العلوم فإنّ الصّرف فيها أكثريٌّ غير دائم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل/ ١٤] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية/ ٢٣] وقال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية/ ١٧] أمّا ما هو عند الأولياء فلا يتخلّف، فما نصفه نحن غير ما يصفه هؤلاء المخلصون ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فكلا العلمين متعلقهما واحدٌ إلاّ أنهما يختلفان عن بعضهما بشدّة اليقين

وضعفه، والقول بملكة العصمة عند الأولياء لا يغيّر الطبيعة الإنسانيّة المختارة في أفعالها الإراديّة ولا يخرجها إلى ساحة الإجبار والإضطرار، كيف؟ «والعلم من مبادئ الإختيار، ومجرّد قوّة العلم لا يوجب إلاّ قوّة الإرادة كطالب السّلامة إذا أيقن بكون مانعٍ ما سمّاً قاتلاً من حينه فإنّه يمتنع باختياره من شربه قطعاً وإنّما يضطرّ الفاعل ويجبر إذا أخرج من يجبره أحد طرفي الفعل والترك من الإمكان إلى الإمتناع، ويشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام/ ٨٨] أي أنهم في إمكانهم أن يشركوا بالله وإن كان الإجتباء والهدى الإلهي مانعاً من ذلك، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة/ ٦٧].

فالإنسان المعصوم إنّما ينصرف عن المعصية بنفسه وعن اختياره وإرادته ونسبة الصّرف إلى عصمته تعالى كنسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية إلى توفيقه تعالى، ولا ينافي ذلك ما يشير إليه كلامه تعالى وتصرّح به الأخبار أنّ ذلك من الأنبياء والأئمّة بتسديد من روح القدس؛ فإنّ النّسبة إلى روح القدس كنسبة تسديد المؤمن إلى روح الإيمان ونسبة الضّلال والغواية إلى الشّيطان وتسويله، فإنّ شيئاً من ذلك لا يخرج الفعل عن كونه فعلاً صادراً عن فاعله مستنداً إلى اختياره وإرادته»[1].

فإذا كانت العصمة من سنخ الإدراكات والعلوم اليقينيّة وهي بدورها تختلف عن بقيّة المَلَكات والإدراكات الموجودة عند البشر فلا يصحّ حينئذٍ نسبة الخطأ

---

(١) تفسير الميزان: ١١/ ١٦٣، بتصرُّف ببعض ألفاظه.

إلى صاحبها في وقت من الأوقات (أي زمن غير التبليغ) وذلك لعدم وجود دليل على الإختصاص بوقت التّبليغ دون غيره، فالله الذي منح العصمة لبعض الأفراد في وقت معيّن لوجود أرضيّة صالحة في نفس صاحبها يقتضي استمرار هذا المنح في وقت آخر أيضاً، وما ظنّه بعض المتأثرين بالفكر العامّي الأشعري: «من لزوم العصمة في التبليغ دون غيره» ينمّ عن الخلط في فهمه لشخصيّة المعصوم ﷺ حيث ـ وتبعاً لسادة الفكر العامي ـ ينظرون دائماً إلى جنبَة التّبليغ ظنّاً منهم بأنّ الإنسان لا يحتاج في حياته إلى عصمة النبيّ أو الإمام إلاّ في نطاق تبليغ الشّريعة وفي دائرة أداء الإمام لدوره على هذا الصّعيد، فهذا هو القدر الذي نحتاج إليه من عصمة الإمام وليس أكثر من ذلك، مع أنّ الواقع يختلف تماما عمّا ألصقه هؤلاء بالحجج الطّاهرين من حيث إنّ النظر إلى الإمام يجب أن ينصبّ إليه في نفسه بالغضّ عن أن يكون مبلّغاً أو قدوة، فالّذين أثبتوا العصمة للنّبي والإمام في مجال التّبليغ دون غيره اقتصروا على الجّانب الإثباتي لهما، مع أنّ المطلوب هو النّظر إلى الجّانب الثّبوتي أيضاً أعني مجال القدوة والإطاعة المطلقة في كلّ الأحوال والأزمنة والظّروف سواء قبل التّبليغ وحال التبليغ وبعده، وما افترضوه في مقام حاجة النّاس إلى الإمام بعد التّبليغ كما هو حال التّبليغ دون ما قبله لا يقوم على أساس علمي فلسفي بل هو يضادّ مبدأ العصمة القائم على الملَكَة التي لا يمكن أن تبعّض في حال من الأحوال، كما أنّه يناقض المفهوم اليقيني العلمي الّذي تحلّى به المعصوم ﷺ فلا يصحّ الإعتقاد بتجزئة تلك المعارف اليقينيّة إلى مرحلتين: ما قبل التّبليغ وما بعده، حيث يعني ذلك سلب الملَكَة عنه أو المعرفة اليقينيّة قبل التّبليغ ثمّ تُعطى له حال التّبليغ وبعده.

عود على بدء:

بعد أن عرفت ـ أخي القارئ ـ أنّ حقيقة العصمة تقوم على أساس البعد العلمي الإعتقادي يبطل ما قيل من أنّ حقيقتها ترجع إلى البعد العملي وهي الدّرجة القصوى من التّقوى بالتّقرير الّذي قدّمناه فيما سبق.

فالعامل الّذي أوجب صيانة المعصوم عن الخطأ والوقوع في حبال المعصية هو علمه بعواقب المعاصي، وهو علم يقيني يخلق في نفس الإنسان وازعاً قويّاً يصدُّه عن ارتكاب كلّ ما لا يُرضي الرّب سبحانه.

وعلمهم بعواقب المعاصي ومناقب الطاعات لا يستلزم كون عباداتهم وسلوكهم بداعي الخوف من العقاب والطّمع في الثّواب، فها هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يصرّح عن مضمون سرّه في عبادته لله تعالى: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» فالدّاعي عند هؤلاء العظماء هو الحبّ والأنس بالله عزّ وجلّ، والحبّ سببٌ في إفاضة المعارف والعلوم على قلوبهم، وهي بدورها سببٌ آخر لإبتعادهم عن كلّ ما يخالف رضاه والقرب منه.

ولمّا كانت العصمة هبة إلهيّة مفاضة من علاّم الغيوب إلى أوليائه الميامين نتيجة وجود أرضيّات صالحة في نفوسهم المقدّسة، فلا بدّ حينئذٍ من أنْ تكون سبباً لإبعادهم عمّا لا يرضاه عزّ وجلّ، وهذه الأرضيّات والقابليّات، هي بمثابة العلّة بالقياس إلى معلولها، فإذا وجِدَت العلّة، وأرادت إيجاد المعلول، فلا بدّ أنْ يوجد ولا يتخلّف البتة.

فالأنس بالله تعالى عامل قويّ لإفاضة المعارف على قلوبهم الشّريفة، وهناك عوامل أخرى لتكوين أو إيجاد تلك القابليّات هي:

الأوّل: الفطرة السليمة التي وُلِدَ عليها المعصوم عليه السلام ومحافظته عليها، فالله سبحانه خلق البشر على الفطرة لكنّهم لوّثوها بالحجب الظّلمانيّة من هنا ورد في الحديث بما معناه: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يأتي أبواه فيهوّدانه أو ينصّرانه» حيث إنّ للأهل وللبيئة تأثيراً عظيماً على سلوك الفرد سلباً أو إيجاباً.

الثّاني: الوراثة حيث تلعب دوراً غير إختياري في تكوين بعض الصّفات في شخصيّة المولود، فالصفات الصّالحة أو الطّالحة تنتقل من طريق الوراثة إلى الأولاد، فإنّنا نكتسب بعض الصّفات من أبائنا وأجدادنا كالشّجاعة أو الجبن والكرم أو البخل، إلى غير ذلك من الأوصاف الرّوحيّة وحتّى الجسميّة كما هو ملحوظ.

فالأنبياء والمرسلون ومنهم الأولياء عليهم السلام تولّدوا في بيوت صالحة عريقة بالفضائل والكمالات، فانتقلت هذه الكمالات والفضائل الرّوحيّة من نسل إلى نسل إلى أن تجسّدت في نفس النبيّ والوليّ عليهما السلام ممّا استلزم وجود قابليّة عنده يُفاض عليها الكثير من المواهب الإلهيّة.

الثالث: التّربية، فإن الكمالات والفضائل الموجودة في المحيط العائلي تهيّئ الوليد لاكتساب القابليّة الحسنة لتقبُّل تلك الفضائل ولكنّ التّربية ليست علّة تامّة في تكوين القابليّة عند الأولياء عليهم السلام نعم هي جزء علّة في بعض الأحيان، وإلاّ لو كانت علّة بنفسها لذلك لما كان موسى عليه السلام بذاك المستوى من الإيمان العظيم مع أنّه تربّى في أحضان فرعون، وكذا إبراهيم الخليل عليه السلام عاش يتيماً مع عمّه الكافر آزر، وهكذا يوسف عليه السلام حيث ترعرع في قصر عزيز مصر وفرعونها مع حيطة زليخا له وانغمارها في حبّه ومراودتها له عن نفسه ورفضه للخيانة والرذيلة. كلّ هذه الشّواهد دليلاً صادقاً على عدم دخالة التّربية والبيئة أيضاً ـ

على نحو العلّة التامّة ـ في تكوين شخصيّة النبيّ أو الوليّ عليه السلام. مضافاً إلى عدم دخالتهما بشكل قطعي في تكوين مسار الفرد العاقل الّذي ينظر إلى الأشياء بخواتيمها ويتدبّر الأمور بدقائقها كآسية بنت مزاحم التي أحاطها فرعون بالنّعيم والجاه فلم تتأثّر بدعوته الإلحاديّة ولا أنها تنازلت عن عقيدتها رغم ما لاقت من الحتوف والظّلم بسبب رفضها الإنصياع لكفر زوجها فرعون، وهكذا يحدّثنا التّاريخ عن الصدّيقة خديجة زوج النبيّ وأمّ المؤمنين عليها السلام حيث عاشت وسط بيئة منحرفة تعبد الحجر والمدر، ولم تتأثّر بتلك الترهات بل كانت على طريق الهدى ومن أتباع الحنيفيّة الإبراهيميّة، والظاهر كونها معصومة بالعصمة الذاتية دون الإكتسابية.

فالبيئة والتربية ليسا عاملين رئيسيّين في تكوين القابليّة ـ حسبما توهّمه بعض الناس ـ بل هما علّة في بعض الأحيان.

وهناك عامل آخر لاكتساب الأرضيّات الصّالحة تدخل في إطار حريّة واختيار الإنسان وهو: السّعي نحو الطّاعة والإبتعاد عن المعصية، فها هي حياة الأولياء والأنبياء عليهم السلام مشحونة بالمجاهدات الفرديّة والإجتماعيّة من لدنّ ولادتهم إلى زمان بعثتهم حيث أسلمت نفوسهم لعقولهم الطّاهرة التي لم تفكّر إلاّ بالله سبحانه وتعالى ولم تلتفت لسواه، فها هو الصّدّيق يوسف عليه السلام جاهد نفسه وألجمها بأشدّ الوجوه عندما راودته زليخا في بيتها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ فأجابها بالرّد والنّفي ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وهناك شواهد تاريخيّة كثيرة على جهاد الأنبياء وقيامهم بواجبهم إبّان شبابهم إلى زمن بعثتهم.

فجميع هذه العوامل، التي يدخل بعضها في إطار الإختيار، وبعضها الآخر خارج عن إطاره، أوجدت قابليّات وأرضيّات صالحة لإفاضة العصمة عليهم وانتخابهم لذلك الفيض العظيم، فعندئذٍ تصبح العصمة موضع اعتزاز للمتحلّي بها ومفخرة عظيمة يستحقّ صاحبها التّكريم والتّبجيل.

وبتعبير أدقّ: إنّ الله عزّ وجلّ وقف على ضمائرهم ونيّاتهم ومستقبل أمرهم ومصير حالهم وعلم أنهم ذوات مقدّسة لو أُفيضت إليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطّاعة وترك المعصية بحرّية واختيار، وهذا العلم كافٍ لتصحيح إفاضة تلك الموهبة عليهم بخلاف من يعلم من حاله خلاف ذلك.

قال العلاّمة الطّباطبائي رحمه الله: «إنّ الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة، واعتدال الخلقة، فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقّادة وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة، وقلوب سليمة، فنالوا بمجرّد صفاء الفطرة وسلامة النّفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالإجتهاد والكسب بل أعلى وأرقى لطهارة داخلهم من التلوّث بألواث الموانع والمزاحمات، والظّاهر أنّ هؤلاء هم المخلصون (بالفتح) لله تعالى في مصطلح القرآن وهم الأنبياء والأئمّة، وقد نصّ القرآن الكريم بأنّ الله تعالى اجتباهم أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته قال تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام/ ٨٧] وقال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحجّ/ ٧٨]»[١].

فقد أشار رحمه الله إلى القابليّات الخارجة عن اختيار الأنبياء، غير أنّ هناك أموراً واقعة تحت اختيارهم كما عرفت، فالكلّ يعطي الصّلاحيّة لإفاضة الموهبة الإلهيّة على تلك النّفوس المقدّسة.

---

(١) تفسير الميزان: ١١/ ١١٧.

وبهذا يندفع ما قيل بأنّ العصمة أمر حاصل للشّخص بالإكتساب، مضافاً إلى أنّه لو كانت كذلك ـ أي بالإكتساب ـ لترتّب محذور عدم العصمة على الأولياء والأنبياء قبل التكليف وهو منفيّ بالأدلّة القطعيّة، منها دليل التنفير، وعدم الإلزام على العصمة بعد التكليف، إذ لو كانوا قبل التكليف غير معصومين، ثمّ عصمهم بعد التكليف، لاستلزم الجبر في السّلوك وهو باطل جملةً وتفصيلاً.

من هنا قال المفيد رحمه الله تعالى: العصمة تفضّل من الله تعالى على من علِمَ أنّه يتمسّك بعصمته[1]. فعبارته تشعر بأنّ إفاضة العصمة من الله سبحانه أمر خارج عن إطار الإختيار، غير أنّ اعمالها والإستفادة منها يرجع إلى العبد وداخل في إطار إرادته، فله أن يتمسّك بها فيبقى معصوماً عن المعصية، كما له أن لا يتمسّك بها.

ومشهور المتكلّمين عبّروا عن العصمة باللطف يفعله بالعبد فيمتنع عن فعل القبيح مع قدرته عليه.

لذا قال السيد المرتضى رحمه الله:

«كلّ من علم الله تعالى أنّ له لطفاً يختار عنده الإمتناع من القبائح فإنّه لا بدّ أن يفعل به وإنْ لم يكن نبيّاً ولا إماماً، لأنّ التكليف يقتضي فعل اللطف على ما دلّ عليه في مواضع كثيرة غير أنه لا يمتنع أن يكون في المكلّفين من ليس في المعلوم أنّ شيئاً متى فعل، اختار عنده الإمتناع من القبيح فيكون هذا المكلَّف لا عصمة له في المعلوم ولا لطف، وتكليف من لا لطف له بحسنٍ ولا بقبحٍ

---

(١) تصحيح الإعتقادات: ١٢٨.

وإنّما القبيح منع اللطف في مَنْ له لطف مع ثبوت التكليف[1]».

وزبدة المخض: إنّ الملاك في إفاضة هذا الفيض هو علمه سبحانه بحال الأفراد في المستقبل فكلّ من علم عزّ وجلّ أنّه لو أُفيض عليه العصمة لاختار عنده الإمتناع من القبائح، فعندئذٍ تُفاض عليه العصمة، وإنْ لم يكن نبيّاً ولا إماماً، وأمّا من علم أنّه متى أُفيضت إليه تلك الموهبة لما اختار عندها الإمتناع من القبيح لما أُفيضت عليه هذه العصمة لأنه لا يستحقّها.

وعليه؛ فإنّ العصمة موهبة إلهيّة تُفاض على من يُعلَم من حاله أنّه ينتفع منها في ترك القبائح عن حريّة واختيار.

وبهذا نصحّح الشّبهة الدّائرة التي أثارها بعض النّواصب حول عدم عصمة الصدّيقة الطّاهرة المقدَّسة فاطمة الزّهراء سيّدة النّساء بل وعدم عصمة أئمّة آل البيت عليهم السلام بدعوى أنهم ليسوا أنبياء.

**والحاصل:**

إنّ العِلْمَ بالله تعالى وعشقه يستلزم انقيادهم إليه وتلبسهم بالطاعة، ولا دخالة للعِلْم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات في تحقُّق إرادتهم لأصل الإنقياد والتلبُّس بالطّاعة في جميع الأمور على نحو العلّة التامّة، بمعنى أنّ عِلْمَهُم بالمثالب جزء علّة في تحقُّق الطّاعة وليس علّةً تامّةً في ذلك.

(إنْ قيل): فما فائدة هبتهم ـ إذاً ـ لهذا العِلْم الخاص ما دام لا يُعتَبَرُ عِلَّةً تامّةً في أصل الإنقياد؟!!

(قلنا): الفائدة في ذلك متحقِّقة من ناحيتين:

---

(١) رسائل الشريف: ٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

الناحية الأولى: إكرامهم بذلك مع زيادة التلطُّف بهم، تأكيداً لمحبّته عزّ وجلّ لهم.

الناحية الثانية: تصديق الآخرين لهم من جهة استحالة صدور المعصية منهم، إذ لو احتُمِلَ بحقّهم عليهم السلام صدور الخطأ والمعاصي، لارتفع وثوق الناس بهم، فتنتفي فائدة بعثتهم عليهم السلام.

فعصمتهم عليهم السلام بمحض إرادتهم واختيارهم، لانحصارها في إطاعته ونيل رضاه، وحيث إنّهم رسل الله تعالى لإبلاغ أحكامه ودساتيره للخلق، ولا يكفي كونهم مريدين لله تعالى ومختارين لطاعته في مقام إقامة الحجة بهم على الخلق، فاحتاج الأمر إلى أنْ يتفضّل عزّ وجلّ عليهم بعلمٍ خاص، يكون من آثاره أنْ يحصل من الناس التصديق باستحالة صدور المعصية منهم واحتمال كذبهم.

وعليه؛ فيكون العلم الخاص متأخِّراً عن اختيارهم وإرادتهم، ولا يكون سبباً رئيسياً أو علّةً تامّةً في تحقُّق إطاعتهم لله عزّ وجلّ، لذا لا تكون عصمتهم إلاّ عصمة اختياريّة وبمحض إرادتهم.

إشكال ودفع:

(قد يُقال): إنّ إعطاءهم ذاك العلم الخاص على خلاف الإستحقاق، إذ لم يأتوا بما يستحقّون معه ذلك العطاء قبل نزولهم إلى الأرض...!!

(قلنا):

أوّلاً: ظاهر بعض الآيات والأخبار أنّ الله تعالى أخذ على عامّة الخلق الميثاق، فكانوا عليهم السلام أوّل مَن لبّى، مع علم الله تعالى بصدق تلبيتهم، مخلصين لله عزّ وجلّ في القول والفعل.

ثانياً: إنّ إعطاءهم ذلك عن غير استحقاق يستلزم بالضرورة نسبة العبث بأفعال المولى عزّ اسمه وجلّ ثناؤه، كما يستلزم الترجيح بلا مرجِّحٍ وهو قبيحٌ يتنَزَّه عنه العقلاء، فكيف بخالقهم جلّ كبرياؤه.

فلا بدّ ـ إذاً ـ من الجزم والقطع بأنّه غنيٌّ حكيم لا يُعطي إلاّ عن استحقاق أو تفضُّل ضمن شروط التفضُّل والرّحمة.

ثالثاً: إنّ نفس حبّهم وإرادتهم واختيارهم لإرادته ونيل رضاه عزّ وجلّ هو بمنزلة الإتيان فعلاً، وقد علم الله عزّ وجلّ منهم الوفاء، فلا قصور أو تقصير في إرادتهم وعزيمتهم، فلا مجال ـ إذاً ـ للقول بأنّه لماذا أعطاهم ذلك العلم؛ لأنّ إعطاءه إنّما كان بعدلٍ واستحقاقٍ لإرادتهم العصمة.

رابعاً: علمه عزّ وجلّ كاشفٌ عن أفعال الخلق وليس علّة تامّةً لإيجادها كما هو مقرَّر في البحوث الكلامية، وعليه: فإنّ الله عزّ اسمه علم انقيادهم وطاعتهم له من قبل إيجادهم أو نزولهم إلى الأرض، فما المانع ـ إذاً ـ أنْ يفيض عليهم شيئاً من جوائزه وعطاياه سلفاً؛ تقديراً لنواياهم الطيبة؟!

**شواهد قرآنية على المطلب:**

ثمّة آيات شريفة تدلّ بوضوح على دخالة علم الأولياء والأنبياء عليهم السلام بالله تعالى، وهذا العلم عاصمٌ لهم من الوقوع في حبائل المعاصي وغرور النفس ووقوعها في الإشتباه والخطأ والسهو والنسيان وما شابه ذلك.

فعِلْمُ هؤلاء ليس اكتسابيّاً قابلاً للإنفكاك عن مقام ذواتهم، بل علمهم حضوريٌّ لكونه معلولاً لحالة اليقين عندهم؛ لأنّه علمٌ يلامس الواقع الخارجي لا أنّه يتصوّره فحسب، ففرقٌ بين تصوُّر الألم وبين المريض الذي يحسّ بالألم ويعايش مرارته، فقد يتصوّر الطبيبُ الألَمَ الذي يمرُّ به المريض ولكنه لا

يستطيع أنْ يعيش حالة الألم. فالتصوُّر للألم يطلَق عليه «العِلْمُ الحُصُوليُّ» والشعور بالألم هو ما يُطلَق عليه «العلم الحُضُورِيُّ»[1].

فالمعصوم يملك علماً، وهو سنخ علم يختلف عن العلوم المتداولة والمعارف الكسبيّة، وهو علم يبلغ بصاحبه درجة اليقين، حيث لن يكون هناك انفكاك بين هذا العلم وبين العمل، وهذه هي العصمة، فعِلْم المعصوم يحصل من رؤية الملكوت ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فالله عزّ وجلّ أرى إبراهيم الخليل الملكوت، والرؤية مشعرة بوصف اليقين، فلا يكفي من الإمام إبراهيم الخليل عليه السلام أنْ يكون على مستوى العلم الحصولي، ولا على مستوى التقوى، بل لا بدّ أنْ يكون من حيث العِلْم على مستوى علم اليقين ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

فالعصمة تقوم على أساس البُعد العلمي الإعتقادي لا البُعد العملي، وذلك لأنّ الأعمال الصّادرة من الإنسان حصيلة المَلَكَات التي يكتسبها إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشرّ، فالمَلَكَة منشأ للعمل والآثار الخارجيّة... فالمَلَكات النفسانيّة عند البشر يسبقها مجموعة من الإعتقادات لوجود ترابطٍ وترتُّبٍ منطقيٍّ بين العمل الذي تسبقه مَلَكة، والمَلَكَةالتي يسبقها نحوٌ من الإعتقاد والإيمان وهو فرع العِلْم.

فإذا ما أُريد اكتشاف التسلسل المنطقي للوصول إلى العمل الخارجي نجد أنّ السلسلة تبدأ من العِلْم، فالعلم يكون منشأً لتحقُّق إيمانٍ ما أو عقيدةٍ ما،

(١) للتفصيل أكثر راجع كتابنا: شبهة إلقاء المعصوم نفسه في التهلكة ودحضها: ١/ ٢٩٢.

وهذه العقيدة تكون منشأً أيضاً لوجود مجموعة من الأخلاق والمَلَكَات التي تكون بدورها منشأً لتحقُّق الأفعال الخارجيّة.

وبتوضيحٍ آخر: «إنّ المَلَكَات النفسانية قد يكون مصدرها علوم واعتقادات صحيحة، وقد يكون مصدرها اعتقادات صحيحة، وقد يكون مصدرها اعتقادات غير صحيحة وليست مطابقة للواقع، كما قد تترتب الأفعال على هذه الإعتقادات والعلوم وقد لا تترتب».

من هنا صحّ ما قيل من أنّ البعد العلمي قد ينفكّ عن البعد العملي في الملكات، فقد تجد عالماً ليس بعامل، وقد تجد عابداً أو عاملاً ليس بعالم، هذا كلّه بشأن الملكات النّفسانيّة الموجودة في البشر، أمّا ما يوجد عند النبيّ أو الوليّ من العصمة فلا يمكن النّظر إليها من ناحية البعد العملي، بل لا يصحّ تفسيرها إلاّ على أساس البعد العلمي الإعتقادي، ومن ناحية أخرى يتوضّح أنّ هذا البعد العلمي اليقيني (أو الحضوري كيفما شئت فعبّر) هو سنخ علم لا ينفك عنه الأثر والعمل المترتّب عليه، وبمعنى آخر: إنّ العلم الموجود عند المعصوم سنخ علم تكون قوّته بنحو لا ينفك عنه العمل المترتّب عليه، ويكفي كشاهدٍ على ما ذكرنا ما أورده القرآن الكريم حسبما جاء في قصّة يوسفعليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف/ ٣٣] ففيها دلالة واضحة على أنّ منشأ الصّبْوة والميل إلى الحرام الّذي دعا النبيّ يوسف ربّه أن يصرفه عنه بدفع كيد النّسوة عنه إنّما هو الجّهل وليس الظلم، ويظهر ذلك من خلال ملاحظة مفهوم الصّبوة، حيث إنّ منبثقها لا يكمن بالبُعْد العملي بل بالبُعْد العلمي وهو عدم العلم أو وجوده بنحو ضعيف لا يفي بعصمة الإنسان وردعه عن المعصية.

فقد أرجع يوسف عليه السلام في خطابه لربّه العصمة إلى العلم والمعرفة لا إلى الملكة والأعمال، فالعصمة نحو علم لا ينفك عن الأثر المترتّب عليه، وإلى هذه القاعدة التي تربط بين العلم والعمل أشار أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في قوله: «العلم يهتف بالعمل فإنّ أجابه وإلاّ ارتحل»، وفي نفس الوقت أرجع يوسف عليه السلام معصية زليخا إمرأة العزيز إلى الظّلم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف/ ٢٣] وبخطابه أيضاً للملك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف/ ٥٢] فقد أرجع المعصية إليهما لأنهما ـ أي زليخا والعزيز ـ لا يفهمان أن منشأ هذه المعصية «الجّهل» أي عدم معرفة الله تعالى إذ لو عرف الجّاهلُ مقامَ ربّه عزّ وجلّ لما أقدم على المعصية التي هي أثر مترتّب على الجّهل.

إلى هذه الدّقيقة الشّريفة أشار العلاّمة الطباطبائي في تعقيبه على الآية بقوله: «إنّ القوّة القدسيّة [العصمة] من قبيل العلوم والمعارف، ولذا قال عليه السلام: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ولم يقل: وأكن من الظّالمين، كما قال لإمرأة العزيز: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أو أكن من الخائنين، كما قال للملك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ وقد فرّق في نحو الخطاب بينهما وبين ربّه فخاطبهما بظاهر الأمر رعاية لمنزلتهما في الفهم، فقال: إنّه ظلم والظّالم لا يفلح، وإنة خيانة والله لايهدي كيد الخائنين، وخاطب ربّه بحقيقة الأمر وهو أنّ الصبوة اليهنّ من الجّهل»[1]، وفي مقام آخر يقول رحمه الله: «ومن الدليل على أنّ العصمة من قبيل العلم قوله تعالى خطاباً لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ

---

(١) تفسير الميزان: ١١/ ١٥٤.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[1].

فالقوّة القدسيّة (أي العصمة) الموجودة عند المعصوم عليه السلام هي من قبيل العلوم والمعارف لا من قبيل العمل وإلاّ فالعمل مترتّب على ذلك العلم. وهكذا لا يتميّز المعصوم عن غيره أوّلاً وبالدّرجة الأساس بالبعد العملي فقط حيث لا تصدر منه المعصية والشّرك ويكون سلوكه العملي منسجماً مع التشريع بل تجسيداً للشّريعة، وإنما تكمن العصمة أساساً وقبل ذلك بالعلم الّذي يوجد عند الإمام عليه السلام.

وثمّة آيات أخرى تشير إلى ما ذكرنا منها:

## الآية الأولى

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]

تدلّ الآية الشريفة على حرمة صدور ما لا يجوز صدوره من الأنبياء، ومنه الإستهزاء ابتداءً[2]؛ لأنّ الإستهزاء لا يكون إلاّ بسبب الجهل، ومنصب النبوّة لا يحتمل الإقدام على الإستهزاء فهو لا يصدر إلاّ عن جاهلٍ، فإنّ مَن استهزأ بغيره لا يخلو إمّا أنْ يُستهزَأ بخلقته أو بفعلٍ من أفعاله، فأمّا الخلقة فلا معنى للإستهزاء بها لأنّ المستهزئ لم يخلق نفسه بل الله تعالى هو خالقه، فالإستهزاء به يعني الإستهزاء بالله تعالى.

---

(١) تفسير الميزان: ٥/ ٧٩.

(٢) الإستهزاء إذا كان ابتداءً قبيحٌ، لكنّه جائزٌ إذا كان مجازاةً وبعنوان المقابلة خاصة إذا ترتبت فائدة عقلائيّة كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجّة.

وأمّا الفعل: فإذا كان قبيحاً فالواجب أنْ ينبّه فاعله على قبحه لينزجر عنه. وعليه فالإستهزاء كبيرة لا يقع إلاّ من جاهلٍ به أو محتاجٍ إليه، لا يمكن للنبي موسى عليه السلام أنْ يكون من المستهزئين لمكان العلم عنده، فما يمنع من وقوع الجهل أو ما لا يصحّ منه هو وجود العلم، فالعلم له دخالة كبرى في استحالة وقوع ما لا يصحّ منه أو ما لا يجوز.

فالآية تفيد وجود ترابط بين وقوع ما لا يجوز وبين الجهل، فيستلزم أنْ لا يكون ثمّة أية مناسبة بين وقوع ما لا يصحّ وبين العِلْم؛ لأنّ ما لا يصحّ هو جهلٌ، وهو ضدّ العِلْم.

وعليه؛ فحيث نفى النبيّ موسى عن نفسه الجهل، ثبت ضدُّه له وهو العِلْم.

وبتعبيرٍ آخر: حيث إنّ الجهل ضدّ العلم، فبينهما تضادٌّ وتنافٍ، وهذا التنافي يقضي باختلاف حكمهما ذاتاً، فإذا حلّ أحدهما على ذات الموضوع يرتفع ضدُّه، وهنا قد نفى النبيُّ موسى عن نفسه الجهل، فلا بدّ أنْ يحلّ مكانه العِلْم أو يأخذ العلم حُكْمَ الآخر وهو الجهل.

وبالجملة يصحّ لنا من خلال ما تقدَّم أنْ نقول: إنّ منشأ الإستهزاء هو الجهل، وحيث إنّ موسى ليس جاهلاً، فلا يجوز نسبة صدور ما لا يصحّ إليه؛ لإمتناع وقوعه منه بسبب كونه جهلاً لا يصدر من الأنبياء، وحيث إنّ الجهل يعني عدم العلم، فموسى النبيّ الكليم عليه السلام ليس جاهلاً ـ إذاً ـ هو عالِمٌ، وعِلْمُهُ يردعه عن ارتكاب الخطأ، وسنخ هذا العِلْم ـ كما أسلفنا سابقاً ـ ليس من سنخ الإدراكات الحصوليّة التي عند عامّة الناس، بل من سنخ اليقينيات القطعيّة التي لا تتخلَّف.

## الآية الثانية

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٦]

تفيد الآية نهي النبيّ نوحٍ عن أنْ يكون من الجاهلين، والجاهل ظالمٌ لنفسه، لقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، وحيث إنّ إبن نوح كان ظالماً لكونه كافراً رفض أنْ يكون مع أبيه، لذا هو ظالم لنفسه، جاهلٌ بمقام أبيه من ربّه، والنبيُّ نوح عليه السلام إنما سأل نجاة إبنه بشرط المصلحة لا على سبيل القطع، فلمّا وضّح الله عزّ وجلّ أنّ المصلحة في غير نجاته لم يكن ذلك خارجاً عمّا تضمّنه السّؤال، فتُعطي الآية معنىً جليلاً مفاده: إنّ مَن يعلم ما يعلمه النبيُّ نوح عليه السلام يمنعه أنْ يكون من الجاهلين؛ لأنّ الجهل أو الظلم لا يتناسب مع مقام نوح عليه السلام، لذا نفى الله سبحانه عنه الجهل ليثبت له بطريقٍ إنّيٍّ العلمَ الذي لا ينفك عنه الأثر والعمل المترتِّب عليه، وسؤال نوح عليه السلام من الله تعالى ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾.. ليس على الحقيقة وإنما يسوق إلى السؤال، فهو لم يسأل ما يريده من نجاة ابنه بالتصريح، بل أورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر، وابتدر بذكر ما وعده الله تعالى من نجاة أهله حين أمره أنْ يجمع الناجين معه في السفينة، وكان أهله ـ غير امرأته ـ حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهراً، ولو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السلام مؤمناً لم يدعه البتّة إلى ركوب السفينة، فهو عليه السلام الدّاعي على الكافرين بهلاكهم بقوله عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ فقد كان يرى ابنه هذا مؤمناً ظاهراً، لكنّ الله تعالى كشف عنه حينما أمره والده نوح عليه السلام فتخلّف عن أمره ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]. فكان سؤاله عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾

استيضاحاً عن حقيقة الأمر ولم يكن استيضاحاً لكي ينجيه الله تعالى من العذاب. . والدليل على أنّه عليه السلام لم يسأل ذلك تعقيب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، ولو كان نوح عليه السلام سأل ذلك لكان من الجاهلين؛ لأنّه يكون بذلك قد سأل ما ليس له به عِلْمٌ.

والحاصل: إنّ العلم القطعي بعواقب الأمور يمنع صاحبه من الإنحراف والمعصية، فبهذا يتبيّن أنّ علم نوح عليه السلام عصمه من الوقوع في المحذور.

**الآية الثالثة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]

تفيد الآية بأنّ عدم وقوع اللغو منهم مرجعه إلى العِلْم، فمع وجود العلم لا يمكن أنْ تصدر المعصية، ولو لم يكن الأمر كذلك، لَمَا كان أيُّ معنى لذكر الجهل، ولا معنى ـ حينئذٍ ـ للإنتساب إلى الجاهلين حال وقوع اللغو، فوقوع الجهل يستلزم العصيان، فإذا انتفى الجهل ثبت ضدّه وهو العلم المستلزم للطاعة، فثمة ملازمة بين عدم وقوع المعصية وبين العلم، فحيثما حلّ العِلْم القطعي اليقيني المستلزم للخوف من الله عزّ اسمه تحققت الطاعة، فإذا ارتفع ـ هذا العلم القطعي ـ تحقُّق نقيضه وهو العصيان، ويمكننا القول بأنّ هناك ملازمة بين الجهل وبين وقوع المعصية، كما توجد ملازَمة بين العلم وبين عدم وقوع المعصية، أي وقوع الطاعة.

**الآية الرابعة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢]

فالآية الشريفة صريحة الدّلالة على نورانيّة العِلْم في مقابل ظلام الجهل، وإنّ العالِم بالله تعالى وأمره المتميّز بعِلْمِهِ الربّاني عن الآخرين، لا يكون به ضلالة، فخلوّ النبيّ نوح من الضلالة سببه العلم، ولو ارتكب الضلالة ـ وحاشاه من ذلك ـ لَكَان جاهلاً، وحيث لم يرتكبها استلزم ذلك علمه بالله عزّ وجلّ وبعواقب المثالب.

**الآية الخامسة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]

دلَّت الآية الشريفة على أنّ سبب تمنّي بني إسرائيل لعبادة الأصنام وقد عبدوها فعلاً ـ عندما صعد النبيّ موسى ﷺ إلى الطّور واستخلف عليهم النبيّ هارون ﷺ فلم يسمعوا له فصاغ لهم السّامريُّ العجل فعبدوه ـ كما عبدها غيرهم من المشركين هو الجهل، ولو ارتفع الجهل عن نفوسهم لما كانوا قالوا ما قالوا، وتمنّوا ما تمنّوا، لكنّ الجهل يُعمي ويطغي ويطفي ويميل بالنفوس إلى الضلال والإنحراف. . .

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٥]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣].

فهذه الآيات الشريفة ونظائرها صريحة الدّلالة على وجود ترابطٍ وتلازُمٍ وثيقٍ بين الجهل وبين المعاصي، فيلزم عنه أنْ لا يكون ثمّة علاقة بين العلم وبين المعصية، وبالتالي فيثبت أنّ العلم لا علاقة له إلاّ مع الطاعة أو الحقّ، وكلّما صدر من شخصٍ خلاف الطاعة أو الحقّ، يُستكشف منه عدم رسوخ الصّورة العلميّة لديه، وعدم كونه علماً حقيقياً عنده، من هنا لا تصدر من الأنبياء المعاصي بسبب ما أُوتوا من العلم المستلزِم لإتيان الطاعة وعدم وقوع المعصية، إذ إنّ وقوعها فرع الجهل، وحيث لا جهل في ساحتهم ﷺ ـ إذاً ـ لا معصيةَ عندهم.

### الآية السادسة

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: ٤٣]

الآية في سياق وعظ النبيّ إبراهيم ﷺ لعمّه آزر الذي كان يعبد الأصنام، فأنكر عليه خليل الرّحمان إنكاراً توبيخيّاً بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ ثمّ كرّ عليه مبيّناً بطلان عبادته للأصنام ولغوايتها، وكان لازم معناه إنه سالك طريقاً غير سويّ عن جهلٍ، لذا نبّهه خليل الرّحمان ﷺ بأنّ لديه عِلْماً بهذا الشأن ليس لعمّه نظيره، وعليه أنْ يتّبعه حتى يهديه إلى صراطٍ سويٍّ هو في غفلةٍ من أمره، لكون خليل الرّحمان ذي عِلْمٍ بهذا الشأن، وعلمه يختلف عن بقيّة علوم غيره، إنّه عِلْمٌ بالله تعالى وملكوته، فمن شأن عِلْمِهِ ﷺ أنْ يهدي آزر للصراط المستقيم، وثمة ملازَمة بين علمه ﷺ وبين عدم وقوع المعصية، وذلك لكونه من سنخ الملكون ولاقترانه بالصراط السوي، فوقوع المعصية لا

يمكن أنْ يثبت في الطريق السوي، وإلاّ فلا يكون السبيل سبيلاً مستقيماً حقّاً، فيتحقّق ثبوت الملازَمة بين العِلْم الإبراهيمي وبين عدم وقوع المعصية.

**الآية السابعة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]

تفيد الآية الشريفة أنّ مَن لا يعلم هو ظالم، وعليه فيلزم ثبوت ملازَمة بين عدم العلم وبين الظلم، وبالتالي يثبت عكس ذلك وهو ثبوت ملازَمة بين العِلْم وبين عدم الظُّلْم.

وعليه فلا بدّ من وجود منافاةٍ بين العِلْمِ والمعصية، ولازم وجود المنافاة هو عدم وقوع المعصية مع وجود العِلْم.

**الآية الثامنة**

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]

هنا تمايز بين الجاهل والعالِم، فالجاهل بالحق وبعواقب المعاصي يقع في مخالفة الدِّين وأحكامه، فيلزم أنْ لا تقع من العالِم المعصية وإلاّ فيكون كلٌّ من العالِم والجاهل في مستوىً واحدٍ، في حين أنّ الآية نصٌّ في عدم استوائهما.

(إنْ قيل): إننا نرى كثيراً من أهل العلم يقعون في المعاصي ولا يستفيدون من العِلْمِ الذي يحوونه في جوانحهم، أليس هذا دليلاً على عدم كون العلم عاصماً لصاحبه عن الوقوع في المعصية؟

(قلنا): العلم العاصم هو العلم الحقيقي الموجب للخشية وهو العلم بالله تعالى وبرُسُلِهِ وبأوليائه، لا العِلْم الظاهري المتعلّق بالفروع، فلا يجدي الفرع نفعاً إنْ لم يقترن بالأصول الإعتقاديّة التي توجب اليقين في القلب.

وبعبارةٍ أخرى: إنّ صدور المعصية من العلماء يرجع إلى أحد أمرين لا ثالث لهما: إمّا لعدم رسوخ الصورة العلميّة عندهم في موارد العلم الحصولي، وإمّا لعدم وجود عِلْمٍ حقيقيٍّ عندهم وإنما ما اكتنزوه مجرَّدَ صوَر خياليّة، خالية من الإعتقاد الصحيح.

### الآية التاسعة

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]

الآية الشريفة استئناف لِمَا تقدَّمَها من الآيات الدالة على آثار عَظَمَة الله تعالى في السّماء والأرض والنّاس والدّواب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

هذا الإستئناف يوضّح أنّ الإعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره، ويورث الإيمان بالله تعالى حقيقةً والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجُهّال، فالإنذار والإخبار والإعتبار إنما ينجح في العلماء الخاشعين ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

هذه الآية موضّحة لمعنى تلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

غَفُورٌ﴾، فالذي يخشى إنما هم العلماء الحقيقيّون العارفون بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله، معرفةً تامّةً تطمئن بها قلوبهم وتزيل وصمة الشك والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم، والخشية على قسمين: خشية في الجوارح والأركان بالشرط المتقدِّم، وخشية باطنيّة مصدرها القلب والعقل والمشاعر والإدراكات النفسيّة والرُّوحيّة.

فالخشية الحقيقيّة لا يمكن أنْ تصدق مع وقوع المعصية، بل يستحيل وقوع المعصية من الخاشع، فالخشية تدور مدار وجود علمٍ حقيقيٍّ عند الخاشع، ولا ريب أنّ الأنبياء والأولياء ﷺ في طليعة مَن خصّهم الله سبحانه بالعِلْمِ الحقيقيّ، وعليه فمن الطبيعي أنْ يكون وقوع المعصية منهم أمراً غير ممكنٍ، ووقوعها من بعض العلماء يرجع ـ كما قلنا ـ إلى تشوش الصّورة العلميّة عنده، أو عدم وجود عِلْمٍ حقيقيٍّ يستلزم الخشية، فعدم الخشية دليلٌ على عدم العلم؛ لأنّ أداة الحصر «إنّما» نفت أنْ يكون عند غير الخاشع عِلْمٌ حقيقيٌّ، فأداة الحصر تفيد وجود منافاة حقيقية بين العِلْم وبين عدم الخشية الحقيقيّة.

* * *

ما تقَدَّمَ من الآيات الكريمة دليلٌ ساطعٌ على صحّة ما ذكرناه آنفاً من أنّ العِلْمَ الحقيقيَّ يقتضي عدم صدور المعاصي من المتَّصف به لا سيّما الأنبياء والأولياء ﷺ لكونهم المصداق الأكبر لحقيقة العِلْم بالله تعالى وبصفاته وأسمائه، من هنا أفادت الآيات الأخرى إختصاصهم بالعِلْم لقابلياتهم الواسعة ولمقام الإمامة والنبوّة والولاية فإنّه ـ حينئذٍ نوعُ إكرامٍ وإفضالٍ منه عزّ وجلّ لِمَن اتصف بالعبوديّة وفنى في ذات الرّبوبيّة، فها هو عزّ وجلّ يصف بعض أنبيائه بقوله:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

فالمنصب الإلهي ـ سواء أكان ولايةً أم نبوّةً أم إمامةً ـ مرتبطٌ دائماً بالعِلْم، وربطناه بالولاية أيضاً لإدخال سيّدة الأولياء مولاتنا الصدّيقة الكبرى فاطمة وأمّ المؤمنين السيدة خديجة والصدّيقة الصغرى زينب ومولاتنا أمّ كلثوم ونظائرهنّ وكذا السيّد الهمّام العبد الصّالح العبّاس بن عليّ وعليّ الأكبر وأشباههم من الكاملين من آل البيت الذين لا يُقاس بهم أحدٌ من النّاس أبداً.

فالعصمة لا تدور مدار المنصب ـ كما توهَّمَ بعضٌ حيث ادّعى أنّ العصمة للدّور أي لمنصب النبوّة والإمامة ـ وهو توهُّمٌ لا واقعَ له، إذ لو كان ما ذكره صحيحاً فكيف يصوِّرُ لنا عصمة السيّدة مريم عليها السلام بنصّ القرآن الكريم وعصمة الزهراء سيّدة النساء من الأوّلين والآخرين في آية التطهير وعصمة حوّاء؟!

وهل كُنَّ ـ عليهُنَّ سلام الله تعالى ـ نبيئات أو أئمّة حتى عصمهُنَّ الله عزّ وجلّ؟ ودعوى أنّ الله تعالى عصمَهُنَّ يتبادر منه أنّ العصمة جبريّة، وقد أجبنا عنه فيما سبق، ونعيد إجمالاً: أنّ المعصوم هو الموجِّه لنفسه نحو الطّاعة، والمانع لها من كلّ معصية، وبيده زمام نفسه يوجِّهها نحو الخير والفضيلة، واستوعبت نفسه المحبّة لله تعالى والعمل بما ارتضاه واختاره، وكلّ ذلك بمحض إرادته واختياره، فلم تتدخّل القدرة الإلهيّة في توجيه المعصوم نحو الطّاعة بحيث تسلب قدرته على المعصية بنحو يفقده الإختيار، كما أنها لم

تجبره على فعلٍ من الأفعال الأخرى، بل تركت له حرية الإختيار بحكم ما زُوِّدَ به من إمكانات علميّة وقدرات عقليّة فائقة على إعمال إرادته وفق المنهج الإلهي، فبهذا يستحيل أنْ تقع منه المعصية وخلاف الحقّ مع قدرته على إتيانها وتمكّنه منها خارجاً، فعدم وقوعها منه لا على نحو الجبر بل على سبيل الإختيار، فقد اختار الطّاعة على المعصية، والحقَّ على الباطل، والصّواب على الخطأ.

فالعصمة عِلْمٌ خاصٌّ أو لطفٌ يفعله الله عزّ وجلّ بمن علم أنّه يتمسّك بعصمته، فليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح، ولا ملجئة للمعصوم إلى الحسن، ولا داعية له إليه؛ لأنّها من سنخ المَلَكَات العلميّة، وحيث إنّ العلوم والإدراكات لا تُخرج القوى العاملة والمحرّكة في الأعضاء عن استواء العقل والترك إليها، هكذا العصمة فإنّها لا تُخرج صاحبها عن اختياره وقدرته على إيقاع المعصية ولكنّه لا يفعل لمقدار قُرْبِهِ وعِلْمِهِ بالله تعالى وبعواقب المثالب والمعاصي....

وفي الختام نقول: إنّ المعصوم عليه السلام صاحبُ نَفْسٍ طاهرةٍ زاكيةٍ تقيّةٍ نقيّةٍ، تتقرَّب إلى الله تعالى، فأفاض عزّ وجلّ عليه من العلوم والإدراكات ما ميزه عن الآخرين، وسبب التمييز إنما هو بسبب اختياره للطاعة.

فالعصمة معادَلة علميّة إتّصَفَت بعناصر متعدِّدة: حبٌّ ـ إطاعة ـ عِلْمٌ.

فالمعصوم عليه السلام أحبَّ الله عزّ وجلّ فأطاعه، فحباه الله تعالى بالعِلْم الخاص عنيت به «العلم بمثالب المعاصي».

فعبادته لله عزّ وجلّ لم تكن للعِلْم بالمعصية أو بسبب العِلْم فإنّ ذلك خلاف طبيعة المعصوم عليه السلام، ولأنّ السببية فيها شيء من الشِّرك في التوحيد الأفعالي

والعبادي، مضافاً إلى بعض المحاذير المتقدِّمة... بل كانت عبادته حبّاً لله وشوقاً إليه، وكيف لا؟! وقد استولى النُّور في أعماق ذاته فلا مسرح للظُّلْمَةِ فيها، فمحالٌ حينئذٍ أنْ يفكِّرَ بالمعصية فضلاً عن إتيانها، فالمعصوم عليه السلام بمصاديقه الثلاثة: الوليّ، النبيّ، والوصيّ: إنسانٌ متميِّزٌ بحبّه لله وبالطاعة له في كلّ أحواله وشؤونه، فهو لا يريد إلاّ الطاعة حتى لو لم يكن عنده العِلْم الذي يمتنع مع وجوده وقوع المعصية منه، فهو في أصل وجوده كان لله تعالى، دون أنْ يكون للعِلْم بالمثالب دخالة في أصل التعلق، لكن بعد استحقاقه لهذا العِلْم بسبب إرادته الطّاعة ولكونه سفيراً وواسطة بين الله عزّ وجلّ وبين خَلْقِهِ لا بدّ أنْ يكون سبباً في زيادة اللُّطف، فكان وقوع المعصية منه أمراً مستحيلاً لانتفائها أصلاً ـ من كيانه ووجوده ـ، فالمعصوم من الله تعالى ولله الذي لا شريكَ له في ملكوته وملكه، سبحانه وتعالى عمّا يصفون وتعالى علوّاً كبيراً.

**تلخيص وتنوير:**

من خلال ما تَقَدَّم مع زيادة إجمالية نستنج الأمور التالية:

**أوّلاً:** إنّ أيَّ نقصٍ أو دَنَسٍ يصيب الإنسان في ذاته ـ سوآء أكان منه مباشرةً أو من والديه أو غيرهما، ممّا يسبِّب له انكساراً في درجات كماله ـ فيمنعه من الوصول إلى الدّرجات العلى، وعدم الوصول إلى هذه المرتبة تمنع من تلقّي الوحي، فلا يمكن أنْ يكون نبيّاً أو إماماً.

**ثانياً:** إنّ الأنبياء هم الذين يصلون بطهارتهم وعصمتهم وعبوديتهم إلى الكمال المطلَق، فيتلقَّوْنَ الوحيَ من المَلاَك جبرائيل، وما لم يصلوا إلى الكمال المطلَق ولو بمقدار ذرّة ـ على فرض ذلك ـ فلا يتمكّنون من تلقّي الوحي من الله تعالى.

ثالثاً: لا يمكن للأنبياء أن لا يكونوا معصومين، لأنّ ذلك كالجمع بين النقيضَين أو الضدَّيْن، وهذا في قوّة أنْ يُقال: إنّهم متّصلون بالله تعالى لنبوّتهم، ومنفصلون لعدم عصمتهم.

وبتعبيرٍ آخر: لا بدّ في الأنبياء من العصمة ـ للأدلّة التي تقدَّمَت ـ فالقول بعدم عصمتهم في بعض مراحل حياتهم، يستلزم اجتماع الضدَّين وهما: وجوب متابعتهم ووجوب مخالفتهم.

فأمّا الأوّل لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فإذا ثبتت الطّاعة في حقّ نبيّنا، فتثبت في باقي الأنبياء لعدم القول بالفرق والفصل.

وأمّا الثاني فلأنّ متابعة المذنب حرامٌ.

وبعبارةٍ ثالثة: القول بأنّ النبيَّ يمكن أنْ يكون غير معصومٍ في بعض مراحل حياته كالجمع بين الضدَّين لإتصاله بالله لنبوّته، ومنفصل عنه عزّ وجلّ لعدم عصمته، في حين أنّ الله تعالى يقول للنبيّ موسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٤١ ـ ٤٢].

رابعاً: حيث إنّ النبوّة واسطة بين الله عزّ اسمه وبين خَلْقِهِ، ليأخذ النبيّ بالمكلَّفين إلى مرضاة الله تعالى وليسير بهم نحو الكمال، فيجب على السفير أنْ يكون متصفاً بالكمال المطلَق ليمكنه أنْ يعطي الكمال لغيره، وإلاّ فإنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والله عزّ وجلّ قادرٌ على إيجاد سفراء معصومين لعدم خلوّهم من بين خلقه، فنسبة عدم العصمة لهم خلاف كونهم كاملين مكمّلين لغيرهم.

وبتعبير آخر: إنّ مقام السفارة والوساطة بين الله تعالى وخَلْقِهِ مقام الواصلين إلى قربه عزّ وجلّ والمتصلين به والواجدين لكلّ كمال غير محجوب عنه بالجهل والنقص والعصيان، ولا يصل إلى مرتبة الطّهارة إلاّ السفراء الذين

طهرت طينتهم وحَسُنَت أعمالُهُم وأخلاقهم ورفعت منزلتهم عن حضيض الرّذائل إلى أوج الفضائل ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، ومَن كان كذلك لا يأثم ولا يضلّ ولا يزلّ، فإنّه بعد كمال قربه من الله تعالى لا يبخل عزّ اسمه بإفاضة العلوم والمعارف عليه ليميزه عن غيره من العباد، تتنزَّل عليه الملائكة فلا يجهل ولا يغفل ولا ينسى ولا يسهو، فهو معتصم ذاتاً للطّهارة وعدم الدَّنَس فيه، ثمّ هو معصومٌ بعِلْمٍ من الله تعالى ووحيه ووجود الرّوح الإلهي الملكوتي فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

خامساً: تحصل العصمة من الطّهارة، حيث إنّ الدَّنَس في الذات يفتح أبواب الشر للشيطان، كما أنّ الطّهارة تسدّ عليه ذلك، فلا سبيل له فيه، ولمّا كانت الطّهارة من أوّل نشأته، فالعصمة كذلك، فلا مجال بعد ذلك للبحث عن لزوم العصمة قبل النبوّة أو بعدها، نعم لها مراتب بحسب مراتب النشوء والإرتقاء.

سادساً: مَن صدر عنه شيءٌ من المعاصي أو ظهر منه خطأ أو صفة ذميمة حتى قبل البلوغ لا يكون طاهراً، فلا يكون معصوماً، فلا يليق بمنصب السفارة والولاية والإمامة من الله عزّ وجلّ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالنبوّة عهد من الله تعالى لايناله مَن ارتكب محذوراً في حياته سوآء أكان قبل البلوغ أم بعده، فلا بدّ من كمال الطّهارة بحيث تشمل كلّ مراحل حياته ﷺ بلا استثناء.

سابعاً: لا يقتصر متعلّق العصمة بالكبائر، بل ولا حالة العمد، بل يشمل جميع الحالات، وبالنسبة إلى جميع المعاصي، بل وجميع الصفات الرذيلة.

---

(١) في قراءة إبن مسعود: «لا ينال عهدي إلا الظالمون» وهي الأصوب، راجع: مجمع البيان: ١/ ٢٩٦.

ثامناً: العصمة أمرٌ إختياريٌّ من أصلها إلى آخر مراتبها، حصلت بذرتها من الآباء الطّاهرين والأمّهات المطهَّرات، ثم من المعصوم في أفعاله وأخلاقه اختياراً إلى أنْ ارتقت نفسه بفعل الأوْلَى بعد تركه لها(١).

فعصمة النبيّ وإنْ كانت اختياريّة وبكامل إرادته لكنّها بمعونة الله تعالى له لأنّ أصل وجوده مستمد منه عزّ وجلّ، لذا تكون اختياريّة عصمته بمعونته عزّ وجلّ، فالعصمة لها انتساب إلى نفس المعصوم ولا تخرج عن كامل اختياره، ولها انتساب إلى الله عزّ اسمه الذي أفاض عليه استمرار الحياة، فكانت استمراريّة عصمة المعصوم بفعل الله تعالى وإفاضته وجوده وكَرَمِهِ.

وبهذا يتضح وجوب عصمة نبينا ﷺ عن كلِّ نَقْصٍ وتسافلٍ وخطإٍ سوآء كان قبل التكليف وبعده، وقبل البعثة وبعدها إلى آخر أنفاسه الشريفة، فطهارته ملأت وجوده كلَّه بلا استثناء، فكان مبارَكاً أينما حلّ وأينما كان، فكلّ شيء فيه ومنه طاهرٌ مطَهَّرٌ، ليس بحاجةٍ إلى مَن يسدّده ويرشده سوى الله تعالى بل كان كاملاً في ذاته وأوصافه وشمائله وأفعاله وأقواله وحركاته وسكناته... سبحان مَن خلقه، فأتقن صنعه، وسبحان مَن صوّره فأحسن صورته...! والتسديد والإرشاد شيءٌ، والعتاب شيءٌ آخر، فالإرشاد من أثر المحبّة، والعتاب من أثر الجفاء، ولا جفاء بين الحبيب ومحبوبه، فرسول الله وأهل بيته الطّاهرين هم

---

(١) ويشهد لهذا الإرتقاء توبة النبيّ آدم من ترك الأوْلَى وكذا من لحقه من الأنبياء؛ كما يشهد للإرتقاء المذكور صبر إبراهيم على البلايا حتى ارتقى إلى درجة الإمامة ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. فكلّ الأنبياء والمرسَلين تركوا الأوْلَى إلاّ أهل بيت العصمة والطّهارة فإنّهم منزَّهون عن ذلك؛ من هنا ورد أنهم صفوة خلق الله وسادة الكون ولولاهم ما خلق الله شيئاً، فأمرهم صعبٌ مستَصعَب لا يحتمله لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مرسَل ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان.

أحبّاء الله تعالى؛ ففي دعاء زيارة آل ياسين [لا حبيب إلاّ هو وأهله] أي لا حبيب بالمعنى الكامل للمحبّة إلاّ لآل الله تعالى: النبي ﷺ وعترته الطاهرة ﷺ.

فكيف يصحّ العتاب من الله الحكيم ـ وحاشاه أنْ يعاقب رسولَه بهذه اللهجة القاسية ـ لنبيّه الحبيب المفدي نفسه لرضا ربّه حتى أشفق عليه ربّ العزّةبمناداته بأجمل الألقاب ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ كما أنّه جلّ جلاله أقسم برسوله محمَّد فقال: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ كما أنّه عزّ وجلّ لم يقسم بمكّة لأنّ حبيبه محمّداً فيها فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ أي أُقسِمُ بِكَ وبابنتكَ سيّدة النساء وبولدَيْكَ الإمامَين الحسن والحسين سيدَي شباب أهل الجنّة؛ لأنّ سيّدة النساء قد ولدها رسول الله، وهي ولدت الإمامَين الحسن والحسين، فيصدق لغةً وشرعاً أنّ سيّدة النساء ولديها بل أولادها الخمسة جميعاً ممّن ولدهم رسول الله. ومن معاني الآية الشريفة ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ هو أمير المؤمنين والسيّدة الطاهرة فاطمة، حيث إنّهما نفسٌ واحدةٌ، فعبّر عنهما بـ ﴿وَالِدٍ﴾، وأولادهما الطاهرون الخمسة هم قوله تعالى: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ فللآية ظاهرٌ وباطنٌ وكلاهما مرادان والله أعلم بأسراره وحقائق قرآنه.

فإذا ما أقسم الله بهذا البلد لأجل النبيّ وعترته، بل أقسم به وبأهل بيته الطاهرين، فهل يتصوّر عاقل أنْ يواجَه النبي ﷺ بتلك المعاتَبات الشديدة، مع أنها بلا دليلٍ بل مخالفة للأدلّة القطعيّة الصحيحة كما أشرنا سابقاً في أوّل البحث.

وما شنَّهُ الخصم على رسول الله ـ ولا خصمَ له إلاّ هؤلاء الذي نسبوا إليه العبوس ـ من افتراءات، ليس آخرها مسألة العبوس، قد استعرضنا قسماً منها

فيما مضى، وعليهم جبر ما كسروه؛ لأنّ «مَن كَسَرَ مؤمناً فعليه جبره»[1] وإلاّ كيف يجوز لهم أنْ يستنكروا على ما نسبه الكفار إليه ﷺ ككثرة تزويجه، وقصّة رجوعه إلى ورقة بن نوفل وبحيرا الرّاهب. . .إلخ وفي ذات الوقت يقذفونه بما هو أسوأ مما قذفه به الكفّار والمشركون؟!! أليس عجيبٌ أنْ ينَزَّه عثمان من وصمة العبوس ولا يُنَزَّه رسول اللهﷺ منه؟!!!

لا عجب عند أولئك المجرمين بحقّ نبي الرحمةﷺ، فقد رووا في مجاميعهم الحديثيّة أنّ مزمارة الشيطان كانت في دار رسول الله يستمع إليها تبعاً لزوجته عائشة، حتى جاء أبو بكر فزجر عائشة عنها قائلاً لها: مزمارة الشيطان في بيت رسول الله!!

أليس من المعيب على هؤلاء أنْ تقوم ثائرتهم على سلمان رشدي والصحيفة الدانماركيّة لإساءتهم لرسول الله، ولا يتحرّك أحدٌ منهم ببنت شفة لما يُنسَب إلى الرّسول في طواميرهم؟!!

إنها لَمُفَارَقة عجيبة في معايير البحث العلمي، لم نكن نظنّ أنْ تصدر من علماء مسلمين يتشدّقون بالفهم والحجى، والإنصاف والعدالة، ثمّ يرمون رسول الله بما لا يكون عند أبسط متدين في أوساطهم. . !!

إنّ سبب فريتهم تلك ترجع إلى أمور:

الأوّل: التقليل من شأن العصمة عند الأنبياء، طبقاً لما سلكوه من إنكارهم للقبح والحسن العقليَّين.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٢/ ٣٥٠ باب١٠ح٧٥، والكافي: ٢/ ٤٤ح٢، ووسائل الشيعة: ١٦/ ١٦٢ باب١٤ح٢١٢٤٤.

الثاني: الحبّ الأعمى للصحابة، ومساواتهم النبيّ بالصحابة، بل ما نراه في كتبهم من تمجيد الصّحابة ورفعهم فوق مستوى الأنبياء، أكبر شاهدٍ لدعوانا عليهم. وهذا الحبّ ولّد طغياناً فكرياً على نبيّنا الأكرم ﷺ وتوهيناً بشخصه الكريم؛ إرضاءً للنزوات وتقرُّباً إلى الشيطان.

الثالث: جهلهم بالتفسير وغفلتهم عن مراد الآيات، فلم يتدبّروا في كشف روابطها واسرارها ونظمها وكيفيّة تنسيقها وبيان أهدافها ومراداتها ومداليلها، وقد تركوا أحاديث أهل البيت عليهم السلام قرين الكتاب ومصدر فهم الأحكام والتفسير والعقائد والفرائض، الذين لولاهم لَمَا استحقّ أحدٌ من أفراد أمّة محمّد رسول الله الحياة بل ولا حيٌّ على وجه الأرض وتحت ظلّ السماء؟ إنّهم الرّحمة الموصولة، والآية المكنونة، والصراط المستقيم، والنبأ العظيم، والآيات البيّنات، وفصل الخطاب، ومُحكَم الكتاب، وسفينة النجاة، والحبل المتين، والكهف الحصين، وغياث المضطر المستكين، الهداة المهديّين، الأئمّة الطاهرين، الأولياء المصطفين، النجباء المطَهَّرين، حبل الله ووجهه ويده[1] وبأسه وعلمه وقدرته. . . . إنهم هم هم لا أُحصي ثناءهم، ولا أسبر غور بعض علمهم، فنسأل الله عزّ اسمه أنْ يلطّف سرائرنا لتحمل بعض معاجزهم، لعلَّها تسلك بعض مآثرهم، فمَن كان لله كلّه، عجز الخلق عن إدراك جلّه!!! ومَن استغرق في نور جلاله كيف للخلق إحصاء كماله. . !!

فما تأوّله أولئك المغرضون في تفسير سورة عبس من أنّ الله تعالى أراد أنْ

---

(١) الحبل والوجه واليد معاني مجازية يراد منها: الإتصال الروحي والتشريعي والجهة والقدرة، فالحبل يعني الإتصال والتمسّك، والوجه يعني السمت والجهة والطريقة والشريعة، واليد تعني القدرة، فتأمَّل.

يؤدِّبَ نبيّه، فخاطبه بعبارات العتاب، وكأنّ التأديب لا يحصل إلاّ بألذع الألفاظ واقذعها، وهل يحتاج إلى التأديب مَن كان الخُلُق من أوليات صفاته المحمودة من أوّل نشأته ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾﴾، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾، ويكفي في ذلك مراجعة سيرته الميمونة في كتب السِّيَر سواء ما قبل رسالته أو بعدها في كثرة تحنُّنه على الضعفاء والفقراء والعبيد والعميان وغيرهم.

مضافاً إلى أنّ الله عزّ وجلّ اصطفاه من الخيرة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فبحسب هذا الجعل الإلهي لا يمكن حينئذٍ أنْ يشرك النبيُّ في أمر ربّه أحداً، ولو أشرك ـ على فرض المحال ـ ليحبطنّ عمله وليكوننّ من الخاسرين، وإنّـــه ﷺ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، ولـو أنّـه ﴿تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ قـولاً وعـمـلاً ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فلم يكن يحتاج إلى هذا النوع من التأديب في سورة من سور القرآن بعد أنْ اصطفاه الله للرسالة، وعلم منه ذلك وأنّه يليق لها.

فإذا لم يكن النبيُّ ﷺ وآله هو المقصود بالسورة، فلا بدّ أنْ يكون غيره هو المتعيِّن، فماذا كان قصده حتى نزلت الآيات موبِّخةً له؟! فإذا كان قصده شريفاً، فالله عزّ اسمه لا يحاسب على القصد الشريف بل يثيب ويرحم ويتفضّل بالإنعام تكرُّماً، وإنْ كان قصده دنيئاً فلا بدّ حينئذٍ من التوبيخ لسوء نيته وقبح فعله كما سوف نوضحه في أهداف السّورة.

وبعبارة أوضح: لا يخلو الأمر من اثنين: إمّا أنْ يكون قصد العابس

شريفاً، فلا يجوز حينئذٍ توبيخه عليه، بل يثيبه ويمدحه، وإمّا أنْ يكون قصده دنيئاً فيعامله بالتوبيخ والعتاب كما هو ظاهر الآيات في السّورة، فثبت المطلوب.

* * *

**أهداف السّورة:**

إنّ المتأمّل في فقرات السّورة المباركة يتضح لديه ـ إنْ كان خالياً من تقليد الآباء والأمّهات أو الموروثات غير الصحيحة[١] ـ الأمور الآتية:

الأمر الأوّل: إنّ العابس رجلٌ إنتهازيٌّ متعجرفٌ، متكَبّرٌ، يريد الإستعلاء على الآخرين من خلال تقرُّبه إلى رسول الله بالصحبة، مستغلاً ذلك لتحصيل المآرب والمصالح الشخصيّة ومقدِّماً لها على مصالح الفقراء والصّالح العام.

فالعابس المعهود قد استعرض نفسه في مجلس الدّعوة والرّسالة، بما في طبعه من الخِسّة والرَّيْن وسوء الخُلُق ـ الذي هو في الواقع خُلُق الجاهليّة الأولى التي نشأ فيها ذاك العابس ـ مضافاً إلى الحميّة والعصبيّة المذمومَين والمضادَّين للقرآن الكريم وأخلاق الأولياء والأنبياء ﷺ.

وما صدر منه لم يكن أمراً بسيطاً وإلاّ لكان من المناسب أنْ يعظه رسول الله ﷺ ويعالجه كما عالج الكثير من الموارد السيئة، لا أنْ ينزل عليه سورة خاصّة، خالدة تُقرأ آناء الليل وأطراف النهار إلى آخر الدّهر، ففي سيرته ﷺ

---

(١) ثمّة موروثات صحيحة وأخرى غير صحيحة، فيقبح عقلاً وشرعاً اتباع الآباء والأمهات والبيئة في الموروث الذي لا يبتني على أسس سليمة وشرعيّة، وأمّا غير ذلك فجائز بل قد يجب في بعض الحالات، كأنْ يقلّد الآباءَ في الأخلاق الحسنة وحسن الجوار والعقائد الصحيحة إنْ لم يمكنه تحصيلها بالدليل والبرهان وما شاكل ذلك.

وقائع كثيرة منافرة للإسلام وقد عالجها بتوجيهه الطاهر يسيراً أو عنيفاً، فلو كان الأمر الصّادر من العابس يسيراً لكان ناله من النبيّ الأكرم ﷺ نظير ما نال غيره من أصحاب السّوء، لكنّ الأمر ليس بهذه السّهولة، فإنّه ادّعاء لمنصب الخلافة والدّعوة إلى الله تعالى، لذا يجب الإستنكار على مستوىً عظيمٍ من التهديد القرآني، والوعظ الربّاني؛ ليكون العابس عبرةً لغيره ممّن تقدَّمَهُ ممّن اغتصبوا خلافة أهل البيت ﷺ على الأمّة الإسلاميّة إلى انقضاء الدّهور.

الأمر الثاني: إنّ العتاب العنيف يستلزم قباحة فعل العابس وعدم صلوحه وإصلاحه، كما يستلزم صلاحيّة الأعمى الفقير للهداية والتوفيق، فالتصدّي لتعليمه بواسطة النبيّ وأهل بيته ﷺ وليس بمن لا يَهدي إلاّ أنْ يُهْدَى وهو عثمان ونظائره، فهؤلاء بحاجة إلى مَن يهديهم فكيف يتصدّون لهداية الآخرين!!

فالعابس لم يكن يدرك أنّ المعبوس بوجهه لائق للهداية والتزكية، وعدم إدراكه لذلك ليس من باب الجهل والقصور الذاتي، بل كان عناداً للحقّ واستكباراً على الضعفاء، وإلاّ لو كان عدم الإدراك بمعنى القصور الذاتي لَمَا ذمّه الله تعالى بهذا العتاب الشنيع والزجر العنيف...! بل كان الملاك ـ عند العابس ـ هو التعظيم للأغنياء وأبناء العشيرة، لذا تصدّى لمَن استغنى، ولم يكن ذلك بمجرده دون رؤية الآخرين له، بل كان تصدّيه في مجلس الدَّعوة عند رسول الله مؤذناً ومشعراً بأنّه داعية من دعاة الدين، وخليفةً تالياً لرسول ربّ العالمين، ظنّاً منه أنّ ما يفعله يُنبئ عن دخالة نفسه بأنّه الخليفة الحق بعد رسول الله، وكأنّه كان بعيداً عن الآيات التي نزلت على رسول الله تخبره بإمامة أمير المؤمنين عليّ وأولاده الميامين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

فهذه الآيات الكريمة مع ما فيها من توبيخ العابس لسوء عمله، وتصدّيه للأغنياء وإعراضه عن الفقراء، تُرشد المسلمَ إلى أنّ ذاك العابس ليس من شأنه تزكية الناس لعدم صلاحيته من حيث الصفات وجهله بالمعارف، لذا يقول سبحانه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي: ليس على ذمتكَ أو عهدتكَ أيّها العابس هداية الآخرين، فهذا ليس من شأنكَ ولا اختصاصك... ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ فأنتَ لا تحرص على هداية الناس، ولا على نشر حقائق الإسلام، ولا على تطبيق مواعظ القرآن الكريم، ولا عندك قابليّة التحنُّن على فقراء المسلمين كما كان رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومع ذلك أدخلتَ ـ يا عثمان ـ نفسكَ في حاشية مقام الرِّسالة، وتصدَّيْتَ لذلك لتدّخر لنفسكَ عناوين تنفعكَ في مستقبَل الدّهر لما تحبّ من الإمساك بزمام أمور المسلمين والقيام مقام خلافة رسول ربّ العالمين..!!

(إنْ قيل): لِمَ لا يكون النبي ﷺ هو المقصود بالعتاب ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ دون عثمان، بمقتضى سياق آيات السّورة، فهو ﷺ أليق بالخطاب من غيره لمقام دعوته إلى الله تعالى؟

(قلنا): تقدَّمَ معنا أنّ ذلك غير ممكن في حقّ رسول الله لمقام قربه من الله تعالى وسعة قابليته وإطلاعه على مراد الله، واستكانته لله عزّ وجلّ وتواضعه للفقراء منذ نشأته ولا خصوصيّة لوقت التبليغ، عدا عن أنّ ما صدر منه منافٍ للبعثة يجب أنْ يتنزَّهَ عنه.

مضافاً إلى أنّ ذلك لا يمكن أنْ يكون خطاباً إلى رسول الله ﷺ بعدما كان رسولاً من الله عزّ اسمه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

فدعوى أنّ الآية ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ تخصّ النبيّ خُلف كونه ﷺ داعية إلى الله تعالى، وإنّ التبليغ من صلب مهامه ووظائفه، فهذا الزّجر بقوله ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ لا يُقصَد به النبيّ قطعاً، لِمَا عَرَفْتَ في الآيات الآنفة الدّالّة على أنّه إمام المبلِّغين والدُّعاة إلى الله تعالى، فإخراجه من هذه المهمّة خلف ما أمره الله تعالى به سابقاً وقبل حادثة العبوس.

(إنْ قيل): إنْ كان المقصود بالآيات هو عثمان فلِمَ لا يكون الخطاب بضمير الغائب هكذا «وما يدريه لعلّه يزّكّى.. أمّا مَن استغنى فهو له تصدّى.. وما عليه ألاّ يزّكّى.. وأمّا مَن جاءه يسعى..» فعدم الإتيان بضمير الغيبة يستلزم كون النبي ﷺ هو المقصود بالخطاب..؟

(قلنا): عدم الإتيان بضمائر الغيبة لنكتة بلاغية هي: أنّ التصريح بذلك يترتّب عليه مفاسد كثيرة تؤثّر على دعوة النبيّ لقومه، ويشهد له ما ورد في تفسير نزول آية البلاغ من أنّ الرّسول الأكرم كان ينتظر سنوح الفرصة ويخشى العقبات الكبرى من قومه في وجه إعلانه الخلافة لأمير المؤمنين علي عليه السلام لأنّ بعض صحابة النبي ﷺ أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وطلحة وغيرهم كانوا يتربّصون موت النبي ﷺ للإنقضاض على الخلافة وقتل الإمام علي عليه السلام إنْ شَهَرَ سلاحاً في وجوههم، والسبب هو الحسد، وقد ظهرت آثاره على أفعالهم عندما كادوا لرسول الله بهرش العقبة لمّا أرادوا قتله للإنقضاض على الخلافة وسدّة الحكم، وما تمنّوه حصل بالفعل، فوهنوا رسولَ الله ونعتوه بالهجر وفقدان

العقل، ولم يسمعوا قوله ولم يراعوا حرمته فأثاروا الضجّة والضوضاء بمحضره الشريف، ثم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، تاركين النبيّ على فراش الموت، ثمّ هجموا على دار سيّد المؤمنين وأميرهم الإمام عليّ بن أبي طالب وسيّدة النساء فاطمة عليها السلام فاعتدوا عليهما بالشتم والسب والضرب، فبلغ سيلُ ظلمهم الزُّبى فكسروا أضلاع بضعة رسول الله وأجهضوا جنينها الكريم مولانا محسن عليه السلام وألووا عضدها بالسوط، وسوّدوا خدَّها ومتنها وعضدها بالضرب والرفس على البطن وو. . . !!

الأمر الثالث: إنّ قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ يفيد تهديداً ووعيداً على العاتي والمستكبر العابس بكلمة ﴿كَلَّآ﴾ الرّادِعة والكافّة عمّا ارتكبه العابس من منكَرات، وتلبّسه بصفات الدّعوة التي تحتاج إلى رِفْقٍ ورأفة وتأليف القلوب ورفع التباغض في كيفيّة الدّعوة، فالقرآن في صحف مكرَّمَة عند الله تعالى لا يجعله بأيدي مَن لا يليق به، بل لا يكون إلاّ في أيدي كرامٍ بررة، وليس العابس منهم لاتصافه بصفات غير الكرام، فهو من غير المطَهَّرين، والقرآن لا يناله إلاّ المطَهَّرون الذين أذهب الله عنهم الرِّجسَ وطَهَّرَهُم تطهيراً، فلا يمكن أنْ يدركه أو أنْ يطيقه من البشر على اختلاف طبقاتهم إلاّ المطَهَّرون الذين اتّصفوا بما أوصى به، وتنزّهوا عمّا نهى عنه، والعابس الذي ظهر منه ما ظهر، لا يمكن أنْ يدركه ويطيقه ويجري على دعوته ومنهاجه.

الأيدي السفرة هم الذين اختارهم الله تعالى وانتجبهم للسَّفَارة والرِّسالة ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فمَن اصطفاه الله فهو أصفى من كلّ صفي، وأطهر النّاس من كلّ رجسٍ وقذارة أخلاقاً وأوصافاً وعلماً وعملاً ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهؤلاء السفرة من النّاس، كلّهم بررة، فلا يصلح اللئيم لحمل الرّسالة ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٨]، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

وعليه؛ فحيث إنّ العابس لئيمُ الطَّبْعِ، خالياً من الرَّأفة والرَّحْمَة والتواضع، لذا لا يجوز أنْ يضع نفسه في مقام الدَّعوة إلى الله تعالى، ولا أنْ يضعه الله عزّ وجلّ في ذاك المقام، بعد أنْ اشترط على الدّاعي خلوّه من كلّ صفات الفرعنة والشيطنة.

الأمر الرابع: إنّ قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ يفيد ذمّ العابس الدّال عليه قوله ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المحلّى بلام العهد، أي الإنسان المعهود، وليس كلّ إنسان، لأنّ إرادة كلّ إنسان أو طبيعي الإنسان خلاف التقسيم القرآني للإنسان المنقسم إلى شاكرٍ وكافر ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ فكيف يذمّ طبيعي الإنسان في حين أنّ منه الشاكر والصالح والأنبياء والصدّيقون والأئمّة المطهَّرون والشاهدون على الأعمال؟ كما إنه لا يناسب أنْ يُراد به شخص مجهول فإنّه كلام خالٍ من الفائدة بل هو من لغو الكلام لا يليق بالقرآن الكريم، وكذا لا يناسب أنْ يكون شخصاً دون أنْ يشير إليه بقرينة في الكلام أو رواية معتبرة أو متواترة، لمنافاته حينئذٍ لبلاغة القرآن وصيانته من الخطأ والجهل ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، فلا محالة يكون المراد به من أتى بذكره في الآية هو العابس لمكان اللام التي هي للعهد الذكري، وهذا من القرائن في متن السورة على أنّ المراد من العابس هو المعاتب عليه وهو غير النبي ﷺ.

والظاهر أنّ المراد من ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ليس هو الدّعاء عليه بالقتل؛ إذ لا معنى هنا للدّعاء من الله سبحانه بالقتل، فإنّه تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ بل الظاهر منه نوع طعن ولعن. . .

وقوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ من أفعال التعجُّب وليس المراد من كفره عدم إسلامه الظاهري بل عدم تسليمه لأمر الله ورضاه وعدم إطاعته وانقياده، وقد يُراد من قوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ عدم إيمانه واقعاً بالله تعالى ورسوله وأولياء الأمر بعده المخصوصين بالعصمة والطهارة من أهل بيت الرّسالة.

فالعابس كافرٌ كفرَ جحود وكفر عمل، فالأوّل هو قوله ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، والثاني قوله ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

وليس التعجُّب من الله عزّ وجلّ بل بيان حال مَنْ يتعجّب منه كلّ متعجّب. . .

وبالجملة؛ فإنّ الآيات في هذا الأمر تعود إلى حال العابس وطغيانه وتكبُّره وأنه لم يتفكّر في ذاته وأنّ الله عزّ اسمه خلقه من نطفةٍ ثمّ قدّره تقديراً في جميع جوانب وجوده وآثاره وحياته بما أنّه إنسان ثمّ يسر الله سبيله إلى السعادة والقرب من الله في داخل نفسه بما هيّأ له من القُوى والمشاعر ومن خارج نفسه من الأنبياء والرُّسُل والأوصياء والأولياء والكتب المنْزَلَة والهداة من الله تعالى، وله أن يُسعد نفسه في هذه النشأة الدنيويّة، ولذلك أمدٌ ينقضي، فإذا انقضى أماته فاقبره ثم إذا شاء أنشره ليوم الرّجعة أو البرزخ أو القيامة، كلا لم يأتِ في أيام حياته بما يجب، ولمّا يقضِ ما أمره، وقد كرّر كلمة ﴿كَلَّا﴾ فالأول بعد حكاية أفعاله في قبال الأعمى وعبوسه وتحقيره له، وتعظيمه للكفّار والمشركين، فمَن كان بهذه الصفات كيف يمكن له أنْ يكون في مقام الدّعوة إلى الله تعالى، فردعه بكلمة ﴿كَلَّا﴾.

والثاني بعد بيان ما هو وظيفته ولزوم التوجُّه إلى خلقته وفطرته وما يسّر الله له من أسباب الهداية إلى سبيل الله تعالى فردعه ثانياً بكلمة ﴿كَلَّا﴾ وأنّه لمّا يقضِ ما أمره ولم يأتِ بما يسّره الله له من العمل بالإسلام والقرآن.

من هنا جاءت الآيات الأخرى في بقيّة السّورة تُقرّع العابس دون أنْ تسمّيه احتقاراً له ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

فالطعام على نحوَين: ماديّ وآخر علمي، كما أنّ الماء على نحوَيْن: ماءٌ باردٌ طيّبٌ، وآخر معنوي مطهِّر، والفرق بين الطعام والماء واضحٌ من حيث إنّ الطّعام المستخرَج من الثمار والنبات والحيوان لا تُكتَب له الحياة بدون الماء، فالماء أساس وجوده ونمائه ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فللماء فضل على الطعام الذي هو أثر من النبات والحيوان؛ إذ لولا الماء لَمَا عاش نباتٌ أو حيوانٌ، فالآية أكّدت على أنّ للإنسان حياتَين: جسمانيّة ومعنويّة، وللطعام والماء نحوَين: ماديّ ومعنوي، وحيث إنّ السّورة نظرها إلى الحياة المعنوية أكثر من نظرها إلى الحياة المادّية، فعلى المسلم أنْ يراعي الحياتين، لكن يجب أنْ يكون اهتمامه بالحياة الرّوحيّة أكثر من الحياة المادية، فكما يجب عليه أنْ يلتفت إلى طعامه المادّي في طرق تحصيله من حلّه ومصدره المأمور به شرعاً، عليه أنْ يلتفت إلى طعامه العلمي عمّن يأخذه، لاسيّما وأنّ السّورة المباركة تؤكّد على الحياة العلميّة والرّوحيّة التي يجب أنْ يتحلّى بها الدّاعية إلى الله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ فحيث إنّ البدن لا يستقيم إلاّ بإرتباطه بالمأكل والمَشْرَب الصحيَّين الخاليين من

عناصر التلوُّث والقذارات والأوبئة، كذا لا تستقيم النفس أو الرُّوح الإنسانيّة إلاّ بارتباطها بالعلوم الحقيقيّة التي تنعش الرُّوح وتخرجها من الظُّلمة إلى النُّور. لذا على المسلم أنْ ينظر إلى طعامه الذي به يحيا عمَّن يأخذه، هل يأخذه من المخالفين أو ممَّن أنزلوا أهل البيت عليهم السلام عن مقاماتهم التي رتّبهم الله عزّ وجلّ فيها «فلَعَنَ الله أمّةً دفعتكم عن مقامكم وأزالتكم عن مراتبكم التي رتّبكم الله فيها»[١]، أو عليه أنْ يأخذه من ثقاة العلماء الموالين العارفين بعقائد أهل البيت عليهم السلام وفقههم وحقوقهم ومقاماتهم ومعاجزهم وكراماتهم وظلاماتهم وأوامرهم ونواهيهم.؟!

جاء عن مولانا الإمام محمّد بن جعفر الباقر عليه السلام قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾؟ قال عليه السلام: إلى عِلْمِهِ الذي يأخذه عمّن يأخذه[٢].

فكما أنّ الماء المادّي أساس حياة كلّ مخلوق، لا سيّما على النبات والحيوان، فضلاً عن الإنسان، فكذا الماء المعنوي فإنّه حياة كلّ إنسانٍ أو جِنٍّ أو مَلَكٍ..

وبعبارة أخرى: الطّعام هو المعارف والعلوم، والماء هو الإعتقاد بولاية أهل البيت عليهم السلام، فالعلوم إنْ لم تكن مقترنة بولايتهم لا خير فيها في الآخرة، من هنا جاء عن عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسير قوله ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ قال: أنزل الحقَّ من السّماء فاحتملته القلوب بأهوائها، ذو اليقين على قدر يقينه وذو الشك على قدر شكّه فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجُفاءً فالماء هو الحقّ، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزبد هو الباطل. فالحقُّ ـ

---

(١) زيارة عاشوراء المبارَكة.

(٢) تفسير البرهان: ٤/ ٤٢٩، نقلاً عن الكليني في الكافي والمفيد في الإختصاص.

إذن ـ هو حقّ آل الله، فالحقّ معهم ومنهم وإليهم، يدور معهم حيثما داروا «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ، يدور معه حيثما دار».

فالحقّ لا يحتمله كلُّ النّاس، بل بعض النّاس ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرّعد: ١٧].

فكما أنّ الأرض الطيّبة السهلة ـ لا السبخة الخبيثة ـ تتلقّى الماءَ على حسب طبيعتها وسعتها، فبمقدار طيبها تتسع من الماء النازل من السّماء، فكذا أرض القلوب فإنّها تتلقّى من علوم ومعارف آل البيت عليهم السلام بمقدار صفائها وعروجها نحو ولايتهم وتوطين النفوس على طاعتهم وتنفيذ أوامرهم وتطبيق دستورهم لنيل رضاهم وحبّهم والتقرُّب إليهم، فعلى قدر استعداد القلب يُفاض عليه من الإمداد الولائي...

فالشيعي الحقيقي ـ وليس المدَّعي كأكثر أهل هذا الزمان ـ أصله طيّبٌ، وفرعه طيبٌ وأثره طيبٌ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: نحن نعطي شيعتنا ما نشاء من العِلْم[1].

فبملاحظة ما تَقَدَّمَ من تناسُب آيات سورة عبس والقرائن من سائر الآيات والرّوايات التي أشرنا إلى بعضها، فلا تأبى هذه الآيات عن الإنطباق في الطّعام على كِلاَ الطَعَامَين [الرّوحي والجسمي] وفي الماء المنصبّ على كِلاَ المعنَيَيْن (الماء المادّي والماء المعنوي) وانشقاق الأرض على الأرض المادّية وأرض

(١) نور الثقلين: ٢/ ٥٣٥.

القلوب، وما ينبت به من الحبوب والثمار والبقول من الأطعمة على الأطعمة الجسميّة من الفواكه والحبوب والثمار وغيرها من الأطعمة الرُّوحِيَّة من العلوم والمعارِف الحَقَّة، والإنسان يستمد في حياته من كلتا الجهتين مع سلامتهما وإلاّ فيهلك أو يمرض بسوء تغذيته ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

والخلاصة: لا بدّ للإنسان من الإتعاظ بهذه النِّعَم بكلا قسميها، فيجب أنْ يستعملها للإنتفاع بها في كِلاَ الدّارَيْن، أمّا في الدّنيا فلتعديل النفوس وتهذيب الأخلاق وحسن المعاشرة مع النّاس وفيما أمر الله تعال ونهى عنه وتزكية النفوس وعبادة الرّبّ من خلال ما أمر، لا أنْ ينتفعوا منها للطغيان والتمرُّد على أحكام الله تعالى، فلا يجعل المسلم هذه النِّعَم وسيلةً للتفاخر والتكاثر واستغلالها للشهوات والأقرباء من الآباء والأبناء والعشيرة، فيشبع هؤلاء ويضعف الفقراء والعبيد ومَن لا ناصر له ولا عشيرة تحميه من الأعداء المنابذين له... فالتوزيع بغير حقٍّ يؤدِّي إلى الخسران ولا يحمي من سخط الله وعذابه إذا أحاط به، فيومئذٍ لا ينفع مالٌ ولا بنون ولا عشيرة، والإخلاّء بعضهم لبعضٍ يوم القيامة عدوٌّ إلاّ المتقين.

الأمر الخامس: في هذا الأمر جولة أخرى على قصّة العبوس المتصدِّرة في أوّل السورة:

فخاتمة العابس هي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبهذا الأمر تُختَتَمُ السّورةُ في نظمٍ بديعٍ، وتناسق متراصٍ متعاضدٍ، لا يضلّ المسترشد في طريق هدايتها، ولا يزلُّ السّالك في صراط التدبُّر فيها، لمَن

تعمّق في التفكُّر فيها، فإنّ التفكُّرَ حياةُ قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظّلمات بالنور، الظلمات من الطوفان السياسي بالأيادي المستأجَرة من المتحزِّبين الذين خرّبوا الأديان وقلبوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً، وبأيدي السّاسة والوضّاعين للرِّوايات الكاذبة محرِّفين الكَلِمَ عن مواضعه ليشتروا بأيمانهم ودينهم ثمناً قليلاً، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولهم عذابٌ أليم، فصدر السورة وذيلها يرشدان إلى الصّواب وإلى صراطٍ مستقيم بالأمور التالية:

الأوّل: إنّ العابس كان يجامل الأشراف من كفّار عشيرته ليستزيد في عَظَمَة شخصيّته من أعوانه وأنصاره، ولا يتذكر يوم يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، وأنّ لكلّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه ويكفيه عن الذهول عن غيره.

الثاني: تُصَوِّرُ السّورة تصويراً تمثيليّاً وجه العابس في وجه مَنْ جاءه يسعى وهو يخشى. . . هذا الوجه الكالح وغيره من الوجوه العابسة في وجوه الموالين في الأزمنة الغابرة وفي زماننا الحاضر على وجه الخصوص، هي نفس الوجوه الجهنّميّة التي تحَدَّثَت عنها الآية ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ فيعلو على وجه الجهنّمي غبار الذلّ والخِفة، ويحيط عليها اليأس والإنقباض والحسرة والظُّلْمَة، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾، وهم الذين تستروا بالإيمان وأسرّوا النفاق والكفر بنعمة الإمامة، فتمايلوا عن الحق والصدق، واستعزّوا بالباطل، وعبسوا وتلهّوا عن الفقراء الطيِّبين والضعفاء من المؤمنين الموالين، فبذلك رهقهم الذلّ والخفة والهوان في الآخرة.

الثالث: إنّ تصدُّرَ العابس مجلس الدّعوة، وما صدر منه في حقّ الأعمى الفقير يدلاّن على اغتصابه للحقّ وتعدّيه على حقوق الفقراء، من هنا ذكّره القرآن

الكريم بأنّ المقام ليس مقامك بقوله ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ فهذه التذكرة لا يلتفت إليها إلاّ أهل التقوى والطهارة وهم السَّفَرَة من الملائكة وأهل الوحي، فتصدّي المنافقين والفسّاق لمقام نشر الدّعوة القرآنيّة هو في الواقع خيانةٌ للمبادئ الحقّة وتعاليم الإسلام السَّمْحَاء. . . فالصُّحُف المكرَّمة نظير القرآن الكريم، مرفوعة في السّماء السّابعة وقد رفعها الله عزّ اسمه عن دنس الأنجاس، مطهَّرة لا يمسّها إلاّ المطَهَّرون كالملائكة وأهل العصمة والطّهارة المكَرَّمين عند الله تعالى، البررة المطيعين الذين يرفعون أنفسهم عن المعاصي يتقون الله تعالى سرّاً وجهراً. . . هذه الصفات الربانية منهجٌ قويمٌ لِمَن أراد أنْ يتّصف بالجهر بالدَّعوة إلى الله تعالى، فلا بدّ أنْ تكون فيه صفات الإطاعة لله تعالى والإبتعاد عن معاصيه، وبمعنى آخر لا بدّ أنْ يكون متخلياً ثمّ متحلياً، فالتخلِّي عبارة عن تنزُّه النفس عن الهوى، والتحلِّي عبارة عن ملازمة الأخلاق الحسنة فمَن لم يتخلَّ ولم يتحلّ كيف يجرؤ على تسنُّم مقام الدَّعوة، فلا يفعل ذلك إلاّ كلّ فاسقٍ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ حيث يعلوه الكبر فيؤثّر بسواد روحه وكلوح وجهه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ منهجان متقابلان: منهج الحقّ المتمثّل بأولئك الأطهار، ومنهج الباطل الذي يتزعّمه المدَّعون من المنافقين والفاسقين والكافرين. . .

فالذين وضعوا أنفسهم مكان سفراء الله تعالى ليجتمع الناس حولهم ويترأسون على المسلمين ويدّعون مقامات أئمّة الخلق أجمعين فيلقبون أنفسهم بأولياء الأمور مع انحطاط أخلاقهم وانحراف أفعالهم عن الإسلام، وظُلْمَة قلوبهم بالجهل والفساد والطغيان، فعبس وتولّى لمّا جاءه الأعمى ولكنّه تصدّى للأغنياء، فهذا وأمثاله ـ وهم كُثُر اليوم ـ حيث تعلو وجوههم الغبرة، غبرة الذلة والخفة والجهل والظُّلْمَة، ترهقها قترة ويغشاها سواد الذلّ والإنقباض، أولئك

هم الكفرة في أديانهم فلم يؤمنوا في الحقيقة، والفجرة في أفعالهم، أجارنا الله تعالى منهم.

الأمر السادس:

إنّ السياقات القرآنيّة والنبويّة والتاريخيّة والعرفيّة تشهد على رعونة أخلاق بني أميّة ـ ومنهم عثمان بن عفّان ـ فبنو أميّة هم الشجرة الملعونة في القرآن ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فقد جاء في الأخبار الكثيرة من الطرفين بأنّ الشجرة الملعونة هي بنو أميّة يستولون على الحكم ويحرّفون مساره ويظلمون أهل بيت الوحي والطّهارة، ولا شكّ أنّ عثمان في طليعتهم بل هو وصاحباه المؤسّسون لسلطة معاوية في الشام.

بل أكّدَت الأخبار(١) أنّ الشجرة الملعونة في القرآن أعمّ من بني أميّة، فتشمل أبا بكر وعمر.

ففي تفسير العياشي بإسناده عن عليّ بن سعيد قال: كنت بمكّة فقدم علينا معروف بن خربوذ فقال: قال لي الإمام أبو عبد الله عليه السلام: إنّ أمير المؤمنين عليا عليه السلام قال لعمر: فإنّه نزل فيهم: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: فغضب عمر وقال: كذبتَ، بنو أميّة خير منكَ وأوصل للرَّحِمِ.

لو صحّ نسبة الخبر ـ وهو صحيح من الناحية السَّنَدِيَّة ـ إلى الإمام علي عليه السلام فإنّه أراد عليه السلام أنْ يكشف للناس واقع عمر بن الخطّاب، وأنه ـ أي عمر ـ من

---

(١) نور الثقلين: ٣/ ١٨٠.

فصيلة الشجرة الملعونة في القرآن، فيكون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام باستنطاقه لعمر قد أتمّ الحجّةَ عليه وعلى أتباعه وأنصاره بأنّه ما آمَنَ بالله ورسوله اللّذين أمرا باتّباع الإمام عليّ وليّ الأمر والخليفة الحقّ على الأمّة جمعاء.

وفي صحيحة الحلبي عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم قالوا: سألناه عن قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: إنّ رسول الله ﷺ أُرِيَ أنّ رجالاً على المنابر يردون الناس ضلالاً: زريق وزفر[1]، وقوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: هم بنو أميّة[2].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ قد رأى رجالاً من نار على منابر من نار، يردّون النّاسَ على أعقابهم القهقهرى[3]، ولسنا نسمّي أحداً[4].

ومثله رواية الجعفي عن المولى الإمام أبي عبد الله عليه السلام[5].

وعن أبي الطفيل قال: كنت في مسجد الكوفة فسمعتُ الإمامَ عليا عليه السلام يقول وهو على المنبر وناداه إبن الكوا وهو في مؤخر المسجد، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فقال: الأفجران من قريش ومن بني أميّة[6].

وعن عبد الرّحيم القصير عن المولى أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

---

(١) أي: أبي بكر وعمر.

(٢) نور الثقلين: ٣/ ١٨٠ح٢٧٨.

(٣) يردّونهم على أعقابهم أي يأمرونهم بالكفر.

(٤) نور الثقلين: ٣/ ١٨٠ح٢٧٩.

(٥) نور الثقلين: ٣/ ١٨٠ح٢٨٢.

(٦) نور الثقلين: ٣/ ١٨٠ح٢٨٢.

﴿ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قال: أرى رجالاً من بني تيم وعدي ـ أي أبي بكر وعمر ـ على المنابر يردّون الناس عن الصّراط القهقرى، قلتُ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قال: هم بنو أميّة، يقول الله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾[1].

وأمّا الأخبار العاميّة فكثيرة أيضاً، منها:

ما رواه السيوطي بإسناده عن إبن أبي حاتم عن إبن عمر أنّ النبيّ ﷺ قال: رأيتُ ولد الحكم بن العاص على المنابر كأنهم القردة، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ يعني الحكم وولدُهُ[2].

وبإسناده أيضاً عن إبن مردويه عن الحسين بن علي رضي الله عنهما: إنّ رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم، فقيل: ما لك يا رسول الله؟ فقال: إني أُريتُ في المنام كأنّ بني أميّة يتعاورون منبري هذا، فقيل يل رسول الله لا تهتمّ فإنها دنيا تنالهم، فأنزل الله الآية ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا﴾[3].

وفيه أيضاً بإسناده عن إبن مردويه عن عائشة قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله يقول لأبيك وجدّك إنكم الشجرة الملعونة في القرآن[4].

في هذه الرّوايات وأمثالها دلالة واضحة على فساد وكفر بني أميّة ومَن أسَّسَ لهم أساس الظلم على آل الله، معدن العلم ومهبط الوحي والتنزيل...

---

(١) نور الثقلين: ٣/ ١٨٠ح٢٨٣.

(٢) الدر المنثور: ٤/ ١٩١.

(٣) الدر المنثور: ٤/ ١٩١.

(٤) نفس المصدر السابق.

وعدم تصريح بعضها بأسماء بني أميّة فيه إشارة إلى أحد احتمالَيْن:

إمّا للتقيّة وصعوبة الظروف التي كانوا يعيشونها من ضغط الحكّام على شيعتهم ومواليهم وملاحقتهم ومطاردتهم وتقتيلهم...

وإمّا لِلَفْتِ انتباه المسلم المطَّلِع على هذه الأخبار، فيدعوه إلى البحث عن الحقيقة من خلال معرفة حكّام تلك الحقبة الصعبة التي مرَّتْ على أهل بيت النبوّة ﷺ.

***

## خلاصة سورة عبس

تتلخّص معانيها في أمور:

الأمر الأوّل: بيان واقعة حقيقيّة يتصوّر فيها منهاجان، منهاج مَن ليس له أهليّة للدّعوة الإسلاميّة مع أنّه يجتهد ويجدّ؛ كي يضع نفسه موضع صاحب الرّسالة الإلهيّة، ومنهاج صاحب الرّسالة ومَن يتبعه في منهاجه وسبيله.

والواقعة هي تفاصيل ما جرى على الأعمى الفقير في مجلس صاحب الرّسالة، وكان فيه عثمان بن عفّان الأموي يتعزَّز بهذا المجلس وبانتسابه بالإسلام وبالرسول ﷺ مستأكلاً بهما، يريد زيادة الإستئكال بالتصدّي لتزكية النّاس مع عدم تزكية نفسه، فلذا عبس وتولّى عندما رأى الفقير الأعمى الذي كان يخشى ولعلّه يتزكّى، لكنّ مَن استغنى عن الإسلام لغناه وشرفه في الكفّار وعشيرته فكان إليه يتصدّى، مع أنّه ما عليه أن لا يزّكّى.

الأمر الثاني: تُبَيِّنُ السورة عدم لياقة مَن كان منهاجه العبوس في وجه المؤمن، والإنبساط والبِشْر في وجه الكافرين والفاسقين، راجياً الحطام

وليتعظّم بقوّتهم ويتعزّز بهم لِما يرى فيهم من العَظَمَة والعزّة، مع أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون، فمَن كان هذا منهاجه فلا يصلح لزعامة المسلمين والتصدّي لهداية المنحرفين، فالفاقد للكمال لا يهب الكمال لغيره، ولا أنّه قادرٌ على إصلاح غيره، إذ فاقد الشيء لا يعطيه.

الأمر الثالث: بيان أنّ الرّسالة الإلهية والدَّعوة الإسلاميّة بأيدي سفراء الله الذين جعلهم الله تعالى واسطة بينه وبين خلقه، وهم كرامٌ بَرَرَة، ودعوتهم رفيعة مرفوعة مطَهَّرَة عن كلّ قذارة أخلاقيّة... فسبيله سبيل التذكرة والتزكية والطّهارة والكرم والبِرّ، وهذا سبيل خلفائه الميامين الأنوار المطَهَّرين، ومَن يأتمر بأوامرهم وينتهي عن زواجرهم، وكلّهم سفراء الله تعالى إلى خلقه لكونهم سفراء الحجج الإلهيين الذين هم سفراء الله تعالى بلا واسطة مخلوق، بل هم الواسطة بين الله تعالى وخَلْقِهِ حتى الملائكة المقرَّبين ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

إنّ سُبُلَ الأنبياء والأولياء ﷺ هي الطّهارة والصّدق واليقين والبصيرة، وكذا أتباعهم يعكسون عن ساداتهم ومعلِمِيهم: الصدق، والطهارة، والبصيرة، والوفاء، واللِّين، والرّحمة، والرّأفة، والحِلْم، والعلم، والأناة، والسّكينة، والوقار...

أمّا أتباع فرعون والشاطين وهامان ونمرود، فشيمهم وأخلاقهم: الفرعنة والتهوُّر، والطَّيش، والحقد، والشّك، والرِّجس والدَّنَس...

الأمر الرابع: يأمر الله عزّ جلاله وعَظُمَ سلطانه بأنْ ينظر كلُّ إنسانٍ إلى طعامه وما يستمدّ منه في حياته من المآكل والمشارب والعلوم والمعارف، وعمَن يأخذ كلَّ هذا، فعليه أنْ يحَصِّلَ الطعام الطيب الزكي الطاهر من المصدر

الطيِّب الزكي الطاهر ـ لا من غيره ـ فإنّ الطعام هو العمدة في طريق هداية الإنسان وتزكيته أو ضلالته.

فهناك طعامان: طعام الجسم من ألوان ما يخرج من الأرض من الحبوب والبقول والفواكه، وطعام الرّوح من العلم والتزكية والتربية والمعارف... وكلٌّ منهما إنما يفيد على فرض سلامته وعدم فساده وعدم امتزاجه بالسموم والآفات.. فلينظر حينئذٍ الإنسان إلى حقيقة طعامه، وحقيقة مَنْ يأخذ منه الطّعام المادّي والرّوحي، فلا يكون طليقاً في انتخاب الطّعام، وانتخاب مصدره، لأنّ ذلك يعود بالضرر على صحّته الجسميّة والرّوحيّة والفكريّة..

الأمر الخامس: إنّ المسلم المؤمن عليه أنْ يتخذ أولياءَ الله تعالى قدوةً له في أفعاله وأقواله، كما عليه أنْ يتخذ أصدقاءه وأحباءه وأولياءه من المسلمين المؤمنين لا من المخالفين والمنافقين والفاسقين، وأنْ يبذل في ذلك ما عنده من التكريم والتعظيم والبرّ والصّلة... فالمسلم المؤمن هو الذي يوجه قلبه إلى المسلم المؤمن الطيب الحليم الصبور، للمواصلة الحقيقيّة التي بينهما في العقيدة والإيمان، وعلى ذلك يحشر النّاس يوم القيامة أفواجاً زُمَراً لا على القرابة في النسب إذا لم تكن مقترنة بقرابة العقيدة والإيمان ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، يعني لا أنساب بين مَن يتباعدون عنه في العقيدة والإيمان إلاّ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]، وكذا الأمر في الصداقة ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٧ ـ ٥٨].

فمَن اتخذ سبيلاً غير سبيل المؤمنين لا يجوز أنْ يتسنَّم زعامة المسلمين؛ لأنّ التخلُّقَ بأخلاق الكافرين والجاهليين يستلزم الرُّكُون إلى الظالمين بأخلاقهم وأفعالهم، وقد نهى القرآن الكريم عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، ومَن كان من أهل النّار كيف يجوز أنْ يقود عامّة المسلمين؟!

فسبيل الرّسول والمؤمنين هو أنْ يكونوا أشدّاء على الكفّار، رحماء بينهم، وكلّ مَن لم يتخلّق به هو من المنافقين ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

الأمر السادس: إنّ السّورة تُعطي ضابطة كلّيّة وقاعدة عامّة أنّ مَن غلب عليه رين الطبع والقلوب لا يصلح أنْ يكون داعية إلى الله تعالى ولا أنْ يضع نفسه في مقام الدّعوة لخطورة المقام وخطورة التلبُّس به فيقلب الحلال إلى حرام، والحرام إلى حلال، فمَن أراد تنصيب نفسه لخدمة الشريعة، عليه أنْ يبدأ بنفسه أوّلاً ثمّ بمَن يعول، ثمّ الآخرين. . .

فمَن سلك طريق العابس المذكور وأخذ بمنهاجه في التقطيب في وجوه المؤمنين وإذلالهم وتحقيرهم وتضعيفهم ـ لا سيّما الفقراء والعميان والمرضى

منهم ـ يكون من أعوان الباطل، وينطبق عليه عناوين إحياء البدعة وسنّ السُّنَّة السيِّئة فله وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

# خاتمة البحث

حاصل البحث أنّ العابس هو عثمان بن عفّان وليس رسول الله ﷺ للقرائن القطعيّة المتصلة والمنفصلة من داخل السورة ومن خارجها، بواسطة الأدلة العقليّة والنقليّة التي تُنَزِّه الدُّعاة المرسَلين عن كلّ وصمة عارٍ ورعونة خُلُقٍ.

مضافاً إلى عدم وضوح دليل يثبت العبوس لرسول الله ﷺ، مع أنّهم يستنكرون نسبته إلى علمائهم وساداتهم وكبرائهم، فكيف يجوز لهم نسبته إلى نبيّ الرّحمة حبيب الله وصفيّه ﷺ..؟!

وما ادّعاه المخالفون بروايةٍ جعلوها من المُسَلَّمَات التي لا يجوز طرحها أو رميها بتشكيكٍ، وكأنها وحيٌ مُنْزَل من عنده عزّ وجلّ هذه الرّواية الضعيفة سنداً ودلالةً لا يمكن قبولها لمعارضتها للأدلّة القطعيّة الدّالة على طهارة وقداسة النبي الأكرم ﷺ.

إنهم لم يرعوا كيانَ أعظم شخصيّة في تاريخ الإنسانيّة... لقد جهلوا، بل تجاهلوا مَلَكَة القداسة التي كان يتصف بها النبي محمّد كغيره من الرُّسُل والأولياء ﷺ عدا عن مبدأ الرّأفة والرّحمة الكائن في أعماقه ﷺ، حيث إنّ الإتصاف بهما ـ أي الرأفة والرّحمة ـ من أوليات الشروط الرساليّة ومن صميم الخُلُق الرّفيع، أفهل يتركها الرّسول الكريم فيعامل مؤذنه الضرير بهذه الفظاظة

والغلظة فيطرده فيكون من الظالمين الفاسدين والتاركين لأوليات شروط الدّعوة والتبليغ؟! أمن المنطق والعدل والعقل أنْ يُهْتَك النبي الكريم ويُفتك به هكذا، ذوداً عن فرع من فروع الشجرة الملعونة في القرآن. . !!

وما هذا التجَرُّؤ سوى تعصُّباً أعمى وعدم مبالاةٍ واكتراث بشأن رسول الرحمة ﷺ.

والخلاصة: إنّ المخالفين اعتمدوا على مدَّعاهم بوجهَيْن لا ثالث لهما:

الأوّل: سياق آيات سورة عبس.

الثاني: الأخبار الدالة على أنّ العابس هو النبي ﷺ.

أمّا سياق الآيات فقلنا إنّه ليس بحجّة شرعيّة يُعْتَمَد عليها لا سيّما وأنّ في الآيات زجرٌ عنيف لا يجوز إلصاقه بالنبي الكريم، مضافاً إلى منافاة السياق ـ على فرض القول به ـ لسياق الآيات الأخرى الدالة على خُلُقِهِ الرّفيع وعصمته المطلَقَة، فتقديم السياق الأول على الثاني ترجيحٌ بلا مرجِّح عقلي أو نقلي وهو قبيح شرعاً وعقلاً.

وأمّا الإستدلال بالأخبار فباطلٌ بوجوه:

الأوّل: ضعف رواتها، وهم كلّهم من غير ثقاتنا الأجلاّء أصحاب أئمتنا الأطهار عليهم السلام، فقد رويت من طرق المخالفين والرشد في خلافهم.

الثاني: إختلاف متونها واضطرابها وتشويشها، فتسقط عن الإعتبار والحجية.

الثالث: منافاتها لخُلُق النبيّ الأكرم الموصوف باللين والرّحمة مع المؤمنين بل وحتى مع المنافقين من أصحابه في بعض الأحيان.

الرابع: منافاتها لعصمة النبيﷺ كغيره من الأنبياء، فتفرده بخلاف الطهارة والعصمة، خرقٌ لقانون العصمة التي اتصف بها عامّة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

الخامس: مخالفتها للبراهين والأدلّة العقليّة القطعيّة القاضية بقبح صدور المنفِّرات عن سيّد الرُّسُل محمدﷺ كغيره من المعصومين عليهم السلام.

السادس: مخالفتها ومعارضتها لما جاء في أخبارنا المقدَّسة.

السابع: إنّ السورة ظاهرة في غير النبيﷺ، وهذه الأخبار ظاهرة في النبيّ، فلا يجوز تقديم الخبر الظاهر فيه على غير الظاهر فيه من الآيات، لاستلزامه تقديم الخبر الشاذ على القرآن ونسخ الخبر للقرآن وهو غير جائزٍ.

إنْ قيل: إنّ هذا تفسير لسورة عبس وليس نسخاً!

قلنا: يشترط في التفسير توافقه مع ظاهر الآيات، كما يشترط للخبر المفسِّر أو الموضِّح أنْ لا يعارض الأسس والأصول التي تبتني عليها شخصيّة الرسول المرسَل، وكِلاَ الأمرين ـ أي توافق الخبر مع ظاهر الآيات وعدم معارضته للأسس ـ غير متوفرين في الأخبار المذكورة.

وبعبارة أخرى: يُشتَرَط في الخبر المفسِّر توافقه مع ظاهر الآية والأدلّة الدالة على عصمة النبي، وهذا المورد خارج عمّا ذكرنا، فلا يعتبر ـ إذاً ـ تفسيراً بل هو إبطال لمعاني الآيات عن مسارها الصحيح، وتعطيل لأحكامها الخاصة بمَن نَزَلَت فيه وهذا عين النسخ والتحريف، وقد نهى الله عزّ وجلّ عن ذلك بقوله تعالى:

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ١٣].

وبهذا يظهر ضعف ما ذهب إليه المخالفون من كون العابس هو النبي ﷺ، فيثبت خلافه وهو أنّ العابس عثمان بمقتضى القرائن التي أشرنا إليها خلال البحث، لا سيّما ما ورد من الأخبار عن أهل بيت العصمة والطّهارة ﷺ من أنّ العابس عثمان بن عفّان الأموي، هذه الأخبار المعتضدة بالوجوه العقليّة والتاريخيّة والنقليّة الدالة على فظاظة عثمان وسوء طبعه، ليس فقط مع الفقراء بل حتى مع عائشة وغيرها من الصحابة الذين لم يتفق معهم لأمور اقترفها فثاروا عليه فقتلوه، وليس عثمان الوحيد في سوء طبعه، بل سبقه إلى ذلك زميلاه المقرَّبان إليه: أبو بكر عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطّاب[1]، بل إنّ التاريخ يقصُّ علينا الفظائع من منكَرات عمر وما جرّه على الأمّة من ويلاتٍ لا زلنا نتجرَّع منها الغصص حتى يظهر القائم بأمر الله تعالى وليّ أمر المسلمين بقيّة الله في الأرضين مولانا الإمام الحجّة المهدي (عجَّل الله تعالى بفرجه الشريف) جعلنا الله عزّ وجلّ من أعوانه وأنصاره والطالبين بثأره بحقّ الحقّ والقائل بالصدق سيّد الرسل محمّد وعترته الميامين، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) والد عمر ليس بهذا الإسم بل هو «حطّاب»، لكنّ عمر بدّله إلى «خطّاب» يبتغي بذلك السُّمعة الجيّدة وذلك لوجود فَرْقٍ بين خطّاب وحطّاب، وكذا أبو بكر كنّى نفسه به وهجر اسمه «عتيق» لسماجته بخلاف الكنية «أبو بكر» إذ كانت لرجلٍ صالحٍ في جزيرة العرب يومذاك.

# الفهرس

## الفصل الأول وفيه نقاط

## الفصل الثاني شبهات واهية والإيرادات عليها

## الفصل الثالث



## الفصل الرابع